

دورية نصف سنوية علمية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية
A Bi-annual Peer-reviewed Journal for Historical Studies

العدد 20 - شباط/ فبراير 2024
Issue 20 - February 2024

p-ISSN 2410-0870 | e-ISSN 2789-3251



جميع المراسلات باسم رئيس التحرير على العناوين التالية:

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، شارع الطرفة، منطقة 70، وادي البنات، الظعاين، قطـر
هاتف: 40356888 - 00974 | فاكس: 44831651 - 00974

أو على البريد الإلكتروني للمجلة ostour@dohainstitute.org





دورية نصف سنوية علمية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية
A Bi-annual Peer-reviewed Journal for Historical Studies

العدد 20 - شباط/ فبراير 2024

Issue 20 - February 2024

لا تعبِّر آراء الكتَّاب بالضرورة عن اتِّجاهات يتبنَّاها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies







Contents المحتويات







دراسات
Articles





التسلم Received
19-10-2022

التعديل Revised
21-10-2023

القبول Accepted
15-11-2023

الرقم التعريفي: DOI: https://doi.org/10.31430/VNAR2995

أحمد صاري | Sarri Ahmed*

المدارس الرسمية الثلاث في الجزائر: التوجه والأهداف والتطور (1850-1951)

France's Madrassas: Education as Mediator in Colonial Algeria (1850-1951)

أقدمت السلطات الاستعمارية في الجزائر، بعد عشرين سنة من الاحتلال، على تأسيس ثلاث مدارس عليا في كلّ من قسنطينة والجزائر وتلمسان، ووضعتها تحت إشراف الحكومة ورقابتها؛ من أجل إعداد مرشّحين للوظائف المرتبطة بشؤون العبادة والعدالة والتعليم "الأهلي" العامّ و"المكاتب العربية". ومن مبرّرات إنشاء هذه المدارس أنّ فرنسا وجدت نفسها، بعد احتلالها الجزائر وشروعها في تغيير بناها الثقافية والاجتماعية، غير قادرة على تأطير المجتمع وإدارته، لذلك أرادت تكوين نخبة جديدة تكون حلقة وصلٍ بينها وبين الجزائريين. فهل حقّقت هذه المؤسسة، التي عمّرت قرنًا كاملاً (1850-1951)، الأهداف المنتظرة منها؟ وهل تمكّنت، بعد عديد "الإصلاحات"، من سدّ الفجوة بين فرنسا والجزائريين؟ وهل أدّى خرّيجوها دور الوسيط الذي رُسِم لهم؟ في الواقع، كان لتناقض السياسة الاستعمارية بين دعاة الإدماج وأتباع فكرة "المملكة العربية"، في أوساط العسكريين والمدنيين، أثرٌ في مصير هذه المؤسسة التي نافسها التعليم العامّ عندما انفتح تدريجيًّا أمام الجزائريين إلى المستوى الجامعي.

كلمات مفتاحية: الجزائر، فرنسا، الإسلام، السياسات الاستعمارية، التعليم.

Twenty years after they occupied Algeria, French colonial authorities established three madrassas (Islamic religious schools) in each of the country's three main cities: Algiers, Constantine and Tlemcen. These schools were placed under the direct supervision and control of the colonial authorities, and their purpose was to prepare candidates for jobs related to worship, justice, education and the "Arab offices". This move was partly motivated by the fact that after occupying Algeria and attempting to transform its cultural and social structures, France found itself unable to control and manage society. The colonial government therefore wanted to form an elite that would be a link between itself and the Algerian Muslim community. This paper examines whether these madrassas, which existed for over a century (1850-1951), fulfilled their intended role as a bridge between France and Algerian society. Contradictions in colonial policy, particularly the tension pitting advocates of integration against officials, both military and civilian, who promoted the idea of an "Arab Kingdom", had a decisive impact on the fate of these institutions. The schools also faced competition from public education as it gradually became available to Algerians, up to university level.

Keywords: Algeria, France, Islam, Colonial Policy, Education.

* أستاذ التاريخ المعاصر، جامعة أم البواقي، الجزائر.
Professor of contemporary history, Oum El Bouaghi University, Algeria.
ahsarri@hotmail.com



مقدمة

من المبرّرات العديدة، التي قدّمتها فرنسا حينما احتلت الجزائر، أنّها جاءت في "مهمة حضارية" من أجل إنقاذ الجزائريين من "التخلّف"، لذلك أقدمت مباشرة بعد الاحتلال على تأسيس مدارس للتعليم من أجل الاستجابة أولًا لمتطلّبات المجتمع الاستعماري الجديد الذي نشأ في الجزائر، وتمكين قلّة من الجزائريين من هذا التعليم، في محاولة منها لتبرير احتلالها أمام الدول الأوروبية وإقناع معارضيها بمهمّتها الحضارية[1]. وقد كان التعليم الفرنسي الموجّه إلى الجزائريين، على قلّته، خاضعًا لأهداف الاستعمار في حدّ ذاته[2]؛ إذ تفطّن الفرنسيون إلى أهمية التعليم في بسط نفوذهم بين الجزائريين وربط الجزائر بفرنسا، فبعد الغزو العسكري فكّروا في غزو العقول، وذلك بنشر تعليمهم وثقافتهم بواسطة المدارس التي شكّلت طوال الفترة الاستعمارية الوسيلة الأساسية لإدماج فئة من الجزائريين وفرنستهم.

إلى جانب التعليم الإعدادي والثانوي، لجأت فرنسا، بعد عشرين سنة من الاحتلال، إلى تأسيس ثلاث مدارس سمّيت أحيانًا "المدارس الرسمية" أو "المدارس الحكومية"، لوقوعها تحت الإشراف المباشر للحكومة "العامّة"، وسمّيت أحيانًا أخرى "المدارس الشرعية". أمّا في النصوص الرسمية المنظّمة لهذه المدارس، فقد اختلفت تسميتها في البداية من نصّ إلى آخر؛ إذ سمّيت "المدارس العليا الإسلامية" Ecoles Supérieures Musulmanes في المرسوم المؤسس لها في 30 أيلول/ سبتمبر 1850، ثم عرفت في قرار 16 شباط/ فبراير 1876 حرفيًّا بتسمية "المدارس" Médreças، وظهرت بالتسمية نفسها "المدارس" Médersas، في مرسوم 23 تموز/ يوليو 1895، مع اختلاف في النطق والكتابة بالنسبة إلى اللغة الفرنسية. وهذه التسمية الأخيرة هي التي بقيت مستعملة رسميًّا إلى أن جرى تحويل هذه المدارس سنة 1951 إلى ثانويّات مزدوجة اللغة "فرنسية - مسلمة" Lycées Franco-Musulmans. أمّا في الكتابات الفرنسية، فقد سُمّيت "المدارس الجزائرية" Les Médersas Algériennes[3]، أو المدارس الرسمية Les Médersas Officielles[4] لخصوصيتها أو "المدارس" في الصيغة المختصرة Les Médersas. وقد اختلفت النصوص الرسمية في تصنيف هذه المدارس، فاعتبرها مرسوم 30 أيلول/ سبتمبر 1850 مدارس عليا في مرتبة الجامعات، في حين صنّفها مرسوم 23 تموز/ يوليو 1895 ضمن التعليم الثانوي.

بناءً على ذلك، تهدف هذه الدراسة إلى البحث عن المبرّرات والأهداف من إنشاء هذه المدارس، وتتساءل: أكان الغرض منها بيداغوجيًّا علميًّا بحتًا لنشر العلم والحضارة، كما كان يدّعي المسؤولون والكتّاب الفرنسيون، أم كان الهدف منها جلب نخبة من الجزائريين إلى جانب فرنسا؟ تذهب كتابات المسؤولين الفرنسيين وتصريحاتهم العلنية منها والسرّية في مجملها إلى أنّ فتح هذه المدارس كان من أجل تكوين أعوان نافذين من الجزائريين يكونون واسطة بين الجزائريين والفرنسيين، ويكون في إمكانهم القضاء تدريجيًّا على ما كانوا يسمّونه "التعصّب الإسلامي"، الذي كان يمثّله كلٌّ من الطرق الصوفية والزوايا والعلماء في القرن التاسع عشر، وهو التيار المعارض لكلّ ما هو فرنسي مسيحي. كما سعت فرنسا إلى مقاومة مدّ الحركة الوطنية، خاصّة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كانت منافِسةً شديدة لهذه المدارس منذ ثلاثينيات القرن العشرين.

---

1 حول معارضة بريطانيا للاحتلال الفرنسي للجزائر العاصمة (1830)، ينظر مثلًا:
Ali Tablit, "British Opposition to the French Expedition Against Algiers (1830)," *Dirassat Insania*, no. 1 (2001), pp. 20-38.

2 على الرغم من صدور قانون 1883 الذي نصّ على إجبارية التعليم ومجانيّته، فإنّ نسبة تمدرس الجزائريين لم تتجاوز في الطور الابتدائي في نهاية القرن التاسع عشر 2 في المئة، ولم تزد في أحسن الأحوال طوال الفترة الاستعمارية (1830-1962) على 8 في المئة. ينظر: عبد القادر جغلول، **تاريخ الجزائر الحديث: دراسة سوسيولوجية**، ط 3 (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية؛ بيروت: دار الحداثة، 1983)، ص 81-103؛
Charles Robert Ageron, *Histoire de l'Algérie Contemporaine*, tome II: *De l'insurrection de 1871 au déclenchement de la guerre de libération (1954)* (Paris: PUF, 1979), pp. 533-543; Guy Pervillé, *Les Étudiants Algériens de l'Université Française 1880-1962* (Alger: Casbah Editions, 1997).

3 Emile Janier, "Les Médersas Algériennes," Centre des Hautes Etude d'Administration Musulmane (CHEAM), 14/5/1948; A. Weiler, "Les Médersas d'Algérie," Centre des Hautes Etude d'Administration Musulmane (CHEAM), 19/12/1941.

4 Alfred Bel, *Note sur l'Enseignement Officiel Arabo-Musulman en Algérie (Mouderrès et Médersas)*, Archives Nationales d'Outre-Mer (ANOM) (1948), côte 14H41.



تكمن أهمية هذا الموضوع في أنّ فرنسا راهنت على هذه المدارس لاستخدامها وسيلةً من وسائل سياستها الاستعمارية للسيطرة على الجزائريين. ومع ذلك، لم يعالَج موضوع هذه المدارس إلّا بصفة جزئية، فقد تناولته إيفون تورين ضمن مسألة التعليم بكلّيّته ومسائل أخرى في كتابها **المجابهات الثقافية في الجزائر المستعمرة: مدارس، طبّ، ديانة،1830-1880**[5]، وهذا الكتاب ليس مخصّصًا للمدارس أو للتعليم فحسب، كما يظهر من خلال عنوانه. وقد تتبّعت المؤلفة، في صفحات معدودة، سياسة الإدارة الاستعمارية وأهدافها من هذه المدارس في فترة الدراسة، التي اقتصرت على السنوات الثلاثين الأولى من وجودها (1850-1880)، في حين أنّ هذه المؤسسات التعليمية قد استمرّت قرنًا من الزمن (1850-1951)، وتأثّرت نتيجةً لذلك بتطوّرات السياسة الاستعمارية الفرنسية، وبظهور الحركة الوطنية الجزائرية. أمّا المساهمة الثانية في هذا المجال، فهي للباحثة وناسة طنقور، من خلال دراستها "نهاية المدارس أو سبب مغامرة استعمارية: تلمسان وقسنطينة 1850-1880"[6]، وهي دراسة غير منشورة مكوّنة من 14 صفحة، أُنجزت في وحدة البحث والأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية في جامعة وهران، وهي غير مؤرّخة (قد تعود إلى سنة 1986). وذكرت الباحثة أنّ دراستها ملفٌّ مفتوح أكثر من كونها دراسة مكتملة حول مسألة المدارس في القرن التاسع عشر، وأنها توقّفت عند سنة 1880، واكتفت بالتطرّق إلى مدرستَي تلمسان وقسنطينة، لعدم حصولها على أرشيف يخصّ مدرسة الجزائر[7]. في حين تناول أبو القاسم سعد الله موضوع المدارس الثلاث في كتابه **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الثالث، في إطار تطرّقه إلى التعليم الفرنسيّ في الجزائر بصفة عامّة[8]. وقد ركّز خاصّة على السنوات الأولى لهذه المدارس والإصلاحات التي عرفتها مع ذكر أهمّ المدرّسين الذين تعاقبوا عليها.

أمّا دراسة كمال خليل فهي بعنوان: "المدارس الشرعية الثلاث في الجزائر: التأسيس والتطوّر 1850-1951"[9]، وهي رسالة ماجستير نوقشت تحت إشرافنا في جامعة منتوري بقسنطينة سنة 2008، وهي أوّل دراسة شاملة في حدود علمنا حول هذه المدارس. وقد تناول صاحبها تأسيس هذه المدارس ومختلف التطوّرات التي عرفتها، وموقف "النخبة المدرسية" من مختلف القضايا التي عاصرتها، والدراسة غير منشورة إلى الآن. ومن الطبيعي أنّ موضوعًا كهذا يحتاج إلى الاطّلاع على الأرشيف الخاصّ بهذه المدارس والموجود في أغلبه في أرشيف ما وراء البحار في آكس أون بروفانس Aix-En-Provence في فرنسا. أمّا الدراسة الأخيرة، فهي أطروحة دكتوراه للطالب عبد الوهاب حيمر[10]، وموضوعها: "طلّاب المدارس الشرعية: المسار العلمي والعملي (1850-1962)"، وهي غير منشورة، ونوقشت في نهاية حزيران/ يونيو 2022، وتناولت الدراسة مسار طلبة هذه المدارس كما يبدو من عنوانها، وتضمّنت محتوياتها: تطوّر هذه المدارس على مدى قرن (1850-1951)؛ بدءًا بالمسار البيداغوجي لطلبة المدارس الثلاث، ثمّ المسار المهني والمواقف النضالية لهؤلاء الطلبة في الحركة الوطنية والثورة التحريرية.

من هذا المنطلق، ولاعتبارات عديدة أخرى، منها على وجه الخصوص اطّلاعنا في الأرشيف الفرنسي على مجموعة من التقارير والدراسات لأساتذة ومديرين سابقين في هذه المدارس أو لمفتّشين وإداريين، جاءت مساهمتنا هذه لدراسة إحدى المؤسسات التعليمية الفرنسية "المميزة" التي أسّستها فرنسا في الجزائر، وهي تختلف كل الاختلاف عن باقي أنماط التعليم الفرنسية الأخرى؛ فلا هي

5 Yvonne Turin, *Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale: Écoles, médecines, religion, 1830-1880* (Alger: Entreprise Nationale du Livre, ENAL, 1983).

6 Ouanassa Tengour, "La fin des Médersas ou la raison d'une aventure coloniale: Tlemcen et Constantine 1850-1880," Unité de Recherche en Anthropologie Sociale et culturelle (URASC), Université d'Oran (n. d.).

7 Ibid., p. 1.

8 أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 3 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998).

9 كمال خليل، "المدارس الشرعية الثلاث في الجزائر: التأسيس والتطور 1850-1951"، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 2008.

10 عبد الوهاب حيمر، "طلاب المدارس الشرعية: المسار العلمي والعملي (1850-1962)"، أطروحة دكتوراه، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة، 2022.



فرنسية كاملة مثل الثانويات، ولا هي عربية - إسلامية مثل الأزهر أو الزيتونة أو القرويّين. ثمّ إنّ فرنسا لم تؤسّس مثيلًا لها في البلدان المجاورة - لا في تونس ولا في المغرب - بعد احتلال كل منهما في سنة 1881 وسنة 1912 على التوالي، فهل يعود السبب في ذلك إلى وجود الزيتونة والمدرسة الصادقية في تونس والقروين في المغرب؟ أما النموذج التعليمي الوحيد الذي يشبه هذه المدارس في الجزائر، فهو متمثل في ما أسّسته فرنسا في أفريقيا الغربية "الفرنسية"، خاصّة مدارس "بوتلميت" و"أطار" و"كيفة" في موريتانيا، التي تولّى خمسة من الأساتذة الجزائريين المتخرّجين في القسم العالي في مدرسة الجزائر مهمة الإشراف عليها في الفترة 1920-1947[11].

عرفت هذه المؤسسات التعليمية، التي كانت تنتظر منها فرنسا تكوين نخبة مزدوجة الثقافة، عربية - فرنسية، العديد من الإصلاحات، وهو ما يؤدّي إلى طرح تساؤلات، يتعلّق أولها بفكرة تأسيس هذه المدارس الشبيهة بالمدارس الإسلامية القديمة. فهل أرادت فرنسا أن تظهر على أنّها وريثة الدول الإسلامية التي سبقتها؟ وهل تمكّنت هذه المدارس من سدّ الفجوة ما بين فرنسا والجزائريين؟ وما تأثير أساتذة هذه المدارس وطلبتها في مجتمعهم؟ وما دورهم في مرحلتي الحركة الوطنية والثورة التحريرية؟[12]

أولًا: تأسيس المدارس الثلاث: الفكرة والأهداف

تؤكّد العديد من الشهادات أنّ الجزائر عرفت مدارس عديدة قبل عام 1830، وأنّ أغلبية المساجد الكبرى كانت تشرف على مدارس تتولّى ما يقابل في عصرنا التعليمين "الثانوي" و"العالي". ويذكر أبو القاسم سعد الله أنّ الفرنسيّين وجدوا في تلمسان عند احتلالها مدرستين هما مدرسة الجامع الكبير ومدرسة أولاد الإمام، ثمّ وجدوا سبع مدارس في قسنطينة، والأمر نفسه يقال عن مدينة الجزائر[13]. وقد استولى الفرنسيون على العديد من هذه المدارس وحولوها إلى مخازن للجيش أو إلى أغراض أخرى[14].

وبعد عشرين سنة من الاحتلال وتجاهل التعليم العربي، أقدمت السلطات الاستعمارية في الجزائر، في إطار "تنظيم التعليم العامّ للمسلمين"، على إنشاء ثلاث "مدارس عليا إسلامية"، مستوحية الفكرة من تجربة المدارس الإسلامية السابقة، بل اعتبرتها استمرارًا وتعويضًا للمدارس التي كانت تتولّى الدراسات العليا الإسلامية[15]. ويظهر ذلك من خلال الحيثيات التي ساقها المشرفون على هذه المدارس ودافعوا عنها في مختلف المنابر، ومن خلال النصوص المُؤسّسة لها؛ فقد نصّ مرسوم 30 أيلول/ سبتمبر 1850 على ما يلي: "نظرًا لتقهقر المدارس التي كانت تتابع بها الدراسات العليا الإسلامية والتي وحدها يمكنها تخريج مرشحين لمناصب، المفتي، القاضي، الإمام، الخوجة، وغيرها من الوظائف المخصصة للأهالي في المصالح الإدارية بالجزائر [...] تؤسس على حساب الدولة في كل من مدن المدية، تلمسان وقسنطينة، مدرسة عليا (مدرسة) من أجل تكوين مرشحين للوظائف المرتبطة بمصالح

11 Brahim Benmoussa, "Médersiens Algériens Directeurs de Médersas en Mauritanie, un Transfert Transsaharien Méconnu," in: *Carrefours Sahariens: Vues des Rives du Sahara* (Alger: CRASC, 2016), pp. 291-300.

12 للمزيد حول هذا الموضوع، ينظر: حيمر.

13 سعد الله، ج 1، ص 275-276.

14 المرجع نفسه، ص 282، 284.

15 يذهب أغلب من تناولوا موضوع المدارس الإسلامية إلى أنّها ظهرت في أواخر القرن الثالث الهجري تعبيرًا عن الحاجات الاجتماعية المستجدّة في المجتمع. وكانت المدارس الأولى جزءًا من المساجد، واحتاجت إلى أكثر من قرن من الزمن حتى استقلّت عن المساجد. وقد عرفت مؤسسة المدرسة في القرون اللاحقة تطوّرًا كبيرًا، حيث ظهرت في المشرق ثم انتقلت إلى المغرب والأندلس، وكانت لكلّ سلطة حاكمة مدارسها الخاصة، وكانت هذه المدارس سابقة لظهور الجامعات. ينظر في ذلك: ناجي معروف، **نشأة المدارس المستقلة في الإسلام** (بغداد: مطبعة الأزهر، 1966)؛ رضوان السيّد، "حوارية الجامع والمدرسة والجامعة"، **الفكر العربي**، العدد 20 (آذار/ مارس-نيسان/ أبريل 1981)، ص 4-10؛ هاينز هالم، "أصول المدرسة في الإسلام"، **الفكر العربي**، العدد 20 (آذار/ مارس-نيسان/ أبريل 1981)، ص 11-17؛ محمّد فرحات، "المدرسة الإسلامية خارج المسجد، البدايات والوظيفة والعلم: ثلاثة كتب للدكتور ناجي معروف"، **الفكر العربي**، العدد 20 (آذار/ مارس-نيسان/ أبريل 1981)، ص 425-429؛ عبد العزيز لعرج، "المدارس الإسلامية: دواعي نشأتها وظروف تطوّرها وانتشارها"، **دراسات إنسانية** (جامعة الجزائر)، العدد 1 (2001)، ص 112-124؛ عبد العزيز لعرج، "مدرسة العباد (سيدي أبي مدين): نموذج للمدارس الإسلامية بالمغرب العربي"، **دراسات إنسانية** (جامعة الجزائر)، العدد 2 (2002)، ص 129-157.



العبادة، العدالة، التعليم العام للأهالي والمكاتب العربية"[16]. وإضافة إلى ذلك، أقيمت هذه المدارس بمحاذاة المساجد، وعلى أنقاض مدارس قديمة؛ شأن المدرسة الكتّانية في قسنطينة، والثعالبية في مدينة الجزائر، وسيدي بومدين في تلمسان. واتّبع في البداية النظام التعليمي السابق نفسه، بعيدًا عن النظام المطبّق في المدارس والمعاهد الفرنسية آنذاك.

وإذا كان هناك من يرى أنّ هذه المدارس اختراعٌ فرنسي بحت، ولا علاقة لها بالمدارس الإسلامية التي كانت، وما زالت، منتشرة في أنحاء البلدان الإسلامية، فعلى خلاف ذلك هناك من يعتقد أنّها محاولة من السلطات الاستعمارية لإيجاد حلّ وسط بين التعليم التقليدي والتعليم العصري الفرنسي، بتوظيف مؤسّسة عتيدة ومعروفة لإدخال تكوين مزدوج اللغة وإعداد موظّفين للسلك الديني والقضائيّ قادرين على القيام بدور النخبة والقاطرة المنتظر منهم أن يكونوا وسيطًا بين فرنسا والشعب الذي احتلّته. ويرى فريق ثالث أنّ فرنسا، بعد "تعويضها" الأتراك في الجزائر، لم تقم إلّا بواجبها، مثل الأمراء والملوك في القرون الوسطى والعهد العثماني، وذلك بتأسيس مدارس للتعليم العالي "تخليدًا لحكمها".

ومن المرجّح أنّ إسماعيل عربان (1812-1884)، المستشرق الفرنسي والخبير بقضايا المستعمرات والمطّلع على خبايا التعليم العربيّ الإسلامي[17]، والقريب من نابليون الثالث (1808-1873)[18]، هو من كان وراء اقتراح تأسيس هذه المدارس؛ ففي تقرير له "حول التعليم الإسلامي العامّ"، مؤرخ في سنة 1848، وبعد أن أعطى لمحة تاريخية عن التعليم في الجزائر قبل الاحتلال، اقترح إعادة إحياء التعليم العربي، ومن ضمنه نظام "المدارس" وجلب أساتذة أكفاء حتى إن كانوا من تونس أو مصر، يجري "اختيارهم بعناية". وقد أخذ اقتراح عربان، في ما يخصّ المدارس، طريقه إلى التنفيذ بعد سنتين من ذلك لوجود نابليون الثالث في الحكم (1848-1870)، الذي تبنّى ما يسمّى سياسة "المملكة العربية"[19]. ويؤكّد أحد المهتمّين بعربان أنّه "أعدّ وعمل على إمضاء القوانين التشريعية المتعلّقة بموظّفي المساجد على نفقة ميزانية الجزائر (و)أنشأ المدارس العربية - الفرنسية وثلاث مدارس عليا إسلامية"[20].

وقد قدّم لاحقًا مدير أكاديمية الجزائر، أردايّون Ardaillon، المبرّر نفسه فيما يتعلّق بإنشاء المدارس؛ ففي تقرير له سنة 1924، يذكر أنّ الفرنسيّين لم يجدوا بعد الاحتلال الأشخاص الضروريين لإدارة البلد، بعد اختفاء الأساتذة وتفرّق الطلبة الذين التحقوا بالزوايا المستقلّة والبعيدة عن أيّ رقابة، ولذلك بدأت شيئًا فشيئًا فكرة إعادة إحياء المدارس القديمة التي تقهقرت وانقرضت بعد الاحتلال، من أجل تكوين سلك من موظفي العدالة والشؤون الدينية، وهو ما حقّقته الحكومة سنة 1850[21]. يظهر من كلام مدير أكاديمية الجزائر، أنه تجاهل مسؤولية فرنسا في تقهقر التعليم وإضعافه بسبب السياسة التي اتبعتها سلطات الاحتلال، من غلقٍ للمدارس وتحويلها إلى إسطبلات وثكنات عسكرية وغيرها، وتشريدٍ للمدرسين والعلماء وملاحقتهم، ومصادرةٍ لأملاك الأوقاف التي تتولى رعاية دور الثقافة والعاملين فيها. ثم إنّ الحرب التي استمرت على نحو عنيف ضد الجزائريين طوال القرن التاسع عشر قد أتت على

16 جريدة **المبشر**، 1850/10/15.

17 إسماعيل عربان: مترجم عسكري ومستشار سياسي في مديرية الجزائر بوزارة الحربية الفرنسية. لاقى نتيجة اعتناقه الإسلام وزواجه من مسلمة ودفاعه عن خصوصيات الجزائريين المسلمين صعوبات كبيرة أثناء تأدية مهمّاته. للمزيد، ينظر:
François Pouillon (dir.), *Dictionnaire des Orientalistes de Langue Française* (Paris: IISMM-Karthala, 2008); Michel Levallois, "Une Passion Franco-Musulmane: Ismayl Urbain," in: Mohammed Arkoun et al., *Histoire de l'Islam et des Musulmans en France du Moyen âge à nos Jours* (Paris: Albin Michel, 2006), pp. 636-639.

18 Ismayl Urbain, *Note sur l'Instruction Publique Musulmane*, Archives Nationales d'Outre-Mer (ANOM), Aix-en-Provence (1948), côte 12X71.

19 ينظر في ذلك خاصة:
Annie Rey-Goldzeiguer, *Le Royaume arabe: La politique algérienne de Napoléon III, 1861-1870* (Alger: Société Nationale d'Edition et de Diffusion, SNED, 1977).

20 Levallois, p. 637.

21 Académie d'Alger, *Rapport à Monsieur le Gouverneur Général sur les Médersas: Exposé historique et juridique*, Archives Nationales d'Outre-Mer (ANOM), Aix-en-Provence (Janvier 1924), côte 8X414.



المدارس والمُدرّسين، وهجّرت العديد منهم خارج الجزائر، أو أبعدتهم عن مهمّاتهم الأساسية. وأكبر دليل على ذلك ما حصل مثلًا في مدن معسكر وتلمسان وقسنطينة أثناء الاستيلاء عليها تباعًا في الفترة 1836-1837[22]؛ ولذلك، لا يمكن إنكار مسؤولية الاحتلال عن تردّي وضعية التعليم في الجزائر. وفي هذا الصدد، يذكر أبو القاسم سعد الله أنّ العديد من نخبة المدارس التقليدية (1830-1848) قد هاجروا أو هُجّروا، وتركوا بذلك "فراغًا ثقافيًا كبيرًا"، "وأصبحت البلاد بعدهم بدون نخبة تدافع عن مصالحها الذاتية والحضارية؛ ذلك أن الذين بقوا بعدهم كانوا بدون شخصية علمية قوية"[23]. ومن دون شكّ، كانت السياسة الفرنسية تهدف إلى القضاء على مختلف البنى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وإعادة صياغتها من جديد في إطار سياسة الإدماج التي اتّبعتها.

وللمحافظة، شكليًا على الأقل، على تقاليد المدارس الإسلامية، نصّت المادة السابعة من مرسوم 30 أيلول/ سبتمبر 1850 على جعل مقرّات هذه المدارس قرب المساجد التي كانت تجاورها مدارس مشهورة. وقد حلّت هذه المدارس فعلًا محلّ مدارس قديمة مثل مدرسة العباد - سيدي بومدين – في تلمسان[24]. واختير لمدرسة قسنطينة المقرّ القديم للمدرسة الكتّانية. واختيرت أيضًا الثعالبية[25] مقرًّا لمدرسة الجزائر وعرفت باسمها (1859).

وبشأن اختيار هذه المدن لتكون مقرّات للمدارس، يرجّح بعضهم أنّ اختيار مدينة المدية لاحتضان مدرسة وسط بلاد الجزائر قد جرى بناءً على أنّها كانت عاصمة (بايلك التيطري) سابقًا، وكانت لديها تقاليد اجتماعية وثقافية عريقة[26]، في حين ترجع إيفون تورين سبب ذلك إلى اختلاف في الرؤية ما بين وزير الحربية في باريس ومسؤولي مقاطعة الجزائر العسكريين والسياسيين. فهؤلاء كانوا معارضين لاختيار المدية بسبب بعدها عن المركز، وعن مراقبتهم. أما المسؤول العسكري الأول في باريس، فقد رأى أنّ الهدف من اختيار المدية، بدلًا من مدينة الجزائر، قد كان لتقريب المدرسة من السكان العرب المعنيّين في الأساس بهذا النوع من التعليم، وبسبب "الأهمية السياسية" التي تمثّلها هذه المنطقة، على عكس مدينة الجزائر[27]. وإذا كان أصحاب الرأي الأول لا يفسّرون سبب نقل المدرسة إلى البليدة، فإنّ تورين تفسّر ذلك بالتوصل إلى حلّ توافقيّ بين الطرفين[28]. في حين يبرّر رئيس "المكتب العربي"، في رسالته إلى وزير الحربية سنة 1855، سبب نقل المدرسة إلى مدينة البليدة للتأخر في فتحها في المدية "لعدم توافر مقرّ لائق"[29]. ويبدو أنّ اختيار المدية منذ البداية لم يكن صائبًا، فهذه المدينة الواقعة في منطقة التيطري الوعرة التضاريس والمسالك، حتى إن كانت قد برزت خلال الفترة العثمانية في الجزائر واختيرت عاصمة لبايلك الوسط، لا تمتاز بإشعاع مدن الجزائر وتلمسان وقسنطينة ومكانتها. ويظهر أنّ الغاية من اقتراح المدية لتكون مقرًّا لمدرسة الوسط هي بلوغ شريحة من الجزائريين لا يصل إليها التعليم الفرنسي الذي

---

22 تعرّضت هذه المدن أثناء احتلالها لدمار شامل ونهب لخزائنها المكتبية، ينظر: سعد الله، ج 5، الفصل الثالث: "المنشآت والمراكز الثقافية"؛ جيلالي صاري، "مخطوطات قسنطينة ومصيرها بعد سقوط المدينة في سنة 1837"، مجلة **الثقافة** (الجزائر)، العدد 80 (آذار/ مارس–نيسان/ أبريل 1984)، ص 191-203؛ Abdelhamid Arab, "Les Manuscrits Algériens sous la colonisation française," *Dirassat Insania*, no. 1 (2001), pp. 47-80; Adrien Berbrugger, "Un bibliothécaire en Campagne (1836)," *Revue Africaine*, no. 68 (1927), pp. 107-108.

23 أبو القاسم سعد الله، "مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي 1830-1954"، في: أبو القاسم سعد الله، **أفكار جامحة** (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986)، ص 62.

24 للمزيد حول هذه المدرسة ينظر: لعرج، "مدرسة العباد (سيدي أبي مدين)"، ص 129-157.

25 نسبة إلى الشيخ عبد الرحمن الثعالبي الذي عاش في القرن الخامس عشر الميلادي، وهو ينتمي إلى أسرة الثعالبية التي سيطرت على منطقة الجزائر والمتيجة قبل أن يقضي عليهم الزيانيون. درس في مسقط رأسه ثم في بجاية، ورحل إلى تونس والقاهرة، ودرس في الزيتونة ثم في الأزهر. بعد عودته إلى مدينة الجزائر، أنشأ مسجدًا وزاوية للتعليم، ودفن في هذه الزاوية التي أصبحت محطّة للزيارات. من أهم كتبه: **الجواهر الحسان**.

26 سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 3، ص 371.

27 Turin, p. 247.

28 Ibid., p. 248.

29 *Medersas 1851-1884, Rapport du Conseil de surveillance et de perfectionnement*, Archives Nationales d'Outre-Mer (ANOM), Aix-en-Provence (1855), côte 24S1.



كان قد بدأ في المدن، والسعي لبلوغ الأعماق الريفية واجتثاث بعض عناصرها لإدماجهم في هذا السلك التكويني. وقد جرى تفضيل مدينة تلمسان، مقرًّا لمدرسة منطقة الغرب الجزائري، على وهران التي جرى احتلالها سنة 1831، والمستقطبة للمستوطنين، على الرغم من أنّ تلمسان كانت أقلّ أهمية من الناحية الاقتصادية، ولكنّها في المقابل كانت ذات إرث تاريخي عربي - إسلامي متميز، ولأنّها "تمتاز بكونها كانت عاصمة لسلاطين بني عبد الواد، وبقيت محافظة على تقاليد حياة ثقافية وفنية مزدهرة"[30].

وفي الناحية الشرقية، لم تُطرح مشكلة الاختيار، فقد اختيرت قسنطينة مباشرة، واختيرت المدرسة الكتّانية لتكون مقرًّا للمشروع الجديد. وتعدّ المدرسة الكتّانية من بين إنجازات صالح باي العديدة، فقد شيّدها بمحاذاة جامعه الجديد فوق ضريح الولي سيدي الكتانّي (1188هـ/ 1774م)، وجعل للمسجد وللمدرسة أوقافًا عقارية وتجارية ضمانًا لخدمتهما[31]. ويوجد في صحن مدرسة الكتّانية قبر صالح باي وقبور أفراد من عائلته وبعض العلماء. وفي مقرّ هذه المدرسة العتيقة، التي تقع في حيّ سوق العصر وسط المدينة القديمة، فتح الفرنسيون مدرسة قسنطينة في خريف 1851. وتشتمل المدرسة الكتّانية، التي بنيت على نمط المدارس الإسلامية القديمة، إضافةً إلى قاعات التدريس، غرفًا لمبيت الطلبة ومصلّى تحت تصرّفهم. ومع مطلع القرن العشرين استفادت المدارس الثلاث من مقرّات جديدة. وكانت البداية بمدرسة تلمسان، التي عانت طويلًا مع عدم الاستقرار، بانتقالها سنة 1905 إلى مقرّها الجديد في وسط المدينة. وفي السنة نفسها، حُوّلت مدرسة الجزائر إلى حيّ القصبة السفلى، وبقيت تحمل تسمية الثعالبية. ثمّ تحوّل طلبة مدرسة قسنطينة سنة 1908 من سوق العصر إلى "الشطّ" المطلّ على وادي الرمال، بمحاذاة "مقهى النجمة" الشهير، الواقع في شارع العربي بن مهيدي اليوم. ودار الحديث، في تلك الفترة، حول احتمال إضافة مدرسة رابعة في مدينة بجاية[32]. وبما أنّ مقرّات المدارس القديمة هي التي اختيرت لتكون مقرًّا للمدارس الجديدة، فعلينا أن نتساءل عن مدى الاستمرارية والتجديد في المقرّرات الدراسية ومناهج التدريس المعتمدة؟

انشغلت فرنسا، في السنوات الأولى من الاحتلال، بالقضاء على المقاومات العسكرية الأولى التي خاضها أحمد باي (1831-1848) والأمير عبد القادر (1832-1847)، قبل أن تظهر حاجتها إلى التقرّب من الجزائريين متّخذةً في ذلك العديد من الوسائل، ومن ضمنها التأسيس لتعليم عمومي خاصّ بالجزائريين. وقد برز في هذه الأثناء تيار ينادي بضرورة تعليم الجزائريين بلغتهم وتقاليدهم، ومن أبرز ممثليه إسماعيل عربان الذي لاحظ سنة 1848 أنّ الإدارة الفرنسية، بإبقائها "العرب" في الجهل، تعمل على تقوية "التطرّف" وزيادة أعدائها، وتأسّف على الوقت الذي ضيّعته في ذلك. واقترح إعادة النشاط إلى المدارس القرآنية والمدارس العليا أيضًا، مبرزًا فشل نمط التعليم الفرنسي الموجّه إلى المسلمين: "ذلك لأنّ المدرسة في أعين المسلمين، هي الواسطة التي يتعلّم فيها الأطفال الصلاة ومعرفة الحقيقة الدينية وحبّ كتابهم المقدّس (كذا في النص الفرنسي)"[33]. بينما كان تيّار آخر يرى ضرورة إدماج الجزائريين في نظام التعليم الفرنسي.

---

30 Janier, p. 9.

31 فاطمة الزهراء قشي، **قسنطينة في عهد صالح باي البايات** (قسنطينة: ميديا بلوس، 2005)، ص 69، 72.

32 Maurice Poulard, *L'enseignement pour les indigènes en Algérie* (Alger: Imprimerie Administrative - Gojosso, 1910), p. 310;

بحسب أحد المهتمّين بمسألة تعليم الجزائريين آنذاك، فإنّ اللجنة المالية القبائلية قد عبّرت عن انشغالها بهذا الموضوع في دورات اللجان المالية خلال السنوات 1904 و1905 و1909، مبرّرةً طلبها بالازدهار الثقافي الذي عرفته هذه المدينة في الماضي، وبعزوف كثير من تلاميذ المدارس الابتدائية في بلاد القبائل عن الانضمام إلى مدرستي قسنطينة والجزائر لبُعدهما. وإذا كان هذا المطلب لم يتحقّق، فإننا لا نعرف - في حدود المعلومات المتوافرة لدينا - الأسباب التي قد تكون حالت دون ذلك. وما يمكن أن نقدّمه هنا من تفسير هو أنّ هذه المدارس كانت تتعرض آنذاك للكثير من الانتقادات من جانب الممثّلين الفرنسيين في مختلف المجالس، وحتى من بعض المسؤولين الفرنسيين الذين كانوا يرون فيها عبئًا على الخزينة. ثمّ إنّ إنشاء مدرسة في مدينة بجاية، التي كانت تابعة - من الناحية الإدارية - لعمالة قسنطينة، قد يفتح الباب أمام مدن أخرى للمطالبة بالمطلب نفسه. وزيادة على ذلك، فإنّ الإقبال على هذه المدارس كان متحفّظًا، وبذلك فإنّ إنشاء مدرسة رابعة قد يضعف من عدد المقبلين على مدرستي قسنطينة والجزائر.

33 Urbain, p. 11: "[…] car, aux yeux des musulmans, l'école est le lieu où les enfants apprennent à prier, à connaitre la vérité religieuse et à aimer leur livre sacré."



أمّا المبررات والأهداف التي ساقتها الوثائق الرسمية وتقارير المسؤولين الفرنسيّين فهي أنّ فرنسا، بعد احتلالها الجزائر وشروعها في رسم سياستها التعليمية، لم تجد مؤسسة علمية في مستوى الزيتونة أو القرويين، وواجهت بذلك صعوبات في تأطير المجتمع وإدارته، فأرادت، عن طريق هذه المدارس، تكوين نخبة جديدة في إمكانها أداء دور الوسيط بين السلطات الاستعمارية والجزائريين. ثمّ إنّ خشيتها من تأثير النفوذ الديني والثقافي والسياسي الداخلي، والنفوذ الخارجي المشرقي، جعلها تلجأ إلى إنشاء مؤسسة قد تكون بديلًا من مدارس الزوايا والجامعات الإسلامية المغاربية والمشرقية التي كانت مقصدًا لطلبة العلم الجزائريين. وتشكّل هذه المدارس، التي تولّت الإدارة الفرنسية تسييرها ومراقبتها مباشرة، الضمان الأنجع ضدّ التيارات والأفكار التي تعتبرها معادية للثقافة والسياسة الفرنسيتين. وقد عبّر الحاكم العام جول كامبون صراحة عن ذلك في مجلس الشيوخ، في كانون الثاني/ يناير 1894، بعد أن تعالت بعض الأصوات المطالبة بحلّ هذه المدارس، معترفًا بأنّ فرنسا، بسياستها السابقة، قد قضت على العائلات الكبرى، ولم يبقَ من وسيط "بيننا وبين السكّان الأهالي". وبناءً على ذلك، فهو يرى أن فرنسا يمكن أن تشكّل، بواسطة هذه المدارس، ما يشبه "هيئة أركان إسلامية مثقّفة"[34].

في حين يرى بعض الكتّاب الجزائريين أنّ إنشاء هذه المدارس من جانب المستعمر كان هدفه إبعاد الجزائريين عن إسلامهم و"تكوين أعوان في خدمة أهدافه"[35]، وهو الأمر الذي تكذّبه البرامج التي كانت تدرّس والتوجّه الثقافي والسياسي لأغلب الأساتذة الذين كانوا يتولّون التدريس في هذه المدارس[36]، ويكذّبه أيضًا الواقع الذي كانت عليه هذه المدارس. وما يمكن قوله هو أنّ فرنسا أرادت عن طريق هذه المدارس تكوين نخبة من الجزائريين المسلمين في إمكانها أن تشكّل واسطة بينها وبين الشعب الذي أخضعته.

وحتى تكتمل سيطرة السلطات الاستعمارية على شؤون العبادة وتُحكم قبضتها على إدارة شؤون الأهالي، خصّصت الوظائف الرسمية، من شؤون العبادة والقضاء والتعليم العامّ "الأهلي" والمكاتب العربية، للمتخرّجين في هذه المدارس دون سواهم، ومنعت غيرهم من المتخرّجين في الزوايا والجامعات والمعاهد المشرقية، والمتخرّجين في المدارس الحرّة في ما بعد، من الحظوة بهذه الوظائف، وهو ما أكّده الحاكم العامّ في خطابه السابق الذكر عندما أوصى بألّا يتولّى أيّ أحد من غير الحاصلين على شهادات المدارس، الوظائف العامّة الإسلامية المتعلقة بالقضاء وبشؤون العبادة[37]، وأكّدته الإصلاحات اللاحقة. فما هذه "الإصلاحات" التي أدخلتها فرنسا على هذه المدارس طيلة وجودها؟ وهل حقّقت ما كان منتظرًا منها؟

ثانيًا: التنظيم الإداري والبرنامج الدراسي للمدارس

1. التنظيم الإداري

سُطّرت معالم السياسة التعليمية لهذه المدارس عن طريق إصلاحات وتنظيمات متتالية وضعتها السلطات الاستعمارية، ومن ضمنها الإصلاحات التي مسّت التسيير الإداري والبرنامج التعليمي؛ فمنذ إنشاء المدارس إلى حد عام 1875، كانت تخضع لوصاية

34 Jules Cambon, *Le Gouvernement Général de l'Algérie 1891-1897* (Paris: E. Champion, 1918), p. 61.

35 الطاهر زرهوني، **التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال** (الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1993)، ص 15.

36 عُرف العديد من أساتذة هذه المدارس بتمسّكهم بشخصيتهم العربية - الإسلامية، وحتى بمعارضتهم لسياسة التجنيد والإدماج، ومنهم على وجه الخصوص عبد القادر المجاوي، وعبد الحليم بن سماية وغيرهما. ولم يشتك مالك بن نبي ولا مصطفى الأشرف من محاولة فرنسا "إبعاد الجزائريين" عن دينهم. ينظر في ذلك شهادات لـ: مالك بن نبي (**مذكرات شاهد على القرن**) ومصطفى الأشرف (**أسماء وأماكن: مذكرات جزائر منسية**).

37 Cambon, p. 55.



مزدوجة: المراقبة الإدارية والسياسية للسلطات العسكرية، وكان يتولّاها أحد الضباط الفرنسيين الملحقين بالشؤون العربية، والتفتيش العلمي والبيداغوجي من قبل أحد أساتذة كراسي اللغة العربية يعيّنه الحاكم العامّ.

ويلاحظ تقرير مدير أكاديمية الجزائر أرداپون أن نظام التعليم المتّبع في توظيف المدرسين وشروط تسجيل الطلبة لم يؤدِّ، في السنوات الأولى (1850-1875) من الإدارة العسكرية لهذه المدارس، إلى النتائج التي كان الفرنسيّون ينتظرونها[38]، لذلك جرى إدخال بعض التعديلات؛ فبموجب قرار الحاكم العامّ شانزي[39] الصادر في 16 شباط/ فبراير 1876، سُميت هذه المدارس تسمية المدارس الإسلامية للتعليم العالي. وأحيلت سلطات الحاكم العامّ إلى قادة المقاطعات العسكرية الثلاث (الجزائر ووهران وقسنطينة) في ما يخصّ المراقبة الإدارية والسياسية، وتولّى مدير أكاديمية الجزائر إدارة التعليم والتأديب داخل هذه المؤسسات بواسطة مفتش يعيّنه الحاكم العامّ. ويصف شارل روبير أجرون قرار 1876، خاصّة التنظيم، الذي تلاه في 7 آذار/ مارس 1877، بأنّه ذو "طابع بوليسي". فقد أعطى صلاحيات لأستاذ الفرنسية بمراقبة التعليم، وكلّف المديرين الفرنسيين بأصعب المواد الدينية، وخصّ المفتش الفرنسي بمراقبة عامّة تشمل المدارس الثلاث، وحافظت السلطات العسكرية على المراقبة السياسية والإدارية للمدارس[40]. وصدر قرار آخر سنة 1882 انتزع صلاحيات المراقبة من أيدي قادة المقاطعات العسكرية وأحالها إلى ولاة العمالات الثلاث (الجزائر ووهران وقسنطينة)، تبعًا للنظام المدني الذي سُنّ في دستور الجمهورية الثالثة (1871)، وبعد سنة من ذلك صدر قرار آخر أكّد الطابع الجامعي الأكاديمي لهذه المدارس، وأنهى صلاحيات الولاة عليها. وقد يعكس هذا التحوّل مسار إدماج مدارس الجزائر في النظام التعليمي الفرنسي، بتبعاته السلبية والإيجابية على تعليم أبناء الجزائريين.

وأهمّ إصلاح عرفته هذه المدارس، في مجالي التنظيم الإداري والبرنامج التعليمي، هو الذي انبثق من مرسوم 23 تموز/ يوليو 1895، الذي نصّ على رفع سنوات الدراسة إلى أربع سنوات بدلًا من ثلاث، واشترط على الطلبة المرشّحين الحصول على شهادة التعليم الابتدائي واجتياز مسابقة الدخول، في حين أنّ الطلبة قبل ذلك كانوا يرشّحون من جانب القياد والمكاتب العربية[41]. ونصّ المرسوم أيضًا على إنشاء قسم عالٍ في مدرسة الجزائر تمتدّ الدراسة فيه مدّة سنتين، وأُدخل تغييرٌ آخر يتمثّل في تعيين مدير فرنسي لكلّ مدرسة، بعد أن كان يتولّاها مدير جزائري. أما بشأن سنّ الالتحاق بهذه المدارس، فقد أصدر الحاكم العامّ جونار[42]، في 18 آذار/ مارس 1905، قرارًا حدّدها بأن تكون ما بين 15 و20 سنة.

وآخر إصلاح هو الذي نجم عن مرسوم 27 تشرين الثاني/ نوفمبر 1944، الذي حُوّلت بموجبه المدارس من التعليم العالي إلى التعليم الثانوي، ورُفعت سنوات الدراسة إلى ستّ سنوات بدلًا من أربع، وسُمّي القسم العالي لمدرسة الجزائر تسمية جديدة هي "معهد الدراسات العليا الإسلامية" وتمتدّ الدراسة فيه سنتين. وبحسب دراسة سرّية لإميل جاني كان الغرض من إصلاح 1944 تحسين تعليم اللغة العربية لمجابهة منافسة الإصلاحيين[43]، وذلك لأنّ التعليم العربي الحرّ شهد في الثلاثينيات تطوّرًا كبيرًا من حيث عدد الطلبة

---

38 Académie d'Alger, *Rapport à Monsieur le Gouverneur Général*, p. 3.

39 أنطوان إيجين ألفريد شانزي Antoine Eugene Alfred Chanzy: من مواليد 18 آذار/ مارس 1823، تولّى حكم الجزائر في الفترة 10 حزيران/ يونيو 1873-شباط/ فبراير 1879. توفي في فرنسا في 4 كانون الثاني/ يناير 1883.

40 Charles-Robert Ageron, *Les Algériens Musulmans et la France (1871-1919)*, vol. 2 (Paris: PUF, 1968), p. 329.

41 مفرده قايد: هو مصطلح معروف في شمال أفريقيا. ظهرت وظيفة القايد في الجزائر منذ الفترة العثمانية، واستمرّت مع الفرنسيين. وللقايد مهمّات واسعة إدارية وقضائية ومالية، وهو إضافة إلى ذلك عون أهليّ مساعد للسلطات الاستعمارية في إدارة قبيلة أو دوّار. وقد ألصقت بالقيّاد، مع مرور الوقت، صفات الظلم والتعسّف.

42 شارل سليستين جونارت Charles Célestin Jonnart: ولد في 27 كانون الأول/ ديسمبر 1857 في فرنسا، وتوفّي في 30 أيلول/ سبتمبر 1927. تولّى حكم الجزائر أربع مرّات: الأولى في الفترة 3 تشرين الأول/ أكتوبر 1900-18 حزيران/ يونيو 1901، والثانية في الفترة 5 أيار/ مايو 1903-28 شباط/ فبراير 1911، والثالثة في الفترة 23 آذار/ مارس 1911-كانون الثاني/ يناير 2018، والرابعة في الفترة 29 كانون الثاني/ يناير 1918-31 تموز/ يوليو 1919.

43 Janier, p. 12.



ونوعية التعليم. ويكون هذا الإصلاح قد أخذ أيضًا في الاعتبار التعليم الفرنسي العمومي الممثّل في العديد من المعاهد وكلّيات جامعة الجزائر، وقد أصبح أكثر جاذبية للطلبة لأنّه يفتح لهم آفاقًا أكبر على المستقبل ممّا يمكن أن توفّرها المدارس.

2. البرنامج الدراسي

عرف برنامج التعليم في هذه المدارس أيضًا العديد من التطوّرات، فقد بدأ بثلاث موادّ دراسية هي النحو والأدب العربي، والقانون والفقه الإسلامي، وعلم التوحيد والعبادات. وفي سنة 1863، أضيفت مادّة اللغة الفرنسية، والتاريخ والجغرافيا والحساب والهندسة لتدرّس باللغة الفرنسية أيضًا. ثم جاء قرار 16 شباط/ فبراير 1876 ليضيف موادّ مبادئ القانون الفرنسي، بما فيها القانون المدني والجنائي والإداري، التي تدرّس بالفرنسية، زيادةً على اللغة والأدب وعلم التوحيد والفقه الإسلامي. وما يلاحظ في هذا التغيير الجديد هو طغيان موادّ التعليم باللغة الفرنسية على حساب الموادّ العربية، فإضافةً إلى اللغة الفرنسية توجد ثلاث موادّ أخرى تدرّس بهذه اللغة هي: التاريخ والجغرافيا، والحساب والهندسة، ومبادئ القانون الفرنسي. ومن أجل توسيع معارف الطلبة، وربّما تحسين لغتهم الفرنسية وإدماجهم في المنظومة التعليمية الفرنسية، قُرّر سنة 1882 اعتبار طلبة مدرسة الجزائر مثل طلبة المدارس العليا الفرنسية بالجزائر وإلزامهم بمتابعة دروس مدرسة الحقوق[44]، غير أنّ هذه التجربة لم تدم سوى سنتين (1884-1886) ولم تكلّل بالنجاح. وبعد الإعلان عن مرسوم 23 تموز/ يوليو 1895، الذي أعاد تنظيم المدارس، أصبحت سنوات الدراسة الأربع تتضمّن الموادّ الآتية: اللغة الفرنسية، ومبادئ التاريخ والجغرافيا، واللغة العربية، والفقه الإسلامي وعلم التوحيد. أمّا القسم العالي لمدرسة الجزائر، فقد كانت موادّ الدراسة فيه تشتمل على علم التوحيد والتفسير، والفقه الإسلامي وأصوله، والأدب العربي، والبلاغة والبيان، وتاريخ الحضارة الفرنسية، ومبادئ القانون الفرنسي، والتشريع الجزائري[45].

لم تحظَ التعديلات المتتالية، التي أُدخلت على نظام التعليم في المدارس، بالإجماع، فقد انتقدها، لاحقًا، مدير أكاديمية الجزائر أردايّون بقوله "إنّنا ذهبنا بعيدًا"[46]، وعبّر عن خشيته من محاولات إبعاد هذه المدارس عن الهدف الذي أُسّست من أجله. وعمومًا، فقد بدأت هذه المدارس عربية خالصة من حيث البرنامج والأساتذة، ثم تحوّلت شيئًا فشيئًا إلى الازدواجية من حيث البرنامج التعليمي (عربي - فرنسي) والتأطير البيداغوجي، وهو ما ميّزها من الثانويات الفرنسية التي لا تعطي اللّغة العربية أهميةً من جهة، ومن المدارس العربية الحرّة التي تكتفي بتدريس مواد اللغة العربية دون سواها من جهة أخرى.

ثالثًا: هيئة التدريس وطلبة المدارس

1. هيئة التدريس

بدأت المدارس الثلاث بثلاثة أساتذة جزائريين لكلّ منها، أحدهم يشغل مهمّة مدير، فضلًا عن التدريس. ولكن بتغيير البرنامج الدراسي سنة 1863 وإدخال مادّة اللغة الفرنسية وموادّ فرنسية أخرى، جرى تعيين أستاذ فرنسي لهذه المواد. وتدعّم هذا التوجّه بإصدار قرارين في السنتين 1876 و1884، نتج منهما توسيع دائرة الأساتذة الفرنسيين بتعيين ستّة أساتذة لكلّ مدرسة؛ ثلاثة فرنسيّين، وثلاثة جزائريّين. ومع إصلاح سنة 1895، عرفت هيئة التدريس تغيّرات جديدة، فقد ضمّت أساتذة دائمين ومكلّفين بالدروس. وبعكس ما كانت عليه المدارس في السابق، حين كانت تحت إشراف مدير جزائري، فإنّها أصبحت بسبب هذا المرسوم تحت إدارة أحد الأساتذة الفرنسيين.

---

44 Ibid.

45 Ibid.

46 Académie d'Alger, *Rapport à Monsieur le Gouverneur Général*, p. 10.



وأثناء تأسيس هذه المدارس، كان تعيين مديري المدارس والأساتذة يجري، بحسب المادّة 6 من مرسوم 1850، من جانب وزير الحربية بعد اقتراح من الحاكم العامّ للجزائر. وبصدور قرار 16 شباط/ فبراير 1876، الذي وضع المدارس تحت إشراف الحاكم العامّ، أصبح هو الذي يعيّن كلّ الأساتذة، بعد اقتراح من مدير أكاديمية الجزائر. ولم يوضّح مرسوم 1895 شروط توظيف هؤلاء الأساتذة وكيفيّته، وهو الفراغ الذي استكمل بقرار 18 آذار/ مارس 1905. فبالنسبة إلى الأساتذة الجزائريين، فإنّهم يوظفون من بين قدماء طلبة القسم العالي في مدرسة الجزائر، في حين يوظّف الأساتذة الفرنسيون من بين الحاصلين على الشهادة العربية من المدرسة العليا للآداب في الجزائر أو من مدرسة اللغات الشرقية الحيّة في باريس. وبتأسيس جامعة الجزائر سنة 1910، حُوّرت النصوص السابقة؛ إذ نصّ قرار 11 حزيران/ يونيو 1913، في مادّته الأولى، على أنّ أساتذة المدارس الفرنسيين يمكن توظيفهم من ضمن حاملي الليسانس في الآداب والعلوم، أو من ضمن الحاصلين على الشهادة العربية من كلية الآداب في جامعة الجزائر، أو من بين المتخرّجين في مدرسة اللغات الشرقية الحيّة، في حين يوظّف المدرّسون الجزائريون من بين طلبة القسم العالي في مدرسة الجزائر[47].

وكان المدرّسون يتقاضون في بداية الأمر 1500 فرنك، و2100 فرنك للمدير الذي يكلف، إضافة إلى إدارة المدرسة، بدرسٍ من الدروس الثلاثة، ويتقاضى الوقّاف أو ناظر المدرسة 600 فرنك. وقد زاد تعداد الأساتذة ونظّار المدارس بمرور الوقت، وتطوّرت رواتبهم وشملت أيضًا راتب مفتش المدارس كما يظهر في الجدول (1).

الجدول (1)

التنظيمات الخاصة برواتب موظفي المدارس (بالفرنك)

التنظيمات/ هيئة التدريس	المديرون	الأساتذة	الوقّاف/ النظّار	المفتش
مرسوم 1850	2100	1500	600	لم يُحدَّد
قرار 16 شباط/ فبراير 1876	درجة 1: 3000 درجة 2: 2700 درجة 3: 2400	درجة 1: 1800 درجة 2: 1500 درجة 3: 1200	درجة 1: 1000 درجة 2: 800 درجة 3: 600	8000 + 1000 لمصاريف الزيارات
قرار 1 آب/ أغسطس 1895	علاوة شهرية 500 لمديري قسنطينة وتلمسان، 2000 لمدير مدرسة الجزائر	الأساتذة المرسمون- القسم الأسفل: 3000، 2600، 2200، 1800، 1500 القسم الأعلى لمدرسة الجزائر: 4000، 3500، 3000، 2500	1200، 1000، 900	علاوة سنوية 4500 للموظف المكلّف بالتفتيش العام
تعليمة 18 آذار/ مارس 1905	علاوة شهرية 1000 لمديري قسطنطينة وتلمسان، 2000 لمدير مدرسة الجزائر	درجة 1: 5000 درجة 2: 4500 درجة 3: 4000 درجة 4: 3500 درجة 5: 3000 درجة 6: 2500	وقّاف أو أكثر لكلّ مدرسة: رواتبهم 1000 و1100 و1200	علاوة سنوية 4500 للموظف المكلف بالتفتيش العام

المصدر: معلومات مأخوذة من دراسات ومصادر متفرقة عديدة (نصوص رسمية: مراسيم - قرارات - تعليمات).

47 Gouvernement général de l'Algérie, *Arrêté du 11 juin 1913.*



عرفت هذه المدارس أساتذة جزائريين وفرنسيين اشتهروا بأعمالهم الأكاديمية، وبنشاطاتهم العلمية والجمعوية. غير أنّ ما يمكن ملاحظته هو أنّ الجهد الفكري للأساتذة الجزائريين لم يكن في مستوى جهد نظرائهم الفرنسيّين، فهل يعود ذلك إلى عائق اللغة الفرنسية، التي كانت هي اللغة الرسمية، وإلى التكوين التقليدي للأساتذة الجزائريين؟ يُعدّ محمد بن أبي شنب، الذي درَس في مدرستي قسنطينة والجزائر ثم التحق بكلية الآداب في جامعة الجزائر، الاستثناء الوحيد تقريبًا الذي تمكّن من منافسة نظرائه من المستشرقين الفرنسيّين، نظرًا إلى الأعمال الأصيلة التي نشرها، في حين أسهم أساتذة آخرون في بعض المنشورات الفقهية واللغوية القليلة، مثل عبد القادر المجاوي، والسعيد بن زكري، والمولود بن الموهوب، وعبد السلام بن شعيب، وقد شارك بعضهم الآخر بعد ظهور الصحافة العربية بنشر مقالاتهم والتعبير عن آرائهم في قضايا عصرهم.

وعلى خلاف ذلك، عرفت المدارس مرور العديد من الأساتذة الفرنسيّين الذين كانوا من أبرز المستشرقين، وامتازوا بكتاباتهم وبنشاطاتهم العلمية؛ ما مكّنهم من الحظوة بمناصب عليا في ميدان التعليم في الجزائر وفرنسا. ومن بين أهمّ هؤلاء المستشرقين الذين درّسوا وأداروا المدارس ويليام مارسي William Marçais (1872-1956)[48] مدير مدرسة تلمسان (1898-1904) ثمّ مدرسة الجزائر (1904-1910)، وقبله موريس غودفروا - ديمومبين Maurice Gaudefroy-Demombynes (1862-1957) مدير مدرسة تلمسان (1895-1898)، والأستاذ في مدرسة اللغات الشرقية والكوليج دو فرانس في باريس، وإدموند ديستان Edmond Destaing (1872-1940) مدير مدرسة الجزائر (1911)، والأستاذ بمدرسة اللغات الشرقية أيضًا[49]. وإذا كان العديد من أساتذة المدارس قد حقّقوا شهرة واسعة، فماذا عن الطلبة؟

2. طلبة المدارس

عند تأسيس هذه المدارس، لم توضع شروط معيّنة لالتحاق الطلبة بها، سواء من حيث السنّ أو المستوى التعليمي، ثمّ إنّ فترة الدراسة لم تكن محدّدة، فالطالب يبقى في المدرسة بحسب رغبته حتى استكمال تكوينه. وقبل سنة 1876 كانت أعمار الطلبة الجدد تراوح ما بين 18 و35 سنة، وحُدّدت بعد ذلك في ما بين 18 و25 سنة. أمّا فترة الدراسة فأصبحت ثلاث سنوات، مع ضرورة اجتياز كلّ مرشّح امتحانًا أمام لجنةٍ لإظهار معارفه الضرورية، ووضع مرسوم 1895 شروطًا جديدة للالتحاق بالمدارس؛ منها الحصول على شهادة التعليم الابتدائي، مع اجتياز مسابقة، ورفع مدّة الدراسة إلى أربع سنوات. ثمّ جاء قرار 1905 ليحدّد من جديد سنّ التسجيل في هذه المدارس في ما بين 15 و20 سنة. وقد اختلفت أعداد المرشّحين لمسابقة المدارس والمقبولين منهم من سنة إلى أخرى. واختلفت كذلك نسبة القبول فتجاوزت أحيانًا 50 في المئة بقليل، ونزلت في أحيان أخرى إلى أقلّ من المتوسط، مع العلم أنّ غالبية التقارير السنوية حول المدارس تشير إلى إجراء المسابقة في أحسن الظروف.

يمكن القول إنّ هذه المدارس لم تستقبل أعدادًا كبيرة من الطلبة طوال وجودها؛ أيعود ذلك إلى حذر الجزائريين المسلمين من الالتحاق بها، أم إلى رغبة المشرفين عليها في جعلها مدارس نخبة؟ في الواقع، هناك أسباب عديدة وراء العدد الضئيل لطلبة هذه المدارس، من بينها أنّ كثيرًا من الجزائريين استمرّوا، إلى نهاية القرن التاسع عشر، في مقاطعة كلّ ما هو فرنسي - مسيحي، ومن ضمنه التعليم خاصّة، وهو ما بيّنته العديد من الدراسات[50]. ومردّ ذلك إلى الشكوك الكثيرة التي كانت تحوم حول أهداف التعليم في

---

48 وهو لغويّ معرب ودكتور في الحقوق، عُيّن مفتشًا في التعليم الابتدائي للأهالي في الجزائر (1909-1913)، وكان أول من حصل على كرسي "العربية المغربية" بمدرسة اللغات الشرقية في باريس (1920-1927). عُيّن لاحقًا أستاذًا في الكوليج دو فرانس Collège de France (1927-1942).

49 للمزيد حول أساتذة المدارس والمرتبطين بالاستشراق الفرنسي، ينظر: Pouillon, p. 1007.

50 سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 3، ص 279-290؛
Ageron, pp. 317-337; Fanny Colonna, *Instituteurs Algériens 1883-1939* (Alger: Office des Publications Universitaires, OPU, 1975), pp. 26-36; Turin.



المدارس الفرنسية بصفة عامّة، مما دفع المشرفين على هذه المدارس، على الأقلّ في أثناء تأسيسها، إلى عدم برمجة اللغة الفرنسية أو تدريس موادّ فرنسية بها، وعدم تعيين هيئة تدريس لها وإدارة من الفرنسيين، خشيةً من مقاطعة الجزائريين لها، خاصّة إذا علمنا أنّ السلطات الاستعمارية في الجزائر لم تلجأ إلى هذا النوع من التعليم إلّا بعد فشل المدارس الفرنسية في العشرين سنة الأولى من الاحتلال (1830-1850). ثمّ إنّ الإصلاحات المتتالية قد صعّبت فرص الالتحاق بهذه المدارس، وذلك باشتراطها السنّ والمستوى التعليمي والمسابقة. وبناءً عليه، وجد العديد من المرشّحين أنفسهم خارج هذا النمط التعليمي، في حين أنّ الالتحاق كان أسهل مثلًا بمدارس الزوايا والمدارس الحرّة في الجزائر أو بالزيتونة وبالقرويّين.

الجدول (2)
عيّنة عن عدد المرشّحين والمقبولين في المدارس

المدرسة	السنة الدراسية 1899-1900		السنة الدراسية 1906-1907		السنة الدراسية 1921-1922		السنة الدراسية 1935-1936	
	المرشّحون	المقبولون	المرشّحون	المقبولون	المرشّحون	المقبولون	المرشّحون	المقبولون
الجزائر	لم يحدّد	14	46	20	29	16	44	17
تلمسان	لم يحدّد	12	30	18	26	13	51	24
قسنطينة	لم يحدّد	13	36	20	33	10	49	15
المجموع	**67**	**39**	**112**	**58**	**88**	**39**	**144**	**56**

المصدر: هذه الأرقام مأخوذة من النشرة الرسمية **عرض عن الحالة العامّة للجزائر** للسنوات الدراسية المذكورة أعلاه، وهي من المنشورات الرسمية التي تصدرها سنويًا الحكومة العامّة بالجزائر بعنوان:

Gouvernement Général de l'Algérie, *Exposé de la Situation générale de l'Algérie* (Alger: Imprimerie Victor Heintz, [n. d.]).

ثمة أسباب أخرى منعت الطلبة من الالتحاق بهذه المدارس؛ فمع مرور الوقت حصل شحٌّ في مناصب العمل، ثمّ صعوبة في توظيف كلّ المتخرّجين؛ فبحسب تقرير المركز الأعلى للدراسات الإدارية الإسلامية CHEAM، فإنّ تحديد عدد الطلبة الملتحقين بالمدارس يجري بطريقة إرادية، وذلك لأنّ مشكلة مناصب الشغل بعد التخرّج قد طُرحت على نحو جدّي. ويعترف التقرير أيضًا بالعدد الضئيل لطلبة المدارس الثلاث مقارنةً بطلبة "المدرسة الإصلاحية" في قسنطينة[51]، التي ضمّت وحدها 360 طالبًا سنة 1938[52]. وثمة سبب آخر أشارت إليه دراسة أنجزت سنة 1948؛ فـ "منذ 20 سنة تقريبًا، أصبحت البرجوازية الإسلامية تقاطع هذه المدارس ولا ترغب في تسجيل أبنائها فيها"، ولذلك أصبح أغلب الطلبة الملتحقين بالمدارس ينتمون إلى طبقات دنيا[53]. وقد يكون في انفتاح الجامعة بالنسبة إليهم تفسير لهذا العزوف - ولو بنسب ضئيلة - خاصّة أنّها تُكوّن لدراسة الأعمال الحرّة، مثل الطبّ والمحاماة، فبعض المتخرّجين في هذه

51 المقصود بها مدرسة جمعية التربية والتعليم، وهي من أهمّ المدارس الحرّة الأولى التي عرفتها الجزائر إبّان الفترة الاستعمارية، وكانت تشرف على العديد من الفروع المدرسية في عمالة قسنطينة. وتأسست أيضًا على منوالها في باقي المدن والقرى في الجزائر مدارس تحمل التسمية نفسها. وقد أغلقت السلطات الاستعمارية مدرسة التربية والتعليم بكامل فروعها في عمالة قسنطينة في أيلول/ سبتمبر 1957.

52 Weiler, p. 7.

53 Janier, p. 28.



المدارس كانوا يتهرّبون من بعض وظائف العدالة وشؤون العبادة المخصّصة لهم (حزاب، مؤذّن، عون) نظرًا إلى الرواتب الزهيدة التي كانوا يتلقّونها، وبعضهم الآخر كان يفضّل الالتحاق بالمغرب، خاصّة بعد فرض الحماية الفرنسية (سنة 1912) لتولّي بعض المناصب[54]، يُضاف إلى ذلك أنّ الالتحاق بهذه المدارس كان مكلفًا بالنسبة إلى العديد من الأسر المتواضعة اجتماعيًّا التي لم يكن في إمكانها تحمّل تكاليف الدراسة والإقامة، ولا سيما أن منحة الدراسة لم تكن متاحة لجميع الطلبة، أو لم تكن كافية لسدّ احتياجاتهم.

ولذلك، فإنّ عدد طلبة المدارس الثلاث مجتمعة لم يتعدَّ، في أكثر الأحوال، خلال السنة الدراسية الواحدة، مئتي طالب، إذا ما استثنينا من ذلك القسم العالي بمدرسة الجزائر والطلبة "المتطوّعين" الذين كانوا يتابعون الدراسة بصفة غير نظامية. وبحسب إحصائيات أكاديمية الجزائر، الممتدّة في السنوات الدراسية (1896-1897) و(1922-1923)، فإنّ عدد الطلبة عرف ارتفاعًا إلى الفترة 1913-1914. وبعد غلق المدارس طيلة سنوات الحرب العالمية الأولى، بدأ العدد في التراجع ليتهاوى في سنوات ما بعد الحرب، وهو ما يظهر من خلال الجدول (3)[55].

الجدول (3)

عيّنات عن عدد طلبة المدارس

السنة	الجزائر	تلمسان	قسنطينة	المجموع	السنة	الجزائر	تلمسان	قسنطينة	المجموع
1878	35	45	42	122	1917	72	54	45	171
1895	32	43	45	120	1918	67	54	42	163
1900	51	37	37	125	1919	75	50	44	169
1902	81	32	43	156	1920	69	51	58	178
1909	55	58	69	215	1921	57	44	47	148
1914	99	67	59	225	1922	46	37	42	145
1915	28	لم يحدَد	لم يحدَد	28	1923	68	36	42	146
1916	12	لم يحدَد	لم يحدَد	12	1924	55	37	45	142

المصدر:

Ibid.; Assemblée Financières Algériennes, *Session Ordinaire de mai-juin, 1925* (Alger: Impr. Nord-Africaines, 1925), p. 568 (Nombre d'étudiants dans les Médersas de 1914 à 1924).

لتجنّب تراجع هذه المدارس والحفاظ على مكانتها والقيام بدورها في تكوين نخبة في إمكانها أداء دور الوسيط بين السلطات الاستعمارية والجزائريين المسلمين، اقترح تقرير أُعدّ في نهاية الأربعينيات أن تعيد الإدارة النظر في عدد الوظائف المخصّصة للمتخرّجين، وأن تسمح لهم بتولّي وظائف جديدة في قطاعات السكك الحديدية والبريد والبلديات:

54 Direction des Affaires Indigènes, *Note pour monsieur Le Gouverneur Général*, Archives Nationales d'Outre-Mer (ANOM), 13/5/1924, côte 8X414.

55 Académie d'Alger, *Rapport à Monsieur le Gouverneur Général*, p. 3.



"إذا أردنا أن نرفع من عدد طلبة المدارس، فمن الضروري أن نزيد من عدد الوظائف المخصّصة لهم"[56]. وبناء على ذلك، حاول التقرير تجاوز قائمة المناصب القليلة المتاحة للطلبة بعد تخرّجهم، وهي محدّدة في القرار الصادر في 1 آب/ أغسطس 1895؛ ذلك أنّ الرهان على نجاح السياسة التعليمية في هذه المدارس كان مرتبطًا بحلّ مشكلة البطالة لدى المتخرّجين حتى يؤدّوا الدور الذي رُسم لهم، وهو دور الوسيط ما بين الغالب والمغلوب، فهل حقّقت السياسة الاستعمارية الفرنسية هذا الهدف؟

رابعًا: المدارس الثلاث ما بين السياسة الاستعمارية والواقع

لم تَسلم هذه المدارس من معارضة الفرنسيين أنفسهم؛ فلم يفهم الرأي العامّ الفرنسي في الجزائر - من صحافة ومجالس منتخبة - الهدف من إنشائها واعتبرها غير ضرورية. وقد برّر هؤلاء موقفهم بالنتائج الضعيفة التي حقّقتها هذه المدارس، بل اعتبروا أنها أماكن للتعصّب مثل الزوايا[57]. وقد اعترف الحاكم العامّ كامبون، في خطابه أمام مجلس الشيوخ، أنّ هذه المدارس "قد أحدثت جدلًا عنيفًا"[58] في الأوساط الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، وواجهت عراقيل عديدة من أجل تزويدها بالميزانية المالية الضرورية لتطوّرها، بل لاستمرارها[59].

وكان يُنظر إلى أساتذة هذه المدارس بارتياب من جانب السلطات الاستعمارية، التي كانت تراقب كلّ ما يتعلّق بالمدرسة[60]. وبشأن الرقابة والتفتيش في هذه المدارس، جرى الخلط ما بين المتطلّبات التربوية والسياسية؛ فعلى الرغم من تبعية هذه المدارس، منذ إصلاحات 1876 و1895، لأكاديمية الجزائر، فإنّها بقيت تخضع لنفوذ السلطة السياسية والإدارية ممثّلةً في مديرية الشؤون الأهلية. وفي رسالة من جان ميرانت Jean Mirante، مدير هذه الهيئة، إلى الحاكم العامّ، اقترح تكليف شخصين لتفتيش المدارس أحدهما أستاذ جامعي معرّب يكلّف بالجانب البيداغوجي، والآخر موظّف يتولّى مهمة التفتيش من الناحية الإدارية والسياسية والانضباطية، ويرشّح لهذا المنصب مدير الشؤون الأهلية أو نائبه[61].

ومع ذلك، فإنّ "إصلاحات" الإدارة الاستعمارية تجاه المدارس الثلاث لم تصمد أمام التطوّرات السياسية والثقافية التي شهدتها الجزائر في بداية القرن العشرين بتبلور الوعي الوطني فيها غداة الحرب العالمية الأولى، وبروز الحركة الوطنية. وهذا ما دفع القائمين على هذه المدارس إلى العمل على تحسين مردودها وجعل المتخرّجين فيها فاعلين ومؤثّرين في مجتمعهم. ففي تقرير لمدير الشؤون الأهلية (1924) حول الوضعية المادّية والمعنوية والأدبية والأخلاقية، جرى تأكيد أنّ تأثير المتخرّجين في هذه المدارس في مجتمعهم يكاد يكون منعدمًا. واقترح إبقاء هذه المدارس على حالها وعدم إدخال أيّ تغيير عليها. وبدلًا من السعي لتطوير اللغة العربية، اقترح مقابل ذلك تشجيع المجتمع الأهلي على "التحرّر من الدين" والسير نحو "الحضارة الغربية"[62]. والظاهر أنّ هذا التوجّه لم يكن يتقاسمه معه المشرفون مباشرة على هذه المدارس، خاصّة أنّ السلطات الاستعمارية قد عملت بعد إصلاحات 1895 على توجيه التعليم في المدارس وجهة فرنسية.

---

56 Janier, p. 32.

57 Académie d'Alger, *Rapport à Monsieur le Gouverneur Général*.

58 Cambon, p. 57.

59 ينظر، مثالًا على ذلك، المناقشات والجدل الذي صاحب هذه المسألة في الفترة 1870-1919، في: Ageron.

60 Tengour, p. 11.

61 Direction des Affaires Indigènes, *Note pour Mr. Le Gouverneur Général*, Archives Nationales d'Outre-Mer (ANOM), 14/12/1923, côte 8X414.

62 Direction des Affaires Indigènes, *Note pour Mr. Le Gouverneur Général*, Archives Nationales d'Outre-Mer (ANOM), 13/12/1924, côte 8X414



ولم يكن الفرنسيون، إلى الثلاثينيات على الأقل، يخشون على هذه المدارس من منافسة التعليم العربي الحرّ. لكن بظهور جمعية العلماء (1931)، وتأسيسها المئات من المدارس العربية الحرّة، وشهرة بعضها مثل مدرسة التربية والتعليم في قسنطينة ومدرسة دار الحديث في تلمسان (1937)[63]، وتأسيس معهد عبد الحميد بن باديس سنة 1947 في قسنطينة[64]، سارع المشرفون على هذه المدارس إلى دقّ ناقوس الخطر في التقارير التي أعدّها مديروها وأساتذتها الذين أكّدوا على ضرورة تطويرها؛ من أجل التصدّي لمنافسة العلماء الإصلاحيين. وفي تقرير لألفرد بيل Alfred Bel (1873-1945)[65]، أعدّه في نهاية الثلاثينيات حول "التعليم الرسمي العربي - الإسلامي في الجزائر"[66]، لاحظ أنّ التعليم في المساجد والمدارس الذي يقوم به المتخرّجون في المدارس الثلاث قد أعطى نتائج إيجابية في عمالة وهران، ونافس المدارس الإصلاحية، لكنه لم يحقق أهدافه في عمالة قسنطينة. ولتصحيح الوضع وتحسين أداء التعليم الرسمي، اشترط حصول المُدرسين على شهادة الدراسات العليا التي تمنح من مدرسة الجزائر، وعدم التوظيف خارج المدارس "الرسمية". واقترح أيضًا زيادة ساعات العمل في هذه المدارس، ملاحظًا أنّ المقابل الساعيّ قليل جدًّا مقارنة بالساعات التي يؤدّيها المُدرس في مدارس جمعية العلماء، مستنتجًا أنّه، بهذه الطريقة، يمكن الاستجابة لرغبة أولياء الطلبة ومواجهة التعليم العربي الحرّ عند المعلّمين "الباديسيّين"، وهو تعليم مُعادٍ للفرنسيين ومُكلف[67].

اقترح بيل أثناء حديثه عن مهمّة المراقبة توسيعها لتشمل المدرّسين في المساجد والمدارس القرآنية، وتكليف المفتّش، فضلًا عن مهمّته في مراقبة التعليم، بجمع معلومات حول النشاطات السياسية والدينية والاجتماعية للشُعَب "الباديسية"، موضّحًا أنّ على المفتش إرسال تقريرٍ سنوي حول سير المدارس وأداء المُدرّسين، وتقريرٍ آخر سرّي حول المدارس الحرّة والشُعَب الباديسية[68]. واقترح أن تُسند هذه المهمّة إلى موظف من أصل فرنسي قاطن في الجزائر وضليع في اللغة العربية، وهو لا يرى شخصًا آخر أولى بهذه الوظيفة من السيّد هنري بيراس Henri Pérès (1890-1983)[69] الأستاذ في كلية الآداب في جامعة الجزائر آنذاك[70]. ويبدو من هذا التقرير، وغيره، أنّ الجانب السياسي قد طغى على الجانب التربوي، وأنّه - منذ تأسيس جمعية العلماء - أصبح هَمّ القائمين على هذه المدارس هو حمايتها من منافسة المدارس الإصلاحية.

وذهب إميل جانيي، في الاتجاه نفسه؛ فبحسب رأيه، جاء مرسوم 27 تشرين الثاني/ نوفمبر 1944 لتدعيم المدارس ورفع سنوات الدراسة فيها إلى ستّ سنوات، وكان يهدف إلى تحسين التعليم العربي بطريقة تؤدّي إلى تقوية صفّ معارضة الإصلاحيين[71]. وبرّر

---

63 مدرسة دار الحديث: من أهمّ المدارس التي أنشأتها جمعية العلماء في تلمسان في الناحية الغربية، أثناء إشراف البشير الإبراهيمي على المنطقة. افتتحت في حفل كبير في أيلول/ سبتمبر 1937، غير أنّ السلطات الاستعمارية سرعان ما أغلقتها بعد ثلاثة أشهر فقط من ذلك، ثمّ واصلت نشاطها بعد الحرب العالمية الثانية حتى اندلاع الثورة، إذ أغلقتها السلطات الاستعمارية نهائيًّا سنة 1956.

64 أسّسته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهو مخصّص للتعليم الثانوي، وكان يحضّر الطلبة لمهنة التعليم في الجزائر أو لمواصلة الدراسة في جامع الزيتونة بتونس، وقد أرسل بعثات طلابية إلى المشرق. وبلغ عدد طلابه في بعض السنوات الدراسية نحو ألف طالب. وكان، من حيث الامتحانات والشهادات، تحت إشراف جامع الزيتونة. ينظر: عائشة بوتريد، "التعليم العربي الحرّ ومؤسّساته من 1947 إلى 1962، قسنطينة نموذجًا"، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 2005.

65 أستاذ في مدرسة تلمسان ثمّ صار مديرًا لها (1905-1935)، وقد تولّى مهمّة محافظ المتحف الأثري لهذه المدينة. تقاعد سنة 1935، وأسّس سنة 1936 جمعية أحباب تلمسان القديمة.

66 Bel.

67 Ibid., p. 3.

68 Ibid., p. 7.

69 من مواليد الجزائر، مستشرق وأستاذ في كلية الآداب، جامعة الجزائر. مكلّف بمهمّة التفتيش العام للتعليم العربي في ثانويات الجزائر ومعاهدها (1938-1960). أسّس في سنة 1945 المدرسة التطبيقية للدراسات العربية، وفي سنة 1949 أسس المعهد الأعلى للدراسات الإسلامية، وترأسهما حتى سنة 1962.

70 Bel, p. 8.

71 Janier, p. 12.



صدور هذا المرسوم بأنه "ابتداءً من سنة 1933 عقّد العلماء الإصلاحيّون المشكلة عندما أعطوا قوّة جديدة لمشاعر الإعجاب بالثقافة الإسلامية التقليدية، التي كانت منتشرة بين الجماهير"[72]. ولذلك، يبدو واضحًا من هذه التقارير أنّ من بين أهداف الإصلاحات التي أُدخلت على المدارس تقويتها وإبعاد طلبتها عن التأثير الخارجي. فهل نجح المشرفون على هذه المدارس في مهمّتهم بإبعاد الطلبة عن التطوّرات السياسية والثقافية التي شهدتها الجزائر في النصف الأوّل من القرن العشرين؟

خامسًا: طلبة المدارس بين المتطلبات الرسمية والمشاعر الوطنية

امتاز الوسط المدرسي بتفتّحه على المجتمع والوسط الجغرافي والاجتماعي الذي كان يؤوي هذه المدارس التي لم يكن طلبتها يخضعون للنظام الداخلي الصارم الذي كان ينظّم مؤسسات تعليمية أخرى، فقد أصبح طلبة المدارس، منذ نهاية القرن التاسع عشر، يتمتّعون بالنظام الخارجي الذي يمكّنهم من الخروج من المدرسة يوميًّا. وفضلًا عن ذلك، كان هؤلاء الطلبة يتناولون وجباتهم الغذائية خارج المدرسة، وبذلك كان في إمكانهم التواصل باستمرار مع محيطهم الاجتماعي والثقافي. ثمّ إنّ هذه المدارس لم تكن منعزلة، فهي لا تقع في أطراف المدينة، بل في وسطها، وحتى في قلب المدن العتيقة الثلاث.

وقد امتاز الوسط المدرسي بتنوّع مشاربه الثقافية والأيديولوجية واختلاف ولاءاته السياسية، لذلك تشعّبت توجهاته وتطوّرت مواقفه مع التطوّرات السياسية في الحركة الوطنية الجزائرية. ويمكن تقسيم طلبة المدارس إلى ثلاث فئات كبرى، هي: الباحثون عن الاندماج، والراغبون في التعاون مع المستعمر، والملتزمون بالتيّار الوطني. وقد امتازت الفترة الأولى (1850-1900) بالغموض بسبب غياب الوعي السياسي الجماعي والفكرة الوطنية لدى الجزائريين. ومع مطلع القرن العشرين، بدأت تبرز ملامح النخبة المدرسية المدافعة عن الاندماج ممثّلةً في بعض الشخصيات؛ من أمثال الشريف بن حبيلس، ومحمد صوالح، وعبد القادر حاج حمو. ومع تبلور الفكرة الوطنية بدايةً من العشرينيات، مع الأمير خالد والشيخ عبد الحميد بن باديس، وبروز المطالب الوطنية الاستقلالية مع مصالي الحاج، تبنّى العديد من طلبة المدارس الأفكار الإصلاحية والوطنية وأصبحوا من المروّجين لها. ومن أبرز هؤلاء مالك بن نبي، ومولاي مرباح الذراع اليمنى لمصالي الحاج (في صراعه لاحقًا مع اللجنة المركزية)، والعقيد لطفي قائد الولاية التاريخية الخامسة (1958-1960)، ومصطفى الأشرف. وما بين هذا التيار والتيار الاندماجي نجد الأغلبية "الصامتة" من المَدرسيّين الذين حافظوا على شخصيّاتهم وكياناتهم من دون أن يتنكّروا لفرنسا وثقافتها. والشخصيات المدرسية التي تبنّت هذا المنهج كثيرة، ويمكن أن نذكر منها الأمين العمودي، الأمين العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومحمد الحاج صدوق (1907-2000)، الأستاذ في كلية الجزائر ومدير الثانوية الفرنسية - الإسلامية في الجزائر، بعد تحويل المدارس إلى ثانويات (1951)، والذي صار مفتشًا عامًّا للتعليم العمومي في باريس حتى وفاته. وما يمكن ملاحظته في موضوع التوجه السياسي والفكري لطلبة المدارس هو قلة الكتابات والشهادات التي تركوها، على عكس طلبة مدرسة بوزريعة للمعلمين[73] الذين انتظموا في جمعيات وأندية ثقافية، وأسّسوا جرائد خاصة بهم، وكانوا يتقاسمون المشارب الثقافية والفكرية نفسها تقريبًا. وقد يعود ذلك إلى عدة أسباب منها أنّ عدد المعلّمين كان أكبر كثيرًا من عدد خرّيجي المدارس الذين كانت وظائفهم متعددة وشبه رسمية أيضًا؛ ما يحتّم عليهم نوعًا من التحفظ.

لهذا، لم يلقَ طلبة المدارس، إلى وقت قريب، الاهتمام اللازم من جانب الباحثين. أمّا من جانب الذين عايشوا هذه المدارس، فقد جاءت أولى الشهادات من مالك بن نبي في **مذكّراته** (1971) حول مدرسة قسنطينة، وفي وقت متأخّر (1998) من مصطفى الأشرف

72 Ibid., p. 13.

73 كان الاهتمام بذلك خاصة من جانب الباحثين الفرنسيين، ينظر على سبيل المثال: Colonna.



حول مدرسة الثعالبية في الجزائر. لقد قدّم مالك بن نبي وصفًا دقيقًا عن علاقة الوسط المدرسي بمحيطه الاجتماعي والسياسي، وسجّل الحياة الطلّابية كما عايشها إبّان السنوات الأربع التي قضاها في مدرسة قسنطينة؛ ففي كتابه **مذكرات شاهد للقرن**، يروي يوميّاته المدرسية داخل جدران المدرسة وخارجها، ويحدّثنا عن الطرق المؤدية إلى بعض أماكن تجمّع الطلبة، كالمقاهي والمطاعم والمكتبات، التي يتحدّث عنها بإسهاب. وبحسب مالك بن نبي، فإنّ طلبة المدارس، أو على الأقل مجموعة منهم، كانوا متفتّحين على محيطهم الاجتماعي والسياسي، وخاصة على رجال الإصلاح. وفي السنة الدراسية الأولى (1921-1922) من التحاقه بالمدرسة، بدأ يلتقي طلبة الشيخ عبد الحميد بن باديس، ويذكر أنّه كان يتقاسم معهم التوجّه نفسه، وهو الإحساس الذي لم يكن لديه - بحسب رأيه - في لقاءاته مع الطلبة المسلمين في ثانوية قسنطينة آنذاك. ويؤكد أنّ معرفته بطلبة بن باديس قد أشعرته بأنهم كانوا ينتمون إلى "العائلة الروحية" نفسها، وهي "العائلة" التي ستحمل بعد ذلك اسم الإصلاح. ثمّ يذكر مالك بن نبي أنه هو وسائر الطلبة كانوا يهتمّون بمظهر بن باديس أثناء مروره أمام مقهى بن يمينة متوجّهًا إلى مكتبه، ويضيف أنهم كانوا يشعرون بأن أفكارهم كانت أقرب إلى بن باديس منها إلى أستاذهم في المدرسة المولود بن الموهوب (1866-1939)[74]، ويفسر ذلك بتموقع بن باديس خارج الإطار الاستعماري[75]. وقد يعود السبب أيضًا إلى تولّي بن الموهوب وظيفة الإفتاء في ناحية قسنطينة، وهي وظيفة رسمية تحت إشراف الإدارة الاستعمارية من حيث التعيين والإشراف والمرتّب. ومن الأسباب التي قد تكون رسخت في أذهان هؤلاء الطلبة أيضًا، والتي كانت متداولة وما زالت كذلك إلى اليوم، شعورهم بأنّ بن باديس كان ضحية لهذه الإدارة التي كان يمثّلها بن الموهوب، المفتي الرسمي، الذي ربّما يكون منع بن باديس من التدريس في الجامع الكبير سنة 1913[76].

وما يؤكد قوة العلاقات بين طلبة المدرسة وطلبة بن باديس، أيضًا، شهادة محمود بوزوزو (1918-2007)[77]، مدير جريدة **المنار** (1951-1953)، الذي تابع تعليمه في مدرسة قسنطينة في الثلاثينيات؛ فهو يذكر أنّه كثيرًا ما كان يتردّد على الجامع الأخضر لحضور دروس بن باديس في التفسير، وأنّه "انعقدت بينه وبين بعض طلابه (طلاب بن باديس) والأساتذة المساعدين له صداقة خالصة لا يزال يحتفظ بها، ويعتبر الأيام التي قضاها بصحبتهم أسعد أيام شبابه"[78]. وقد كان هؤلاء الطلبة يغامرون بأنفسهم أحيانًا، ويتضامنون مع ضحايا السياسة الاستعمارية. ومن أمثلة ذلك لقاءُ جمعهم بأحمد توفيق المدني[79] الذي أبعدته سلطات الحماية سنة 1925 من تونس؛ إذ رافقه مالك بن نبي وبعض زملائه إلى محطة القطار في قسنطينة للتوجّه إلى مدينة الجزائر، متحدّين بذلك الشرطة التي

74 تولى التدريس في مدرسة قسنطينة "الرسمية" منذ 1895، ثمّ تولى الإفتاء في ناحية قسنطينة سنة 1908، وتولّى أيضًا منصب الفتوى في جامع باريس عند تدشينه سنة 1926. للمزيد، ينظر: أحمد صاري، "ابن الموهوب: حياته وعصره"، **مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية**، العدد 9 (تموز/ يوليو 2001).

75 Malek Bennabi, *Mémoires d'un Témoin du Siècle*, 2nde ed. (Alger: ENAL, 1990), pp. 163-164.

76 وهو الأمر الذي ذكره بن باديس أثناء حديثه عن بداية تدريسه في الجامع الأخضر: "أما بداية تعليمي فيه فقد كانت أوائل جمادى الأولى عام 1332هـ/ 1914، وكان ذلك بسعي من سيّدي أبي لدى الحكومة، فأذنت لي بالتعليم فيه بعدما كانت منعتني من التعليم بالجامع الكبير بسعي المفتي في ذلك العهد الشيخ المولود بن الموهوب". ينظر: عبد الحميد بن باديس، "كلمة عن الجامع الأخضر عمره الله"، **الشهاب**، مج 14، ج 4 (ربيع الثاني-جمادى الأول 1357هـ/ حزيران/ يونيو-تموز/ يوليو 1938)، ص 304.

77 صحافي وكاتب جزائري، من مواليد مدينة بجاية، درس في المدرسة الرسمية بقسنطينة، ثم في القسم العالي بمدرسة الجزائر. بعد تخرّجه، درّس في المدارس الحرّة وعمل مرشدًا عامًّا للكشّافة الإسلامية (1946). أسّس جريدة **المنار** (1951-1954) ذات التوجّه الوطني الموالي لحركة انتصار الحرّيات الديمقراطية. وفي الأزمة التي عرفتها هذه الأخيرة، وقف إلى جانب مصالي الحاج ضدّ اللجنة المركزية للحزب نفسه، وقد استقر منذ الخمسينيات في سويسرا وقام بعدّة أنشطة ثقافية.

78 محمود بوزوزو، "مقدمة"، في: **جريدة المنار** (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982).

79 أحمد توفيق المدني (1899-1983): ولد في تونس، وهو من أصول جزائرية. بدأ نشاطه الثقافي والسياسي في وقت مبكّر مع الحركة الوطنية التونسية، وأدّى به ذلك إلى السجن إبّان الحرب العالمية الأولى. شارك في تأسيس الحزب الحرّ الدستوري التونسي بقيادة الشيخ عبد العزيز الثعالبي. وبسبب نشاطاته السياسية، أُبعد من تونس إلى الجزائر سنة 1925. انخرط بعد ذلك في الحركة الإصلاحية الناشئة، وشارك في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931. وعُيّن كاتبًا عامًّا للجمعية سنة 1952، ثم التحق بالثورة سنة 1956، وتولّى وزارة الشؤون الثقافية في الحكومة المؤقّتة للجمهورية الجزائرية الأولى (1958). بعد الاستقلال مباشرة، تولّى وزارة الأوقاف، ثمّ عُيّن سفيرًا في العديد من البلدان. وفي السبعينيات وبداية الثمانينيات، أصدر مذكّراته في عدّة أجزاء، واهتمّ بالأرشيف الجزائري الموجود في تركيا.



كانت تراقبهم وتسجّل أسماءهم[80]. وقد تكون هذه العلاقات المتميزة بين المَدرسيّين وجمعية العلماء هي التي دفعت، في نهاية الأربعينيات، طلبة مدرسة قسنطينة إلى الاستعانة بجريدة **البصائر**، لسان حال الجمعية، للتنديد بتصرّفات مدير مدرستهم[81].

ولم يكن طلبة المدارس يميلون إلى التوجّه الإصلاحي فحسب، بل كان لهم توجّه وطني أيضًا؛ إذ كانوا يتابعون أخبار الحركة الوطنية ومطالبها وانتقاداتها للسياسة الاستعمارية؛ فبحسب مالك بن نبي، كانوا يهتمّون بالمواجهة التي كانت تدور بين الأمير خالد والنائب ورئيس بلدية قسنطينة إميل Emile Morinaud (1865-1952)[82]، وكانوا ينتظرون صدور جريدة **الإقدام** للأمير خالد، وجريدة *Le Républicain de Constantine* لمورينو، كلّ أسبوع، لتتبّع أطوار هذه المواجهة[83]. وبحسب شهادة بن نبي، فإنّ أفكار الأمير خالد وكتاباته لقيت صدًى قويًا لدى طلبة المدرسة، فكانت "تعصف بأفكارهم وبمشاعرهم"[84].

والظاهر أنّ المدرسيّين لم يكونوا منفتحين على التوجّهات الإصلاحية والوطنية فحسب، بل كانوا أيضًا يتابعون مختلف وسائل الإعلام المتاحة لهم آنذاك، خاصة المنتقدة منها للنظام الاستعماري. ويذكر بن نبي أنّه كان يطالع العديد من الجرائد، ومنها ما كان ذا توجّه شيوعي مثل *L'Humanite* الناطقة باسم الحزب الشيوعي الفرنسي، و*La Lutte Sociale*، و**الإقدام**، و*L'Etendard*. وممّا لا شكّ فيه أنّ مختلف هذه المطالعات قد فتحت عقولهم وأعينهم على مشكلات العصر، خاصّة المشكلة الاستعمارية؛ فمعارضة جريدة **الإقدام** مثلًا لمصادرة أراضي الفلاحين، والأرقام التي كانت تقدّمها في ما يخصّ المساحات التي كانت تعطى للمستوطنين، وإحصائيات الأطفال الجزائريين غير المتمدرسين، كانت تذهل بعض هؤلاء الطلبة[85].

ولم يكن اهتمام المدرسيّين منصبًّا على المشكلات الداخلية فحسب، بل كانوا يتابعون أيضًا القضايا الراهنة لعصرهم، فإضافةً إلى اهتمامهم بأحداث الدولة العثمانية والصراع الذي كان يدور بين مصطفى كمال أتاتورك والحلفاء، والإعجاب الشديد الذي كانوا يبدونه تجاه "منقذ" تركيا الحديثة، كانوا يتابعون عن قرب أيضًا حرب الريف، التي كانت تشنّها فرنسا وإسبانيا ضدّ البطل محمد بن عبد الكريم الخطّابي. وكانت أخبار هذه الحرب تصل إليهم عن طريق الجرائد الأهلية والفرنسية، فقد كان الوسط المدرسي، بحسب مالك بن نبي، يتابع أخبار هذه الحرب، ويناقشها في مقهى بن يمينة، وهو المقهى الذي كان يتردّد إليه طلّاب المدرسة، وكانوا يتحمّسون لهذه الحرب، حتى إنّ منهم من كان يتوق إلى المشاركة في المقاومة إلى جانب الخطّابي[86].

أمّا مصطفى الأشرف، المتخرّج في مدرسة الجزائر بقسميها العادي والعالي، التي دخلها في بداية الثلاثينيات، فيروي لنا، في مذكّراته **أسماء وأماكن: مذكرات جزائر منسية**[87]، تجربته المدرسية منذ التحاقه سنة 1934 بالمدرسة الثعالبية، التي كان والده

---

80 Bennabi, pp. 163-164.

81 حزب جبهة التحرير الوطني، **الطريق إلى نوفمبر كما يرويها المجاهدون: المقاومة الوطنية والحركات السياسية حتى ليلة نوفمبر 1954**، مج 1، ج 3 (الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائرية، [د. ت.]).

82 من مواليد الجزائر. سيطر طيلة 60 سنة على الحياة السياسية في عمالة قسنطينة. بدأ حياته محاميًا. أصدر جريدة *Le Républicain de Constantine* الواسعة الانتشار، وتولّى العديد من المناصب والمسؤوليات: مستشار بلدي في قسنطينة في الفترة 1892-1935، ونائب عن قسنطينة (1898-1902 و1919-1942)، ورئيس بلدية قسنطينة خلال سنوات عديدة، ومستشار مالي، وعضو المجلس الأعلى للجزائر. ينظر:
Pierre Louis Montoy, *La Presse dans le Département de Constantine 1870-1918*, vol. 3 (Marseille: Université de Provence, 1982), p. 2562.

83 Bennabi, p. 112.

84 Ibid., p. 113.

85 Ibid.

86 Ibid., pp. 154-155.

87 Mostefa Lacheraf, *Des Noms et des lieux: Mémoires d'Une Algérie Oubliée*, 2nde ed. (Alger: Casbah Editions, 2003).
ونشرت المذكرات بالعربية بعنوان: مصطفى الأشرف، **أسماء وأماكن: مذكرات جزائر منسية** (الجزائر: دار القصبة للنشر، 2011).



أيضًا قد درَس فيها في نهاية القرن التاسع عشر. وبشأن علاقة طلبة المدارس بأساتذتهم الجزائريين، يذكر الأشرف أنّه كان يوجد نوع من "التواطؤ الخفيّ أو المعلن مع تلامذتهم، وضدّ الوصاية البيروقراطية الأجنبية"[88]، وبذلك كان من الصعب على الفرنسيين معرفة ما يدور في أذهان هؤلاء الأساتذة والطلبة. وفي هذا الشأن كان مدير أكاديمية الجزائر قد أشار، في تقريره للحاكم العامّ، إلى صعوبة مراقبة هذه المدارس، خاصّة في مرحلتها الأولى عندما كان كلّ أساتذتها من الجزائريين: فـ "مراقبة السلطات العسكرية لهذه المدارس كانت عبارة عن سراب، فالدروس كانت تقام على نحو مغلق بعيدًا عن أسماعنا. والروح الإسلامية هي التي كانت تُنشّط هذه المدارس بعيدًا عن أي تأثير آخر"[89]، وهو الأمر الذي حاولت "الإصلاحات" اللاحقة معالجته.

وفي ما يخص الوعي الوطني لدى أساتذة المدرسة، يذكر مصطفى الأشرف، من وجهة نظر الباحث لا الشاهد، أنّ أساتذة الثعالبية؛ مثل عبد القادر المجاوي (1848-1914)، وعبد الحليم بن سماية (1866-1933)، ومحمد السعيد بن زكري (1851-1914)، ومحمد بن أبي شنب (1869-1929)، كانت لهم ثقافة واسعة وشخصية قوية، ويضيف أنّ المجاوي كان معروفًا بمعاداته للإدماج منذ سنة 1887. وعن ميولهم الوطنية يقول: "إذا لم يكونوا قبل فترة الثلاثينيات حتى الأربعينيات كلّهم وطنيّين، بحسب موضة ذلك العصر، فقد كان لهم شعور وطني حقيقي، وكانوا ملتزمين يحبّون مصلحة بلدهم ويخدمونه بجد في ميدان التعليم"[90].

وفي ما يخص علاقة طلبة المدارس بالمحيط الاجتماعي والسياسي لفترة الثلاثينيات، يذكر الأشرف أنّ الاحتكاك مع قوى الحركة الوطنية قد جرى إبّان سنة 1936 والفترة 1938-1939، أثناء تأسيس حزب الشعب الجزائري، وكان ذلك داخل المقاهي والمطاعم "الأهلية". وقد بدأ الأمر أولًا بالحديث إلى مسؤولي هذا التيار، ثمّ المساهمة بالكتابة في جرائدهم السرّية. وقبل ذلك، يضيف أنه كان يقرأ هو وزملاؤه سرّيًّا جريدة **الأمة**، الناطقة باسم نجم شمال أفريقيا[91].

ويبدو أنّ الوعي السياسي الوطني الذي عرفته الجزائر ابتداءً من نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر 1942، بنزول الحلفاء في شمال أفريقيا وسقوط هيبة فرنسا، منذ انهزامها السريع أمام الألمان في حزيران/ يونيو 1940، قد شجّع الجزائريين على الانخراط في مطالب أكثر راديكالية، بصدور بيان الشعب الجزائري في 10 شباط/ فبراير 1943، وتشكيل حركة أحباب البيان والحرية في 14 آذار/ مارس 1944. وقد انعكس ذلك أيضًا على طلبة المدارس، وهو ما يشير إليه أحد التقارير الذي جاء فيه: "في سنة 1944 تشكّلت حركات سياسية داخل المدارس. يبدو أنّه كانت بينهم كلمة سر: ففي الوقت نفسه يتظاهر - من قسنطينة إلى الرباط - طلبة المدارس والمعاهد الإسلامية ضدّ الفرنسيين، ففي قسنطينة والجزائر استغلّ هؤلاء الصحافة وعاتبوا الحكومة على عدم معاملتهم مثل تلاميذ الثانويات والمعاهد الفرنسيين". وبحسب التقرير نفسه، أسّس طلبة مدرسة تلمسان تنظيمين سرّيين، الأوّل شعبة تابعة للاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، والآخر فرع للكشّافة الإسلامية الجزائرية[92].

وقد تكون هذه الأسباب الأخيرة، المتعلقة بالتطوّر السياسي السريع وضغط الحركة الوطنية، ونقص الإقبال على هذه المدارس والتوجّه إلى التخصّصات الجامعية الأكثر جاذبية للحاجة إليها في سوق العمل، هي التي دفعت السلطات الفرنسية سنة 1951 إلى تحويل هذه المدارس - بعد قرن من إنشائها - إلى ثانويات للتعليم العامّ تحت مسمّى الثانويات الفرنسية – الإسلامية، وقد تخرّج فيها عدد من خيرة مزدوجي اللغة من الطلبة الجزائريين.

---

88 Lacheraf, p. 279.

89 Académie d'Alger, *Rapport à Monsieur le Gouverneur Général*.

90 Lacheraf, p. 278.

91 Ibid., p. 303.

92 Janier, p. 20.



خاتمة

يتبيّن لنا أنّ أصل المدارس في الجزائر يعود إلى قرون عديدة سابقة للاحتلال الفرنسي للجزائر، وأنّ فرنسا أنشأت في البداية مدارس للتعليم العمومي، خاصّة بالجزائريين المسلمين من أجل فرنَسة المجتمع وإدماجه تدريجيًّا. لكنّ عزوف الجزائريين عن هذه المدارس دفع السلطات الاستعمارية إلى اتباع سياسة التقرّب لاحتواء العناصر "الأهلية"، باعتماد المدارس العربية العليا، الموجودة أصلًا، منطلقًا لمشروعها حتى تكون "همزة وصل" بينها وبين نخبة المجتمع الجديد الذي عملت على تشكيله على أنقاض المجتمع القديم.

ويظهر من التقارير الصادرة عن الهيئات الرسمية الفرنسية، وعن المشرفين على هذه المدارس، أنّ غرضهم قد كان في البداية إبعاد النفوذ الداخلي المتمثّل في مدارس الزوايا، والتأثير الخارجي المتمثّل في الجامعات الإسلامية التي كانت تستقطب الجزائريين، ثمّ تحوّل إلى التصدّي لدعاية الحركة الوطنية، وخاصة الحركة الإصلاحية منها، التي أصبحت مدارسها تنافس هذه المدارس وتشكّل خطرًا على أهداف السياسة الثقافية الاستعمارية منذ ثلاثينيات القرن العشرين.

لكنّ هذه المدارس الرسمية التي عوّلت عليها فرنسا لتكون حلقة وصل بينها وبين الجزائريين المسلمين، لم تؤدّ الدور الذي خطّطته السياسة الاستعمارية لها، فقد عانت توجّس الجزائريين منها منذ البداية وتجاهل المستوطنين لها، ثمّ تعرضت لمنافسة معاهد وثانويات التعليم العامّ الفرنسية العصرية التي تزايد إقبال الجزائريين عليها بمرور الوقت، وكان المتخرّجون فيها أحسن حالًا من حيث المكانة الاجتماعية وفرص التوظيف ومستوى المرتبات. وقد ساهمت هذه العوامل، إلى جانب عوامل أخرى، في تراجع جاذبية المدارس الثلاث قبل أن تصطدم بدعاية الحركة الوطنية والإصلاحية المتزايدة في العقدين الأخيرين من وجودها.

ويمكن القول، أيضًا، إنّ هذه المدارس قد سارت في نهايتها على عكس التوجّهات والأهداف التي رُسمت لها، وأنها لم تؤدِّ الدور الذي كانت تنتظره السلطات الاستعمارية منها، وهو أن تكون حلقة وصل بين فرنسا والمجتمع الجزائري المسلم؛ فقد تحوّلت، بفعل احتكاك تلامذتها بطلبة المعاهد والكليات الجامعية، إلى مكان للدعاية السياسية، وبرز العديد من خرّيجيها في الحركة الوطنية والثورة التحريرية. وقد ساهموا أيضًا بعد الاستقلال، في المجالين السياسي والثقافي، في إرساء دعائم الدولة الجزائرية الجديدة[93].

ومع ذلك، ما زالت هذه المدارس، في نظر العديد من الجزائريين، محسوبة على النظام الاستعماري، ويُنظر إلى أساتذتها وطلبتها بنوع من الريبة[94]، وقد أُلصق بهم أحيانًا وصف "المتعاونين" مع المستعمر، خاصّة بالنسبة إلى الذين لم يستجيبوا لنداء 19 أيّار/ مايو 1956 (نداء 19 ماي)، الذي دعا كلَّ الطلبة إلى ترك مقاعد الدراسة والالتحاق بالثورة؛ ذلك لأنّ معيار الوطنية قد تحدّد لدى الجزائريين بالمشاركة في الثورة أو عدمها، وهو الأمر الذي نصّت عليه النصوص التشريعية والقرارات السياسية منذ الاستقلال ورسّخته شيئًا فشيئًا. وتبقى هذه المسائل وما يتفرّع عنها مجالًا للتفكير والبحث متى توافرت لها المادّة الوثائقية والشهادات الحيّة.

---

93 للمزيد عن بعضهم، أمثال الطاهر قايد (قائد عسكري ومؤرّخ)، وزهير إحدادن (أستاذ في الإعلام ومؤرّخ، أسهم في انطلاق **إذاعة ثورة التحرير** 1956) وغيرهما. ينظر: حيمر.

94 بخصوص عدم بقائه في الجزائر بعد الاستقلال، ذكر لي علي مراد، الأستاذ السابق بجامعة السوربون، أنّ أحمد طالب الإبراهيمي، الذي كان مقرّبًا منه - إذ عملا معًا في جريدة **الشاب المسلم** *Le Jeune Musulman* – أخبره بأنّ وزير التربية آنذاك عبد الرحمن بن حميدة، المتخرّج هو الآخر في المدارس، قد أسرّ إليه بأنّ (مراد) محسوب على محمد الصالح صدوق، وبذلك جرى استبعاد الاثنين معًا من التعليم الجامعي. والأمر هنا لا يتعلّق بموقف مبدئي من أساتذة المدارس أو طلّابها بقدر ما هو متعلّق بمواقفهم السياسية أثناء "الثورة". والدليل على ذلك المكانة التي احتلّها العديد من طلّاب المدارس (مصطفى الأشرف، ومالك بن نبي، والعقيد لطفي (شهيد)، وغيرهم) في هياكل الجيش وجبهة التحرير الوطني (1954-1962)، والمسؤوليات التي تقلّدوها بعد الاستقلال. وقد عاد الجدل مؤخّرًا، خاصة في وسائل التواصل الاجتماعي، حول هذه المسألة بعد أن ذكر أحمد طالب الإبراهيمي، في الجزء الرابع من مذكراته، أنه يتمنّى أن يرى جامعات تحمل اسم علي مراد ومحمد أركون. علي مراد (1930-2017)، مقابلة شخصية، ليون، حزيران/ يونيو 2006.



المراجع

العربية

الأشرف، مصطفى. **أسماء وأماكن: مذكرات جزائر منسية**. الجزائر: دار القصبة للنشر، 2011.

بن باديس، عبد الحميد. "كلمة عن الجامع الأخضر عمره الله". **الشهاب**. مج 14، ج 4 (ربيع الثاني-جمادى الأول 1357هـ/ حزيران/ يونيو-تموز/ يوليو 1938).

بوتريد، عائشة. "التعليم العربي الحرّ ومؤسّساته من 1947 إلى 1962، قسنطينة نموذجًا". رسالة ماجستير. جامعة منتوري. قسنطينة، 2005.

جغلول، عبد القادر. **تاريخ الجزائر الحديث: دراسة سوسيولوجية**. ط 3. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية؛ بيروت: دار الحداثة، 1983.

حزب جبهة التحرير الوطني. **الطريق إلى نوفمبر كما يرويها المجاهدون: المقاومة الوطنية والحركات السياسية حتى ليلة نوفمبر 1954**. الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائرية، [د. ت.].

حيمر، عبد الوهاب. "طلاب المدارس الشرعية المسار العلمي والعملي (1850-1962)". أطروحة دكتوراه. جامعة عبد الحميد مهري. قسنطينة، 2022.

خليل، كمال. "المدارس الشرعية الثلاث في الجزائر: التأسيس والتطور 1850-1951". رسالة ماجستير. جامعة منتوري. قسنطينة، 2008.

زرهوني، الطاهر. **التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال**. الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1993.

سعد الله، أبو القاسم. **أفكار جامحة**. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.

________. **تاريخ الجزائر الثقافي**. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998.

السيّد، رضوان. "حوارية الجامع والمدرسة والجامعة". **الفكر العربي**. العدد 20 (آذار/ مارس-نيسان/ أبريل 1981).

صاري، أحمد. "ابن الموهوب: حياته وعصره". **مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية** العدد 9 (تموز/ يوليو 2001).

صاري، جيلالي. " مخطوطات قسنطينة ومصيرها بعد سقوط المدينة في سنة 1837". مجلة **الثقافة** (الجزائر). العدد 80 (آذار/ مارس–نيسان/ أبريل 1984).

فرحات، محمّد. "المدرسة الإسلامية خارج المسجد، البدايات والوظيفة والعلم: ثلاثة كتب للدكتور ناجي معروف". **الفكر العربي**. العدد 20 (آذار/ مارس-نيسان/ أبريل 1981).

قشي، فاطمة الزهراء. **قسنطينة في عهد صالح باي البايات**. قسنطينة: ميديا بلوس، 2005.

لعرج، عبد العزيز. "المدارس الإسلامية: دواعي نشأتها وظروف تطوّرها وانتشارها". **دراسات إنسانية** (جامعة الجزائر). العدد 1 (2001).



______. "مدرسة العباد (سيدي أبي مدين): نموذج للمدارس الإسلامية بالمغرب العربي". **دراسات إنسانية** (جامعة الجزائر). العدد 2 (2002).

معروف، ناجي. **نشأة المدارس المستقلة في الإسلام.** بغداد: مطبعة الأزهر، 1966.

هالم، هاينز. "أصول المدرسة في الإسلام". **الفكر العربي.** العدد 20 (آذار/ مارس-نيسان/ أبريل 1981).

الأجنبية

Académie d'Algér. *Rapport à Monsieur le Gouverneur Général sur les Médersas. Exposé historique et juridique*. Archives Nationales d'Outre-Mer (ANOM). Aix-en-Provence (Janvier 1924).

Ageron, Charles Robert. *Histoire de l'Algérie Contemporaine*, tome II: *De l'insurrection de 1871 au déclenchement de la guerre de libération (1954)*. Paris: PUF, 1979.

________. *Les Algériens Musulmans et la France (1871-1919)*. Paris: PUF, 1968.

Arab, Abdelhamid. "Les Manuscrits Algériens sous la colonisation française." *Dirassat Insania*. no. 1 (2001).

Arkoun, Mohammed et al. *Histoire de l'Islam et des Musulmans en France du Moyen âge à nos Jours*. Paris: Albin Michel, 2006.

Assemblée Financières Algériennes. *Session Ordinaire de mai-juin, 1925*. Alger: Impr. Nord-Africaines, 1925.

Bel, Alfred. *Note sur l'Enseignement Officiel Arabo-Musulman en Algérie (Mouderrès et Médersas)*. Archives Nationales d'Outre-Mer (ANOM) (1948). Côte 14H41

Bennabi, Malek. *Mémoires d'un Témoin du Siècle*. 2nde ed. Alger: ENAL, 1990.

Berbrugger, Adrien. "Un bibliothécaire en Campagne (1836)." *Revue Africaine*. no. 68 (1927).

Cambon, Jules. *Le Gouvernement Général de l'Algérie 1891-1897*. Paris: E. Champion, 1918.

Carrefours Sahariens: Vues des Rives du Sahara. Alger: CRASC, 2016.

Colonna, Fanny. *Instituteurs Algériens 1883-1939*. Alger: Office des Publications Universitaires, 1975.

Direction des Affaires Indigènes. *Note pour Mr. Le Gouverneur Général*. Archives Nationales d'Outre-Mer (ANOM). 14/12/1923. côte 8X414.

________. *Note pour monsieur Le Gouverneur Général*. Archives Nationales d'Outre-Mer (ANOM). 13/5/1924. Côte 8X414.

_______. *Note pour Mr. Le Gouverneur Général*. Archives Nationales d'Outre-Mer (ANOM). 13/12/1924. Côte 8X414.

Gouvernement Général de l'Algérie. *Exposé de la Situation générale de l'Algérie*. Alger: Imprimerie Victor Heintz, [n. d.].

Janier, Emile. "Les Médersas Algériennes." Centre des Hautes Etudes d'Administration Musulmane (CHEAM). 14/5/1948.

Lacheraf, Mostefa. *Des Noms et des lieux: Mémoires d'Une Algérie Oubliée*. 2nde ed. Alger: Casbah Editions, 2003.



Medersas 1851-1884, Rapport du Conseil de surveillance et de perfectionnement. Archives Nationales d'Outre-Mer (ANOM). Aix-en-Provence (1855). Côte 24S1.

Montoy, Pierre Louis. *La Presse dans le Département de Constantine 1870-1918*. Marseille: Université de Provence, 1982.

Pervillé, Guy. *Les Étudiants Algériens de l'Université Française 1880-1962*. Alger: Casbah Editions, 1997.

Pouillon, François (dir.). *Dictionnaire des Orientalistes de Langue Française*. Paris: IISMM-Karthala, 2008.

Poulard, Maurice. *L'enseignement pour les indigènes en Algérie*. Alger: Imprimerie Administrative - Gojosso, 1910.

Rey-Goldzeiguer, Annie. *Le Royaume arabe: La politique algérienne de Napoléon III, 1861-1870* Alger: Société Nationale d'Edition et de Diffusion, 1977.

Tablit, Ali. "British Opposition to the French Expedition Against Algiers (1830)." *Dirassat Insania*. no. 1 (2001).

Tengour, Ouanassa. "La fin des Médersas ou la raison d'une aventure coloniale: Tlemcen et Constantine 1850-1880." Unité de Recherche en Anthropologie Sociale et culturelle (URASC). Université d'Oran (n. d.).

Turin, Yvonne. *Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale: Écoles, médecines, religion, 1830-1880*. Alger: Entreprise Nationale du Livre, 1983.

Urbain, Ismayl. *Note sur l'Instruction Publique Musulmane*. Archives Nationales d'Outre-Mer, Aix-en-Provence (ANOM) (1948). Côte 12X71.

Weiler, A. *Les Médersas d'Algérie*. Centre des Hautes Etude d'Administration Musulmane (CHEAM). 19/12/1941.



التسلم Received
07-09-2022

التعديل Revised
10-04-2023

القبول Accepted
05-05-2023

الرقم التعريفي: DOI: https://doi.org/10.31430/PVWO3661

نجيب جورج عوض | Najib George Awad*

الكلام المعتزلي بصفته عابرًا للأديان: في البحث تطالعيًا وسياقيًا عن توجه معتزلي مسيحي**

Mu'tazilite *Kalām* as a Trans-religious Phenomenon: A Contextual and Observational Search for a Christian Mu'tazilite Orientation

تحاول هذه الدراسة النظر في الدراسات المعاصرة عن المعطيات المتوافرة عن المعتزلة في العصر العباسي، وتتقصى محاولة فحص تلك المعطيات من أجل رؤية إذا ما كانت تجيز لنا اعتبار الاعتزالية نموذجًا تاريخيًا عن وجود فضاء فكري عام واشتمالي عابر للأديان والطوائف يتجاوز حدود الانتماءات الدينية التقسيمية والمغايرة. وتحاول أيضًا أن تقترح أنه إذا كانت فكرة الاعتزال قد طمحت إلى تجاوز الانتماءات الدينية، وإن كانت كلمة "معتزلية" تسمى حالة تآلف عقلاني وفلسفي - لاهوتي معيّن طمح إلى تجاوز الانتماءات الدينية المتنوعة من دون أن يجبر أنصار هذا التآلف (المعتزلة) على التخلي عن إيمانهم الديني أو التحول إلى أشخاص لادينيين، فإنه يمكن المرء أن يتحدث عن "معتزلية مسيحية"، أو عن ظاهرة كلامية معتزلية تتفشى ضمن المسيحية، مثلما نتحدث عن "معتزلية إسلامية" و"معتزلية يهودية".

كلمات مفتاحية: المعتزلة، علم الكلام، المعتزلية المسيحية، العصر العباسي.

This paper examines contemporary studies of the extant data on the Mu'tazilite sect of Islam during the Abbasid era to investigate whether or not Mu'tazilism can be seen as a historical model of an intellectual sphere that was trans-religious, cross-confessional and rose above divisive and "othering" boundaries of religious affiliation. The paper proposes that if the concept of *īʿtizāl* indeed aspired to transcend religious affiliations, and if the term *muʿtazaliyya* refers to a particular state of intellectual, philosophical-theological affinity that aimed to overcome diverse religious affiliations without forcing its adherents to give up their own religious beliefs or to become non-religious, it is therefore valid to speak of a "Christian *muʿtazaliyya*", or a phenomenon of Mu'tazilite *kalām* (theology) permeating Christianity, just as one may speak about "Muslim Mu'tazilism" and "Jewish Mu'tazilism".

Keywords: Muʿtazilism, *Kalām*, Christian Muʿtazilism, Abbasid Era.

* باحث مشارك، جامعة بون، ألمانيا.

Associate Researcher at Universität Bonn, Germany.

najeebawad72@gmail.com

** هذه الدراسة هي النواة الفكرية الأولى للمشروع البحثي الأوسع الذي أعمل عليه بالإنكليزية منذ صيف 2021 والذي سينتج منه في مطلع عام 2024 كتاب كامل بالإنكليزية عنوانه المبدئي بالترجمة العربية: **اعتزالية مسيحية؟ دراسة حالة التطالع ما بين الكلام المسيحي والإسلامي خلال العصر العباسي المبكر**. أود هنا أن أعبّر عن امتناني للصديقة البروفسورة ساندرة كيتينغ Sandra Keating لقراءتها الدقيقة والمتأنية للمسودة الأولى لهذه الدراسة وللرسالة الالكترونية المليئة بالأفكار والتساؤلات العميقة والمستفزة فكريًا التي تكرمت وأرسلتها إليّ للتعليق على تلك المسودة. أنا شاكر أيضًا لزميلي السابق البروفسور المتقاعد يحيى ميشو Yahya Michot، الذي كرس جزءًا من وقته الثمين لقراءة المسودة نفسها والتعليق عليها.

This paper is the intellectual nucleus of a wider research project I have been working on in English since summer 2021, which is set to result in a book in early 2024 on the same subject, with the working Arabic title of "Aʿtizāliyyah masīḥiyyah? Dirāsah ḥālah al-taṭālluʿ ma bayn *al-kalām* al-masīḥī wa-al-Islāmī khilāl al-ʿaṣr al-ʿAbbāsī al-mubkir." I would like to express my thanks to my friend Professor Sandra Keating for her careful and thoughtful reading of the first draft of this study and for the email filled with deep and intellectually stimulating ideas and questions which she graciously sent to me for commentary on that draft. I am also thankful to my former colleague, retired Professor Yahya Michot, who devoted part of his precious time to reading the same draft and commenting on it.



مقدمة: من التوازي إلى المقارنة

يميل الباحثون في الحقل العلمي المعاصر إلى تطبيق مقاربة تقسيمية تحيزية Compartmentalization على دراسات العالم الإسلامي والتاريخ بين-الديني للجماعات التي انتمت إليه. فلطالما يُنظر إلى المسيحيين والمسلمين واليهود الذين عاشوا في ذاك السياق الإسلامي كأنهم عاشوا في ذاك السياق الوجودي Sitz im Leben باعتبارهم ثلاثة كيانات منفصلة عدائيًا ومتجزئة على نحو قطعي كلي بعيد عن التواصل والتفاعل، وإن صدف أن تواصل بعضهم مع بعض فإن هذا التواصل لم يأخذ إلا الشكل الدفاعي والتضادي الجدلي. يقترح ديفيد توماس، مثلًا، أن المسيحيين في العالم الإسلامي، على الرغم من أنهم اعتُبروا مفيدين للحكم الإسلامي بسبب خبراتهم وكفاءاتهم، لم يلقوا الترحيب والاحتضان المجتمعيين اللذين ينبغي أن يتلقاهما الأفراد المتساوون والمتكافئون في المجتمع الواحد الذي لا يفرق بين الأفراد على قاعدة الانتماء الديني. بل إننا نشهد شحذًا حادًا للخطوط المجتمعية والوجودية الفاصلة بينهم وبين المسلمين من أجل تحجيم وتقييد مشاركتهم الكاملة في مناحي الحياة المختلفة في الخلافة[1]. يتفق روبرت هويلاند مع قراءة توماس ويقترح أن المسيحيين والمسلمين "بدوا كأنهم عالمان متوازيان، إذ يطفو عالم العرب التخاصمي، القائم على الغزوات والمكون من مجالس عشائرية، فوق عالم مسيحيي الشرق الأوسط، ولا يكاد يتفاعل معه بصورة تتجاوز مسألتي الضرائب وتبادل أسرى الحرب"[2]. أما مايكل بن فيعلّق على فكرة "العوالم المتوازية" الديالكتيكية الهيغلية النمط بالإشارة إلى ما يلي: تُنحّي معظم عمليات إعادة التشكيل التاريخية لقصة العلاقات الإسلامية - المسيحية جانبًا الكم الهائل من الوثائق القديمة المتعلقة بالإسلام في ذاته، وتميل معظم الدراسات، بدلًا من ذلك، إلى التركيز على نحو شائع على تلك المواد والنصوص التي يعزز مضامينها غالبًا تصوير التلاقي بين-الديني بوصفه نموذج تضاد وصراع حضارات[3].

يمثل التقسيم التحيزي المذكور إحدى النتائج الأكاديمية التي ترتبت على الرؤية المذكورة المنتشرة في حقل دراسة الفكر اللاهوتي - الفلسفي في العالم الإسلامي. ولهذا، يجري تصنيف إرث الإسلام المبكر اللاهوتي - الفلسفي وتشطيره وفقًا للانتماء الديني لمؤلفيه وكتّابه. فيعامل الكلام والفلسفة المسيحية والإسلامية واليهودية على حد سواء كخطابات نتجت من ثلاثة نشاطات معرفية وفكرية منفصلة جرى تطويرها في محاذاة تعاكسية كي تنقل الرؤى الدفاعية التهجمية Polemic والعدائية Antagonizing والمغايرة للذات Self-otherizing التي حملها وتبناها أتباع تلك الأديان الإبراهيمية الثلاثة. وحتى حين يستقصي الباحثون إمكانية وجود تأثر وتأثير متبادلين يمكن كل نسخة من نسخ النشاط الفكري الثلاث أن تكون قد تركتها على النشاطين الآخرين وعلى سيرورة تطورهما، وأن يكون النشاطان الآخران قد تركاها عليها وعلى سيرورة تطورها، إلا أن الباحثين ما ينفكون يتحدثون عن احتمالية تأثير كهذا، وكأنه نتج من تفاعل طرف ديني متفوق مع أطراف أخرى غريبة وخارجية وأدنى مرتبة تقف على التوازي والتضاد معه. من النادر جدًا أن تجري مقاربة النشاط الفكري الإسلامي والمسيحي واليهودي المبكر باعتباره نشاطًا لثلاثة مكونات متساوية للثقافة المشتركة Cultural Koine نفسها ولمسيرة تشكيل هوية ثقافية واحدة ولسيرورة مشتركة عابرة للأديان.

في عام 2018، نشرت سارة شترومسا دراسةً عن الميل البحثي السابق، ناقشت فيها أن الباحثين اليوم يميلون إلى المقارنة بين تراثات المسيحيين والمسلمين واليهود الفكرية في العالم الإسلامي انطلاقًا من اعتبارها ممثلة لأجندات دينية كلية الاستقلالية

---

1 David Thomas, "Muslim Theologians and Christian Doctrines," in: David Thomas (ed.), *Christian Doctrines in Islamic Theology* (Leiden/ Boston: Brill, 2008), pp. 1-18.

2 Robert G. Hoyland, "Jacob of Edessa on Islam," in: G. J. Reinink & A. C. Klugkist (eds.), *After Bardisan: Studies on Continuity and Change in Syriac Christianity in Honor of Professor Han. J.W. Drijvers* (Leuven: Peeters, 1999), pp. 149-160, 151.

3 Michael Penn, *Envisioning Islam: Syriac Christians and the Early Muslim World* (Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 2015), p. 2.



والانعزال، ما يعني أن أولئك الباحثين يفشلون في الانتباه إلى الفضاء الثقافي الأوسع وما يكتنزه من معطيات داعمة لفهمنا لوجود تلك الفرق الثلاث خلال العصر العباسي المبكر[4]. تقترح شترومسا أن مقاربة المساهمات الفكرية (الفلسفية تحديدًا، بالنسبة إلى شترومسا) للمسيحيين والمسلمين واليهود من زاويةٍ ما يشطرها عن بعضها البعض، وما يصنفها ضد بعضها البعض وفق "إطار منهجي خطي مهيمن" لا تنجح إلا في خلق توازيات ومتحاذيات بين تلك الأديان، وفي اختزال القواسم المشتركة بينها إلى مجرد حالة تشارك تمييزي "بين تراثات ثقافية متباينة"[5].

ضد هذا النوع من المقارنة التمييزية، تقترح شترومسا منهجية فكرية مقارنة بديلة، وتؤكد أن مصطلح "مقارنة" في المقاربة البديلة يعني معاملة موضوع التساؤل "بوصفه جزءًا لا يتجزأ من كيان كلي واحد". هذا يعني أن "ما يبدو للعيان، وما يشكّل إلى درجة ما كيانات منفصلة يمثل أيضًا أجزاءً مكونة لكيان واحد لا يمكن استيعابه فكريًا إلا حينما تؤخذ مكونات هذا الكيان كافة في الاعتبار"[6]. تعتقد شترومسا أن منهجية المقارنة المقترحة هي المنهجية الأنسب لفهم أصول قصة الفلسفة العربية في العالم الإسلامي: يجب علينا قراءة قصة تلك الفلسفة من زاوية الثقافة الكلية الأوسع، وليس من زاوية "موقف الفيلسوف الفردي المعزول في قلب جماعته [الدينية]"[7]. ومن ثم، تؤكد شترومسا أن أفضل طريقة لدراسة مؤلفي الفكر الفلسفي هي بالنظر إليهم باعتبارهم فلاسفة ينتمون إلى الثقافة نفسها، بصرف النظر عن تياراتهم الدينية. أما ما يجعل هذه المقاربة مشروعة فهو ما نستخلصه من دراسة النصوص الباقية بين أيدينا، التي تفيد أن "الفلاسفة اليهود والمسلمين والمسيحيين قاربوا المواضيع الفلسفية بأساليب متشابهة على نحو منقطع النظير، كأنهم يعملون في الفضاء الفلسفي عينه"[8]. وفي الحصيلة، تستنتج شترومسا من هذا أن عزل وبتر جزء شائع من الصورة الدقيقة لتاريخ العالم الإسلامي الفكري المعقد والمتشعب يمكن مقارنته بعملية النظر بعين واحدة: سيكون للصورة الناتجة من هذا التطلع معنى، ولربما تبدو واضحة، إلا أنها ستكون في الحقيقة صورة منقوصة ومسطحة[9].

يدعوني مقترح شترومسا لطرح التساؤلات التالية: ماذا لو كان ما نمارسه هو التسطيح نفسه والنظر بعين واحدة في معرض دراستنا ظاهرة معرفية مثل الظاهرة المعروفة باسم "الفكر المعتزلي"؟ ماذا لو كنا عالقين في فخ اختزالي وبين براثن فهم خاطئ للميل الاعتزالي يعود إلى إصرارنا على قراءة الاعتزال من زاوية تصنيفية فرزية دينية كفيلة بأن تحبس التراث المعتزلي ضمن حلقة انتماء ديني حصري إقصائية مغايرة للذات؟ ماذا لو كان أولئك الموصوفون بأنهم "معتزلة" هم مفكرين يعطون الأولوية "للتقاليد الفلسفية الأوسع على حساب

---

4 Sarah Stroumsa, "Comparisons as a Multifocal Approach: The Case of Arabic Philosophical Thought," in: Guy Stroumsa (ed.), *Comparative Studies in the Humanities* (Jerusalem: Israel Academy of Sciences and Humanities, 2018), pp. 133-151, 141;

ينظر أيضًا حول منهجية المقارنة في سياق البحث الأكاديمي في العصر الإسلامي المبكر:
Adam H. Becker, *Fear of God and the Beginning of Wisdom: The School of Nisibis and Christian Scholastic Culture in Late Antique Mesopotamia* (Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 2006).

5 Stroumsa, p. 143.

6 Ibid., p. 146.

7 Ibid., p. 139.

8 Ibid., p. 146;

ينظر أيضًا:
Makram Abbé, "The Andalusian Philosophical Milieu," in: A. Meddeb & B. Stora (eds.), *A History of Jewish-Muslim Relations: From the Origins to the Present Day* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2013), pp. 764-777.

يشير آبي على نحو مثير للتفكير إلى أن "هناك بُعد مغايرة Alterity يمكن الوصول إليه فقط من خلال تفكيرنا في الآخر بصفته جزءًا من 'النحن'": Ibid., p. 766؛ ينظر أيضًا:
Stroumsa, p. 146.

9 Stroumsa, p. 147.



التطور الداخلي للفلسفة الإسلامية [أو لفلسفة أي دين آخر]؟"[10]. ماذا لو كان "الاعتزال" تجربةً ثقافية عابرة للأديان تهدف إلى خلق "ثقافة واحدة ديناميكية عقلانية متعددة الأوجه، بدلًا من تقليد إسلامي أو ديني مستقل [ومكتف بذاته]"؟[11].

أحاول في هذه الدراسة أن أطبّق منهجية المقارنة التطالعية السياقية على "الاعتزال" في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد. وأبحث في ما إذا كانت المعطيات المتوافرة لدينا حول أولئك العقلانيين المدعوين "معتزلة" تسمح لنا بأن نعتبر ممارسة "الاعتزال" تمثيلًا تاريخانيًا لوجود فضاء فكري - ثقافي مشترك يمضي وراء الانتماءات والولاءات الدينية التقسيمية والتغايرية. وأحاول أن أبين منطقية ومعقولية افتراض أن لفظة "معتزلي" كانت اسمًا لولاء عقلاني، فلسفي - لاهوتي وثقافي معين أراد أن يسمو فوق الانتماءات الدينية المختلفة، من دون أن يجبر أتباعه (المعتزلة) على التخلي عن إيمانهم الديني أو يدفعهم ليصيروا لادينيين. قد يكون "الاعتزال"، في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد على الأقل، تجسيدًا لما تدعوه شترومسا "المشترك الثقافي للعالم الإسلامي في التاريخ الوسيط"[12].

أولًا: حول "معتزلة" و"اعتزال"

يسود اليوم اعتقاد بين الباحثين مفاده أن "الأبحاث المتعلقة بأصول ومنشأ المعتزلة ما بين مطلع ومنتصف القرن [الثاني للهجرة]/ الثامن للميلاد تبقى شديدة التخمين وعرضةً للطعن والتفنيد"[13]. يُعتقد أن قابلية التفنيد والطعن تعود إلى طبيعة المصادر المتوافرة عن المعتزلة: "[تلك المصادر] نادرة، وتعود إلى حقبة تاريخية متأخرة وتتضارب محتوياتها فيما بينها. فأقدم المصادر [بين أيدينا] ينتمي إلى فترة لاحقة لا تقل عن قرن من الزمان عن مرحلة نشوء [الاعتزال]، كما أن الأدلة التي تقدمها هي أدلة تتسع مروحةُ مداها وارتباطها [بالاعتزال] إلى حد بعيد جدًا"، وهي نادرًا ما تكون خاليةً من التحيزات العقائدية[14].

تعرف كلمة "معتزلة" في **موسوعة الإسلام والعالم الإسلامي** بأنها تسمية تستخدم "للإشارة إلى شخص ما أو مجموعة من الأشخاص الذين انسحبوا [...] من دائرة الأغلبية في القرن [الثاني للهجرة]/ الثامن للميلاد"، وأن تلك التسمية دلت لاحقًا على

---

10 Ibid., 140.

11 Ibid., 143.

ينبغي أن ننتبه هنا للدراسات عن العلاقة بين هذا النوع من الثقافة العامة والفكر اللاهوتي المعتزلي من جهة، ومشروع الخليفة المأمون السياسي، الذي خلق نوعًا من البروباغندا الشعبية الفكرية التوجه كيما يوحد الأمة ويشرعن دعائم حكمه ويثبتها، من جهة أخرى. الباحثون اليوم منقسمون بشأن مدى ترابط هذين المنحيين وتأثير هاتين المسألتين في بعضهما. ينظر:

Marco Demichelis, "Between Mu'tazilism and Syncretism: A Reappraisal of the Behavior of the Caliphate of al-Maʾmūn," *Journal of Near Eastern Studies*, vol. 71, no. 2 (2012), pp. 257-274.

في الوقت الذي ينصح فيه بملاحظة أن الخليفة المأمون كان "قادرًا على استخدام الثقافة في تحقيق أهداف سياسية ودينية" (Ibid., p. 259)، إلا أنه على المرء ألا يستنتج تلقائيًا أن ظاهرة الاعتزال ما هي إلا حركة سياسية محضة. ومن المحتمل أن الظاهرة الثقافية العامة التي اقترنت بالاعتزال قد تصادف تناغمها مع أحد بنود أجندة الخليفة السياسية، ولربما حاول الخليفة المأمون في مرحلة ما أن يركب موجة هذا التطور الثقافي الشعبي في المجتمع وأن يستخدمه في خدمة أجندته تلك. إلا أن هذا لا يقول صراحةً أي شيء عن طبيعة التوجه المعتزلي في حد ذاته. إنني أعتقد أن المصادر ترسم لنا خلفاء السلالة العباسية: "كرعاة حموا كافة المدارس الفكرية، بما فيها تلك التي كانت في نزاع مع آرائهم" (Ibid.). ينظر على سبيل المثال:

Al-Ṭabarī, *Tārīkh al-Rusul wal-Mulūk (The History of the Messengers and the Kings)*, C. E. Bosworth (trans.) (New York: State University of New York Press, 1987), pp. 30-31.

12 Stroumsa, p. 138.

13 Racha El-Omari, "The Mu'tazilite Movement (1): The Origins of the Mu'tazila," in: Sabine Schmidtke (ed.), *Oxford Handbook of Islamic Theology* (Oxford: Oxford University Press, 2016), p. 130.

14 Ibid., p. 131.



"مدرسة لاهوت إسلامي تتبع قواعد معينة تعرف باسم 'الأصول الخمسة'"[15]. واحدة من المحاولات الكلاسيكية لتتبع آثار معنى مصطلح "معتزلي" ومنشئه هي التي قام بها إغناس غولدزيهر، والذي يلاحظ ارتباطًا بين انسحاب المعتزلة من جهة، وتوجههم العقلاني من جهة أخرى. إلا أن غولدزيهر يعتقد شخصيًا أن المصطلح المذكور يحمل دلالات دينية، وليس دلالات عقلانية صرفة. ويقول "أقترح أن التفسير الصحيح [لكلمة معتزلة] هو القائل بأن أصل تلك المجموعة يتجذر أيضًا في دوافع تقوية تخص مجموعةً من الناس الأتقياء والنسكيين"[16]. وفي رأيه، كان ظهور المعتزلة "نتاج دوافع دينية تشبه تلك الدوافع التي حملها أسلافهم، ولا شيء أبعد عن المعتزلة من الميل إلى التخلص من القيود بصورة تسبب الأذية للنظرة الدينية الأرثوذكسية إلى الحياة"[17]. يدعم غولدزيهر وجهة النظر تلك بالإشارة إلى حديث المؤرخين المسلمين عمن يعتبر "مؤسس جماعة المعتزلة"، واصل بن عطاء (700-748م)، ورفيقه عمرو بن عبيد (677-761م)، بصفتهما زاهدين متنسكين التزما قواعد الصلاة كافة، وسافرا على الأقدام مرات عدة للحج في مكة. يستنتج غولدزيهر من هذا قائلًا "إذا ما تطلعنا في قواميس السير الذاتية الخاصة بالمعتزلة نجد، حتى في الفترة الزمنية اللاحقة، أن طريقة العيش النسكية والزهدية تبوأت موقعًا مركزيًا ساميًا في ظهراني العديد من الشخصيات الشهيرة في أوساط [المعتزلة]"[18].

أميل إلى الاتفاق مع قرن غولدزيهر حالة "الانسلاخ" أو "الاعتزال" بأسلوب عيش تقويّ ونسكي تزهدي الطبيعة. وأوافقه في اعتقاده أن كون المرء معتزليًا لا يعني أنه يناهض الإيمان الديني العام. فكلمة "معتزلي" لا تمثل، في الحصيلة، اسمًا للأشخاص الملحدين أو لأشخاص معادين للدين في عقلانيتهم المعرفية. ومع الإقرار بكل هذا، فأنا لستُ مقتنعًا باختيار غولدزيهر تفسير المعتزلة وفق استراتيجية تقول "إما عقلاني وإما ديني". في رأيي، يمكن المرء أن يعتبر "الاعتزال" موقفًا تجاه العقلانية من دون أن يعني ذلك أن الاعتزال موقف "كلي التعارض" مع الاعتقاد الديني[19]. ومن الممكن أن يكون المعتزلة قد التمسوا موقفًا انسحابيًا كي يتمكنوا من إعادة تطوير خطاب شارح لتلك الأرثوذكسية الدينية. لهذا، فإن العقلانيين الأشداء، الذين يميلون إلى تبنّي موقف تفكير حر بالإيمان من خلال النأي عن دوائر الانتماء الديني التقسيمي الشعبية، كانوا هم أيضًا من علماء الكلام.

يلاحظ جوزيف فان إس، في دراسته للاستخدام الأصلي لتسمية "معتزلة"، أن الكلمة العربية المستخدمة في المصادر الأقدم هي "معتزل" وليست "معتزليًا". يعني هذا لفان إس أن المنادين بهذه التسمية لم يتبعوا فريقًا معينًا أو حراكًا محددًا (يشبه "الفرقة")، وإنما كانوا يعاملون بوصفهم أتباعًا لوجهات نظر معينة، وأشخاصًا يمارسون نشاطات خاصة محددة. يربط تاج الدين بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (1086-1153م)، في **كتاب الملل والنحل**، مصطلح "اعتزال" بفعل قام به واصل بن عطاء (من يعد "المؤسس") حين قرر أن يعزل نفسه وينسلخ عن حلقة حسن البصري (642-728م) العلمية: وكأن ابن عطاء اعتزل نائيًا بنفسه عن الانضمام إلى

15 Richard C. Martin (ed.), *The Encyclopedia of Islam and the Muslim World* (New York: Macmillan Reference USA, 2004), "Mu'tazilites, Mu'tazila," vol. 1, p. 497;

ينظر أيضًا:

Daniel Gimaret, "Mu'tazila," in: C. E. Bosworth et al. (eds.), *The Encyclopedia of Islam* (Leiden/ New York: Brill, 1993), vol. VII, pp. 783-793.

16 Ignaz Goldziher, *Introduction to Islamic Theology and Law*, Andras & Ruth Hamori (trans.) (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1981), p. 86.

17 Ibid.

18 Ibid., p. 87.

19 Ibid.



فرقة معينة[20]. يمثل هذا الخبر خلفية الاعتقاد أن "معتزلي" تسمى ذاك الذي اختار موقفًا وسطيًا (منزلة بين منزلتين)، من خلال النأي بنفسه عن دوائر ووجهات نظر راديكالية متطرفة. هذا ما جعل العديد من المؤلفين المسلمين يقولون إن "الاعتزال" ما هو إلا عقيدة الموقف الوسطي، أو موقف "الما بين-بين"، وأنه تعبير عن ميل نحو فكر معين[21]. يبدو، في الواقع، أن أولئك الكتّاب المسلمين الذين لم يكونوا يعدّون أنفسهم معتزلة يتحدثون عن المعتزلة على أنهم "فرقة" أو طائفة. بل إن بعض المؤرخين المسلمين المتعاطفين مع المعتزلة يسمونهم "الفرقة الناجية" بسبب ميلهم إلى الانسلاخ والنأي بالنفس واختيارهم أن يصبحوا "عقلانيين انطوائيين منعزلين" Intellectual Loners في منأى عن التطرفات الراديكالية المحيطة بهم[22]. ومع ذلك، فإنه من غير المؤكد أن الذين اختاروا الاعتزال فكريًا (أو حتى جسديًا)، على الأقل خلال القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، قاموا بذلك بنية تقديم أنفسهم بوصفهم فرقة أو طائفة أو ملة دينية معينة.

إن الأمر المثير للاهتمام في قراءة فان إس هو اقتراحه أن كلمة "معتزل" وشرح دلالاتها متوافران في السياق الإسلامي من طرف من يعدّون أنفسهم "معتزلة" قبل أيّ طرف آخر[23]. ويقترح فان إس أن الشروح كافة المتوافرة لدينا لكلمة "اعتزال" هي تفاسير متحيزة وتأويلية وليست وصفية، وهي ليست موضوعية تاريخيًا كونها إما صدرت عن المعتزلة أنفسهم لتخدم غرض تبريرهم لأنفسهم، وإما أنها صدرت عن معارضي المعتزلة كي تبخّس من قدر أولئك المنسحبين والنائين بأنفسهم. إن كان هذا الأمر صحيحًا، فإن معرفة البداية الفعلية لظاهرة "الاعتزال" وتاريخ ولادة الميل المعتزلي أمر مستحيل التعيين على نحو يقيني تام[24]. ويمكن المرء، على الأقل، أن يقول، بناءً على تقصي فان إس، إن لفظة "معتزل" لا تعني دائمًا لقب فرقة أو جماعة معيّنة قائمة في ذاتها. هناك دلالات مهمة على أن "الاعتزال" هو نأي عن أي انتساب ضيق إلى طائفة، الأمر الذي يمكّن المرء، في الحقيقة، من أن يلتقي في منطقة "ما بين-بين"، منطقة وسطى، مع أشخاص آخرين اتخذوا الميل نفسه ومارسوا السلوك نفسه[25].

يبدو، إذًا، أن الميل المعتزلي يُستخدم أساسًا لوصف وضع فكري Habitus أو أسلوب عمل لاهوتي - فلسفي modus operandi عابر للأديان وما فوق طائفي بطبيعته[26]. دلت كلمة "اعتزال" على لاهوتيين مثقفين شكلوا جمعًا نخبويًا ذا حدود فضفاضة ورخوة غير مقيدة، تكون عرضة للتبدل وفقًا للتطورات التي تطرأ على الظروف والسياقات الفكرية والثقافية والمجتمعية والسياسية التي ينتمي إليها أولئك اللاهوتيون. من هنا، فإن كلمة "اعتزال" تدل على توجه فكري هدفه التفكير عقليًا في الله

---

20 Josef van Ess, *Theology and Society in the Second and Third Centuries of the Hijra: A History of Religious Thought in Early Islam*, Gwendolin Goldbloom (trans.) (Leiden/ Boston: Brill, 2017), vol. 2, pp. 382-383.

ينظر: أحمد الشهرستاني، **كتاب الملل والنحل** (بيروت: دار المعرفة، 1993).

21 van Ess, p. 384.

22 Ibid.

23 Ibid., p. 386.

24 Ibid., p. 389.

25 لهذا، مثلًا، لم يكن بعض "الغلاة"، من أمثال عبد الله بن سبأ والمغيرة بن سعيد وكذلك بيان ابن سمعان، في دعمهم الشديد الحماس لعلي بن أبي طالب وللفكر الراديكالي المتعلق به (مثل القول بألوهية علي، واحتضان أفكار لا تنتمي إلى الفكر الأرثوذكسي، ودعم التشبيه التجسيدي Anthropomorphism وعملية تقمص الأرواح وسواها) يُعتبرون ممثلين لفرقة قائمة بذاتها. لقد نُظر إلى أمثالهم، بدلًا من ذلك، على أنهم أفراد سلخوا أنفسهم عن الإطار الجمعي وعن خط التدين الجماعي الشعبي العام، شاقين لأنفسهم سبلهم الخاصة. وقد تعرّض أولئك الأشخاص في النتيجة للإدانة والنبذ على قاعدة خياراتهم الفردية. يشبه موقف أولئك الغلاة تجاه الحلقة الجمعية الأوسع موقف أولئك العقلانيين والمتكلمين في أواخر القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد والقرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، الذي يمكن المرء أن يعتبره موقف "اعتزال".

26 Aziz al-Azmeh, *Arabic Thought and Islamic Societies* (London/ New York: Routledge, 1986), vol. 1, p. 199.



وفي الوجود. وقد تشكلت تلك العقلانية، كما هو معروف، في تلك المرحلة العباسية متأثرةً بالأرسطوطالية والأفلوطينية اللتين قُدمتا لمفكري تلك المرحلة وسيلةً لتفسير طبيعة الذات الإلهية[27]. لم يقتصر هذا التوجه العقلاني، الذي تشكل بالفلسفة اليونانية، على اللاهوتيين المسلمين فحسب، بل إنه مثّل عقلانية مشتركة استخدمها كل من علماء الكلام المسيحيين واليهود في تأليف خطاباتهم الكلامية.

سبق لريتشارد فرانك أن بيّن في دراسته لمعنى مصطلح "كلام" أن هذا النمط من الخطاب لم يعبّر عن قناعة أو انتساب دينيَّين محددَين، إنما هو ميل معين حصري للعقلانية[28]. يؤكد فرانك أن "الكلام" يقترن بوضع عقلاني عام (ميتافيزيقي ومنطقي وفلسفي)، بدل أن يقترن بأي اعتقاد ديني ضيق ومحدد وحصري. يعكس علم الكلام محاولة معتزلية أساسية لإخضاع التدين للبرهان العقلي[29]. ويعتبر المتكلمون العقلانية نمطًا معياريًا من أنماط التفكير وموقفًا لا يتحدث باسم تبجيل دفاعي خاص بإيمان ديني معين. إنها تعكس العقل اللاهوتي - الفلسفي فقط للمفكر الذي قرر أن ينسحب من فضاء التدين الشعبي للعوام وأن يمضي بعيدًا عن تفكير هذا الفضاء التبسيطي[30].

حدث هذا الانعزال والانسحاب من سياق المعتقدات التدينية العامة، إذًا، كي يتمتع المفكر المنسحب بشيء من الاستقلالية والحرية اللتين يحتاج إليهما ليعيد التفكير في تلك القناعات التدينية ويرتبها ويشرحها وربما يبررها أحيانًا، بعيدًا عن العوام الذين "تلقوا [تلك القناعات] على نحو بديهي واعتبروها صحيحة وذات معنى من دون تكلف عناء شرحها أو تبريرها عقلانيًا"[31]. يمكن المرء أن يعثر على هذا النوع من المنطق الكلامي خلال القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد في النصوص المعتزلية كافة تقريبًا، لكننا نجد المنطق نفسه في نصوص المتكلمين اليهود، مثل داود بن مروان المقمص، وكذلك نصوص المتكلمين المسيحيين، مثل ثاودوروس أبو قرة (750-830م) وحبيب خدمة أبو رائطة التكريتي (ت. 830م أو بعدها بقليل) وعمار البصري (ت. 845م أو ما بعدها). إن تلك التشابهات الصارخة تجعل من "الاعتزال" نوعًا معينًا من الكلام، لكنني أعتقد كذلك أنها تجعل من الكلام في حد ذاته ممثلًا لنمط عقلانية وتفكير عام ثقافي - مجتمعي عابر للأديان يقترن بالاعتزال.

لامست شترومسا السؤال المتعلق بالمعنى الدقيق لكلمتي "معتزلة" و"اعتزال"، وحاورت الأطروحات الكلاسيكية لغولدزيهر وفان إس[32]. تعتقد شترومسا أن عددًا من كتب طبقات المعتزلة [مثل كتب الهمذاني وابن المرتضى] تميل إلى تصوير واصل بن عطاء بصورة تماثل "النسّاك الأقدمين"[33] في تقواه وتزهده. وهي تلاحظ أنه على الرغم من سلوكه الزهدي، فإن الأخبار التي لدينا عن واصل بن عطاء تظهر أن الاعتزال لا يعني العزلة أو الانعزال التامين عن الآخرين. إنه يعني التفرد والتخصيص، أي أن يفرز المرء نفسه جانبًا، أو أن

---

27 Ibid., p. 195.

28 Richard M. Frank, "The Science of *Kalām*," *Arabic Sciences and Philosophy*, vol. 2 (1992), pp. 15-16.

من المفيد هنا الإشارة إلى أن الدراسة لا تبغي البتة أن تحصر الفكر العقلاني في الكلام المعتزلي وحده، فالتأثر بمفهوم العقل والعقلانية الفلسفيين كان شائعًا في ذاك العصر العباسي المبكر، حيث كانت الخطابات الكلامية لباقي المتكلمين من غير المعتزلة تتصف أيضًا بمحاكماتها العقلانية واعتمادها على منهجية التحليل المنطقي والقياسي والفلسفي.

29 Ibid., p. 18.

30 يلاحظ فرانك مُصيبًا أن كتابات المتكلمين والفلاسفة المسلمين الأوائل لا تحتوي تفريقًا حقيقيًا بين الفلسفة واللاهوت، ينظر: Ibid., p. 19.

31 Ibid., p. 22.

32 Sarah Stroumsa, "The Beginning of the Mu'tazila Reconsidered," *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, vol. 13 (1990), p. 265.

تستشهد شترومسا هنا بمقولة موجودة في أحد نصوص الكاتب الزيدي، ابن المرتضى، في كتابيه، **طبقات المعتزلة** و**المنية والأمل في شرح الملل والنحل**. ينظر:
Ibn Al-Murtaḍā, *Tabaqāt al-Mu'tazila (The Divisions of Mu'tazilites)*, S. Diwald-Wilzer (ed.) (Wiesbaden: Franz Steiner, 1961);

وكذلك في: أحمد بن يحيى بن المرتضى، **المنية والأمل في شرح الملل والنحل**، تحقيق م. ج. مشكور (بيروت: دار مكتبة الحياة، 1979).

33 Stroumsa, "The Beginning of the Mu'tazila Reconsidered," p. 268.



يرتقي فوق الآخرين فيما يتعلق بقدراته ومواهبه الخاصة. بكلمات أخرى، يعني اعتزال واصل اختياره موقفًا نخبويًا يميز فيه المرء ذاته من باقي العوام، من دون أن يعزل نفسه جسديًا أو مكانيًا عن التواصل معهم، أي إن الاعتزال انتقال من دائرة العوام إلى دائرة الخواص[34]. تقترح شترومسا أن معنى الاعتزال المذكور لم يظهر أول مرة في التاريخ مع واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، بل إن اشتقاق اسم الشخص من عملية اعتزاله كان أمرًا شائعًا في ظهراني الفريسيين اليهود والنساك والمترهبنين المسيحيين Anchorites[35]. تبدو تسمية المتزهدين وذوي الميول التزهدية بـ "المعتزلة" في السياق الإسلامي أمرًا شائعًا، بصرف النظر عن خلفية أولئك المعتزلة الدينية. ولهذا، فمن المنطقي أن نفترض أن معتزلة مثل ابن عطاء وابن عبيد وغيرهما من أوساط المسيحيين واليهود وجدوا "قبل وجود المعتزلية كما نعرفها، وأن تلك الكلمة أصبحت، لاحقًا وعبر مسار من التنويع، اسم علم يخص حركةً بعينها"[36]. حدث هذا الربط اللاحق لكلمة "معتزلة" بفرقة إسلامية محددة وحصرية، في رأيي، حينما بدأ المعتزلة من باقي الأديان يتعرضون للقمع والاعتداء من المسلمين، وحينما أُجبر المعتزلة المسلمون على أن يتحولوا إلى فرقة منغلقة على ذاتها، تحمل هوية ضيقة، في محاولة يائسة للنجاة من هجوم الفكر التقليدي على الفكر العقلاني.

دفع هذا المؤلفين المسلمين اللاحقين إلى التعبير عن هذا التنوع والانفلات في المعنى من خلال حديثهم عن طائفة معينة من الخبراء الدينيين المسلمين اسمهم "معتزلة" وكذلك عن آخرين كثر يميلون ببساطة إلى الاعتزال: كان يشار إلى زهاد ونسّاك ذاك الزمان أيضًا بأنهم "معتزلة"[37]. إن كان الأمر كذلك، فإن المتكلمين المسيحيين الآتين من خلفية كهنوتية، والذين تلقى جميعهم تعليمًا رهبانيًا وتدريبًا وأسلوب حياة تقويّين تنسكيّين، منهم ثاودوروس أبو قرة ونونوس النصيبيني وأبو رائطة التكريتي، على سبيل المثال، سيكونون، إذًا، بهذا المعنى، أيضًا "معتزلة". وإذا ما كان هذا النمط من الانسحاب يتمظهر على نحو رئيس في ممارسة علم الكلام العقلاني[38]، فإن متكلمين آخرين، مثل اليهودي داود بن مروان المقمص والمسيحي عمار البصري يمكن كذلك تسميتهم، بهذا المعنى، "معتزلة".

إن كانت كلمة "اعتزال" تعرف بدلالة اللاهوت العقلاني، وإذا كانت تلك العقلانية عينها إحدى صفات كم معتبر من نصوص الكلام العباسية في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، فلماذا لا يمكننا أن ندعو المتكلمين المسيحيين واليهود، وليس المسلمين فحسب، الذين ألفوا هذه العقلانية اللاهوتية والتزموا بها، كذلك بالمعتزلة بهذا المعنى؟ إن كان من مواصفات المفكرين المدعوين "معتزلة" أنهم "مفكرون أحرار"[39]، فما المانع في افتراض أن المتكلمين في ظهراني اليهود والمسيحيين خلال القرن العباسي

---

34 Ibid., pp. 268-269.

35 Ibid., pp. 272-273.

تقترح شترومسا صلةً محتملة بين واصل بن عطاء "والمسيحية الناطقة بالسريانية": Ibid., p. 267؛ وينظر أيضًا: Ibid., p. 288, n. 128.

36 Ibid., p. 273.

37 Ibid., p. 275.

38 في معرض دراستها للعقلانية اللاهوتية في الإسلام المبكر، تتقصى سابين شميتكه وجود هذا التوجه على امتداد التاريخ الإسلامي وتعتبره "مظهرًا بارزًا من مظاهر الفكر الإسلامي اللاهوتي" عمومًا إذ "إنه استمر باعتباره أحد الأركان الأساسية للفكر الإسلامي اللاهوتي" حتى "فجر الأصولية الإسلامية المعاصرة" ولا أقل من ذلك. إلا أن شميتكه، مع ذلك، تعلن أن المعتزلة هم "أقدم مدرسة" في اللاهوت الإسلامي العقلاني المعروف باسم "الكلام":
Sabine Schmidtke, "Theological Rationalism in the Medieval World of Islam," *Al-'Uṣūr Al-Wusṭā*, vol. 20, no. 1 (2008), pp. 17-29;

ينظر أيضًا:
Josef van Ess, "The Beginnings of Islamic Theology," in: John E. Murdoch & Edith Dudley Sylla (eds.), *The Cultural Context of Medieval Learning* (Dordrecht/ Boston: Rr. Reidel Publishing Company, 1973), pp. 87-111.

39 كذا يصف هاينريش شتاينر المعتزلة بأنهم "مفكرو الإسلام الأحرار" في أول الكتب التي كتبت على الإطلاق عن المعتزلة والاعتزال في حقل البحث العلمي الغربي، في عام 1865. ينظر:
Heinrich Steiner, *Die Mu'taziliten oder die Freidenker im Islam: Ein Beitrag zur allgemeinen Culturgeschichte* (Leibzig: Verlaf von S. Hirzel, 1865);

ينظر أيضًا: Goldziher, p. 86.



الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد كانوا أيضًا يعدّون "مفكرين أحرارًا" من جمهور العوام في ذاك المجتمع؟[40] وإذا كانت تسمية "مفكرين أحرار" تصنيفًا عموميًا يجمع تحت مظلته كل من كانوا، أو كان يعتقد أنهم ذوو ميول فكرية عقلانية أكثر من أرثوذكسية، فمن الممكن لهذا التعبير أن يدل على "نوع من أنواع الفكر المستقل" لأفراد لم يؤسسوا فِرقًا وطوائف ونِحلًا[41].

قدّم ديفيد سكلير عرضًا مهمًا لنمط الاعتزال اليهودي في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، الذي يدعم فهم الاعتزال الذي أقترحه في دراستي هذه. وناقش أن انتشار الفكر المعتزلي ولاهوته العقلاني الفلسفي أمر مثبت في نصوص اللاهوت التي تركها المتكلمون اليهود، مثل داود بن مروان المقمص، وسعدية بن يوسف غاوون، وصموئيل بن حفني، ويوسف البصير. وأشار إلى أن أهم ما يمكن المرء أن يستخلصه من النصوص الكلامية التي كتبها أولئك المتكلمون، أن: "الكلام المعتزلي كان له تأثير مبكر نسبيًا في أوساط اليهود. إصرار الكلام (الالتزام الديني، حتمًا) على البحث العقلي في المواضيع اللاهوتية، وأهمية حرية الإرادة البشرية، والإصرار على التوحيد الإلهي، ومسألة الشر، وكذلك باقي الأفكار المعتزلية كلها وجدت صدى بين ظهراني قسم معتبر من المجتمع اليهودي، وقد تناغمت مع المواقف اليهودية اللاهوتية التقليدية. بالنسبة إلى كثيرين من اليهود، قدم الفكر المعتزلي مقاربةً تحليلية عقلانية ممنهجة لفهم عناصر ومكونات الخبرة الدينية"[42].

ومع أنه من الجائز أن يكون مثل هذا الفكر المعتزلي كلامي الطبيعة قد وصل إلى اليهود من خلال الاطلاع على نصوص الكلام الإسلامية والمسيحية أو من خلال النقاش والتجادل كلاميًا مع المسلمين والمسيحيين، فإن هذا النوع من الفكر، كما يؤكد سكلير، "جرى امتصاصه بقوة ودمجه في الثقافة اليهودية خلال فترة من الزمن إلى درجة جعلته يصبح فكرًا يهوديًا أصيلًا"[43].

إذا كان يمكن المرء أن يتحدث عن "اعتزال يهودي" فإن هذا يدعونا للأخذ في الاعتبار تفاسير مختلفة عن تسمية "معتزلي" وعن دلالات "اعتزال". ويدعونا هذا التطالع Crosspollination ما بين الكلام الإسلامي واليهودي، خاصةً خلال القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، لشق مسار بحثي موازٍ عن "اعتزال مسيحي" لنتحرى آثاره ومعالمه في نصوص علم الكلام المسيحي لتلك المرحلة التاريخية. لا ينبغي أن يمنعنا وجود أدبيات الردود على الإيمان المسيحي التي حملتها نصوص المسلمين المعتزلة من أن نفترض وجود نسخة من الاعتزال ذات تعبير ثقافي ولاهوتي مسيحي. مثل هذا الهجوم الدفاعي Polemic على المسيحية ما هو سوى دعوة للاشتباه بحالة عبور للحدود الفاصلة بين المتكلمين المسلمين والمسيحيين واليهود، والتي تُمظهر سياقًا عقلانيًا معتزليًا

---

40 في حقل الدراسات المتعلقة بعلم الكلام اليهودي في العصر الإسلامي المبكر، تم إنتاج دراسات تعرف بنسخة "الاعتزال" اليهودية التي وجدت في تلك المرحلة. للاطلاع على بضعة نصوص من تلك الدراسات، ينظر:
H. Ben-Shammai, "A Note on Some Karaite Copies of Mu'tazilite Writings," *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, vol. 37 (1974), pp. 295-304; H. A. Wolfson, *Repercussions of the Kalām in Jewish Philosophy* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1979); L. E. Goodman, *Jewish and Islamic Philosophy: Crosspollinations in the Classical Age* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1999); L. E. Goodmann, "Crosspollinations: Philosophical Fruitful Exchanges between Jewish and Islamic Thought," *Medieval Encounters*, vol. 1 (1995), pp. 323-357; Schmidtke; C. Adang & D. Sklare (eds.), *A Common Rationality: Mu'tazilism in Islam and Judaism* (Würzburg: Ergon, 2007); Sarah Stroumsa, "The Muslim Context in Medieval Jewish Philosophy," in: S. Nadler & T. Rudavsky (eds.), *The Cambridge History of Jewish Philosophy: From Antiquity through the Seventeenth Century* (Cambridge: Cambridge University Press, 2008), pp. 39-59.

41 Sarah Stroumsa, *Freethinkers of Medieval Islam: Ibn al-Rāwandī, Abū Bakr al-Rāzī, and their Impact on Islamic Thought* (Leiden/ Boston: Brill, 2016), pp. 6-7.

تستخدم شترومسا في كتابها هذا مصطلح "مفكرون أحرار" على نحو خاص وحصري كي تشير إلى "الموقف الرافض لسلطة كل من الوحي والأديان الموحى بها": Ibid., p. 7. وعلى الرغم من هذا، فإنها تعترف بمشروعية استخدام هذا التعبير بالمعنى المذكور في الأعلى.

42 David Sklare, "The Reception of Mu'tazilism among Jews who were not Professional Theologians," *Intellectual History of the Islamicate World*, vol. 2 (2014), pp. 19-20.

43 Ibid., pp. 21, 33.



مبكرًا اشترك فيه عقلانيون من خلفيات دينية مختلفة في عملية خلق "تشاركية فكرية متفردة، كان تبادل الأفكار والنصوص وأنماط الخطاب الدائم فيها هو المعيار الناظم وليس الاستثناء"[44]. إن كان الأمر كذلك، فإن البحث عن نسخة مسيحية من ظاهرة الاعتزال الثقافية الشائعة والعابرة للأديان لهو أمر مشروع ومطلوب حتمًا[45].

ثانيًا: الاعتزال: من حالة "النخبة" إلى حالة "الفرقة"

1. "اعتزال" بصفته توجهًا فكريًا نخبويًا

يستخدم الشهرستاني، في **كتاب الملل والنحل**، مفردة "اعتزل" بمعنى "انفك عن/ نأى بنفسه عن"، فيقول على سبيل المثال: "ومن قال: 'يوصف الباري بما يوصف به الخلق أو يوصف الخلق بما يوصف به الباري تعالى'، فقد اعتزل عن الحق"[46]. ويستخدم هذه المفردة بالمعنى نفسه حين يروي قصة أول استخدام لـ "معتزلة" لتسمية واصل بن عطاء ورفاقه بعد أن انفكوا عن جماعة القدريين: "فتسمى هو وأصحابه معتزلة"[47]. ويتابع شارحًا أن أولئك المعتزلين تعلموا الفلسفة والمنطق ومن ثم وءاموا بينها وبين التفكير اللاهوتي مشكّلين من هذا الدمج المنهجي أسلوبًا علميًا جديدًا اسمه "الكلام". وبحسبه، حدث كل هذا خلال عصر الخليفة المأمون[48].

في موقع آخر، يقرن الشهرستاني "الاعتزال" بالرهبنة، فيدعو أبو موسى المزدار "راهب المعتزلة"[49]. وهو يستخدم التوصيف نفسه حرفيًا للحديث عن المزدار في موقع آخر من كتابه، مضيفًا هذه المرة أنه كان ناسكًا تزهد[50]. الأمر الأكثر إثارة أن الشهرستاني يكرّس في موقع آخر من كتابه فصلًا كاملًا للحديث عن "معتزلة" بصفتها تسمية ملة معينة، وليس مجرد تسمية لسلوك Habitus سياقي ما. ويدعو الشهرستاني هنا المعتزلة "طائفة"[51]، وهو يتحدث عن قادة هذه الطائفة لا بصيغة رهبان منسحبين، وإنما بصيغة ممثلين لفريق محدد الهوية، كأنهم صناع قرار الفرقة وأولئك الذين يجادلون باسمها وبالنيابة عنها. كذا يصف الشهرستاني، مثلًا، أبا الهذيل العلاف حين يسميه "شيخ المعتزلة ومقدم الطائفة ومقرر الطريقة والمناظر عليها"[52].

لا يمكن المرء هنا إلا أن يلحظ طريقتين مختلفتين للكلام عن "الاعتزال" في طرح الشهرستاني. لدينا في نصه تلميح لسيرورة تطورية تتعلق بالاعتزال، حدثت بدءًا من القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد واستمرت في القرون اللاحقة. ويفيدنا حديثه عن المعتزلة برواية تطورية بدأت بالاعتزال تعبيرًا عن ميل سلوكي عام، وانتهت بالاعتزال تعريفًا لفرقة دينية خاصة.

إنني أعتقد أن الاعتزال بوصفه تعبيرًا عن توجه فكري عام هو الذي يعكس على نحو أفضل وأكثر منطقية طبيعة السياق الإسلامي المبكر السوسيوثقافية والفكرية في القرنين الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد والثالث للهجرة/ التاسع للميلاد. لقد بدأ بعض

44 Schmidtke, p. 20.

45 Sabine Schmidtke & Gregory Schwarb, "Introduction," *Intellectual History of the Islamicate World*, vol. 2 (2014), pp. 1-6; Sidney H. Griffith, "Faith and Reason in Christian *Kalām*: Theodore Abū Qurrah on Discerning the True Religion," in: S. Kh. Samir & J. S. Nielsen (eds.), *Christian Arabic Apologetics during the Abbasid Period, 750-1258* (Leiden: Brill, 1994), pp. 1-43.

46 الشهرستاني، ص 11.

47 المرجع نفسه، ص 20.

48 المرجع نفسه، ص 21.

49 المرجع نفسه.

50 المرجع نفسه، ص 57.

51 المرجع نفسه، ص 35-37.

52 المرجع نفسه، ص 41.



الباحثين اليوم يحاولون اقتراح قراءة جديدة أكثر تقصّيًا وتمحيصًا وأقل تعميميةً وتسطيحًا للديناميكيات المجتمعية والفكرية التي اتصفت بها تلك المرحلة التاريخية وذاك السياق الحياتي في الشرق الأوسط. ففي عام 2018، قارب جاك طنوس مسألة التشظي المجتمعي والتراتبية الاجتماعية في الشرق الأوسط، قبل العصر الإسلامي المبكر وأثناءه في كتابه **صناعة الشرق الأوسط في التاريخ الوسيط**[53]. وفيه يشرح ديناميكيات الحياة اليومية الاجتماعية وبين-الدينية التي عاش فيها المؤمنون العاديون من العامة المسيحيين والمسلمين، والذين كانوا في الواقع يمثلون الأغلبية الساحقة في السياق المجتمعي للإسلام المبكر. يكتشف طنوس في قلب هذا السياق وجود نخب دينية جنبًا إلى جنب مع أشخاص متدينين عاديين من العوام البسطاء وغير المتعلمين. وفي الوقت الذي كان فيه أتباع النخبة من ذوي التعليم العالي، يضمون في أوساطهم نخبة المفكرين واللاهوتيين والمثقفين المؤثرين ضمن جماعاتهم الدينية، فإن الغالبية الطاغية كانت تضم أشخاصًا أميّين، بل بسطاء فكريًا، شكلوا انتماءهم الديني وفقًا لحاجات خاصة براغماتية وظرفية صرفة. إن السياق المجتمعي التاريخي الفعلي الذي تقدّمه تلك التركيبة لنا، كما يناقش طنوس، هو سياق معرفي ووجودي عابر للمذاهب والأديان والثقافات إلى درجة تعارض فكرة "نظام ملة ثابت"، التي تحكمت في كيفية مقاربة مؤرخي الشرق الأوسط في التاريخ الوسيط آليات دراستهم للإسلام المبكر[54]. لم يتكون، إذًا، الإسلام والمسيحية المبكران في الشرق الأوسط من كتلة بشرية صلبة أحادية، سواء ثقافية أو دينية، بل شكّلا ظاهرتين دينيتين وثقافيتين انتمت إليهما شرائح بشرية ومجتمعية متعددة، بينها فئات بشرية متعلمة - نخبوية وأخرى من فئة العوام - البسطاء، وذلك مع سعة انتشار الشريحة المجتمعية الثانية[55]. يستنتج طنوس من تلك المعطيات السياقية الخلاصة التالية: "إن تركيزنا بوصفنا باحثين تاريخيين على جماعات ما، أو عدم تركيزنا على جماعات أخرى، من زاوية العلاقة بين تلك الجماعات – كيف يتواصل البسطاء مع المتعلمين، كيف تحوّل المسيحيون البسطاء إلى مسلمين بسطاء، وكيف تواصل المتعلمون المسلمون مع البسطاء المسيحيين والبسطاء المسلمين الذين انحدروا من العوام المسيحيين، وسواها – هو الذي يجعلنا نحظى بمقاربة محكمة للتاريخ القديم المتأخر والمسيحية والإسلام في التاريخ الوسيط ونتعلم رؤيتها في ضوء جديد"[56].

يمثل البنيان الذي يشكله طنوس في كتابه سياق عيش مسيحي - إسلامي أو بين-ديني حي وأكثر تنويعًا وديناميكية وتطيفًا مما نميل إلى تصوره عادةً. ما يستخلصه المرء من تلك الأطروحة هو أن المجتمع خلال العصر الإسلامي المبكر كان واقعًا متعدد الشرائح والفئات المجتمعية، يتكون من شخصيات نخبوية مثقفة دينيًا وفكريًا تمثّل الأقلية، ومن مؤمنين متدينين ضئيلي التعليم وبسطاء يمثلون الأغلبية الشعبية الساحقة.

هذا النسيج المجتمعي هو ما أتحدث عنه في هذه الدراسة أنهم خواص نخبويون يتمايزون من عوام أو عامة شعبية. إنني أقترح أن المفكرين النخبويين، الذين انخرطوا في علم الكلام الفلسفي أثناء القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، خاصةً ما بين فترتي حكم الخليفة المهدي والخليفة المأمون، مثّلوا خاصة المجتمع من العلماء والمتعلمين. وقد كان هؤلاء مسلمين ومسيحيين ويهودًا، ولم يكونوا يُعتبرون جزءًا لا يتجزأ من شريحة الأغلبية الساحقة للمؤمنين البسطاء العوام، بل كان يُنظر إليهم بوصفهم أفرادًا انسحابيين ومتعالين. لقد كانت نخبة علماء الكلام من ذوي الميول الفلسفية والفكرية في المجتمع منعزلة ومفارقة لباقي المؤمنين

53 Jack Tannous, *The Making of the Medieval Middle East: Religious Society and Simple Believers* (Princeton/ Oxford: Princeton University Press, 2018).

54 Ibid., p. 7.

55 Ibid., p. 258.

56 Ibid., p. 501.



العوام البسطاء. تدل كلمة "اعتزال"، بهذا المعنى، على حالة اعتبارية وليس على حالة فصلية: إنها دلالة على توجه فكري ومعرفي، وليست اسم علم لفريق أو طائفة واحدة.

يروي عمرو بن بحر الجاحظ (ت. 868م)، في إحدى رسائله المتعلقة بالكلام، أن ممارسي هذا الخطاب الفكري اختاروا أن ينأوا بأنفسهم عن المجتمع الأوسع حين أدركوا أن عامة الناس تفضّل الإفتاء على نحو عارم، الأمر الذي يراه الجاحظ فرعًا ثانويًا من فروع المعرفة والعلم – على الكلام– الذي يعدّه العلم الأصلي الأول. ويشرح الجاحظ أن المتكلمين تخلوا عن الساحة العامة للقضاة والحكام، متيحين لهم الفرصة للحكم والقضاء بدلًا منهم. ويقول إنهم قاموا بذلك على الرغم من قناعة المتكلمين أن "آلتهم أتم، وآدابهم أكمل، وألسنتهم أحدّ، ونظرهم أثقب، وحفظهم أحضر، وموضع حفظهم أحصن"[57]. ما يقوله الجاحظ هو أن أولئك الذين انخرطوا في علم الكلام، والذين كان المعتزلون الشخصيات الأساسية بينهم[58]، اختاروا النأي بالنفس عن التوجهات المعرفية والفكرية المهيمنة، والتي شغلت حياة الأغلبية الشعبية العامة في مجتمع القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد.

في ضوء كلام الجاحظ عن علم الكلام، وممارسة المعتزلة للكلام، يمكننا أن نقول إن كلمة "اعتزال" توصّف هنا موقفًا وليست اسم علمٍ تعريفيًا يخص فرقةً محددة[59]. إنه تعبير عن الميل النخبوي والمتعالي الذي نحا في اتجاهه المتكلمون سعيًا لتمييز أنفسهم من باقي أغلبية عامة المؤمنين البسيطة، أولئك الذين فضّلوا الفقه على الكلام، وذلك على قاعدة تقدير المتكلمين وتثمينهم أكثر من غيرهم للفلسفة والثقافة والعلم. يمكن أولئك النخبويين، الذين اتبعوا هذا النوع من الانسحاب والنأي، أن ينحدروا من أي خلفية دينية، ويمكن تسميتهم جميعًا "الخواص" طالما أنهم يميلون إلى تبنّي رؤية فكرية للعالم ونمط فكري يختلفان عن تيارات الفكر التي يتّبعها العامة في الجماعات الدينية التي ينتمون إليها. ويمكن أولئك النخبويين أن يسموا معتزلة طالما أن هذا المصطلح يعبّر عن حالة انسحاب ونأي فكريين بالنفس عن النشاطات الفكرية الشعبية لعامة المؤمنين.

يمكن أن تزودنا مقاربة الاعتزال من ذاك النفاذ التفسيري بمعطيات موثوقة أكثر عن الهوية والحياة التاريخيتين الفعليتين للأشخاص الأوائل الذين سمّوا "معتزلة"، وعما قاموا به وما لم يقوموا به في الواقع. يتوقف جوزيف فان إس، في معرض تأمله في منشأ واصل بن عطاء وحرفته، عند بعض الإشارات في قصائد الشعر العربي التي تصف واصل بأنه "غزال". يعامل فان إس محاولة استنتاج حرفة واصل من خلال مثل تلك الإشارات الشعرية على أنها محاولة تقوم على "افتراضات مزيفة متناقضة" Reduction Ad Absurdum، ومن ثم يؤكد أنه "لو كان واصل مجرد غزال وضيع، لكان من الاستحالة عليه أن يتمكن من تأسيس مثل هذه المنظمة الدينية المحترمة [يعني المعتزلة]، التي استقطبت لها أتباعًا من بلاد فارس وصولًا إلى مصر وبلاد المغرب"[60]. يبدو لي هنا أن "معتزلة" ترد بوصفها تسمية لحالة جمعية طائفية أخذت شكل الفرقة منذ اللحظة الأولى لظهورها. ولكن ماذا لو لم يكن الوضع على هذه الحال، ولم يكن الاعتزال يعبّر عن "منظمة دينية محترمة تسعى لاستقطاب أتباع"؟ المعطيات التي عرضتها في الأعلى تجعلنا نقول إنه لا يوجد ما يمنع من الافتراض أن واصل لربما كان في الواقع مجرد حرفي أو مجرد "مولى"، حتى لو كان

57 عمرو بن بحر الجاحظ، **رسائل الجاحظ**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج 4 (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1964)، ص 250.

58 يقول الجاحظ في هذا السياق: "والمتكلم اسم يشتمل على ما بين الأزرقي والغالي وعلى ما دونهما من الخارجي والرافضي، بل على جميع الشيعة وأصناف المعتزلة، بل على جميع المرجئة وأهل المذاهب الشاذة"، ينظر: المرجع نفسه.

59 أعتقد أن اعتبار الخريطة الفكرية والكلامية في العصر العباسي المبكر كانت مقسمة إلى فرق ومدارس محددة تفصل بينها حدود تعريفية صارمة وتمييزية تشبه نموذج المدارس والمذاهب الفكرية الذي بدأ العالم الأكاديمي الغربي يقسم خطابات المفكرين إليه بدءًا من القرن التاسع عشر هو اعتبار يستحق التمحيص والنقد والتدقيق. علينا أن نعيد جديًا، في قناعتي، النظر إلى الفكر الإسلامي المبكر على أنه كان فعلًا مقسمًا تاريخيًا إلى فرق ومدارس، حتى لو كانت نصوص المؤرخين المسلمين تخبرنا أن أمة الإسلام (تبعًا لحديث ينسب إلى الرسول) انقسمت إلى سبعين فرقة وملة. من وجهة نظر تاريخية، هذا التصور يستحق النقد والتفنيد، وأنا أعكف على كتابة دراسة حول هذه المسألة. للأسف، لا يتسع المجال في هذه الدراسة للاستطراد حول هذه النقطة.

60 Van Ess, *Theology and Society*, p. 273 (pp. 270ff).



مثل هذا الموقع الاجتماعي أو مهنة الغزال المتدنيِّين سيقترحان قدرته الضئيلة على استقطاب أتباع إلى فريق ديني يسمى عليه. لن تكون هذه المسألة بالأمر المؤثر بعد الآن إذا لم يكن واصل أو أي أحد من أوائل المعتزلة قد رغب، في الدرجة الأولى، في خلق فرقة دينية خاصة. لقد اختاروا موقف الاعتزال تبعًا لقناعات ومواقف فكرية خاصة.

إذا كانت القراءة الآنفة الذكر مقبولة تفسيريًا وسياقيًا، فلا شيء إذًا يمنعنا من افتراض أن المتكلمين المسيحيين واليهود، لا المسلمين فحسب في هذا العصر المبكر، مثّلوا بعلمهم عالي المستوى وتعقيدات فكرهم الفلسفي واللاهوتي أشخاصًا ذوي ثقافة عالية نخبوية (أي معتزلة) في قلب أغلبية ساحقة من المؤمنين الدينيين البسطاء ضئيلي التعليم في المجتمع. ما عزل هؤلاء عن أولئك كان المحددات الثقافية والفكرية التي التزموا بها وشكّلوا عاداتهم السلوكية العقلية في ضوئها. ما لدينا هنا، في الواقع، هو حالة مشابهة لحالة ثقافية مجتمعية شاعت أيضًا في فضاء السلوك النخبوي في العصر السابق للإسلام، الذي تميزت به الثقافة الهيلينية الكلاسيكية، حيث كانت تلك الحالة العامل الحاسم في "عملية تعريف الذات والحيثية الاجتماعية، بصرف النظر عن الانتساب الطائفي والمذهبي"[61]. تذكرنا حالات الاعتزال في القرنين الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد والثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، على ما يبدو، بهذا الميل الثقافي في العصر المذكور، وكأن أولئك النخبويين الذين عزلوا أنفسهم فكريًا عن المؤمنين البسطاء ضئيلي التعليم وجّهوا أنفسهم ووعيهم إلى الذات وميولهم الثقافية نحو الولاء للتراث اليوناني الكلاسيكي الفلسفي والالتصاق به[62]. ما لدينا هنا هو انتساب جعل من أولئك المعتزلين "خواصًا" و"نخبة" اعتمدت الفكر الأرسطوطالي والأفلوطيني حجر الأساس للعلم والثقافة، وذلك خلافًا لأغلبية العوام الذين اعتبروا النص الديني، القرآن والكتاب المقدس، والولاء الأعمى للتقليد العقيدي حجر الأساس المعرفي[63].

أحد الأمثلة الرمزية المعبرة عن حالة الانسحاب والنأي بالنفس عن دوائر التعليم الشعبية للعوام نجده في القصة التي يسردها الشهرستاني عن طريقة انعزال واصل بن عطاء. فيخبرنا أن جل ما فعله واصل هو أنه غادر حرفيًا حلقة التلاميذ القدريين، الذين كانوا يتلقون دروسًا من حسن البصري داخل المسجد، وجلس بعيدًا وحده. هل من الممكن القول إن واصل ترك تلك الحلقة لأن ميوله الفكرية قادته نحو فلسفة تثقيفية Paideia أخرى تتشكل وفق مخيال فكري مخالف لذاك الذي تتصف به الفلسفة التربوية الشعبية التي كانت تعتمد في حلقات التدريس في المساجد؟ لا يوجد بين أيدينا ما يقول إن هذا الاحتمال غير معقول أو غير ممكن. في هذه الحال، يعني اعتزال واصل

---

61 Thomas Sizgorich, *Violence and Belief in Late Antiquity: Militant Devotion in Christianity and Islam* (Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 2009), p. 32; Avril Cameron, "Education and Literary Culture," in: A. Cameron & P. Garnsey (eds.), *The Cambridge Ancient History: Art and Culture* (Cambridge: Cambridge University Press, 1997), vol. VI, pp. 665-707.

62 لا مجال هنا لتقديم عرض للتأثر الإسلامي والمسيحي واليهودي في العصر العباسي، بفضل حركة الترجمة، بالفلسفة اليونانية الأرسطية-الأفلوطينية، وكيفية تأثير تلك الفلسفات في الفكر الإسلامي. المكتبة البحثية المعاصرة مليئة بالدراسات المتعلقة بهذه المسألة، ومن المستحيل ذكر جميع النصوص المتوافرة حول هذا الموضوع بالإنكليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية. للاطلاع على بعض إرهاصات هذا الميل إلى الثقافة والتعليم الهيلينيين والتنافس مع الثقافة والتعليم السريانيين في القرن السادس ومن ثم في فجر الإسلام في منطقة الهلال الخصيب وبعدها في العصر الأموي السفياني، ينظر على سبيل المثال:
Najib George Awad, *Umayyad Christianity: John of Damascus as a Contextual Example of Identity Formation in Early Islam* (Piscataway, NJ: Gorgias Press, 2018), pp. 50-59, 63-69; N. G. Awad, "*Creatio ex Philosophia*: *Kalām* as Cultural Evolution and Identity-Formation Means in the Early Abbasid Era," *The Moslem World*, vol. 4, no. 109 (2019), pp. 510- 534; N. G. Awad, "When the Intellectuals of 'Ḥarrān Contributed to Falsafa' Theodore Abū Qurrah as 'Nāqil-wa-Mufassir' of Proclean Legacy in Early Islam," *Journal of Eastern Christian Studies*, vol. 74 (2022), pp. 1-43; Peter Adamson, *The Arabic Plotinus: A Philosophical Study of the 'Theology of Aristotle*' (Piscataway, NJ: Gorgias Press, 2017); Peter Adamson (ed.), *Studies on Plotinus and Al-Kindī* (London/ New York: Routledge, 2014); John W. Watt, "The Strategy of the Baghdād Philosophers: The Aristotelian Tradition as a Common Motif in Christian and Islamic Thought," in: J. J. van Ginkel, H. L. Murre-van Den Berg & T. M. Lint, *Redefining Christian Identity: Cultural Interaction in the Middle East Since the Rise of Islam* (Leuven/ Parise/ Dudley: Peeters, 2005), pp. 151-165; J. Watt, *The Aristotelian Tradition in Syriac* (London/ New York: Routledge, 2019); Ahmed Alwishah & Josh Hayes (eds.), *Aristotle and the Arabic Tradition* (Cambridge: Cambridge University Press, 2015).

63 ينظر فيما يتعلق بالتعليم في الإسلام في التاريخ الوسيط، على سبيل المثال:
James E. Lindsay, *Daily Life in the Medieval Islamic World* (Indianapolis/ Cambridge: Hackett Publishing Company, 2005), pp. 194-199.



أنه نأى بنفسه عن الولاء العمومي الشعبي لنمط تثقيف معيّن وأنه توجه، بدلًا من ذلك، إلى تبنّي نمط مختلف نخبوي، بل غير شعبي، يقوم على مبدأ التأمل الفردي، الشخصي ذي الطبيعة الفلسفية والعقلانية. لا تعني "اعتزال" في هذه الحالة رفضًا للعوام وانفصالًا عنهم من خلال خلق جماعة أو فرقة مضادة. بل إنها تعني "ترك جماعة أو فرقة ما" أو "البقاء بعيدًا عن حلقة جمعية مهيمنة"؛ أي الخروج من دوائر التثقيف العمومية الشعبية والالتصاق بتفاعل فكري ولاهوتي شخصي وانتقائي مع أقلية الأفراد المشابهين في التوجه والخيار.

أقترح هنا أن لدينا دلالات كافية تفيد أن بعض أولئك الأشخاص المعتزلة جاؤوا من خلفية دينية مسيحية، وأنهم لم يتخلوا عن مسيحيتهم حينما تبنّوا وضعية سلوكية اعتزالية. يخبرنا أحمد بن يحيى بن المرتضى (ت. 1437م)، في كتابه المعنون بـ**طبقات المعتزلة**، الرواية التالية عن شخص معتزلي اسمه ثمامة بن الأشرس (ت. 840 م): "وجاءه رجل من الحشوية، فقال له: دع مذهبك فقد رأيت فيك رؤيا قبيحة. فذهب بهم إلى بيعة وسألهم: ما الذي ترون في القس؟ فذكروا المنامات العجيبة. فأقبل على الحشوي وقال: تنصّر"[64].

لا شك في أن هذه الرواية أحد أكثر الأخبار إثارةً يمكن أن يجدها المرء في الإخباريات الإسلامية اللاحقة عن المعتزلة والاعتزال. وعلى المرء أن يعترف هنا بأن تحديد الفاعل والمفعول به والدال والمدلول عليه في الصياغة العربية لتلك الرواية أمر ليس سهلًا أو واضحًا. ولا يمكن المرء أن يكون متأكدًا متى تتحدث جملة السرد عن ثمامة ومتى تتحدث عن الشخص الحشوي. ومع ذلك، نعرف أن الحشوية كانت تيارًا فكريًا إسلاميًا، وأن الحشويين كانوا مختصين بتلاوة الحديث النبوي واستخدام محتواه على نحو مكثف في خطاباتهم الدينية. لذا، يمكن الاستنتاج من هذا استحالة أن يدعو ثمامة السائل الحشوي بتسمية أو صفة "القس" (وهي لقب كهنوتي مسيحي بامتياز) الذي يخدم كنيسة، أو حتى استحالة أن يدعو السائل الحشوي ثمامة كي يتبع المسيحية ويتنصر، طالما أن الحشوي مسلم. إن كان الحشوي هو من يدعو ثمامة للانتساب إلى إيمان ديني ما، فإن المنطقي أن يكون هذا الدين الإسلام، ومن ثم على نص رواية ابن المرتضى أن يخبرنا أن الحشوي قال لثمامة بن الأشرس: "أسلِم"، وليس "تنصّر". ولكن ليس هذا ما يخبرنا به ابن المرتضى. والأكثر منطقية ومعقولية، في رأيي، أن نقرأ نص ابن المرتضى كأنه يقترح علينا أن المعتزلي المدعو ثمامة بن الأشرس كان في الواقع مسيحيًا، وأنه انتسب إلى كنيسة (بيعة)، وكان يخدم فيها برتبة كهنوتية، قسًا. إن كان الأمر على هذه الصورة، فإن لدينا هنا كاهنًا مسيحيًا اختار بدوره موقف الاعتزال، بمعنى أنه تبنّى وضعية سلوكية معرفية وثقافية نأى بها بنفسه وانسحب من دوائر الفكر الديني الشعبي لعامة المسيحيين. لا تعني "اعتزال" هنا انعزالًا وانفصالًا، أو حتى رفضًا معاديًا، لانتساب المرء الديني. إنها تعني، بدلًا من ذلك، أن هذا الشخص ترفّع بنفسه وفرزها وجعلها تبتعد عن فكر وسلوكيات تدينية معينة. إن كان إخبار ابن المرتضى يستحق أن نأخذه بجدّية، كما أعتقد، فإن ثمامة بن الأشرس يبدو مثالًا عن معتزلي مسيحي معروف في أوساط أبناء كنيسته (بيعته) بأحلامه الغريبة، الذي وصل به الأمر إلى توجيه دعوة لشخص مسلم من الحشوية كي يدخل في المسيحية؛ أي يتنصر.

يمكن أن نجد مثالًا آخر عن متكلم انخرط في الكلام المعتزلي، ترك المسيحية ودخل في الإسلام في مرحلة متأخرة جدًا من حياته. من أعنيه هنا هو علي بن ربّن الطبري (780-870م)، إذ يخبرنا شخصيًا في كتابه المعنون بـ**في الرد على النصارى**[65]، أنه كان مسيحيًا طوال حياته ("من أول عمري"، كما يقول بكلماته) إلى أن وصل إلى زمن تاق فيه إلى دين الإسلام الحنيف حين بلغ السبعين من العمر[66]. ما زال الباحثون المعاصرون يتجادلون في الأسباب التي دفعت الطبري إلى تغيير انتمائه الديني[67]، إلا أن ما ينبغي أن

64 أحمد بن يحيى بن المرتضى، **كتاب طبقات المعتزلة**، تحقيق سوزان ديفيلد-والتزر، ط 2 (بيروت: دار مكتبة الحياة، 1978)، ص 3-6، 64.

65 Alī ibn Rabban al-Ṭabarī, "The Refutation of the Christians," in: Rifaat Ebied & David Thomas (eds.), *The Polemical Works of ʿAlī al-Ṭabarī* (Leiden: Brill, 2016), p. 61-169.

66 Rifaat Ebied & David Thomas, "ʿAlī ibn Rabban al-Ṭabarī, Fragments of a Life," in: Ebied & Thomas (eds.), p. 17.

67 Ibid., pp. 10-24.



نتوقف عنده فيما يخص دراستنا هنا، في رأيي، هو حقيقة أن الطبري لم يدخل في أي توجه ديني ضمن الإسلام، بل اختار بوضوح أن يتبنّى الفرع العقلاني من الكلام، الذي كان مقترنًا، إن لم يكن معرّفًا في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد بدلالة العقلانية المعتزلية.

ليس الحديث هنا عن حالة تحوّل ديني، بل أيضًا عن حالة تبديل في التوجهات وميل نحو الفكر اللاهوتي المعتزلي. يمكن المرء أن يقترح أن الطبري ركَن إلى هذا النوع من العقلانية الإسلامية لسبب يمكن تحرّيه من زاوية دراسة آليات سلوك التحول الديني خلال تلك المرحلة التاريخية: تلك الآليات التي يحدّثنا عنها، مثلًا، حنين بن إسحاق، أحد مفكّري وكتّاب العصر الإسلامي المبكر. يحيلنا رفعت عبيد وديفيد توماس إلى ما يقولان إنه أحد الردود التي كتبها علي بن المنجم، حيث قال إن ابن إسحاق يصنف ستة أسباب تقود الناس إلى عبور الحدود الفاصلة بين الأديان والانتساب إلى أحدها بعد أن كانوا يتّبعون دينًا آخر، وأحد هذه الأسباب الستة، بحسب عبيد وتوماس، هو الهروب من الناس الجهلة غير المتعلمين أو المطلعين كفاية[68]. يعكس ما يقوله ابن إسحاق هنا الظاهرة نفسها لعزل الذات أو النأي بها عن دائرة العوام في المجتمع لأسباب ودوافع فكرية وثقافية خالصة. إن كان هذا أحد الأسباب التي تخلق موقف الاعتزال، وإذا كان نص الطبري يعكس فكرًا معتزليًا، فيمكن، إذًا، أن يقول المرء إن الطبري معتزلي قضى القسم الأكبر من حياته بوصفه أحد أتباع المسيحية، ثم اختار في الجزء الأخير من حياته أن ينأى بنفسه أو أن يعزل ذاته عن دائرة المسيحية بسبب الفوضى الفكرية التسطيحية غير العقلانية التي غرق فيها عامة المسيحيين. لا يبرهن هذا، فحسب، على منطقية الاعتقاد بوجود أديان القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد في حالة من الحواجز السائبة والحدود الرخوة، بل يقدّم لنا مسوغًا منطقيا لاعتبار وضعية الاعتزال تعبيرًا عن سلوك عام شائع عابر للأديان.

يمكن، إذًا، بتحليل معرفي مقبول أن يتحرى المرء وجود توجه اعتزالي في أوساط المفكرين والمثقفين المسيحيين الذين عاشوا في القرنين الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد والثالث للهجرة/ التاسع للميلاد. ونعلم، على سبيل المثال، أن أحد أهم المتكلمين المسيحيين العرب، ثاودوروس أبو قرة، كان أسقفًا للمطرانية الخلقيدونية الملكانية في مدينة حران في وقت من الأوقات، لكنه أُقيل من منصبه الكهنوتي في مرحلة لاحقة ولم يتبوأ أي منصب كهنوتي في حياته بعدها، بل إنه أدى دورًا فكريًا صرفًا يتمركز حول علم الكلام والفلسفة وترجمتها ونقلها بصفته متكلمًا ومفكرًا حرًا. ومع أن لدينا معطيات تاريخية تخبرنا أن ثاودوروس كان له مريدون وأتباع، وربما تلاميذ أيضًا، فإن المعطيات نفسها تؤكد أنه لم يؤسس يومًا فرقةً قائمة بذاتها، وأنه لم ينتمِ شخصيًا إلى أي مذهب أو طائفة بعينها؛ فقد حافظ على انتسابه إلى الكنيسة الملكانية والتقليد اللاهوتي الخلقيدوني، لكنه شكّل أيضًا خطابه الفكري اللاهوتي التفسيري الخاص للحديث عن هذا التقليد اللاهوتي المذكور[69]. والأمر نفسه ينسحب، كما يبدو على المعطيات التي بين أيدينا، على أبي رائطة التكريتي وعمار البصري[70]. لقد انتمى أبو رائطة إلى الكنيسة اليعقوبية المنوفيسية، وعمار إلى الكنيسة النسطورية، إلا أن كليهما تلقى تعليمًا فلسفيًا عاليًا من خارج حدود التعليم الكنسي التقليدي، وكانت نصوصهما الكلامية ذات توجهات فلسفية

---

68 Ibid., p. 17;

ينظر أيضًا:

Mark Swanson, "A Curious and Delicate Correspondence: The *Burhān* of Ibn al-Munajjim and the *Jawāb* of Ḥunayn ibn Isḥāq," *Islam and Christian-Muslim Relations*, vol. 22 (2011), pp. 173-183.

69 حول أبو قرة وإرثه اللاهوتي والمعرفي، ينظر مثلًا:

Najib G. Awad, *Orthodoxy in Arabic Terms: A Study of Theodore Abū Qurrah's Theology in its Islamic Context* (Berlin/ Boston: De Gruyter, 2015); pp. 1-22; Theodore Abu Qurrah, *Maymar fī Wuğūd al-Khāliq wad-Dīn al-Qawīm (Maymar on the Existence of the Creator and the Right Religion)*, Ignace Dick (ed.) (Jounieh: Librairie St. Paul; Rome: The Papal Oriental Institute, 1982), pp. 15-58.

70 حول هذين المتكلمين المسيحيين من العصر العباسي المبكر، ينظر مثلًا:

Abū Rāʾiṭa Al-Takrītī, *Defending 'The People of the Truth' in the Early Islamic Period: The Christian Apologies of Abū Rāʾiṭah*, Sandra Toenis Keating (ed.) (Leiden/ Boston: Brill, 2006), pp. 222-296; Ammār Al-Baṣrī, *Kitāb al-Burhūn (The Book of Verification) and Kitāb Al-Masāʾil wal-Ajūibah (The Book of Inquiries and Responses)*, Michel Hayk (ed.) (Beirut: Dār Al-Mashriq, 1997).



ومنطقية تقترح أنهما كانا من المفكرين الأحرار. فعلى الرغم من انتسابهما إلى تقليد كنسي معين، فإنهما طوّرا تفسيرًا لاهوتيًا وفلسفيًا حرًا وعقلانيًا جديدًا للتقليد اللاهوتي في الكنيسة التي انتسبوا إليها، وقد كان لكل منهما أتباع وكذلك تلاميذ[71].

لمَ لا يمكن أن تكون تلك الأمثلة المسيحية السابقة تعبيرات عن الاعتزال؟ ولمَ لا يمكن أن يلمح المرء فيها آثارًا لنسخ مبكرة عن مثل هذا التوجه؟ السبب الوحيد الذي يحول دون ذلك هو الإصرار على قراءة "الاعتزال" من زاوية جامدة نستقيها من تمظهرات "الاعتزالية" وطبيعتها في القرون اللاحقة للقرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، أي في القرنين الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد والخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، من دون الانتباه إلى التطورات والمتغيرات التي طرأت على الاعتزال وجعلته ظاهرةً مختلفةً عما كانت عليه في القرن السابق.

2. المعتزلية بصفتها فرقة إسلامية معينة

ما سبق شرحه كان حالة السياق الخاص بالقرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد. وما سأبيّنه في هذا الجزء هو أن حالة الاعتزال تبدلت وأخذت انعطافة مختلفة في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد؛ أي في العصر الذي بدأت فيه الدوغمائية الدينية الإسلامية تعلن هيمنتها وتهدد أنماط التَلَهوت غير الإسلامية، محولةً حالة الاعتزال، في النتيجة، إلى مدرسة "معتزلية"؛ أي إلى تعبير مذهبي ديني حصري يدل على فرقة أو نِحلة أو مدرسة دينية. في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، دلت كلمة "معتزلة" على نخبة فكرية، وعنت دوائر أولئك الأفراد النخبويين المثقفين ورفيعي المعرفة والتعليم الآتين من ديانات مختلفة والنائين بأنفسهم في المجتمع لأنهم آمنوا بأنه من غير الملائم الجدال في شؤون لاهوتية وفكرية أمام العوام، وفي الفضاء العام، فضلًا عن السماح لأولئك العوام، أو تشجيعهم على الجدال لاهوتيًا في الشؤون الكلامية بأنفسهم من دون أن يكونوا مؤهلين لذلك[72].

خلافًا للسياق المذكور في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، حملت مفردة "معتزلة" دلالات جديدة مختلفة في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، إذ باتت اسم علمٍ لفريق محدد من أتباع جماعة تنتمي إلى دين واحد بعينه: أصبحت "الاعتزالية" اسمًا لمذهب فرقة إسلامية من المتكلمين حصرًا. مثل هذا التحول البنيوي هو ما يفسّر لنا، مثلًا، سبب تقديم القاضي عبد الجبار الهمذاني لنفسه في نصوصه في صورة كاتب معتزلي من القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد يختلف في صورته كليًا عما تكشفه لنا الخطابات الاعتزالية العائدة إلى القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد عن أصحاب تلك الخطابات من المعتزلة. نرى هذا في لهجة عبد الجبار الواضحة والصارخة[73] العداء والتبخيس للمسيحيين بوصفهم جماعة بشرية ذات ممارسات وعادات، وليس للإيمان المسيحي فقط وعناصره اللاهوتية. وما نراه هنا لا يمثّل مجرد اختلاف في أساليب الكتابة والتعبير بين معتزلة القرن الثالث ومعتزلة القرن الرابع للهجرة. وأقترح أن هذه اللهجة تكشف الغطاء عن تبدّل بنيوي في عملية فهم الذات وعلاقتها بالآخر؛ الأمر الذي يتمظهر أيضًا في كيفية فهم مصطلح "معتزلة" واستخدامه علامةً هُووية.

---

71 نعرف أن نونوس النصيبيني تعلم على يدي أبي رائطة ونعلم أن داود بن مروان المقمص تعلّم تلميذًا على يدي نونوس وأبي رائطة.

72 Richard Martin, Mark Woodward & Dwi S. Atmaja, *Defenders of Reason in Islam: Mu'tazilism from Medieval School to Modern Symbol* (Oxford: Oneworld, 1997), pp. 12-13.

73 يتحدث عبد الجبار في كتابه **تثبيت دلائل النبوة** بعبارات تبخيسية واضحة ضد الإيمان المسيحي تتجاوز مجرد الرد على الطرح اللاهوتي بطروح لاهوتية مضادة لينحو نحو تكرار أن المسيحيين مضللون وموهومون: "اعتقادهم لذلك ليس بعلم [...] وخبرهم بذلك ليس بصدق [...] وإنما هم قوم شبه لهم، فاعتقدوا أمورًا تموهت عليهم فسموا اعتقادهم علمًا وخبرهم نقلًا":
Abd Al-Jabbār, *Tathbīt Dalā'il an-Nubūwah (Critique of Christian Origin)*, Gabriel Said Rynolds & Samir Khalil Samir (eds.) (Provo, UH: Brigham Young University Press, 2010), pp. 54-55, 240-242.

يتابع عبد الجبار واصفًا اعتقادات المسيحيين بالجهل والكذب يضعها على تضاد مع صدق وعلم وعقلانية الرسول والمسلمين: Ibid., 63, 316-324. ويتابع متحدثًا عن انحلال المسيحيين وارتكاب نسائهم ورجالهم الفاحشة باعتبارها جزءًا من الدين والتدين وأمرًا يباركه المسيح، ينظر: Ibid., pp. 121, 333-273.



ما السبب الذي يمكن أن يكون وراء مثل هذا التحول؟ السبب الأهم هو محاولة المتكلمين المسلمين الهيمنة على المشهد الفكري، بل مصادرته، من خلال كبت وتبخيس، وحتى تحقير، خطابات الكلام غير الإسلامية والأديان والتقاليد المجتمعية للأشخاص الذين يتكلمون بهذا الكلام. ليس منافيًا للصواب أن نعدّ هذا التوجه إحدى الوقائع الفعلية الكامنة وراء تراجع المتكلمين المسلمين عن تجسيد دور المسوقين والمشاركين في خلق هوية عباسية مشتركة واشتمالية ثقافية - فكرية في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد (أي حين كانت كلمة "معتزلي" تعني "نخبة") ونكوصهم نحو التحول إلى حراس راديكاليين لمسار تشكيل هوية مركزية - دينية، إقصائية ومغايرة، حين صارت "معتزلي" تعني "فرقة".

يبدو لي أن ديفيد توماس ينتبه إلى مثل هذا التحول المذكور في اللهجة المعتمدة للحديث عن المسيحية وعن حياة المسيحيين وسلوكهم، وليس كلامهم وفكرهم فحسب، ولهذا فهو يتوقف عنده مليًا ويقدّم، في رأيي، إسقاطًا يستحق الانتباه إلى هذا التحول على مواقف المسيحيين تجاه ظروف عيشهم ونظرة الآخر إليهم بدءًا من القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد. لذا فهو يتحرى في مقدمة كتابه **العقائد المسيحية في اللاهوت الإسلامي** تطورًا أساسيًا في مسيرة علم الكلام ما بين القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد والرابع للهجرة/ العاشر للميلاد. ويقترح أن المتكلمين المسلمين أثناء القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد اهتموا على نحو خاص بالإيمان المسيحي وعاملوه على أنه جزء لا يتجزأ من مواضيع علم الكلام الإسلامي واهتماماته الفكرية، لكن الصورة تبدلت جوهريًا بعد مرور قرن من الزمان. لم تعد المسيحية تتمتع بأي تمييز أو امتياز مقارنةً بباقي الأديان، بل جرت "معاملتها إلى جانب باقي الأديان" بوصفها أدوات مهمتها خدمة دعم "مشروعية تفسير المسلمين المتكلمين لمفهوم التوحيد من خلال وقوفها كنماذج خطابية مقابلة غير مقبولة وبلا قيمة"[74]، إذ خلافًا للقرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد الذي تميز باستيعاب المسيحية كما هي وبمفرداتها الخاصة وبتحرّي أعلى درجة من الدقة والصحة قبل محاولة تبيان لاعقلانيتها، فإن القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد "شهد تسطيحًا للمسيحية واختزالها إلى مجموعة من التعاليم المبتذلة، التي لطالما تم الحصول على معلومات عنها من مصادر أدبية إسلامية الهوية حصرًا، وليس من مصادر المسيحيين أنفسهم، فضلًا عن أن المحاورين المسيحيين باتوا قلةً قليلة، على الرغم من عدم اختفائهم كليًا من المشهد"[75]. إذًا، جل ما نلحظه في مشهد الكلام الإسلامي في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد لا يتجاوز "اهتمامًا يحمله من يتطلع في آثار بائدة" يشهد به على "مغامرات مسيحية مضللة" ويدفع صاحبه إلى معاملة الكلام المسيحي على أنه "أمر يستحق الازدراء والسخرية"[76]. جل ما قام به علماء الكلام المسلمون، بحسب توماس، أنهم "اكتفوا باعتبار العقائد والمعتقدات المسيحية عناصر يمكن توظيفها في خدمة تقوية ودعم أفكارهم وطروحاتهم المتعلقة باتهام مؤمني الأديان الأخرى بالأخطاء الفكرية المثيرة للفضول وبزيف المنطق، وأن ادعاءات أولئك المؤمنين من غير المسلمين لا تمثل بدائل ذات قيمة من الإيمان الإسلامي. [لقد كانت هناك قناعة في أوساط المتكلمين المسلمين] بأنه لم يعد يوجد أي تهديد ممكن [للإسلام] مع انحسار [تلك البدائل] الكامل، وأن تلك العقائد الأخرى ما عادت سوى أدوات يتمّ، بواسطة مقارنة زيفها بالإسلام، التشديد على قوة العقائد المسلمة وحقائقيتها"[77].

بات الآن ما يحرّك المسلمين هو وجود طموح جارف إلى الهيمنة على المشهد الفكري برمته، وذلك من خلال التبخيس من المهارة الفكرية عند الآخرين وممارسة نوع من أنواع الهيمنة والسيطرة الثقافية على المجتمع. وقد نتج من هذا الميل الجديد خطاب

74 Thomas, "Muslim Theologians and Christian Doctrines," p. 12.

75 Ibid., p. 13.

76 Ibid.

77 Ibid., p. 14.



كلام وجد الفكر المسيحي "مفيدًا حصرًا بوصفه نموذجًا للاجتهاد اللاهوتي المضلل والمغامر"[78]. لا مجال في هذه الحال إلا أن تتعرض المسيحية للتهميش في ظل كل هذا، ولا مفر من أن تُعتبر إيمانًا لا يستحق حتى مجرد الانتباه الفكري إليه. ما لدينا هنا هو تحول من الكلام بصفته انخراطًا عقليًا مفتوحًا في المنطق الجوّاني لخطابات الآخرين إلى كلام جديد براغماتي، دفاعي، تبخيسي يتلاعب بخطابات الآخرين ويوظفها في خدمة تمجيد الذات والهيمنة العقائدية. في ضوء هذا التحول، يمكن أن يلحظ المرء تحولًا موازيًا في ظاهرة "المعتزلة" وتحولها من وصف لأفراد من المفكرين ولحالة نخبوية ثقافية مجتمعية (النخبة) إلى تسمية لمذهب ومدرسة دينية معينة (فرقة) مهمتها الحصرية هي الدفاع عن خطاب عقائدي محدد. عندنا، إذًا، حالة تطورية من معنى بعينه لـ "اعتزال"، قام أبو الحسن الأشعري (874-936م)، على سبيل المثال، بقطع الصلة الشخصية معه في مطلع القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، نحو معنى جديد لـ "اعتزال"، يمثله، على سبيل المثال، القاضي عبد الجبار الهمذاني في أواخر القرن ذاته. كان الاعتزال الذي انشق الأشعري عنه هو تلك الظاهرة الثقافية الشائعة التي مَظهرتها النخبة الفكرية في القرن السابق، ولم يكن بالضرورة انشقاقًا عن الفرقة المذهبية التي تحوّل الاعتزال إليها في زمنه، بل ربما بفضل الخطاب الكلامي لأشخاص يمثل أحد أصواتهم اللاحقة عبد الجبار الهمذاني. لقد انسحب الأشعري من حالة ثقافية عامة خلقها مفكرون من الخلفيات الدينية كافة شكّلوا فريقًا نخبويًا من المدافعين عن العقلانية Rationalism المتشربة بإسهاب للأفلوطينية - الأرسطوطالية. لقد نأى أولئك النخبويون بأنفسهم وتعالوا على المجتمع وتعجرفوا معرفيًا على أقرانهم، وازدروا وبخّسوا من شأن توجهات أولئك الأقران الفكرية كلها، سواء أكانت دينية أم لا، لأنها في رأيهم لم تكن توجهات أمينة للعقلانية أو موالية لها. لم يفصل أولئك الخواص أنفسهم فكريًا فحسب عن باقي جمهور العامة، بل إن العوام بدورهم، الذين باتوا الآن الرحم الشعبي للميل نحو التقليدية التراثية Traditionalism، ردوا أيضًا على أولئك الخواص النخبويين بموقف نابذ مضاد، وعملوا على عزلهم راديكاليًا بعد أن راحوا يعتبرون أفكار أولئك العقلانيين مؤذية للإسلام.

كان علم الكلام هو "جوهرة التاج" أو "واسطة العقد" بالنسبة إلى أولئك المعتزلين العقلانيين النخبة. لهذا، ليس غريبًا البتّة، في ضوء هذا النبذ المجتمعي السلبي للعقلانيين المتكلمين المعتزلة، أن يكون نجم التقليدية التراثية قد سطع أواخر القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد ومطلع القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد لغرض أساسي، ألا وهو مقاومة الكلام العقلاني الفلسفي وتحويل متكلميه إلى هدف هجومها الرئيس. جعل التقليديون التراثيون هدفهم الأساسي دحر الثقافة المعتزلية وفرض "موانع ومحظورات ضد الانخراط في أي كلام، وقطع العلاقات مع المتكلمين وحرمانهم مجتمعيًا وكذلك رفض تعاليمهم كافة ودحضها"[79]. ومن المعروف أن المعتزلة من المسلمين تورطوا في تسويق أجندة الخليفة المأمون السياسية ودعمها، والتي تسببت في مأساة المحنة الكارثية في العالم الإسلامي. وقد رأى التقليديون التراثيون في هذا التورط السياسي عذرًا ليس لتشويه سمعة "الاعتزال" بوصفه وضعية سلوك مجتمعي فحسب، بل أيضًا لدحض أتباع تلك الخطابات الثقافية والفكرية الكلامية وشيطنتهم كليًا. يعبّر ديمتري غوتاس عن هذه الحالة بقوله: "كانت لمناهضة التقليديين التراثيين للمعتزلة ومواضيعهم نتائج وتبعات على سياسة التعليم والتربية اللاحقة، فقد كان التقليديون هم من شكّلوا في النتيجة مناهج التربية والتعليم الخاصة بالتعليم الشرعي الرسمي في المجتمعات الإسلامية. فلم يضمنوا في مناهجهم تلك، كما هو متوقع، أيًا من تلك المواضيع والمسائل [التي اهتم بها المعتزلة]، كما لم يضمّنوها كذلك أيًا من المسائل التي تحدثت عنها العلوم المترجمة"[80].

---

78 Ibid., p. 17.

79 Benyamin Abrahamov, *Islamic Theology: Traditionalism and Rationalism* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1998), p. 27.

80 Dimitri Gutas, *Greek Thought, Arabic Culture: The Graeco-Arabic Translation Movement in Baghdad and Early Abbasid Society (2nd-4th/8th-10th Centuries)* (Axon/ New York: Routledge, 1999), p. 163.



بدوره، يستحضر بنيامين أبراموف قصة شديدة التعبير عن الحقد الشعبي الذي تعرضت له ثقافة الاعتزال وخطابها الكلامي، فيقول: "في عمل عنوانه 'أخبار عمرو بن عبيد'، كتبه المؤلف الشافعي التقليدي والموسوعي علي بن عمر الدارقطني (ت. 995م)، نقرأ أن ابن العالم التقليدي البصري الذائع الصيت يونس بن عبيد (ت. 756/ 757م)، عصى أوامر والده الذي منعه من زيارة المتكلم المعتزلي عمرو بن عبيد (ت. 762م). فما كانت ردة فعل يونس بن عبيد تجاه زيارة ابنه إلا أن أكد أن مقابلة المرء لله (في يوم الحساب) مقترفًا كبائر الخطايا، مثل الزنا والسرقة واحتساء الخمر، لهو أفضل من مقابلة الله محمّلًا بأفكار عمرو بن عبيد وأتباعه"[81].

كتب مؤلفون مسلمون آخرون بدورهم نصوصًا تهاجم الاعتزال وكلامه العقلاني الفلسفي، نعتوا فيها أولئك النخبويين بـ "أهل البدع" وحرّموا رفقتهم أو مجالستهم[82]، بل دعا بعضهم إلى نفي هؤلاء المتكلمين من دوائر الإيمان القويم، لأن مناهج تفكيرهم تؤدي إلى الكفر[83]. تذكّرنا مواقف أولئك الكتّاب بالموقف القديم الذي يُنسب إلى أبي الحسن الشافعي (ت. 820م)، مثلًا، الذي بلغ به الأمر درجة الدعوة لموقف عقابي ضد المتكلمين ذوي الكلام العقلاني الفلسفي: "حكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعال ويُطاف بهم في العشائر [والقبائل] ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام"[84]. وهو يقصد هنا الكلام المعتزلي العقلاني الذي يتبع منهج التفكير الأرسطي، الذي اعتُبر في مرحلة ما من أواخر القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد وبدايات القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد مصدر إفسادٍ للدين وانحرافًا خطيرًا عن الإيمان الصحيح باستخدام "قياسات مزيفة" ومقاربات قياسية - منطقية غير أرثوذكسية[85]. قد يكون المتكلمون، أو النخبة الفكرية المعتزلية، نجحوا في البرهان على إمكانياتهم في المنطق والفلسفة، إلا أن التقليديين والعوام على حد سواء لم يروا فيهم علماء دين قطّ، لأنهم لم يتعلموا التدين الصحيح[86].

إن كانت قراءتي صحيحة ومشروعة لظاهرة الاعتزال ودلالاتها وتمظهراتها ومعانيها في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، بوصفها ظاهرة ثقافية، فوق طائفية، عابرة للأديان، مكونة من متكلمين عقلانيين مسلمين ومسيحيين ويهود كانوا يمثلون طبقة الخواص، فإن الرفض العدائي للتوجه المعتزلي يمكن أن يشرح لنا التطورات التي حدثت في سياق علم الكلام المسيحي أثناء القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد. وخلافًا للكلام الوافر والشديد التعقيد والعقلانية الفلسفية الذي قدّمه المسيحيون الذين أظهروا ميولًا معتزلية ونخبوية أثناء القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، فإن نوعية المنتوج الكلامي وكميته انخفضتا انخفاضًا ملحوظًا في القرون اللاحقة. يتمعن ديفيد توماس في هذا التبدل الجذري ويناقش أنه في ضوء هيمنة الفكر الإسلامي وسطوته على الخطابات الدينية كافة في السياق العباسي، بدأ الكلام المسيحي يغيب على نحو مطّرد عن الساحة، ولا يكاد يمكن العثور على شيء منه تفاعل معه

---

81 Ibid., pp. 27-28.

يستعير أبراموف تلك الرواية من:

Josef van Ess (ed.), *Traditionistische Polemik gegen 'Amr ibn 'Ubayd; zu Einem Test des Ali B. Umar ad-Daraqutni* (Baden-Baden: Ergon Verlag, 2004 [Beirut, 1967]).

82 Abrahamov, p. 28.

83 Ibid.

84 Ibid., pp. 28-29.

ترد تلك الكلمات نقلًا عن الإمام الشافعي في: ناصر الدين الألباني، **شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي** (بيروت: المكتب الإسلامي، 1988)، ص 75. ويستدرك بنيامين أبراموف، في معرض اقتباسه لهذه المقولة، ما يلي: "على المرء أن يلاحظ هنا إمكانية أن يكون موقف الشافعي المزعوم غير موثوق وإنما تم وضعه على لسانه كي يدعم أفكار الأجيال اللاحقة ويكسبها المشروعية بدعم من الأقدمين". يتابع أبراموف، "تلك الظاهرة شائعة جدًا في الأدبيات الإسلامية الدينية. على أي حال، يمكننا أن نقول بارتياح إن الميل إلى تبخيس علم الكلام كان مؤكدًا في الإسلام الكلاسيكي، على الأقل في أوساط الأجيال اللاحقة": Abrahamov, p. 84, nt. 71.

85 Ibid., p. 29.

86 Ibid.



اللاهوتيون المسلمون[87]. لم يفشل المسيحيون في إقناع المسلمين بقيمة لاهوتهم المعرفية وأهليته فحسب، بل أُجبروا على النأي بأنفسهم بعيدًا عن المشاركة في أي حراك أو نشاط فكري في سياق عيشهم الإسلامي، ومن ثم كانت النتيجة هي الانسحاب منه. يلمّح هذا الواقع، بالنسبة إليّ، إلى ذاك الهجوم الذي شنه اللاهوت التقليدي التراثي ضد اللاهوت الكلامي العقلاني، الذي مثّل الظاهرة الثقافية لأولئك النخبة الآتين من مختلف الخلفيات الدينية، والذين تمظهر وضعهم الفكري في صورة انسحاب واعتزال. لا أتفق كليًا مع اعتقاد توماس بالغياب التام والمطلق للكلام المسيحي من المشهد العباسي في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد؛ ذلك أن بعض النصوص الكلامية المسيحية الموجودة بين أيدينا اليوم، مثل نصوص يحيى بن عدي ومتى بن يونس وإلياس النصيبيني وسعيد بن البطريق ومؤلف الكتاب المعروف بـ **كتاب البرهان** وسواها، كلها تشير إلى أن المسيحيين حاولوا أن يتابعوا إنتاج لاهوت كلامي يعادل في قيمته ونوعيته الكلام المسيحي العائد إلى قرون أقدم، إلا أنهم، هذه المرة، فعلوا هذا على نطاق أضيق بكثير وأقل فاعلية وتأثيرًا، وربما بخفر وحذر، ومالوا في نصوصهم إلى التبريرية والحمائية بدل التفسير والتحليل المنطقي الصرف، للأسباب المذكورة سابقًا.

أقترح هنا معقولية قراءة توماس المتعلقة بتحول في الفكر المسيحي من مقاربات كلامية عقلانية في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد إلى مقاربات كلامية أكثر تقليدية ودفاعية وتبريرية في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد[88]. وأضيف إلى قراءة توماس هنا اقتراحي القائل إن هذا التحول قد يكون أحد الإرهاصات التي نتجت من هجوم الفقهاء التقليديين التراثيين ضد النمط الفكري العابر للأديان والثقافي الفلسفي الطبيعة المسمى "المعتزلي". ونجم عن هذا الهجوم، ضمن المعسكر الإسلامي، تحول واختزال للاعتزال إلى مجرد فرقة مغلقة أحادية الدين ذات دور عقائدي دفاعي نكص من بقي من المعتزلين إليه كي ينالوا قبولًا من المجتمع الجديد. أما على المستوى الأوسع للمجتمع العباسي، فإن ما نتج من هذا التحول هو انسلاخ المسيحيين عن النخبوية المعتزلية الثقافية الفكرية والنكوص احتمائيًا ودفاعًا عن النفس إلى دوائر انغلاقية تتمركز حول الانتساب الديني للإيمان المسيحي والولاء الكنسي الطوائفي. ولا شك في أن المسيحيين اختبروا حالة رعب حقيقية في دوائر الفكر والكلام والمعرفة في بغداد والعراق من جراء الهجوم الشعبي العدائي والقاسي الذي شنّه التقليديون ضد الكلام المعتزلي. لقد أدركوا وقوع تبدّل خطير راديكالي وتفشّيه ضمن المشهد الفكري في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، فلم يعد عامة المسلمين وفقهاؤهم التقليديون في مراكز الفكر الإسلامي، مثل بغداد والقاهرة وخراسان وسواها، يستوعبون، أو يحتملون، وجود هوية ثقافية مشتركة عابرة للطوائف والمذاهب والأديان يشكّلها خواص المسلمين وغير المسلمين وبواسطة أدوات فلسفية وليست دوغمائيةً مؤسَّسةً على الحديث والسنة. لقد بدؤوا يعتبرونها تهديدًا للتدين الحقيقي والإيمان الديني الصحيح. وأقترح هنا أن أولئك المسيحيين المتكلمين معتزلي الميول رأوا أنه إذا كان المسلمون التقليديون لم يتورعوا عن إظهار الحقد والعنف تجاه آخرين من دائرة الثقافة المعتزلية المسلمة، فما الذي سيمنعهم من إظهار حقد وعداء مكافئين، إن لم يكونا أكثر عمقًا وجدّية، تجاه أتباع الثقافة المعتزلية نفسها من المسيحيين؟ نصوص الكلام الإسلامية الباقية بين أيدينا من القرنين الثالث والرابع للهجرة تقترح علينا أنه في الوقت الذي نقرأ فيه في كلام كاتب من

---

87 Thomas, *Christian Doctrines in Islamic Theology*, pp. 16-17.

88 واحد من النصوص التي كتبت في القرن العاشر، كما أعتقد، هو نص المجادلة في بلاط المأمون بين ثاودوروس أبو قرة ومتكلمين مسلمين. في نقاشي حول تاريخ كتابة نص تلك المجادلة، أبين من خلال لغة النص أن كاتبه مسيحي عاش في القرن العاشر تحت الضغط المجتمعي وحالة التبخيس والعداء المذكورة في الأعلى، ولهذا فقد سعى لرفع معنويات المسيحيين وتشجيعهم وإعادة ثقتهم بأنفسهم لهم من خلال سرده رواية مواجهة فكرية كلامية من القرن الماضي (الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد) أثبت فيها المتكلم المسيحي علو كعب الإيمان المسيحي وأحقيته بالتقدير والاحترام. حول هذا النص المسمى "المجادلة في بلاط المأمون" وتاريخ كتابته، ينظر:
Najib George Awad, "*Al-Mujādalah* in al-Māʾmūn's Court: When could it have been Composed? Reflecting on Historicity Vis-à-vis Socio-Cultural Data," *Oriens Christianus*, vol. 103 (2020), pp. 144-169.



القرن الثالث للهجرة، مثل أبي عيسى الوراق، على سبيل المثال، تفنيدًا لعقيدة الثالوث المسيحية ينطلق من قناعته بالأهمية القصوى لاكتشاف ما يؤمن به المسيحيون بأكبر قدر من الصحة والدقة كي لا يساء إليها[89]، فإن نصوص الكلام لمؤلفين مسلمين من القرن الرابع للهجرة، من أمثال الناشئ الأكبر وأبي منصور الماتريدي وأبي بكر الباقلاني وصولًا إلى عبد الجبار الهمذاني، تتعامل مع خطابات الإيمان المسيحي اللاهوتي على أنها مجرد تعاليم شكلية سطحية يتم التعامل معها على نحو تسطيحي وتسخيفي من دون الخوض في تفاصيلها أو مكوناتها الفكرية والفلسفية والمنطقية، بحيث نجد المتكلم المسلم يردد أفكارًا "مزعومة" ويخوض في مسائل عامة تتعلق بالسلوكيات والأخلاقيات المجتمعية أكثر من العقديات واللاهوت[90].

خاتمة

يقول سابين شميتكه وغريغوري شفارب، في معرض تقديمهما للعدد الثاني من دورية **التاريخ الفكري للعالم الإسلامي** المحكّمة، ما يلي: "الأفكار تسافر، ولا يمكن للحدود، جغرافيةً كانت أم سياسية أم أيديولوجية أم طوائفية، أن تمنع عبورها، خاصةً حيث لا تشكّل اللغة أي عائق يذكر"[91]. يخبرنا كلا الباحثين عن وجود آثار مؤكدة لحالة "سفر الأفكار" في العالم الإسلامي في التاريخ الوسيط، إذ نشهد "حالات متعددة من التطالعية العابرة للحدود في حقول المعرفة كافة في الواقع"[92]. وهذا يظهر بدوره في ترداد العديد من اللاهوتيين المسلمين في نصوصهم الكلامية خطابات لاهوتية مسيحية، وكذلك في عكس كتّاب يهود أفكارًا ومفاهيم كلامية إسلامية معاصرة لهم.

لقد اقترحت في هذه الدراسة وجود حالة عبور للحدود مماثلة بين اللاهوت المسيحي والكلام المعتزلي. وقد ناقشت أن الباحث يمكنه أن يتتبع في الخطابات والتمظهرات الثقافية والسياقية لعلم كلام القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد المسيحي، وذلك ليس مجرد أصداء لتوجهات لاهوتية إسلامية فحسب، بل لميول ومنهجيات تفكير وسلوك معتزلية كذلك، إلى درجة أن المرء يمكنه أن يتحدث عن "اعتزال مسيحي" أو عن ظاهرة ثقافة معتزلية تفشت في أوساط المسيحية تشبه تلك التي تجعلنا نتحدث عن "اعتزال يهودي" و"اعتزال إسلامي". وأدعو في دراستي الحقل البحثي العلمي كي يأخذ في الاعتبار والجدية تلك القراءة للمعتزلية والاعتزال بوصفها ظاهرة فكرية عامة عابرة للأديان، وكي يبدأ في مقاربة "الظواهر الفكرية العابرة للحدود الطوائفية الفاصلة"[93].

في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، كان الاعتزال اسمًا لظاهرة ثقافية طمحت إلى خلق حالة مسكونية فوق دينية اشتمالية تعمل على رسم هوية عباسية تتجاوز حدود الانتماء الديني والعقائدي. ولكن مع حلول القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، رحنا نشهد تحولًا في التوجه المعتزلي إلى مكون هُووي ضيق وتخصيصي يعرف فرقةً، أو فرقًا، عقائدية إسلامية حصريًا. في هذا السياق الجديد، "اعتُبرت الثقافة أحد مظاهر تفوق المسلمين على منافسيهم"[94]. عنى هذا، في الواقع، فشل حلم خلق توجه فكري ثقافي اشتمالي

---

89 Abū ʿĪsā Al-Warrāq, *Al-Radd ʿAla al-TathlĪth (A Response on the Trinity)*, in: David Thomas (ed.), *Anti-Christian Polemic in Early Islam: Abū ʿĪsā al-Warrāq's 'Against the Trinity'* (Cambridge/ New York: Cambridge University Press, 1992).

90 ينظر مثلًا في ردّ الناشئ الأكبر على النصارى في **كتاب المقالات**، وردّ أبي منصور الماتريدي في **كتاب التوحيد**، وأبي بكر الباقلاني في **كتاب التمهيد**، وعبد الجبار الهمذاني في **كتاب المغني في أبواب التوحيد والعدل**. يمكن إيجاد تلك النصوص في نسخها العربية مع ترجمة إلى الإنكليزية في كتاب:
Thomas, *Christian Doctrines in Islamic Theology*, pp. 19-78, 79-118, 119-204, 205-277.

91 Schmidtke & Schwarb, "Introduction," p. 1.

92 Ibid.

93 Ibid., p. 3.

94 Demichelis, p. 262.



يمثله الاعتزال، واستبدال هذا الحلم بخطابات كلامية تقسيمية مغايرة لاهوتيًا وذات توجهات فقهية مختلفة، مثل الأشعرية (وفكر الماتريدية المتصل بها) والباقلانية والهمذانية، فضلًا عن خطاب الحنبلية. في قلب هذا السياق تحديدًا، راح المفكرون المسيحيون ينسحبون ويلجؤون إلى مواقف دفاعية حمائية همّها تهيئة المسيحيين للدفاع عن معتقداتهم وحماية أنفسهم من الهجوم الفكري للطرف الأقوى (بعد أن كانت تبغي التواصل مع الطرف الأقوى المذكور ومساعدة المسيحيين على شرح إيمانهم له منطقيًا وعقلانيًا في القرن الأسبق)، بعد تخلّيهم عن شغفهم بعلم الكلام وفقدهم الثقة بتجربة المساهمة مسيحيًا في خلق ثقافة معتزلية. علينا أن نختم هنا بالقول إن خطابات الكلام المسيحي لم تنقرض ولم تختفِ كليًا من المشهد. هذا ما تقترحه علينا النصوص الكلامية المسيحية الباقية بين أيدينا والعائدة إلى القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، إلا أن طبيعة كتابة تلك النصوص واستراتيجياتها وأولوياتها تبدلت عن تلك الخاصة بأمثالها في القرنين الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد والثالث للهجرة/ التاسع للميلاد. ما عدنا نرى مسيحيين مفكرين ومثقفين يتجرؤون على محاولة تقديم نسخ ومقاربات مسيحية عن هوية فكرية معتزلية الطبيعة تخاطب الآخر وتتواصل معه، بل كان جل همهم مخاطبة جماعاتهم المسيحية الكنسية الضيقة وتهيئتها للنجاة في قلب حرب فكرية أبعد ما تكون عن التطالع والتواصل المتبادل. بهذا انتهت تجربة خلق ظاهرة "معتزلية مسيحية" ونشأ بدلًا منها مانيفيستات كنسية ولاهوتية ذاتية المغايرة وحمائية الهوى.





المراجع

العربية

ابن المرتضى، أحمد بن يحيى. **كتاب طبقات المعتزلة**. تحقيق سوزان ديفيلد-والتزر. ط 2. بيروت: دار مكتبة الحياة، 1978.

_______. **المنية والأمل في شرح الملل والنحل**. تحقيق م. ج. مشكور. بيروت: دار مكتبة الحياة، 1979.

الألباني، ناصر الدين. **شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي**. بيروت: المكتب الإسلامي، 1988.

الجاحظ، عمرو بن بحر. **رسائل الجاحظ**. تحقيق عبد السلام محمد هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1964.

الشهرستاني، أحمد. **كتاب الملل والنحل**. بيروت: دار المعرفة، 1993.

الأجنبية

Abd al-Jabbār, *Tathbīt Dalā'il an-Nubūwah (Critique of Christian Origin)*, Gabriel Said Rynolds & Samir Khalil Samir (eds.) (Provo, UH: Brigham Young University Press, 2010.

Abrahamov, Benyamin. *Islamic Theology: Traditionalism and Rationalism*. Edinburgh: Edinburgh University Press, 1998.

Abu Qurrah, Theodore. *Maymar fī Wuğūd al-Khāliq wad-Dīn al-Qawīm (Maymar on the Existence of the Creator and the Right Religion)*. Ignace Dick (ed.). Jounieh: Librairie St. Paul; Rome: The Papal Oriental Institute, 1982.

Adamson, Peter (ed.). *Studies on Plotinus and al-Kindī*. London/ New York: Routledge, 2014.

________. *The Arabic Plotinus: A Philosophical Study of the 'Theology of Aristotle*'. Piscataway, NJ: Gorgias Press, 2017.

Adang, C. & D. Sklare (eds.). *A Common Rationality: Mu'tazilism in Islam and Judaism*. Würzburg: Ergon, 2007.

Al-Azmeh, Aziz. *Arabic Thought and Islamic Societies*. vol. 1. London/ New York: Routledge, 1986.

Al-Baṣrī, Ammār. *Kitāb al-Burhūn (The Book of Verification) and Kitāb al-Masā'il wal-Ajūibah (The Book of Inquiries and Responses)*. Michel Hayk (ed.). Beirut: Dār al-Mashriq, 1997.

Al-Ṭabarī. *Tārīkh al-Rusul wal-Mulūk (The History of the Messengers and the Kings)*. C. E. Bosworth (trans.). New York: State University of New York Press, 1987.

Al-Takrītī, Abū Rāʾiṭa. *Defending 'The People of the Truth' in the Early Islamic Period: The Christian Apologies of Abū Rāʾiṭah*. Sandra Toenis Keating (ed.). Leiden/ Boston: Brill, 2006.

Alwishah, Ahmed & Josh Hayes (eds.). *Aristotle and the Arabic Tradition*. Cambridge: Cambridge University Press, 2015.

Awad, Najib G. *Orthodoxy in Arabic Terms: A Study of Theodore Abū Qurrah's Theology in its Islamic Context*. Berlin/ Boston: De Gruyter, 2015.

________. *Umayyad Christianity: John of Damascus as a Contextual Example of Identity Formation in Early Islam*. Piscataway, NJ: Gorgias Press, 2018.

________. "*Creatio ex Philosophia*: *Kalām* as Cultural Evolution and Identity-Formation Means in the Early Abbasid Era." *The Moslem World*. vol. 4, no. 109 (2019).



________. "*Al-Mujādalah* in al-Māʾmūn's Court: When could it have been Composed? Reflecting on Historicity Vis-à-vis Socio-Cultural Data." *Oriens Christianus*. vol. 103 (2020).

________. "When the Intellectuals of 'Ḥarrān Contributed to Falsafa' Theodore Abū Qurrah as 'Nāqil-wa-Mufassir' of Proclean Legacy in Early Islam." *Journal of Eastern Christian Studies*. vol. 74 (2022).

Becker, Adam H. *Fear of God and the Beginning of Wisdom: The School of Nisibis and Christian Scholastic Culture in Late Antique Mesopotamia*. Philadelphia, Pennsylvania: University of Pennsylvania Press, 2006.

Ben-Shammai, H. "A Note on Some Karaite Copies of Mu'tazilite Writings." *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*. vol. 37 (1974).

Bosworth, C. E. et al. (eds.). *The Encyclopedia of Islam*. Leiden/ New York: Brill, 1993.

Cameron, A. & P. Garnsey (eds.). *The Cambridge Ancient History: Art and Culture*. Cambridge: Cambridge University Press, 1997.

Demichelis, Marco. "Between Mu'tazilism and Syncretism: A Reappraisal of the Behavior of the Caliphate of al-Maʾmūn." *Journal of Near Eastern Studies*. vol. 71, no. 2 (2012).

Ebied, Rifaat & David Thomas (eds.). *The Polemical Works of ʿAlī al-Ṭabarī*. Leiden: Brill, 2016.

Goldziher, Ignaz. *Introduction to Islamic Theology and Law*. Andras & Ruth Hamori (trans.). Princeton, New Jersey: Princeton University Press, 1981.

Goodmann, L. E. "Crosspollinations: Philosophical Fruitful Exchanges between Jewish and Islamic Thought." *Medieval Encounters*. vol. 1 (1995).

________. *Jewish and Islamic Philosophy: Crosspollinations in the Classical Age*. Edinburgh: Edinburgh University Press, 1999.

Gutas, Dimitri. *Greek Thought, Arabic Culture: The Graeco-Arabic Translation Movement in Baghdad and Early Abbasid Society (2nd-4th/8th-10th Centuries)*. Axon/ New York: Routledge, 1999.

Heinrichs, W. P. & Ch. Pellat et al. (eds.). Leiden/ New York: Brill, 1993.

Ibn Al-Murtaḍā. *Tabaqāt al-Mu'tazila*. *(The Divisions of Mu'tazilites)*. S. Diwald-Wilzer (ed.). Wiesbaden: Franz Steiner, 1961.

Lindsay, James E. *Daily Life in the Medieval Islamic World*. Indianapolis/ Cambridge: Hackett Publishing Company, 2005.

Martin, Richard C. (ed.). *The Encyclopedia of Islam and the Muslim World*. New York: Macmillan Reference USA, 2004.

Martin, Richard, Mark Woodward & Dwi S. Atmaja. *Defenders of Reason in Islam: Mu'tazilism from Medieval School to Modern Symbol*. Oxford: Oneworld, 1997.

Meddeb, A. & B. Stora (eds.). *A History of Jewish-Muslim Relations: From the Origins to the Present Day*. Princeton, New Jersey: Princeton University Press, 2013.

Murdoch, John E. & Edith Dudley Sylla (eds.). *The Cultural Context of Medieval Learning*. Dordrecht/ Boston: Rr. Reidel Publishing Company, 1973.

Nadler, S. & T. Rudavsky (eds.). *The Cambridge History of Jewish Philosophy: From Antiquity through the Seventeenth Century*. Cambridge: Cambridge University Press, 2008.



Penn, Michael. *Envisioning Islam: Syriac Christians and the Early Muslim World*. Philadelphia, Pennsylvania: University of Pennsylvania Press, 2015.

Reinink, G. J. & A. C. Klugkist (eds.). *After Bardisan: Studies on Continuity and Change in Syriac Christianity in Honor of Professor Han. J.W. Drijvers*. Leuven: Peeters, 1999.

Richard M. Frank, "The Science of *Kalām*." *Arabic Sciences and Philosophy*. vol. 2 (1992).

Samir, S. Kh. & J. S. Nielsen (eds.). *Christian Arabic Apologetics during the Abbasid Period, 750-1258*. Leiden: Brill, 1994.

Schmidtke, Sabine & Gregory Schwarb. "Introduction." *Intellectual History of the Islamicate World*. vol. 2 (2014).

Schmidtke, Sabine (ed.). *Oxford Handbook of Islamic Theology*. Oxford: Oxford University Press, 2016.

________. "Theological Rationalism in the Medieval World of Islam." *al-'Uṣūr al-Wusṭā*. vol. 20, no. 1 (2008).

Sizgorich, Thomas. *Violence and Belief in Late Antiquity: Militant Devotion in Christianity and Islam*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2009.

Sklare, David. "The Reception of Mu'tazilism among Jews who were not Professional Theologians." *Intellectual History of the Islamicate World*. vol. 2 (2014).

Steiner, Heinrich. *Die Mu'taziliten oder die Freidenker im Islam: Ein Beitrag zur allgemeinen Culturgeschichte*. Leibzig: Verlaf von S. Hirzel, 1865.

Stroumsa, Guy (ed.). *Comparative Studies in the Humanities*. Jerusalem: Israel Academy of Sciences and Humanities, 2018.

Stroumsa, Sarah. "The Beginning of the Mu'tazila Reconsidered." *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*. vol. 13 (1990).

________. *Freethinkers of Medieval Islam: Ibn al-Rāwandī, Abū Bakr al-Rāzī, and their Impact on Islamic Thought*. Leiden/ Boston: Brill, 2016.

Swanson, Mark. "A Curious and Delicate Correspondence: The *Burhān* of Ibn al-Munajjim and the *Jawāb* of Ḥunayn ibn Isḥāq." *Islam and Christian-Muslim Relations*. vol. 22 (2011).

Tannous, Jack. *The Making of the Medieval Middle East: Religious Society and Simple Believers*. Princeton/ Oxford: Princeton University Press, 2018.

Thomas, David (ed.). *Anti-Christian Polemic in Early Islam: Abū ʿĪsā al-Warrāq's 'Against the Trinity'*. Cambridge/ New York: Cambridge University Press, 1992.

________.(ed.). *Christian Doctrines in Islamic Theology*. Leiden/ Boston: Brill, 2008.

van Ess, Josef (ed.). *Traditionistische Polemik gegen 'Amr ibn 'Ubayd; zu Einem Test des Ali B. Umar ad-Daraqutni*. Baden-Baden: Ergon Verlag, 2004 [Beirut, 1967].

________. *Theology and Society in the Second and Third Centuries of the Hijra: A History of Religious Thought in Early Islam*. Gwendolin Goldbloom (trans.). Leiden/ Boston: Brill, 2017.

van Ginkel, J. J., H. L. Murre-van Den Berg & T. M. Lint. *Redefining Christian Identity: Cultural Interaction in the Middle East Since the Rise of Islam*. Leuven/ Paris/ Dudley: Peeters, 2005.

Watt, J. *The Aristotelian Tradition in Syriac*. London/ New York: Routledge, 2019.

Wolfson, H. A. *Repercussions of the Kalām in Jewish Philosophy*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1979.



التسلم Received
16-11-2022

التعديل Revised
25-10-2023

القبول Accepted
10-11-2023

الرقم التعريفي: DOI: https://doi.org/10.31430/QXCI8896

حامد العجيلي | Hamed Ajili*

الحجابة والحجّاب في إفريقية في العهد الحفصي

The *ḥijāba* and the *ḥujjāb* in *Ifrīqiya* during the Hafsid era

ظهـرت الحجابة في إفريقية منذ العهد الأغلبي (184-296هـ/ 800-909م)، وتواصلت إلى العهد الحفصي (627-981هـ/ 1228-1574م)، حيـث شـهدت تطـورًا منذ منتصف القرن الرابع عشـر الميلادي، بلـغ أوجه في أواخـره، وأدّى الحجّاب أدوارًا مختلفـة، وبـرزت وجوه عديدة أشـادت المصـادر بأهميتها. كان عمـل الحجّاب متنوعًا في مجالات شـتى، وكان السـلطان يعيّنهم من خلال مرسوم مكتوب في الغرض على ما يبدو. وتبعًا لأهمية خطة الحجابة التي صارت أهم الخطط السلطانية، فإنّ الحجّاب كانت لهم شـبكات علائقية مختلفة الأوجه، حتى إنّهم تمكّنوا من السـيطرة على دواليب الحكم في مناسبات عديدة وسـيّروا شـؤون الدولة الحفصية. تتعرض هذه الدراسـة لظهـور خطة الحجابة وتطورها وفتـرة أوجها ثم مهمات الحجّاب المكلفين بها، إضافةً إلى كيفية نسـجهم لشـبكة علاقات مختلفة، وتأثير ذلك في منصب الحجابة وفي السـلطة نفسها والحجّاب.

كلمات مفتاحية: الحجابة، الحجّاب، الدولة الحفصية، علاقات القوة.

The *ḥijāba* was an official role that appeared in *Ifrīqiya* (modern Tunisia and parts of Algeria and Libya) in the Aghlabid era (800-909) and continued into the Hafsid era (1228-1574). The role of the *ḥujjāb*, who acted as a gatekeeper and advisor to the Sultan, developed throughout the middle of the 14th century and reached the peak of its powers towards its end, and numerous sources testify to its importance. The *ḥujjāb*'s role was diverse and covered various fields. The Sultan appointed its holder by decree, and given the role's prominence, this was one of the Sultan's most important policy decisions. The *ḥujjāb* had various networks of relations through which he was often able to control the wheels of government and set the trajectory of the Hafsid state. This paper discusses the emergence of the *ḥijāba*, its evolution and its character at its peak. It then looks at the tasks assigned to the role, how its holders were able to weave a network of relationships, and the impact this had on the position, the *ḥijāba* and the government.

Keywords: hujaba, ḥujjāb, Hafsid state, Power Networks.

* أستاذ مساعد في التاريخ الوسيط في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، صفاقس.
Assistant Professor in Medieval History at the Faculty of Arts and Humanties in Sfax, Tunisia.
hamedajili2@gmail.com



مقدمة

ظل الحديث عن المكونات الإدارية للدولة الحفصية، على الرغم من البحوث والدراسات التي خُصصت للجوانب السياسية للعهد الحفصي، في إطار البحث عن طبيعة النظام السياسي ومختلف أوجه النشاط الإداري للدولة، في حين بقي تخصيص حيّز مستقل للبحث في النظم الإدارية بتفصيلاتها غيرَ مطروح، إذا ما استثنينا ما أشار إليه هوبكنز وروبار برنشفيك[1].

ضمن هذا السياق البحثي، تبقى إشكاليات البنى الإدارية والإداريين الذين شغلوا مناصب عليا في الدولة محلَّ اهتمام وبحث يمكن أن يسهم في إماطة اللثام عن عديد القضايا المتصلة خاصة بسير دواليب الحكم والإدارة. ومن ثمة نجد أنفسنا أمام تساؤلات عديدة تبدو غامضة وفي حاجة إلى توضيحات، منها: كيف ظهرت خطة الحجابة لدى الحفصيين سليلي الحكم الموحدي الذي اعتمد خاصة على رتبة الوزارة وفئة الكتّاب؟ وكيف تطورت مهمات الحاجب؟ وما الوظائف التي اضطلع بها الحجّاب؟ وما الأسس المعتمدة في اختيارهم؟ وما أصولهم الاجتماعية والجغرافية؟ ثم كيف كانت علاقتهم بالسلطة والمجتمع؟ وما شبكة علاقاتهم السياسية والاجتماعية؟

هذه الأسئلة ضرورية للبحث في موضوع الحجابة والحجّاب في الفترة الحفصية، إضافةً إلى أسئلة أخرى عديدة سنحاول الإجابة عنها من خلال المنهج التحليلي النقدي وقراءة في أدوار أولئك الفاعلين السياسيين الذين يُعرفون بالحجبة أو الحجّاب.

أولًا: ظهور الحجابة وتطورها[2]

إن كلمة الحجابة مشتقة من فعل حجب ويعني الستر، أما الحاجب فهو البواب وجمعه حجبة وحجّاب، في حين تعني كلمة الحجابة ولاية الحاجب، وهو الشخص الذي يقف في باب السلطان، ثم أصبحت الكلمة تعني خطة في البلاط ظهرت منذ الفترة الأموية وتطورت مع العباسيين في بغداد، حيث نشب صراع بين الوزير والحاجب[3].

أما في الأندلس فالوضع مختلف عن المشرق، حيث كان الحاجب أعلى مرتبة من الوزير. ويرى برنشفيك أن الحجابة قد انتقلت من الأندلس إلى إفريقية[4]، في حين بيّن هوبكنز أن الأغالبة والفاطميين في إفريقية عرفوا خطة الحاجب، وكذلك الشأن بالنسبة إلى الموحّدين[5].

---

1 ج. ف. ب. هوبكنز، **النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى**، ترجمة أمين توفيق الطيبي (تونس: الدار العربية للكتاب، 1980)، ص 53-58، مع الإشارة إلى أن الكاتب لم يذكر الحجابة خلال العهد الحفصي؛ روبار برنشفيك، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م**، ترجمة حمادي الساحلي، ج 1 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988)، ص 181، 146-187، 196، 201-213؛ ينظر أيضًا: المرجع نفسه، ج 2، ص 54-56.

2 حول الحجابة وتطورها في الحضارة العربية الإسلامية، يمكن الرجوع إلى دائرة المعارف الإسلامية، ينظر:
"Ḥādjib," in: J. Schacht et al. (eds.), *Encyclopedia of Islam*, vol. 3 (Leiden: Brill, 1986), pp. 45-49; "Ḥidjāb," in: Schacht et al. (eds.), vol. 3, pp. 360-361;
محمد حيان السمّان، **في تدبير القداسة: الحجابة والحجاب، أدب الدخول على السلطان في التراث العربي الإسلامي** (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018)؛ مياسة نايف حاتم، "وظيفة الحاجب في عصر صدر الإسلام"، **مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع**، العدد 65 (آذار/ مارس 2021)، ص 65-77.

3 أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور، **لسان العرب**، مج 1 (بيروت: دار صادر، [د. ت.])، ص 298-299؛ "Hadjib," p. 45.

4 برنشفيك، ج 2، ص 54.

5 آمنة محمود عودة الذيابات، "الحجابة والوزارة في عصر الخلافة الأموية في الأندلس (316-422هـ/ 928-1030م)"، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة مؤتة، الأردن، 2000، ص 52-214؛ برنشفيك، ج 2، ص 54؛ "Hadjib," p. 49؛ هوبكنز، ص 53-58؛ يمكن الرجوع إلى ملاحظات محمد القبلي الخاصة بالإدارة الحفصية والمرينية ومكوناتها وأهمية الحاجب عند الحفصيين الذي يقابله المزوار في فاس:
Mohamed Kably, *Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du moyen-âge* (Paris: Maisonneuve et Larose, 1986), pp. 263, 264;
وللتعرف أكثر إلى خطة الحجابة في المغربين الأوسط والأقصى، ينظر: أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر، **روضة النسرين في دولة بني مرين** (الرباط: المطبعة الملكية، 1962)؛ أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر، **تاريخ الدولة الزيانية**، تحقيق هاني سلامة (بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية، 2006)؛ لسان الدين بن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1975)؛ أبو زكريا يحيى بن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ج 1 (الجزائر: دار الطباعة الشعبية للجيش، 2007)؛ وللاطلاع أكثر على ببليوغرافيا منوعة بشأن الحفصيين والمرينيين والزيانيين وبني نصر، ينظر:
Jean-Claude Garcin et al., *Etats, sociétés et cultures du Monde Musulman médiéval (Xe-XVe siècles)* (Paris: PUF, 1995), vol. 1, pp. LXX-LXXVI.



استنادًا إلى المصادر الإخبارية الحفصية الأساسية المعروفة لدى الدارسين، تبيَّن لنا غياب الحديث عن الحجابة باعتبارها مكونًا أساسيًا للدولة في بداية الحكم. وبحسب التحليل الخلدوني لنشأة الدولة، تكون أدوات الحكم بسيطة وبعيدة عن التعقيد، وفي هذا الصدد نؤكد أن هناك تواصلًا مع آليات الحكم الموحدي، الذي كان يعتمد أساسًا على خطة الوزارة وشيوخ الموحدين والكتّاب، إضافةً إلى الحجّاب في مرتبة أخيرة داخل الإدارة الموحدية(6).

أما فيما يتصل بفترة بحثنا فتستوقفنا عبارتان في ما ذكره ابن القنفذ عند حديثه عن أبي القاسم بن الشيخ (من أصل أندلسي واستقر في بجاية ثم في تونس الحفصية)، وبداية دخوله البلاط الحفصي وتقديمه للسلطان الحفصي المستنصر (647-677هـ/ 1249-1277م) من جانب عبد الله بن ياسين الهنتاتي(7) (أحد شيوخ الموحدين) بقوله: "يليق بباب الخلفاء"(8). فهل هي إشارة ضمنية إلى وجود خطة الحاجب في فترة المستنصر؟ أم أنها إحالة على أهمية باب الخليفة بوصفه رمزية إلى علوّ شأن من يلج ذلك الباب؟ ندلي بهذه الملاحظة ونشير في الآن نفسه إلى ما قاله عبد الرحمن بن خلدون (732-808هـ/ 1332-1406م)، عند حديثه المزدوج عن الرئاسة الخاصة بابن أبي الحسين، في فترة المستنصر، ورئاسة أبي الحسين بن سيد الناس في علاقة بمنصب الحجابة، زمن حكم أبي حفص عمر الأول (683-694هـ/ 1284-1295م)، والذي ربما يفسَّر بوجود الحجابة، وهو ما أكده أحد الدارسين الذي أشار إلى وجود تلك الخطة في عهد المستنصر الحفصي؛ ما يجعلنا نرجّح وجود الحاجب منذ حكم أبي يحيى زكرياء بن الشيخ أبي محمد عبد الواحد (627-647هـ/1228-1249م)، ولكنه لم يصل إلى مرتبة الرئاسة(9).

وبالعودة إلى أهم مؤرخ حفصي، وهو عبد الرحمن بن خلدون، نجده خصص حيزًا مهمًا للحديث عن الحجابة يتصل بتطور تلك الخطة من الزاوية التاريخية، بدءًا بالفترة الأموية والعباسية؛ ليبين لنا أنها كانت تعني حجابة السلطان عن العامة، وترتبط بعملية فتح الأبواب وغلقها، وتواصل العمل بتلك العادة حتى فترة ابن خلدون؛ ففي مصر يلقَّب صاحب ذلك العمل بالنائب، ونجد اختلافًا مع الحجابة التي كانت سائدة في الأندلس، حيث كان الحاجب يحجب السلطان عن العامة والخاصة زمن الدولة الأموية، وهو كذلك شخص يكون واسطة بين السلطان ووزرائه، وظهر حجّاب أو حجبة كبار أيام تلك الدولة(10).

ومقارنةً ببلاد المغرب عمومًا، في رأي ابن خلدون، فإن البداوة ساهمت في إغفال ذلك اللقب وصولًا إلى الفترة الموحدية(11). والحال مثلما بيّنّا سابقًا أنّ لقب الحاجب ظهر في إفريقية منذ الفترة الأغلبية. فهل يقصد ابن خلدون تطوّر تلك الخطة إلى أرفع منزلة في مؤسسات الدولة دون غيرها من الخطط في فترة دون أخرى؟ يبدو الأمر كذلك، حيث يقرّ أن بني حفص في إفريقية قد ظهرت

---

6 يرى عز الدين موسى أنّ المصادر الموحدية لا تشير إلى وجود الحاجب في الإدارة، واكتفى بالحديث عن خطة الوزارة والكتاب، وأضاف موضحًا أن المصادر المغربية المتأخرة تطلق لفظة حاجب على الوزير، ينظر: عز الدين موسى، **الموحدون في الغرب الإسلامي: تنظيماتهم ونظمهم** (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1991)، ص 155. في حين نرى أن المراكشي ذكر بعض الحجاب عند حديثه عن العاملين في الإدارة الموحدية، ينظر: عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد زينهم محمد عزب (القاهرة: دار الفرجاني للنشر والتوزيع، [د. ت.])، ص 220، 257، 267.

7 لا تذكر المصادر تاريخ ميلاده ووفاته، عاش خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

8 أبو العباس أحمد بن الخطيب بن القنفذ، **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي (تونس: الدار التونسية للنشر، 1968)، ص 147.

9 عبد الرحمن بن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر وأخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، مج 6 (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1959)، ص 705؛ إبراهيم جدلة، **المجتمع الحضري بإفريقية في العهد الحفصي** (تونس: المعهد العالي للدراسات التطبيقية في الإنسانيات بقفصة، جامعة قفصة، 2010)، ص 130. يبدو من خلال ما ذكره ابن خلدون أن الرئاسة تعني تغلّب خطة من الخطط على بقية مكونات الجهاز الإداري الحفصي، أما وجود حاجب لدى أبي زكرياء الحفصي في رأينا فيعود إلى التقليد الموحدي الذي أوجد الحاجب استنادًا إلى رواية المراكشي، لذلك يجب التفريق بين خطة الحجابة باعتبارها مكوّنًا من مكونات الإدارة في البلاط، والحاجب الذي قد تكون مهمّاته محدودة جدًا في بدايات نشأة الدولة.

10 عبد الرحمن بن خلدون، **المقدمة** (بيروت: دار الجيل، [د. ت.])، ص 265. وفيما يتعلق بالحجابة في الأندلس، ينظر: الذيابات.

11 ابن خلدون، **المقدمة**، ص 266.



وتفوّقت في بداية دولتهم الوزارة وصاحب الأشغال؛ ولذلك، حتى المصادر الحفصية الأخرى ركزت على أهم الخطط ونسيت الحديث عن الحاجب، الذي يبدو أنه قد وجد منذ فترة أبي يحيى زكرياء حتى أضحت الرئاسة فيما بعد لتلك الخطة على حساب الخطط الأخرى، فأصبح الحديث عنها متواترًا في المصادر إلى جانب الخطط الأخرى. فكيف تطورت الحجابة؟

لا نجد إجابات واضحة في المصادر ما عدا مؤلَّف **العبر** لابن خلدون، من خلال تعرّضه في مقدمته للتعريف بالحاجب وبعض مهماته باقتضاب شديد، مبينًا تحوّل ذلك اللقب إلى خطة إدارية مهمة، بل أرفع الخطط مقارنةً بالخطط الأخرى، وبيّن لنا النقاط التالية:

- كان الحاجب "قهرمانًا خاصًا" بدار السلطان[12]، ويهتم بالرزق والعطاء والكسوة والنفقة في المطابخ والإصطبلات وغيرها، وحصر الذخيرة، وغير ذلك.
- كان الحاجب يقوم بكتابة العلامة على السجلات، إذا كان يحسن صناعة الكتابة.
- أصبح الحاجب واسطة بين الناس وأهل الرتب كلّهم.
- في آخر الدولة، جُمع له السيف والحرب ثم الرأي والمشورة.
- وصول الحاجب إلى مرحلة الاستبداد والحجر.
- إذهاب خطة الحجابة ومباشرة السلطان لأموره بنفسه[13].

إنّ مختلف تلك النقاط المذكورة يمكن أن تحيلنا إلى التطورات في مهمات الحاجب، التي ارتبطت باتساع الملك وكثرة المرتزقين. وهكذا، نرى ابن خلدون يميز بين مرحلتين لتطور تلك الخطة، هما: مرحلتا البداوة و"الحضارة الداعية إلى انتحال الألقاب"، على حد تعبيره، وزاوج في ذلك بين تحليله لظهور تلك الخطة ومعاينته الواقع الحفصي، وهي شهادة مهمة سنجد دعائمها في كتابه **العبر** وفي المصادر الأخرى، من خلال تخصيصها حيّزًا مهمًّا للحديث عن تلك الخطة، ومختلف الشخصيات التي شغلتها، إلى منتصف القرن التاسع الهجري.

وفي السياق ذاته، نشير إلى أنّ هناك مسألة مهمة طالما بحث فيها ابن خلدون، وهي مشكل الدولة وتشكّلها ثم تضخّم بعض هياكلها، في رأيه، على حساب هياكل أخرى. ويرى في ذلك علاقة مباشرة بالملك وما تصل إليه الدول، بصورة عامة، من حالات القوة والضعف. ويبدو هذا الربط الذي يجده بين عظمة خطة الحجابة وهرم الدولة يشوبه بعض الغموض، خاصة في علاقة بمنصب الحاجب، ليس على صلة بالديناميكية الداخلية للدول وما يعتري سياساتها من تبدّل، نتاج ظروف عديدة. وهذا الكلام ينطبق في الحقيقة على الدولة الحفصية.

فإذا أخذنا في الاعتبار الفترات الكبرى، التي مرّت بها الدولة الحفصية، يتبين لنا أنّ المصادر نبّهت إلى أهمية فترتَي أبي يحيى زكرياء المؤسس، وابنه أبي عبد الله المستنصر، ثم فترة تراجع نتاج الصراع الذي نشب على الحكم (675-718هـ/ 1277-1346م)، وهي الفترة التي شهدت تتالي تسعة سلاطين على الحكم، وفي أثناء ذلك بدأ الحديث في المصادر على خطة الحجابة، وتحديدًا في

12 قهرمان القصر هو الشخص الذي يتولى شؤون القصور الملكية ويتصرف في أدوات بيت الأمير ونفقاته، ينظر: برنشفيك، ج 2، ص 53-55.

13 ابن خلدون، **المقدمة**، ص 267. ويقدّم لنا ابن الأزرق نوعين من الاحتجاب: المأذون فيه والممنوع منه، وينبه السلطان من احتجابه عن العامة حيث يمكنهم معرفة أعماله المستورة عنهم، والاحتجاب الممنوع هو ذلك الذي يسرع في خراب الدول ويكون السلطان في عداد الموتى، ويذكر ما قاله أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي: "لا تزال الرعية ذات سلطان واحد ما وصلوا إلى السلطان فإذا احتجب فهناك سلاطين كثيرة"، ينظر: أبو عبد الله بن الأزرق، **بدائع السلك في طبائع الملك**، تحقيق وتقديم علي سامي النشار (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 2008)، ص 310-318.



فترة حكم المستنصر الحفصي، الذي كان يعتمد على "الحاجب الأعلى" أبي عبد الله سعيد بن اليقظان. ويبدو أنّ عبارة "الحاجب الأعلى" تحيل على تطوّر خطة الحاجب مقارنة بما كانت عليه أيام أبي يحيى زكرياء الحفصي، من دون أن نجد تفاصيل تتعلق بمهمات الحاجب، التي يبدو أنها كانت بسيطة في البداية، ثم توسعت أكثر في فترة المستنصر[14].

وبالرجوع إلى تلك الإشارة نفسها "الحاجب الأعلى"، فإنه يمكن أن يقابلها "الحاجب الأدنى"؛ لأن المصادر تحدثت في فترات لاحقة عن "الحاجب الأول"، إشارةً إلى أهميته مقابل حاجب ثانٍ على ما يبدو، ونلاحظ في هذا السياق أنّ هناك تقاربًا في المعنيين بين "الحاجب الأعلى" و"الحاجب الأول". وتغفل المصادر في الوقت نفسه عن "الحاجب الثاني"، الذي يبدو أنّ مهماته ثانوية. وإذا كان لفظ "الحاجب الأعلى" قد وُجد زمن المستنصر الحفصي، فإننا نرجّح وجود حاجب فترة أبي يحيى زكرياء، لكن في مرتبة ثانية مع "قهرمان الدار"، أشار إليها ابن خلدون باعتبارها تعني الحاجب ذا المهمات الخاصة بدار السلطان، وهو أهم من الشخصية الثانية التي ربما كانت تقف في الباب السلطاني[15].

وليس مصادفة أن نجد ذكر عديد الأسماء للحجّاب منذ بداية حكم أبي إسحاق إبراهيم (678-681هـ/ 1280-1282م). ثم بلغت تلك الخطة أوجها مع فترة السلطان أبي بكر يحيى بن إبراهيم (718-747هـ/ 1318-1346م)، وتوقفت المصادر عن ذكر تلك الخطة مع منتصف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر ميلادي. ومعنى ذلك، على ما يبدو، بداية اضمحلالها وربما تواصل عمل الحاجب، حتى نهاية العصر الحفصي، لكنه ظهر بألفاظ أخرى[16].

ولتوضيح ذلك، رأى ابن خلدون أنّ هناك فرقًا بين الحجابة والحجّاب، مستندًا في ذلك إلى فكرة التطور الطبيعي للملك الذي أدى إلى ظهور الحجّاب باعتباره ضرورة سلطانية، وقال إن الحجّاب ثلاثة أصناف: حجّاب فرضتهم ضرورة الملك، وحجّاب فرضهم تطور الملك، وحجّاب فرضتهم حاجة المحافظة على الملك. وهي كلّها تحيل إلى أصناف مختلفة من الحجّاب؛ فالأول حجابة على العوام، ثم حجابة على بعض الخواص من السلطان، ثم حجابة على الخواص والعوام، وهي فترة استبداد الحجّاب على السلطان[17].

يبدو أن ابن خلدون قد ميّز بين ظهور الحجّاب وفق مراحل تاريخية معينة؛ لذلك ذكرنا سابقًا أنّ الحجابة ظهرت منذ زمن أبي يحيى زكرياء الحفصي مؤسس الدولة، باعتبارها ضرورية للملك. ثم بعد ذلك، ظهرت الحجابة بوصفها خطة إدارية مهمة، غير أنّ ما ذكره من ملاحظات مهمة لا نجد له أثرًا تفصيليًا في المصادر الحفصية، وما يمكن فهمه أيضًا من ملاحظات ابن خلدون أنّ الحجابة

14 جدلة، ص 130، حيث يذكر مقتطفًا من قصيدة لحازم القرطاجني (608-684هـ/ 1211-1286م) تحدّث فيها عن الحاجب أبي عبد الله سعيد بن اليقظان، جاء فيه ما يلي:

فسعدتُ يا بن سعيدٍ الأعلى أبي *** عبد الإله ونلتُ ما أنا أرتجي
الحاجبِ الأعلى الذي مُذْ فَتَّحتْ *** يُمناهُ أبوابَ المنى لم تُرْتَج
ذخرُ الإمام المجتبى وعياذه *** ومنيرُ غيهبِ كلِّ خطبٍ مدّج

15 ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 805-806. ويقول في هذا الصدد: "ثم استقدم الأمير أبو زكريا حاجبه الأول لعهد ابن سيد الناس وهو أبو عبد الله محمد بن فرحون، وقد كان السلطان بعثه في غرض الرسالة إلى ملك المغرب"، ونقل الزركشي ما رواه ابن خلدون، ينظر: أبو محمد عبد الله اللؤلؤي الزركشي، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق الحسين اليعقوبي (تونس: المكتبة العتيقة، 1998)، ص 161. مع الإشارة إلى أن هذه الأحداث تعود إلى فترة السلطان أبي يحيى أبي بكر (718-747هـ/ 1318-1347م) الذي عُرف بكثرة حجّابه.

16 يمكن الرجوع إلى قائمة الحجّاب خلال كامل الفترة الحفصية، بحسب المصادر في الصفحات القادمة. ونشير إلى توقّف كتاب الزركشي **تاريخ الدولتين** عند فترة أبي عمرو عثمان (839-892هـ/ 1436-1488م)، وتحديدًا عند أحداث سنة 882هـ/ 1477م، أما ابن أبي دينار فلا يذكر تلك الخطة. ينظر: أبو عبد الله محمد بن أبي دينار، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، تحقيق محمد شمام (تونس: المكتبة العتيقة، 1967)؛ ويرى برنشفيك استنادًا إلى مؤلف **وصف إفريقيا** للحسن الوزان، أنّ "صاحب التشريفات" هو الحاجب خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. ينظر، برنشفيك، ج 2، ص 56.

17 ابن خلدون، **المقدمة**، ص 321-322. لا يختلف رأي ابن خلدون في النقطة الأخيرة التي ذكرها عن استبداد الحجّاب على السلطان، عمّا ذكره الطرطوشي الذي قال إنّ ذلك يعجّل ويسرّع في المضرة و"هدم السلطان وسرعة خراب الدول"، ينظر: ابن الأزرق، ص 318.



تطورت وفقًا لتطور الملك، وفي علاقة مباشرة بالسلطان الذي يبحث في ترتيب شؤون ملكه أكثر فأكثر، انطلاقًا من حاجته إلى الحجب عن الرعية وعن الخاصة ممّا يقابله تطور مهمة الحاجب والاستفراد بأمور الدولة في ميادين عديدة. ومن هنا، نلاحظ أنّ تطور تلك الخطة يعني في الأساس الاستبداد بالدولة، ثم الاستبداد على السلطان أو الأمير.

ومن زاوية أخرى، تطلعنا المصادر الحفصية على معلومات مهمة يمكن التعرّف من خلالها إلى تنامي دور الحجّاب وحضورهم في البلاط الحفصي، أو في مدن حفصية أخرى، مثل بجاية وقسنطينة وبونة وسوسة وقفصة وتوزر. وهي إحالة إلى الاهتمام بتلك الخطة وتعيين حجّاب لمعاضدة الأمراء الحفصيين في تلك المدن.

وبناءً على ما سبق، يمكن القول إن الحاجب في فترة تأسيس الدولة كان بمنزلة قهرمان دار مثلما بيّن ابن خلدون، وتلك الخطة نفسها ستشهد تطورًا وانفصالًا على الحاجب لتصبح الخطتان موجودتين في البلاط الحفصي، ويرى برنشفيك أنه جرى الفصل بين الخطتين بعيد وفاة الحاجب ابن الشيخ سنة 694هـ/ 1295م، وهو الذي جمع ثلاث خطط؛ التنفيذ والخرج وكاتب علامة. وهي خطط تقلّدها ابن الشيخ منذ تعيينه حاجبًا؛ لذلك نرجح أنّ الفصل جرى قبل ذلك التاريخ المشار إليه[18]. ثم لا ننسى أنّ فترة حكم ابن أبي عمارة (681-683هـ/ 1282-1284م)، تقلّد ابن مكي[19] الحجابة إلى جانب ابن الشيخ، وهو ما يطرح غموضًا في المهمات التي كُلّف بها هذان الحاجبان آنذاك[20].

يبدو أنّ إشارة ابن خلدون السابقة الذكر، والمتصلة بفكرة أنّ قهرمان دار السلطان هو الحاجب، بالغة الأهمية وتستند إلى حجج واقعية؛ حيث وُجدت منذ فترة أبي يحيى زكرياء الحفصي إلى نهاية الدولة الحفصية، بعدما تطوّر لقب الحاجب وأصبح مستقلًا كلّما تقدمنا في زمن عمر الدولة، مع الإبقاء على العلاقة التي تربط الحاجب بقهرمان دار السلطان، مثلما بيّنت ذلك المصادر عند حديثها عن علاقة عائلتَي ابن غمر السلمي وابن أبي جبّي بمرجان الخصي والحاج فضل قهرمانَي دار السلطان للأمير أبي زكرياء بن إسحاق (684-700هـ/ 1285-1301م) صاحب بجاية[21].

وبعد ذلك، تطور لقب الحاجب؛ حيث تفيدنا المصادر أنه جرى تعيين حاجبين في الوقت نفسه منذ فترة ابن أبي عمارة، وكان ابن الدباغ رديفًا للشخشي وعبد الله الرخامي[22]، عيّن إلى جانب ابن غمر، وكذلك السلطان أبي العباس أحمد (772-796هـ/ 1371-1394م)، الذي عيّن حاجبين. ويبدو أنّ هذين المثالَين يدلّان على قيمة الحجابة وأهميتها، حيث يكون غالبًا الشخص الثاني المتحجب قد حصل على شرف تلك الخطة مقابل عمل مهمّ قام به ليصل ذلك السلطان إلى الحكم[23].

ونشير، من جهة أخرى، إلى تقمّص بعض الحجبة للحجابة وتعيين كاتب لديهم يُعرف بكاتب الحاجب، وظهرت تلك الخطة عندما كان الحاجب في البداية لا يحسن الكتابة، ثم أصبحت فيما بعد تحيل على كثرة مشاغل الحاجب وعدم تفرّغه لبعض الأمور، فيعيّن كاتبًا لذلك الغرض، وتفرّد بعض الحجبة بالتصرف في ولايتين مثل بجاية وقسنطينة، اللتين خُصّتا لمحمد بن سيد الناس

---

18 برنشفيك، ج 2، ص 55؛ ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 707-709.

19 هو عبد الملك بن مكي المتوفى بعد سنة 706هـ/ 1306م من رؤساء عائلة بني مكي، التي ظهرت في إفريقية الحفصية منذ القرن السابع الهجري في مدينة قابس جنوب إفريقية. ينظر: إبراهيم جدلة، **دراسات حول تاريخ بعض مدن إفريقية وقبائلها في العصر الوسيط** ([د. م.]: [د. ن.]، [د. ت.])؛ "بنو مكي والحفصيين: من التحالف إلى الصراع 624هـ/ 1227م-796هـ/ 1394م"، ص 155-163.

20 الزركشي، ص 98؛ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الشماع، **الأدلة البيّنة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق الطاهر المعموري (تونس: الدار العربية للكتاب، 1984)، ص 81؛ ابن القنفذ، ص 146.

21 ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 724-725.

22 كاتب ابن أبي جبّي وصديقه. ينظر: ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 723.

23 الزركشي، ص 98، 208؛ ابن الشماع، ص 81؛ ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 711، 725-726.



فترةً زمنية محددة، وإضافة إلى ذلك، عُني بعض الحجّاب بالإشراف على الأعمال العسكرية والمدنية، ما يحيل على تطوّر مهمات الحاجب[24].

تمكّن العديد من الحجّاب من تعيين إداريين في الدولة، وخاصة أقاربهم، أما دور الوساطة مع الأمير أو السلطان فقد ساهم في اصطناع الحجبة الذين غالبًا ما كانوا يشغلون قبل تعيينهم وظائف مخزنية[25]، خاصة الكتابة، ما جعل السلاطين والأمراء الحفصيين يعتمدون عليهم في مهمات متعددة سمحت بتطور الحجابة، مع الإشارة إلى الإبقاء على العمل الأصلي، وهو الوقوف عند باب السلطان، ما يعني تطوّر النظرة إلى باب السلطان وصعوبة ولوجه من جانب العامة والخاصة[26].

هكذا، نلاحظ تطور لقب الحاجب خلال العصر الحفصي، من خلال تطور المهمات الموكلة إلى الحجّاب، حتى إن المصادر تحدّثت عن استبداد بعض الحجبة، مثل ابن غمر وابن سيد الناس، وهو استبداد على الدولة. أما الاستبداد على السلطان فنذكر خاصة استبداد البالقي وأبي محمد عبد الله بن تافراجين[27] (ت. 766هـ/ 1364م)، لأنه جرى تعيين سلطانين صغيري السن، بل إنّ ابن تافراجين قد وصل مرحلة متقدمة من النفوذ والاستبداد حصل خلالها على خطة الحرب والمشورة والتفرّد بزمام الدولة، وصار الحاكم الفعلي لإفريقية، مدةً زمنية مهمة، سنوضحها أكثر لاحقًا[28].

لقد أنتج رأي ابن خلدون السابق الذكر معنى الحجابة في إفريقية، وأوضح بدايات ظهور ذلك المنصب، وبيّن كيف أصبح الحاجب مع مرور الوقت شخصية مهمة منذ تفرّده عن خطة القهرمان، التي صارت مفردة، وانضافت إلى الحاجب الكتابة ثم التنفيذ، وبعد ذلك أضيفت إليه خطة الخرج[29]. وكلما ازدادت مهماته ازداد باب السلطان والأمير مكانةً ورفعةً؛ لذلك لاحظنا خطة الحجابة في بجاية تحاكي نظيرتها في الحاضرة تونس. وتمدّد نفوذ الحجّاب، وصارت خطة الحجابة من أسمى الخطط خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، بحسب شهادة ابن خلدون، الذي تولّى تلك الخطة ورأى في الشخصيات التي تحدّث عنها في كتابه **العبر**، والتي عُيّنت في منصب الحجابة، مثالًا وعيّنةً لما وصلت إليه من أهمية. واهتم بالحجّاب الكبار، مثل ابن غمر وابن سيد الناس وابن تافراجين، وتتبّع مسيرتهم عن قرب، ما جعله موضوعيًا في تحليله واستنتاجاته. وقال في هذا الصدد "ومعنى الحجابة في دولنا بالمغرب الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته لا يشاركه في ذلك أحد"[30].

ويبقى الإشكال مطروحًا في علاقة بصمت المصادر لإيفائنا بالتفاصيل الخاصة بتلك الخطة والحركية اليومية، التي كانت داخل البلاط أو في المدن المشار إليها سابقًا، والتي ظهرت فيها خطة الحجابة؛ وهو ما يفضي إلى نقصٍ حادّ في المعلومات التاريخية

---

24 ابن خلدون، **العبر**، ج 6،ص 769-770 ، 788-789.

25 المخزن من فعل خزن، ويبدو أن الكلمة استُخدمت في إفريقية منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وتعني في العهد الأغلبي (184-296هـ/ 800-909م) الصندوق المخصص لجمع الضرائب، وفي إفريقية الحفصية استُخدم مصطلح مخزن للتعبير عن الدولة ومختلف أجهزتها بحسب المصادر، أما في المغرب الأقصى فيعني الخزينة المخصصة للأموال، ثم صار يعني السلطة ومكوناتها، وتعددت دلالات المصطلح خلال العهد الحديث، واختلفت آراء الدارسين بشأنها، ينظر: محمد جادور، **مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب** (الدار البيضاء: مؤسسة الملك عبد العزيز، 2011)، ص 383-401؛
"Makhzan," in: Edmund Bosworth, Ch. Pellat & E. J. van Donzel (eds.), *Encyclopaedia of Islam*, vol. VI (Leiden: Brill, 1991), pp. 133-136.

26 ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 747. يقول ابن خلدون متحدثًا عن ابن تافراجين: "جلس بالباب لمكان الحجابة"، ص 802.

27 ينتمي إلى بني تافراجين من بيوت الموحدين في تينملل ومن آية الخمسين وولي عبد المؤمن بن علي كبيرهم عمر بن تافراجين على فاس أول ما ملكها الموحدون عام 540هـ، أما أبو محمد عبد الله بن تافراجين فكان شيخ الموحدين ثم أصبح وزيرًا ثم حاجبًا وعاش بين نهاية القرن السابع الهجري وبعد منتصف القرن الذي يليه، نجهل تاريخ ميلاده وتوفي عام 766هـ/ 1364م، ينظر: المرجع نفسه، ص 794-953. آية الخمسين هيئة موحدية تمثل القبائل الست التي انبنى عليها أمر الدعوة، وتينملل من بينها، أما عبد المؤمن بن علي فهو خليفة المهدي بن تومرت ويعتبر مؤسس الدولة الموحدية. ينظر: موسى، ص 65-66.

28 المرجع نفسه، ص 857، 864-865، 888؛ ابن القنفذ، ص 174؛ ابن الشماع، ص 106، 107.

29 خطة في القصر السلطاني يقوم متوليها بضبط مصاريف القصر.

30 عبد الرحمن بن خلدون، **التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا** (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1979)، ص 103.



الخاصة بتلك الخطة وأصحابها. غير أننا رصدنا تطور تلك الخطة من خلال كثرة الأسماء الواردة للحجّاب، خلال القرن السابع الهجري. ثم شهد القرن الذي يليه تطورًا كبيرًا في عدد الحجّاب. ووفقا لذلك، يتبين لنا أن هناك اهتمامًا ملحوظًا من السلطة الحفصية بخطة الحجابة، من خلال تعيين الأفراد الذين تولّوا تلك الخطة. فكيف كان يُنتدَب الحجّاب؟ وما أصولهم ومؤهلاتهم؟

ثانيًا: تعيين الحجّاب والمهمات الموكلة إليهم

تتيح لنا المصادر الحفصية إمكانية تتبّع تعيين الحجّاب كرونولوجيًا، بحسب فترات حكم السلاطين، ما يساعدنا على فهم مختلف المهمات التي كلّفوا بها. لكنّ البحث في مسألة تعيينهم يطرح مشكل ندرة التفاصيل المتعلقة بذلك الموضوع؛ حيث يتبادر إلى الذهن سؤال مركزي: كيف أصبح تعيين الحجّاب تقليدًا في البلاط الحفصي؟ وهل يمكن التوصل إلى وجود شروط محددة في تعيين الحجّاب؟

1. تعيين الحجاب

يُطرح هذا الإشكال في علاقة بميكانيزمات الإدارة الحفصية، في حد ذاتها، ومن ورائها السلطة نفسها والثقافة السائدة آنذاك؛ إذ إنه من البديهي طرح المشكل في جانبه التوثيقي ومدى ملاءَمة ذهنيات الحكّام الحفصيين مع تقاليد الكتابة والتوثيق لحدثٍ ما يتصل بالإدارة والبلاط السلطاني، والحال أننا نعلم أن المصادر استخدمت مصطلحات بعينها عند الحديث عن تعيين الأمراء وبيعة السلاطين وبعض شخصيات الدولة، كنّا بينّاها في عمل مفرد يتصل بإشكالية التوثيق[31].

ضمن ذلك السياق، نذكر أنّ الأندلس، خلال فترة الخلافة الأموية (316-422هـ/ 929-1031م)، كان السلطان يصدر وثيقة التعيين للحجّاب ويعلم عليها[32]. ويبدو أن ذلك التقليد لم يكن غائبًا خلال الفترة المعنية بالدراسة، حيث لدينا وثيقة رسمية صادرة عن السلطان أبي حمو موسى بن أبي يعقوب بن أبي زيد (759-788هـ/ 1359-1389م) أرسلها إلى عبد الرحمن بن خلدون قصد تعيينه حاجبًا، وهي وثيقة مهمة جدًا سنستغلها في عديد التفاصيل. ونص الوثيقة كما يلي:

"أكرمكم الله يا فقيه أبا زيد ووالى رعايتكم. إنا قد ثبت عندنا وصحّ لدينا ما انطويتم عليه من المحبة في مقامنا والانقطاع إلى جنابنا والتشيع قديمًا وحديثًا لنا مع ما نعلمه من محاسن اشتملت عليها أوصافكم ومعارف فقتم فيها نظراءكم ورسوخ قدم في الفنون العلمية والآداب العربية، وكانت خطة الحجابة ببابنا العلي - أسماه الله - أكبر درجات أمثالكم وأرفع الخطط لنظرائكم قربًا منا واختصاصًا بمقامنا واطلاعًا على خفايا أسرارنا. **آثرناكم** بها **إيثارًا** و**قدمناكم** لها اصطفاء واختيارًا فاعملوا على الوصول إلى بابنا العلي أسماه الله ومستودعًا لأسرارنا وصاحب الكريمة علامتنا إلى ما يشاكل ذلك من الإنعام العميم والخير الجسيم والاعتناء والتكريم لا يشارككم مشارك في ذلك ولله يزاحمكم [لعلها ولا يزاحمكم] أحد وإن وجد من أمثالكم فاعلموه وعولوا عليه [...]"، وكان ذلك سنة 769هـ/ 1368م[33].

تحتوي هذه الوثيقة على عديد التفاصيل المهمة، فمن جهة بيّنت لنا العلاقة الجيدة بين ابن خلدون وأبي حمو، وهو شرط أساسي في اختيار الشخص لشغل ذلك المنصب من وجهة نظر السلطة، التي تعرف عن كثب مواقف ابن خلدون من الأسرة الزيانية

31 حامد العجيلي، **التوثيق وكتب الوثائق بإفريقية في العهد الحفصي** (تونس: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2002). وبينّا استخدام المصادر لمصطلح "عقد"، الذي يحيل على كتابة العقد، وكذلك كتابة وثيقة البيعة بالنسبة إلى السلاطين الحفصيين والاحتجاج بها عند النزاعات على السلطة لاستيفاء الحقوق.

32 الذيابات، ص 87.

33 ابن خلدون، **التعريف**، ص 110-111.



الحاكمة، بعد أن ذاع صيته في البلاطات في بلاد المغرب والأندلس، فاعتقله، مدة سنتين عام 755هـ، السلطان أبو عنان، الذي كانت علاقاته متوترة مع بني عبد الواد وبني حفص، ويبدو أنّ السلطان أبا حمو كان على علم بذلك.

ونلاحظ أنّ اختيار ابن خلدون لمنصب الحجابة كان نتيجة تفوّق المعني بالأمر على نظرائه ورسوخ قدمه في الفنون والآداب العربية، إضافة إلى المعارف الأخرى التي يمتلكها، ومعنى ذلك أن السلطان يرفع من شأن دولته وسلطته من خلال اختيار شخصية ذائعة الصيت، ولها ثقافة ومكانة بين نظرائها المعاصرين لها، ويقودنا ذلك إلى معرفة علاقة السلطة بالنخب خلال تلك الفترة التي شهدت تنافسًا بين دول بلاد المغرب في جذب النخبة العالمة، على نحو عام، حتى صار التنافس على أشدّه بين شخصيات عديدة تحدّثت عنها المصادر بإطناب من خلال الإشارة إلى السعايات والمؤامرات، التي كانت تُحبَك في تلك البلاطات، والتي كان ضحيتها ابن خلدون مثلما ذكرنا.

لا شك في أنّ تقليد كتابة "عهد بولاية الحجابة"، على حد تعبير ابن خلدون، كان أمرًا سائدًا مع الحفصيين كذلك، حيث يضيف الكاتب نفسه أنّ أمير بجاية أبا عبد الله "كتب بخطه عهدًا بولاية الحجابة"، إلا أنه اعتذر وأرسل أخاه يحيى للقيام بذلك، ثم وصل إلى بجاية عام 766هـ/ 1367م، وتقمّص الحجابة، وقال في هذا الصدد: "ثم وصلت إلى السلطان فحيا وفدّى وخلع وحمل وأصبحت من الغد، وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباكرة بابي واستقللت بحمل ملكه واستفرغت جهدي في سياسة أموره وتدبير سلطانه"[34].

ضمن هذا الإطار، نفهم أن تعيين الحجّاب كان يجري من خلال وثيقة كتبها الأمير أو السلطان، وهو ما يعني أننا إزاء تقليد في عملية التعيين وضوابط محددة، ويشترط في الشخص المعني بالحجابة عدة شروط ربما نجدها في كتب الآداب السلطانية ونقارنها بما ورد في المصادر الحفصية.

واستنادًا إلى الكاتب الأندلسي ابن رضوان (ت. 783هـ/ 1381م)، يمكن أن نستشف تلك الشروط، التي بيّنها في مؤلَّفه **الشهب اللامعة في السياسة النافعة**، بقوله: "ينبغي للحاجب أن يكون سهل الوجه لين العريكة، سالم الجوارح من كل آفة، عارفًا بالناس ومنازلهم وأقدارهم عند رئيسه حتى يكون وجهه عنوانًا عن وجه محجوبه [...] وأن يكون بينه وبين محجوبه رسول لطيف المعنى يشعر بحضور كل من حضر، وعلى أي صفة وصل، فإن أحب الإذن له، أعلمه فاستأذن له وإلا اعتذر عن استئذان على محجوبه قبل تصريحه بمنعه لأن الاستئذان أوسع لعذر الرئيس من التصريح بالمنع على لسان صاحب الأمر، ولهذا كان الحاجب عند الخلفاء الماضين والملوك المتقدمين في رتبة الوزارة ومتجاوز القدر لتوسطه في الجلالة"[35].

بهذا المعنى الذي ذكره ابن رضوان، يتبيّن لنا أنّ الحاجب هو "وجه السلطان" وشرط انتدابه يوازي شرط اعتلاء العرش، حيث قال من الواجب أن يكون "سالم الجوارح من كل آفة"، بمعنى سلامة الحواس، وأن يكون له دراية بمكونات المجتمع بمعرفة منازلهم وأقدارهم عند السلطان، وذلك الترتيب مرتبط بما يجب أن يسمح له بالدخول على السلطان من عامة وخاصة، وهي شروط تضاف إلى الشروط السالفة الذكر والمتصلة بالتحصيل العلمي والمعرفي للحاجب، ويستشف من خلال إجراءات اختيار الحجاب لدى الحفصيين أنّ الكفاءة كانت شرطًا أساسيًا في عمليات انتقائهم.

لا شك في أن اختيار الحاجب ترافقه معرفة، ولو وجيزة، بسيرته الذاتية، مثلما لمّح إلى ذلك أبو حمو موسى في الوثيقة المشار إليها سابقًا؛ ولذلك فإن تعيين أبي القاسم بن الشيخ في فترة حكم السلطان الحفصي أبي إسحاق تحيلنا المصادر إلى أنه أصيل مدينة

34 المرجع نفسه، ص 103، 104.

35 أبو القاسم المالقي المعروف بابن رضوان، **الشهب اللامعة في السياسة النافعة**، تحقيق علي سامي النشار (الدار البيضاء: دار الثقافة، 1984)، ص 138.



دانية في الأندلس ووفد على بجاية الحفصية، فاشتغل هناك بالعطارة ثم اتصل بأحد شيوخ الموحدين المؤثرين في الدولة، وهو الشيخ أبو عبد الله بن ياسين الهنتاتي، الذي انتدبه للكتابة، ثم بعد ذلك تمكّن ابن الشيخ من العمل في بلاط المستنصر الحفصي، فراكم تجربة جيدة في البلاط الحفصي حتى جرى اختياره حاجبًا في زمن أبي إسحاق[36].

وقد اختار السلطان أبو إسحاق، عند استيلائه على العرش، ابنه أبا فارس وليًا للعهد وعيّن أبا العباس أحمد بن سيد الناس[37] حاجبًا عليه، وعلى حد تعبير ابن خلدون "خلع عليه لبوس كرامته واختصه بلقب الحجابة على ابنه"[38]؛ وهو ما يعني كتابة العلامة والحجابة في الوقت نفسه. وفي عام 679هـ/ 1281م، عُيّن محمد بن أبي بكر بن الحسين بن خلدون حاجبًا على أبي فارس ثم أبي زكريا وأبي محمد عبد الواحد أبناء السلطان أبي إسحاق، ويعني ذلك أنّ أبا العباس أحمد بن سيد الناس لم يبقَ في الحجابة سوى عام واحد، ويشوب المصادر في هذا السياق غموضٌ في المعطيات التي قدّمتها، حيث يُذكر في الإطار نفسه أن محمد بن أبي بكر بن الحسين بن خلدون نافس الحاجب ابن الشيخ[39].

وتخبرنا المصادر أنّ ابن أبي عمارة "**صرف**" خطة الحجابة إلى عبد الملك بن مكي عام 681هـ/ 1282م[40]، المنحدر من قبيلة لواتة البربرية؛ مجازاةً له على مساندته له في الوصول إلى السلطة[41]. لكنّ السلطان لم يستغنِ كذلك عن أبي القاسم بن الشيخ، الذي يُعرف بـ "الفقيه" و"الرئيس"، واشتغل في خطة التنفيذ وكاتب العلامة في فواتح السجلات إضافة إلى خطة الحجابة. ونظرًا إلى أهمية ذلك الحاجب، فقد بقي في منصبه كذلك في فترة السلطان أبي حفص عمر، حيث "**قلده**" الحجابة مجموعة إلى تنفيذ الخرج وصرف العلامة[42]. وقال أبو حفص عمر في هذا السياق "حاجتنا إليه أكثر من حاجته لنا"[43]. وهكذا، بقي أبو القاسم ابن الشيخ في العمل المخزني منذ فترة المستنصر الحفصي وعاصر فترة ثلاثة سلاطين حفصيين، وظل يمارس مهماته في خطة الحجابة إلى وفاته، عام 694هـ/ 1295م[44].

وفي العام نفسه (694هـ) جرى تعيين المدعو الشخشي حاجبًا لأبي عبد الله محمد بن الواثق الملقّب بأبي عصيدة (693-709هـ/ 1294-1309م)، إلى تاريخ وفاته عام 697هـ/ 1297م، وخلفه في الخطة نفسها أبو الحسن محمد بن إبراهيم بن الدباغ، وكان قد ورد أبوه من إشبيلية عام 646هـ/ 1248م، وولد هو في تونس عام 651هـ/ 1253م، وتقلّد كتابة العلامة عام 695هـ/ 1295م ثم الحجابة[45].

من خلال ما تقدَّم ذكره، تبدو الكفاءة والعلاقة بالسلطة والعمل المخزني، إضافةً إلى رغبة السلطان، كلّها عوامل مجتمعة في تقلّد مهمة الحجابة، وتبعًا لذلك كانت بجاية وتونس قبلةً للأندلسيين الذين كان لهم حضور لافت للانتباه. ورأى محمد الطالبي أنّ

---

36 ابن القنفذ، ص 147.

37 عن عائلة ابن سيد الناس، ينظر: صالح بعيزيق، **بجاية في العهد الحفصي: دراسة اقتصادية واجتماعية** (تونس: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2006)، ص 203-209. وقد بيّن الباحث انتقال تلك العائلة من الأندلس إلى بجاية، وكذلك إلى مدينة تونس، وقد تولّى أعلام من العائلة مناصب دينية، ثم عهد إليهم بمناصب إدارية في الدولة الحفصية، وخاصة اشتغالها بخطة الحجابة، ويمكن معرفة مختلف فروع تلك العائلة من خلال الرسم التوضيحي الذي قدّمه الباحث في ص 209.

38 ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 681.

39 المرجع نفسه، ص 707؛ الزركشي، ص 92.

40 الزركشي، ص 98.

41 جدلة، **دراسات حول تاريخ بعض مدن إفريقية وقبائلها**، ص 155-166، خاصة ص 158.

42 ابن الشماع، ص 81؛ ابن القنفذ، ص 146؛ ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 709.

43 ابن الشماع، ص 81.

44 ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 707-709.

45 المرجع نفسه، ص 711-712، 716 ابن القنفذ، ص 154.



الجالية الأندلسية "حملت في حقائبها المرض الذي منه ماتت الأندلس فزادوا إفريقية في المستوى السياسي مرضًا على مرضها"[46]. وهو رأي مشطّ في حقّهم؛ نظرًا إلى تلهّفهم على ما يبدو على الخطط السلطانية، فكان التنافس بين الأندلسيين وشيوخ الموحدين على أشدّه في جل الرتب المخزنية، وكان البلاطان الحفصي والبجائي مسرحَين للسعايات والدسائس، التي برع فيها الأندلسيون[47].

غير أن الأندلسيين أنفسهم كانوا ضحايا المكائد، أيضًا، ونذكر في هذا السياق ما حدث لأحمد بن سيد الناس الذي "تعاورته السيوف"، وأُلقي في بعض الحفر نتاج وشاية وسعاية من عبد الوهاب الكلاعي، الذي كان من علية الكتّاب، ولم يمنع ذلك الحدث من استئثار أعلام من العائلة المذكورة بمنصب الحجابة، حيث نُصب أبو الحسين محمد بن سيد الناس حاجبًا للأمير أبي زكرياء بن إسحاق في بجاية من عام 684هـ/ 1285م إلى 690هـ/ 1291م[48].

وتخبرنا المصادر عن بعض مسار حياة أبي الحسين بن سيد الناس، الذي نشأ في جو الدولة وحجر كفالتها وعدل عن طلب العلم إلى طلب الدنيا على حد تعبير ابن خلدون[49]، حيث عقد له أبو زكريا صاحب بجاية على الحجابة "وفوض إليه فيما وراء بابه وأجراه في رئاسته [...] وكانت رئاسة هذا في حجابته أبلغ [...] لخلاء جو الدولة ببجاية من مشيخة الموحدين الذين يزاحمونه وصار إلى الحل والعقد وانصرفت إليه الوجوه وتمكن في يده الزمام إلى أن هلك سنة 690هـ/1291م"[50].

لقد أشارت المصادر، مثلما بيّنّا سابقًا، إلى أن أغلب الحجّاب كانت لهم سابقة في العمل الإداري، ما يجعل السلطان أو الأمير على بيّنة ممن يختاره لمنصب الحجابة، ويعيّنه من بين الذين على معرفة بهم. ويبدو أيضًا أنّ تكتّل الأندلسيين مع بعضهم سهّل عليهم الوصول إلى مراتب عليا في الدولة، حيث أفاد بعض الدارسين أن "هذه الجالية لم تكن ميالة إلى الانصهار في الوسط الإفريقي"[51]. ويبدو ذلك واضحًا من خلال مثال أبي القاسم بن أبي جبي، الذي كان كاتبًا لابن سيد الناس المذكور سابقًا. وتذكر المصادر أنه كان كفؤًا "حتى عنت إليه الوجوه وأمله الخاصة واضطلع السلطان على اضطلاعه وكفايته بل إنه كان مستبدًا على الدولة في حجابته"[52].

ولا يوضح لنا صاحب كتاب **العبر** قصده بالاستبداد على الدولة، والحال أنه مثلما بيّنّا سابقًا قد نبّه إلى الحالات التي يصبح فيها الحاجب مستبدًا على الدولة، وهي على ما يبدو منافية لما ذكره في هذا السياق؛ حيث بيّن توافر عنصر الكفاءة ورضا السلطان عن أدائه، ما يعني أنّ الاستبداد هنا ارتبط بعلاقات الحاجب بالخاصة داخل البلاط، على نحو يحيل ضمنيًا إلى أنّ السلطان نفسه كان على بيّنة من التنافس بين رجالات البلاط، وربما شجّعه في أحايين كثيرة.

من خلال ما تقدّم ذكره، نلاحظ أن عديد الأشخاص الذين جرى تعيينهم في رتبة حاجب، خلال القرن السابع الهجري، كان أغلبهم في بداية الأمر يتولّون خططًا سلطانية أخرى، وكانوا من أصول اجتماعية مختلفة، فمنهم الوجهاء أو الشرفاء ومن فئات

---

46 محمد الطالبي، **دراسات في تاريخ إفريقية وفي الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط** (تونس: منشورات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1982)، ص 185.

47 المرجع نفسه، ص 180-181. وما يمكن ملاحظته أن الأندلسيين كانوا على ما يبدو على دراية بمؤلفات الآداب السلطانية التي تقدم نصائح مهمة للراغبين في العمل مع السلطان فتأثروا بما ورد في تلك المؤلفات، إضافة إلى تجاربهم الشخصية، وهو ما أسهم في تميزهم، ولا نوافق رأي الطالبي المذكور لأن المسألة في اعتقادنا في علاقة مباشرة بثقافة العصر وخاصيات البلاطات ومزاج السلطان الذي كان يغذي أحيانًا تلك الصراعات، ليضمن توازن ملكه، ينظر: عز الدين العلام، **الآداب السلطانية: دراسة في بنية وثوابت الخطاب السياسي**، سلسلة عالم المعرفة 324 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2006)، ص 154-163.

48 ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 685، 700.

49 المرجع نفسه، ص 684.

50 المرجع نفسه، ص 704-705؛ بعيزيق، ص 410.

51 الطالبي، ص 201.

52 ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 706، 720؛ حول عائلة ابن جبي، ينظر: بعيزيق، ص 410.



متواضعة؛ وذلك نظرًا إلى أهمية تلك الخطة التي تكون على صلة مباشرة بالسلطان. ولنا مثال عائلة ابن سيد الناس السابقة الذكر، ويبدو تبعًا لذلك أن التعيين كان يجري بحسب شروط مسبقة مثلما بيّنّا سابقًا.

يبدو أن الحجابة خلال القرن الثامن الهجري قد أخذت صيتًا ذائعًا، حيث بيّنت المصادر تزايد عدد الحجّاب؛ فالسلطان أبو بكر يحيى بن إبراهيم "كان أكثر السلاطين الحفصيين حجّابًا، حيث كان الحاجب هو المتولي لعامة أموره ولذلك تعددت قواده وحجابه"[53]، وأوّل حجّابه الفقيه أبو عبد الرحمان يعقوب بن غمر، الذي كان في السابق حاجب أبي البقاء خالد (709-711هـ/ 1309-1311م)، في بجاية، وكانت بينه وبين الحاجب ابن أبي جبّي وظافر الكبير منافسة وتوفي عام 719هـ/ 1319م[54]. "وآخر حجّابه الشيخ الرئيس أبو محمد عبد الله بن الشيخ أبي العباس أحمد بن تافراجين التينملي وبينهما نحو اثني عشر حاجبًا"[55].

وفي سياق السرد التاريخي المتبع في المصادر الحفصية وذكر الحجّاب، كان عبد الله بن القالون حاجبًا في بجاية وقسنطينة للأميرين أبي عبد الله وأبي زكرياء ابني السلطان أبي بكر يحيى، ثم استبدل بالمولى ظافر حاجبًا على قسنطينة، وكان ذلك سنة 720هـ/ 1320م، إلى أن هلك سنة 727هـ، ثم أصبح ابن سيد الناس حاجبًا على بجاية وقسنطينة سنة 728هـ/ 1327م، وأنزل معه بقسنطينة مولاه نبيلًا من المعلوجي[56]، يقيم له رسم الحجابة. وبعد وفاة ابن سيد الناس، سنة 733هـ/ 1332م، عيّن أبو القاسم بن عبو حاجبًا على ابن السلطان في قسنطينة، وهو من مشيخة الموحدين سنة 735هـ/ 1334م[57]. وتبقى تلك المعلومات المقدّمة من دون تفاصيل أخرى يمكن أن تفيد الباحث، بل إن ذلك الحرص على الجانب الكرونولوجي، بذكر سنوات تعيين الحجّاب، يدخل ضمن سياق بنية النص التاريخي السردي الحفصي، الذي يحرص على تتبّع مدى اكتمال صورة الملك ومكوناته الإدارية الأساسية ومدى تفاعلها مع بعضها أو التنافس الحاصل بشأنها.

وقد تولى خطة الحجابة المزوار محمد بن عبد العزيز، واستعان بأبي القاسم عبد العزيز بصفة كاتب للحاجب، وكان أصل سلف هذا الأخير من الأندلس، ثم انتقلوا إلى مراكش حيث استُخدموا للموحدين، واستقر والده إسماعيل في تونس، وبدأ حياته كاتبًا عند الحاجب ابن الدباغ واستعمله ابن غمر على الأشغال بقسنطينة سنة 713هـ/ 1313م، ثم ولي أعمال الحامة في فترة ابن سيد الناس. وعند نكبة الأخير سنة 733هـ/ 1332م، ولي الحجابة بالحضرة إلى وفاته عام 744هـ/ 1344م، وفي فترته انقسمت خطط الدولة إلى الحرب والتدبير الخاصة بالجيش "ومخالصة السلطان وتنفيذ الأوامر"، وهي من مهمات الحاجب[58].

نستنتج من خلال هذا السرد لعمليات تعيين الحجّاب أن القرن الرابع عشر شهد كذلك حضور الأندلسيين في خطة الحجابة، ويبيّن اختيار السلطان الحفصي لبعض العلوج، وهم تلك الفئة التي نجدها خاصة في الجيش الحفصي بأعداد كبيرة؛ ما يوحي بوجود تنافس بين ثلاثة أطراف: الطرف الأول هو شيوخ الموحدين المسيطرون على السلطة، الذين تقلّص نفوذهم خاصة بعد الحملة التي شنّها المستنصر الحفصي، والطرف الثاني هو الطرف الأندلسي الذي واصل عمله في خطة الحجابة، أما الطرف الثالث فهو عناصر من الجيش الحفصي، ما يوحي أنّ تعيين الحجّاب لا يخضع لتلك الشروط التي أوردها ابن رضوان سابقًا، بل يخضع لشروط السلطان التي تكون أحيانًا هي الطاغية.

---

53 ابن القنفذ، ص 165.

54 برنشفيك، ج 1، ص 146، 158، 161، 163، 182-183.

55 ابن القنفذ، ص 165.

56 استخدم المصطلح ابن خلدون في كتاب **العبر** نسبة إلى العلج، وتعني المرتدين الأوروبيين الذين كانوا في خدمة السلاطين الحفصيين، ينظر: Reinhart Dozy, *Supplément aux dictionnaires Arabes* (Beirut: Librairie de Liban, 1881), vol. 2, p. 159.

57 ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 758، 769، 770-773، 786-789؛ الزركشي، ص 148.

58 ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 794؛ الزركشي، ص 144.



ومع منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، نلحظ تغييرًا آخر قد حصل في تعيين الحجّاب، حيث كان جلّهم من طبقة شيوخ الموحدين، مثل الحاجب محمد بن عبد الله بن تافراجين الذي كان وزيرًا، وأحد شيوخ الموحدين، وهو الذي ينتمي إلى عائلة من تينملل كان لها حضورها في الدولة الموحدية منذ تأسيسها، لذلك نجده يتصدر حجابة السلطان أبي حفص عمر بن أبي بكر (747-748هـ/ 1347-1348م)[59]. وكذلك الشأن بالنسبة إلى الحاجب أبي العباس أحمد بن عبو، الذي كان من مشيخة الموحدين وتحجّب للسلطان أبي العباس الفضل (750-751هـ/ 1349-1350م)[60].

وشهدت الفترة نفسها المشار إليها تعيين حجّاب في مدن إفريقية أخرى، حيث عقد السلطان أبو بكر يحيى لابنيه الأميرين أبي فارس عبد العزيز وأبي البقاء خالد اللذين كانا على سوسة والبلاد الساحلية، واختار لهما محمد بن طاهر حاجبًا، وهو من صنائع الدولة ومن بيوت أهل الأندلس القادمين في الجالية، ورئاسة سلفهم بمرسية معروفة بأخبار الطوائف. وكان أخوه "صاحب الأشغال بالحضرة"[61]. ويبدو أن سياسة تعيين الحجّاب إلى جانب أبناء السلاطين الحفصيين في المدن المهمة كانت سائدة منذ القرن الرابع عشر الميلادي، لكنّ مؤلفي المصادر أغفلوا ذكر ذلك واقتصروا على تدوين إشارات مقتضبة، مثلما هو الحال في فترة السلطان أبي العباس أحمد، الذي عيّن بقفصة الحاجب عبد الله التريكي، وهو من الموالي الأتراك، حاجبًا للأمير أبي زكرياء، وعُيّن أبو القاسم الشهرزوري حاجبًا بتوزر للأمير المنتصر[62]، وتختفي الإشارات بعد ذلك التاريخ من حكم السلطان أبي العباس أحمد.

وبعد هروب عبد الله بن محمد بن تافراجين، عقد السلطان الحفصي إبراهيم بن أبي بكر (751-770هـ/ 1350-1369م) على الحجابة لأحمد بن إبراهيم البالقي ورفع الحجّاب بينه وبين الناس. وبعد وفاة السلطان، أخذت البيعة لخالد بن إبراهيم (770-772هـ/ 1369-1371م) عن طريق مولاه منصور وحاجبه أحمد بن إبراهيم البالقي[63]. وسارا في الناس سيرة غير مُرضية. وحاول الحاجب البالقي عقد اتفاق مع منصور بن حمزة بمشاركتهم الأمر، غير أنهما تنكّرا له، فلحق بأبي العباس أحمد[64].

وفي سنة 772هـ/ 1371م، آلت أمور الحكم إلى أبي العباس أحمد، الذي بقي في الحكم حتى عام 796هـ/ 1394م، واتخذ أبا زكريا أخاه حاجبًا إضافة إلى أبي عبد الله محمد بن تافراجين "رديفًا" له في الحجابة. وعمل هذا الأخير على التحالف مع العرب من بني كعب وأولاد أبي الليل، لأخذ تونس. وجرى القبض عليه وأُلقي في السجن، إلى أن توفي عام 778هـ/ 1376م. وهكذا انتهت سطوة عائلة ابن تافراجين[65].

أما فترة السلطان أبي عمرو عثمان (839-892هـ/ 1436-1488م) فكانت الحجابة للشيخ "المعظم أبو الفضل ابن أبي هلال شيخ الموحدين" ودفن حين موته بدار الولي سيدي محرز بن خلف[66]. وهكذا يتبين لنا أنّ تعيين الحجّاب كان وفق معايير محددة، منها العمل المخزني مدة، مع الملاحظ أن الدولة اصطنعت عددًا من الأشخاص ومكّنتهم من الحجابة، إضافة إلى تعيين بعض الموالي العلوج، وكانت عائلات بعينها قد تداولت على الحجابة وفق رغبة السلطان، الذي لجأ إلى حاجب أبيه لما لديه من دربة ومعرفة في تصريف أمور الحكم.

ونقدّم في ما يلي جدولًا يضمّ كل الحجاب الذين تولّوا الحجابة في تونس وبجاية الحفصيتين، بحسب ما ذكرته المصادر، في المدة القرن السابع-القرن التاسع الهجري/ القرن الثالث عشر-القرن الخامس عشر الميلادي.

---

59 ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 794، 802؛ ابن الشماع، ص 90، 91.

60 ابن الشماع، ص 100؛ ابن القنفذ، ص 168؛ الزركشي، ص 185.

61 ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 787.

62 المرجع نفسه، ص 881، 882، 895، 905، 940.

63 الزركشي، ص 209، 212.

64 المرجع نفسه، ص 214.

65 المرجع نفسه، ص 217، 219.

66 المرجع نفسه، ص 301.



جدول بقائمة أسماء الحجّاب في إفريقية الحفصية من سنة 678هـ/ 1280م إلى سنة 882هـ/ 1477م

اسم الحاجب	فترة السلطان	المصادر
أبو القاسم بن الشيخ أبو العباس أحمد بن سيد الناس محمد بن أبي بكر بن الحسين بن خلدون	أبو إسحاق (678-681هـ/ 1280-1282م)	ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 681. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 684. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 685. الزركشي، ص 92.
عبد الملك بن مكي أبو القاسم بن الشيخ	أحمد بن أبي عمارة (681-683هـ/ 1282-1284م)	الزركشي، ص 98. ابن الشماع، ص 81؛ ابن القنفذ، ص 146؛ ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 692.
أبو القاسم بن الشيخ أبو الحسين بن سيد الناس أبو القاسم بن أبي جبي	أبو حفص عمر (683-694هـ/ 1284-1295م)	ابن الشماع، ص 81. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 700. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 704.
محمد الشخشي ابن أبي جبي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن الدباغ	أبو عبد الله محمد بن الواثق (أبو عصيدة) (693-709هـ/ 1294-1309م)	ابن القنفذ، ص 152؛ ابن خلدون، **العبر**، ص 711. الزركشي، ص 118، 119؛ ابن القنفذ، ص 154؛ ابن خلدون، **العبر**، ص 711.
أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الدباغ	الأمير أبو بكر المعروف بالشهيد (709هـ/ 1309م)	الزركشي، ص 125؛ ابن خلدون، **العبر**، ص 732، 733.
أبو القاسم بن أبي جبي علي بن الأمين عبد الرحمن بن يعقوب بن غمر	الأمير أبو زكرياء بن إسحاق (684-700هـ/ 1285-1301م)	ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 718. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 727. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 724.
عبد الرحمن يعقوب بن غمر عبد الله الرخامي أبو عبد الرحمن بن محمد بن الغازي القسنطيني	أبو البقاء خالد (709-711هـ/ 1309 1311-م)	ابن القنفذ، ص 156، 164؛ ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 724-726. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 726. الزركشي، ص 125.
أبو زكريا بن يعقوب حسن بن إبراهيم بن أبي بكر بن ثابت أبو زكريا يحيى بن اللحياني	أبو يحيى زكرياء بن اللحياني (711-717هـ/ 1311-1317م)	الزركشي، ص 139. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 740. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 743.



محمد بن القالون أبو عبد الله محمد بن القالون أبو الحسن بن عمر	أبو يحيى أبو بكر بن أبي زكريا بن أبي إسحاق (712-718هـ/ 1312-1318م)	ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 747. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 752. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 752.
عبد الرحمن يعقوب بن غمر محمد بن عبد العزيز المعروف بالمزوار محمد بن الحسين بن سيد الناس عبد الله محمد بن القالون ظافر السنان المولى نبيل أبو العباس أحمد بن محمد بن عبو محمد بن فرحون محمد بن طاهر أبو القاسم أحمد بن عبد العزيز الغساني أبو القاسم بن عبو أبو محمد عبد الله بن تافراجين محمد بن القالون أبو القاسم بن علناس المولى فارح أبو العباس أحمد بن أبي زكرياء الرندي ابن القشاش أبو إسحاق بن غلان علي بن المنت الحضرمي	أبو بكر يحيى بن إبراهيم (718-747هـ/ 1318-1346م)	ابن القنفذ، ص 165. الزركشي، ص 139؛ ابن القنفذ، ص 167؛ ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 769. ابن القنفذ، ص 165؛ ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 771، 781-782، 789. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 770. الزركشي، ص 139؛ ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 773. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 789. الزركشي، ص 136. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 787. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 804. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 782. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 786، 787. الزركشي، ص 144؛ ابن الشماع، ص 90؛ ابن القنفذ، ص 165، 168. الزركشي، ص 148؛ ابن الشماع، ص 90؛ ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 794. الزركشي، ص 158؛ ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 804. الزركشي، ص 161. الزركشي، ص 162. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 804. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 805. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 804. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 805.
ابن مكي	الأمير عبد الواحد بن اللحياني المتمرد على السلطان سنة 732هـ/ 1331م	الزركشي، ص 142.
أبو محمد عبد الله بن تافراجين أبو القاسم بن عبو أبو العباس أحمد بن علي بن رزين	أبو حفص عمر بن أبي بكر (747-748هـ/ 1347-1348م)	الزركشي، ص 165؛ ابن الشماع، ص 91؛ ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 807. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 821. الزركشي، ص 168؛ ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 810.



أبو العباس أحمد بن محمد بن عبو أبو القاسم بن عبو	أبو العباس الفضل (750-751هـ/ 1349-1350م)	الزركشي، ص 185. ابن الشماع، ص 92، 100. الزركشي، ص 186؛ ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 826.
أبو محمد عبد الله بن تافراجين أحمد بن مكي محمد بن محمد عبد الله بن تافراجين أحمد بن إبراهيم البالقي	إبراهيم بن أبي بكر (751-770هـ/ 1350-1369م)	الزركشي، ص 186؛ ابن الشماع، ص 101. الزركشي، ص 189، 201. الزركشي، ص 208، ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 857. الزركشي، ص 209؛ ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 857.
أحمد بن إبراهيم البالقي	خالد بن إبراهيم (770-772هـ/ 1369-1371م)	الزركشي، ص 212؛ ابن الشماع، ص 107؛ ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 857.
الأمير أبو يحيى زكرياء محمد بن محمد بن عبد الله بن تافراجين الخلف بن الخلف عبد الله التريكي أبو القاسم الشهرزوري	أبو العباس أحمد (772-796هـ/ 1371-1394م)	الزركشي، ص 217؛ ابن الشماع، ص 110؛ ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 868. الزركشي، ص 217؛ ابن الشماع، ص 110؛ ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 856، 868. الزركشي، ص 222؛ ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 881. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 882. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 895.
أبو عبد الله محمد بن أبي العباس بن أبي هلال	محمد المنتصر الحفصي (837-839هـ/ 1434-1436م)	الزركشي، ص 265.
أبو عبد الله محمد بن أبي العباس بن أبي هلال أبو الفضل بن أبي هلال	أبو عمرو عثمان (839-892هـ/ 1436-1488م)	الزركشي، ص 265. الزركشي، ص 301.

المصدر: من إعداد الباحث.

من خلال الجدول الخاص بأسماء الحجّاب والفترة التي تحجّبوا فيها، يمكن الإدلاء ببعض الملاحظات، فالذي يشدّ انتباهنا في الدرجة الأولى أننا إزاء تسلسل في عمليات التعيين للحجّاب، من سنة حكم أبي إسحاق (678هـ)، وصولًا إلى زمن حكم أبي عمرو عثمان، وهو ما يعني أننا انتقلنا من ضبابية في إشارات المصادر إلى تتبّع تلك الخطة وشخصياتها على مستوى المصادر، ويندرج ذلك ضمن عمل المؤرخ الإخباري والمدقق في الأمور السلطانية الحفصية.



أما الملاحظة الثانية فتتصل بعدد الحجّاب خلال تلك الفترة وتوزّعه على زمن حكم السلاطين وأصول الحجّاب والعائلات التي تواتر ذكرها، إضافةً إلى نصيب كل فترة من عدد الحجّاب، فنلاحظ في مستوى أوّل أنّ عددهم تجاوز الخمسين حاجبًا عُيّنوا خلال كامل الفترة المشار إليها، مع العلم أنّ هناك أشخاصًا شغلوا منصب الحجابة، مع أكثر من سلطان حفصي. وتوزّع عدد الحجاب كالآتي:

خلال الفترة 678-700هـ/ 1280-1301م، بلغ عدد الحجّاب تسعة، وكان النصيب الأوفر فيها يعود إلى أبي القاسم بن الشيخ الذي عاصر ثلاثة سلاطين منصّبًا عندهم في خطة الحجابة. أما خلال القرن الرابع عشر، وتحديدًا الفترة 709-796هـ/ 1309-1394م، فقد بلغ عدد الحجاب أربعة وأربعين حاجبًا، كان النصيب الأوفر من سنوات الحجابة للآتي ذكرهم: ابن غمر تحجّب لسلطانَين، ومحمد بن القالون وعبد الله بن القالون تحجبا لسلطانَين، أما ابن تافراجين فتحجب لثلاثة سلاطين. نلاحظ أيضًا كثرة حجّاب السلطان أبي يحيى أبي بكر، حيث تفرّد بتنصيب خمسة عشر حاجبًا، وهو ما يعكس صحة المعلومات التي قدّمتها المصادر بشأنه. أما خلال القرن الخامس عشر (837-892هـ/ 1434-1488م)، فنجد ثلاثة حجّاب فقط، وهم ينحدرون تقريبًا من العائلة نفسها.

أما الملاحظة الثالثة فتتعلق باعتلاء بعض العائلات منصب الحجابة منذ القرن الثالث عشر، وتواصلها في ذلك المنصب إلى منتصف القرن الرابع عشر، وهي عائلة ابن سيد الناس ثم عائلة ابن تافراجين، إضافة إلى ما لاحظناه من تعيين أفراد من عائلة بني مكي البربرية للحجابة، في ثلاث مناسبات، وعائلة عبو الموحدية، إضافة إلى تولي الموالي العلوج تلك الخطة؛ ما يعني انجذاب مختلف مكونات البلاط الحفصي إلى خطة الحجابة، ويعكس اختلاف المشارب والأصول الجغرافية والاجتماعية في تعيين الحجّاب.

2. مهمات الحجاب

عند مطالعتنا للمصادر الحفصية، يتبين لنا شحّ المادة المصدرية التي خصصت للموضوع، حيث اكتفت بإشارات مقتضبة سنستعرضها بحسب السياقات التي وردت فيها.

أ. المهمات السياسية

إن شهادة ابن خلدون عند تولّيه الحجابة في بجاية مفيدة جدًا في هذا السياق؛ لأنه عاين ذلك بنفسه، حيث يذكر أنه بلغه وفاة أمير بجاية أبي عبد الله، حين كان مقيمًا في قصبة السلطان وقصوره، فطلب منه جماعة من أهل البلد القيام بالأمر والبيعة لبعض الصبيان من أبناء السلطان، ويقول: "فتفاديت ذلك وخرجت إلى السلطان أبي العباس صاحب قسنطينة فأكرمني وحباني وأمكنته من بلده وأجرى أحوالي كلها على معهودها"[67].

نستشفّ من هذه الشهادة أنّ الحجّاب كان لهم دور كبير في تحديد من يخلف السلطان الذي يُتوفى، ما يعني أنّ لهم دورًا في تحديد مستقبل الدولة؛ لذلك غالبًا ما ترد الإشارات إلى اجتماع الحاجب بالجند أو طبقة الموحدين لتقرير مصير الدولة. ولنا في هذا السياق عديد الأمثلة، فبعد موت السلطان في سنة 751هـ/ 1351م، وقف أبو محمد بن تافراجين "ومهد أمر أبي إسحاق وأحكم دولته وحكّم إمرته ووفى له في مطالبه وذلك في مدة تقرب من خمسة عشر عامًا وهي من سنة إحدى وخمسين إلى سنة وفاة الشيخ أبي محمد (ابن تافراجين) التي هي سنة ست وستين وسبعمائة/ 1365م وكانت سيرة أبي محمد سيرة حمدها أهلها إلا أنه لم يكن له في أعرابها وطرقها قوة ظهور"[68].

67 ابن خلدون، **التعريف**، ص 106.

68 ابن القنفذ، ص 174.



أضف إلى ذلك أنّ الحاجب تجري استشارته والتعويل عليه في شدّ أزر الأمير الذي يرى في نفسه مؤهلًا للحكم، فعند وفاة السلطان أبي بكر في تونس "قام الأمير أبو حفص عمر باستدعاء الحاجب أبي محمد بن تافراكين ودعوا مشيخة الموحدين والموالي وطبقات الجند وأخذ الحاجب عليهم البيعة"[69]. وفي فترة أبي البقاء خالد بن إبراهيم، كان الحاجب إبراهيم البالقي بحسب ابن الشماع "أخذ له البيعة هو ومولاه منصور ووقفا في تدبير الدولة دون أبي البقاء"[70].

ونظرًا إلى أهمية إمارة بجاية لدى الحفصيين، فإن الحجّاب الذين عُيّنوا هناك على الأمراء غالبًا ما كان لهم أدوار سياسية مختلفة؛ إذ إنهم غالبًا يناصرون أميرًا على الآخر، وخاصة في فترة الأزمات السياسية، ويبايعون أميرًا دون آخر أو يقومون بالإجلاب على حضرة تونس من بجاية، بإيعاز وتدبير منهم أو يدبّرون الانقلاب على السلطان في المناطق الطرفية، مثل توزر وقفصة، في فترة السلطان أبي العباس أحمد، وقام الحجّاب بتدبير انقلابات على بعض الأمراء المرشحين للحكم وتقديم آخر[71].

إنّ اختيارنا لهذه النماذج في فترات تاريخية مختلفة يحيل على وجود شبه تقليد في تدخّل الحجّاب في السياسة، وتمهيد الأمر للسلطان الجديد، ومبايعة أحد السلاطين أو اختيار السلطان، لتدبير شؤون الدولة. ولعل ذلك التدخّل في السياسة هو الذي يفسر النهايات المأساوية لبعض الحجاب.

ب. المهمات العسكرية

تنطبق الملاحظة نفسها على الدور العسكري؛ فقد شارك ابن تافراجين بفاعلية في الحروب التي استعاد من خلالها هيبة السلطة والسلطان، وبيّن نجاعة تدخلاته العسكرية. أما بالنسبة إلى القادة من العلوج الذين شغلوا منصب الحجابة، وهم قليلو العدد، فقد ساهموا في تجهيز الجيوش تقريبًا فحسب.

وتدخّل ابن تافراجين في الجيش؛ فقد كان يجهز الجيوش أيام الحرب، مثلما حدث ذلك في المواجهة التي وقعت بين أبي إسحاق إبراهيم وأخيه أبي زيد عبد الرحمن، وتحالف هذا الأخير مع أحمد بن مكي الذي عُيّن حاجبًا وقائدًا للجيش[72]. ورفض تدخّل أبي عنان المريني في إفريقية، حيث جهّز ابن تافراجين لسلطانه أبي إسحاق إبراهيم جيشًا ضخمًا؛ لمقاومة المرينيين سنة 757هـ/ 1356م[73].

وبعد فترة، تُحدّثنا المصادر أن ابن تافراجين جهّز جيشًا واسترجع جربة وقابس سنة 763هـ/ 1362م، بمساعدة ابنه. وحين نقم أهل بجاية على عامل أبي الحسن المريني بعثوا لابن تافراجين، فجهز عسكرًا هو وابنه أبو عبد الله، فاسترجعوا بجاية ودخلها السلطان أبو إسحاق عام 761هـ/ 1360م، وكان الحاجب ابن تافراجين يدبّر الأمر من تونس، ثم عيّن على بجاية شيخًا من أشياخ الموحدين وابن تافراجين هو الحاجب[74].

وكان الحاجب يستخدم الجيش في بعض المناسبات الأخرى، ويجمع الجباية من القبائل العاصية، مثلما حدث مع ابن خلدون الذي يقول "فخرجب بنفسي إلى قبائل البربر بجبال بجاية الممتنعين من المغارم منذ سنين فدخلت بلادهم واستبحت حماهم وأخذت رهنهم على الطاعة حتى استوفيت منهم الجباية"[75].

---

69 ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 807، 810.

70 المرجع نفسه، ص 857، 864-865، 868؛ ابن الشماع، ص 106-107.

71 ابن خلدون **العبر**، ج 6، ص 718، 720، 737.

72 المرجع نفسه، ص 830؛ الزركشي، ص 189.

73 الزركشي، ص 197، 200.

74 ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 839، 844، 846-847.

75 ابن خلدون، **التعريف**، ص 105.



ج. مهمات أخرى

أدى الحجّاب أدوارًا دبلوماسية، من خلال تعيينهم سفراء لسلاطينهم. ونذكر في هذا السياق نجاعة أعمالهم الدبلوماسية وكسب النصر لسلاطينهم، من استبعاد النزاع مع طرف في الحكم إلى كسب ودّ سلطان آخر.

اضطلع الحجّاب بالسفارة لتمثيل أسيادهم، حيث كان أبو القاسم بن عبو قد أُرسل في سفارة إلى أبي الحسن المريني، وهو الذي كان حاجب الأمير أبي حفص عمر؛ قصد البحث في فضّ النزاع الحاصل على الحكم في العائلة الحفصية[76]. وسافر ابن غمر إلى طرابلس لمقابلة ابن اللحياني والتفاوض معه في شؤون الحكم وما سيؤول إليه الوضع[77].

وكان ابن أبي جبي قد أرسل سفيرًا من بجاية إلى حضرة تونس، وأيضًا بعث السلطان أبا عبد الله محمد بن فرحون في غرض الرسالة إلى ملك المغرب بخصوص الأسطول، الذي أرسله السلطان الحفصي مددًا للمسلمين في الأندلس عند عبور السلطان أبي الحسن المريني إلى جزيرة طريف[78]. وكان للحجّاب مهمات أخرى متعددة، مثلما هو حال علي بن محمد الحضرمي، الذي تمكّن من خطة الحجابة "فقام بإصلاح مونات السلطان وأحوال إقامته في سفره وجهّز له العساكر وجال في نواحي أعماله وكان ذلك قبل سنة سبع وأربعين وسبعمائة"[79].

أما ابن تافراجين، فقد صرف عنايته إلى تحصين المهدية، فشيّد من أسوارها وشحن بالأقوات والأسلحة مخازنها ومستودعاتها[80].
وهكذا، تنوّعت المهمات التي كان يقوم بها الحجّاب، بين مهمات سياسية وأخرى عسكرية وجبائية، إضافةً إلى تمثيل السلطان في التفاوض مع بقية السلاطين أو الأمراء، واضطلع آخرون بمهمات على صلة بشؤون القصر، وتفرّد ابن تافراجين بترميم المنشآت العامة في المهدية وتونس.

ونظرًا إلى أهمية خطة الحجابة، يمكن القول إن العديد من الحجّاب صاروا يُعرفون في المصادر بالحاجب، وهو اللقب الذي كان أكثر شيوعًا، خلال العهد الحفصي، في المصادر للدلالة على أهمية تلك الشخصية. ولنا عديد الأمثلة في هذا الباب، ومنها ابن الدباغ المعروف بالحاجب، وابن سيد الناس المعروف بالحاجب، وابن تافراجين المعروف بالحاجب، وابن غمر الذي لُقّب بالحاجب الأعظم. وكل هؤلاء كانت لهم أدوار مختلفة في الحياة العامة، حيث لم يكتفوا بحجب السلطان، بل كانوا فاعلين في الحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية.

لقد تطوّر لقب الحاجب، الذي كان مجرد إشارة إلى قهرمان دار السلطان، ليصبح يعني بحسب ما تقدّم الشخص الثاني في السلطة، منذ القرن الثالث عشر إلى سنة 772هـ/ 1372م تقريبًا؛ لِما يختص به من أعمال مختلفة ومتعددة، حيث يقع على كاهله عديد المهمات، ولذلك وُصفت تصرفات ابن تافرجين بأنه كان "يسلّم سلام الملوك"، عندما كان حاجبًا دلالة على أهمية لقب الحاجب. وعكس ذلك، كان ذلك اللقب قد مثّل عبئًا على العامة، الذين رأوا في ابن الدباغ سبب تطاول الأعراب على مدينة تونس، فطالبوا بقتله.

---

76 الزركشي، ص 168، 170، 185-186. يذكر الزركشي أنّ الحاجب أبا القاسم بن عبو قتله أبو الحسن المريني ثم يستدرك ليقول إنه قُتل مع السلطان الفضل عام 751هـ/ 1350م. ينظر: ص 170، 188.

77 ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 740-744. وللاطلاع أكثر على موضوع السفارة، ينظر مقال دومنيك فاليريون:
D. Valérian, "Les agents de la diplomatie des souverains maghrébins avec le monde chrétien (XIIe-XVe siècle)," *Anuario de Estudios Médivales (AEM)*, vol. 38, no. 2 (2008), pp. 885-900.

78 ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 805.

79 المرجع نفسه.

80 المرجع نفسه، ص 839، 844، 846-847.



ثالثًا: شبكة علاقات الحجّاب[81]

تتيح مهنة الحجابة للقائمين عليها جوانب عديدة على صلة بالاجتماعي والسياسي والعسكري، فهم أولئك الوسطاء بين الرعية والسلطان، وبين الخاصة وصاحب السلطة. ومن خلال بعض ظروف اعتلاء خطة الحجابة، تبيَّن لنا وجود هوامش عديدة من العلاقات الاجتماعية والسياسية؛ فبدءًا بتعيين الحاجب نرى أنّ هناك من ورث شبكة علاقات مهمة عن طريق والده أو جدّه، أو عن طريق العائلة الموسّعة، حتى إنّ الوصول إلى ذلك المنصب اقتصر على عائلات دون غيرها في أحايين كثيرة[82].

إن ما قدمناه سابقًا فيما يتصل بتطور لقب الحاجب وظهور خطة الحجابة بيّن لنا أهمية العلاقات الشخصية للعديد من الأسماء، قبل أن يصبحوا حجّابًا، وتبيّن لنا، أيضًا، كيف كانت تجري عملية تعيين الحجّاب بعد أن صارت خطة لها مكانتها بين بقية الخطط، حتى تراءى لنا أنّ ذلك التدرج في المناصب الإدارية ومنح لقب الحجابة كان بمنزلة مشهد حركي للبلاط الحفصي ينمّ عن أهميته، ولا نعرف تحديدًا من الذي أسهم في ذلك النشاط الدؤوب داخل البلاط؟ هل السلطان أم الشخصيات المحركة للمشهد السياسي والإداري؟

ضمن تلك الفعاليات التي أوردناها سابقًا، كانت مختلف المراحل التي يمرّ بها الفاعلون داخل البلاط مهمة قصد الوصول إلى أعلى المراتب، حيث بيّنت لنا على نحو سريع وخاطف، وفي بعض الأحيان مسهب، الحياة اليومية داخل البلاط ولو بإيجاز سريع. وبما أن الإخباريين دوّنوا ملاحظاتهم في شكل حوليات، فسنحاول تسليط الضوء على بعض الشخصيات وبنائها لشبكة العلاقات، حسبما توفّره المصادر.

وتبعًا لذلك، فإنّ الأمور المفوضة إلى الحجّاب أدّت إلى وجود مستويين من العلاقات: علاقات داخل القصر السلطاني، وعلاقات خارج البلاط الحفصي، فكيف نفهم ذلك؟

سنسلط الضوء على يعقوب بن غمر الذي تقول المصادر إنه بدأ مشواره بالسعي بابن أبي جبي إلى أن انتهى إلى سدة الحجابة. فما أهم شبكة علاقاته؟

لقد تمكّن ابن غمر من الحجابة بعد أن استُبعد ابن أبي جبي. وتذكر المصادر أنّ ابن غمر "كان رئيسًا في نفسه حريصًا على طلب المال، صاحب مكر وحيل، وكان بدأ حاجبًا لأبي البقاء خالد سنة 709هـ/1309م وكان يُعرف بالرئيس"[83]، غير أن بدايته لم تكن كذلك، بل ساهمت أسرته في نحت مستقبله؛ فقد كان جده قاضيًا في شاطبة ثم هاجر إلى إفريقية، ونزلت تلك الأسرة بالربض الجوفي لمدينة تونس في أيام السلطان أبي عصيدة، وكان والد يعقوب ابن غمر قد اتجه رفقة أخيه إلى قسنطينة واتصلا بابن أوقيان من مشيخة الموحدين؛ للتوسط لهما في الخدمة السلطانية[84].

وتمكّن والد يعقوب بن غمر من العمل في الديوان بالقل[85]، ثم وسّع علاقاته مع إمارة بجاية، حيث تعرّف إلى مرجان الخصي من موالي الأمير أبي زكريا، وتمكّن بالفعل من ربط علاقات جيدة بأصحاب القصر السلطاني، ما مهّد الطريق لابنه يعقوب بن غمر

---

81 للاطلاع أكثر على أهمية دراسة شبكة العلاقات، يمكن الرجوع إلى أعمال الندوة التي نُشرت تحت إشراف هنري بريسك:
Henri Bresc (dir.), *Réseaux politiques et économiques* (Paris: Edition du comité des travaux Historiques, 2016).

82 Pierre Mercklé, *Sociologie des réseaux sociaux*, Collection repères (Paris: La Découverte, 2016).

يقول المؤلف في ص 9: "من خلال مصطلح الشبكة، لا أريد فقط الإشارة إلى الروابط بين الأشخاص، فمصطلح العلاقة يكفي لذلك، بل أريد أن أشير إلى وجود صلة بين الروابط نفسها".

83 ابن القنفذ، ص 156-164.

84 ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 725.

85 مدينة ساحلية تقع في شمال المغرب الأوسط في الجزائر الحالية.



للزواج من إحدى "ربيبات القصر"، فنشأ في ذلك المناخ العام للقصر السلطاني وعرف عن قرب مختلف الشواغل التي كانت سائدة، فأصبحت تلك العائلة من المقرّبين للسلطة، حتى إنّها مددت علاقاتها وربطت أواصرها بعائلة الحاج فضل قهرمان دار السلطان وخاصّته[86].

كانت بداياته في العمل المخزني الاشتغال بالجباية إلى أن تمكّن من أن يصبح صاحب الأشغال[87]. وزاحم ابن أبي جبي وعبد الله الرخامي وتعرّض للسعاية منهما، فغرب إلى الأندلس وتمكّن من العودة ثانية إلى بجاية، بعدما تدخّل لصالحه السلطان أبو البقاء خالد. وكانت حادثة تغريبه على ما يبدو نقطة تحوّل في حياته، حيث فهم أنّ العمل المخزني ينبني في جزء منه على الوشاية والسعاية والتآمر؛ ولذلك مثلما سنلاحظ لاحقًا، كان جل حياته في العمل المخزني متربصًا بالآخرين وساعيًا ومنتقمًا منهم.

استند عند عودته إلى عمله إلى علاقاته القديمة بمرجان الخصي، ورتّب معه كيفية التصدي لابن أبي جبي وعبد الله الرخامي غريمَيه السابقَي الذكر. وبالفعل، تمكّن من التأثير في السلطان، واستبعد ابن أبي جبي عن الحجابة. وسعى بعبد الله الرخامي مدّعيًا لدى السلطان أنه من الموالين لابن أبي جبي؛ فجرت مصادرة أمواله وامتحانه، ثم تغريبه إلى ميورقة. ولتهيئة الأرضية المناسبة لعمله حاجبًا، نجح مرة أخرى ابن غمر في إطاحة مرجان الخصي، الذي نكبه السلطان؛ وهكذا "تفرّد بالحل والعقد"[88].

بنى ابن غمر على إثر ذلك شبكة علاقات جديدة مع الذين اصطنعهم، حيث عقد لأخيه أبي بكر على قسنطينة، وولّى عليًا ابن عمه على الحجابة بتونس نائبًا عنه في فترة السلطان أبي البقاء خالد، وكان محمد بن يحيى بن القالون صاحب الديوان ببجاية، وهو مصطنع ابن غمر، وعقد كذلك لابن عمه محمد بن غمر على قسنطينة سنة 715هـ/ 1315م، ثم تحجّب للسلطان أبي بكر وحرّضه على مقاتلة أخيه أبي البقاء خالد وأخذ له البيعة من الناس سنة 710هـ/ 1310م[89].

لا شك في أن ابن غمر استبد على السلطان بالحجابة، وأصبح له تأثير قوي فيه إلى درجة أنه أقنعه بإزاحة الحاجب حسن بن إبراهيم بن أبي بكر بن ثابت رئيس أهل الجبل المطل على قسنطينة، والذي تحجّب عند غيبة ابن غمر في سفارته إلى ابن اللحياني، حيث نُفي إلى الأندلس. ونتاج استبداد ابن غمر، اتصل بعض أهالي قسنطينة بالسلطان، سنة 713هـ/ 1313م، واقترحوا اغتياله، غير أنه تفطّن إلى ذلك وعذّبهم الواحد تلو الآخر. ولتجنّب العواقب الوخيمة لتلك السعايات المتواصلة، عمل ابن غمر على تحريض سلطانه بالزحف على إفريقية؛ لطلب الملك من ابن اللحياني[90].

ونظرًا إلى الدور الكبير الذي اضطلع به ابن غمر في حجابته، أطلق عليه لقب "الحاجب الأعظم"، حيث نسج شبكة علاقات كبيرة مكّنته من علوّ شأنه ورتبته. واتجه في سياسته لربط علاقات جيدة بابن مزني مستغلًا في ذلك ما عرفه من سياسة عدوّه سابقًا ابن أبي جبي، فعمل على توسيع مجال سيطرة تلك العائلة "فاستضاف له عمل جبل أوراس والحضنة وسدويكش وعياض وسائر أعمال الضاحية"[91]، مستغلًا تلك العلاقة في مدّ خزينة السلطان بأموال إضافية من ابن مزني[92].

---

86 ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 725.

87 ويعرف أيضًا عند الحسن الوزان بأمين الخزينة، ويقول برنشفيك إنه بمنزلة وزير المالية، ينظر: برنشفيك، ج 2، ص 56.

88 ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص ص 725-726.

89 المرجع نفسه، ص 737، 739.

90 المرجع نفسه، ص 740-747.

91 الحضنة: تضم مقرة والمسيلة، أما سدويكش فهم من قبيلة كتامة ومواطنهم بين قسنطينة وبجاية، وأما عياض فهم عرب من بني هلال استقروا في جبل قلعة بني حماد، وما يلاحظ أن كل تلك المنطقة صارت تابعة لإمارة بني مزني بحسب ابن خلدون، ينظر: عبد المالك بكاي، "الحياة الريفية في المغرب الأوسط من القرن 7-10هـ/ 13-16م"، أطروحة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2013-2014، ص 90.

92 ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 750.



يمكن القول إن ابن غمر قد وصل درجة متقدمة من الاستبداد في بجاية سنة 715هـ/ 1315م، حيث اقتصر على ذكر السلطان في الخطبة واسمه في السكة، وهذا يدل على نقص شارات الملك التي تحدّث عنها ابن خلدون، وكان قد هلك في فراش المرض سنة 719هـ/ 1320م، فخلفه على بجاية ابن عمه علي بن غمر الذي لا تخبرنا عنه المصادر شيئًا ولا حتى المهمات التي أُوكلت إليه، وإذا ما كان واصل بناء شبكة علاقات أخرى جديدة لعائلة ابن غمر[93].

اخترنا نموذجًا لأحد أفراد العائلات الأندلسية التي وفدت على إفريقية، خلال بداية القرن الثامن الهجري، حيث تميز الوضع عمومًا في إفريقية بصراعات على الحكم بين العائلة الحفصية، وبيّنّا البعض منها من خلال شخصية ابن غمر الذي عاصر تلك الفترة، باعتباره يشتغل في المخزن الحفصي وترقّى في مناصب مختلفة وصولًا إلى الحجابة. وبيّنّا من خلال ذلك مدى أهمية تلك الخطة وكيفية خلق تحالفات بالنسبة إلى الحاجب، عن طريق اصطناع أشخاص موالين له وتعيينهم في رتب إدارية مختلفة؛ قصد التصدي للمنافسات والسعايات. ونجح ابن غمر في تطوير نسيج علاقاته، وفي الإفلات من مقصلة السلطة في بجاية، وترك مكانه بعد وفاته لأقربائه، وهو ما سمح لنا بمعرفة حيثيات الاشتغال بمنصب الحجابة عن قرب.

ولمزيد من تسليط الضوء على تلك الخطة، اخترنا مثالًا آخر من الحجّاب كان في الأصل شيخًا من شيوخ الموحدين، ثم ارتقى إلى رتبة وزير، ليشغل فيما بعد خطة حاجب، منذ تقريبًا منتصف القرن الثامن الهجري إلى حدود نهاية ستينياته؛ والقصد من وراء ذلك محاولة معرفة واقع تلك الفترة من خلال تصرفات هذا الحاجب، وكيفية تمكّنه من الحفاظ على ذلك المنصب فترة طويلة في الحاضرة السلطانية تونس، والسبل الكفيلة المتبعة في ذلك.

تنحدر عائلة ابن تافراجين من أسرة بربرية عريقة تعود جذورها إلى أيام تأسيس الدولة الموحدية في تينملل التي ينسب إليها ابن تافراجين[94]، والذي اشتغل في منصب الحجابة مدةً تناهز عشرين سنة؛ لذلك أخذ اهتمام الإخباريين الحفصيين، ما مكّننا من تتبّع مسار شخصيته وشبكة علاقاته، فهو الذي هيّأ الظروف المناسبة لأبي حفص عمر للجلوس على العرش، وقام أبو محمد بن تافراجين بخطة الحجابة مفوضًا لنفسه صلاحيات عديدة جعلته يصل درجة الاستبداد. وأمام كثرة سعاية البطانة وخوفًا على نفسه من السلطان أبي حفص، فر ليلًا إلى المغرب[95]. وتخبرنا كل المصادر من دون استثناء أنه كان محنّكًا ومجرّبًا في السياسة، ونفهم ذلك لأنه كان من مشيخة الموحدين، ورأينا سابقًا أنّ ابن غمر اتصل بأحد أشياخ الموحدين، الذين كان لهم دور بارز في الحياة السياسية الحفصية.

لم يكن فراره إلى المغرب إثر السعاية به لدى السلطان خارج مجال اهتمامه بالسياسة؛ وذلك لحافز داخلي على ما يبدو في علاقة بمسيرته السياسية السابقة، قبل أن يصبح حاجبًا، حيث أعطته الخطة الجديدة دافعًا جديدًا للمضيّ قدمًا في الدفاع عن شخصية الشيخ الموحدي والوزير السابق والحاجب الجديد، لذلك اقترح على السلطان أبي الحسن المريني توسيع ملكه والاستحواذ على إفريقية، نظرًا إلى الأزمة السياسية التي كانت تمرّ بها. وتخبرنا المصادر أنّ ابن تافراجين كان ينتظر توليته على إفريقية من جانب أبي الحسن المريني، غير أنه لم يحصل على غرضه حين أصبح المرينيون في إفريقية[96]. فكيف تصرّف ابن تافراجين ليحقق ذلك الطموح الذي يحدوه؟

الجدير بالملاحظة أن المرينيين وجدوا صعوبة عسكرية كبرى في مواجهة القبائل العربية التي دافعت عن إفريقية، مقابل ذلك سجّلنا موقفًا مغايرًا لأحد شيوخ الموحدين والحاجب ابن تافراجين، وعند المواجهة الصعبة لأبي الحسن المريني مع العرب، طلب هؤلاء

93 المرجع نفسه، ص 756-757.

94 برنشفيك، ج 1، 186، 187، 200، 203.

95 ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 808.

96 ابن الشماع، ص 94، 97.



أن يكون ابن تافراجين واسطة لعقد الصلح. وحين وفد عليهم، حجبوه لسلطانهم أبي دبوس ووجهوه معه إلى تونس؛ لمحاصرة من بقي من بني مرين. غير أنه لمّا علم بخبر قدوم أبي الحسن المريني إلى تونس تسلل عن أصحابه وغادر البلاد في اتجاه الإسكندرية، سنة 749هـ/ 1348م[97].

وتبيّن من خلال المهمات النشطة التي اضطلع بها ابن تافراجين مدى طموحه إلى المشاركة في حكم إفريقية مع المرينيين، ثم حوّل وجهته نحو العرب للتحالف معهم. وعند فشله غادر البلاد في اتجاه مصر. ونظرًا إلى مضايقته من جانب المغاربة الذين وُجدوا في مصر، خرج لقضاء الحج، وتقول المصادر إنه اجتمع مع عمر بن حمزة شيخ الأعراب واتفقا في مكة على التآمر على السلطان الفضل، وكان ذلك سنة 750هـ. وعند العودة إلى إفريقية، تحالف ابن تافراجين مع عمر بن حمزة وإخوته واشترطوا على الفضل تسمية ابن تافراجين حاجبًا، وعزل ابن عبو، ثم قبضوا على السلطان واختاروا إبراهيم بن أبي بكر سلطانًا جديدًا، وجرى قتل الفضل وحاجبه أبي القاسم بن عبو[98].

وفي مرحلة لاحقة، قام ابن تافراجين بتدبير شؤون الدولة؛ نظرًا إلى معرفته بعوائد الحكم والتصرف، وتمكّن من تليين مواقف العرب الذين استولوا على عديد المناطق في إفريقية في أثناء الغزوة المرينية. واسترجع "جميع بلاد قرطاجنة والقيروان وسوسة وباجة وتبرسق والأربس[99] وجعلها بأيدي خدامه". واقترح على القبائل العربية تعيين وكيل عنهم لتحصيل جباية تلك المناطق المذكورة. وقام بعديد الإجراءات الأخرى بصفته حاجبًا، حيث استأثر بمردود الجباية الداخلية والخارجية، وضبط حاجة السلطان من الموارد المالية وغير ذلك[100].

وفي مرحلة ثانية، عيّن الموالين له، حيث عقد للحجابة في المهدية لأحمد بن خلف[101]، لكنه قتل على يد الأمير أبي يحيى زكريا بن أبي إسحاق إبراهيم الذي حاول التحالف مع أحمد بن مكي صاحب جربة وقابس وهو عدوّ ابن تافراجين، فأرسل إليه جيشًا، واستعاد جربة وقابس، وعيّن عليها محمد بن الركراك وابن خلدون يلقّبه بابن الجكجاك[102]، أحد أوليائه، وعيّن ابنه قائدًا على العساكر، وهو أبو عبد الله محمد بن تافراجين، الذي تمكّن سنة 763هـ/ 1362م من استرجاع جربة من أيدي ابن مكي فاستعمل عليها ابن تافراجين كاتبه محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون[103].

إلى جانب مختلف الأولياء الذين كانوا تحت تصرفه وتحالفاته مع الأعراب وعلاقاته الجيدة، زوّج ابنته من سلطانه أبي إسحاق إبراهيم، فوطّد أواصر أسرته وأصبح بمنزلة الحاكم الفعلي لإفريقية إلى وفاته سنة 766هـ/ 1365م[104]. ويصف لنا ابن خلدون حالة السلطان وحاشيته إثر وفاته بقوله: "فوجم السلطان لنعيه وشهد جنازته حتى وضع بملحده من المدرسة التي اختطها لقراءة العلوم إزاء داره جوفي المدينة وقام على قبره باكيا وحاشيته يتناولون التراب حثيًا على حدثه فغرب في الوفاء معه بما تحدث به الناس واستبد من بعده بأمره وأقام سلطانه لنفسه"[105].

97 المرجع نفسه، ص 97؛ الزركشي، ص 173، 174؛ ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 818.

98 الزركشي، ص 186-188؛ ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 818-820.

99 تبرسق: من قرى تونس الواقعة في الشمال الغربي في وطن باجة القمح، أما الأربس فهي قرية توجد في الشمال الغربي لتونس في وطن الكاف. ينظر: مراد عرعار، "الأربس وناحيتها إلى حدود القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي"، شهادة الدراسات المعمقة في التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1999.

100 ابن الشماع، ص 101؛ الزركشي، ص 188.

101 من أولياء ابن تافراجين. الزركشي، ص 201.

102 من قرابة عائلة بني ثابت الموجودة في طرابلس، وهو كذلك من بطانة ابن تافراجين، ينظر: ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 845-856.

103 الزركشي، ص201، 207؛ ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 827-829.

104 الزركشي، ص 207-208؛ ابن الشماع، ص 105.

105 ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص 856.



نستنتج أنّ ابن تافراجين ربط علاقات مصلحية مع كل الذين التقى بهم، بحسب واقع الأزمة آنذاك، وتمكّن بالفعل من تسيير أمور إفريقية والاستبداد على سلاطينها، وهو المعروف بعراقة عائلته التي تعود أصولها البربرية إلى تينملل فحافظ على الخيط الرابط بين أهمية تلك العائلة ضمن شيوخ الموحدين منذ الفترة الموحدية، وكان خبيرًا بأمور الدولة والجيش والسياسة، وهو ما بيّنته المصادر ومتن شبكة علاقاته مع عديد الشخصيات القبلية والسياسية ومدد نفوذه بتعيين مصطنعيه في مناصب إدارية.

حاول ابنه عبد الله بن محمد بن تافراجين استغلال شبكة علاقات والده التي أسسها، عندما خرج على السلطان الحفصي، فارتحل مع قبيلة حكيم من بني سليم وعرض نفسه على معاقل إفريقية، التي "كان يظن أنها خالصة لهم فصدّه محمد بن أبي العيون كاتبه عن جربة ومحمد بن الجكجاك صنيعتهم وبطانتهم عن المهدية"[106]. ويبدو ممّا سبق أنّ كل حاجب يحاول بناء شبكة علاقات خاصة به بحسب ظروف عمله حاجبًا، وهو ما يعني أنّ هندسة شبكة العلاقات كانت مرتبطة بشخصية الحاجب.

إنّ النموذجين المقدمين لابن غمر وابن تافراجين اللذَين تقمّصا خطة الحجابة يحيلان على تطور الصلاحيات ومبتدئها، حيث يصل الحاجب إلى مستوى الحجْر على السلطان، ما يعني الاستبداد على صاحب السلطة، والتفرد شيئًا فشيئًا بأمر التصرف في الشؤون السلطانية. ويفترض ذلك التحرّك ضمن فضاء آمن، في رأي ابن غمر وابن تافراجين، من خلال تعيين مصطنعيهما؛ قصد تنفيذ سياساتهما التي يطمحان إليها. وأفادتنا التجربتان في معرفة بعض تفاصيل تلك الفترات، وهي مهمة؛ لأنها بيّنت بالفعل فاعلية بعض شخصيات الحجّاب، في الواقع، وتعكس في جانب كبير منها عدة قضايا لم تكشف عنها المصادر بوضوح وظلّت غامضة.

وإجمالًا، يمكن القول، مثلما أوضح ابن خلدون، إنّ بعض الأسر الأندلسية كانت لها علاقات بالسلطة السياسية منذ القرن السابع الهجري، وهي فترة رحيل عدد كبير من العائلات الأندلسية إلى إفريقية، أو ما يُعرف بالهجرة الأولى للأندلسيين الذين كان أغلبهم من المثقفين والعلماء[107]. لقد تمكّنوا من الاتصال بأصحاب السلطة وعرض خدماتهم على السلاطين، حيث حظي أغلبهم بالقبول ودخلوا في خدمة الدولة و"تهالكوا على الخطط السلطانية"، ومنها خاصة الحجابة التي وصلوا إليها بعد انقضاء فترة طويلة في العمل الإداري أو العسكري إلى جانب الفئات الأخرى من أصول إفريقية أو موحدية.

داخل ذلك الفضاء، تطورت العلاقات الاجتماعية، عن طريق الزواج من إحدى جواري القصر أو توافر هامش تربية أبناء الإداريين الأندلسيين مع أبناء السلاطين، ما يكسب الشخص علاقات مع مختلف مكونات القصر، من إداريين وعملة داخل المخزن.

هكذا تبدأ شبكة العلاقات الاجتماعية داخل فضاء اجتماعي متميز يؤهلون فيه للخطط السلطانية. ولذلك، نجد العديد منهم قد ارتقى في وظيفته من كاتب إلى حاجب، حيث ساهمت معرفته في دمج الخطط بيده، مثل صاحب العلامة وكاتب، إضافةً إلى الحجابة وهي الخطة التي قال عنها ابن خلدون إنها أهم الخطط؛ نظرًا إلى ما يتمتع به صاحبها من ثقافة وتجربة عميقة في الحياة، إضافةً إلى عقلية الحذر من الدسائس، التي تستوجب شبكة علاقات أخرى أشد تعقيدًا، حيث تكون التحالفات الظرفية والطويلة المدى، مع تنوّع وجوه الخدمة السلطانية.

تقدّم لنا المصادر نماذج عديدة تتصل بشبكات العلاقات الاجتماعية داخل القصر السلطاني، حيث الفضاء الرحب للتعبير عن فهم أصول الخدمة والتميّز وإرضاء السلطة. وبذلك، فإنّ عائلة ابن أبي جبي ربطت علاقات داخل القصر وخارجه، وكانت من بين العائلات التي نجحت في تأمين حياتها المميزة؛ فقد كان رافد التجارة وجهًا آخر من وجوه النجاح والدفاع على مستوى عيشهم، مستندين في ذلك إلى ما قام به ابن أبي جبي من تميز في خدمة السلطان والاستبداد عليه في خطة الحجابة.

---

106 المرجع نفسه.

107 محمد حسن، **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، ج 2 (تونس: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1999)، ص 573-584.



وقد جعل تطوّر مستوى العلاقات الاجتماعية والسياسية والعسكرية ابنَ سيد الناس الحاكمَ الفعلي في السياسة الداخلية والخارجية، خاصة في بجاية. وتشير الوثائق إلى مراسلته بعض الدول الأوروبية، وذكر اسمه بدلًا من ابن السلطان. وهي حقيقة تساعد على القيام بأعمال أخرى، مثل مصادرة ثروة أحد التجار، على حدّ رواية ابن بطوطة، وكذلك الشأن بالنسبة إلى ابن تافراجين الذي ذكرته الوثائق الرسمية الأندلسية[108].

أمّا عائلة ابن خلدون فهي عائلة مخزنية، أيضًا، تمكّنت من مواصلة العمل داخل القصر السلطاني في وظائف مختلفة، وهي تلك العائلة العالمة. وكان ابن خلدون قد ربط علاقاته بالأمراء والسلاطين وتمكّن بالفعل من مزاولة مهنة الحجابة في بجاية، وتعذّر عليه مواصلة الخطّة نفسها مع بني عبد الواد. ونتاج علاقاته الجيدة، تمكّن من إخراج أخيه يحيى من السجن.

يبدو أنّ الأمر لم يكن متوقفًا عند حجب السلطان عن العامة أو الخاصة، بل صار بعض السلاطين بمنزلة دمى في أيدي الحجّاب، وكان ذلك خلال فترة الاضطرابات السياسية. وهو ما فعله ابن تافراجين، الذي أخذ البيعة لسلطان صغير السن، وكذلك فعل الحاجب البالقي. ومن هنا، كانت لهم أدوار مختلفة وصلاحيات متعددة، لا تقف عند حدّ مهماتهم الرئيسة. ويبدو، من خلال المصادر، أنّ الحجّاب قد استغلوا ذلك الضعف الذي كان عليه السلطان أو ابنه، ووسّعوا سلطتهم في اتجاه الجوانب السياسية والعسكرية والوجاهة الاجتماعية، مثلما هو الحال مع نموذج الحاجب ابن تافراجين، الذي صار يسلَّم عليه سلام الملوك، وصاهر السلطان، وتخبّط في شبكة علائقية متداخلة مع كل من يمثّل مصلحته، إضافةً إلى ضبط شبكة علاقات خاصة به داخل القصر السلطاني وخارجه.

إنّ شبكة العلاقات السياسية والعسكرية والاجتماعية للحجّاب قد أسهمت في نحتها المهمات والصلاحيات التي اضطلعوا بها، وإن تمايزت علاقاتهم، فقد ضمن جلّهم لأسرته وأقاربه مواقع إدارية مهمة وحافظوا على الوجاهة الاجتماعية، ونالوا شرف لقب الحاجب، على الرغم من التقلبات والنهايات المأساوية أحيانًا، مثلما حدث لعائلة ابن سيد الناس، التي قتل منها السلطان حاجبَين.

خاتمة

في خاتمة هذه الدراسة، يمكن الإدلاء بجملة من الملاحظات التي جرى استنتاجها، حيث تبيّن لنا أن لقب الحاجب، الذي بدا بسيطًا مع بداية الدولة الحفصية، قد شهد تحولاتٍ ذات بال، وقلنا إننا نرجّح وجوده مع أبي يحيى زكرياء مؤسس الدولة، مسايرين في ذلك ما ذهب إليه ابن خلدون في تحليله ورصده تطوّر ذلك اللقب، من خلال تحديد مراحل تطوره، إلى أن أصبح خطة قائمة الذات تُعرف بالحجابة، ويكتب في شأن المتعهد القيام بها عهدًا لتوليتها.

لقد تطورت تلك الخطة نفسها وأضحت مع مرور الزمن أهم خطة إدارية، من خلال منافستها للخطط الإدارية الأخرى، ما ساهم في تطور مهمات الحاجب. وتعددت فيما بعد صلاحياته، ووازى ذلك تزايد اهتمام السلاطين والأمراء الحفصيين بالحجابة، في كل من تونس الحاضرة السلطانية وبجاية وقسنطينة، ثم في مدن أخرى في إفريقية؛ على نحو ساهم في تأهيل الأمراء وتعيين السلاطين ومساعدتهم على القيام بمهمات الحكم.

أسهم التطور في خطة الحجابة في ما قال عنها ابن خلدون الاستبداد بالدولة، من خلال التفويض التام للحاجب؛ للتصرف في شؤون الحكم. وتبيّن لنا تنوّع ذلك الاستبداد واختلافه، حيث يمكن أن يساهم في ضبط شؤون الدولة، ويمكن أيضًا أن يساهم في

108 أبو عبد الله محمد بن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق علي المنتصر الكتاني، مج 1 (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1984)، ص 31؛ برنشفيك، ج 1، ص 201، 203، 212-213.



بثّ البلبلة وانتزاع الحكم من أحد الأمراء أو السلاطين. ومن جهة أخرى، مثّل الحجْر على السلطان والتصرف في الحكم في الخروج عن أصول تلك المهنة، على حد تعبير المصادر، بإذلال العامة والخاصة.

وأمام توافر هامش حركة الحجاب، نعتقد أن هناك أشخاصًا آخرين كانوا يعضدونهم في تصريف المهمات العديدة، التي كُلّفوا بها، مثلما يدل على ذلك لفظ "خطة الحجابة" التي تتطلب مجموعة أفراد تكون إلى جانب الحاجب، ولا يتعلق الأمر بمجرد تعيين كاتب للحاجب، بل تبيَّن لنا أنّ الحجّاب قاموا بمهمات عديدة مجتمعة. واللافت للنظر، في هذا السياق، عدم حديث المصادر عن علاقة الحجّاب بالعامة؛ فقد أشارت إلى ذلك باقتضاب، عند حديثها عن ابن الدباغ وصدّه للعامة الثائرة، وعند الإشارة إلى البالقي الذي أهان الأشراف والقضاة وحتى السلطان نفسه، ورضا العامة عن ابن تافراجين، مع عيب وحيد سجلوه عليه وهو التعامل مع العرب.

تحيلنا تلك النقاط على ما بلغته تلك الخطة من حظوة؛ فقد تطلعت إليها فئاتٌ متعددة وتنافست عليها، سواء كانوا أندلسيين أو شيوخًا موحدين أو مواليَ علوجًا؛ نظرًا إلى ما يمكن أن يجنيه صاحب تلك الخطة من هيبة وأبّهة وسموّ، وربط لعلاقات اجتماعية وسياسية وعسكرية جعلت بعض الحجّاب بمنزلة السلاطين الفعليين، على الرغم من حالات التوجس التي بقيت طاغية لدى أغلب الحجّاب من السلطة.

هكذا حاولنا قدر المستطاع تبيين موقع تلك الخطة الإدارية السياسية في الإدارة الحفصية، وبيّنّا أهمية الولاءات والعلاقات الشخصية في تعيين الحجاب، إضافةً إلى رأس المال الرمزي (شرف الانتساب إلى عائلة)، الذي كان له دوره في تقمّص تلك الخطة. وحاولنا، أيضًا، توضيح موضوع شبكات العلاقات السياسية والاجتماعية ونسيج العلاقات الذي يقوم به الحاجب؛ لتسيير الدولة وللحفاظ على منصبه من السعايات والوشايات التي كان لها نصيبٌ وافرٌ في الحياة السياسية الحفصية.





المراجع

العربية

ابن أبي دينار، أبو عبد الله محمد. **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**. تحقيق محمد شمام. تونس: المكتبة العتيقة، 1967.

ابن الأزرق، أبو عبد الله. **بدائع السلك في طبائع الملك**. تحقيق وتقديم علي سامي النشار. القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 2008.

ابن الشماع، أبو عبد الله محمد بن أحمد. **الأدلة البيّنة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**. تحقيق الطاهر المعموري. تونس: الدار العربية للكتاب، 1984.

ابن القنفذ، أبو العباس أحمد بن الخطيب. **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**. تحقيق الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي. تونس: الدار التونسية للنشر، 1968.

ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد. **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**. تحقيق علي المنتصر الكتاني. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1984.

ابن خلدون، عبد الرحمن. **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر وأخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**. بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1959.

________. **التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا**. بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1979.

________. **المقدمة**. بيروت: دار الجيل، [د. ت.].

ابن رضوان، أبو القاسم المالقي. **الشهب اللامعة في السياسة النافعة**. تحقيق علي سامي النشار. الدار البيضاء: دار الثقافة، 1984.

برنشفيك، روبار. **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**. ترجمة حمادي الساحلي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988.

بعيزيق، صالح. **بجاية في العهد الحفصي: دراسة اقتصادية واجتماعية**. تونس: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2006.

بكاي، عبد المالك. "الحياة الريفية في المغرب الأوسط من القرن 7-10هـ/ 13-16م". أطروحة دكتوراه في التاريخ الإسلامي. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2013-2014.

جادور، محمد. **مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب**. الدار البيضاء: مؤسسة الملك عبد العزيز، 2011.

جدلة، إبراهيم. **المجتمع الحضري بإفريقية في العهد الحفصي**. تونس: المعهد العالي للدراسات التطبيقية في الانسانيات، جامعة قفصة، 2010.

________. **دراسات حول تاريخ بعض مدن إفريقية وقبائلها في العصر الوسيط**. [د. م.]: [د. ن.]، [د. ت.].

حسن، محمد. **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**. تونس: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1999.

الذيابات، آمنة محمود عودة. "الحجابة والوزارة في عصر الخلافة الأموية في الأندلس (316-422هـ/ 928-1030م)". رسالة ماجستير في التاريخ. جامعة مؤتة، الأردن، 2000.



الزركشي، أبو محمد عبد الله اللؤلؤي. **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**. تحقيق الحسين اليعقوبي. تونس: المكتبة العتيقة، 1998.

السمان، محمد حيان. **في تدبير القداسة والحجابة والحجاب: أدب الدخول على السلطان في التراث العربي الإسلامي**. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018.

الطالبي، محمد. **دراسات في تاريخ إفريقية وفي الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط**. تونس: منشورات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1982.

العجيلي، حامد. **التوثيق وكتب الوثائق بإفريقية في العهد الحفصي**. تونس: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2002.

عرعار، مراد. "الأربس وناحيتها إلى حدود القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي". شهادة الدراسات المعمقة في التاريخ. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1999.

العلام، عز الدين. **الآداب السلطانية: دراسة في بنية وثوابت الخطاب السياسي**. سلسلة عالم المعرفة 324. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2006.

المراكشي، عبد الواحد. **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**. تحقيق وتقديم محمد زينهم محمد عزب. القاهرة: دار الفرجاني للنشر والتوزيع، [د. ت.].

موسى، عز الدين. **الموحدون في الغرب الإسلامي: تنظيماتهم ونظمهم**. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1991.

نايف، مياسة حاتم. "وظيفة الحاجب في عصر صدر الإسلام". **مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع**. العدد 65 (آذار/ مارس 2021).

هوبكنز، ج. ف. ب. **النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى**. ترجمة أمين توفيق الطيبي. تونس: الدار العربية للكتاب، 1980.

الأجنبية

Bosworth, Edmund, Ch. Pellat & E. J. van Donzel (eds.). *Encyclopaedia of Islam*. Leiden: Brill, 1991.

Bresc, Henri (dir.). *Réseaux politique et économiques*. Paris: Edition du comité des travaux historiques, 2016.

Dozy, Reinhart. *Supplément aux dictionnaires arabes*. Beirut: Librairie de Liban, 1881.

Garci, Jean-Claude et al. *Etats, sociétés et cultures du monde musulman médiéval (Xe-XVe siècles)*. Paris: PUF, 1995.

Kably, Mohamed. Société, *pouvoir et religion au Maroc à la fin du moyen âge*. Paris: Maisonneuve et Larose, 1986.

Mercklé, Pierre. *Sociologie des réseaux sociaux*. Collection repères. Paris: La Découverte, 2016.

Schacht, J. et al. (eds.). *Encyclopaedia of Islam*. Leiden: Brill, 1986.

Valérian, Dominique. "Les agents de la diplomatie des souverains Maghrébins avec le monde chrétien (XIIe-XVe siècle)." *Anuario de estudios médivales*. vol. 38, no. 2 (2008).



Received التسلم
08-11-2022

Revised التعديل
08-08-2023

Accepted القبول
17-09-2023

DOI: https://doi.org/10.31430/VCFJ2507 :الرقم التعريفي

عبد الحق الطاهري | Abdelhak Tahri*

صُلحاء سجلماسة خلال عصرَي المرابطين والموحدين

دراسة بروسبوغرافية

The *Ṣulaḥā*ʾ of Sijilmasa during the Almoravid and Almohad eras

A Prosopographical Study

البحث في تاريخ التصوّف في سجلماسة، خلال عصري المرابطين والموحّدين، هو بحث في جانب من التاريخ الديني لمغرب العصر الوسيط. ويكتسي أهميته من كونه يدرس مكوّنًا من مكوّنات الهوية الدينية المغربية، وجزءًا من نخبتها في ظل تجربتين تاريخيتين وسيطتين غنيّتين على المستويات كلها، ونظرًا إلى أهمية مدينة سجلماسة، سياسيًّا ومذهبيًّا واقتصاديًّا، خلال العصر الوسيط. وقد جعلت الدراسة من المادة المناقبية مرتكزًا مصدريًّا، ومن الدراسة البروسبوغرافية إطارًا منهجيًّا، للبحث في الأصول الجغرافية والعرقية والاجتماعية لصُلحاء سجلماسة ومرجعيتهم الصوفية ومجال إشعاعهم الروحي، ثم طبيعة علاقتهم بالمجتمع والسلطة وموقفهم منهما، والوقوف عند حدود انسجام هذه الفئة في خصائصها ومواقفها، وديناميتها الداخلية، وإبراز التماثلات والتمايزات بين عناصرها.

كلمات مفتاحية: التصوّف، سجلماسة، المرابطون، الموحدون، الهوية الدينية.

The history of Sufism in the desert city of Sijilmasa during the Almoravid and Almohad eras is an important aspect of the religious history of medieval Morocco. It is a key component of Morocco's religious identity and the identity of its elite, and incorporates two rich medieval historical experiences. The subject also draws significance from the importance of the city of Sijilmasa as a political, religious and economic hub during the Middle Ages. The study builds primarily on hagiographic material, within a prosopographic methodological framework, to research the geographical, ethnic and social origins of the *ṣulaḥā*ʾ (righteous ones) of Sijilmasa, their Sufi *marja*ʿ*iyya* (religious authorities and the sources of their beliefs) and their field of spiritual influence. It then examines the nature of their relationship with society and the authorities, studying the group's internal dynamics and the extent to which it was unified in character, and highlighting the similarities and distinctions between its members.

Keywords: Sufism, Sijilmassa, Almoravids, Almohads, Religious Identity.

* أستاذ تاريخ الغرب الإسلامي وحضارته في العصر الوسيط، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس،المغرب.

Professor of the history and civilization of the Islamic West in the Middle Ages, Moulay Ismail University, Meknes, Morocco.

tahriabdelhak10@yahoo.fr



مقدمة

يُعدُّ البحث في تاريخ الصلحاء بحثًا في أحد أركان الهوية الدينية للمغرب، وفي أحد مكوّنات نخبته. أما البحث في تاريخ سجلماسة، فهو بحث في تاريخ منطقة ذات أهمية سياسية ومذهبية واقتصادية في مغرب العصر الوسيط؛ فهي الإمارة، ثم الولاية، ومركز الخوارج، ثم الشيعة، فالمالكية، وهي أحد أنشط مراكز التجارة الصحراوية. كما أن لعصرَي المرابطين والموحدين أهميةً لأنهما تجربتان تاريخيتان غنيتان على المستويات كلها، بما في ذلك خصوصياتهما في تاريخ التصوّف المغربي، نشأةً وتطوّرًا، وفي علاقته بالمجتمع والسلطة.

ولما كانت فئة المتصوّفة هي المقصودة بالدراسة، فإن كتب المناقب تبقى هي الملاذ، وفي مقدمتها كتاب **التشوف إلى رجال التصوف** الذي يُعتبر أقدم مصدر ترجم لصلحاء سجلماسة بوصفهم مجموعة ضمن صلحاء الجنوب، على الرغم من تأخره زمنيًا عن مؤلفات مناقب صلحاء المغرب، مثل **المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد** لمحمد بن عبد الكريم التميمي، وقبله **السر المصون** للصدفي[1].

وقد جرى اعتماد الدراسة البروسبوغرافية باعتبارها من أفضل المقاربات في دراسة موضوع النخب دراسة كمية ونوعية. فهي منهج تحليلي يقوم على تتبع السير الذاتية للأفراد ورصد عناصر الائتلاف والاختلاف بينها[2]. ويعتمد هذا المنهج مجموعة مراحل تنطلق من جذاذات فردية تتضمن معلومات متنوعة عن حياة أفراد فئة مجتمعية (موضوع الدراسة)، والعلاقة التي تربط بينهم[3]، لتركيب سيرة ذاتية جماعية لهذه الفئة، وإبراز الخصائص المميزة لها، بغية الوقوف على ديناميتها الداخلية وممارستها الجماعية في علاقتها بمحيطها الاجتماعي[4]. وقد يتعلق الأمر بفئة الصلحاء أو الفقهاء أو القُضاة أو الشرفاء أو التجار أو الحكام، أو القادة العسكريين، أو الإداريين، أو غيرهم.

تسعى هذه الدراسة للبحث في الأصول الجغرافية والعرقية والاجتماعية لصلحاء سجلماسة، ومرجعيتهم الصوفية وإشعاعهم الروحي، ثم علاقتهم بالمجتمع والسلطة، للكشف عن جانب من الحياة الدينية والاجتماعية لهذه الحاضرة خلال عصرَي المرابطين والموحدين، والإسهام في كتابة تاريخ المغرب انطلاقًا من التاريخ المحلي.

أولًا: سياق الدراسة: المجال والزمن السياسي والموضوع

مجال الدراسة سجلماسة، وهو يشمل عموم الإقليم بحاضرته وباديته. وقد انتقلت سجلماسة من إمارة مدرارية، ثم مغراوية، إلى ولاية من ولايات الدولة في زمن المرابطين والموحّدين، ثم المرينيين[5]. واختلف الجغرافيون في ضبط حدود هذا الإقليم في العصر

1 طاهر الصدفي، **السر المصون في ما أكرم به المخلصون**، تحقيق حليمة فرحات (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998)، ص 12-13.

2 محمد المبكر، "البروسبوغرافيا في الدراسات التاريخية"، **مجلة أمل**، مج 15، العدد 15 (1998)، ص 11؛ لمياء لغزاوي، "التصوّف بين البروسبوغرافيا وأدب المناقب"، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، العدد 19 (2013)، ص 102.

3 للوقوف على تفاصيل هذه الخطوات، ينظر: المرجع نفسه؛ الصدفي.

4 Emmanuelle Picard, "Du dossier individuel à la prosopographie en histoire de l'éducation: Bilan et problèmes de méthode," *Revue Administrative*, numéro spécial (texte de la communication à la journée d'étude organisée par les archives nationales le 24 octobre 2006) (Février 2007), pp. 55-58.

5 للاطلاع بشيء من التفصيل على التاريخ السياسي للمدينة، ينظر: لحسن تاوشيخت، **عمران سجلماسة: دراسة تاريخية وأثرية**، ج 1 (الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2008)، ص 90-113؛ أحمد عزاوي، "سجلماسة والسلطة المركزية خلال العصر الوسيط"، في: **السلطة المركزية والزعامات المحلية بالجنوب المغربي: أعمال الأيام الوطنية الثانية عشرة، بمراكش، 1-2 أكتوبر 2004**، تنسيق أحمد عمالك وعبد الرحمن المودن وعبد العزيز بالفايدة (الرباط: منشورات كلية الآداب، 2010)، ص 45-51.



الوسيط، نظرًا إلى التغيرات التي طرأت عليه بتعاقب الدول. لكن يمكن تحديده شمالًا بمنابع وادي زيز، أي من خط تقسيم المياه بين حوض هذا الوادي وحوض وادي ملوية عند ممر تيزي نتالغمت (ممر الناقة)، إلى تخوم الصحراء جنوبًا[6]. ولذلك عُدّت قبيلة أيت ويرا التي سكنت السفح الشمالي للأطلس المتوسط ضمن إقليم سجلماسة، كما عدّ التادلي المتصوف أبا سعيد عثمان الوريوي من صلحاء باديتها[7].

أما زمن الدراسة، فيمتد من أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي إلى بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. وعلى وجه التحديد من سيطرة المرابطين على سجلماسة في عام447هـ/ 1055م، إلى تاريخ تأليف كتاب **التشوف** في عام 617هـ/ 1220م[8]. وتغطي هذه المدة جزءًا من مرحلة الحركة المرابطية، ومدة حكم يوسف بن تاشفين وابنه علي، ثم تاشفين بن علي، وحكم خلفاء الموحّدين الخمسة الأوائل، إلّا يسيرًا من عهد المستنصر (610-620هـ/ 1213-1223م). فالمرابطون حكموا سجلماسة بعد أن قضى عبد الله بن ياسين على إمارة بني خزرون المغراوية في عام 447هـ/ 1055م[9]، واستمر حكمهم لها حتى عام 539هـ/ 1145م، حيث دخلت طوعًا في حكم الموحّدين، عندما أرسل أهلها بيعتهم إلى عبد المؤمن الكومي في أثناء محاصرته تلمسان[10]. وبقيت تحت حكم الموحدين حتى عام 653هـ/ 1255م، حين تغلّب عليها أبو يحيى بن عبد الحق المريني[11].

ويمكن اعتبار سجلماسة العاصمة الأولى للمرابطين، لأن الأمير أبا بكر بن عمر بويع فيها في بداية عام 450هـ/ 1146م، قبل أن ينتقل إلى أغمات[12]. ونظرًا إلى أهمية المدينة وإقليمها في دولتَي المرابطين والموحّدين، فقد تولّى تدبير أمورها عمّال كبار، حيث ولّى عليها أبو بكر بن عمر أحد إخوانه[13]، وعيّن يوسف بن تاشفين، إبراهيم بن أبي بكر بن عمر واليًا عليها، ثم داود بن عائشة من بعده[14]. وفي عصر الموحّدين، تولّى بعض السادة ولايتها، ومن بينهم أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن، ثم ابن عمه أبو الربيع سليمان بن عمر بن عبد المؤمن، ثم أبو محمد عبد العزيز بن يوسف بن عبد المؤمن[15].

كان لبُعد هذه المدينة عن العاصمة مراكش دورٌ في خروجها على الطاعة، وظهور المخالفين عن السلطان فيها. فقد حاول واليها إبراهيم بن أبي بكر الاستقلال بها عن يوسف بن تاشفين، عندما استبدّ بحكم المغرب لنفسه بدلًا من أبيه[16]. وفي بداية عصر

6 حسن حافظي علوي، **سجلماسة وإقليمها في القرن 8هـ/ 14م** (المحمدية: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1997)، ص 24-26.

7 أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي بن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1984)، ص 440-441.

8 المرجع نفسه، ص 41.

9 أحمد بن محمد بن عذاري، **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، حققه وضبط نصه وعلّق عليه بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، ج 3 (تونس: دار الغرب الإسلامي، 2013)، ص 10؛ علي بن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** (الرباط: دار المنصور، 1972)، ص 127-128؛ عبد الرحمن بن خلدون، **تاريخ ابن خلدون: المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج 6 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992)، ص 216-217.

10 ابن خلدون، ج 6، ص 272.

11 المرجع نفسه، ج 7، ص 208.

12 ابن عذاري، ج 3، ص 10.

13 المرجع نفسه، ص 11-12؛ أحمد بن محمد بن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: قسم الموحدين**، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني [وآخرون] (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985)، ص 338؛ عزاوي، ص 47.

14 ابن عذاري، **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، ج 3، ص 18؛ ابن أبي زرع، ص 142؛ تاوشيخت، ج 1، ص 102.

15 محيي الدين عبد الواحد بن المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين**، شرح صلاح الدين الهواري (صيدا: المكتبة العصرية، 2006)، ص 239-241؛ تاوشيخت، ج 1، ص 105.

16 ابن عذاري، **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، ج 3، ص 24.



الموحّدين، أخذت سجلماسة بدعوة الثائر ابن هود الماسي، في عام 541هـ/ 1147م[17]. وفي عهد الناصر، ألحق الثائر العبيدي، الذي ادّعى أنه من سلالة الفاطميين، هزيمة نكراء بوالي سجلماسة أبي الربيع سليمان بن عمر بن عبد المؤمن، في عام 601هـ/ 1204م[18]، كما هاجمها بنو غانية ونهبوها، في عام 605هـ/ 1208م[19]. وفي عهد المستنصر، وصل إليها ثائر من صنهاجة، فتمكّن واليها محمد عبد العزيز بن يوسف بن عبد المؤمن من قتله[20].

من حيث الموضوع، يشمل لفظُ الصلحاء أو الصوفية، أو عبارةُ رجال التصوّف، "أفاضل العلماء والفقهاء والعبّاد والزهّاد والورعين، وغير ذلك من ضروب أهل الفضل [...] لأن الصوفي هو المنقطع بهمّته إلى الله تعالى، المتصرف في طاعته"[21]. بيد أنه ينبغي أن نشير إلى أن ابن الزيات استثنى منهم الطاعنين في "إحياء علوم الدين" من "علماء الدنيا الذين أظهر (الإحياء) عوارهم"[22].

وقد ارتبط الزهد في المغرب في بدايته بالعلم، وظهر منذ وقت مبكر علماء وفقهاء جمعوا بين العلم والعمل، فكان الزهد عندهم تعبيرًا عن المضامين الأخلاقية والروحية للإسلام. في حين ظهرت فيه ملامح التصوّف بشكله الاصطلاحي في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، مستندة إلى حركة زُهدية ذات تجربة طويلة، ومستفيدة من الصلاح والجهاد اللذين عرفهما العصر المرابطي[23]. وكان هذا الظهور هادئًا ومحتشمًا، ثم ما انفك أن عمَّ البلاد في وقت وجيز، نظرًا إلى الحماسة الدينية التي عرفها المجتمع المغربي مع المرابطين، واستمر مع الموحدين[24]. وكذلك الأمر بسجلماسة التي ضاهت في هذا المجال حواضر المغرب الأقصى، مثل فاس ومراكش وسلا، وسبتة وغيرها[25]. وقد ظهرت الإرهاصات الأولى للتصوف في سجلماسة في أواخر القرن الخامس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، حيث توفي أقدم متصوّف فيها، ويعرف تاريخ وفاته في عام 513هـ/ 1119م[26]، بينما توفي آخر من ترجم له صاحب كتاب **التشوف** من صلحائها، في عام 615هـ/ 1218م[27]. فإلى أي حد شكّل صلحاء سجلماسة خلال

---

17 ابن خلدون، ج 6، ص 274؛ ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ص 31؛ ابن أبي زرع، ص 190؛ [مؤلف مجهول]، **كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة (الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، 1979)، ص 146.

18 المراكشي، ص 239.

19 أحمد عزاوي، **رسائل موحدية: مجموعة جديدة**، الرسالة رقم 60، ج 2 (القنيطرة: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، 1995)، ص 249-250؛ ابن خلدون، ج 6، ص 295.

20 المراكشي، ص 240.

21 ابن الزيات، ص 34؛ ومثله، ينظر: أبو العباس أحمد بن قنفذ القسنطيني، **أنس الفقير وعز الحقير**، تصحيح محمد الفاسي وأدولف فور (الرباط: المركز الجامعي للبحث العلمي، 1965)، ص 3؛ ومثله عند: عبد الحق بن إسماعيل البادسي، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق سعيد أعراب، ط 2 (الرباط: المطبعة الملكية، 1993)، ص 18-19.

22 ابن الزيات، ص 36. مع الإشارة إلى أن ابن الزيات لم يترجم لجميع الزهاد والصالحين الفضلاء في المنطقة التي اهتم بها في المدة التي تناولها، مثل القاضي عياض والسهيلي. ينظر: مقدمة المحقق، ص 14.

23 محمد المغراوي، "العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين" (مرقونة)، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2001-2002، ص 282، 286؛ عبد الجليل العلمي، **في أصول التصوف بالمغرب (القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)** (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية؛ دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2014)، ص 91.

24 Abd El-Haqq El-Badisi, "El-Maqsad El-Maqsad (vies des saints du rif)," G. S. Colin (trans. annotée), *Archives Marocaines*, vol. 26 (Paris: Libraire ancienne honore champion, 1926), p. 7;

إبراهيم بوطالب [وآخرون]، **تاريخ المغرب**، تعريب محمد الغرايب [وآخرون] (الرباط: مطابع الرباط نت، 2018)، ص 168-169.

25 العلمي، ص 106.

26 وردت ترجمة أبي العباس أحمد بن محمد بن عبد الله، وذكر أنه "قديم الوفاة"، من دون ذكر تاريخ، لذلك يبقى أقدم من ضبط زمن وفاته هو أبو الفضل بن النحوي (ت. 513هـ/ 1119م) بعد أن عاش 80 عامًا، وبذلك يكون تاريخ ولادته هو حوالى عام 433هـ/ 1042م. ودخوله سجلماسة كان بعد هذا التاريخ. ينظر: ابن الزيات، ص 95، 140.

27 المرجع نفسه، ص 440.



عصرَي المرابطين والموحدين فئةً منسجمةً في خصائصها الجغرافية والعِرقية والاجتماعية، وفي سِماتها الفكرية وأدوارها الروحية، وفي علاقتها بالمجتمع والسلطة؟ وما أبرز التماثلات والتمايزات بين عناصر هذه الفئة؟

ثانيًا: أصول صلحاء سلجلماسة الجغرافية والقبلية والاجتماعية

لا بد من الإشارة إلى أن أعداد المتصوفة في المغرب أكثر مما ذكرته المصادر التي بين أيدينا، نظرًا إلى النشاط المُبكر لحركة الزهد، غير أن تأخر ظهور أدب المناقب في المغرب أسهم في إغفال كثير من الصلحاء[28]. ولا تُستثنى من هذه الملاحظة سجلماسة التي أسسها الخوارج، الذين يعتبر الزهد أحد دعائم دعوتهم. ولعل هذا ما جعل صاحب **مفاخر البربر** يقول: "أما الأولياء والصلحاء والعبّاد والأتقياء والزُهّاد والنُسّاك الأصفياء، فقد كان في البربر منهم ما يوفي على عدد الحصى والإحصاء"[29]. وقد بلغ عدد صلحائها في المدة المدروسة تسعة عشر صالحًا، بحسب ما ورد في **التشوف**؛ وهذا ما يُمثّل نسبة 6.8 في المئة من مجموع تراجم ابن الزيات التي بلغ عددها 278 صالحًا. وليس فيهم امرأة، مع أن ابن الزيات التادلي ترجم لنساء صالحات من أغمات وهسكورة ومكناس والقصر الكبير ومراكش[30]. ومنهم الفقهاء والعلماء وغيرهم. وأغلبهم حضريون، إلا واحدًا منهم كان من أهل البادية. وقد عاش في سجلماسة خمسة صلحاء في عصر المرابطين، وهو الذي يوافق مرحلة ظهور حركة الصلاح والولاية في المغرب، في مقابل أربعة عشر صالحًا في عصر الموحّدين، الذي يوافق مرحلة التصدر. وإلى جانب هذا العدد، يمكن الإشارة إلى أن بعضهم كان من أكابر أهل التصوّف الذين كان لهم وزنٌ وأثرٌ في الغرب الإسلامي. وهذا ينسجم مع السياق العام الذي عرفه مغرب العصر الوسيط؛ إذ كان انتشار الصلاح في سجلماسة متزامنًا مع انتشاره في كُبريات المدن التجارية المغربية، مثل مراكش وأغمات وفاس، وفي المناطق الريفية المرتبطة بها، مثل دكالة وهسكورة ورجراجة وتادلا، مع تميّزٍ بقلة عدد الصلحاء في مرحلة الظهور، مقارنةً بمرحلة التصدر[31].

1. صلحاء سجلماسة بين الأصالة والطروء

من خلال الرجوع إلى الأصول الجغرافية والقبلية لصلحاء سجلماسة، الذين ترجم لهم صاحب كتاب **التشوف**، يظهر أن الصلاح أصيل في هذه الحاضرة؛ إذ إن أكثر من ثلثي صلحائها، خلال عصري المرابطين والموحّدين، هم من أصول محلية، في مقابل أقل من الثلث من الوافدين الذين تعود أصولهم إلى قلعة بني حمّاد وتلمسان من المغرب الأوسط، وتوزر من تونس، ثم دكالة ومراكش وتارودانت من المغرب الأقصى. بيد أن المصادر لا تُفصح عن سبب نزولهم في سجلماسة. لكن يمكن القول إنه ما دام من الوافدين شيوخ وعامة، فإن الشيوخ منهم جاؤوا لنشر التصوّف وتوطين الصلاح في مجال سجلماسة لملاءمته مثل هذا النشاط. وخير مثال على هؤلاء أبو الفضل بن النحوي من قلعة بني حمّاد، وأصله من توزر، الذي يُعدّ من أقدم صلحاء سجلماسة؛ وأبو عمرو عثمان، شيخ الدقاق، وأصله من تلمسان. وقد وفدا على المدينة في مرحلة التأسيس لحركة الصلاح فيها. أما العامة منهم، فربما جاؤوا مريدين، يبحثون عن شيوخ لهم، مثل أبي إسحاق باران المسوفي وأبي زكرياء يحيى الدكالي. وربما تعلق الأمر عند بعضهم بسياحة صوفية

28 صالح بن عبد الحليم الإيلاني، **كتاب الأنساب: ضمن ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي**، دراسة وتحقيق محمد يعلى (مدريد: المجلس الأعلى للتعاون الدولي؛ الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، 1996)، ص 71-73؛ المغراوي، ص 290.

29 صالح بن عبد الحليم الإيلاني، **مفاخر البربر**، تحقيق عبد القادر بوباية، ط 2 (الرباط: دار أبي رقراق، 2008)، ص 188.

30 هنّ: مُنية بنت ميمون الدكالي من مكناس، وفاطمة الأندلسية من قصر كتامة (القصر الكبير)، وأم عصفور تيعزات بنت حسين الهنتيفي من هنتيفة، وثلاث مجهولات من أغمات وهسكورة ومراكش. ينظر: ابن الزيات، التراجم: 7، 112، 160، 167، 207، 210. ينظر: ابن الزيات، ص 98، 265-266، 516-518، 531-532، 385-386، 388.

31 محمد القبلي، "الدولة والولاية بالمغرب الأقصى في منتصف العصر الوسيط"، في: محمد القبلي، **جذور وامتدادات: الهوية واللغة والإصلاح بالمغرب الوسيط** (الدار البيضاء: دار توبقال، 2006)، ص 71-73.



قادتهم إلى سجلماسة، فاستقر بعضهم فيها، وغادرها بعضهم الآخرون؛ إذ من الوافدين مَن استقرّ في المنطقة إلى حين وفاته، كما هو حال أبي عمرو عثمان من أهل تلمسان، وأبي إسحاق باران المسوفي من مراكش، وأبي زكرياء يحيى الدكالي، وأبي علي سالم السوسي من تارودانت[32]. لكن منهم من كان مقامه فيها مؤقتًا، مثل أبي الفضل بن النحوي الذي غادرها إلى فاس، ثم إلى موطنه الأصلي قلعة بني حماد، حيث توفي فيها، وأبي العباس التوزري الذي رحل إلى بلاد المشرق وتوفي فيها في عام 610هـ/ 1213م[33].

2. الأصول القبلية والاجتماعية لصلحاء سجلماسة

معظم صلحاء سجلماسة في عصري المرابطين والموحدين من الأمازيغ. وينتمي من ذُكر انتماؤهم القبلي منهم إلى مسوفة وجزولة من صنهاجة، ودكالة من مصمودة. وهو أمر طبيعي، لأن ساكنتها ضمت في أواخر القرن السابع الهجري/ الخامس عشر الميلادي بعضًا من زناتة وصنهاجة والسود وعناصر أخرى مشرقية وأندلسية[34]. وكان البربر يشكلون السواد الأعظم من سكان المغرب وصلحائه، قبل أن تتغير تركيبته السكانية بفعل الهجرات العربية الكبرى في عام 584هـ/ 1188م. إضافة إلى أن أبناء هذه القبائل العربية لم ينخرطوا فعليًا في الثقافة المغربية، بما فيها التصوّف، إلّا ابتداءً من العصر المريني[35]. لكن ليس الأمر كما ذهب إليه بعض الباحثين الأجانب الذين اعتبروا التصوّف المغربي تعبيرًا عن هوية أمازيغية في مواجهة العرب[36]، وأنه كان يخفي وراءه موقفًا عرقيًا، ورغبة في إحياء بعض موروثات ما قبل الإسلام، ثم إن التصوّف ليس وليد أزمة اجتماعية وأخلاقية وسياسية عرفها المغرب، كما ذهب إلى ذلك ألفرد بيل[37] وأدولف فور ولوبنياك[38].

أما الطابع العربي لبعض أسماء صلحاء سجلماسة وكُناهم، فيُفسّر بكون المغاربة ساروا، منذ وقت مبكر، على دأب العرب في جعل كنية خاصة لكل اسم، تشريفًا لصاحبه، فكل محمد هو أبو عبد الله، وكل عبد الله هو أبو محمد، وكل يعقوب هو أبو يوسف، وكل يوسف هو أبو يعقوب أو أبو الفضل، وكل زكرياء هو أبو يحيى أو أبو بكر ... إلخ[39].

من جهة أخرى، كان صلحاء سجلماسة ينتمون إلى فئة الأحرار، ولم يرد أنّ أحدًا منهم كان من العبيد. لكن منهم من كان ينتمي إلى فئة السود، مثل أبي عبد الله محمد البردعي الأسود، ومنهم من كان من أهل البيت، مثل أبي محمد ابن حمودة، وهو عريق في التصوّف وسلفه من أهل الخير والصلاح والعلم[40]. ومن حيث الأوضاع الاجتماعية، كان بعضهم فقيرًا، وظهر ذلك في أحوالهم المعيشية. فقد اشتكى أبو عبد الله الدقاق من ضيق حاله[41]. واشتغل أبو محمد الجزولي أجيرًا في الحصاد. ولم يكن مع أبي علي سالم السوسي ما يكفي لشراء كرسي جديد لوضوئه. وكان ابن جلداسن الصنهاجي فقيرًا أيضًا[42]. لكن بعضهم كان ميسور

---

32 تراجمهم في: ابن الزيات، ص 140، 254، 275، 283–285.

33 ترجمتاهما في: المرجع نفسه: ص 95-101، 412-413.

34 حافظي علوي، ص 132.

35 المغراوي، ص 301.

36 Edouard Michaux-Bellaire, "Les confréries religieuses au Maroc," *Archives Marocaines*, vol. 27 (1927), pp. 4-26.

37 Alfred Bel, *La religion musulmane en Berbérie: Esquisse d'histoire et de sociologie religieuses*, vol. I: *Etablissement et développement de l'Islam en Berbérie, du VIIe au XXe siècle*, Un vol. in-8 (Paris: Librairie Orientaliste Paul Geuthner, 1938), p. 411.

38 ينظر في هذا السياق مناقشة لآرائهم في: المغراوي، ص 296-299.

39 محمد الفاسي، "الكنى عند المغاربة"، **المجلة الإسلامية**، السنة الثامنة، العدد 16 (1985)، ص 147-163؛ عبد الحق الطاهري، "النخبة من خلال كتب التراجم المشرقية"، في: **النخبة في تاريخ الغرب الإسلامي: ضوابط المفهوم وتجليات الأدوار**، تنسيق محمد البركة (فاس: مطبعة أنفوبرانت، 2015)، ص 54.

40 ترجمتاهما في: ابن الزيات، ص 278، 417-418.

41 أبو عبد الله محمد التميمي، **المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد**، تحقيق محمد الشريف، (تطوان: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2002)، ص 187-188؛ ابن الزيات، ص 156.

42 تراجمهم في: ابن الزيات، ص 277-278، 283-285، 308-407.



الحال مثل أبي الفضل بن النحوي الذي كان مكتفيًا بنفسه، ولا يأكل إلّا مما يصل إليه من بلده. وعندما عاد إلى القلعة، أخذ نفسه بالتقشف وهجر اللين من الثياب، ولبس الخشن من الصوف، وكانت جُبّته إلى ركبتيه. وكانت لأبي العباس أحمد أرض فلاحية، وكان له مولى يحرثها ويسقيها بماء الوادي، لكن قوته كان من حمام بري يأوي إلى موضعه. وكان لأبي الفضل أحمد بستان، كما كانت لأبي محمد بن حمودة أرض في ساقية القطف[43]. أما أبو عبد الله محمد اليصلتي، فـ "كان من تجّار الصحراء، فتاب إلى الله تعالى، وانتقل إلى مدينة فاس"[44]. وعبارة "تاب إلى الله"، تقوم قرينة على أنه كان لبعض أهل التصوّف موقف من بعض أنواع التجارة، أو التجار. وربما لذلك علاقة بفهمهم للحديث النبوي "إنَّ التُّجَّارَ يُبعَثُونَ يَومَ القِيَامَةِ فُجَّارًا، إلَّا مَن اتَّقَى اللَّهَ وَبَرَّ وَصَدَق"[45]. أما أبو إسحاق باران، فكان من زعماء مسوفة ومن أمراء المرابطين في مراكش، ثم أزال اللثام واختار طريق التصوف[46]. ولم يكن ذلك غريبًا على المرابطين، فقد سلك بعض أمرائهم طريق القوم، مثل الأمير ميمون بن ياسين (470-530هـ/ 1078-1136م)[47]، وأبي زكرياء بن يوغان[48]، وأبي عبد الله بن وابور المرابط المتلثم، وهو من الأمراء أولاد الملوك المرابطين، ترك ماله وولده وارتحل إلى مكة، وهناك لقيه الصدفي صاحب **السر المصون** وترجم له[49]. ولازم أمير آخر أبا الحسن بن حرزهم في مراكش، وسلك طريق الآخرة[50].

ثالثًا: صلحاء سجلماسة: مرجعيتهم الصوفية وإشعاعهم الروحي

1. المرجعية الصوفية لصلحاء سجلماسة

حلّت كتب المناقب صلحاء سجلماسة، كغيرهم من رجال التصوّف، بالعبادة والورع والزهد والعرفان، وبأن لهم أحوال وكرامات. ولما كان من أصحاب الكرامة من يعلم بكرامته، ومنهم من لا يعلم بها، والعالمون بها منهم من يكتمها جهد استطاعته، ومنهم من يُظهرها ويُصرّح بها[51]، فقد حرص أغلب صلحاء سجلماسة على التستر منها وسترها (من باب أنها تسر ولا تغر، وتطوى ولا تروى) بينما أعلنها بعضهم، مثل أبي عبد الله الدقاق الذي كان "يتحدى بالولاية ويدّعيها لنفسه، ويتكلم بذلك"، ويُصرّح بأنه شمس الوقت[52]، وأبي يحيى أبي بكر التوجي[53]. ومن أمثلة كرامات صلحاء سجلماسة الدعاء المستجاب والاطلاع على بعض المغيبات والإخبار بها، وأكل الفاكهة في غير إبانها واختصار المسافات واختراق الأبواب الموصدة والاختفاء عن المتربصين والمشي في الهواء، ومصاحبة بعض مؤمني الجن.

43 تراجمهم في: المرجع نفسه، ص 95-101، 140، 153-154، 417-418.

44 المرجع نفسه، ص 345.

45 سنن الترمذي، رقم الحديث 1210. أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، **الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ج 3 (القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1975)، رقم الحديث 1210، ص507-508.

46 ابن الزيات، ص 254.

47 أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك، **الذيل والتكملة لكتابَي الموصول والصلة**، تحقيق محمد بن شريفة، مج 8 (الرباط: أكاديمية المملكة المغربية، 1984)، ص 405؛ محمد بن شريفة، **الأمير المرابطي ميمون بن ياسين حياته وحجه**، مج 10 (المحمدية: مطبعة فضالة، 2002)، ص 97-98.

48 ابن الزيات، ص 123.

49 الصدفي، ص 118-119.

50 المرجع نفسه، ص 169.

51 ابن قنفذ القسنطيني، ص 3.

52 التميمي، ج 2، ص 188؛ ابن الزيات، ص 156-157.

53 ابن الزيات، ص 182.



لا تسمح طبيعة الكتابات المناقبية بالوقوف على تفاصيل المرجعية الصوفية للصلحاء، وإن كان بعضهم من أرباب السلوك والمقامات العليّة. وقد صرح ابن الزيات التادلي بأنه جرّد كتابه من علوم التصوف، واقتصر على إيراد أخبار الرجال، معتذرًا بأن **إحياء علوم الدين** هو المنتهى في ذلك[54]. ومع ذلك، يمكن الوقوف على مرجعية بعض متصوّفة سجلماسة خلال عصري المرابطين والموحدين.

فأبو الفضل بن النحوي، مرجعيته إحيائية بحتة، بل يمكن اعتباره من أبرز دعاة الغزالية في المغرب[55]؛ إذ إنه انتسخ **الإحياء** في ثلاثين جزءًا، وكان يقرأ في كل يوم من أيام رمضان جزءًا منه، وقال: "وددت أني لم أنظر في عمري سواها". وكان يرى أن **الإحياء** يغني عما سواه من الكتب، قال: "ولو اقتنيته قبل هذه الكتب لم أكسب كتابًا منها"[56]. وعندما أفتى فقهاء المغرب بإحراق كتب الغزالي، وأمر السلطان علي بن يوسف بإحراقها، انتصر لأبي حامد، وأفتى بعدم لزوم الناس الأيمان المغلظة التي ألزمهم الحكّام الحلف بها على أن **الإحياء** ليس عندهم[57]. وكان له دعاء من **الإحياء** يوصي الناس به فيستجاب لهم، كما أنه ربط بين الدين والأخلاق؛ إذ قال:

أصبحت فيمن له دين بلا أدب *** ومن له أدب عار من الدين

أصبحت فيهم فقيد الشكل منفردًا *** كبيت حسان في ديوان سحنون[58]

يمكن رصد بعض آثار مذهب الصدقة أو الإحسان لدى صلحاء سجلماسة عند أبي يحيى أبي بكر الغازي الذي من كراماته أنه اعتاد أن يجد قيراطًا من السكة الطيبة، فيشتري به الخبز ويتصدّق به، واستمر على ذلك[59]. وهذا هو مذهب أبي العباس السبتي (524-601هـ/ 1130-1203م) وأتباعه، الذي لخّصه أبو الوليد بن رشد بقوله: "هذا رجل مذهبه أن الوجود ينفعل بالجود [...] وكان إذا أتاه أحد بأي أمر، أتاه يأمره بالصدقة، ويقول له تصدّق، ويتفق لك كل ما تريد"[60].

على الرغم من أن مذهب الملامتية لم يكن منتشرًا بكثرة في المغرب في هذا العصر، فإن بعض المتصوفة سلك طريقه، وفي مقدمة هؤلاء أبو الحسن علي بن حرزهم، لكن أهل فاس أنكروا عليه سلوكه هذا[61]، وقد نسب بعضهم أبا العباس السبتي إلى هذا المذهب[62]. ويمكن الوقوف على آثار ملامتية عند بعض صلحاء سجلماسة، كما هو الأمر عند أبي إسحاق باران المسوفي الذي كان من أمراء المرابطين، وقد سأل مشايخ صوفية في مراكش عن كيفية الالتحاق بأهل الطريق؟ فأشار عليه أحدهم بأن يزيل اللثام عن فمه الذي كان لباسه عند المرابطين مظهرًا من مظاهر الجاه، وتعبيرًا عن الانتماء إلى النخبة الحاكمة[63]، وأن يذهب إلى السوق

---

54 المرجع نفسه، ص 56.

55 أبو محمد حسن بن علي بن القطان، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تحقيق محمود علي مكي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990)، ص 70-71.

56 التميمي، ج 2، ص 172-173؛ ابن الزيات، ص 96.

57 ابن الزيات، ص 96-97.

58 المرجع نفسه، ص 97. وبيت حسان بن ثابت هو بيت الشعر الوحيد الذي تتضمنه مدوّنة سحنون المالكي في باب الجهاد، وهذا البيت هو:
فهان على سراة بني لؤي *** حريق بالبويرة مستطير

59 المرجع نفسه، ص 244.

60 المرجع نفسه، ص 453-454 و475؛ أحمد التوفيق، **أبو العباس السبتي ومذهبه في التضامن والتوحيد** (الرباط: دار الأمان، 2020)، الدرس الحسني الأول لسنة 1436هـ/ 2015م، وكذلك روايته **جيران أبي العباس**.

61 التميمي، ج 2، ص 15؛ ابن الزيات، ص 169؛ عبد الله نجمي، "الملامتية في مغرب ق 10ه"، في: أبو العلاء عفيفي [وآخرون]، **الملامتية مشرقًا ومغربًا**، ط 2 (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2020)، ص 81؛ عبد السلام الغرميني، **المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري** (الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، 2000)، ص 310-311.

62 ابن الزيات، ص 452.

63 محمد بن أحمد التجيبي بن عبدون، "رسالة في القضاء والحسبة"، في: **ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**، تحقيق ليفي بروفنسال (القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955)، ص 28.



ويأتي وعلى رأسه طبق من الطرف، فخرج وغاب ساعة، ثم دخل عليهم وقد فعل ما أمروه به، فقال له الشيخ: "قد لحقت بأهل الطريق وزال عنك الكبر"، ثم نهض إلى سجلماسة وصحب أبا عبد الله الدقاق وأقبل على العبادة إلى أن توفي[64]. ولم يكن الدقاق يولي المظهرَ أهميةً أيضًا، ولم يرَ موجبًا لغسل الثوب إذا لم يكن نجسًا، فقد جاءه أبو محمد عبد الله التلمساني يومًا، فرأى ثوبه مدنّسًا، وطلب منه أن يُعطيه إياه لغسله، فرفض، وقال: "كل من يغسل ثوبه من غير نجاسة فهو مريض القلب، يحتاج إلى أن يداوى"[65]. هذا مع أنه ينبغي لنا التريث في نسبة الدقاق إلى الملامتية، لأن من أهم ما يُميز الملامتي أنه يتحكم في نفسه، ويحفظ سر الله، ويكتم ما بينه وبين ربه، ولا يُظهر كراماته خوفًا من أن تكون الكرامة ابتلاءً من الله، يمتحن بها غرور النفس وعجبها، وخوفًا من أن يفتتن الناس به[66]، في حين أن الدقاق كان يظهر كراماته ويتحدّى بها، كما فعل الحلاج وغيره من أهل التصوف. وكان دأب الملامتية "كتم محاسنهم، وإظهار ما يُلامون عليه تسترًا لأنفسهم وطلبًا للإخلاص، حتى لا يقعوا في آفة العجب والكبرياء، فلامهم الخلق على ظواهرهم، ولاموا أنفسهم على ما عرفوا من بواطنهم"[67].

وعرف المغرب في مرحلة تصدّر حركة الصلاح تكاثرًا للرباطات والرابطات على السواحل وداخل البلاد[68]، فقد ظهرت في ضواحي سجلماسة رابطة أنبدور، وكان يقوم عليها أبو زكرياء يحيى بن أبي القاسم بن ميمون، من أهل البيت، ويأوي إليه أبو القاسم بن أبي الفضل، كما أن أبا العباس التوزري اعتكف عنده فيها[69]. وكانت الرابطات تقع في ضواحي المدن، وتستغل في اجتماع أهل التصوّف لممارسة شعائرهم وإحياء لياليهم، كما تُستغلّ مأوى للغرباء من الصوفية أو المنقطعين من العباد، ولم يكن لها دورٌ جهادي مثل الرباطات[70]، وبذلك تكون سجلماسة قد عرفت إرهاصات الانتظام الصوفي في الوقت نفسه الذي عرفته باقي مناطق الجنوب المغربي.

وإذا كان التصوّف المغربي في العصر الوسيط قد اتّخذ منحًى سلوكيًا، فإن بعض القرائن تسعف بالقول بوجود أثر للتصوف الفلسفي عند بعض صلحاء سجلماسة؛ ومنهم، خاصة، أبو عبد الله الدقاق الذي ذكر مترجموه أنه كانت "له طريق يختص بها في التصوف من الصدق وترك التصنع"، و"أنه كان يطلق إطلاقات ويتكلم بكلام ينكر عليه"، ما دفع بجماعة من أصحابه إلى السفر من فاس إلى الأندلس وسؤال أبي الحكم بن برجان وأبي العباس بن العريف عن أمره وأحواله، فقالا لهم: "دعوه ولا تنكروا عليه شيئًا"[71]، وهو أمرٌ يدل على أنه محسوب في زمرتهما[72]. وقد امتحن أيضًا مع صاحبه الأصم وأُشخِصا من سجلماسة إلى فاس، وسُجنا لكلام نسب إليهما، ثم ظهرت براءتهما، فأُطلق سراحهما[73]. وإذا أُضيف إلى إجازة ابن برجان وابن العريف قول الدقاق، فإن امتحانهما وإشخاصهما من الأندلس إلى مراكش، ومؤاخذة ابن برجان بسبب "مسائل عيبت عليه، فأخرجها على ما تحتمله

64 ابن الزيات، ص 254.

65 التميمي، ج 2، ص 186.

66 عفيفي [وآخرون]، ص 19.

67 علي سامي النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: الزهد والتصوف في القرنين الأول والثاني الهجريين**، ج 3، ط 8 (القاهرة: دار المعارف، 1980)، ص 404.

68 القبلي، "الدولة والولاية بالمغرب الأقصى"، ص 73-74.

69 ابن الزيات، ص 379 و412. وتعرف عند المحليين بقصر أنبدور، وتطلق على أماكن في مناطق أخرى ومعناها العتبة أو الحكاية أو الملحمة. بشأن تفاصيل عنها، ينظر: حافظي علوي، ص 120-121. وليس كما سمّاها القبلي رابطة تامرنوت، مثل تلك التي في آسفي. ينظر: القبلي، "الدولة والولاية بالمغرب الأقصى"، ص 74.

70 المغراوي، ص 303-304.

71 التميمي، ج 2، ص 186-187؛ ابن الزيات، ص 156.

72 الغرميني، ص 325.

73 ابن الزيات، ص 155؛ إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع - الذهنيات - الأولياء** (بيروت: دار الطليعة، 1993)، ص 132-133.



من التأويل، فانفصل عمّا ألزمه من النقد"، ثم إعدامه ورَمْي جثمانه في مزبلة[74]، فإنّ ذلك كله يَقوم قرينة على وجود خيط رابط بين أفكارهم. وليس ذلك إلّا الأثر الفلسفي الذي كان يُشكّل استمرارًا لمدرسة ابن مسرّة المعروفة بنزعتها الإشراقية، وإن كان ذلك على نحو أخف، وهو ما لم يقبل به فقهاء المرابطين وحكّامهم[75].

من الناحية المذهبية، نشير إلى أن طائفة من الخوارج الوهبية الإباضية[76] من زواغة تاهرت، كانت تقيم في سجلماسة حتى نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وأنها كانت تشكل جماعة منسجمة. فقد عزم رجل لمتوني على التوجّه إلى مكة، وأراد بيع دمنته (مزبلته)، فجمع الربيع الزواغي جماعة الوهبية، ودعوا له ألّا يساومه فيها أحد غير الربيع حتى يشتريها بأبخس ثمن، فشكا اللمتوني ذلك لأبي علي سالم السوسي، فدعا عليهم قائلًا: "خيّب الله دعاءهم، ورزقك فيها ثلاثة آلاف دينار"، وبعد أسبوع اشتراها الربيع بذلك الثمن[77]. ويرى فقهاء المالكية أن الوهبية طائفة ضالّة فاسدة المعتقد، ينبغي عدم تزويجهم، وعلى أولي الأمر سجنهم وضربهم وإجبارهم على الرجوع إلى مذهب أهل السُنّة[78].

2. الإشعاع الروحي لصلحاء سجلماسة

كان لصلحاء سجلماسة إشعاعٌ روحي محلّي، ولولا ذاك لما التُفت إليهم، وما ترجم لهم المناقبيون. لكن إشعاع بعض الشيوخ البارزين تعدّى حدود الإقليم إلى بعض مناطق المغرب الأقصى وبلاد المغارب. ويمكن الوقوف عند ثلاثة منهم عُدّوا من الأكابر.

- أولهم، أبو الفضل بن النحوي الذي جمع بين العلم والتصوف، وتصدّر لتدريس أصول الدين وأصول الفقه في سجلماسة وفاس، كما تصدّر للفتوى، وأخذ عنه ابن الرمامة قاضي فاس، وموسى بن حماد الصنهاجي قاضي مراكش. وتتلمذ على يديه في التصوّف علي بن حرزهم، كبير صوفية فاس، وكان سبب البركة عليه، وكان يُقبّل يده كلما التقاه، ويرجع إليه في الكثير من المسائل[79]. وهو صاحب قصيدة المنفرجة الجيمية[80] التي ما زال الناس يستحسنون إنشادها ويتبرّكون بها إلى اليوم.

- ثانيهم، أبو عبد الله الدقاق الذي كان يتردد على فاس، وله في المدينتين أتباعٌ كثر، فهو أحد أشياخ أبي مدين شعيب شيخ الشيوخ، وكان يفتخر بذلك ويقول: "أنا أول من أخذ عنه الشيخ أبو مدين علم التصوف"[81]. وهو شيخ أبي إسحاق باران المسوفي. واعتبره ابن عربي من أهل الفتوة الذي "يعامل الخلق على الوجه الذي يرضي الحق"، وهو سيّد وقته في العمل بالهمة، حيث ذكر ما أخبره به صاحب **المستفاد** من أنهم كانوا في فاس وتذاكروا الفعل بالهمة، فقال الدقاق: فزت بواحدة ما لي فيها شريك، ما اغتبت أحدًا قط، وما اغتيب أحد في حضرتي قط، فهذا من الفعل بالهمة[82].

---

74 ابن الزيات، ص 170؛ الغرميني، ص 308-309.

75 المغراوي، "العلماء والصلحاء"، ص 287؛ الغرميني، ص 64-65.

76 الوهبية نسبة إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رسم، مؤسس الدولة الرستمية الإباضية في تاهرت. وحكم في الفترة 171-208هـ/ 788-824م. ينظر: محمود إسماعيل عبد الرزاق، **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري**، ط 2 (الدار البيضاء: دار الثقافة، 1985)، ص 144.

77 ابن الزيات، ص 188–189.

78 تفصيل ذلك في: أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل أفريقية والأندلس والمغرب**، خرّجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، ج 10 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981)، ص 149-151.

79 ابن الزيات، ص 98.

80 ابن قنفذ القسنطيني، ص 107.

81 ابن الزيات، ص 156؛ ابن قنفذ القسنطيني، ص 27.

82 أبو بكر محيي الدين محمد بن علي بن عربي، **الفتوحات المكية**، ضبطه وصححه ووضع فهارسه أحمد شمس الدين، ج 1 (بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.])، ص 369-370؛ ابن الزيات، ص 15 (مقدمة المحقق).



ثالثهم، أبو عبد الله محمد بن الحسن اليصلتي، دفين باب الجيسة في فاس، الذي كانت له طريقة في التصوّف، أخذها عنه ابن الزيات صاحب **التشوف** عن طريق إسماعيل بن يعلى[83]، لكن لا نعلم تفاصيل أكثر عن طريقته.

رابعًا: علاقة صلحاء سجلماسة بالمجتمع والسلطة

1. علاقة صلحاء سجلماسة بالمجتمع

لا غروَ أن التصوف تخلّق في رحم المجتمع. لذلك، كان طبيعيًا أن يحتضنه ويحتفي به، وفي المقابل، كان المتصوفة ملاذَ الناس لتحقيق آمالهم والتخفيف من آلامهم[84]. ولم يُعرف عن صلحاء سجلماسة الانعزال أو الانزواء عن المجتمع. فطبيعي أن يستغيث الناس بالصلحاء ويتشفّعوا بهم لقضاء حوائجهم، كما هو أمر أبي القاسم بن أبي الفضل الذي شكا له أحد أصحابه ضرر الفئران في مزرعته، فقال له: سيكفيك الله مؤونتها، فأصبحت ميتة[85]، وطبيعي أن ينفقوا عليهم في بعض الحالات، مثل ما حدث لعبد الله الجزولي الذي أراد بعض معتقديه أن يتكفّلوا له بمصاريف الحج فرفض[86]. وعادي أيضًا أن يُمارس الصلحاء رقابة أخلاقية على المجتمع، وأن يُنبّهوا على الانحرافات السلوكية، على غرار حال أبي الفضل بن النحوي الذي أنكر على أهل سجلماسة التمييز في موضع الصلاة، لما جاء إلى المسجد وأراد أن يُصلّي في موضع منه، فقيل له: هذا موضع أبي فلان، فجاء إلى موضع آخر، فقيل له كذلك، فقال: "ما ظننت أن مثل هذا يكون في بيوت الله تعالى"[87].

لكن إذا كان موقع الولي يقتضي أن يتم حوله الإجماع[88]، فإن هذا الإجماع جرى خرقه أحيانًا، فوقف بعض الناس موقف المتشككين من الصلحاء، كما هو حال أحد جيران الدقاق الذي كان يزدريه ويُنكر كراماته وفضائله؛ فاضطرّه ذلك إلى تحديه[89]. وبلغ الأمر اعتداء بعضهم على الصلحاء، اعتداءً راوح بين المعاداة وسرقة الممتلكات، ووصل إلى القتل. فيذكر أن أحدهم قال: "لن يمطر هذا البلد ما دام فيه أبو علي سالم السوسي". فلما بلغه ذلك، دعا عليه، فافتقر حتى صار يسأل الناس، وكان أبوه قد ترك له نحو عشرة آلاف دينار، فضلًا عن العقار، ثم قُتل بعد ذلك[90]. أما ابن حمودة، فتعرّض للسرقة مرتين؛ في الأولى نقب السارق جدار داره وحمل سليخة تمر[91]، فمشى بها إلى أن عثر فاندقّت عنقه، فوجدوه في الغد ميتًا والسليخة عنده. وفي الثانية سرق له سارق نعجة، فذبحها وحمل جلدها ليبيعه، فدخل به دار ابن حمودة وهو لا يشعر، فلما انتبه قال له استرني واغفر لي، فخلى سبيله وانصرف[92]. وبلغ الاعتداء مداه في حالة أبي عبد الله الأصم الذي مر به رجل وهو يتعبّد فضرب عنقه، ومر به أحد أصحابه، فدفنه من الخوف بين الديار، وأعلم أصحابه فجاؤوا ليحملوه إلى المقابر، فلم يجدوه[93]. وقد تكرر مثل هذا الانفلات في مناطق وأزمنة أخرى، أشهرها ما

---

83 المرجع نفسه، ص 23 (مقدمة المحقق)، 345.

84 بوتشيش، ص 155-156.

85 يقول النص: "فدخل في كمون الفصفصة، فرأى الفئران قد حفرته كله، فقلت له إن الفئران قد أضرّتني في كموني كما ترى، فقال: سيكفيك الله مؤونتها، فسقيت الفصفصة تلك الليلة، فأصبح كل فأر فيها ميتًا"، ينظر: ابن الزيات، ص 379.

86 المرجع نفسه، ص 277-278.

87 المرجع نفسه، ص 99.

88 القبلي، "الدولة والولاية بالمغرب"، ص 78.

89 ابن الزيات، ص 157.

90 المرجع نفسه، ص 285.

91 كمية من التمر، توضع في كيس، أو ما يقوم مقامه، وتضغط حتى لا يتسرب إليها الهواء فتفسد. وهي طريقة قديمة لادخار التمر مدة أطول مع الحفاظ على صلاحيتها.

92 ابن الزيات، ص 418.

93 المرجع نفسه، ص 155.



أقدم عليه بن أبي الطواجين الكتامي من اغتيال واحد من أبرز صلحاء المغرب، مولاي عبد السلام بن مشيش في جبل العلم، في غمارة، في عام 623هـ/ 1229م[94].

2. علاقة صلحاء سجلماسة بالسلطة

طبع التوتر علاقة المتصوّفة بحكام المرابطين، الأمراء والولاة، خاصة في عهدَي علي بن يوسف وابنه تاشفين؛ إذ استفزتهم السلطة بإحراق كتاب **الإحياء**، في عام 507هـ/ 1113م، واعتقال عدد من شيوخ التصوّف الأندلسيين أو متابعتهم، مثل ابن العريف وابن برجان والميورقي. وقد امتحنتهم وضيّقت عليهم؛ ما اضطرّهم إلى الدفاع عن أنفسهم، وعن المجتمع بطريقتهم الخاصة[95]. ولم يشذ الأمر عن ذلك في سجلماسة. فأبو الفضل بن النحوي عندما قدِم إليها وبدأ في تدريس أصول الدين وأصول الفقه في مسجد ابن عبد الله، منعه عبد الله بن بسام، أحد مسؤولي المدينة، وأخرجه من المسجد، بدعوى أن هذه العلوم لا يعرفونها، وأن العلم عندهم هو علم الرأي (فقه الفروع)، فدعا عليه أبو الفضل قائلًا: "أمتَّ العلم أماتك الله ها هنا"، فقتل صبيحة اليوم الثاني في المكان الذي دعا عليه فيه. وبسبب هذا التضييق رحل إلى فاس، إلّا أنه لقي مثله من القاضي ابن دبوس، حيث أزعجه وضيّق عليه، حتى خرج من فاس، لكن في ليلة خروجه دعا على القاضي، فأصابته أكلة في قرن رأسه، فانتهت إلى حتفه، فأصبح ميتًا. وكان معروفًا بين الناس بأنه مجاب الدعوة، ويخشون ذلك منه، إلى درجة أنهم كانوا يقولون: "نعوذ بالله من دعوة ابن النحوي"[96]. ولم يكن تصرّفه من قبيل ردات الفعل فحسب، بل كانت له مبادرات في مواجهة تجاوزات الحكام، منها أنه كتب إلى علي بن يوسف، يُنبّهه إلى خطورة فعله في أثناء إعطائه الأمر بإحراق كتاب **الإحياء**[97].

وقد خاف بعض الصلحاء من بطش الحكام، وهربوا منهم، كما فعل أبو الفضل بن عبد الله الذي اضطر إلى الاختباء في جنّة له، إلى أن أشرف على الموت من شدة الجوع، بعد أن طلبه حاكم المدينة. ويذكر أن السلطان أكرهه على الكذب مرة ففعل، وكان يرجو الله ألّا يحاسبه عليها[98]، لكنه لم يفصح عن مضمون الكذبة، ولا عن سبب إكراهه عليها، إلّا أن يكون الأمر يتعلق بحيازة كتاب **الإحياء**، وقد كانت قضية سياسية عصرئذٍ.

تمّت الوشاية بأبي عبد الله الأصم وأبي عبد الله الدقاق وأضرابهما عند تاشفين بن علي، فنُفيا إلى مدينة فاس وسُجنا فيها. وعندما ظهرت للسلطان براءتهم، أمر بإطلاق سراحهم[99]. وقد نجا أبو عبد الله الدقاق من القتل، عندما حمل مع جماعة من أهل سجلماسة إلى واليها ليقتلهم لشيء رفع عليهم، لكنه عندما وصل إلى الموضع الذي قتل فيه القوم، استعفى فيه رجل من مشيخة قبائل فاس، فعُفي عنه وأخذه الرجل معه إلى فاس[100].

أما في عصر الموحدين، فتميزت العلاقة بين الصلحاء والسلطة الموحدية بالسلم وعدم الاصطدام في الغالب، ولم تتبنَّ السلطة موقفًا رسميًا عدائيًا من التصوف، وبقيت العلاقة بينهما عرضة للتحولات والظرفيات المختلفة، وراوحت بين التقريب

94 محمد العربي الفاسي، **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن** (الدار البيضاء: دار النجاح الجديدة، 2003)، ص 260؛ محمد المغراوي، **الموحدون وأزمات المجتمع** (الرباط: جذور، 2006)، ص 60-61.

95 ابن القطان، ص 14-16؛ محمد القبلي، "رمز الإحياء وقضية الحكم في المغرب الوسيط"، في: محمد القبلي، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط** (الدار البيضاء: دار توبقال، 1987)، ص 23؛ بوتشيش، ص 151؛ الغرميني، ص 291-292.

96 ابن الزيات، ص 98-99.

97 المرجع نفسه، ص 96.

98 المرجع نفسه، ص 154.

99 المرجع نفسه، ص 155.

100 التميمي، ج 2، ص 187.



والمسالمة والحذر والتوتر أحيانًا[101]. وفي هذا السياق، يمكن الإشارة إلى ملاحقة عامل سجلماسة لابن حمودة لسبب لم يذكره ابن الزيات، لكن لما جاءه رجال العامل وهو في أرضه، خارج سجلماسة، وجدوه في مسجده يصلي وهمّوا به، فأطال الصلاة، فانتظروه كثيرًا. فلما أعياهم انتظاره، قاموا إليه ليخرجوه من مسجده، فلم يجدوه، وكان قد خرج عليهم وهم قعود عند الباب ولم يروه[102]. ونظرًا إلى وظيفة العامل في النظام الموحدي الذي يُعتبر وكيلًا للسلطات المالية في الولاية، والذي كان يُشرف على أعمال الجباية، ويتكلّف بنفقات الدولة كلها في جهته[103]، وأن ابن حمودة كان يمتلك أرضًا في ساقية القطف، فإن أمر الملاحقة ربما تعلّق بمسألة الجباية، خاصة أنّ الموحدين عُرفوا بانتزاع أموال الناس وغصب الماشية والمحاصيل الزراعية؛ ما جعل الأهالي يستصرخون الأولياء ضد الجُباة[104].

خاتمة

شكّل صلحاء سجلماسة عيّنة مُعبّرة عن وضعية الصلاح والصلحاء في المغرب خلال عصري المرابطين والموحدين، سواء من حيث أصولهم الجغرافية والقبلية وأوضاعهم الاجتماعية، أو من حيث ميولاتهم الفكرية والصوفية وعلاقتهم بالمجتمع والسلطة. فقد ظهر التصوّف في سجلماسة متأخرًا؛ مثل الحال في باقي جهات المغرب، في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، مقارنةً بالمشرق. وجاء التأريخ له في سياق التأريخ لمتصوفة جنوب المغرب. ويرجع الفضل في تدوين أخبار صلحاء الجنوب إلى أبي يعقوب يوسف التادلي وكتابه **التشوف**، كما يرجع إلى التميمي قبله في الاهتمام بمناقب عباد فاس وما يليها من البلاد، والبادسي بعده، في التأريخ لصلحاء الريف.

وهكذا، فقد كان من متصوّفة سجلماسة من وُلد فيها، ومن وفد إليها، ومنهم البدوي، لكن أغلبهم أهل حضر. وكان منهم الميسورون والفقراء، ومنهم من كان له حظ وافرٌ من العلم، إلى جانب الورع والزهد، ومنهم من كان معدودًا في الصلحاء، دون العلماء. وكانوا أفرادًا بلا أتباع، ما عدا بعض المُحبّين القلائل، لأن التنظيم الصوفي لم يكن قد ظهر بعد.

أما من حيث المرجعية، فيصعب الحكم على المنزع الصوفي لصلحاء سجلماسة، لأنهم لم يؤلفوا في علم التصوف، ولم يصرحوا بمذاهبهم الصوفية، لكن بعض كلامهم وسلوكهم يسمح بنسبتهم إلى أحد اتجاهات الصوفية التي كانت معروفة آنئذ، مثل الغزالية والملامتية وبعض الاتجاهات الصوفية الفلسفية، وهو حال متصوفة مغرب العصر الوسيط. وعلى قدر درجتهم في التصوف والعلم، كان إشعاعهم الروحي؛ فمنهم ذوو الإشعاع العام، ومنهم من كان إشعاعه محليًا فحسب.

في خصوص علاقتهم بالمجتمع، عمل صلحاء سجلماسة على تأطير الناس وتربيتهم سلوكيًا. وفي المقابل، تودّد الناس إلى الصلحاء وتبرّكوا بهم، وكان الشذوذ عن هذه القاعدة نادرًا. أما علاقتهم بالحكم، فطبعها التوتر والشد والجذب إبان حكم المرابطين، في حين تميزت علاقتهم بالمسالمة في ظل حكم الموحدين عمومًا. وهي ملاحظة يمكن تعميمها على علاقة الحكمين بالتصوف والمتصوفة في المغرب.

101 القبلي، **مراجعات حول المجتمع والثقافة**، ص 25-26؛ التميمي، ج 1، ص 236-237؛ المغراوي، "العلماء والصلحاء"، ص 391؛ بوطالب [وآخرون]، ص 169؛ محمد الشريف، "ما قبل هيكلة الزوايا بالمغرب: الطوائف الصوفية خلال مرحلة الانحلال الموحدي"، **المناهل**، العدد 80-81 (شباط/ فبراير2007)، ص 25؛ الغرميني، ص 293-294.

102 ابن الزيات، ص 417-418.

103 عبد الحق الطاهري، **نظام الحكم عند الموحدين: الوسائل والمؤسسات** (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2018)، ص 120.

104 **تاريخ المغرب: تحيين وتركيب**، تنسيق محمد القبلي (الرباط: منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، 2011)، ص 177.



جدول صلحاء سجلماسة

الرقم	الاسم	مكان الولادة	تاريخ الوفاة ومكانها	المصدر (رقم الترجمة والصفحة)
1	أبو الفضل يوسف بن النحوي	قلعة بني حماد	513هـ/ 1119، قلعة بني حماد.	(9)، ص 95-101.
2	أبو عمرو عثمان بن علي	تلمسان	542هـ/ 1147، سجلماسة.	(28)، ص 140.
3	أبو العباس أحمد بن محمد	سجلماسة	قديم الوفاة.	(29)، ص 140.
4	أبو الفضل بن أحمد بن محمد	سجلماسة	542هـ/ 1147، سجلماسة.	(39)، ص 153-154.
5	أبو عبد الله محمد الأصم	سجلماسة	542هـ/ 1147 سجلماسة.	(40)، ص 155.
6	أبو عبد الله الدقاق	سجلماسة	أواخر القرن السادس وبداية القرن السابع، فاس.	(41)، ص 156-157.
7	أبو يحيى أبو بكر التوجي	سجلماسة	صنهاجة	(58)، ص 182.
8	أبو يحيى أبو بكر الغازي	سجلماسة	580هـ/ 1184، مكة.	(97)، ص 244.
9	أبو إسحاق باران المسوفي	مراكش	570هـ/ 1174، سجلماسة.	(105)، ص 254.
10	أبو زكرياء يحيى الدكالي	دكالة	570هـ/ 1174، سجلماسة.	(121)، ص 275.
11	أبو محمد عبد الله الجزولي	سجلماسة	580هـ/ 1184، مكة.	(123)، ص 277-278.
12	أبو عبد الله محمد البردعي الأسود	سجلماسة	لا يعرف تاريخ وفاته ولا مكانها	(124)، ص 278.
13	أبو علي سالم السوسي	تارودانت	589-590هـ/ 1194، سجلماسة.	(128)، ص 283-285.
14	أبو يحيى أبو بكر بن جلداسن الصنهاجي	سجلماسة	590هـ/ 1193، مراكش.	(152)، ص 307-308.
15	أبو عبد الله محمد اليصلتي	سجلماسة	595هـ/ 1198، فاس.	(177)، ص 345.
16	أبو القاسم بن أبي الفضل	سجلماسة	601هـ/ 1204، سجلماسة.	(200)، ص 378-379.
17	أبو العباس التوزري	توزر	610هـ/ 1213، بلاد المشرق.	(235)، ص 412-413.
18	أبو محمد عبد الله ابن حموده	سجلماسة	612هـ/ 1215 سجلماسة.	(242)، ص 417-418.
19	أبو سعيد عثمان الوريوي	بادية سجلماسة	615هـ/ 1218 سجلماسة.	(269)، ص 440-441.

المصدر: من إعداد الباحث، استنادًا إلى: أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي بن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1984).



المراجع

العربية

ابن أبي زرع، علي. **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**. الرباط: دار المنصور، 1972.

ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي. **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**. تحقيق أحمد التوفيق. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1984.

ابن القطان، أبو محمد حسن بن علي. **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**. تحقيق محمود علي مكي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990.

ابن خلدون، عبد الرحمن. **تاريخ ابن خلدون: المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1992.

ابن عبد الحليم، صالح. **كتاب الأنساب: ضمن ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي**. دراسة وتحقيق محمد يعلى. مدريد: المجلس الأعلى للتعاون الدولي؛ الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، 1996.

ابن عبد الملك، أبو عبد الله محمد بن محمد. **الذيل والتكملة لكتابَي الموصول والصلة**. تحقيق محمد بن شريفة، السفر الثامن. الرباط: أكاديمية المملكة المغربية، 1984.

ابن عبدون، محمد بن أحمد التجيبي. **ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**. تحقيق ليفي بروفنسال. القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955.

ابن عذاري، أحمد بن محمد. **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: قسم الموحدين**. تحقيق محمد إبراهيم الكتاني [وآخرون]. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985.

________. **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**. حققه وضبط نصه وعلّق عليه بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد. تونس: دار الغرب الإسلامي، 2013.

ابن عربي، أبو بكر محيي الدين محمد بن علي. **الفتوحات المكية**. ضبطه وصححه ووضع فهارسه أحمد شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.].

الإيلاني، صالح بن عبد الحليم. **كتاب الأنساب: ضمن ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي**. دراسة وتحقيق محمد يعلى. مدريد: المجلس الأعلى للتعاون الدولي؛ الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، 1996.

________. **مفاخر البربر**. تحقيق عبد القادر بوباية. ط 2. الرباط: دار أبي رقراق، 2008.

البادسي، عبد الحق بن إسماعيل. **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**. تحقيق سعيد أعراب. ط 2. الرباط: المطبعة الملكية، 1993.

بن شريفة، محمد. **الأمير المرابطي ميمون بن ياسين حياته وحجه**. المحمدية: مطبعة فضالة، 2002.

بوتشيش، إبراهيم القادري. **المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع - الذهنيات - الأولياء**. بيروت: دار الطليعة، 1993.



بوطالب، إبراهيم [وآخرون]. **تاريخ المغرب**. تعريب محمد الغرايب [وآخرون]. الرباط: مطابع الرباط نت، 2018.

تاريخ المغرب: تحيين وتركيب. تنسيق محمد القبلي. الرباط: منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، 2011.

تاوشيخت، لحسن. **عمران سجلماسة: دراسة تاريخية وأثرية**. الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2008.

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى. **الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل**. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1975.

التميمي، أبو عبد الله محمد. **المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد**. تحقيق محمد الشريف. تطوان: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2002.

التوفيق، أحمد. **أبو العباس السبتي ومذهبه في التضامن والتوحيد**. الرباط: دار الأمان، 2020.

______. **جيران أبي العباس رواية تاريخية**. الرباط: دار الأمنية، 2020.

السلطة المركزية والزعامات المحلية بالجنوب المغربي: أعمال الأيام الوطنية الثانية عشرة، بمراكش، 1-2 أكتوبر 2004. تنسيق أحمد عمالك وعبد الرحمن المودن وعبد العزيز بالفايدة. الرباط: منشورات كلية الآداب، 2010.

الشريف، محمد. "ما قبل هيكلة الزوايا بالمغرب: الطوائف الصوفية خلال مرحلة الانحلال الموحدي". **المناهل**. العدد 80-81 (شباط/ فبراير2007).

الصدفي، طاهر. **السر المصون في ما أكرم به المخلصون**. تحقيق حليمة فرحات. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998.

الطاهري، عبد الحق. **نظام الحكم عند الموحدين: الوسائل والمؤسسات**. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2018.

عبد الرزاق، محمود إسماعيل. **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري**. ط 2. الدار البيضاء: دار الثقافة، 1985.

عزاوي، أحمد. **رسائل موحدية: مجموعة جديدة**، الرسالة رقم 60. القنيطرة: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، 1995.

عفيفي، أبو العلاء [وآخرون]. **الملامتية مشرقًا ومغربًا**. ط 2. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2020.

العلمي، عبد الجليل. **في أصول التصوف بالمغرب (القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)**. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية؛ دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2014.

علوي، حسن حافظي. **سجلماسة وإقليمها في القرن 8هـ/ 14م**. المحمدية: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1997.

الغرميني، عبد السلام. **المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري**. الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، 2000.

الفاسي، محمد. "الكنى عند المغاربة". **المجلة الإسلامية**. السنة الثامنة، العدد 16 (1985).

الفاسي، محمد العربي. **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن**. **الدار البيضاء:** دار النجاح الجديدة، 2003.



القبلي، محمد. **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**. الدار البيضاء: دار توبقال، 1987.

______. **جذور وامتدادات: الهوية واللغة والإصلاح بالمغرب الوسيط**. الدار البيضاء: دار توبقال، 2006.

القسنطيني، أبو العباس أحمد بن قنفذ. **أنس الفقير وعز الحقير**. تصحيح محمد الفاسي وأدولف فور. الرباط: المركز الجامعي للبحث العلمي، 1965.

لغزاوي، لمياء. "التصوّف بين البروسبوغرافيا وأدب المناقب". **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**. العدد 19 (2013).

المبكر، محمد. "البروسبوغرافيا في الدراسات التاريخية". **مجلة أمل**. مج 15، العدد 15 (1998).

المراكشي، محيي الدين عبد الواحد بن علي التميمي. **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين**. شرح صلاح الدين الهواري. صيدا: المكتبة العصرية، 2006.

المغراوي، محمد. "العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين" (مرقونة). أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. الرباط، 2001-2002.

المغراوي، محمد. **الموحدون وأزمات المجتمع**. الرباط: جذور، 2006.

[مؤلف مجهول]. **كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**. تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة. الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، 1979.

النخبة في تاريخ الغرب الإسلامي: ضوابط المفهوم وتجليات الأدوار. تنسيق محمد البركة. فاس: مطبعة أنفوبرانت، 2015.

النشار، علي سامي. **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: الزهد والتصوف في القرنين الأول والثاني الهجريين**. القاهرة: دار المعارف، 1980

الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى. **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل أفريقية والأندلس والمغرب**. خرّجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981.

الأجنبية

Abd El-Haqq El-Badisi, Abd El-Haqq. "El-Maqsad (vies des saints du rif)." G. S. Colin (trans. annotée). *Archives Marocaines*. vol. 26. Paris: Libraire ancienne honore champion, 1926.

Bel, Alfred. *La religion musulmane en Berbérie: Esquisse d'histoire et de sociologie religieuses*. vol. I: *Etablissement et développement de l'Islam en Berbérie, du VIIe au XXe siècle*. Paris: Librairie Orientaliste Paul Geuthner, 1938.

Michaux-Bellaire, Edouard. "Les confréries religieuses au Maroc." *Archives Marocaines*. vol. 27 (1927).

Picard, Emmanuelle. "Du dossier individuel à la prosopographie en histoire de l'éducation: Bilan et problèmes de méthode." *Revue Administrative*, numéro spécial (texte de la communication à la journée d'étude organisée par les archives nationales le 24 octobre 2006) (Février 2007).



Received التسلم
09-08-2022

Revised التعديل
10-12-2022

Accepted القبول
10-02-2023

DOI: https://doi.org/10.31430/XGRO7218 :الرقم التعريفي

حسن امحرزي | Hassane Mharzi*

العبيد في القصور المخزنية في تافيلالت خلال القرن التاسع عشر

قراءة في الأرشيف السلطاني والمتن الرحلي الأجنبي

Slaves at Royal Palaces in Morocco's Tafilalt-Sijilmassa in the 19th Century

A Reading from the Sultan's Archives and Foreign Travellers' Accounts

تحاول هذه الدراسة معالجة موضوع العبيد في القصور المخزنية، في تافيلالت/ سجلماسة، اعتمادًا على الرسائل السلطانية وبعض المصادر المعاصرة، وما سجّلته المتون الرّحلية الأجنبية - التي زار أصحابها المنطقة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين - من تفاصيل دقيقة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ولا مناص من الاعتراف بالعجز عن سبر أغوار موضوع العبيد؛ بسبب التهميش المصدري الذي لحق وضعيتهم داخل القصور المخزنية، وطبيعة النظرة الدونية تجاههم، إلا بعض الإشارات التي قد ترد في أثناء عرض بعض الوقائع العسكرية، أو التراجم السلطانية، أو مما يستنبطه الباحث من سياقات بعض الرسائل المخزنية، عبر مقارنتها بمضمون فتوى فقهية، أو أمثال شعبية، أو رواية شفهية. ومما يزيد الموضوع غموضًا سعي السلطة السياسية لحجبه عن الناس، واعتبار شؤون هذه الفئة ونشاطاتها من خصوصيات البلاط.

كلمات مفتاحية: العبودية، القصور المخزنية، تافيلالت، سجلماسة.

This research paper examines social, economic and political details of the lives of slaves at Moroccan palaces in the Tafilalet-Sijilmassa region, relying on the Sultan's correspondence and other contemporary sources, as well as accounts by foreign travellers who visited the region during the 19th and 20th centuries. Any study of this subject will inevitably come up against the paucity of source materials on the situation of palace slaves. However, a scattering of references may be found in narratives of certain military events and in chronicles and biographies of the Sultans. The researcher may also extract rare snippets of information from royal correspondence on certain administrative matters. This data may be read in parallel with religious rulings, popular proverbs and oral histories found in other contexts, giving them added meaning and relevance. Yet the subject also remains opaque due to the authorities' perceptions of slaves' inferiority and efforts to conceal their affairs from the public eye, considering them a private matter of the palace.

Keywords: Slavery, the Makhzen palaces, Tafilalet, Sijilmassa.

* أستاذ التاريخ والحضارة، كلية الآداب جامعة شعيب الدكالي، الجديدة، المغرب.
Professor of History and civilization at The university of Chouibe Dekali Eljadida, Morocco.
hassane79@gmail.com



مقدمة

احتضنت أسواق تافيلالت تجارة الرقيق منذ كانت سجلماسة (140هـ/ 757م) الحاضرة مركزًا رئيسًا في طريق التجارة الدولية، وقد استمر هذا النشاط بعد أفول المدينة، وانتقال إرثها الحضاري إلى القصور[1] الفيلالية المجاورة، منذ مرحلة التراجع المريني وبداية العهد السعدي، حتى فترة القرن التاسع عشر التي تزامنت مع العهد العلوي. وعلى طول هذا الزمن، سجّل الرقيق حضورهم داخل بيوتات العائلات الميسورة وقصور الشرفاء العامرة، وفي مؤسسات الزوايا، بأعداد عالية، لكن، كان لوجودهم داخل أروقة القصور المخزنية ميزة خاصة؛ كونهم يحظون بعناية الحضرة السلطانية.

لقد ظلت القصور المخزنية السلطانية[2] عالمًا مجهولًا في ذهنية الرعية التي كانت تتصوّرها عبارة عن فضاءات عامرة بالعبيد والجواري، المُحاطين بالكثير من الخبايا والأسرار، المحجوبة وراء مجموعة من الطقوس والصور والهالات، ناسجة بسلاسة خيوط تلك الروابط المعنوية، الضامنة لسلطة الحاكم أو الوالي في قلوب الرعية[3]. لذا حامت حولها أساطير وحكايات، همّت قاطني دار المخزن، خاصة الحرّاس منهم والخادمات، وساهمت كثيرًا في إسباغ قدرٍ من الهيبة والوقار على هذه البنايات، وعلى كل العاملين والعاملات فيها.

بناء عليه، فإن موضوع الرق والرقيق داخل أسوار القصور المخزنية يمكنه أن يضعنا أمام تصور واضح لفهم مجموعة من التساؤلات التي تفرض نفسها حاليًا على هذا المجتمع الواحي، أو على غيره. إذًا، كيف كانت وضعية الرقيق في تافيلالت خلال القرن التاسع عشر، خاصة داخل القصور المخزنية؟ وما المهمات التي اضطلعوا بها داخل أسوار هذه البنايات السلطانية؟ ثم كيف كان واقعهم الاجتماعي في داخلها؟ وما طبيعة ردات الفعل التي عبّروا بها عن واقعهم؟

أولًا: وضعية الرقيق في تافيلالت خلال القرن التاسع عشر

وصل العبيد إلى منطقة تافيلالت بعد ترحيلهم قسرًا من بلاد السودان الغربي، فشكّلوا قاعدة هرمها الاجتماعي، وغالبًا ما كان وجودهم في القصور المخزنية خَدَمًا، أو في بيوتات بعض الأسر الشريفة، أو داخل بعض الزوايا. لكنهم مع ذلك كانوا أكثر الفئات ولاءً للمخزن؛ فقد كان بعضهم يعيش داخل القصور المخزنية، ويقوم بمهمات الحراسة والسُخرة والطهي والنظافة وخدمة الأمراء

1 لفظة "القصر" في تافيلالت، تقابلها لفظة "الدوار" و"الدشر" و"إغرم" و"تغرمت" في باقي مناطق المغرب الأقصى، وتستعمل للدلالة على السكن القروي في واحات أودية زيز وغريس ودرعة. وتستعمل ألفاظ أخرى مرادفات لها من قبيل: "القصبة" وكذلك "القصيبة"، و"الگصيرة"، وهي تصغير للقصبة والقصر. وقد اشتق اسم القصر من معنى الحصانة والمناعة، ويقصد به كل بناء مشيّد ومسوّر وعالٍ ومشرف، فمنه المخصص للسكن، ومنه الخاص بخزن المدّخرات، تستقر فيه مجموعات بشرية مختلفة الأصول والأعراق، وغالبًا ما يُضاف القصر إلى اسم علم من المشاهير (أمير، ولي، سلطان، وصيف)، أو اسم جماعة من الناس، أو صفة تميز موقعه. ينظر: حسن حافظي علوي، **سجلماسة وإقليمها في القرن 8هـ/ 14م** (المحمدية: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1997)، ص 114؛ أمبارك بوعصب، **القصور والقصبات بمنطقة تافيلالت دراسة عمرانية ومعمارية** (فاس: منشورات المركز المغربي للدراسات التاريخية في فنون المصاحف وتقاليد المراسلات السلطانية، 2017)، ص27-31.

2 القصور والقصبات السلطانية (المخزنية): هي منشآت رسمية تابعة للسلطة المركزية، شيّدها السلاطين العلويون، أو أبناؤهم أو ممثلوهم، باستثناء قصر أولاد عبد الحليم الذي يعود إلى العهد المريني، فسكنوها ومارسوا فيها مهماتهم السياسية والإدارية، أو اتخذوها مقارّ للأشراف العلويين، خاصة خلفاء السلطة المركزية على منطقة تافيلالت. تتميز هذه القصور بتخطيطها المعماري شبه الموحَّد، فإلى جانب دار المخزن، توجد مرابض الخيول والمنتزهات والدور السكنية المخصصة للعائلات الشريفة والخدم؛ وهذا ما يوحي به شكل بنائها المتميز بمناعته، وعلوّ أسواره وضخامة أبوابه، وكثرة حرّاسه وساحة مسوّره، ومقر سكنى السلطان أو من يمثله (الدار الكبيرة)، كما تُلحق بها الرّياض والجنائن والمخازن والحصون وقاعة الاستقبال والمحج في معظم الأحيان، وكلها رموز دالّة على الحضور المادي والمؤسسي للدولة، ودورها في ضبط الدينامية الاجتماعية لمختلف المجموعات القبلية داخل المنطقة. أما من ناحية موقعها، فأغلبها بمشيخة واد يفلي، نظرًا إلى أهمية هذا المجال من الناحية الاقتصادية والاجتماعية، ومن أشهرها قصور الفيضة وأبّار المخزن وأولاد عبد الحليم. ينظر: بوعصب، ص 310-324؛ حافظي علوي، ص 122.

3 عز الدين جسوس، **السلطة المرابطية: الرمزي والمتخيل** (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2019)، ص 45.



والأميرات، بل إن الأسر الحاكمة ابتنت لهم قصورًا وقصبات إلى جانب قصورها، حملت أسماء بعض هؤلاء العبيد، كقصرَي أخنوس وصوصو اللذين يحملان اسمَي عبدَين كانا تحت إمرة المولى علي الشريف[4].

في الوقت ذاته، شكّلت هذه الفئة سلعة رائجة، يتداولها تجار القوافل في تافيلالت، خاصة في سوق أبو عام المشهورة[5]. وهذا ما أثبتته الكتابات الأجنبية التي عبرت طريق الصحراء صوب بلاد السودان، مرورًا بهذا القصر[6] خلال القرن التاسع عشر، بشهادة ريني كابيه René Caillé الذي زاره في عام 1830، وعاين النشاط الكبير الذي كانت تعرفه تجارة العبيد في سوقه. ثم جاء بعده والتر هاريس Harris Walter الذي أقام فيه مدة كذلك[7]، إضافة إلى الرحّالة الألماني غيرهارد غولفس الذي زاره مرتين، في عامي 1861 و1864، وأشار إلى أن القوافل المكوّنة من تجّار فاس وتافيلالت كانت تحط الرِحال في قصر أبو عام، قبل مواصلة الرحلة نحو شمال المغرب[8].

واستوطنت هذه الفئة أيضًا بعض القصبات والقصور الفيلالية، وشكّلت عنصرًا مهمًا من عناصرها البشرية، إلى حد تباينت فيه أعدادها من قصر إلى آخر، سواء في قصور أبناء السلاطين[9]، أم في القصور المخزنية[10]، أم لدى بعض العائلات الميسورة التي كانت في حاجة إلى سواعد العبيد للاستعانة بهم في النشاطات الفلاحية، أو الأشغال المنزلية. والظاهر، بحسب ما تتضمنه المراسلات السلطانية، أنه كانت تُبنى لهم أماكن خاصة للسكن في أطراف القصور المخزنية، أو في بعض الأروية[11]، أو في القصبات المجاورة[12].

يتكلّف السلطان بمؤونة هؤلاء العبيد والإماء الذين يقدّمون الخدمة لساكنة دار المخزن، يقول الوصيف مسعود الشباني في رسالة موجّهة إلى خليفة السلطان في تافيلالت سيدي محمد: "فلينهي لكريم علم سيدنا أنّا قد وجّهنا لحضرة سيدنا صحبة كتابنا هذا زمام ما صُيّر على دار سيدنا الغالية بالله وعلى مونة وصفان سيدنا في شهر رجب وفي شعبان وفي رمضان"[13]. وقد أشار الضّعيف الرباطي إلى أن عددهم في قصبة السيفة[14]، مثلًا، وصل إلى خمسة آلاف، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر[15]. ولعل المقصود هم عبيد البخاري الذين جنّدهم السلطان المولى إسماعيل (1672-1727)، وجرى توطينهم في هذه القصبة في عهد خلفه السلطان محمد بن عبد الله (1757-1790)، تحت إمرة قائده سعيد بن العياشي.

4 أحمد عبد اللّوي علوي، **مدغرة وادي زيز: إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث** (الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1996)، ص 169؛ بوعصب، ص 65.

5 نقلًا عن: حافظي علوي، ص 129.

6 أبو عام: هو أحد قصور تافيلالت الصغرى، الريصاني حاليًا. ينظر: حسن امحرزي، "خزانات التراث المخطوط والوثائق بواحة تافيلالت الكبرى بين الاستثمار ورد الاعتبار"، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 2017-2018، ص 46. (غير منشورة)

7 F. Gendre, "Le Tafilalet," *Revue de Géographie du Maroc*, 3-4ème (Trimestre) (Mai-Aout 1942), pp. 53-54.

8 Gerhard Rohlfs, *Voyages exploration au sahara*, vol. 1, Jacques Debetz (trad) (Paris: Ed Karthala, 2001), pp.165-168.

9 قصر قصبة مولاي أحمد الذهبي، قصبة مولاي مستعين، قصابي مولاي الشريف ... إلخ. ينظر: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري الدرعي الجعفري السلاوي [الناصري لاحقًا]، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج 7 (البيضاء: دار الكتاب، 1955)، ص 102.

10 نموذج قصر أبّار المخزن، وقصر أولاد عبد الحليم وقصر الفيضة.

11 نموذج أروية قصر كحايك لسكن الوصفان. ينظر: المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 18606، رسالة جوابية من السلطان المولى عبد الرحمن إلى ابنه سيدي محمد بتاريخ 2 رجب 1262هـ [1846/6/25]، في شأن بناء قصر كحايك وتجديد سوره وشراء دور للخدم.

12 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 21356.

13 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 21405.

14 قصبة السيفة: أحد قصور تافيلالت الصغرى، وينتمي إلى جماعة السيفة التابعة حاليًا لمدينة أرفود، بحسب التقسيم الجماعي الجديد. ينظر: امحرزي، ص 46.

15 محمد بن عبد السلام بن أحمد الضعيف، **تاريخ الدولة السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان (1043 هـ/ 1633م ـ 1238هـ/ 1822م)**، تحقيق أحمد العماري (الرباط: دار المأثورات، 1986)، ص 184.



وقد أثارت هذه القضية نقاشًا خلال الفترة الإسماعيلية بين مؤيّدٍ لعملية تجنيد العبيد، معتبرًا إيّاها أكبر خطوة تحررية في حياة الرقيق في المغرب[16]؛ ومعارضٍ لها، خاصة في مرحلة الجمع الثانية التي وصلت إلى تجنيد العبيد الأحرار وتمليك حراطين فاس، بعدما كانت مقتصرة في مرحلتها الأولى على عبيد الزنقة. وقد أدى هذا العمل إلى استياء العلماء، ومهّد لصدام حاد بينهم وبين السلطان في مسألة الجبر على الجندية[17].

ومن أبرز من عارض هذا التوجّه السلطاني علماء فاس الذين فرّ بعضهم، واعتزل الخلق آخرون منهم، أمثال: سعيد الحميري المكناسي ومحمد بن عبد القادر والعالم بردلّه الفاسيين، والفقيه عبد السلام جسوس الذي قُتل في هذه القضية، وكان أهل فاس قد انضموا إليه وناصروه لأنه اعتبر عملية جمع حراطين المدينة منافية للشرع[18].

وظلت فئة العبيد تحتل المكانة الدنيا في المجتمع الواحي في تافيلالت، بما في ذلك أمهات أولاد الأمراء من الإماء، اللواتي كنّ يتعرضن لسوء المعاملة من الزوجات الحرائر. ومهما علت مكانتهن، فإن هذه النظرة انعكست على أبنائهن، فولّدت منافسة بينهم وبين إخوتهم؛ فقد كان أبناء الإماء يتعرّضون للسخرية، خاصة أبناء السَوْداوات الذين ورثوا سواد البشرة (ولد العبدة) من أمهاتهم. وهذا ما صرّح به الرّحالة غولفس، حينما أتيحت له فرصة الدخول إلى قصر أبّار لمعالجة إحدى الأميرات، فأثارته السمرة التي تميز بشرتها كونها وُلدت من أمة سوداء[19].

لقد خضعت فئة الرقيق في تافيلالت للمعاملات التجارية من بيع وشراء، شأنها في ذلك شأن بقية السلع الوافدة، وهو ما أشارت إليه العديد من الوثائق المحلّية التي أفصحت عن عمليات عتقهم، وخوّلتهم إمكانية الحصول على بعض الممتلكات؛ لضمان معاشهم وتجنّب استعبادهم[20]، واستمرت هذه الوضعية حتى عهد السلطان عبد الرحمن بن هشام (1822-1859)، ثم إلى حدود فترة الحماية الفرنسية[21].

وفي خصوص مصادر الرق الوافد إلى مجالات تافيلالت، فإنه يمكن حصرها في:

1. المصادر الاجتماعية

أدى الواقع الاجتماعي المتمثل في كثرة الصراعات والحروب والغزوات المسلحة، التي دارت رحاها بين قبائل منطقة بلاد السودان الغربي، والتي تُعدّ المصدر الأول لتزويد سوق تافيلالت بالعبيد، إلى تنامي ظاهرة الاسترقاق الناتج من استقواء المتغلّب على المنهزم المستضعف، هذا الوضع الاجتماعي جعل تجارة الرق تُرخي بسدولها على الفئات الفقيرة والمتوسطة، وبعض الفئات القيادية في هذه المجتمعات الزراعية، وقد يسقط الفرد فريسة عالم الرق كذلك بسبب الكوارث الطبيعية، مثل الجفاف وانتشار المسغبة، أو بسبب الأمراض المستعصية، إضافة إلى عامل زواج الأرقّاء، وما ينتج منه من تسخير لأبنائهم في الزراعة أو الرعي أو الأعمال التي

16 يوسف الكتاني، "المولى إسماعيل رائد تحرير الإنسان من خلال تأسيس جيش عبيد البخاري"، في: **أعمال الدورة الأولى لجامعة مولاي علي الشريف الخريفية** (المملكة المغربية: وزارة الثقافة، 1990)، ص 169.

17 عبد العزيز بوعصاب، "قضية جيش البخاري وأثرها على العلاقة بين المولى إسماعيل وعلماء عصره"، في: **أعمال الدورة العاشرة لجامعة مولاي علي الشريف الخريفية** (المملكة المغربية: وزارة الثقافة، 2003)، ص 119.

18 المرجع نفسه.

19 Rohlfs, p. 175.

20 أمحمد أحدى، **دراسات في تاريخ المغرب العميق** (أكادير: Bj Print، 2012)، ص 31.

21 عبد اللوي علوي، ص 168.



يأنف من مزاولتها الأشراف وعليّة القوم[22]، وكلها مصادر رئيسة وثانوية ساعدت في تكاثر هذا الحشد الكبير من الرقيق في تافيلالت وغيرها[23].

2. المصادر الاقتصادية

شكلت القرصنة واللصوصية وهجمات قطّاع المسالك الطرقية، إضافة إلى أسرى الحروب، أحد أهم مصادر تجارة الرقيق وتموين أسواق النخاسة، فنشطت بذلك حركة بيعهم وشرائهم، سواء داخل أسواق تافيلالت أم خارجها، كما هي الحال في سوق أبو عام. ولعل تنامي هذا النشاط في المنطقة، راجع إلى طبيعتها القاحلة وقلة مصادر المياه فيها، ما جعل جزءًا من ساكنة الواحة ينصرف عن الأرض صوب التجارة[24].

أما ظاهرة خطف الأطفال وبيعهم عبيدًا، باعتماد بعض الخدع، فكانت من مصادر الرق الشائعة في مغرب القرن التاسع عشر، حيث لم تُستثن من ذلك منطقة تافيلالت وغيرها، وهذا ما يرويه صاحب **الاستقصا**، أبو العباس أحمد الناصري، قائلًا: "بل صار الفسقة اليوم وأهل الجراءة على الله، يختطفون أولاد الأحرار من قبائل المغرب وقُراه وأمصاره، ويبيعونهم في الأسواق جهارًا من غير نكير ولا امتعاض للدين"[25]، ومنهم من كان يخطف أبناء الزنوج، أو بنات ونساء وصبيان الأحرار، خداعًا بالتمر أو الزواج، وفي حالات أخرى باستعمال العنف، ما كان يضمن المادة الأوّلية لهذه التجارة باستمرار[26].

إجمالًا، بقيت أسواق تجارة الرقيق قائمة إلى عهد متأخر في بلاد المغرب، بما في ذلك منطقة تافيلالت، على الرغم من توالي الدعوات والمؤتمرات الدولية التي تدعو إلى إلغاء الرق ووقف تجارته، فقبل القرن الثامن عشر، كان نظام الرق مقنّنًا، لذلك اشتهرت أسواق تافيلالت بتوثيق عقود بيع العبيد عدليًا، كما كان معمولًا به في سائر الأسواق، حتى إنها أصبحت واقعًا قانونيًا مفروضًا على الأسير والمختطف في ما بعد، عبر كتاب يُسلّمه البائع للمشتري، ويبقى مرافقًا له في حركة تنقله كلها[27]. وفي مطلع القرن التاسع عشر، قامت حملات دولية تُندّد بطبيعة هذا النظام، وعُقدت مجموعة من الاتفاقيات الدولية التي تنحو صوب إلغائه ومكافحة تجارته، كانت آخرها اتفاقية بروكسل في عام 1890 التي أقرّت بنودها منع اصطياد العبيد وخصاء الغلمان والرجال، وقد مُنحت الدول، بموجب هذه الاتفاقيات، حق مراقبة السفن المشتبه بها وتفتيشها، وتوقيف ربّانها والبحارة المرافقين فيها، وصولًا إلى محاكمتهم وتحرير من فيها من العبيد[28].

إن التلميحات والإشارات المتناثرة هنا وهناك، بين ثنايا النصوص المصدرية الرحلية والنوازلية، أو ضمن محفوظات الأرشيفات الوثائقية، لا تسعف الباحثين في تكوين صورة واضحة عن وضعية الرقيق وحياتهم الخاصة ونشاطاتهم، إضافة

22 محمد الناجي، "حول الرقيق في المغرب ... ما قبل الاستعمار"، **مجلة أبحاث**، مج 1، العدد 1 (1983)، ص 62؛ عايدة العزب موسى، **تجارة العبيد في أفريقيا** (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2007)، ص 112.

23 Rohlfs, p. 175.

24 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 18333؛ موسى، ص 113.

25 الناصري، ج 5، ص 133.

26 ابن زيدان عبد الرحمن بن محمد السجلماسي، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، تحقيق علي عمر، ج 2 (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2008)، ص 270–271؛ محمد بن الطيب القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني عشر**، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، ج 1 (الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1977)، ص 363؛ الناجي، ص62–63؛ المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، **الوثائق: مجموعة وثائق دورية**، مج 11 (2006)، ص 177.

27 رحال بوبريك، "سوق العبيد: تجارة الرق في مغرب القرن التاسع عشر"، **أسطور**، مج 7، العدد 14 (تموز/ يوليو 2021)، ص 38.

28 عبد السلام الترمانيني، **الرق: ماضيه وحاضره**، سلسلة عالم المعرفة 23 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1979)، ص 173.



إلى المناطق التي جُلبوا منها إلى منطقة تافيلالت، كما تزداد الصورة عتامةً عندما نتحدث عن الحالة الاقتصادية التي كانوا يعيشونها، ابتداء من عملهم في الأرض وما يرتبط بها، أو من امتهانهم حِرفًا وصنائع وأعمالًا شاقة، تتطلب جهدًا بدنيًا مُضنيًا، حمل بصمتهم في تاريخ المنطقة، فقد كانت غالبية الرقيق المستجلبين خدّامة في البيوتات، ولم تكن يدًا عاملة فاعلة في النشاط الزراعي والأعمال الحرفية في المغرب، عدا في المجالات الواحية، مثل تافيلالت وغيرها، حيث نجدهم في خدمة الأراضي الفلاحية لدى أمراء القصور المخزنية، أو عند القوّاد ومشايخ الزوايا[29]، أو في الأسواق، يمارسون النشاط التجاري الذي سُمح لهم بامتهانه.

ثانيًا: الرقيق في القصور المخزنية السجلماسية في القرن التاسع عشر: أنموذج قصر أبّار المخزن

يُعدّ قصر أبّار من القصور المخزنية السلطانية في منطقة تافيلالت، جرى تشييده في عهد السلطان عبد الرحمن بن هشام (1822–1859) الذي يُنسَب إليه قصر مولاي عبد الرحمن. يقول ابن زيدان في هذا الصدد: "وقصر أبّار الحفيل المتّسع الأكتاف، يشمل على دور أنيقة، وكان تأسيسه له أيام سلطنته لأولاده [مولاي عبد الله، ولالة رقية بنت مولاي سليمان والمولى الحسين]، وجعل به مسجدًا جامعًا تُقام فيه الجمعة"[30].

بُني هذا القصر في عام 1248هـ/ 1833م، وهذا ما توضحه إحدى الوثائق الملكية المؤرخة في 16 ذي الحجة عام 1248هـ/ 5 ماي [أيار/ مايو] 1833م، وهي رسالة من السلطان عبد الرحمن بن هشام إلى الفقيه مولاي عبد الهادي في شأن بناء قصر أبّار[31]، وأخرى مؤرخة في 19 شوال 1262هـ/ 9 [تشرين الأول/] أكتوبر 1846م، تتعلق بالتوسعة العمرانية التي عرفها القصر في عهد ابنه محمد بن عبد الرحمن، بطلب من السلطان[32]. وهذا ما تشهد له تلك الكتابات المنقوشة على أبواب الدار الكبيرة في القصر، التي تُعدّ وثيقة شاهدة على هذه التوسعة؛ منها هذا البيت الشعري:

"يا داخل المنزل أبشر بهناك أبشر بما تريد الله أعطاك

شوال عام 1262"[33].

يحُدّ هذا البناء المخزني شمالًا قصر حمو داوود، وجنوبًا قصر منوگة، وشرقًا قصبة تغمرت المندرسة، وغربًا قصبة مولاي سليمان بن محمد بن عبد الرحمن. وتورد بعض الوثائق الأخرى إشارات تدل على أن القصر شُيّد لأجل استقرار بعض أفراد العائلة السلطانية، رفقة حشمها وخدمها وحرّاسها، وقد كان بمنزلة مقر للخزينة المحلية ولتجميع المؤن وحفظها[34]. وعن مميزاته المعمارية، فإن مظاهر هندسته تخالف طراز بقية القصور الأخرى، بحكم طابعه المخزني، حيث نجد ساحة المشور: وهي الباحة الواقعة أمام المدخل الرئيس

29 بوبريك، ص 27؛
Robert Montagne, *Les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc* (Paris: Librairie Félix Alcan, 1930), p. 360.

30 ابن زيدان، ج 5، ص 288.

31 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، الوثيقة رقم 19612.

32 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، الوثيقة رقم 19059.

33 المعاينة الميدانية المباشرة.

34 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، الوثائق: أرقام: 18989، 20066، 17961، وغيرها؛ لحسن تاوشيخت، **عمران سجلماسة: دراسة تاريخية وأثرية**، ج 2 (المملكة المغربية: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2008)، ص 535.



للقصر، الذي يحدّه برجان كبيران من الجهتين اليمنى واليسرى، وتعلو واجهته زخارف من الجبس والقرميد والخشب، ويحيط بهذه الباحة سور؛ لكن لم يعد له أثر، ثم هناك السور الخارجي الذي يُحيط بالقصر، ويصل علوّه إلى تسعة أمتار، تتخلّله مجموعة من الأبراج المربعة، إضافة إلى المسجد الواقع جهة اليمين، والذي يتكوّن من صحن مكشوف. من دون أن ننسى العرصة أو البستان السلطاني الذي يتميّز بعلّو سوره وتنوّع مغروساته[35].

1. أصناف الرقيق بالقصور المخزنية وأصولهم

اتخذ أمراء القصور المخزنية في تافيلالت الرقيق زينة لمجالسهم؛ ما جعل قصورهم تعجّ بأصناف مختلفة من الرقيق، منهم:

أ. الخصيان والغلمان

حفلت دار المخزن في تافيلالت بهذه الفئة، وهم رقيق يعيشون في جوار الحريم ويختلطون بهن، وظيفتهم الأساس الحراسة وتقديم الخدمات، كما اتّخذهم الأمراء حلقة اتصال بينهم وبين أهليهم، باعتبارهم خدّامًا مطيعين، كانوا يأتمنونهم على نسائهم، لأنهم من غير ذوي الإربة بالنساء، وفي حالات أخرى، يستخدمونهم في قضاء حاجاتهم المالية، ويتّخذونهم أمناء على خزائن قصورهم المخزنية، مع تكليفهم بالإنفاق على غيرهم من العبيد، وتأديب من يستحق العقاب[36].

ومما يُروى عن هؤلاء المستضعفين من الخصيان، مرورهم بأسوأ مراحل التعذيب، قبل قيامهم بخدمة حريم سلاطين مراكش أو غيره. ولا يقتني المشترون العبيد الخصيان[37] إلّا لطلب خاص ببعض السلاطين أو ببعض الأمراء الأفارقة، ومن أشهر مصادر تزويد الأسواق بالخصيان إبان عهد السلطان المولى إسماعيل، مملكة بامباره[38]. أما الرقيق الغلمان، فكانوا يعبثون بهم، ويتّخذونهم زينة لمجالسهم ومثاله: عبد الدار الجوبر الصغير الوافد مع العريفة أم السعد من مكناس إلى قصر أبّار في تافيلالت، بتاريخ 3 جمادى الأولى 1262هـ/ 28 [نيسان] أبريل 1846م، الذي أوصى السلطان عبد الرحمن بن هشام الحاج عبد الله بالانتباه إليه كونه لا يحسن التصرف لصغره. ومما جاء في الرسالة السلطانية: "فبوصول كتابنا هذا إليك، عجّل بتوجيهها [العريفة أم السعد]، ويتوجه صحبتها ولدنا مولاي امحمد وفقّه الله راكبًا على بغلة سريحة [...] وتتوجه صحبته أمته وأمها ووصفانه، ووجه صحبته عبد الدار الجوبر الصغير، ومن يناسب لمرافقتهم والأخذ بيدهم في الطريق من المخازنية، واكتب للحاج عبد الله ولصحبه وأوصهما بالحزم والضبط وأن يكونا عينًا وأذنًا على عبد الدار المذكور، فإنه لا يُحسن التصرف"[39].

ب. الجواري والعريفات

يشتغلن داخل القصور المخزنية، في جناح الحريم السلطاني الذي يتّسم بخصوصيات عن غيره، فمنهن الطباخات والمرافقات والماشطات والمكلّفات بالنظافة، ومنهن المتّخذات للتسرّي[40].

---

35 المرجع نفسه، ص 541.

36 غيرهارد غولفس، **إقامتي الأولى في المغرب: السفر جنوب الأطلس 1861م**، ترجمة إدريس الجاي (الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، 2018)، ص 139؛ المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 23508.

37 مارس اليهود تجارة النخاسة، وكانوا بارعين في عملية خصاء الرقيق. عبد الإله بنمليح، **الرق في بلاد المغرب والأندلس** (بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، 2004)، ص 418؛ الترمانيني، ص 93.

38 بوبريك، ص 28.

39 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 22220.

40 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 23508.



ج. العبيد الخدم

وهم المكلفون بالخدمة داخل البلاط وبمهمة الحراسة، من قبيل: العناية بالدواب والمواشي ورعايتها والسهر على أعلافها وجمع الحطب وفتح البوابات وسقاية الماء وتجهيز الطعام وقضاء حاجات أهل الدار واستقبال الزوّار، وغيرها. واللافت هنا تعدد الألقاب التي تُطلق عليهم وتنوّعها، فيقال: عبد، مملوك، خادم، وصيف، أَمة، جارية، وغيرها؛ تبعًا لاختلاف السجلات والنصوص المرجعية[41].

أما في خصوص أصل عبيد دار المخزن في قصر أبّار وغيره، فإن أصول غالبيتهم تعود إلى العبيد الذين جلبهم السلطان أحمد المنصور السعدي (986–1012هـ/ 1578–1603م) من أرض السودان، وقام السلطان المولى إسماعيل بتجنيدهم تحت اسم عبيد البخاري، وهم الذين شكلوا جيشًا خاصًا مُكلّفًا بحراسة القصور والقصبات السلطانية، وبقي معظمهم يتوارثون هذه الخدمة. ولمّا كان الجيش وتنظيمه وتجهيزه من أولويات السلطان المولى إسماعيل، فقد بلغ تعدادهم حوالى 150 ألف نفر، تكاثروا نتيجة تزاوجهم وإنجابهم. وكان السلطان يأخذ بناتهم من سن العاشرة وأكثر، ليوزّعهن على عريفات القصر حتى يؤدّبنهن بآدابها ويُمرّنهنّ على أصول الخدمة وقواعدها وعاداتها. أما الذكور منهم، فيجري توزيعهم على أهل الحِرَف للتعلّم والمران والتمرّس فيها، يقول الناصري: "فُرّق البنات على عريفات داره، كل طائفة في قصر للتربية والتأديب، وفرّق الأولاد على البنّائين والنجارين وسائر أهل الحِرف للعمل والخدمة وسوق الحمير والتدرب على ركوبها"[42]. كما استمر حضورهم في عهد السلطان المولى عبد الرحمن، وهذا ما تُبرزه الرسالة السلطانية التي بعثها إلى واليه على تافيلالت، سيدي محمد، بتاريخ 21 ربيع الأول عام 1263هـ/ 8 [آذار/] مارس 1847م، في شأن: تنظيم الجيش من البطاطحة والفاسيين والبواخر من أهل تافيلالت، كما ذكر الوصيف الحسن بن صالح البوعصامي[43]. وإلى يومنا هذا، لا يزال بعض العائلات ذات الأصول الاجتماعية السودانية يستوطن هذا القصر المخزني، وتتشبث بأصولها الأفريقية العميقة[44].

2. مهمات عبيد القصر وأدوارهم

بعد أن يُباع الرقيق في أسواق تافيلالت/ سجلماسة، يلتحقون بأسيادهم الجدد للعمل لديهم، ويرتبط عملهم هذا بالظروف الاجتماعية والاقتصادية التي وُجدوا فيها، وكذلك تبعًا لاختلاف مصادر جلبهم وأجناسهم وأنواعهم. أما المحظوظون منهم، فيصبحون عمّال رفاهية في قصور الأسرة الحاكمة التي ضمّت أصنافًا كثيرة منهم: الطبّاخون الذين يُقدّمون أشهى أنواع الطعام، ومنهم الحرّاس والأمناء على أسرار الأمراء وأعمالهم. أما النساء، فيُتّخذن للخدمة، متحملات أعباء شؤون دار المخزن، فيُقمن بغسل الثياب والغزل والنسيج، كما يُعهد إليهنّ برعاية الأولاد وخدمة الدواب والقيام بشؤونها، والحسان منهنّ كن يُتّخذن للتسرّي والمخادنة[45].

يمكن توضيح الأدوار التي قام بها عبيد دار المخزن عبر الأدوار التالية:

أ. الدور السياسي

يمكن رصده من خلال الأدوار التي اضطلع بها الرقيق في القصور المخزنية خلال القرن التاسع عشر، عبر توزيعهم من السلطة الحاكمة في مؤسسات الدولة، ابتداء من الخدمة في القصر إلى شغل مناصب إدارية رفيعة قد يحتكرونها. وهذا ما يبرز عدم اشتراط

---

41 فوزي بوخريص، "قراءة في الترجمة العربية لكتاب محمد الناجي 'جند وخدم وسراري: الرق في المغرب'"، **أسطور**، مج 4، العدد 8 (تموز/ يوليو 2018)، ص 132.

42 الناصري، ج 7، ص 71.

43 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 19033.

44 عبد المجيد بن أحمد، مقابلة شخصية، قصر أبّار المخزن، 2016/7/22.

45 الترمانيني، ص 49-50.



الحرية في تقلد المناصب داخل الإدارة العلوية، مما يفيد بإطلاق يد الأمراء والخلفاء في اختيار من يناسبهم في تسيير إدارة الدولة، وهو تقليد ليس وليد اللحظة، بل كان معروفًا في العهود السابقة[46].

وإذا كان العبيد جزءًا لا يتجزأ من المجتمع المغربي منذ ما قبل الحقبة الحديثة، فقد استطاعوا تحقيق الاندماج داخل مكوّنات المجتمع المغربي، خاصة داخل القصور المخزنية المتميزة في خصوصياتها. لذلك أسهموا في تدبير شؤونها الإدارية، بل وبقية دُور السلطان الأخرى، وقد نفذ النابهون منهم وأصحاب المواهب إلى قصور الخلفاء والسلاطين، فتدرّجوا في سلّم الإدارة المخزنية خدّامًا للسلطان؛ فكان منهم الوصفان والأمناء والباشوات، ومنهم من تولّى أعمال الإدارة وارتقى إلى القيادة[47].

وما دام الرقيق يشكلون رأس مال لأسيادهم، يباعون ويشترون ويؤجّرون، فإنهم يُكلَّفون بتدبير الشؤون المالية للقصر وخزائنه، وقد يصرف إليهم النظر في بيت المال، وفي خزائن البُرّ والكساء وصرف الغلات، ويؤدّون عملهم بتفانٍ وإخلاص، وهو شأن المكلف بأمور الوصفان في قصر أبّار "فرجي الأحلافي" الذي كان طرفًا في الفتنة التي أشعلها العبيد داخل القصرٍ، وغيره من وصفان السلطان الذين تدرّجوا في سلك الإدارة المخزنية في زمن السلطان عبد الرحمن بن هشام وخلَفه، ومن أشهرهم القائد فرجي[48] الذي كان يشغل منصب القائد داخل قصر السلطان المولى سليمان أولًا، ثم احتفظ به في عهد السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام، وقد ذكر ابن زيدان أن فرجي كان من القواد والباشوات المُسخّرين على الجيش الفاسي[49].

اشتغل فرجي في منصب القائد حوالى خمسين سنة، وكوّن ثروة مهمة من منصبه هذا، لكن باستعماله طرائق عدة، كالارتشاء ومدّ يده إلى ممتلكات السلطان الذي عزله، ثم أعاده إلى منصبه[50].

ب. الدور الاجتماعي

جدير بالذكر أن العبيد داخل أسوار القصور المخزنية تقاسموا، ذكورًا وإناثًا، تقديم مجموعة من الخدمات الاجتماعية للأمراء والأميرات. ونظرًا إلى أعدادهم الكبيرة من الجنسين، فقد ضبطت إدارة دار المخزن أعمالهم على نحوٍ منظم، تفاديًا لما قد ينتج منه من خلافات في ما بينهم. ومن أبرز الأدوار الاجتماعية التي أُنيطت برقيق قصر أبّار المخزن، نذكر مجالات عمل الإماء، المتمثلة في إعداد الطعام وما يرتبط به؛ فيطبخون للأمراء، ويحضرون الماء للبيت، ويُنظّفون المائدة بعد أن يُتم الأمراء الأكل، كما يقمن بأعمال التنظيف والتنظيم، وتلبية حاجات الكبار والصغار، إضافة إلى طحن الحبوب، وقد يخرج بعضهن إلى الغابة أو السوق لشراء بعض اللوازم الخاصة بالأميرات والأمراء. أما الذكور، فمنهم الحراس ومنهم الخدم، خاصة المكلفين بذبح المواشي وسلخها، أو بحمل متاع

---

46 بنمليح، ص 502.

47 القائد فرجي وصيف السلطان، الباشا فرجي وصيف السلطان، الوصيف مسعود الشباني، وصيف السلطان المعطي السوسي، الوصيف محمد لمراني، الوصيف إبريك الحبشي وغيرهم. ينظر: المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، الوثائق أرقام: 24008، 24010، 19491، 22145، 23508.

48 يُعدّ من عبيد المخزن السود، اشتغل قائدًا مدة تزيد على خمسين سنة في عهد السلطان سليمان والمولى عبد الرحمن، وخلال السنوات الأولى من حكم محمد الرابع، وُشي به للسلطان بعدما لفتت ممتلكاته الكثيرة الأنظار، فبعث لإحضاره وأمره بفرز الدخيل على ممتلكاته وردّها إلى الدولة، فلم يجبه، بل توجه إلى إسطبل السلطان، وخلع ملابسه وارتدى جلبابًا صوفيًا قديمًا، وبدأ يكنس الإسطبل رجوعًا إلى أصله، معتبرًا أن ممتلكاته كلها هي للسلطان، بما فيها شخصه.
يقول الناظم:

إذا كان لا بد له من أشغال *** فليكنس الزبل لخيل وبغال
هذا الذي ورث عن أجداده *** لا يرث الجد سوى أولاده

كان لهذا التصرف من القائد فرجي تأثير في ردة فعل السلطان الذي عفا عنه وأعاده إلى منصبه، من دون المساس بثروته. ينظر: غولفس، ص 128.

49 ابن زيدان، ج 5، ص 274.

50 غولفس، ص 128.



الأمراء في أثناء السفر[51]، ويُعلف آخرون الدواب والمواشي، ويعتنون بها، وقد يُكَلّف بعض الإماء بالاحتطاب في غير أملاك المخزن، أو بخدمة الضيوف، فتسقيهم وتقضي حوائجهم[52]. وقد أثبتت كثيرات من الجواري والإماء مهارات عالية في صناعة الطبخ وإعداد أنواع الحلويات، ما جعلهن من علية الرقيق، حاذقات وعريفات في القصر[53].

وحرصًا من الأمراء والولاة والخلفاء على إشاعة الكرم في ما بينهم، كانوا يُبالغون في تبادل الهدايا من العبيد والإماء، مثلما يتهادون الحُليّ والجواهر والدواب، وفي حالات أخرى، يكرم الخلفاء أبناءهم الأمراء بهدايا من الرقيق، أو يقدمونهم أعطيات لمن يبشّرهم بأخبار سارة، وقد كان اختيار هؤلاء الهدايا العبيد يجري بحسب رغبة الشخص المراد التقرب منه، أو كسب ودّه. ومن أمثلة ذلك ما أشارت إليه الرسالة التي وجّهها محمد أولحسين أوهاشم إلى السلطان الحسن الأول في أيار/ مايو 1892، يُخبره فيها بإرسال عبد مخصي هدية إليه، كان قد اشتراه من موسم وادي نون[54].

لا مناص من القول إن السلاطين والأمراء العلويين في تافيلالت، استكثروا من امتلاك الرقيق داخل القصور المخزنية، حتى إن الرّحالة الألماني والطبيب السلطاني، غيرهارد غولفس، قدّر عددهم عند دخوله إلى قصر أبّار المخزني، بقصد تطبيب إحدى الأميرات، بما يقارب ثلاثمئة امرأة، وهذا العدد الكبير دليل على استعمالهم في كل ما يحتاج إلى يد عاملة أو قضاء حاجة، من قبيل تنقية الحبوب وطحنها، والسهر على طقوس استحمام الأميرات، أو للتسرّي بهن والإنجاب. أما الكبيرات منهن، فساهمن في تطبيب حريم القصر، إضافة إلى أعمال أخرى مختلفة[55].

مما تفصح عنه بعض الوثائق السلطانية، أن زوجة الحاج عبد الله، المُكلّف بشؤون الوصفان، كانت ماشطة في القصر، وظيفتها تزيين حريم السلطان وأهله[56]، وغيرها من الوصيفات كنّ مكلّفات بشؤون الدار الداخلية، وغالبيتهن من النساء، يقمن بالطبخ والعجن والكنس، والسهر على تدبير شؤون الدار وتربية الأبناء وغسل الثياب والغزل والنسج وغير ذلك. وتتقدم هؤلاء الوصيفات من النساء أكثرهن خبرة وحذاقة، ويُطلق عليها في عرف دار المخزن اسم العريفة؛ وأشهرهن العريفة فاطمة إبراهيم التي كانت مشهورة بخصالها الحميدة، وحزمها في عمارة شؤون دار المخزن وضبطها، وبعد وفاتها خلفتها الوصيفة أم السعد الوافدة من مكناسة، لكنها لم تتمكن من ملء الفراغ الذي تركته سابقتها، حتى قال السلطان في حقها: "أعمش خير من أعمى"[57].

وأُسندت إلى الذكور من الرقيق مهمة خدمة المسجد في القصور المخزنية، بما فيها مسجد أبّار، والقيام عليه بالأذان والكنس والفرش والوقود وفتح الأبواب وغلقها[58]، وحفظ الحُصر والقناديل، من دون أن نغفل بعض الأعمال الوضيعة الأخرى، من قبيل إفراغ الغائط من دار المخزن وكسح المراحيض والأزبال التي ارتبطت بهم حتى بعد تحرّرهم؛ لأن غيرهم من سكان القصر كانوا لا يرضون القيام بها[59].

---

51 ركْب ابن السلطان مولاي محمد بن عبد الرحمن، الذي يضم العريفة أم السعد وأَمته وأمها ووصفانه والمخازنية نحو تافيلالت. المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 22220.

52 المرجع نفسه.

53 المرجع نفسه.

54 بوبريك، ص 31.

55 Rohlfs, p. 175.

56 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 23508.

57 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقتان رقما: 22220، 23508.

58 لا يزال بعض الأسر في قصر أبّار، التي ترجع أصولها إلى هذه الفئة، تقوم بهذه المهمة حتى عهد قريب. معاينة مباشرة من الباحث.

59 بوعصب، ص 65.



ج. دور الرقيق في النشاط الاقتصادي

اضطلع الرقيق بأدوار مهمة في مختلف النشاطات الاقتصادية داخل القصر المخزني، أهمها:

دور الرقيق في الفلاحة

وردت معلومات شحيحة، تشير إلى الدور الذي قام به الرقيق في المجال الفلاحي، لكنها ذات أهمية كبرى؛ كونها تقدم لنا نماذج يمكن الاعتماد عليها في استنتاج الدور الذي كان يقوم به هؤلاء الرقيق في دار المخزن في تافيلالت، ومنه: العمل في زراعة أرض المخزن وسقي الأشجار وتعهّد النخيل، خاصة عرصة السلطان الملاصقة للقصر ذات المغروسات والأشجار المثمرة[60]، ومنهم المهتمون بإسطبلات الخيول، والساهرون على توفير حاجات القصر من الحطب وغرس الأشجار والاعتناء بها وجني ثمارها، ومن مهماتهم أيضًا تربية مواشي القصر والقيام برعيها، ومنهم من كان مُكلّفًا بالسهر على شؤون مخازن المؤن في تافيلالت التي كان مركزها في قصر أبّار[61].

دور الرقيق في المجال الحرفي

مارس الرقيق في تافيلالت حرفة صناعة الملابس الصوفية ونسج الحصائر المخصصة للصلاة أو للجلوس في القصر، إضافة إلى مهمة تسمير حفائر البهائم، من دون أن نغفل دورهم في عمليات البناء والإشراف على ترميم القصور المخزنية تحت قيادة وصفان السلطان، وهذا ما أشارت إليه رسالة الوصيف مسعود الشباني، إلى خليفة السلطان في تافيلالت سيدي محمد في موضوع: تقويم بناء بعض القصور المخزنية في تافيلالت التي ورد ذكرها في كتاب وصيف السلطان القائد أحمد الفيضي، وقبله الوصيف محمد العربي (رحمه الله). ومن المنشآت التي سهر الوصفان على ترميمها: سقف المسجد والسقالة والكشينة والمصرية والدفة البرانية والمشور الداخلي بحضرة سيدي مولاي سليمان والأنباح والأسوار والأبراج وغيرها[62]. وذلك بالاستعانة بهم في عجن الطين المخصص للملاط [التملاس]، وتوفير أنواع الخشب للتسقيف، حتى إن بعضهم كان يتقن هذه المهمة؛ فكم من أسوار بُنِيت وزُخرفت، وأرجاء نُصبت، وواجهات قصور بُنيَت بسواعدهم، سواء بقصر أبّار أم القصبة الحلومية وغيرها، من دون أن ننسى استخدامهم في التجارة وحمل السلع رفقة الدواب، وفي الخصوص أمتعة الأمراء في حالة المسالك الوعرة التي لا تستطيع الدواب التنقل عبرها[63].

ثالثًا: الواقع الاجتماعي لرقيق القصور المخزنية

ألمحت بعض الكتابات الرحلية الأجنبية، بإشارات قليلة، إلى واقع العبيد داخل أسوار القصور المخزنية، ونخص بالذكر رحلة الألماني غيرهارد غولفس الذي زار تافيلالت مرتين: الأولى في عام 1861؛ والثانية في عام 1864، وقد جاء متنكرًا بزيّ طبيب، حتى أصبح حكيم البلاط السلطاني، مستفيدًا من رسائل التوصية السلطانية، ومن رسائل بعض كبار زعماء الزوايا التي كانت توفر له قدرًا من الأمان، وتدعو المغاربة إلى ضيافته واستقباله، خاصة بعد ادّعائه اعتناق الإسلام. ومبالغةً منه في الحيطة والحذر حتى لا يكتشف أمره

60 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 19059. وهي: رسالة من السلطان المولى عبد الرحمن إلى ابنه سيدي محمد، بتاريخ 9 شوال 1262هـ [1846/9/30]، يطلب منه فيها شراء قطعة أرض من أصحابها لزيادتها في عرصة دار المخزن.

61 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 19059.

62 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 24008.

63 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقتان رقما: 24009، 22220.



في تافيلالت، قال: "وحتى لا يشك مسلمو البلد في مسيحيتي، وأنني بحق على دينهم الإسلام، اتجهت صوب ضريح مولاي علي الشريف، ومارست بعض الطقوس الشعبية بداخله، كالتمسح والتقبيل ووضع شيء من النقود في موضع خاص"[64].

في ظل هذه الظروف، أُتيحت لغولفس فرصة لفتح باب الحريم النسوي المذكور في دار المخزن، وهي فرصة لم تُتَح لرجل أجنبي قبله، ويتعلق الأمر بتطبيبه ابنة الأمير مولاي عبد الله، البالغة من العمر خمس عشرة سنة، أُصيبت بمرض خطر في عينها، وطلب منه مساعدتها، فاستغلها فرصة ليقدم وصفًا عامًا لواقع الرقيق والحريم السلطاني داخل القصر المخزني في أبّار، حيث يقول: "عندما سافر الأمير مولاي عبد الله إلى مراكش لزيارة أخيه السلطان، ترك نساءه بالحرم المذكور الشبيه بالسجن تحت حراسة العبيد الخصيان بهذه القصبة المحصنة الكبيرة الموجودة بمركز قصر أبّار"[65].

أما وصفه لابنة الأمير، فأشار إلى جمالها، على الرغم من لونها المقارب إلى السواد، ورجّح أنها ابنة أَمة سوداء، مع أن المرض قد شوّه بعضًا من جمال وجهها، فقدم لها المستطاع من العلاج. ثم استطرد في تقديم إحصاء تقريبي بعدد نساء جناح الحريم السلطاني، وقدّر عددهن بحوالى ثلاثمئة امرأة، بمن فيهن الشابات والعجائز، وكلهن يرجعن إلى عهد السلطان المولى عبد الرحمن. بعدها أصدر غولفس حكمًا قيميًا تجاه وضعية الحريم السلطاني، فاعتبر دخول أي واحدة منهن إلى هذا الحرم وتخطي عتبة بابه، كأنها في حكم السجين، لا تخرج من الحرم أبدًا[66].

نظرًا إلى ارتفاع أعداد العبيد في القصور المخزنية، كان بعضهم يتعرض للسرقة من قبائل الرُحّل، خاصة في زمن اضطراب الأوضاع السياسية؛ طمعًا في إعادة بيعهم، وهذا ما تشير إليه إحدى المراسلات السلطانية: التي "ذكرت أن الشرفاء وأهل الغرفة هم سبب الفتنة وجلب هذه المحن حتى إن الشرفاء يدلّون المفسدين على اختلاس وصفائنا هناك وبيعهم مبالغة في الفساد، وطلبت الرحيل من وسطهم إن لم ينصب لهم من يحكمهم ويُحسن سياستهم"[67]. وعلى الرغم من تغير وضعية العبيد، فإنهم بقوا حتى بعد تحريرهم، مرتبطين بروابط الولاء بأسيادهم، يساعدونهم في الأشغال الشاقة كلها، ما دفع بعض الأسر الشريفة في تافيلالت إلى توريثهم كأبنائها[68]. وهو تصرف يعكس طبيعة العلاقة الاجتماعية الوطيدة التي كانت تجمع تلك الأسر بهؤلاء الرقيق، وهذا ما تؤكده حادثة تطبيق القصاص التي لم يتردد السلطان المولى سليمان في تطبيقها على أحد أبنائه، حينما أمر بقتله قصاصًا لوصيف قُتل بغير موجب حق[69]. لكن مع ذلك، فالغالب أنه كانت تُسند إليهم أحقر الأعمال التي لا يرضى غيرهم من سكان القصر القيام بها[70].

وحري بنا هنا التطرق إلى بعض الخلافات الاجتماعية التي تقع بين هذا الحشد الكبير من عبيد القصور المخزنية، والتي تنتج غالبًا من سوء تدبير المكلف برئاسة شؤونهم على القيام بالأدوار المنوطة به، ما يُحدث خلافات بينهم، قد تصل في بعض الحالات إلى حد رفعها إلى خليفة السلطان في تافيلالت، ومن ثمة إلى السلطان الذي كان حريصًا على التدخل لوأد الفتنة والشنآن الواقع بين المُكلّف منهم بالقيادة وصاحب الحظوة لدى السلطان، وغير المحظوظين منهم، ومن أمثلتها:

---

64 Rohlfs, p. 165.

65 Ibid., p. 175.

66 حمادي الإدريسي، **قاعدة المغرب الأقصى قبل فاس سجلماسة ووريثتها تافيلالت تاريخًا وأمجادًا وجهادًا** (بيروت: دار الكتب العلمية، 2016)، ص 153؛ Rohlfs, p. 175.

67 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 18333.

68 أنموذج: قيام الشريف هاشم بن الفضيل من قصر أخنوس بتوريث أحد رقيقه (م.ع)؛ أحمد بن عبد السلام الخنوسي ابن عم الشريف المذكور، مقابلة شخصية، قصر أخنوس، 2022/7/16؛ ينظر أيضًا: بوعصب، ص 65.

69 محمد المنصور، **المغرب قبل الاستعمار: المجتمع والدولة والدين 1792-1822م**، ترجمة محمد حبيدة (الدار البيضاء/ بيروت: المركز الثقافي العربي، 2006)، ص 264.

70 بوعصب، ص 65.



الفتنة التي أوشك وقوعها بين عبيد قصر السلطان وفرجي الأحلافي[71]، وهو ما شخّصته بجلاء رسالة السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى ابن عمه مولاي إدريس بن الصديق، بتاريخ 11 شوال 1264هـ/ 9 شتنبر [أيلول/ سبتمبر] 1848م التي أوضحت وجه الخلافات الواقعة بين عبيد دار السلطان في أبّار، مع فرجي الأحلافي، التي وصلت إلى حد الفتنة، وكان سببها الشطط الذي مارسه الحاج عبد الله، المسؤول عنهم، والمتكلم فيهم بإذن السلطان، مع زوجته ماشطة القصر، وبتقدير السلطان، فتمرد عبيد الدار (الطواشين)، مردّه إلى غياب من يضبطهم ووجود من يُحرّكهم، وممن كانت في صفّهم وصيفة دار المخزن أم السعد المكلفة بتدبير شؤون الدار الداخلية، التي لحقها تأنيب السلطان وأمرها بالكفّ عن التدخّل في هذه الشؤون، لأنها ليست من مهماتها[72]. وكانت هذه التصرفات التي صدرت عن القائم بشؤون العبيد كافية لإثارتهم، غير أنّ استقراء ظروف هذا الحراك يكشف عن محدوديته في الزمان والمكان؛ ما جعله عبارة عن هبّة اجتماعية ناتجة من التذمر والسخط والاحتجاج.

1. نفقات رقيق القصور المخزنية في تافيلالت

مما لا شك فيه أن نفقات عبيد دار المخزن في أبّار ومصاريفهم كانت تكلّف بيت مال الدولة أموالًا ومؤنًا كثيرة، حيث يقوم مئات من الخدم والعبيد والإماء بمهمات مختلفة، كما كانت لهم مراتب ودرجات، فكيف كان يجري تدبير مصاريفهم، بالموازاة مع مصاريف الأمراء والأميرات في القصر؟

يقوم الأمير على كسوة هؤلاء الرقيق والخدم العاملين في دار المخزن من خزينة الدولة، ويُمدّهم أيضًا بالطعام المتوافر من غلّات أراضي مؤسسة المخزن في المنطقة ونخيلها وأشجارها، خاصة محصول التمور الذي يجري الاحتفاظ به في خزانة القصر[73]. أما بقية المواد الأخرى، مثل: السمن والصابون والسكر والشاي والشمع والفلفل والتوابل والزيت والثوم والشحم، وغيرها، فتصل من خزينة الدولة في مكناس أو فاس أو غيرها، إلى خزينة دار المخزن في أبّار التي كانت محسوبة في مرتبة دور السلطان الأخرى، بما فيها الدار العالية[74]. وتُسلّم هذه النفقات، بحسب حاجيات الوصفان والأمراء، أو بحسب طلبات عريفة السلطان، تبعًا لحاجيات القصر في كل شهر عربي، مع تدوينها في سجلات إدارة الخزينة من المكلف بمفاتيح الخزين، وبِصائر ونفقات دار الشرفاء في قصر أبّار التي كانت تحت يد ابن عم السلطان مولاي إدريس بن الصديق[75]. وقد تُصرف لهؤلاء العبيد بعض المواد الفاسدة التي لا يصلح تقديمها للأمراء من الشرفاء، مثل بعض التمور أو الزروع الفاسدة، وهذا ما تشير إليه رسالة الوصيف السلطاني المعطي السوسي إلى الأمير سيدي محمد، بتاريخ 18 شوال عام 1228هـ/ 1813م، حيث يقول: "أما تمر الخلط الفاسد بأبّار وأولاد عبد الحليم، فنعطي منه للوصفان كل شهر"[76].

وبدهي أن إقامة الرقيق في القصر المخزني للخدمة تستدعي تخصيص أماكن مستقلة لاستقرارهم، أو محلات مجاورة لبيوتات الأسرة الأميرية، كما في قصر أبّار المخزن، وتُسمّى "بيت الخدم". وقد تُخصّص لهم قصبات مستقلة، أو أروية، كما هي حال وضعيتهم في قصر كحايك. وهذا ما تثبته مجموعة من الرسائل السلطانية، منها:

71 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 23508.

72 المرجع نفسه.

73 قسم رئيس من القصر، يُسمّى دار الخزنة، أو بيت المال.

74 ابن زيدان، ج 2، ص 626.

75 رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى واليه في تافيلالت سيدي محمد، بتاريخ 3 جمادى الأولى 1262هـ/ 1846م، في: المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 22220.

76 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 24010.



- رسالة الوصيف الشباني إلى خليفة السلطان في تافيلالت، بتاريخ 18 شوال 1228هـ/ 13 [تشرين الأول/] أكتوبر 1813م، في موضوع النفقات الخاصة بقصر الفيضة العليا وخطارة جنان الأجهال والفقيه مولاي الصادق المدغري، ومصاريف مونة وصفان السلطان لشهر رجب وشعبان ورمضان[77].
- رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى ابنَي عمه سيدي الهاشمي بن ملوك وسيدي محمد الصديق، بتاريخ 2 ربيع الثاني 1250هـ/ 7 غشت [آب/ أغسطس] 1834م، في موضوع تعيين الخديم الحاج محمد الزياني بمهمة الصائر بدار الشرفاء في أبّار، والوصيف عزوز في الخدمة[78].
- رسالة من وصيف السلطان المعطي السوسي إلى الأمير سيدي محمد، بتاريخ 18 شوال عام 1228هـ/ 13 [تشرين الأول/] أكتوبر 1813م، بشأن حالة الشرفاء العلويين في تافيلالت، وفي موضوع فساد التمر بفعل الأمطار والغبار، يقول: "أما تمر الخلط الفاسد بأبّار وأولاد عبد الحليم، فنعطي منه للوصفان كل شهر، والعلف للدواب دون الخيل، كما تطلب عريفة سيدنا شيئًا من المكاب[79] ومن البخور للأسياد"[80].

في بعض الحالات، قد يحصل رقيق القصر على بعض الملابس الجيدة التي خلعها الأمراء عليهم أو تخلّوا عنها، غير أنها تبقى ألبسة مهلهلة في الغالب لا تناسب مقاساتهم، وبعضهم قد يملك مالًا مما يجزله لهم بعض الشخصيات الوافدة على القصر، أو من هدايا المناسبات التي يبعث بها السلطان إليهم، خاصة هبة عاشوراء التي لم تستثنِ رقيق دار المخزن الذين حظوا بحصتهم من الدراهم والملابس من باب الصلة[81]، ومنهم من كانوا يبتزون بعض التجار السذّج في الأسواق، فيستدرجونهم، ليأخذوا منهم بعض المال، مستغلّين حماية القصر لهم[82].

2. فرق عبيد دار المخزن

ارتبط عدد الرقيق في القصور المخزنية الفلالية، بكثرة المهمات والنشاطات التي كانوا يضطّلعون بها داخل فضاءات دار المخزن وأجنحتها، كما إن كثرتهم فرضها العدد الهائل لقاطني القصر، خاصة فئة الحريم. وترجع الخلفية التاريخية لخدم القصور السلطانية وعبيدها إلى الدول السابقة التي تعاقبت على حكم المغرب، خاصة خلال العهدَين الموحّدي والمريني، وهم عبيد سود ذوو أصول سودانية، كانوا يمشون في المواكب السلطانية، حاملين الرماح والسيوف والأعلام[83].

ينتظم خدم القصور المخزنية السجلماسية وعبيدها وفق تراتبية خاصة تتكوّن من فرق، وعلى رأس كل فرقة منها قائم على أمورها؛ فمنهم: المكلّف بإسطبلات الخيل[84] والمكلف بالخزينة والمكلّف بالطعام والعريفة[85] المكلفة بالحريم وماشطة

77 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 21405

78 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 28292.

79 المكاب: أو "التادارات" بلغة بائعي مصنوعات ومنتجات مواد النخيل؛ هي أدوات مصنوعة بسعف النخيل وعصي عرجون التمر المسمى "الزّيوان"، تخصص لوضع الخبز وتقديمه للضيوف وأهل الدار. ينظر: امحرزي، ص 732.

80 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 24010.

81 ابن زيدان، ج 2، ص 626.

82 غولفس، ص 149.

83 فتحي زغروت، **الجيوش الإسلامية وحركة التغيير في دولتي المرابطين والموحدين: المغرب والأندلس** (القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، 2005)، ص 145، 372.

84 رسالة في موضوع صائر بناء أروية خيول أبناء الأسرة العلوية في القصبة الحلومية. ينظر: المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 24009.

85 العريفة: هي "الحادكة" أو "المَقدْمة" أو المرأة النشيطة والمتقنة، ويطلق هذا اللفظ على سيدة الخدم في القصور المخزنية في تافيلالت، المعروفة بتجربتها وخبرتها، خاصة في الطبخ والنظافة وغيرها. امحرزي، ص 732.



دار السلطان[86]. وتسمى هذه الفرق في عرف دار المخزن "حناطي المخازنية"، وتخضع كل هذه الفِرَق لمسؤولية المكلّف بتدبير شؤون الوصفان في القصر، الذي يجري تعيينه بظهير سلطاني للقيام عليهم وتنظيم أدوارهم[87]، ومن أهمها:

أ. فرقة المشاورية

وهم عبيد المشور الذين يستوجب حضورهم في كل مناسبة في القصر.

ب. فرقة عبيدات العافية

وهن المكلّفات بتطبيق العقوبات (الجلد أو الحبس بالبنيقة)، الصادرة بحق أهل دار المخزن، سواء كنّ من الخدم والجواري، أم من نساء الحريم، وهناك إماء أُخريات في الدار، يطلق عليهن "الماشطات"، مهمّتهن تزيين الأميرات والاهتمام بلباسهن الأصيل، ويُشرفن على الحريم ومؤانستهن، ويكثر نشاطهن خلال المناسبات وغيرها، بل منهن من يقتصر دورها على إطلاق الزغاريد، سواء عند دخول الأميرات إلى الحمام، أو الخروج منه، أو عند استيقاظ الوصيفات[88].

ج- فرقة خدام الحريم

هي فئة من العبيد الخصيان، يختارهم السلطان بعناية خاصة لخدمة جناح الحريم، هذا الفضاء الذي لا يَلجه إلّا الأمير وهذه الفئة التي أوقفت نفسها لخدمته، وذلك حتى لا يُذاع ما في داخله من أسرار، وفي حالة السفر، غالبًا ما تكون الحريم ملثمات بإحكام، ويسرن في مجموعة مغلقة على البغال، يحفّ بهن الخصيان، يمتطون خيولهم السريعة[89]. وغالبًا ما يحملون أسماء دالّة على الأنس والرّقة، أو أسماء بعض العطور، مثل: السيد كافور والسيد مسك، والسيد عطر الوردي، في القصر السلطاني في مكناس ... إلخ[90]. وقد بقيت خدمة هذا الجناح مهمَّةً متوارثةً بين فئة خاصة من عبيد القصر الذين كان مسموحًا لهم، دون غيرهم، بولوج فضاء الحريم والوصيفات، وكانت هذه الفرقة تقوم بمختلف الأشغال والأعمال، ومن ضمنها المساعدة في تحضير لوازم الاستحمام وتقديم المساعدة لمن يحتاج إليها داخل هذا الفضاء الذي يضم الوجوه النسوية البارزة في البلاط، وهن الأميرات، خاصة لالة رقية بنت مولاي سليمان، وحريم أبناء السلطان[91].

د- فرقة خاصة بالمائدة الأميرية

وهي عبارة عن مجموعة من الخدم والعبيد، مهمتهم السهر على أكل أهل القصر وشربهم، ومنهن طبّاخات زنجيات ماهرات، وعبيد مكلّفون بتقديم الأطعمة، ومن المهمات الخاصة في هذا الصدد، مهمة تذوّق الطعام قبل تقديمه للأمراء أو السلطان، وهي مهمة موكولة إلى أحد خُدّام القصر من الرقيق، يعرف بـ "الذواق"، مهمته تناول جزء من كل طبق في لحظة معلومة ومضبوطة قبل تقديمه للسلطان والأمراء ووضعه على المائدة الملكية، وارتبطت هذه المهمة، في تاريخ القصور المخزنية السلطانية، بمجموعة من الحكايات والأساطير التي تصبّ في اتجاه حفظ حياة السلطان من الخيانة والدسائس التي قد تأتي على حياته، خاصة في زمن النزاع على العرش العلوي بين الأشقاء أو الأقرباء[92].

---

86 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 23508.
87 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 23508.
88 المرجع نفسه.
89 غولفس، ص 147.
90 المرجع نفسه، ص 139؛ بنمليح، ص 506. وهذه الأسماء قريبة من أسماء العبيد خلال الحقبة الموحدية.
91 ابن زيدان، ج 5، ص 288.
92 أنموذج الصراع بين محمد بن عبد الرحمن بن هشام والمولى عبد الرحمن بن سليمان. ينظر: غولفس، ص 215.



إلى جانب الطباخين ومعاونيهم المتخصصين، هناك فرقة من خدم القصر وعبيده، تتكلّف بمهمة إعداد المائدة السلطانية أو الأميرية المُسمّاة "الميدة" التي يسهرون على تنظيمها وتقديم صحونها ومأكولاتها بمهارة، إضافة إلى تموين المطبخ وتنظيم أوانيه وحاجياته النفيسة، خاصة كؤوس البلور الأصلي. وتعكس هذه الولائم الأميرية في القصر قيمة الكرم والهبات والعطايا التي تقدم للخدم والعبيد القائمين على المائدة الأميرية، التي ارتبط مصدر تموينها بخزينة الدولة وبمداخيل أراضي دار المخزن[93].

هـ - خدم مكلف باللباس الأميري السلطاني

وهي فرقة من العبيد، مهمتها إعداد اللباس الأميري الرسمي، ويسمى القائم عليها "قائد الجلباب والبلغة في دار المخزن".

أما بقية الوظائف الصغرى في القصر المخزني الموكولة للرقيق، فأغلبها شبيهة بما هو معتاد في القصور السلطانية الكبرى، ومنها: المكلف بالطبخ ومقدم الشاي وحامل الطعام وغيرها من المهمات، وغالبًا ما يؤدّيها العبيد، لكن الكثير منها أيضًا، قد يقوم به بعض الأحرار البيض، من قبيل الحاج عبد الله، القائم بشؤون الوصفان في دار المخزن نيابة عن السلطان، وزوجته ماشطة حريم القصر السلطاني[94].

عمومًا، كل حركة يقوم بها الأمير تجد لها خادمًا خاصًّا رهن الإشارة، فمنهم من يدير بُلغة (نعال) الأمير حتى يلقاها عند الارتداء موجّهة ثانية ومباشرة أمام رجليه، ورقيق آخر مكلف بالإمساك بركاب السرج، وآخر مهمته حمل صحن الماء، وغيره يقوم باستقبال فنجان الشاي الذي تم شربه، ومنهم المكلف بتقديم المنديل، وآخر لعرض طست الغسل، ثم رقيق آخرون مهمتهم مرافقة ركب الأمير في أثناء السفر، وفرقة أخرى منهم مهمتها "تعطير" فضاءات دار المخزن بالبخور[95]، وإجمالًا، لكل عمل صغير للأمير هناك موظف محدد[96].

يرجع الفضل في زيادة تعمير دار المخزن والمشور في قصر أبّار المخزن بعبيد البخاري إلى السلطان محمد بن عبد الرحمن، ولا سيما العناصر المكلفة بحراسة الأمراء والقصور المخزنية وحمايتهم. فعلى مدار القرن التاسع عشر، كانت الضغوط متواصلة على السلطة المغربية لمنع تجارة الرقيق، وعلى الرغم من التبريرات التي قدّمها السلاطين لإقرارها، فإن بعضهم اتّخذ إجراءات تحاول الحدّ منها، من قبيل مبادرة السلطان محمد بن عبد الرحمن (1859–1873) الذي قرر في عام 1863 أن كل عبد لجأ إلى المخزن طالبًا الحماية، لا يُعاد إلى مالكه الذي يأخذ عنه تعويضًا، والواقع أن العبد لا يحصل بموجب هذه الحماية على حريته، بل يُدمج بجيش المخزن، أو بخُدّام السلطان، ويُميّزهم بعبارات "خديمنا الأرضى"، بالنسبة إلى القواد، و"وصيفنا الأرضى"، بالنسبة إلى عبيد المخزن، وفي عام 1905، منع السلطان عبد العزيز الأسواق العمومية في المدن، خاصة الساحلية، في وقت ظلت فيه الأسواق الداخلية والبوادي، تعرض الرقيق إلى ما بعد فترة الاحتلال الفرنسي، بما فيها سوق تافيلالت[97].

فإذا كان الغالب هو فرار الرقيق واندماجهم في سلك جيوش المخزن، ففي عهد المولى عبد الرحمن، كان بعضهم يفرّ حتى من المخزن، وهو ما تؤكده بعض الوثائق[98]. ومنهم من جرى ترحيله من تافيلالت في اتجاه القصور السلطانية في مكناس، وهو ما تقرّه

93 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 24010.
94 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 23508.
95 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 24010.
96 غولفس، ص 149.
97 بوبريك، ص 42.
98 الناجي، ص 57.



الرسالة السلطانية التي بعثها السلطان عبد الرحمن بن هشام إلى الوصيف إبريك الحبشي، بتاريخ 3 صفر 1268هـ/ 27 نونبر [تشرين الثاني/ نوفمبر] 1851م، بشأن توجيه وصفان من أبّار في تافيلالت، أولادهم إلى الحضرة الشريفة، إلّا من كان منهم ينتفع به في الخدمة خمسة أو ستة، مع تخصيص العبد عبد الرزاق بإرساله مع الواردين، ولعلّه من الرقيق الذين كان السلطان يعتمد عليهم في القصر(99).

وقد حرص السلطان والأمراء على ألّا تتجاوز نزاعات قاطني دار المخزن أسوار البلاط، وذلك حفاظًا على هيبته في عيون الرعية، لذلك وجدنا هذه الخصومات متضمنة في رسائل خاصة بين السلطان والأمراء، أو بينه وبين الوصفان المكلفين. وبناء عليه، كانت الخصومات أو النزاعات كلها تُحلّ تحت إمرته داخل القصر، أو بمراسلته في حالة غيابه، كما هي حال فتنة فرجي في أبّار مع بقية الوصفان التي تدخّل السلطان لوقف دابرها بعدما أوشكت على الاشتعال(100)، وغالبًا ما كان يبتّ بها بنفسه. لذلك كانت دار المخزن يتوافر لها نظام عقابي خاص، يتضمّن الضرب بالعصا أو الفلقة، أو تعليق المخالف بجدار الخرابيش، بما في ذلك سجن خاص (البنيقة) لضبط الخارجين على قواعد نظام دار المخزن لمدة محددة.

إجمالًا، كان الخطاب السائد بين خدم دار المخزن وعبيدها، قائمًا على التوقير والتبجيل، فينادون على الأمراء والأميرات والشرفاء بـ "سيدي" و"مولاي" و"لالة" و"الشريف" و"الشريفة" و"سميت سيدي"، أما إذا كان الشخص أكثر منهم في تراتبية العبيد، فينادون عليه بلقب "عزيزي"(101).

ولا بد من التأكيد هنا أن المراسيم في القصر المخزني بالغة في التشدّد، فهناك شخصيات معيّنة لها ميزة، ويُسمح لها بالجلوس، مثل الأمراء والولاة والشرفاء والأعيان، بينما غيرهم، خاصة العبيد، لا يسمح لهم إلّا بالقرفصة فحسب، أو النزول على الرُكَب، أما الملتمسون المرخص لهم بالمثول، فلا يسمح لهم بالطلب إلّا من بعيد، وفي وضع السجود، وبعد أن يُقبّلوا الأرض قبل ذلك(102).

3. العبيد وطقوس التقبيل والتحيّة في القصور المخزنية

احتفظت القصور المخزنية في تافيلالت بمجموعة من الطقوس والهالات العتيقة التي بقيت راسخة، خاصة ما تعلّق منها بطقوس تقبيل يد الأمراء، فقبل الإمساك باليد لتقبيلها يلف العبيد والخدم أيديهم في أطراف ثيابهم [السلهام مثلًا] حتى لا تلمس مباشرة يد الأمير، وهو تقليد بقي ساريًا في دار المخزن على امتداد قرون، وفلسفته أن صورة السلطان وشخصه مرتبطان بالهيبة التي ينبغي لها أن تبقى راسخة في ذهنهم(103)، وهؤلاء الرقيق ملزمون بامتثال تلك التراتبية في ما بينهم، باعتبارهم خدمًا وعبيدًا، مع خفض النظر، أو الاستدارة إلى الحائط، كلما مرّت إحدى نساء القصر بجانب أحدهم.

تعكس هذه الطقوس في ثناياها تمجيدًا لمفهوم القوة، وتعبيرًا عن الطاعة، وترسيخًا لصورة السلطة في ذهنية خدمها، علمًا أن خدم البلاط وعبيده، سابقًا، لم يكونوا يكتفون بتقبيل يد السلطان، إنما يسجدون له ويُقبّلون نعله، لكن هذه العادة اختفت تمامًا

99 المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثيقة رقم 22145.

100 المرجع نفسه.

101 رسائل سلطانية من الوصفان: تحمل لفظ: "الأسياد، سيدنا، سادتنا الشرفاء، سيدي، الشرفاء، مولانا، مولاي، شريف الشرفاء ...". المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثائق أرقام: 24010، 24009، 22145، 29241.

102 غولفس، ص 146.

103 أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الغرناطي، **الاعتصام**، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، ج 1 (المنامة: مكتبة التوحيد، 2000)، ص 314–316.



مع الأسرة العلوية، وبقي طقس الانحناء وتقبيل اليد. أما تقبيل النعل، فتمّت الاستعاضة عنه بتقبيل البساط لفظيًا في المراسلات السلطانية[104]. ومن المعلوم أن طقوس البروتوكول المخزني في تنظيم القصر وإدارته، والشؤون المرتبطة بالنشاطات الرسمية لدار المخزن، بقيت مطبوعة بالخصوصية، لأنها من القضايا التي تعود صلاحية التقرير بشأنها إلى السلطان.

خاتمة

بقيت حياة الرقيق المعيشية في تافيلالت خاضعة بدقة لإيقاع حياة مُلّاكهم وحاجياتهم داخل الدور والقصور[105]؛ ما جعل مؤسسة الرق تختزل في جانبها العام والرسمي تلك العلاقات الاجتماعية المنظمة وفق قواعد وبروتوكولات رسمية محددة.

في الوقت ذاته، ظل القصر المخزني المحتضن لهذه الفئة الاجتماعية عالمًا مجهولًا في مخيال أهل تافيلالت، باعتباره تلك البناية المحاطة بالأسوار والأسرار والهالات، المكتظة فضاءاتها بالحرس والخدم والعبيد والغلمان، وهذا ما يبرز درجة حضور مسألة العبودية في دواليب الإدارة المخزنية، وفي خطابها السياسي في منطقة تافيلالت، وفي المجال المغربي عامة، وهو ما عبّرت عنه بعض الرسائل السلطانية.

إن التلميحات والإشارات المتناثرة هنا وهناك، بين ثنايا النصوص المصدرية، لم تسعفنا في تكوين صورة واضحة عن حياة الرقيق ونشاطاتهم داخل القصور المخزنية في تافيلالت، الأمر الذي يطرح صعوبة الإلمام بكل جوانب هذا الموضوع، وإذا علمنا أن الرقيق شكّلوا قاعدة الهرم الاجتماعي، فإنهم مع ذلك كانوا أكثر الفئات ولاءً للمخزن، بل كانت أصنافٌ منهم تعيش داخل هذه البنايات الضخمة، فاتخذهم الأمراء والوُلاة زينة لمجالسهم، وخدمًا لهم في كل حركاتهم وسكناتهم، سواء كانوا من صنف الخصيان أم الغلمان أم الحرس أم الحشم أم الخدم أم السراري.

ونظرًا إلى المكانة الدنيا التي احتلها الرقيق في المجتمع المغربي، وفي منطقة تافيلالت على الخصوص، حرص أمراء القصور المخزنية على عدم نشر مشكلات عبيد دار المخزن وخلافاتهم خارج أسوار البلاط، وذلك حفاظًا على هيبتهم ومكانتهم لدى الرعية.

أمام هذا الوضع الذي عاشته فئة العبيد داخل أسوار القصور المخزنية، تصبح معطيات حياتها اليومية غير دقيقة، وهو ما يزيد من صعوبة التأريخ لها، إضافة إلى غياب التجانس بين مكوّناتها، والغموض الذي يكتنف نشاطاتها داخل القصور العلوية؛ وذلك بسبب مسعى السلطة السياسية لحجب أخبارها عن الناس، أو ارتباطًا بتلك النظرة الأخلاقية التي تعتبر شؤون رقيق البلاط من خصوصيات دار المخزن. بناء عليه، فإن هذه النظرة الخاصة قد فوّتت علينا فرصة التقاط أخبارهم ونشاطاتهم داخل البلاط، إلّا نادرًا. ما حدا بنا إلى اعتماد أرشيف الرسائل السلطانية وكتب المتون الرحلية الأجنبية، لمعرفة وضعية هذه الفئة الاجتماعية المُهمّشة.



104 رسائل سلطانية من الوصفان: تحمل لفظ: "بعد تقبيل حاشية البساط الشريف". المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية، وثائق أرقام: 19491، 24010، 24009.

105 الناجي، ص 58.



المراجع

العربية

أحدى، امحمد. **دراسات في تاريخ المغرب العميق**. أكادير: Bj Print، 2012.

الإدريسي، حمادي. **قاعدة المغرب الأقصى قبل فاس سجلماسة ووريثتها تافيلالت تاريخًا وأمجادًا وجهادًا**. بيروت: دار الكتب العلمية، 2016.

أعمال الدورة الأولى لجامعة مولاي علي الشريف الخريفية. المملكة المغربية: وزارة الثقافة، 1990.

أعمال الدورة العاشرة لجامعة مولاي علي الشريف الخريفية. المملكة المغربية: وزارة الثقافة، 2003.

امحرزي، حسن. "خزانات التراث المخطوط والوثائق بواحة تافيلالت الكبرى بين الاستثمار ورد الاعتبار". أطروحة دكتوراه. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. ظهر المهراز. جامعة سيدي محمد بن عبد الله. فاس. 2017-2018. (غير منشورة)

بنمليح، عبد الإله. **الرق في بلاد المغرب والأندلس**. بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، 2004.

بوبريك، رحال. "سوق العبيد: تجارة الرق في مغرب القرن التاسع عشر". **أسطور**. مج 7، العدد 14 (تموز/ يوليو 2021).

بوخريص، فوزي. "قراءة في الترجمة العربية لكتاب محمد الناجي 'جند وخدم وسراري: الرق في المغرب'". **أسطور**. مج 4، العدد 8 (تموز/ يوليو 2018).

بوعصب، امبارك. **القصور والقصبات بمنطقة تافيلالت دراسة عمرانية ومعمارية**. فاس: منشورات المركز المغربي للدراسات التاريخية في فنون المصاحف وتقاليد المراسلات السلطانية، 2017.

تاوشيخت، لحسن. **عمران سجلماسة: دراسة تاريخية وأثرية**. المملكة المغربية: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2008.

الترمانيني، عبد السلام. **الرق: ماضيه وحاضره**. سلسلة عالم المعرفة 23. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1979.

جسوس، عز الدين. **السلطة المرابطية: الرمزي والمتخيل**. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2019.

زغروت، فتحي. **الجيوش الإسلامية وحركة التغيير في دولتي المرابطين والموحدين: المغرب والأندلس**. القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، 2005.

السجلماسي، ابن زيدان عبد الرحمن بن محمد. **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**. تحقيق علي عمر. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2008.

الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي. **الاعتصام**. تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان. المنامة: مكتبة التوحيد، 2000.

الضعيف، محمد بن عبد السلام بن أحمد. **تاريخ الدولة السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان (1043 هـ/ 1633م ـ 1238هـ/ 1822م)**. تحقيق أحمد العماري. الرباط: دار المأثورات، 1986.



علوي، أحمد عبد اللّوي. **مدغرة وادي زيز: إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث.** 2 ج. الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1996.

علوي، حسن حافظي. **سجلماسة وإقليمها في القرن 8هـ/ 14م**. المحمدية: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1997.

غولفس، غيرهارد. **إقامتي الأولى في المغرب: السفر جنوب الأطلس 1861م**. ترجمة إدريس الجاي. الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، 2018.

القادري، محمد بن الطيب. **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني عشر.** تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق. 4 ج. الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1977.

المملكة المغربية، مديرية الوثائق الملكية. **الوثائق: مجموعة وثائق دورية.** مج 11 (2006).

________. الوثائق أرقام: 17961، 18333، 18606، 18989، 19033، 19059، 19491، 19612، 20066، 21356، 21405، 22145، 22220، 23508، 24008، 240096، 24010، 28292، 29241.

المنصور، محمد. **المغرب قبل الاستعمار: المجتمع والدولة والدين 1792-1822م**. ترجمة محمد حبيدة. الدار البيضاء/ بيروت: المركز الثقافي العربي، 2006.

موسى، عايدة العزب. **تجارة العبيد في أفريقيا**. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2007.

الناجي، محمد. "حول الرقيق في المغرب ... ما قبل الاستعمار". **مجلة أبحاث**. مج 1، العدد 1 (1983).

الناصري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الدرعي الجعفري السلاوي. **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى.** تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري. الدار البيضاء: دار الكتاب، 1955.

الأجنبية

Gendre, F. "Le Tafilalet." *Revue de Géographie du Maroc*. 3-4ème Trimestre (Mai-Aout 1942).

Montagne, Robert. *Les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc*. Paris: Librairie Félix Alcan, 1930.

Rohlfs, Gerhard. *Voyages exploration au sahara*. Jacques Debetz (trad.). Paris: Ed Karthala, 2001.



التسلم Received
2022-11-16

التعديل Revised
2023-06-25

القبول Accepted
2023-07-08

الرقم التعريفي: DOI: https://doi.org/10.31430/BWBQ2990

البيضاوية بلكامل | Al-Bidawiya Belkamel*

بيمارستانات المغرب الأقصى: من العصر الموحدي إلى بداية زمن الحماية (1199-1912م)

Hospitals of the Maghreb: From the Almohad Era to the Beginning of the Protectorate (1199-1912 AD)

يعتبر بيمارستان مراكش من عهد الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (ت. 595هـ/ 1199م) أقدم بيمارستان مغربي، من حيث البناء والتجهيز والقائمون عليه. ولعل بيمارستان شالة المنسوب إلى الخليفة نفسه، أدّى الأدوار العلاجية والتعليمية نفسها نظرًا إلى موقعه الاستراتيجي للجهاد في الأندلس. انتشرت هذه المؤسسة بعد ذلك عبر حواضر مغربية عدة، بفضل عناية ملوك بني مرين الأوائل بها. وتراجعت أهميتها وعددها، وأصابها ما يصيب البشر من هرم بسبب الحروب والمجاعات والأوبئة، على الرغم من جهود بعض سلاطين الدولتين السعدية والعلوية. واندثر معظمها، وتغيّرت وظائف ما بقي منها صامدًا، ومسّ التغيير مبناها ومعناها، وذلك منذ بداية عصر الحماية، حيث اعتبرت "مارسطانات"؛ أي ملجأً للحمقى والمعتوهين.

كلمات مفتاحية: المغرب، الموحدين، بيمارستانات، مارسطانات.

The *bimaristan* hospital of Marrakech, built during the era of Almohad Caliph Yacub al-Mansour (d. 1199 AD), is the oldest in Morocco. The same Caliph was responsible for the establishment of a *bimaristan* in Chellah, Rabat, which played similar therapeutic and educational roles due to its strategic location for Muslim conquest of Iberia. The institution of the *bimaristan* subsequently spread to several other Moroccan cities, thanks to the efforts of the early Marinid Sultans. Yet these institutions later declined in number and importance, and were neglected due to wars, famines and epidemics, despite the efforts of the Saadian and Alaouite states. Most disappeared and the remainder changed, both in structure and function, from the start of the protectorate onwards, as they came to be used as "*maristans*"; mental hospitals.

Keywords: Morocco, Almohads, Bimaristans, Maristans.

* جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب.
Mohammed V University, Faculty of Letters and Humanities, Rabat, Morocco.
belkamel_bida@yahoo.fr



مقدمة

تكتسي دراسة المؤسسات الطبية أهمية كبرى، بحكم أنها مقياس حضاري لمدى اهتمام أمة ما بصحة أفرادها ورعاية مرضاها. لذلك نعتبر موضوع البيمارستانات من الموضوعات التي تستحق أكثر من دراسة، لارتباطها الوثيق، من جهة بالتراث الإسلامي، ومن جهة أخرى لقلة المهتمّين بها، نظرًا إلى الإجحاف الشديد الذي لحق وظائفها وأدوارها الطبية والنفعية، وأساسًا بالطرف الغربي للعالم الإسلامي؛ حيث اعتُبرت "مأوى للحمقى والمجانين". متى انبثقت البيمارستانات في المغرب الأقصى؟ وأين؟ ما رسمها من خلال الإشارات المصدرية؟ وما وظائفها ومختلف أدوارها؟ وما البيمارستانات الماثلة للعيان؟ وما المُرمّم منها؟

انتشرت البيمارستانات بالتدريج في طرفي العالم الإسلامي، وكان أول ظهور لها في المغرب الأقصى، وفق ما تتيح المصادر التاريخية من معلومات، خلال **العصر الموحدي**[1]. وبعد ذلك، تتعدد الأصناف والأشكال، بل توافر في المدن، سواء في العواصم، مثل مراكش وفاس ومكناسة الزيتون، أم في المدن الاستراتيجية، مثل تطوان والقصر الكبير وتازة وشالة ورباط الفتح وسلا وأسفي والصويرة، بيمارستان أو أكثر، كما سيأتي بيانه.

أولًا: بيمارستان الحاضرة المراكشية الموحدي هو الأقدم

ركزت المصادر المغربية والأجنبية على حاضرة مراكش أكثر من بقية مدن المغرب الأقصى، على اعتبار أنها صارت في عهد الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المومن "أوسع معاشًا وأكثرها خلقًا وأربحها تجارة"[2]. بل تميز عهد ابنه يعقوب المنصور (ت. 595هـ/ 1199م) بالقوة[3]، وإليه يُسنَد بناء أقدم بيمارستان في المغرب، الذي سيحمل اسم "دار الفرج"[4]. وطّنه صاحب كتاب **الاستبصار في عجائب الأمصار**[5] - المعاصر للخليفة يعقوب المنصور - في "القصبة، شرقي المسجد الجامع"، حيث ذكر: "وضع دار الفرج في شرق الجامع المكرم، وهو مارستان المرضى، يدخله العليل فيعاين ما أعد فيه من المنازه والمياه والرياحين والأطعمة الشهية والأشربة المفوّهة، ويستطعمها ويسيغها فتنعشه من حينه"[6].

---

1 ظهرت الإرهاصات الأولى للمؤسسات الطبية التي ستحمل مسميات عدة، ومنها تسميتها بدور الشفاء والبيمارستانات (دور المرضى) قبيل صدر الإسلام، وبدأت تتشكل تدريجًا في عهد الرسول الكريم الذي ربط بين علم الأديان وعلم الأبدان، وخلال العصر العباسي انتشرت البيمارستانات بمختلف الأصقاع الإسلامية، في بلاد الشام ومصر وغيرهما. للمزيد، ينظر: أحمد عيسى بك، **تاريخ البيمارستانات في الإسلام** (دمشق: المطبعة الهاشمية، 1939)؛ البضاوية بلكامل، "البيمارستانات وأدوارها التطبيبية والتعليمية، بيمارستانات الرباط نموذجًا"، في: **الثقافة أساس التفاهم والتطور والحوار: أعمال ندوة تكريم الدكتور محمد ابن شقرون** (الرباط: منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، 1999)، ج 1، ص 267-287؛ البضاوية بلكامل، "إشكالية بيمارستان القصر الكبير"، في: **مدينة القصر الكبير: الذاكرة والحاضر: أعمال الندوة المنظمة من 1 إلى 3 أبريل 1998**، تنسيق وتقديم محمد المغراوي، سلسلة الندوات، رقم 1 (سلا: منشورات مجموعة الدراسات والأبحاث حول القصر الكبير، 2000)، ص 143-153؛

Bidaouia Belkamel & Boujemaa Raouyane, "Les bîmâristâns au Maroc," in: Driss Mossaoui & Michel Roux-Dessarps (dir), *Histoire de la médecine au Maroc et dans les pays arabes et musulmans* (Casablanca: Najah el Jadida, 1995), pp. 47-50.

2 محمد المغراوي، **الموحدون وأزمات المجتمع** (الرباط: جذور للنشر، 2006)، ص 164.

3 المرجع نفسه.

4 مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد (بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1986)، ص 210. ورد ت المعلومات نفسها أيضًا في: محمد بن أحمد العبدي الكانوني (1310-1357هـ/ 1893-1941م)، **تاريخ الطب العربي في عصر دول المغرب الأقصى**، تحقيق علال ركوك ومحمد بالوز (الرباط: مطابع الرباط نت، 2013)، ص 79.

5 مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ص 210.

6 المرجع نفسه.



نتعرف إلى عمارته وتأثيثه والنفقة عليه والعاملين فيه والمستفيدين من خدماته من خلال ما ذكره عبد الواحد المراكشي (621هـ/ 1224م)، صاحب **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، حيث قال[7]: "وبنى (يعقوب المنصور) بيمارستانًا ما أظن أن في الدنيا مثله، وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد. وأمر البنّائين بإتقانه على أحسن الوجوه، فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح، وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياهًا كثيرة، تدور على جميع البيوت، زيادة على أربع برك في وسطه إحداها رخام أبيض"[8].

تفيد هذه المعلومات – على الرغم من شُحّها - بترتيب بيمارستان مراكش ضمن أرقى بيمارستانات العالم الإسلامي خلال التاريخ الوسيط وأجملها، بل متى رددنا كلام عبد الواحد المراكشي بحذافيره، يمكن اعتبار بيمارستان مراكش من المؤسسات الطبية التي عزّ نظيرها، فقد قال معجبًا به: "ما أظن أن في الدنيا مثله"[9]. ولا شك في أن تصميمه المستطيل الشكل سمح باصطفاف البرك الأربع التي زُيّنت إحداها بالرخام الأبيض البديع. وسمح تصميمه المستطيل كذلك بالتفاف البيوتات (الغرف) العديدة المخصصة للمرضى، فضلًا عن المرافق الوظيفية الأخرى؛ وهي متعددة: غرف القومة، مستودعات الأدوية، مخازن الألبسة والأفرشة، بيوت النظافة، مطبخ ... إلخ. تميز أيضًا بحديقته المزدانة بأنواع كثيرة من "المشمومات والمأكولات". أما بالنسبة إلى الزخرفة، فتتمثل في النقوش والزخارف البديعة التي "زادت عن الاقتراح" وفق عبارات صاحب **المعجب**[10]. فلا يمكن تمثّلها إلّا باستحضار النماذج المعمارية الإسلامية، ومنها زخارف المدارس التي تضمّنت نقوشًا وزخارِفَ - سواء في الأرض المغربية أم خارجها - من العصر الموحدي، خاصة من عهد الخليفة يعقوب المنصور، باني رباط الفتح.

وستزيد الفُرش وبقية أشكال الأثاث من قيمة المبنى، لأنه كما نعلم، الأثاث - من الصوف أو الخشب أو الجلد أو غيرها - من المواد التي أبدع فيها الحرفي المغربي منذ غابر الأزمان، إلّا أنها من المواد المعرضة للتلف، وبذلك لن نعرف شكل الأثاث في البيمارستان الموحدي إلّا من خلال ما ذكره صاحب **المعجب**، فهو حجّتنا الوحيدة للحديث عن الرفاه في التأثيث.

ومما لا ريب فيه كذلك أن الخدمات الطبية التي كانت تُسديها البيمارستانات لخاصة الناس وعامتهم متعددة، وبيمارستان مراكش الموحدي واحد منها. يتجلّى الحرص على كرامة المريض، وتوفير شروط الراحة له، من خلال عناية الخليفة نفسه بالمرضى؛ يعطي هذا الأمر المؤسسة وبانيها قيمة أكبر. قال المراكشي في هذا الشأن[11]: "ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الأصواف والكتان والحرير والأديم وغيره مما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت، وأجرى له ثلاثين دينارًا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة، خارجًا عما جلب إليه من الأدوية. وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال[12]، وأعدّ فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم، من جهاز الصيف والشتاء، فإذا نقه المريض، فإن كان فقيرًا أمر له عند خروجه بمال يعيش

7 حول كيفية اختيار موضع بناء البيمارستانات، ينظر: عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين**، ضبطه وصححه وعلق حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان ومحمد سعيد العلمي (القاهرة: مطبعة الاستقامة، 1368هـ/ 1949م)، ص 287.

8 يتحدث الحسن الوزان عن الرخام الأبيض المجزع طبيعيًا بنقاط خضر مستديرة، ويذكر أنه لا يوجد في أي مكان آخر غير بعض الأمكنة في الأطلس، على بعد خمسمئة ميل من مراكش، ينظر: الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الأفريقي، **وصف أفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 2 (بيروت: دار الغرب الإسلامي؛ الرباط: الشركة العامة للناشرين، 1983)، ص 134.

9 المراكشي، ص 287.

10 المرجع نفسه.

11 المرجع نفسه.

12 اهتممنا بهذه المفردات الطبية الواردة في **المعجب**، في: البضاوية بلكامل، "أشربة وأدهان وأكحال من البيمارستان الموحدي"، في: **التاريخ والمجتمع: أعمال مهداة للأستاذ محمد المنصور**، تنسيق خليل السعداني والبضاوية بلكامل، رقم 89 (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة الكرامة، 2021)، ص 109-133.



منه ريثما يستقل، وإن كان غنيًا دفع إليه ماله وترك وسببه، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه، وعولج إلى أن يستريح، أو يموت. وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخل، يعود المرضى ويسأل عن أهل كل بيت، يقول: كيف حالكم؟ وكيف القومة عليكم؟ إلى غير ذلك من السؤال، ثم يخرج، ولم يزل مستمرًا على هذا إلى أن مات رحمه الله".

يشيع عند عامة الناس وخاصتهم عند إثارتي هذا الموضوع، أن "البيمارستانات هي صنوة المارصطانات، فهي بذلك مجال 'لحبس الحمقى والمجانين'"[13]. يوضح صاحب **المعجب**، من خلال وصفه بيمارستان مراكش، عدم تخصص هذه المؤسسة في الأمراض النفسية والعقلية فحسب، بل تشمل الأمراض كافة، وكل المرضى. لقد عدّد مهمات العاملين في هذه المؤسسة الطبية المراكشية، وبيّن انفتاحها على الشرائح الاجتماعية كافة، والعناية بجميع المرضى الوافدين إلى الدار، سواء كان المريض فقيرًا أم غنيًا، مقيمًا أم عابرَ سبيلٍ، حتى إنها صارت بمنزلة دار للضيافة بالنسبة إلى الغرباء، هذا فضلًا عن أدوارها الأخرى، وعلى رأسها وظائفها التعليمية التي لا تقل أهمية عن الوظائف العلاجية والصيدلانية، قال صاحب **المعجب**: "وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال"[14].

ثانيًا: هل توافر للمغرب بيمارستان آخر في شالة؟

يُسند خطأ إلى الحسن الوزان (ليون الأفريقي)[15] ومارمول كاربخال[16] قولهما[17] إن الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن أحيا - زيادة على بيمارستان مراكش - عمارة شالة وأسّس فيها "مستشفى"[18]، إلّا أن بعض المؤلفين، من القدماء والمحدثين، لهم رأي آخر، فمثلًا الحسن الوزان يتحدث عن زاوية فاخرة وقصر لسكنى جنود المنصور في شالة ليس إلّا[19]، في حين يذكر بوجندار بأن بعض مؤرخي العجم يرجعون ليعقوب المنصور بناء "مستشفى كبير لذوي العاهات والأمراض"[20] بشالة. ويشير جاك كايي إلى تحول المقبرة المرينية خلال القرن الرابع عشر إلى مأوى[21].

لا يعقل أن يتوافر للمغرب في زمن يعقوب المنصور الموحدي بيمارستان واحد. فإذا كانت شالة رباطًا للجيوش المحاربة في الأندلس، فهي في حاجة ماسّة إلى محل للراحة والاستشفاء والعلاج من الأمراض العارضة من وعثاء الطريق. ويمكن في هذه الحالة أن تؤدي زاوية شالة أدوارًا متعددة، ومنها الأدوار التعليمية والعلاجية. لكن ما مصير بيمارستاني مراكش وشالة - هذا في حال توافرت لشالة هذه المؤسسة - بعد أفول نجم الموحدين؟

---

13 ليون الأفريقي، ص 228.

14 المراكشي، ص 287. تعنى المصادر المخصصة للمفردات الطبية بكل مفردة على حدة، وتذكر مختلف أصنافها، ونشير في هذا الصدد، مثلًا، إلى جامع ابن البيطار.

15 ليون الأفريقي، ص 227-229.

16 مارمول كاربخال، **أفريقيا** (الرباط: المعرفة، 1989).

17 المرجع نفسه؛ ليون الأفريقي، ص 227-229. قمنا بجرد شامل لهذين الكتابين، فلم نجد فيهما أدنى إشارة إلى بيمارستانات الرباط، وهذا ما ذكرناه في: البضاوية، "البيمارستانات وأدوارها التطبيبية والتعليمية"، ص 275-276.

18 الكانوني، ص 139.

19 ليون الأفريقي، ص 203.

20 أبو عبد الله محمد بوجندار، **مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح**، سلسلة نصوص ووثائق، رقم 5 (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة الأمنية، 2012)، ص 34.

21 Jacques Caillé, *La petite Histoire de Rabat* (Rabat: Imprimerie Oumaia, 2012), p. 40.



ثالثًا: انتقال الموازين: تنوّع أشكال البيمارستانات في الحاضرة فاس (كبرى في الداخل وصغرى خارج الأسوار)

تُجمع المصادر، كما سيأتي بيانه، على تفنن سلاطين بني مرين أكثر من غيرهم من السلاطين في بناء البيمارستانات في ربوع البلاد، خصوصًا أبا الحسن وابنه أبا عنان. لقد انتشرت البيمارستانات في أزمنة حكمهم على نطاق واسع، واختلفت في أحجامها وأشكالها؛ إذ ضمّنوا بعض الحواضر أكثر من بيمارستان، كما يُفهم من إشارات الحسن الوزان[22] الذي ذكر أنه كان لحاضرة فاس بيمارستانات داخل الأسوار، وآخر خارجها، بل اعتبر الموجود في قلب الأسوار أغناها، ولعل بيمارستان "سيدي فرج" أهمها كلها، كما يفيد في معرفة ذلك ما قدمه حوله من وصف، وكذلك معاينتنا له مع أعضاء جمعية تاريخ الطب المغربية ونظيرتها الفرنسية خلال تسعينيات القرن العشرين.

نورد هنا نص الحسن الوزان المتعلق ببيمارستانات فاس، ومنها بيمارستان سيدي فرج كاملًا لأهمية وصفه، حيث قال: "يوجد بفاس بيمارستانات عديدة لا تقل حسنًا عن المدارس التي سبق ذكرها. وكان الغرباء قديمًا يعطون السكن بها لمدة ثلاثة أيام. ويوجد عدد كبير من البيمارستانات خارج أبواب المدينة تقل جمالًا عن التي في داخلها. وكانت البيمارستانات غنية جدًا، إلّا أنه أيام حرب سعيد عندما كان السلطان في أشد الحاجة إلى المال، أشاروا عليه ببيع إيراداتها وأملاكها. ولما رفض السكان بيعها تقدم أحد وكلاء الملك وأفتاه بأن هذه البيمارستانات إنما أُسست بفضل الصدقات التي قدّمها أسلاف الملك. وبقيت البيمارستانات فقيرة محرومة تقريبًا من كل وسائل العمل. ومع ذلك، فإنها تستضيف اليوم بعض الفقهاء الغرباء وأشراف المدينة حفاظًا على الغرف لتبقى في حالة جيدة. وليس لمرضى الغرباء في أيامنا هذه غير بيمارستان واحد لا طبيب فيه ولا علاج. ولا يجد المريض المسكين غير حجرته وطعامه ومن يخدمه إلى أن يموت أو يشفى من مرضه. وفي هذا البيمارستان حجرات مخصصة للحمقى، أي أولئك المجانين الذين يقذفون بالحجر أو يرتكبون أنواعًا أخرى من الأذى [...] وأخيرًا، فإن هذا البيمارستان يتوفر على كل ما يحتاج إليه من كتّاب وممرضين وحرّاس وطبّاخين وغيرهم ممن يهتمون بالمرضى، ويتقاضى كل واحد من هؤلاء المستخدمين أجرًا حسنًا. ولقد عملت وأنا شاب في هذا البيمارستان مدة عامين، حسبما هو معتاد عند الطلبة، وكانت هذه الوظيفة تدرّ عليّ مبلغ ثلاثة مثاقيل في الشهر"[23].

1. بيمارستان سيدي فرج في فاس: من الأوج إلى الأفول

يفيد وجود بيمارستان سيدي فرج في عدوة القرويين، في قلب المدينة القديمة، وبالقرب من مزار مولاي إدريس وجامع القرويين، ومن المدارس المرينية أيضًا، في ضبط الأهمية، إلّا أن القليل من المؤشرات النصية تساعد في ضبط أدواره العلاجية خلال مرحلة الأوج. ولا شك في أن البحث في الأرشيف الخاص بهذه المؤسسة، وبخاصة البحث في أرشيف نظارات الأحباس، سيضيف الجديد إلى معلوماتنا حول الجوانب الخفية في تسيير مثل هذه المؤسسات، ونعتمد على نظرية النقيض، فنعتبر ما أصبح موضوع انتقاد هو مؤشر دال على الضد. فحديث الحسن الوزان (ليون الأفريقي)[24] عن انعدام الطبيب دال على وجوده سابقًا، وذكره استعمال المبنى لإيواء الغرباء والحمقى دليل على استفادة جميع المرضى من خدماته.

---

22 المرجع نفسه، ص 227-229.

23 بيمارستانات فاس خلال عهد الحماية، بالارتكاز على معلومات ليون الأفريقي في: المرجع نفسه.

24 المرجع نفسه، ص 229.



في اعتقادنا، لا تختلف أدوار البيمارستانات المرينية عن الأدوار التي كانت تضطلع بها مثل هذه المؤسسة خلال العصر الموحدي في المغرب، وفي بقية ربوع العالم الإسلامي في عصور الأوج، وليس في مراحل الأفول.

تحول بيمارستان سيدي فرج في فاس، خلال النصف الثاني من القرن العشرين، إلى قيسارية صغيرة. لقد تمكّنا من معرفة ما كان عليه حجم البيمارستان الفاسي من بعض الصور والتصاميم. ثم إن معايناتنا له بمفردنا، أو بمعية أعضاء من جمعيتي تاريخ الطب المغربية والفرنسية، أكد لنا الأمر. فالمبنى يتكوّن من طبقتين، طبقة سفلية تُفتح على ساحة تلتف حولها محال لبيع الأدوات المنزلية التقليدية، وأخرى علوية تضم العديد من المحال. لكن حالته لا تساعد في تبيّن معالمه الأصلية الممثلة في زخارفه[25].

2. بيمارستانات خارج فضاء العاصمة المرينية فاس

أ. إشارات المصادر

ما يلزم تأكيده هو كون ظاهرة البيمارستانات قد ترسّخت فعلًا في الحاضرة الفاسية خلال العصر المريني، إلّا أنها لم تقتصر على فاس، بل شملت أيضًا بقية جهات المغرب المريني، كما سيأتي بيانه باعتماد المصادر التي نورد أهم ما جاء فيها على النحو الآتي:

قال صاحب **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**: "إن السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني أول ملوكهم، صنع البيمارستانات في بلاده للمرضى والمجانين، وأجرى عليهم النفقات، وجميع ما يحتاجون إليه من الأغذية، وما يشتهونه من الفواكه والطرد[26]، وأمر الأطباء بتفقّد أحوالهم في أمورهم ومداواتهم وما يُصلح أحوالهم"[27].

وقال محمد بن علي الدكالي (1868-1945)، صاحب **الإتحاف الوجيز في تاريخ العدوتين**: "كان لبني مرين جنوح للخير واعتناء بالدين، فملؤوا المغرب وأمصاره ومدنه مدارس وزوايا ومارستانات"[28].

بلغت البيمارستانات أوجها خلال عهد الملوك الأوائل من بني مرين[29]، بل اشتدت عناية أبي عنان من خلال المصدر نفسه - أي **الإتحاف الوجيز** - أكثر من غيره لبناء "الزوايا والبيمارستانات للفقراء والغرباء والمرضى، وحبس عليها ما يقوم بها وبالواردين عليها".

ب. البيمارستانات المرينية وأدوارها بالعدوتين: سلا ورباط الفتح

تباينت أهمية البيمارستانات المرينية وأدوارها من حاضرة إلى أخرى، وبذلك فالعدوتان - الرباط وسلا - استفادتا بدورهما من هذا النوع من المؤسسات الصحية على غرار بقية حواضر المغرب الأقصى. أقيم بيمارستان سلا وسط حارة اليهود في "حومة" باب حسين، في محل كان فندقًا للزيت قديمًا. وهو بحسب صاحب **الإتحاف الوجيز**: "بناء حفيل مشتمل على بيوت كثيرة لاستقرار

---

25 كان هدفنا أن يتحوّل المبنى إلى متحف للعلوم الطبية؛ وهو المقترح نفسه الذي تبنّته آنذاك الطالبة سناء حسّاب من المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث خلال تقديم بحثها حول هذه المؤسسة أثريًا ومعماريًا. وتأتى لنا التزوّد بنسخة من دراستها، بحكم تتبعنا لبحثها؛ لكن بقي بحثها حبيس الرفوف، ومقترحنا مجرد حلم بعيد المنال.
S. Hassab, "Maristan Sidi- frag, Essai de restauration, de restitution et de réhabilitation," Mémoire de fin d'études des sciences de l'archéologie et du patrimoine," Rabat, 1998-1999, pp. 77-82.

26 لا شك في أن اللفظة تعني الطرائد، وليس الطرب كما ورد في النسخة المحققة للكانوني، في: الكانوني، ص 135.

27 ينسب المؤلف إلى علي بن أبي زرع الفاسي (ت. 726ه/ 1326م)، ويربطه آخرون بمؤلف مجهول. ينظر: مجهول، **الذخيرة السنية في تأريخ الدولة المرينية**، مراجعة وتحقيق محمد بن أبي شنب (الجزائر: مطبعة جون كربونل، 1339ه/ 1920م)؛ علي بن أبي زرع الفاسي، **الذخيرة السنية في تأريخ الدولة المرينية** (الرباط: دار المنصور للطباعة، 1972)، ص 89.

28 محمد بن علي الدكالي، **الإتحاف الوجيز في تاريخ العدوتين**، تحقيق مصطفى بوشعراء (سلا: منشورات الخزانة الصبيحية، 1986)، ص 61.

29 حمل الأمراء الأوائل من بني مرين اسم "أمراء المسلمين"، وتسمَّى أبو عنان "أمير المؤمنين"، وأشهرهم: يعقوب بن عبد الحق (1259-1286م)، وأبو الحسن (1297-1351م) وأبو عنان (1329-1358م).



المرضى والمجانين والحمقى بها". وجاء في مخطوط الفقيه الكانوني قوله: "وقد كتب النابغة السيد جعفر ابن خالد الناصري مقالة حول هذا المستشفى أو المدرسة الطبية، فقال: 'أما بعد فإن الفندق الكائن بحومة باب حسين من مدينة سلا حرسها الله المعروف بفندق أسكور كان في أول الأمر فندقًا للزيت قبل أن يبنيه السلطان أبو عنان مدرسة أو مارستانًا'". وعقّب الفقيه الكانوني قائلًا: "ويمكن الجمع بين كونه مدرسة ومارستانًا، بأنه كان أقسامًا على حساب المدارس الكبرى الطبية والعلمية. فقد كانت البيمارستانات الإسلامية جامعة بين المرضى ومواضع الأطباء، وغالبًا كان هؤلاء الأطباء يشتغلون في بعض الأوقات بتحضير الأدوية واستخراجها من المواد الكيماوية، ويُعلّمون التلاميذ صناعة ذلك علمًا وعملًا. فكان المحل يسمى باعتبار القسم المعد للتعليم، وإلقاء الدروس من الأساتذة مدرسة، ويسمى مارستانًا باعتبار القسم المخصص للمرضى والمجانين ومن في معناهم: وهذا شأن الكليات الآن في العواصم"[30].

لقد عاينا البيمارستان العزيزي السلاوي عدة مرات، منذ عام 2012، أي قبل ترميمه وبعده (الصورة 2). هو محاذٍ لقيسارية الذهب في باب بوحاجة، يُعرف بين السلاويين باسم دار القاضي (الصورة 1). إن نظرة سريعة على الواجهة الداخلية للبيمارستان تُبيّن جمالية هندسته؛ إذ يتخذ شكلًا مستطيلًا، تتوزّع غرفه حول الساحة الفسيحة. وما بقي من رسم زخرفته خارجيًا يُقرّبه من المدارس المرينية، ويكشف عن جمالية زخرفته. يُعوّل على اتخاذه متحفًا للآلات الموسيقية بعدم ترميمه (الصورة 2). ولا نرى غضاضة في ذلك على اعتبار أن القائمين على البيمارستانات عالجوا مرضاهم بالموسيقى[31]. نصبو كذلك إلى أن يصير متحفًا للأدوات الطبية الذي كان مبتغى جمعية تاريخ الطب التي لم يكتب لها الاستمرار، ولا لمشروعها أن يرى النور في بيمارستان سيدي فرج، في فاس.

أما بالنسبة إلى بيمارستانات الرباط، فهي ثلاث وحدات، إلّا أننا لم نعاين إلّا: البيمارستان القديم والبيمارستان الجديد. لقد تحدّث محمد بوجندار عن البيمارستان القديم في رباط الفتح، قائلًا: "ما فيه من مارستانات كالبيمارستان القديم أمام الجامع الكبير قيل إنه من أثر أبي عنان المريني ويدل له تصريح ابن جزي في تهذيب رحلة الطنجي بأن من آثار أبي عنان بناء المارستانات في كل بلد من بلاد المغرب ولا زال اسم المارستان يطلق عليه حتى بعد أن صار منجرة للأحباس أخيرًا"[32].

وأضاف: "وأما المارستان الجديد بضريح سيدي محمد الغاوي فهو من بناء السلطان مولاي عبد الرحمن"[33].

لقد أتاحت لنا المعاينة من جهة، وسؤال بعض الأشخاص المسنين، ومنهم الطاعنون في السن، من جهة أخرى، التأكد من أن المبنى الواقع في الباب الغربي للمسجد الكبير، في جوار مكتبة المعارف، هو البيمارستان القديم المريني. هو مبنى تابع لنظارة الأحباس، واليوم مأهول بالنساء (قيل لي أرامل ومطلّقات ومعوزات)؛ وما زالت معالمه واضحةً إلى اليوم، حيث يشغل حيّزًا مهمًا. فهو ذو شكل مستطيل على غرار البيمارستانَين الفاسي والسلاوي، يتكوّن من طبقتين، وتصطف الغرف حول الفناء الداخلي، وهي صغيرة الحجم. تنم هندسته عمّا كان له من مجد بصفته مدرسة، وبيمارستانًا أيضًا[34]. وعلى خلاف ما ذكرت حسّاب في إشاراتها

30 الكانوني، ص 146.

31 أحمد عيسى بك، **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**، ط 2 (بيروت: دار الرائد العربي، 1981)، ص 287.

32 بوجندار، ص 86.

33 المرجع نفسه.

34 البضاوية، "البيمارستانات وأدوارها الطبية والتعليمية"، ص 267-287.



إلى بيمارستنَي الرباط، ومنهما البيمارستان القديم. فهذا الأخير يجاور اليوم مكتبة المعارف التي احتلت مكان سقاية قديمة، وليس مكان البيمارستان[35].

3. بيمارستان سعدي وحيد بمراكش

ستتعرض البيمارستانات للتراجع في آخر عصر بني مرين على يد السلطان المريني أبي سعيد، لانشغاله بالحروب. استمر بعضها بعد ذلك، لكن بتوهج أقل وميضًا. فإذا كان الجهاد[36] من الأولويات أو المقدمات خلال العصر السعدي[37] الذي اعتبرت فيه دولة السعديين (915-1069هـ/ 1509-1661م) في الأساس دولة جهاد؛ واشتهرت بمعركة وادي المخازن 986هـ/ 1578م، فإن الحروب والصراعات لم تمنع هذه الدولة من أن تُعنى بالعلوم، كما بيّن ذلك الفقيه الكانوني، حيث قال: "فتدارك الله بهذه الدولة أمر المغرب، فطهّر الله بهم جل الشواطئ، وجمعت الكلمة، فأحيت المعالم وجددت المحاسن ونشرت رواق الحضارة والعلوم والفنون في ربوع المغرب"[38]. تفيد عبارة الكانوني "أحيت معالم"[39] عودة المؤسسات العامة إلى بعض أمجادها. ولا شك في أن البيمارستانات ستحظى بدورها، بالعناية نفسها، لأنه من عادة دول المغرب إحياء آثار الأول بالحفظ والصيانة. الأمر يصح على الأقل بالنسبة إلى الحواضر الكبرى، ومنها مراكش وفاس ورباط الفتح.

إلّا أننا لا نعرف إلّا بيمارستانًا واحدًا في مراكش خلال العصر السعدي، ينسبه الفقيه الكانوني إلى السلطان السعدي عبد الله الغالب (1557-1574)، الذي بناه في عام 970 هـ/ 1564م[40]، أي سبعة أعوام بعد تولّيه الحكم، وتعد هذه المعلمة – في نظرنا - دليلًا على تجديد الصلة بالماضي الطبي للمغرب الذي أدّت فيه البيمارستانات أدوارًا رائدة في نواحٍ عدة، وساهمت بقسط وافر في تقدم البحث العلمي.

رابعًا: تجدد ظاهرة البيمارستانات في عهد بعض الملوك العلويين وتوقفها في زمن الحماية

جدّد بعض ملوك الدولة العلوية الشريفة هذه المؤسسة كما هو معهود، إلّا أنه ترتب على الأوبئة والمجاعات تفاقم حالة الأوضاع الصحية[41]. فعلى سبيل المثال، كان غلاء الأسعار فاحشًا خلال عام 1073هـ/ 1759م، ولم يمنع هذا الأمر بعض السلاطين من إحياء مؤسسة البيمارستان، وبذلك ينسب إلى السلطان العلوي مولاي عبد الرحمن بناء البيمارستان الجديد في مدينة الرباط[42].

---

35 Hassab, p. 44.

36 قال الكانوني في هذا الشأن: "انتصبت هذه الدولة على رأس القرن التاسع الهجري، وصادفت المغرب في حالة منحطة لدرجة استولى البرتغال على جل شواطئه ورد عدة حملات على دواخله، فانحط المغرب انحطاطًا بيّنًا". ينظر: الكانوني، ص 167.

37 البضاوية بلكامل، "الوضع الطبي السعدي من خلال مؤلف، "تاريخ الطب العربي بالمغرب الأقصى لمحمد بن أحمد العبدي الكانوني (1310-1357هـ/ 1893-1941)"، في: **المعرفة الطبية وتاريخ الأمراض في المغارب**، تنسيق علمي لآسية بنعدادة (الدار البيضاء: مؤسسة الملك عبد العزيز، 2011)، ص 29-47.

38 الكانوني، ص 167.

39 المرجع نفسه.

40 المرجع نفسه.

41 لمعرفة مفصّلة عن أثر الأوبئة في البلاد والعباد، أُحيل إلى المؤلف الجماعي: **الجوائح عبر تاريخ المغرب: الأنواع والأسباب والتدابير**، تنسيق البضاوية بلكامل ومحمد أبيهي، سلسلة بحوث وندوات، رقم 82 (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة الأمنية، 2020).

42 عبد العزيز الخمليشي، "مدينة الرباط في القرن التاسع عشر (1818-1912): جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية"، أطروحة أعدت لنيل درجة دكتوراه الدولة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2007، ص 111، هامش 108.



وهكذا، أصبح لمدينة الرباط بيمارستان جديد علوي مكان القديم المريني، وهي بذلك جددت خلال العصر العلوي الصلة بالماضي[43]، بتشييدها هذا المبنى الذي يقع حيث يوجد اليوم ضريح سيدي محمد بن غازي في حومة سيدي فاتح، على بعد بضعة أمتار من باب البيبة، وقريب من الزقاق الذي يحمل اسمه[44].

يعتبر البيمارستان الرباطي الجديد بناءً فسيحًا، تبلغ مساحته حوالى 600 متر مربع. يتكوّن من طبقة أرضية فحسب، وهو بذلك يختلف في شكله عن البيمارستان المريني القديم، المشكل من طبقتين: أرضية وعلوية، كما أسلفنا، والقريب اليوم من سوق السباط، في مقابل المسجد الأعظم.

يتميز البيمارستان الجديد بانفتاحه على زقاق سيدي فاتح من خلال بابين، أحدهما صغير، وهو اليوم خاص بالأدوات المرتبطة بالشعائر الجنائزية، والثاني كبير. ويفضي هذا الأخير إلى ممر يؤدي إلى الساحة التي تشتمل على قسمين متداخلين، أحدهما يتوسط الساحة، وهو مشكّل من غرفتين، إحداهما احتوت على الضريح، والثانية خاصة بالصلاة وقراءة القرآن الكريم. ويتشكّل القسم الثاني من هذا الجناح، من عدة غرف تصطف حول الفناء الداخلي على شكل الحرف اللاتيني "U". لم نتمكّن من معاينة الغرف، لأن بعضها مأهولٌ، والأخرى موصدة بالأقفال، ويظهر من المساحة التي تفصل كل غرفة عن الأخرى بأنها لم تكن عريضة.

كانت تجري في البيمارستان الرباطي الجديد المعالجة نفسها التي توجد في ضريحَي سيدي فرج في فاس، وسيدي أحمد بن عاشر في سلا في مرحلة تدهورهما، بل ما كان يجري في بعض الأضرحة والمزارات، مثل ضريح سيدي علي بوجنون (موقع بناصة قرب مدينة بلقصيري في سهل الغرب) وسيدي علي بنحمدوش (مكناس) وسيدي ميمون (القصر الكبير) وغيرها، فكان المرضى يوثقون بـ "حلقة من حديد توضع حول العنق، ويُربَطون بسلسلة مثبتة في سقف البيت"[45]، أو يُترَكون في غرفة ضيقة مظلمة مكبّلين بالسلاسل. بعبارة أخرى، تحوّلت مؤسسة البيمارستانات ومقامات بعض الأولياء من مكان للعلاج إلى مكان للحبس، ما يدل على تراجع دور البيمارستانات الطبي والتعليمي إلى "مارصطان للمعتوهين والحمقى"[46]. وإذا كانت إدارة البيمارستان في سالف العصور والأزمان توكل لأمين مشهود له بالكفاءة في الطب[47]، يشتغل تحت إدارته طاقم طبي متعدد الاختصاصات وصيادلة مكلّفون بتحضير الأشربة والأدهان والأكحال، وأطر مكلفة بالتسيير والإنفاق، ثم مكلفون من القومة بالطبخ والمكلفون بالنظافة، فتعيين مقدم على رأس بيمارستان الرباط مثلًا، وضعف الأملاك المحبسة عليه، مقارنة بما خص به المسجد الأعظم، التي نذكر منها خلال عام 1334هـ/ 1915-1916م، حانوتين وثلاث أراضٍ حراثية، تؤكد سر تغيير ليس أدوار البيمارستانات فحسب، بل كذلك تسميتها بالمارصطانات، فهذه اللفظة ذات الحمولة القدحية تمحي بجرة قلم ثمانية قرون من المجد والعزة لهذه المؤسسة الطبية العربية بامتياز.

43 وعلى غرار العواصم التقليدية الثلاث، وكذا سلا التي توافر لها بيمارستان قديم مريني في فندق أسكور، في حومة باب حسين، وجديد علوي في ضريح سيدي الحاج أحمد بن عاشر، ازدانت الرباط بدورها ببيمارستان جديد علوي.

44 المرجع نفسه، ص 138.

45 المرجع نفسه، ص 128.

46 تراجع أدوار البيمارستانات يشرح سبب تعريف داود الأنطاكي (ت. 1008هـ) له على هذا النحو: "المحل الذي فيه المجانين". ينظر: داود بن عمر الأنطاكي، **تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب** (القاهرة: دار الفكر، 1952)، ص 302.

47 لا شك في أنه كانت لأطباء المغرب الأقصى - خلال المرحلة التي تعنينا، أي بين القرن الثاني عشر الميلادي الذي يوافق العصر الموحدي وبداية الحماية - إضافة إلى البيمارستانات والبيوتات والأسواق والمحال والمساجد، كما تفيد في معرفة ذلك مختلف المراجع القديمة والمتخصصة بالحضارة الإسلامية.



خاتمة

كانت البيمارستانات المغربية في أول عهدها تضاهي في بديع صنعها بقية بيمارستانات العالم الإسلامي، وعلى رأسها البيمارستان الموحدي في الحاضرة مراكش.

كان الأطباء يسهرون على علاج جميع المرضى، بغض النظر عن مستواهم الاجتماعي، بل حتى عابر السبيل كان ينعم بخيراتها، ويستظل الطائر بظلها، كيف لا، وملوك الدولة أنفسهم يُغدقون عليها من خيراتهم الشيء الكثير. حضرت فيها أنواع من الأشربة والأدهان والأكحال، وهيّأ الطباخون ألذ الأطعمة وأشهاها، بل كان للمرضى لباس صيف، وآخر للشتاء. لقد تعددت أيضًا أشكالها وأحجامها، كما كان الأمر في الحاضرة فاس.

سيصيب البيمارستانات المغربية ما يصيب الكائن البشري وحضارته من الهرم والتداعي، وذلك بتعرضها للهزات والكوارث ونوائب الدهر بالتدريج. هجرها المرضى، واقتصرت على علاج الأمراض العقلية فحسب، إلى أن صارت حبسًا لهم. لقد تحدث أحد الأفراد المستجيبين عن انتقال المرضى من ضريح محمد بن غازي نحو مستشفى الرازي في سلا، وكأن البيمارستانات لم تكن يومًا ما مؤسسة رائدة في مجالات الطب والصيدلة والتعليم.

غابت لفظة "بيمارستانات" عن قواميس اللغة المعاصرة، فأضحى مصطلح "المارسطان" هو المتداول والغالب؛ وكأن المؤسسة كانت حكرًا على أنواع من المرضى دون غيرهم. عشش الخراب على بعضها منذ مطلع القرن الماضي، وتوقفت عقاربها منتظرة من ينفض عنها غبار السنين بتعهدها بالترميم والصيانة. شكت من نوائب الدهر، فلم تجد من يجيب. وتحوّلت وظيفة بعضها من بيمارستانات إلى قيسارية أو ملجأ نفسي أو عقلي للمرضى، أو غدت مشروعًا كمتحف للآلات الموسيقية العتيقة.





المراجع

العربية

الأنطاكي، داود بن عمر. **تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب**. القاهرة: دار الفكر، 1952.

بوجندار، أبو عبد الله محمد. **مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح**. سلسلة نصوص ووثائق، رقم 5. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة الأمنية، 2012.

الثقافة أساس التفاهم والتطور والحوار: أعمال ندوة تكريم الدكتور محمد ابن شقرون. الرباط: منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، 1999.

التاريخ والمجتمع: أعمال مهداة للأستاذ محمد المنصور. تنسيق خليل السعداني والبضاوية بلكامل. رقم 89. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة الكرامة، 2021.

الجوائح عبر تاريخ المغرب: الأنواع والأسباب والتدابير. تنسيق البضاوية بلكامل ومحمد أبيهي. سلسلة بحوث وندوات، رقم 82. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة الأمنية، 2020.

الخمليشي، عبد العزيز. "مدينة الرباط في القرن التاسع عشر (1818-1912): جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية". أطروحة أعدت لنيل درجة دكتوراه الدولة. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس. الرباط. 2007.

الدكالي، محمد بن علي. **الإتحاف الوجيز في تاريخ العدوتين**. تحقيق مصطفى بوشعراء. سلا: منشورات الخزانة الصبيحية، 1986.

عيسى بك، أحمد. **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**. دمشق: المطبعة الهاشمية، 1939.

________. **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**. ط 2. بيروت: دار الرائد العربي، 1981.

الفاسي، علي بن أبي زرع. **الذخيرة السنية في تأريخ الدولة المرينية**. الرباط: دار المنصور للطباعة، 1972.

كاربخال، مارمول. **أفريقيا**. الرباط: المعرفة، 1989.

الكانوني، محمد بن أحمد العبدي. **تاريخ الطب العربي في عصر دول المغرب الأقصى**. تحقيق علال ركوك ومحمد بالوز. الرباط: مطابع الرباط نت، 2013.

مجهول. **الاستبصار في عجائب الأمصار**. نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد. بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1986.

مجهول. **الذخيرة السنية في تأريخ الدولة المرينية**. مراجعة وتحقيق محمد بن أبي شنب. الجزائر: مطبعة جون كربونل، 1339هـ/ 1920م.

مدينة القصر الكبير: الذاكرة والحاضر: أعمال الندوة المنظمة من 1 إلى 3 أبريل 1998. تنسيق وتقديم محمد المغراوي. سلسلة الندوات، رقم 1. سلا: منشورات مجموعة الدراسات والأبحاث حول القصر الكبير، 2000.

المراكشي، عبد الواحد. **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين**. ضبطه وصححه وعلق حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان ومحمد سعيد العلمي. القاهرة: مطبعة الاستقامة، 1368هـ/ 1949م.



المعرفة الطبية وتاريخ الأمراض في المغارب. تنسيق علمي لآسية بنعدادة. الدار البيضاء: مؤسسة الملك عبد العزيز، 2011.

المغراوي، محمد. **الموحدون وأزمات المجتمع**. الرباط: جذور للنشر، 2006.

الوزان الفاسي، الحسن بن محمد المعروف بليون الأفريقي. **وصف أفريقيا**. ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر. ط 2. بيروت: دار الغرب الإسلامي؛ الرباط: الشركة العامة للناشرين، 1983.

الأجنبية

Caillé, Jacques. *La petite histoire de Rabat*. Rabat: Imprimerie Oumaia, 2012.

Hassab, S. "Maristan Sidi-frag, Essai de restauration, de restitution et de réhabilitation." Mémoire de fin d'études des sciences de l'archéologie et du patrimoine. Rabat, 1998-1999.

Mossaoui, Driss & Michel Roux-Dessarps (dir). *Histoire de la médecine au Maroc et dans les pays arabes et musulmans*. Casablanca: Najah el Jadida, 1995.



ملحق

الصورة (1)

البيمارستان العزيزي في سلا (المدخل قبل ترميمه)



المصدر: المعاينة الميدانية، 1992.

الصورة (2)

البيمارستان العزيزي في سلا (المدخل بعد الترميم)



المصدر: المعاينة الميدانية، 2018.



التسلم Received
2022-11-30

التعديل Revised
2023-07-10

القبول Accepted
2023-07-25

الرقم التعريفي: DOI: https://doi.org/10.31430/WCCZ4051

يحيى بولحية | *Yahya Boulahya

قضايا تاريخية وإشكالات تحديثية في كتاب "ذكريات شخصية لحياة حميمة بالمغرب" لمدّالينا شيزوتي فرارا**

Historical Issues and Problems of Modernisation in the Book “Personal Memories of an Intimate Life in Morocco” by Maddalena Chizzotti Ferrara

أوردت مدّالينا شيزوتي فرارا في كتاب **ذكريات شخصية لحياة حميمة بالمغرب** معلومات تاريخية مهمة، لا نجدها في مصادر التاريخ الموازية. يفيد الكتاب المهتمين بالفترة التاريخية موضوع الدراسة، باعتبار المؤلفة زوجة المسؤول الثاني عن دار الماكينة في فاس. حاولتُ في قراءة الكتاب المترجَم، وبأسلوب استقرائي للنصوص، ومقارنتها بالمصادر التاريخية للفترة نفسها، استنتاج الجديد الذي يمكن أن يفيد البحث التاريخي ويجيب عن بعض التساؤلات التحديثية.

كلمات مفتاحية: المغرب، دار الماكينة، الحسن الأول، فاس.

In “Personal Memories of an Intimate Life in Morocco”, Ferrara presents important historical information absent from parallel sources. The book is of particular value to those interested in the historical period under study, as its writer was the wife of the deputy director Dar Al-Makina, an arms factory in Fez. This paper applies an inductive approach to the text and compares it with other historical sources of the period, in an attempt to draw new conclusions that may be of use to historical researchers and answer certain questions about the Morocco’s modernisation process.

Keywords: Morocco, Weaponry, Hassan I, 19th century, Fes.

* أستاذ التعليم العالي المساعد في مركز التربية والتكوين لجهة الشرق بوجدة، المغرب.

Assistant Professor of Higher Education at the Center for Education and Training East in Oujda, Morocco.

yahyathese2007@gmail.com

** مدّالينا شيزوتي فرارا، **ذكريات شخصية لحياة حميمة بالمغرب**، ترجمة مصطفى نشاط وناصح رضوان (الرباط: مطابع الرباط نت، 2019). وقد كان الكتاب موضوعًا ليوم دراسي عُقد في مركز التربية والتكوين بوجدة، ونُشرت أعماله ضمن منشورات المركز، في عام 2022.



مقدمة

أضحت المواضيع التاريخية المثارة اليوم تمتح من روافد مختلفة، لا تنتمي حتمًا إلى الدرس التاريخي المعروف، وتسمح بإنتاج الجديد من البحوث والقضايا، من زوايا نظر متباينة، كما تُبذل الجهود في بعث النصوص وترجمتها، وتبدو أهميتها الخاصة، إذا كانت تتناول مواضيع غير معتادة في المتن التاريخي، من قبيل أدب الرحلة الأوروبية، وما تضمّه من ملاحظات ومعاينات، تفيد كثيرًا في ترميم الذاكرة التاريخية، وتوضيح ما سكتت عنه المصادر التاريخية المألوفة، باعتبار طبيعة المهمة التي كانت تسمح للرحالة الأوروبيين بمعاينة قريبة للظواهر التحديثية، وإبراز الملامح الثقافية والسوسيولوجية للمجتمعات الموصوفة.

أظن أن المواضيع المثارة في متن الرحلة الأوروبية، خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، يحكمها خيط ناظم، يخص ممارسة حفريات عميقة في قضايا مهملة، وتكتسي طابع الجدة، وتتحلّى بلباس بحوث إشكالية، تثير الأسئلة، وتروم ترميم الدرس التاريخي وملء بياضاته، مستفيدةً مما تتيحه المناهج التاريخية الجديدة وفضاءات الترجمة، وما سمحت به من إمكانية توسيع منافذ البحث والاستقصاء وتوظيف المعلومات المختلفة في الإجابة عن إشكالات تاريخية متعددة.

نودّ القول في البداية إن حركة الترجمة في حقول التاريخ المختلفة في المغرب، على الرغم من أهميتها البالغة، فإنها ما زالت في مراحلها الجنينية، وفي وضع لا يُسعف في تمتين أواصر المعرفة التاريخية[1]. وإذا كانت المحاولات الأكاديمية حثيثة، وفي منحى تصاعدي ومهم، فلأننا نحتاج إلى حفريات راسخة في عملية الترجمة، مسترشدين بالعلامات المضيئة الخاصة بالموضوع، من قبيل اجتهادات خالد بن الصغير، في الترجمة من الإنكليزية إلى اللغة العربية[2]، وكذا محاولات محمد جادور ومحمد حاتمي، وترجمات محمد حبيدة، ومحمد الغرايب، من الفرنسية إلى العربية، علمًا أننا نجد جهود الترجمة، أيضًا، في مصنفات تاريخية عامة، بذل مؤلفوها جهدًا علميًا رصينًا في توفير الترجمة المناسبة لوثائق تاريخية أجنبية، ومثال ذلك ما أوردته الباحثة بهيجة السيمو من معلومات نادرة عن الأرشيف الإيطالي[3]، وترجمته إلى العربية، وما ضمّه من معلومات تاريخية مهمة، تخص العلاقات المغربية - الإيطالية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

أهمية الكتاب المترجم

ينتمي الكتاب محل الدراسة إلى ما يمكن تسميته بالمصادر اللاإرادية أو الدفينة، بتعبير المرحوم محمد المنوني، ويكتسي أهمية خاصة، نظرًا إلى موقع مؤلّفته، شيزوتي[4] بوصفها زوجة المسؤول الثاني عن دار السلاح في فاس.

1 أشير على سبيل المثال إلى أن كتاب **المغرب** لإدموندو دو أميسيس، الصادر في عام 1876، بالإيطالية، قد تُرجم إلى الفرنسية في عام 1882.

2 أشار خالد بن الصغير إلى طبيعة المشروع، الترجمة، الذي يريد تأسيسه وقال: "ويدخل نشرنا لهذا الكتاب 'القضاء المتعدد'، في إطار مشروع نطمح إلى أن يكون موسعًا وبعيد المدى، واستهدفنا منه الانفتاح على نتائج الدراسات المعاصرة التي تحققت في بعض الجامعات الأمريكية ذات الاهتمام بالبحث في المواضيع التاريخية، بأبعادها الاجتماعية والأنتربولوجية والسياسية والاقتصادية المتعلقة بالمغرب، باعتباره أحد الأقطار الفاعلة في منطقتي شمال أفريقيا وحوض البحر الأبيض المتوسط. ينظر: جيسيكا مارجلين، **القضاء المتعدد: اليهود والمسلمون في المغرب المعاصر**، ترجمة خالد بن الصغير (الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2021)، ص 8.

3 بهيجة سيمو، **العلاقات المغربية - الإيطالية (1869-1912م)** (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة؛ منشورات اللجنة المغربية للتاريخ العسكري، 2003).

4 مدّالينا شيزوتي فرارا، هي شابة إيطالية، قدِمت مع زوجها فرارا إلى المغرب، واستقرت في فاس مدة سنتين ونصف السنة؛ إذ وصلت إليها في كانون الأول/ ديسمبر 1897، وغادرتها في أيار/ مايو 1900. وأما عن سبب استقرارها في المغرب، فيكمن في أنها رافقت زوجها فرارا، رئيس البعثة الإيطالية المكلفة بمصنع الأسلحة في فاس، الذي يعرف بـ "الماكينة"، وهو الذي اتخذت منه إحدى بوابات فاس اسمًا لها. وقد عاودت شيزوتي زياراتها إلى المغرب بعد ذلك صحبة زوجها. وفي عام 1911 ألّفت كتابها الذي عنونته بـ **ذكريات شخصية عن حياة حميمة بالمغرب**، اعتمادًا على ذاكرتها والرسائل التي كانت تبعث بها إلى أبيها (من مقدمة الكتاب).



جمع الكتاب بين أدب الرحلة وتقنية الترجمة. وضمن هذا السياق، حاول مصطفى نشاط[5] التطرق إلى موضوع الترجمة، من الإيطالية إلى العربية، ضمن مشروع أوّلي، يخص فحص الذهنية الإيطالية واستنتاج انطباعاتها الذاتية حول المغرب، سلطة ومجتمعًا وثقافة، من خلال كتابات وتنظيرات لمجموعة من المفكرين والرحالة الإيطاليين، قصد إطْلاع الجمهور العربي على متن تاريخي، يحقق الإفادة العلمية المنشودة.

لا شك في أن الباحث في موضوع التاريخ، باطّلاعه على نصوص أجنبية مهمة، تنشأ لديه رغبةٌ جامحة، تدفعه إلى ترجمتها إلى العربية، ليقينه بجدواها وفائدتها للمتعطشين للمعرفة المبتورة والناقصة.

ضمن هذين الضابطين، الترجمة وأدب الرحلة، بدأ نشاط مشروعه بترجمة هذا الكتاب، وهي ترجمة مشتركة مع رضوان ناصح[6] المتخصص في اللغة الإيطالية وآدابها، كما ترجما، ضمن النسق المشروعي نفسه، كتاب **تحت الخيمة** للويجي برزيني، وكتاب **ماضي العالم العربي ومستقبله من خلال مقدمة ابن خلدون** لماسمو كمبنيني.

قدّم مصطفى نشاط دراسات متعددة، تخص مواضيع التهميش والمهمشين، مثل **السجن والسجناء**[7] و**المرتزقة**[8] و**المواد المسكرة**[9]، وواجه صعوبات متعددة في ملء المتن التاريخي المبتور، من أهمها شح الإشارات المصدرية وصمتها عن إيراد واقع الفئات المهمّشة وأحوالها، خاصة خلال العصر الوسيط. لكن الانفتاح على الإشارات المصدرية في نوافذ لا تنتمي إلى حقل التاريخ (أدب الرحلة، وأدب المناقب، ونصوص الفتاوي الفقهية ... إلخ) شجعه، على غرار مختلف الباحثين، على اقتحام هذا اللون من المواضيع وتقديم مادة تاريخية جديرة بالاحترام والاستثمار.

اهتم نشاط، أيضًا، بكتابة مواضيع تخص التاريخ الوسيط، بحكم التخصص الأكاديمي، لكنّ وعيه بأهمية المصادر اللاإرادية في ملء بياضات المتن التاريخي، أخرجه من دائرة فترة التخصص نحو مظان التاريخ المعاصر، من ثنايا قضايا الترجمة من الإيطالية إلى العربية، بمشاركة ناصح، وهو مجال ما زال بكرًا، ولم يجرِ استثمارُه على الوجه المطلوب.

تكشف المحاولة أهمية العمل المترجَم في إتمام الصورة التاريخية وفكّ غموضها، خاصة إذا كان صاحب العمل المترجَم ذا قيمة تاريخية خاصة، من مثل مدّالينا شيزوتي فرارا التي عاينت، عن قرب، أبرز صورة تحديثية في تاريخ المغرب في أواخر القرن التاسع عشر، وأعني بهذا دار الماكينة في فاس، ودورها في إدماج أكبر عدد من المتعلمين المغاربة الذين درسوا في أوروبا.

إذا كان كتاب شيزوتي لا يرقى إلى مستوى ما دونه كل من إيديميسيس وبرزيني وبيير لوتي، فإن المعلومات التاريخية الواردة فيه نادرة ومهمة، لم ترد لدى كل من برزيني أو إدموندو دي أميشيس[10]، وهي إشارات مصدرية تحتاج إلى استثمار حقيقي في بناء

5 مصطفى نشاط، أستاذ التعليم العالي (متقاعد)، كلية الآداب، جامعة محمد الأول في وجدة، متخصص في التاريخ الوسيط، له العديد من المؤلفات التاريخية. وفي ميدان الترجمة، صدر له إضافة إلى كتاب شيزوتي فرارا، ترجمة كتاب: لويجي برزيني، **تحت الخيمة: انطباعات صحافي إيطالي بالمغرب سنة 1906**، ترجمة ناصح رضوان ومصطفى نشاط (طنجة: سليكي أخوين، 2022). كما ترجم بالمشاركة مع ناصح رضوان أيضًا: ماسمو كمبنيني، **ماضي العالم العربي ومستقبله من خلال مقدمة ابن خلدون** (عمان: دار فضاءات للنشر والتوزيع، 2021).

6 رضوان ناصح، أستاذ الأدب الإيطالي في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني وجامعة عين الشق في الدار البيضاء، يهتم بتاريخ صقلية الإسلامية وبالاستشراق الإيطالي، ترجم بالمشاركة مع مصطفى نشاط ثلاثة كتب من الإيطالية إلى العربية، وهي المذكورة في الهامش السابق.

7 مصطفى نشاط، **السجن والسجناء: نماذج من التاريخ الوسيط** (الرباط: منشورات المجلس الوطني لحقوق الإنسان، 2012).

8 مصطفى نشاط، **إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني** (وجدة: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2003).

9 مصطفى نشاط، **جوانب من تاريخ المشروبات المسكرة بالمغرب الوسيط** (الرباط: منشورات الزمن، 2006).

10 Edmondo De Amicis, *Le Maroc*, Henri Belle (trad.) (Pais: Librairie Hachette, 1882).



الدرس التاريخي المتعلق بإشكالية التحديث في المغرب، وموضوع البعثات التعليمية المغربية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

إشكالية البحث

بعد هذه المقدمة، نتساءل عن الجديد الذي أضافه الكتاب/ الترجمة؟ وهل يمكن أن تملأ المعلومات الواردة فيه بعض البياضات الخاصة بموضوع البعثات التعليمية المغربية؟

هل يفتح الكتاب المترجم وأمثاله آفاق البحث التاريخي في المغرب، خاصة في موضوع التحديث والبعثات التعليمية، باعتباره آلية جرى توظيفها، ضمن السياق الإصلاحي العام في المغرب، في أواخر القرن التاسع عشر؟

السياق العام للكتاب

يدخل كتاب شيزوتي ضمن أدب المذكرات، وإن كان بعض فصوله يُدرج ضمن أدب الرحلة، حيث تُحدّثنا الكاتبة عن مشاهداتها وسفرها، ذهابًا وإيابًا ما بين طنجة وفاس. فهي ليست كاتبة محترفة - كما تعترف بذلك، في مقدمة كتابها - على غرار ما نجد لدى إدموندو دي أميشيس أو بيير لوتي[11]، أو في رحلات إيطالية أخرى تميزت بالعمق في التحليل والملاحظة والاستنتاج، ومنها رحلة لويجي برزيني[12].

يُدرَج الكتاب، كما قلت، ضمن المصادر اللاإرادية التي ضمّت معلومات تاريخية حول دار باب الماكينة في فاس؛ ويقول المترجمان عن الكتاب إنه نادر جدًا، نُشر في عام 1912، وتأخرت ترجمته إلى هذا الزمن، ما يدل على إشكالية الترجمة التي أشرتُ إليها آنفًا.

قدِمت شيزوتي، رفقة زوجها إلى المغرب، واستقرا في فاس سنتين ونصف السنة، إذ وصلا إليها في عام 1897؛ أي ثلاث سنوات بعد وفاة السلطان الحسن الأول (1873-1894)، وغادرتها في أيار/ مايو 1900، وهي فترة جد حرجة في تاريخ المغرب السياسي والدبلوماسي، وتمثّل انتقالًا سياسيًا صعبًا، نظرًا إلى المكانة التي كان يتبوّأها السلطان الحسن الأول، وبداية انهيار الفعل السياسي في أثناء عهد الوصاية وفترة حكم عبد العزيز (1894-1908).

تنتمي شيزوتي إلى عائلة عسكرية إيطالية، فهي ابنة لودوفيكو شيزوتي (1838-1912) الذي كان من منظّري الحياة العسكرية في إيطاليا، من خلال مساهمته في قيادة بعض حروب الوحدة الإيطالية، وتأسيسه ومشاركته في إصدار مجلات تهتم بالشأن العسكري (مقدمة المترجمَين). وتنحدر من عائلة أرستقراطية، من شمال إيطاليا، وعاشت طوال حياتها في أوساط عسكرية، وهي أوساط نشاط التيار المحافظ والإمبريالي في المجتمع الإيطالي؛ لذا ليس مستغربًا، إن وجدنا في صفحات مذكراتها، الصور النمطية كلها التي كانت متداولة في ذلك الوقت في إيطاليا، حيث شاركتها من دون تردد في كتابها.

يُمثّل الكتاب، إذًا، وثيقة تاريخية مهمة، تُعبّر عن صورة المرحلة وإشكالاتها المتباينة والمتعددة، وتقدّم معلومات من وجهة نظر إيطالية، امتزج فيها الحدث التاريخي بالانطباعات الذاتية. ونقتصر في هذه الدراسة على تناول القضايا التحديثية، حصرًا للموضوع، وتحقيقًا للفائدة العلمية.

---

11 Loti Pierre, *Au Maroc* (Paris: La boite de document, 1988).

12 تمثل رحلة لويجي برزيني نموذجًا متميزًا في استقصاء المعلومات وبنائها وتأويل مقتضياتها، نظرًا إلى المهمة التي اضطلع بها. ولما كان الرجل صحافيًا متمرسًا، ومن "خيرة الصحافيين الإيطاليين في الفترة التاريخية الممتدة بين عام 1901 ونهاية الحرب العالمية الأولى"، فقد كانت له قدرة على التعريف بثقافات الشعوب البعيدة وحكاياتهم وأساليب حياتهم. ينظر: برزيني، ص 7. ويستنتج القارئ لمتن رحلته الأبعاد السوسيولوجية والأنثروبولوجية التي وظّفها لفهم خصوصيات السلطة والمجتمع في المغرب في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.



الدراسات السابقة

تناولت دراسات سابقة مواضيع هذا الكتاب من زوايا نظر مختلفة، ومنها إطلالة تعريفية من محمد جادور[13]، لمحاور المؤلَّف المترَجم، أبرز فيها "أهمية الكتاب في تمثل أدب الرحلة النسوي للأرض والناس، إبان مرحلة مفصلية من تاريخ المغرب، عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وذكر أن الاهتمام بالرحلات انصبّ في الأساس على الرحلات الفرنسية والإنكليزية، وبدرجة أقل الإسبانية، في مقابل إهمال نظيرتها الإيطالية"[14]. وهذا ما يجعل من الترجمة موضوع الدراسة ذات أهمية بالغة ضمن المتن التاريخي للمغرب في الفترة المعاصرة.

من جانب آخر، تناول جلال زين العابدين موضوع الكتاب[15] من زاوية تحليلية ونقدية، وفي نظره، حاولت شيزوتي، من خلال هذه الرحلة التي ابتدأتها من طنجة، وأنهتها في فاس، مرورًا بالعرائش، إبانةَ المغرب في صورة الفضاء البدائيّ الجامد والغارق في التقليدانيّة، حيث اجتهدت في رسم لوحة قاتمة لمغرب مُدْرج بأشكال العتاقة والدونيّة والانحطاط كلها، ورسم التفاوتات القائمة بينه وبين واقع الذات (إيطاليا)[16]. وهي قضايا تركّز على قيم الاستعلاء، وتضمّ بذور الفكر الإمبريالي، كما وردت في نصوص كتاب شيزوتي.

على مستوى الدراسات الأجنبية، توجد دراسة بالفرنسية، نهجت بعد المقارنة بين متن رحلة كل من برزيني وشيزوتي[17]، واهتمت أساسًا بوصف ثقافة الحريم في المغرب من خلال رحلة شيزوتي، والوصف الدقيق الذي قام به برزيني لأوضاع المغرب السياسية والاجتماعية.

وكذلك أشارت الباحثة بهيجة سيمو[18] إلى كتاب شيزوتي، واستثمرت ذلك في تحليل مقاطع خاصة بالعلاقات المغربية - الإيطالية في أواخر القرن التاسع عشر، وأطلعت المهتمين على متن تاريخي جدير بالتتبع والاستثمار، حيث تُعدّ سيمو رائدة في موضوع المغرب ضمن الأدب الإيطالي في الفترة موضوع الدراسة، وقد أنتجت أولى الكتابات التي فصلت في الحديث عن كتاب شيزوتي[19] ودار الماكينة في فاس[20]، وعرّفت مجموع المهتمين من الدارسين والمؤرخين المغاربة بالموضوع، وقدّمت في مؤلفاتها ترجمات رصينة، تفيد الباحث في العلاقات المغربية - الإيطالية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. يمثّل كتاب شيزوتي في نظر سيمو أهمية خاصة، تختلف عن الكتابات الإيطالية الموازية، في نظرتها إلى المغرب نظرة مستقرة، نابعة من حكم على الأحداث

---

13 محمد جادور، "مدّالينا شيزوتي فرارا: ذكريات شخصية لحياة حميمة بالمغرب، ترجمة مصطفى نشاط ورضوان ناصح (الرباط: مطابع الرباط نت، 2019)، 254 ص"، مجلة **هسبريس تامودا**، مج 3، 2019، ص 439-442.

14 المرجع نفسه، ص 439.

15 جلال زين العابدين، "تمثلات مغرب نهاية القرن 19 وبداية القرن 20، بعيون رحالة إيطالية"، **دراسات استشراقية** (بيروت: المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية)، العدد 30 (2022).

16 المرجع نفسه، ص 134.

17 Valerio Vittorini, "Le Maroc dans les récits de voyage de Maddalena Cisotti Ferrara et Luigi Barzini," *Loxias-Colloques*, 11/6/2022, accessed on 5/10/2023, at: https://bit.ly/3TCzjnC

18 سيمو، **العلاقات المغربية - الإيطالية**.

19 المرجع نفسه. أوردت سيمو في مقدمة كتابها، ضمن محور مصادر إيطالية حول المغرب، معلومات وافية ومميزة حول شخصية مدّالينا شيزوتي، ص 20-23.

20 بهيجة سيمو، **الإصلاحات العسكرية بالمغرب (1844-1912)** (الرباط: المطبعة الملكية، 2000). يُعدّ هذا الكتاب أحد المراجع النادرة التي فصّلت بتدقيق في موضوع دار الماكينة في فاس، حيث حددت الإطار التاريخي العام لذلك، باستقراء تاريخي دقيق، وبتتبع المراسلات بين الجانبين المغربي والإيطالي، خاصة في فترة حكم السلطان الحسن الأول (1873-1894)، كما أوردت العديد من الوثائق الأجنبية الفرنسية والإيطالية والأرشيف المغربي، ووظّفتها في بناء متن تاريخي مفصل، مع إبدائها ملاحظات وجيهة تخص مآل المشروع بعد وفاة السلطان الحسن الأول.



والقضايا عن قرب، ومن داخل واقعها التاريخي والاجتماعي[21]. ولا شك في أن ذلك أعطى تلك النظرة النمطية والاستعلائية، على امتداد كتابها/ مذكراتها، حيث رأت المغاربةَ المسلمين بمنظار غربي مسيحي، يصفهم بالتخلف والدونية الحضارية.

إسهامًا مني في قراءة الكتاب، أود التركيز على مسألة لم يتم بحثها بالتفصيل، وتخصّ جوانب محددة تتعلق بالتحديث في المغرب، ومسألة البعثات التعليمية المغربية في أوروبا من وجهة نظر إيطالية، علمًا أن هناك مواضيع أخرى مهمة وردت في الكتاب، وتخص النزعة الإمبريالية، وما تفرّع منها من أحكام انطباعية واستعلائية، تطرّقت إليها سيمو، وجادور وزين العابدين، كما ذكرت آنفًا.

أولًا: ملاحظات أولية حول مؤسسة دار الماكينة في كتاب شيزوتي

يفحص الدارس للفترة التاريخية المذكورة، الكتابَ، انطلاقًا من فرضية تقول بأهميته البالغة في موضوع التحديث، باعتباره مصدرًا تاريخيًا مكمّلًا للأرشيف التاريخي الوطني المغربي، خلال أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حتى لو كانت المعلومات التاريخية الواردة فيه قليلة.

قالت شيزوتي: "بُني المصنع بفاس الجديد، بجانب قصر السلطان داخل سياج السكن الشريفي" (ص 100)، ما يدل، في حد ذاته، على أن المشروع خضع لإشراف مباشر من الدولة المغربية، وكان قريبًا من دار السلطان، رغم المشاكل العديدة التي أثارها اختيار موقع بعيد عن طرق المواصلات، وتحدثت شيزوتي عن ذلك، في أكثر من مناسبة، بأسلوب نقدي جليّ وواضح.

من المعروف لدى الباحثين أن مسيرة التحديث التي عرفها المغرب، منذ زمن محمد الرابع (1859-1873)، وقبله بكثير، حدثت بإشراف مباشر من المؤسسة المخزنية، مثلما أن مختلف السياسات الداخلية والخارجية، حيكت خيوطُها من مؤسسة السلطان، منذ أزمنة متطاولة، مثل تجنيد جيش الحراطين (المولى إسماعيل، 1672-1727) وسياسة الباب المفتوح (سيدي محمد بن عبد الله، 1757-1790)، وسياسة الاحتراز (المولى سليمان، 1797-1822)، وغيرها، ما يدل، بداية، على أن مشروع التحديث، كما كان في مصر في زمن محمد علي، لم يكن اختيارًا مجتمعيًا، بل خضع لإشراف مباشر من مؤسسة السلطان.

أشارت شيزوتي إلى أن كتابها لا يرقى إلى نمط الكتابة التي سجّلها بيير لوتي في كتابه **في المغرب** *Au Maroc*، أو كتاب إيدموندو دي أميشيس، **المغرب**، لكن على الرغم من ذلك، فإن الكتاب يُعدّ وثيقة تاريخية مهمة، تفتح نوافذ حقيقية أمام استثمار الإنتاج المترجم في ملء البياضات العديدة التي يشكو منها المتن التاريخي، خاصة في أبرز وسيلة تحديثية قام بها المغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي موضوع البعثات التعليمية المغربية نحو أوروبا وصناعة الأسلحة وسك النقود في دار الماكينة في فاس. وضمن هذا السياق، قالت شيزوتي: "سأكون مقصّرة في الهدف من هذا الكتاب الذي أردتُه أن يكون كله لما هو حميمي وأنثوي، إن أنا أطلتُ في الوصف الدقيق لهذا المعمل الذي تحدثت عنه أيضًا أقلامٌ أكثر تأهيلًا مني" (ص 14). وتفتح عبارة "تحدثت عنه أقلام أكثر تأهيلًا مني"، الأمل في إمكانية العثور على مذكرات أخرى لأطراف إيطالية وأوروبية تحدثت عن معمل السلاح، وخاصة في فترة العنفوان والأوج بين عامي 1893 و1894؛ وفي إمكان جيل الباحثين والمترجمين أن يكثّفوا من عمليات البحث والتنقيب لبعث النصوص وترجمتها بأسلوب مؤسساتي، لإفادة البحث التاريخي وإنعاش الذاكرة التاريخية.

قالت شيزوتي إن مهمة مذكراتها الحميمة لا تبتغي تحليل الدور السياسي الذي قامت به إيطاليا في المغرب، لكن باعتبارها زوجة رئيس البعثة العسكرية الإيطالية، فلا يمكن، كما تقول: "أن نمرّ مرور الكرام على وجود معمل الأسلحة الشريفية، وهو الذي

21 سيمو، **العلاقات المغربية - الإيطالية**، ص 22.



كان سبب إقامتنا بفاس" (ص 139). واعتبرت شيزوتي إقامتَه في فاس، انتصارًا للدبلوماسية الإيطالية، مشيرة إلى أن "باقي القوى الأوروبية لم تكن تنظر بعين الرضى لحصول إيطاليا على امتيازات المخزن التفضيلية" (ص 139).

ومحاولةً مني لقراءة مضامين الكتاب وفحصها ونقدها، لزم وضعه في سياق عام، يخص مقدمات تأسيس دار السلاح في فاس، من خلال المصادر التي واكبت الموضوع، ومن ثنايا دراسة طبيعة العلاقات المغربية - الإيطالية، واختيار السلطان الحسن الأول لإيطاليا منفّذًا للمشروع، وساهرًا على مراحله المختلفة.

ثانيًا: موضوع دار السلاح في المصادر التاريخية

يمكن اعتبار دار السلاح – الماكينة - المؤسسة الإنتاجية الوحيدة التي نجحت في إدماج أكبر عدد من المتعلمين الذين درسوا في الخارج، فقد حاول الحسن الأول "تجهيز المغرب بما يساعده على صنع السلاح، وإصلاح العدد الحربية داخل المغرب [...] حيث أسند هذه المأمورية عام 1306هـ/ 1888م إلى جماعة من الضباط الإيطاليين"[22]. ووردت بشأن ذلك رسالة وجّهها السلطان إلى النائب محمد الطريس، ذكر فيها: "[...]، وبعد فقد أمرنا أمناء مرسى الدار البيضاء بأن يوجّهوا لك، عن طريق البحر، سبعة وعشرين ألف ريال وخمسمائة ريال وخمسة وثمانين ريالًا (27585) من سكة الصبنيول، بحيث تكون عندك في أول رمضان الآتي، من قبل ثمن مكينات للسكة كلفنا، بجلبها، الكلونيل بريكل الطلياني، معلم الفبريكة بفاس"[23]؛ وهو المسؤول الأول عن دار الماكينة، قبل أن تُسند إلى فرارا زوج شيزوتي، صاحبة الكتاب.

أشار عبد الرحمن بن زيدان، في سياق حديثه عن دار السلاح في فاس، إلى موضوع إدماج بعض أفراد البعثات التعليمية الموفدة إلى أوروبا ضمن أطرها، "وكان ابتداء العمل في بنائها سنة 1305هـ، وانتهاؤه سنة 1308هـ"[24]. وبعد التفصيل في المراسلات التي وجّهها الحسن الأول إلى الممثلين الدبلوماسيين الإيطاليين، ختم صاحب **الإتحاف** ذلك بالقول: "وقد استخدم بهذه الدار، طلبة البعثة المتخرجة من مدارس فرنسا وبلجيكا السالف الكلام عليهم قريبًا، وكان رئيسها الكولونيل الإيطالي بريكليف [يقصد به بريكل] وكبراؤها السيد محمد الصغير[25] والسيد المختار الرغاي[26] والسيد محمد بن الكعاب[27] والسيد إدريس الفاسي[28] والسيد الطاهر بن الحاج الأودي[29]، وعدّد جميع العملة الذين كانوا بها ثلاثمائة عامل من فاس ومكناس ومراكش والرباط وسلوان وغير ذلك"[30].

والكلام السالف الذي أورده بن زيدان في خصوص البعثة التعليمية هو ما سجّله قائلًا: "ثم وجّه بعثة حربية لفرنسا وبلجيكا، فمكثت هناك سبع سنوات، أربع منها بفرنسا، وثلاث ببلجيكا، تخرّجت فيها في صناعة الذخائر الحربية، ثم عادت للمغرب سنة 1305هـ

22 عبد العزيز بنعبد الله، **الجيش المغربي عبر العصور** (الرباط: المطبعة والمكتبة العالمية، 1986)، ص 144.

23 رسالة الحسن الأول إلى الحاج محمد بن العربي الطريس، تطوان، الخزانة العامة، محفظة 114/10، 5 شعبان 1309هـ/ 5 مارس 1892م).

24 عبد الرحمن بن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس** (الرباط: المطبعة الوطنية، 1990)، ج 2، ص 495.

25 محمد الصغير، لم نعثر على اسمه ضمن أفراد البعثات التعليمية التي أوفدها الحسن الأول إلى أوروبا.

26 المختار الرغاي، أحد أفراد البعثة الحسنية الأولى التي توجهت إلى إيطاليا، وكان بصحبة محمد بناني وعبد السلام الجيلاني.

27 محمد بن الكعاب الشرقي، أحد أفراد البعثة التي توجهت نحو فرنسا، وقضى فيها مدة طويلة وتكلف بالترجمة لبعض الوفود التعليمية التي أرسلها الحسن الأول، وترك "مجموعة من التصاميم الخاصة بالآلات الصناعية لإنتاج الأسلحة الثقيلة والخفيفة".

28 إدريس الفاسي، ربما يقصد به إدريس بن عبد الوهاب بو عزة المزداد بفاس، وكان أحد الثلاثة الذين توجهوا إلى إنكلترا، إضافة إلى الزبير إسكيرج ومحمد الجباص.

29 الطاهر بن الحاج الأودي، أحد أفراد البعثة التي اتجهت نحو فرنسا، كان سنه آنئذ 13 عامًا، تكلف بدوره بالترجمة لبعض الوفود التعليمية التي أرسلها الحسن الأول إلى بلجيكا.

30 عبد الرحمن بن زيدان العلوي، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، تحقيق علي عمر (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2008)، ج 2، ص 498.



(1887م)، فلحقت بالحضرة الشريفة برباط الفتح، وأتت معه مكناسة الزيتون، وأقامت بها ستة أشهر، ثم توجهت لفاس لتطبيق العلم على العمل، فدخلت للعمل في دار السلاح"[31]. ويضيف بن زيدان: "كانت هذه البعثة تتركب من الطاهر بن الحاج الأودي، رئيس العملة بدار السلاح، ومعه من فاس محمد المنقري رئيس قسم الزنادات بالدار، ومحمد بن علي الحداد، ومن مكناس عباس بن قاسم رئيس قسم صناعة الجعاب بالدار المذكورة، والمعلم أحمد بن صالح، وإدريس بن الحداد، ومحمد بن أحمد المدعو المشطون، والمعلم حمان، وبسلهام بن حمو، ومحمد بن العباس، وكلهم نجحوا في علومهم، واستخدموا بدار السلاح"[32].

تتحدث الوثائق التاريخية عن وجود كفاءات متخصصة في المجالات التي بدت بمقتضاها دار الماكينة، ما دل على أن مقدمات المشروع وأهدافه كانت واضحة المعالم لدى السلطان الحسن الأول، وأنه كان يروم توظيفهم مكان الأطر الإيطالية التي أشرفت على ماكينة السلاح في فاس.

ثالثًا: ضوابط أساسية في فهم شهادة شيزوتي في خصوص دار الماكينة

تتحدث الإشارات السالفة التي أوردتها الوثائق المغربية عن دار الماكينة في عهد السلطان الحسن الأول، وهي خارج سياق ما أوردته شيزوتي في كتابها، حيث خصصت موضوعها لفترة ما بعد وفاة السلطان الحسن الأول. وإذا كانت المرحلة الأولى قد تميزت بعنفوان التجربة وانخراط العديد من المتعلمين في الدار، فإن مرحلة فرارا، زوج شيزوتي، تؤشّر إلى فترة التراجع والاضمحلال؛ فكان من الطبيعي أن تسجل الكاتبة امتعاضها من الصعوبات العديدة التي وضعتها الإدارة المخزنية المغربية لتعطيل المشروع التحديثي الذي بذلت فيه الدبلوماسية الإيطالية جهودًا حثيثة لإخراجه إلى دائرة الضوء.

تثير شيزوتي الصعوبات الأولية التي رافقت بعثة زوجها، ومنها ما تعلّق بالمسكن الخاص برئيس التقنيين المكلف بتكوين عمال المصنع، وتقول في هذا السياق: "السيد كابا، على الرغم من أن السلطان عيّنه كرئيس تقني لتكوين عمال مصنع الأسلحة، ظل، لمدة شهرين، ينام داخل خيمة أقيمت بحديقتنا، وهو ينتظر من المخزن أن يمكنه من مسكن" (ص 60)؛ ما يدل في حد ذاته على أبرز الأعطاب التي رافقت إقامة دار السلاح في فاس، حيث انتفت الشروط الأولية لنجاح المشروع، من قبيل غياب البنى التحتية والدعامات الكفيلة بتيسير أمور بناء ضخم، من قبيل دار الماكينة في فاس.

من جانب آخر، أقيم المصنع في فاس بعيدًا عن المراسي التي كانت تستقبل قطع الغيار الخاصة به، وهو جانب لم تغفل عنه شيزوتي، وهي تتحدث عن ذلك في أكثر من مناسبة؛ ومن ذلك قولها: "تم نقل حوالي مائتي آلة مع كل أدواتها من الساحل إلى فاس، عبر منطقة تنعدم فيها الطرق والقناطر" (ص 139).

تعطي شيزوتي معلومات تاريخية صحيحة، في خصوص الأشخاص والوقائع الخاصة بموضوع مصنع السلاح في فاس، كأسماء التقنيين والمترجمين والشخصيات المخزنية والطلاب المتعلمين والمحميين الإيطاليين والصعوبات التي اكتنفت مسيرة دار السلاح... إلخ.

ولا شك في أنها سمعت من المقربين، من دوائر القرار السلطاني، خصوصيات حكم الحسن الأول، والقلق التحديثي الذي لازم قراراته وإجراءاته، ومنها سماحه للإيطاليين بإقامة مصنع السلاح في فاس، ضمن سياق ذهني مغربي رافض لمنتوجات الغرب المادية، كما تفصح عن ذلك مجموعة من المراسلات المخزنية.

---

31 المرجع نفسه، ص 468.

32 المرجع نفسه.



رابعًا: شيزوتي وموقفها من السلطة السياسية في المغرب

يعدّ الحسن الأول من الشخصيات القليلة التي حظيت بتقدير شيزوتي وإعجابها، فنراها تقول عنه: "كان السلطان الكبير المولى الحسن، بفضل ذكائه، يرغب في أن ينقل بلده شيئًا فشيئًا إلى مصاف الشعوب المتحضرة، دون المساس بالتقاليد الدينية، واستخدم بعض العناصر المحلية لجعل المغرب يتطور على الطريقة اليابانية" (ص 88). وإضافة إلى موقفها الإيجابي من السلطان المذكور، تثير الملاحظة معلومة فريدة تخص مدى اطّلاع السلطان الحسن الأول على التجربة اليابانية؛ ذلك أن صورة التحديث اليابانية لم تحضر في الأدبيات التاريخية والدستورية حتى بداية القرن العشرين، مع مشروع دستور الشيخ مراد[33] وفي كتابات الأعرج السليماني[34] وبن زيدان[35] ومحمد داود[36]، كما توجد إشارة مميزة إلى حضور الموضوع الياباني لدى السلطان عبد العزيز عندما استقبل لويجي برزيني بعد نهاية مؤتمر الجزيرة الخضراء في عام 1906، حيث قال: "هيمن موضوع الحرب على حديثنا، سألني السلطان إن كان صحيحًا أن اليابان بلد صغير، وإذا ما كانت روسيا بلدًا كبيرًا، وعما إذا كانت اليابان أصغر من المغرب" (ص 222).

تثير المعلومة المذكورة، على الرغم من قصرها، أهمية خاصة، فهي تدل على أن المعجزة اليابانية وصلت إلى علم الإدارة السياسية المغربية ومثقّفي الدولة وكتّابها، بل إن السلطان يقارن بين اليابان والمغرب، فيقول: كيف لبلد صغير (اليابان) أن ينتصر على روسيا البلد الكبير؟ وهو يشير إلى الانتصار المدوّي الذي حققته اليابان على روسيا القيصرية في عام 1905.

في إمكان الملاحظة المذكورة أن تفتح أمامنا معلومات جديدة، تخصّ درجة معرفة السلطان الحسن الأول بالموضوع الياباني، علمًا أن فرضيات الاتصال بالمشرق العربي (مصر والأستانة) قد تكون مدّت الإدارة المغربية بمقدمات الحضور الآسيوي (الياباني) في أدبياتها السياسية، بفعل ظهور اليابان قوةً دولية جديدة، أهانت الكبرياء الروسي في حرب عام 1905، مع ما رافق ذلك من تهليل عربي لهذا الانتصار، بفعل الموقف الروسي القيصري السلبي من المسألة الشرقية.

في موقع آخر، قالت شيزوتي: "كان السلطان الذكي مولاي الحسن يحمل مشروعه لتمدين المغرب باستخدام العناصر المحلية، فأرسل طلبة من الطبقة العليا، ومن العمال لدراسة المعارف والصنائع الأوروبية، وأرسل بعض هؤلاء الشبان إلى فرنسا وإنجلترا وبلجيكا وأيضًا إلى إيطاليا، وهناك أقبلوا على الدراسة بالمدارس العسكرية والبحرية" (ص 131).

33 للتوسع في الموضوع، يمكن الاطلاع على: يحيى بولحية، "الصحافة والمسألة الدستورية في المغرب قبل الحماية الفرنسية 1916"، **تبين**، العدد 3 (آذار/ مارس 2013)، ص 87-108.

34 أورد الأعرج السليماني موضوع البعثات التعليمية، مستنتجًا العوامل التي أدّت إلى الأزمة وأسست لمرحلة الإفلاس، وفي مقدمها، في نظره، بطانة السوء التي لم تكن تساير تصورات السلطان الإصلاحية. ويستدل على ذلك من خلال مقارنة الأمر بضده الياباني، ويفصح عن ذلك، ذاكرًا: "ولما زاولوا دروسهم وملئوا [ملؤوا] بكل نافع حقائبهم يمموا بلادهم ليبثوا فيها ما ينفع مستقبلهم، فلم يعدموا معاكسًا وقف في سبيلهم وحرم البلاد والعباد ما كان يرجى من فوائد معارفهم بفتح المدارس وسلوك هذا السبيل كما سلكه أهل اليابان [...] فكانت النتيجة أن تقدّم اليابانيون وتأخرنا". محمد بن محمد الأعرج السليماني، "زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ، إعداد عبد الرزاق بنواحي"، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 1417هـ/ 1997م، ص 392.

35 تبوأ الحضور التنموي الياباني مكانة متميزة لدى المؤرخ المغربي بن زيدان، عندما قدم هذا الأخير شكلًا من أشكال المقارنة بين مآل التحديث في كل من المغرب واليابان في أثناء تقييمه للبعثات المغربية التي أرسلها السلطان الحسن الأول إلى أوروبا؛ فقد ذكر أن اليابان كان "أحط من المغاربة بكثير، بل لا نسبة إذاك بين المغرب واليابان في الانحطاط، في ذلك الوقت اتجه ملك اليابان هذا الاتجاه نفسه، فوجّه المتعلمين من اليابانيين وأعانته بطانته الحسنة الطيبة القصد، فحصلت النتيجة المنتظرة، وصارت اليابان تُقرّ بعظمتها أعظم الدول وتخشى بأسها". عبد الرحمن بن زيدان، **العلائق السياسية للدولة العلوية**، تحقيق وتقديم عبد اللطيف الشاذلي (الرباط: المطبعة الملكية، 1999)، ص 149-150.

36 تناول محمد داود الموضوع، وذكر قائلًا: "كانت الفرصة سانحة أمام المغرب ليتقدم إلى الأمام خطوات لو أنه خطاها لصار أعلم وأقوى حتى من بلاد اليابان التي كانت تغرق في حمأة التخلف والخرافات والتمسك بمقدسات وهمية كانت كالقيود في الأرجل والسلاسل والأغلال في الأعناق". محمد داود، **تاريخ تطوان** (تطوان: المطبعة المهدية، 1386هـ/ 1960م)، ج 5، ص 359.



وفي موضع آخر تقول: "لو كان من قدر المغرب أن يسيّره حكام حكماء، مثل المولى الحسن لكان بإمكان مساره أن يقوده على درب انتصار الحضارة" (ص 132-133). وتضيف: إن "فكرة إنشاء معمل إيطالي للأسلحة تحققت من خلال ذهنية إيطالية، تمت من خلال رجل السياسة الصقلي العظيم فرنسيسكو كرسبي (1819-1901)، والعقلية الأخرى كان يمثلها مولاي الحسن أحد أكبر أذكياء ملوك المغرب الذي خطط لنقل بلده، اعتمادًا على وسائله الخاصة، إلى مستوى البلدان المتمدنة" (ص 140).

تدل الإشارات الواردة لدى شيزوتي على الإعجاب بفترة حكم الحسن الأول، وتعتبره حاملًا لمشروع تحديثي. وموازاةً مع ذلك، كانت توجه النقد المبطن والعلني إلى الإدارة المخزنية الجديدة، ممثلة في عهد الوصاية وفترة حكم باحماد والسلطان عبد العزيز، بل إنها صرّحت بذلك عندما قالت: "وخلافًا للطبع الفاسد للأمير الشاب، كان باحماد يعارض بقوة، من منطلق وطني، كل ما هو أوروبي، وبالتالي كان يعتبر ألّا جدوى من مصنع"، كما نلمس المرارة التي كانت تشعر بها من جراء العراقيل التي وضعتها الإدارة المغربية أمام المشروع الإيطالي المذكور، فتقول: "إن تحول الشعوب بطيء، لأنه من الصعب ثنيها عن الأفكار الموروثة، غير أن المغرب الذي يسير أولًا بعقل مستقل، لكنه خشن وضيق مثل باحماد، ثم بطفل فاسد مثل المولى عبد العزيز" (ص 132).

لا شك في أن مخالطة شيزوتي للدبلوماسيين الأوروبيين، من أصدقائها وأصدقاء زوجها في فاس، ولبعض وجوه الدولة المغربية، مثل محمد المقري، وبعض المحميين الإيطاليين، منحها معلومات عميقة حول دهاليز السياسة الداخلية للمغرب، وطبيعة الرؤية التي كانت تؤطرها في عهد الوصاية، وفي فترة حكم السلطان عبد العزيز. ومن هنا، تأتي أهمية المعلومات التي كانت تقدمها، وهي معلومات، وإن كانت قليلة، لكن وجب الوقوف عندها، باعتبارها جزءًا مهمًا من المصادر التاريخية للفترة موضوع الدراسة، ويمكن توظيفها بوصفها وثيقة تاريخية شاهدة على الأحداث موضوع فترة الدراسة.

خامسًا: صعوبات تسيير معمل الماكينة بحسب شيزوتي

عانى معمل الأسلحة معارضة منظّمة وعنيفة، من رجالات الدولة في المغرب، تجلّت في مظاهر متعددة ومتباينة، ويبدو، من خلالها، موقف شيزوتي العنيف من العراقيل التي وضعها رجال محيط السلطان، ورأت فيهم عقبة ذهنية وإدارية أمام نجاح المشروع الإيطالي في فاس.

في خصوص نقص المعدّات، قالت شيزوتي إن زوجها "طالب باستقدامها من إيطاليا، محدّدًا مصاريفها مسبقًا، لكن المقري تردد في ذلك بسبب الخوف من غضب رؤسائه المباشرين إن هو اتخذ مبادرة غير مرخّص بها من حكومته، وبالتالي لم يتمكن من استقدام المعدات إلى المعمل" (ص 148)، وتشير بذلك إلى أسلوب إدارة داخلية في المناورة والانتظار، ما يثير التساؤل حول حقيقة الرغبة في التحديث من خلال البوابة الإيطالية، أم كان الأمر لا يعدو استثمار الحضور الإيطالي، لموازنة القوى الأوروبية الأخرى المتربّصة بالمغرب. ويبدو أن المقدمات التحديثية لم تكن مناسبة، وتورد شيزوتي في مذكراتها العديد من الصعوبات التي عرقلت تقدّم المشروع التحديثي، من قبيل المسالك الطرقية الصعبة وتأخر وسائل المواصلات والبريد، إضافة إلى العراقيل المرتبطة بالذهنية الوقتية المعارضة للوجود الأجنبي وأشيائه المادية والتحديثية، والعراقيل الخاصة بالتنافس الدولي حول المسألة المغربية، خاصة بين فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وألمانيا.

لم تعايش شيزوتي عنفوان التجربة التحديثية الخاصة بدار الماكينة، كما تحدّث عنها بن زيدان، بل كتبت حولها بعد موت الحسن الأول بثلاث سنوات، فكان من الطبيعي أن تؤرخ لمرحلة التراجع والاضمحلال في أثناء فترة عهد الوصاية مع باحماد، والسلطان عبد العزيز، وحملت عليهما بشدة باعتبارهما أسهما في نهاية المشروع الإيطالي في المغرب، وفي إقباره بصفة نهائية.



لم يكن عهد الوصاية مؤهلًا لإتمام المشروع التحديثي الذي بدأه الحسن الأول، ولم تكن بنيته الذهنية تسمح له بذلك، ولا نكاد نجد بعثة تعليمية واحدة تمّت خلال هذا العهد، أو في عهد السلطان عبد العزيز، بل قصارى ما أنجزه العهدان هو إتمام عمليات أَوبة بعض المتعلمين، وإغلاق مصنع السلاح وبيع القطع البحرية التي أشرف على إنجازها السلطان الحسن الأول.

يأمل الباحث في تاريخ الفترة موضوع البحث في أن يتم العثور على وثائق إيطالية مشابهة ومعاصرة لفترة حكم السلطان الحسن الأول، لتتم ترجمتها وتوظيفها في ترميم نقائص المعلومات التاريخية؛ كما نأمل في أن ننتج عناوين أساسية ومحورية، تخص وضع المغرب في الأرشيف الإيطالي والبلجيكي والإسباني والأميركي والعثماني، على غرار **المغرب في الأرشيف البريطاني**[37] لخالد بن الصغير، لأن من شأن الترجمة أن تكون اختيارًا لا بد منه، إن أردنا إتمامَ العديد من المعلومات التاريخية الناقصة في ذاكرتنا التاريخية.

وقفت شيزوتي مليًّا عند العراقيل التي كانت تعترض مصنع السلاح في فاس، وقالت عن الحاجب باحماد: "لا توجد ثمة عراقيل لم يرفعها في وجه المصنع، وكأن الصعوبات الناتجة عن جهل العنصر المغربي وكسله وإيمانه بالخرافات لم تكن كافية، وبفعل حسن نيّة المقري وليونة شخصيته، لم يختنق المصنع، وتمكّن من إنتاج خرطوش ممتاز، مثلما هي الحال بمصانع الأسلحة لدينا" (ص 88).

تقتضي المسألة التسلّح برؤية شمولية، لتحديد أسباب التراجع المذكور، من أهمها أن المشروع ارتبط بشخص الحسن الأول، فكرة وتمويلًا واستثمارًا؛ وبوفاته اضطربت الأحوال السياسية، وأضحى عهد الوصاية مفتونًا بتهدئة مفردات الداخل، ومواجهة خصوم باحماد، خصوصًا أولاد الجامعي الذين نكّل بهم في السجون وجرّدهم من أموالهم وممتلكاتهم. وإذا كان مصنع السلاح يُدرج ضمن معالم السياسة الخارجية للمغرب إبان الفترة المذكورة، فلم يكن الحاجب القوي يفقه في ذلك شيئًا، فبذل الجهد لإنهاء المشروع والإشراف على تصفيته بصفة نهائية.

سادسًا: شيزوتي شاهدة عيان على تجربة التحديث من خلال دار الماكينة

تذكر شيزوتي أنها كانت تتردد إلى دار الماكينة، فهي شاهدة عيان على طبيعة العمل داخلها، وتقول في هذا: "وبمجرد ما ندخل إلى معمل الأسلحة، كنا نشعر بأننا بأوروبا، حيث سيادة العمل والانضباط؛ وكان ضجيج الآلات، وأصوات الحركة، وجدية العمال وانضباطهم، يثير فينا إعجابًا كبيرًا، وكنّا نشعر بأننا في بيئتنا. وفي لحظة ما، لم نكن نشعر بأننا بفاس، وإنما بأحد معامل الدول المتطورة والقوية؛ وما كان يبدو غريبًا بالمعمل، هو تلك البزات البيضاء والأرجل الحافية والمظاهر المميزة، والوجوه السوداء أحيانًا للمغاربة، وسط أحد أكبر الاختراعات الحديثة للعلم والميكانيكا" (ص 145). وهي إشارة تدل على طابع النظام والزي الموحد للعمال، وهو نظام جديد لم يعرفه المغرب قبل فترة الحماية السياسية في عام 1912.

من جانب آخر، قدّمت شيزوتي معلومات مهمة عن طبيعة الإدارة الإيطالية لدار الماكينة، ومن ذلك إيرادها معلومات حول مصنع السلاح، من قبيل بعض معالم النظام الداخلي، وإجبار العمال على الزيّ الموحّد، وهو تقليد لم يكن معروفًا في الخدمات الصناعية والحرفية في المغرب، في فترة ما قبل الحماية الفرنسية، وقالت في هذا: "وأما زوجي، فلم تكن له الحرية المطلقة لتخفيف ملابسه، لأنه كان عليه أن يتوجّه، يوميًا، على الحصان إلى ماكينة الأسلحة، وعليه أن يلبس لباسًا رسميًا كيفما كان، ولهذا أعددت له سترات وسروايل بيضاء، من دون شك مجبرًا على ارتدائها، وبدلًا من الأحذية الطويلة كان يحمل أحذية قصيرة" (ص 218).

37 خالد بن الصغير، **المغرب في الأرشيف البريطاني: مراسلات جون دراموند هاي مع المخزن (1846-1886)** (الدار البيضاء: دار نشر "ولادة"، 1992).



أشارت شيزوتي، أيضًا، إلى نظام العطل، وقالت عنه: "ولما شرع معمل الأسلحة في الاشتغال، لم يكن يسمح لأي من أعضاء البعثة بالغياب عنه لمدة طويلة، ولهذا، فرخصُ العطل كانت نادرةً أو قصيرة" (ص 231). كما قالت في موضوع آخر: "عندما رآني زوجي وشعر بدوره بالحاجة إلى استعادة هواء البلد، بعد المرض الذي عانى منه، دخل في الإجراءات الضرورية لدى المفوضية ولدى المخزن، للاستفادة من العطلة، في شهر مايو" (ص 238).

تمثل المعلومات الواردة إضافة نوعية إلى المصادر التاريخية، حيث تذكر شيزوتي، من موقع شاهد العيان، مجموعة من الأنظمة التي أدخلتها إيطاليا إلى المغرب، من بوابة دار الماكينة، كنظام اللباس والعطل والرخص وغيرها، وهي إشارات وجب التوقف عندها، باعتبارها عناصر تفيد الباحث في تاريخ الفترة، علمًا أننا نجد أثرها في وثائق أوردها بن زيدان، وتفصح عن طبيعة النظام الإداري الذي أدخله الإيطاليون على نظام اللباس وامتيازات العطل لأغراض محددة أوردتها المراسلات المذكورة[38].

سابعًا: شيزوتي والتماهي مع "العبقرية" الإيطالية

قالت شيزوتي: "كان الإيطاليون والبعثة العسكرية يحظون، داخل المغرب، بالاحترام وبالشعبية من لدن من كانوا يعملون بمصنع الأسلحة، وكان بعض العاملين به قد تعلموا بأوروبا، وبالتالي كانوا قد تكيّفوا مع التعامل مع النصارى، ويحترمونهم كأنهم معلموهم، ومن بين هؤلاء أحب أن أذكر أحدهم، يسمى حريزي[39]، كان شابًا متيقظًا جدًا، تعلم بميلانو وتورينو على استعمال المبردة والمطرقة، وظل يحن إلى إيطاليا، ويتحدث اللغة الإيطالية بسهولة كبيرة، وكان على استعداد للقيام بأي شيء نطلبه منه، حتى إننا كنا نعتبره فردًا من عائلتنا الفاسية، لأنه كان يظل بمنزلنا، دائمًا تقريبًا، خلال فترات الراحة" (ص 136). وهي إشارة تدل على المرجعية الثقافية التي أطّرت ملاحظاتها المتكررة، حيث لم تكن تمدح الكفاءات المغربية إلّا من حيث اتصالها بإيطاليا، وأوروبا عمومًا، عبر الدراسة والتكوين في المعاهد الإيطالية أو الأوروبية.

قالت شيزوتي إن إقامة دار الماكينة في فاس "يعود الفضل فيه للعبقرية الخلاقة للكولونيل بريكولي، القائد السابق للبعثة قبل زوجي، في تنفيذ الخطة الرائعة لمعمل الأسلحة الإيطالي، والتي أتمّها زوجي بشكل كامل، بمساعدة قائدين تقنيين في المدفعية، وكان محظوظًا بما فيه الكفاية في أن يجعل المعمل منتجًا، وهو الذي كان في وقت من الأوقات مهددًا بأن يصبح متحفًا كبيرًا غير مفيد للآلات الصناعية" (ص 144). وهي معلومات صحيحة، مقارنةً بالوثائق التاريخية موضوع الفترة؛ ذلك أن إيطاليا بذلت، منذ حصولها على الوحدة السياسية، جهودًا حثيثة لإيجاد موطئ قدم لها في شمال أفريقيا (المغرب وليبيا وتونس) وتزايدت طموحاتها التوسعية في أثناء تعيين السفير الإيطالي سكوفاصو.

ثامنًا: انطباعات في حاجة إلى تحقيق تاريخي

من جانب آخر قالت شيزوتي: "ولقد شاهدت مرارًا السيد 'بابوني' والسيد 'كابا' شخصيًا، يعملان بأنفسهما، بالمبرد والمطرقة لتلقين المغاربة بشكل جلي تنفيذ ما كان يبدو صعبًا على عقول بطيئة الفهم، حتى يتمكّنوا من استيعاب أمر شيء لم يسبق لهم فعله" (ص 146).

---

38 قال بن زيدان، وقد وقفت على إذنين أصدرهما بريكل لبعض العملة بالعربية والفرنجية، بتوقيعه، من هذه المراسلات، "تسريح المتعلم علال بن العربي لصلة الرحم بمكناس على عشرة أيام"، 13 آذار/ مارس 1892. بن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**، ص 577-578.

39 محمد الحريزي، من أعضاء بعثة عام 1887 نحو إيطاليا، أصله من الرباط، تخصص في الخيالة، وحصل على الحماية الإسبانية.



وجب فهم إشارة شيزوتي هنا ضمن سياقها التاريخي، ويتمثل في مغادرة العديد من المتعلمين المغاربة المؤهلين لدار الماكينة، بسبب وفاة صاحب المشروع، السلطان الحسن الأول، ووضع الإدارة السياسية الجديدة العراقيل أمام امتداده وتطويره، ومن ثمّ فإن ما تسميه شيزوتي بالعقول البطيئة الفهم، ارتبط بتوظيف عمال غير مؤهلين، من ورشات الصناعة في أحياء مدينة فاس، وحتى محمد بن الكعاب الذي ترك تصاميم عسكرية ونبغ في العلوم العسكرية، أُسندت إليه مهمة لا تتعلق باختصاصه التقني العلمي، وهي مهمة الترجمة.

بالرجوع إلى المصادر التاريخية، تتوافر لنا وثائق تُبيّن أن المتعلمين المغاربة في بلجيكا تلقوا تعليمًا تقنيًا وتطبيقيًا، جعلهم مؤهلين للخدمة في دار الماكينة، في بداية افتتاحها، ومن ذلك رسالة الحسن الأول إلى الحاج محمد الغسال، ورد فيها: "وصل كتابك بأن نائب البلجيك طلب تنفيذ ما صير على المتعلمين ببلادهم، كسوة وكراء محل التعلم، وشهرية معلمين، وبقية ثمن مكينة القرطوس، والحوائج والمكينات التي اشتروها ليخدموا بها"[40]. وهي التخصصات نفسها التي احتاج إليها معمل الماكينة في فاس، وتنسجم مع رؤية الحسن الأول للمشروع التحديثي الذي كان يهدف إلى تعويض الخبرة الإيطالية بالخبرة المغربية.

تخصّ شهادة شيزوتي فترة التراجع، ومغادرة العديد من المتعلمين المتخصصين الدار، واكتفاء التقنيين الإيطاليين بتوظيف حرفيين عاديين من مدينة فاس.

وأضافت شيزوتي: كان يجب التحلي باليقظة الدائمة ضد الميل إلى السرقة التي سبق أن أشرت إليها باعتبارها من أخطر عيوب المغاربة، فقد "علّمهم المكر الطبيعي طرقًا عديدة لإخفاء المسروق، وخاصة خلال الأيام الأولى، حيث حاول عدة عمال سرقة قطع الحديد من أجل إعادة بيعه. وقد نجح أحد العمال في إحدى المرات في التمويه، عند المراقبة بمخرج المعمل، وأخفى الأشياء المسروقة في رغيف من الخبز، حتى لا تثار الشكوك حوله" (ص 146). والمسألة هنا لا تخص رفض المنتوج التحديثي واعتباره هباءً لا جدوى منه؛ بل إن عملية السرقة ارتبطت بنظام الأجور، وعدم دفعها أصلًا، ما أدى ببعض العمال إلى سرقة بعض القطع وبيعها، وتشير شيزوتي نفسها إلى هذا الموضوع، عندما تقول: لم "تخصص الأموال الضرورية لأداء رواتب العمال، وكانت رواتب البعثة نفسها تؤدى بعد تأخير كبير وبتدخل من المفوضية" (ص 149). ومن ذلك أجور المترجمين الثلاثة الذين أثارت شيزوتي مسألتهم بتفصيل دقيق. وهي معلومات أوردتها الباحثة بهيجة سيمو، باستقراء متميز للوثائق التاريخية، ذات العلاقة بالموضوع[41].

تاسعًا: المترجمون وعلاقتهم بمصنع الماكينة

بداية لم تفصح شيزوتي عن أسماء المترجمين الثلاثة الذين ذكرتهم في كتابها، باستثناء محمد بن الكعاب الشركي؛ وإن كنّا نعرف أن عدد المترجمين كان أربعة في بداية مشروع دار الماكينة؛ وهم المختار الرغاي ومحمد بناني من البعثة المغربية الأولى نحو إيطاليا، والأكيد أنهما كلفا بالترجمة من العربية إلى الإيطالية وبالعكس، ثم محمد بن الكعاب الشركي والطاهر بن الحاج الأودي، وهما أيضًا من أفراد أول بعثة مغربية نحو فرنسا، وأسندت إليهما مهمة الترجمة باعتبارهما يتقنان الفرنسية.

أشارت شيزوتي إلى المترجمين الثلاثة الموجودين في مصنع الأسلحة، وأن أحدهم درس في إيطاليا، والآخر في بلجيكا، والثالث في فرنسا، وقالت ضمن هذا السياق إذا "كنا لا نعتبر المترجمين الأوّلين منعدمي المعرفة تمامًا، فإنهما حافظا على الشيء القليل مما تعلّماه، ولم تكن لهما شخصية متميزة" (ص 131).

40 رسالة المولى الحسن الأول إلى الحاج محمد الغسال، تطوان: الخزانة العامة، مج: 5/101، بتاريخ 6 رمضان 1304هـ/ 29 مايو 1887م.

41 سيمو، **الإصلاحات العسكرية بالمغرب**، ص 275-308.



على العكس من ذلك، "فالثالث الذي يسمى ابن الكعاب، إن لم يكن في مظهره يختلف عن مواطنيه، ففي جوهره كان يتفوّق عليهما كثيرًا" (ص 132). فما السبب الذي جعل شيزوتي تتعاطف مع محمد بن الكعاب من غير المترجمين الآخرين؟

اشترك محمد بن الكعاب مع الطاهر الأودي في كونهما انتسبا إلى أول بعثة تعليمية إلى فرنسا، حيث تم توجيه ثلاثة متعلمين إليها، "وهم السيد قاسم الوديي والسيد محمد بن الكعاب الشرقي والطاهر بن الحاج بن عبد السلام بن الحاج الأودي"[42]. وكانوا قد عينوا في عام 1291هـ/ أيلول/ سبتمبر 1874 للذهاب إلى طنجة بقصد تعلم اللغة قبل مغادرتهم المغرب[43]. وقد أورد محمد بن الكعاب في كناشته، قائلًا: "بعثنا من جملة الطلبة الذين كانوا تعيّنوا لقراءة اللغة الرومية في منتهى رجب سنة 1291هـ، ثم بعد الإقامة نحو من الستة [كذا] سنين ونصف بثغر طنجة، كنا سافرنا في 18 من ذي الحجة سنة 1297هـ إلى مدينة باريس لتعليم اللغة الأفرانساوية، وكنا بقينا بالمصر المذكور أعلاه لتعليم ما كنا توجهنا بصدده، مدة من أربعة [كذا] سنين ونصف: أعني إلى 22 من شعبان 1301هـ، اليوم الذي أتانا فيه الأمر الشريف على يد الحاج محمد بركاش، في شأن انتقالنا من بلد افرانسة إلى بلد بلجيكة، لنقف على من كان بعث من المتعلمين إلى بلد بلجيكة، لأخذ العلوم والصنائع المفقودات عن المغرب"[44].

تلقى محمد بن الكعاب تكوينًا عسكريًا مدة 14 سنة، وراكم خبرة عسكرية مهمة في تقنية بطاريات المدافع وصناعة الخراطيش وتلفيفها، وعُيّن في الماكينة التي أنشأها الحسن الأول في فاس لصنع الأسلحة الخفيفة، "وكان تحت إدارة الأجانب المشرفين على المعمل، رغم طول خبرته العلمية والعملية. وترك مجموعة من التصاميم الخاصة بالآلات الصناعية، لإنتاج الأسلحة الثقيلة والخفيفة"[45].

يُعدّ تكليف بن الكعاب بالترجمة إجحافًا بكفاءته، وإهمالًا لطول خبرته، وللتصاميم التي تركها في خصوص الآلات العسكرية. صحيح أنه أتقن دور الترجمة، وهو الدور نفسه الذي قام به في أثناء وجوده في بلجيكا، عندما عمل مترجمًا للأفواج التعليمية التي توجّهت إليها، في مراحل مختلفة، لكنه كان متخصصًا في صناعة السلاح، وكان من المتعلمين النوابغ في فرنسا.

في خصوص الطاهر الأودي، فقد "تخرج بفرنسا واستخدم بدار السلاح بفاس، ولم يزل به إلى أن تعطل العمل فيه، عند انتهاء الدولة العزيزية"[46]، وأشار قائلًا: "وبباريز كنت أنا ترجمان السفير بركاش [...] عام 1299 موافق سنة 1880"[47]، وهو الدور نفسه الذي أدّاه رفيقه في الرحلة محمد بن الكعاب.

أشادت شيزوتي بمحمد بن الكعاب ووصفته بنعوت محمودة، وخصصت له ثلاث صفحات من كتابها، على عكس المترجمَين الآخرَين اللذين لم تذكرهما بالاسم واعتبرتهما منعدمي المعرفة.

قالت شيزوتي: "ورغم أن الترجمانين الآخرين كانا يكتبان باللغة الأوروبية بطريقة مفهومة، فإنها كانت مليئة بالأخطاء الإملائية والنحوية، أما فرنسية ابن الكعاب، فكانت صحيحة، وتوحي باستعمال مستمر لها" (ص 132). وتدل الملاحظة على أن لغة الترجمة كانت

---

42 عبد الرحمن بن زيدان، **العز والصولة في معالم نظم الدولة** (الرباط: المطبعة الملكية، 1382هـ/ 1962م)، ج 2، ص 151.

43 مصطفى بوشعراء، **الاستيطان والحماية بالمغرب (1863-1894)** (الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1989)، ج 4، ص 1369.

44 محمد المنوني، **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، ط 2 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985)، ج 2، ص 244-245.

45 إبراهيم حركات، **التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية** (الدار البيضاء: مطبعة الدار البيضاء، 1405هـ/ 1986م)، ص 38.

46 عبد الرحمن بن زيدان، **الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة** (الرباط: المطبعة الاقتصادية، 1938)، ص 105.

47 الاستبصار في عجائب الأمصار والجبال والأنهار والبحور ومنافيس النار في الأراضين خلقها الله الواحد القهّار للحيوانات والأطيار وللجن والإنس قرار مؤمن للجنة وكافر للنار ونزول البلاء على من طغى وتجبّر، وللعادل رحمة الله الكريم الغفّار، أوردها جمال الحيمر، "البعثات التعليمية في عهد السلطان مولاي الحسن"، بحث أُعد لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 1407-1408هـ/ 1987-1988م، ص 224. على الرغم من أن لغة الأودي ركيكة، لكنها وثيقة تاريخية بالغة الأهمية.



أيضًا من العربية إلى الفرنسية، حيث قالت شيزوتي إن فرنسية ابن الكعاب كانت صحيحة، ويبدو أنها كانت تتقن اللغة الفرنسية أيضًا، على أساس أنها قيّمت أداء المترجمين الثلاثة، وحكمت على ابن الكعاب بالكفاءة، أما الآخران فكانت ترجمتهما مليئة بالأخطاء المشار إليها سابقًا.

من المعروف أن ابن الكعاب كان ضمن وفد عام 1875 الذي أرسله السلطان الحسن الأول إلى فرنسا، على غرار البعثات الأخرى التي توجّهت نحو ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا، وتم تكليفُه بالترجمة للوفود التعليمية التي توجهت نحو بلجيكا، وكان عدد منهم ممن التحق للعمل بدار السلاح بفاس، وكانوا من أصدقائه الذين يعرفهم ويدرك مؤهلاتهم، كما تمّت الإشارة إلى ذلك سالفًا.

قالت شيزوتي عن ابن الكعاب إنه كان "عنصرًا مهمًا جدًا بمصنع الأسلحة، وبما أنه كان محل ثقة المقري وزوجي، وبينما كان يدفع بالمقري إلى أن يدخل بالمعمل الانضباط والممارسات الأوروبية الضرورية للحصول على المنتوجات المصنوعة بدقة، فإنه كان يحثّ زوجي على الصبر، وعلى أن يتغاضى عن التأخيرات والبطء اللذين لا يمكن تفاديهما في بلد، حيث يجهل الإسراع بالأشياء. كان ابن الكعاب رصينًا نسبيًا لبقًا وذا حس سليم، وحريصًا على القيم التي اكتسبها بالبلدان المدنية" (ص 132).

إن ابن الكعاب كانت له تجربة مريرة في الموضوع نفسه، ففي أثناء إقامته في الخارج كتب تقريرًا عن وضع الطلاب في بلجيكا، في عام 1301هـ/ 1884م، أوضح من خلاله ضعف حالتهم المادية، وتراكم الديون على رفاقه من الطلاب المغاربة، من الجهات البلجيكية التي كانت تنفق عليهم، وختم تقريره قائلًا: "وإن هذه سبعة أعوام ونصف، بقينا مفقودين عن الأهل والوطن، والأعداء لا ينظرون إلينا إلّا بعين الاحتقار، حتى صرنا لا نستلذ طعامًا ولا شرابًا"[48].

وفي رسالة سلطانية، نستنتج بعض أسباب التأخر، في دفع تكاليف تعليم الطلاب المغاربة في بلجيكا، وقد ورد فيها: "فقد أخبرنا أمناء مرسى طنجة، أن ترجمان البلجيك هناك، طلب منهم مؤونة المتعلمين عندهم، وذكر لهم أن قدرها نحو أربعة عشر ألفًا من الفرنك، فتوقفوا في دفعها له، وطلبوا بيان ما يكون عليه عملهم في ذلك، ذاكرين أنهم لا معرفة لهم به، وإنما كانوا يدفعون مؤونة المتعلمين لولد بركاش ويتحاسبون معه"[49]. وعلاقة بالوثائق الواردة، فإن ابن الكعاب كان على دراية تامة بالبيروقراطية التي لازمت عملية التمويل التي أشرفت عليها الدولة خلال الفترة المذكورة، ومن هنا أوردت شيزوتي دور التهدئة الذي قام به إزاء فرارا، المسؤول الثاني عن دار الماكينة المذكورة، باعتباره ذا خبرة وتجربة في الموضوع المذكور.

من جانب آخر كان الطاهر الأودي من بين المترجمين الثلاثة المذكورين، ولم تكن شيزوتي تعلم أنه من المناصرين للمشروع الإيطالي، حيث حمل بشدة على الأطر المخزنية التي عطلّت المشروع، وأسهمت في إيقافه. وضمن سياق تعرّض البعثات التعليمية المغربية لمجموعة من الانتقادات العنيفة، من بعض مكوّنات المخزن - التي كانت ترى في هذا العمل التحديثي خطرًا على مواقعها ومراكز نفوذها، كتب كتابًا عنونه بـ **الاستبصار في عجائب الأمصار والجبال والأنهار...**، ذكر فيه "أنه نصح بالاستعداد لمواجهة التدخل الأجنبي، ولكن الوزراء والكتّاب رموه بالإلحاد. وفي عام 1888 تحدّث الأودي بلغة ركيكة، لكنها مهمة باعتبارها وثيقة تاريخية شاهدة، قائلًا: "بفاس رأيت بعين القلب وزراء وكتّابًا وأمناء دائرة النفاق، كفار بالرزة والشاشية، حين قالوا لأمير المسلمين: كنا ببر النصارى سنين جئنا منها حمور [حميرًا] متنصرين، وتصدروا لنا الأعادي المورروتين [الموتورين] إلى هد [هذه] الساعة ..."[50]. وخص بالذكر عرقلة مشروع مصنع الماكينة الإيطالي بالتحديد، وقال عن وزراء وكتّاب وأمناء الفترة: "وفي ذلك الزمان بطلو [عرقلوا] لنا إنشاء دار السلاح السعيدة، ما نتجت إلّا بتداخول [بتدخل] السفارة الناصحة الطاليانية مدة تسع وعشرين سنة من عام 1305هـ إلى عام

48 أحمد معنينو، "ترجمة مختصرة لتلميذ من بعثة الحسن الأول 1297هـ: محمد بن الكعاب الشركي"، **مجلة البحث العلمي**، العدد 25 (1976)، ص 224.

49 رسالة المولى الحسن الأول إلى محمد بن العربي الطريس، تطوان: الخزانة العامة، محفظة 59/5، بتاريخ 4 جمادى الثانية 1304هـ/ 28 فبراير 1887م.

50 الأودي، **الاستبصار**، أورده حيمر، ص 225.



1334هـ"[51]؛ وهي شهادة تلخص مجمل ما ذكرته شيزوتي في خصوص العراقيل التي واجهت إقامة دار السلاح في فاس، خلال عهدي الوصاية وفترة السلطان عبد العزيز. ويبقى السؤال مثارًا في خصوص الحيثيات التي حالت دون حدوث تقارب بين الجانبين على غرار الموقف الإيجابي الذي طبع موقف شيزوتي من محمد بن الكعاب الشركي.

يحضر الاستعلاء الثقافي والنظرة الدونية للعامل المغربي على امتداد صفحات كتاب شيزوتي، فلا تكاد تقرأ معلومة تاريخية إلّا وجدت إلى جانبها الأحكام الانطباعية، ومن ذلك تذكر أن حوادث الشغل لم تسجل في دار الماكينة، وأن المغرب كان يفتقد الأطباء. وعلى نحو مبطن تقول إن وعي العمال المغاربة في خصوص خطورة المتفجرات كان متأخرًا، فكان على الإيطاليين في نظرها أن يفرضوا "على المغاربة القدريين بفعل الطبع والديانة، أن يتحلّوا بالحذر والحكمة في التعامل مع المتفجرات التي كانوا يتعاملون معها في لاوعيهم باعتبارها مواد غير خطرة [...] مما كان يحتّم وجود إدارة دقيقة ومراقبة على كل المستويات" (ص 149). وهو قول لا يستقيم؛ ذلك أن المتعلمين المغاربة الذين التحقوا بالمصنع، كانت لهم مؤهلاتهم التي تسمح لهم بتسييره، نظرًا إلى الخبرة التي راكموها في دول أوروبا، ومنهم محمد بن الكعاب الذي ترك تصاميم هندسية متعددة لقطع السلاح الناري، ومنهم متعلمون تخصصوا في صناعة المتفجرات والسلاح الناري في بلجيكا وإيطاليا وفرنسا. ويبدو أن جل المتعلمين الذين جلبهم السلطان الحسن الأول إلى المصنع غادروا نحو قطاعات أخرى، نظرًا إلى نظام الأجور الجديد والهزيل، وتم تعويضهم بحرفيين عاديين من مدينة فاس، فكان متوقعًا أن تحصل النتيجة التي أشارت إليها شيزوتي.

من جانب آخر، ودعمًا لما قلته في خصوص تفوّق العمال المغاربة، نقرأ في وثائق رسمية الإهمال الذي عانته مجموعة من المتعلمين، سواء الذين درسوا في فرنسا أم في بريطانيا أم في ألمانيا، ومنهم على سبيل المثال، محمد بن الحاج النجار، فقد تدرب وتعلم اللغات في طنجة، والتحق بمدينة أولم Ulm في جنوب غرب ألمانيا، وبعد ذلك في معامل كروب، وعندما عاد إلى المغرب، عُيّن برتبة مقدم للطبجية بطنجة[52]، واشتغل في أيامه الأخيرة بالفلاحة، وعندما سُئل عمّا تعلّمه، قال: "النصارى كايعلموا لعقل والمسلمين كايحفيوه"[53]. وهي إشارة معبّرة عن إشكالية العقلانية كما تمثلها الطلاب المتعلمون بالعالم الغربي، وعاشوا ضمن مناخها العلمي والاجتماعي والفكري والسياسي، وعندما عادوا إلى بلدهم، أدركوا مستوى التأخر الإداري والسياسي، وعدم قدرة المناخ البيروقراطي على مسايرة المستجدات، وعلى إدخال أنماط التحديث الغربي إلى البيئة المغربية.

من هذه الزاوية، فإن وصف شيزوتي للشبان المغاربة بالتأخر والكسل يبقى مجانبًا للحقيقة التاريخية، وأن حكمها بتأخر المغاربة في المجالات المذكورة، يبقى متلبسًا بالذات الاستعلائية، وارتبط، موضوعيًا، بفترة الضعف السياسي للمغرب وأفول الوظيفة الرئيسة لدار الماكينة، ومغادرة غالبية الأطر المغربية الخبيرة لها.

استنتاجات عامة

أثار كتاب شيزوتي فرارا العديد من القضايا التي تخص السياسة والمجتمع والتحديث في المغرب في أواخر القرن التاسع عشر، وهي فترة حُبلى بالتحولات المصيرية، نظرًا إلى طبيعة الأوضاع الداخلية وحجم التنافس الدولي الأوروبي حول المسألة المغربية.

51 المرجع نفسه.

52 رسالة محمد بن سعيد، بتاريخ 20 شعبان 1305هـ/ 2 ماي 1888م، مجموعة الوثائق الملكية، الترتيب العام. وورد في الرسالة: "وصل للعبد الخديم الكتاب الشريف وفيه أمرني أن أوجه الطبجيين الذين كانا يتعلمان ببلاد البروس وظهرت نجابتهما في حرفتهما [...] وانقطعت عليهما المئونة [المؤونة] التي كانا يقبضانها بطنجة من جملة الطبجية التي بها يطلبان من سيدنا أن يأمر بردها لهما ...".

53 بوشعراء، ص 1349.



لم أرد التطرق إلى العديد من القضايا التي أثارتها شيزوتي في كتابها إلّا تلميحًا، من قبيل المضامين الإمبريالية التي بقيت ملازمة لها في مختلف المواضيع التي أثارتها، وهذا موضوع مهم يحتاج إلى مساحة أوسع، لتناوله بالدقة العلمية المطلوبة، لكني حاولتُ التركيز على قضية محورية تخص موقفها من مسألة التحديث في المغرب، وقضية المتعلمين المغاربة الذين درسوا في دول أوروبا الغربية.

وإذا كان الكتاب يحمل طابع الذكريات الشخصية، لكنه حمل قيمة تاريخية كبرى. ونظرًا إلى المعلومات التاريخية المتناثرة في صفحاته المختلفة، وجب على المهتمين بالتاريخ الوقوف عندها مليًّا باعتبارها مصدرًا تاريخيًا لا يمكن الاستغناء عنه.

حملت شيزوتي في كتابها بعض الاستعلاء والنظر الدوني إلى المغرب، وحاولت على امتداد مذكّراتها التركيز على ما رأته تخلّفًا في سلوك أفراد المجتمع المغربي.

كان لشيزوتي موقف إيجابي من السلطان الحسن الأول وقيّمت إنجازاته التحديثية بالإيجابية، وأوردت في خصوص هذه الفترة (1873-1894) معلومات جديدة في الحقل التاريخي، وتخص تجربة البعثات التعليمية المغربية نحو أوروبا، واطّلاع الحسن الأول على التجربة اليابانية في الموضوع، وأظنها أول إشارة إلى الموضوع الياباني إطارًا للتمثل والاحتذاء من الإدارة السياسية في المغرب؛ ومن شأن هذه المعلومة أن تفتح لنا نوافذ حقيقية لمعرفة الآليات التي مكّنت السلطان الحسن الأول من الاطّلاع على التجربة اليابانية، علمًا أن الصلات السياسية والدبلوماسية مع المشرق العربي والاتصالات مع الهيئات الأجنبية فرضيتان محتملتان في تحقيق هذا الاطلاع.

من جانب آخر، فتحت أمامنا رحلة شيزوتي، وما تضمّنته من معلومات تاريخية، إمكانية الاستفادة من الأرشيف الإيطالي والمذكرات الشخصية للرحالة والدبلوماسيين الإيطاليين، في ملء بياضات المتن التاريخي الخاص بمجموعة من القضايا الخاصة بالمقاربة التحديثية التي رام المخزن تحقيقها، في أواخر القرن التاسع عشر، والعراقيل التي اعترضته في سبيل تحقيق ذلك.

ضمن هذا السياق، بذلت بهيجة سيمو جهدًا مميزًا وغير مسبوق في تناول العلاقات المغربية - الإيطالية، وحمل كتابُها العديد من الوثائق ذات الأهمية البالغة الخاصة بالمغرب وإيطاليا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ويبقى إسهامها في حاجة إلى إتمام بتفصيل مقاطع هذا الأرشيف ووضعه لدى جمهور الباحثين، لاستكمال بعض معالم الصورة التحديثية في المغرب في الفترة المذكورة، على شاكلة **المغرب في الأرشيف البريطاني** لخالد بن الصغير.

فتح أمامنا الكتاب، أيضًا، أهمية الأرشيف الأجنبي في استكمال العديد من الثغرات المبثوثة في ذاكرتنا التاريخية، وعلى سبيل المثال لا الحصر، تتوافر لنا وثيقة تاريخية فريدة تخص بعثة تعليمية مغربية توجّهت إلى الولايات المتحدة في عام 1885، وأوردها لويس مييج Louis Miége اعتمادًا على مقالة صدرت في جريدة **أزمنة المغرب** *Morocco Times*، ونتوفر، في خصوصها، على رسالة سلطانية في الخزانة العامة في تطوان، جاء فيها: "وصل كتابك وبطيّه زمام الصائر على المتعلمَين – اللذين كانا توجّها لبلاد المركان على يد مكلين [القائد ماكلين] يتعلمان حل المكاحل ومسحها، ووردا لحضرتنا الشريفة برباط الفتح"[54].

يبدو أن البعد المجالي بين البلدين حال دون تدفق البعثات التعليمية المغربية إلى الولايات المتحدة، وأسهم الإنكليز في تحفيز المخزن على إيفاد طالبين نحوها. ولم يتعدَّ الأمر أن يكون مجاملة دبلوماسية، وتثير الإشارة المذكورة إمكانية فتح مجال البحث لاستكمال بعض الحلقات المفقودة من ذاكرتنا التاريخية، علمًا أننا لا نعرف إلى الآن أي معلومات حول البعثة وأفرادها، وطبيعة تكوينها، والمناطق التي درست فيها، ومقدّمات إرسالها، وأظن أن البحث في الأرشيف الأميركي قمين بتقديم معلومات مهمة خاصة بالموضوع، ويمكن أن يتوّج ذلك بكتابة مقالة علمية تكون لها فائدتها للبحث الأكاديمي ولإتمام بعض الصور المبتورة من تاريخنا وتحديثنا في أثناء الفترة موضوع الدراسة.

54 رسالة الحسن الأول إلى الطريس، تطوان: الخزانة العامة، محفظة 161/3، 23 حجة 1302هـ/ 3 أكتوبر 1885م.



المراجع

العربية

بن الصغير، خالد. **المغرب في الأرشيف البريطاني: مراسلات جون دراموند هاي مع المخزن (1846-1886)**. الدار البيضاء: دار نشر "ولادة"، 1992.

بن زيدان، عبد الرحمن. **الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة**. الرباط: المطبعة الاقتصادية، 1938.

______. **العز والصولة في معالم نظم الدولة**. الرباط: المطبعة الملكية، 1382هـ/ 1962م.

______. **إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس**. الرباط: المطبعة الوطنية، 1990.

______. **العلائق السياسية للدولة العلوية**. تحقيق وتقديم عبد اللطيف الشاذلي. الرباط: المطبعة الملكية، 1999.

______. **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**. تحقيق علي عمر. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2008.

برزيني، لويجي. **تحت الخيمة: انطباعات صحافي إيطالي بالمغرب سنة 1906**. ترجمة ناصح رضوان ومصطفى نشاط. طنجة: سليكي أخوين، 2022.

بنعبد الله، عبد العزيز. **الجيش المغربي عبر العصور**. الرباط: المطبعة والمكتبة العالمية، 1986.

بوشعراء، مصطفى. **الاستيطان والحماية بالمغرب (1863-1894)**. الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1989.

بولحية، يحيى. "الصحافة والمسألة الدستورية في المغرب قبل الحماية الفرنسية 1916". **تبين**. العدد 3 (آذار/ مارس 2013).

حركات، إبراهيم. **التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية**. الدار البيضاء: مطبعة الدار البيضاء، 1405هـ/ 1986م.

جادور، محمد. "مدّالينا شيزوتي فرارا: ذكريات شخصية لحياة حميمة بالمغرب، ترجمة مصطفى نشاط ورضوان ناصح (الرباط: مطابع الرباط نت، 2019)، 254 ص". مجلة **هسبريس تامودا**. مج 3 (2019).

داود، محمد. **تاريخ تطوان**. تطوان: المطبعة المهدية، 1386ه/ 1960م.

زين العابدين، جلال. "تمثلات مغرب نهاية القرن 19 وبداية القرن 20، بعيون رحالة إيطالية". **دراسات استشراقية** (بيروت: المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية). العدد 30 (2022).

السليماني، محمد بن محمد الأعرج. "زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ، إعداد عبد الرزاق بنواحي". رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر. كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 1417هـ/ 1997م.

سيمو، بهيجة. **الإصلاحات العسكرية بالمغرب (1844-1912)**. الرباط: المطبعة الملكية، 2000.

______. **العلاقات المغربية - الإيطالية (1869-1912م)**. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة؛ منشورات اللجنة المغربية للتاريخ العسكري، 2003.



كمبنيني، ماسو. **ماضي العالم العربي ومستقبله من خلال مقدمة ابن خلدون.** ترجمة مصطفى نشاط وناصح رضوان. عمان: دار فضاءات للنشر والتوزيع، 2021.

مارجلين، جيسيكا. **القضاء المتعدد: اليهود والمسلمون في المغرب المعاصر.** ترجمة خالد بن الصغير. الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2021.

معنينو، أحمد. "ترجمة مختصرة لتلميذ من بعثة الحسن الأول 1297هـ: محمد بن الكعاب الشركي". **مجلة البحث العلمي**. العدد 25 (1976).

المنوني، محمد. **مظاهر يقظة المغرب الحديث.** ط 2. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985.

نشاط، مصطفى. **إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني**. وجدة: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2003.

______. **جوانب من تاريخ المشروبات المسكرة بالمغرب الوسيط.** الرباط: منشورات الزمن، 2006.

______. **السجن والسجناء: نماذج من التاريخ الوسيط**. الرباط: منشورات المجلس الوطني لحقوق الإنسان، 2012.

الأجنبية

De Amicis, Edmondo. *Le Maroc*. Henri Belle (trad.). Pais: Librairie Hachette, 1882.

Pierre, Loti. *Au Maroc*. Paris: La boite de document, 1988.

Vittorini, Valerio. "Le Maroc dans les récits de voyage de Maddalena Cisotti Ferrara et Luigi Barzini." *Loxias-Colloques*. 11/6/2022. at : https://bit.ly/3TCzjnC



ترجمات
Translations





DOI: https://doi.org/10.31430/QARD2373 :الرقم التعريفي

أوليفيه بونسيه | Olivier Poncet*
ترجمة محمد حاتمي | Mohammed Hatmi**

عودة إلى الأرشيف***

Archives et histoire: Dépasser les tournants

يسلط المقال الضوء على الاهتمام المتزايد بدراسات الأرشيف في البحث التاريخي، مؤكداً على تحول تجاه مجموعة من الأسئلة المنهجية التأسيسية. ويقارن المقال بين "المنعطف الأرشيفي"، حيث جرى التركيز على التبعات الإبستيمولوجية للعمليات الأرشفية على المجتمع، و"المنعطف الوثائقي"، الذي يتعامل مع الأرشيفات بوصفها كيانات تاريخية ديناميكية تنتج رؤى ذات مغزى. يناقش بونسيه المسارات المنفصلة التي اتخذها الأرشيفيون والمؤرخون ويدعو إلى تجسير هذه الفجوة. كما يدعو إلى نهج تكاملي، حاثًا المؤرخين على تجاوز الحدود التقليدية لفهم أعمق للقضايا المعرفية الشاملة للأرشفة.

كلمات مفتاحية: دراسات الأرشيف، البحث التاريخي، المنعطف الأرشيفي، المنعطف الوثائقي ، عبور التخصصات.

The article highlights the growing interest in archival studies in historical research, emphasizing a shift towards fundamental methodological inquiries. It contrasts the “archival turn,” focusing on the epistemological effects of archival processes on society, with the “documentary turn,” which regards archives as dynamic historical objects producing meaningful insights. Poncet discusses the separate paths taken by archivists and historians and calls for bridging this divide. He argues for a holistic approach, urging historians to transcend traditional boundaries to better understand the comprehensive epistemological issues of archiving.

Keywords: Archival Studies, Historical Research, Archival Turn, Documentary Turn, Interdisciplinary Approach.

* مؤرخ فرنسي، ينصبّ اشتغاله على التاريخ الحديث، إضافة إلى اهتمامه الخاص بفرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وهو خبير في علم الأرشيف والتاريخ الدبلوماسي.

French historian, whose work focuses on modern history, with a particular interest in France in the 17th and 18th centuries. He is an expert in archival science and diplomatic history.

** أستاذ التعليم العالي في جامعة سيدي محمد بن عبد الله في المغرب، وأستاذ زائر في مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية في فرنسا (باريس) وجامعة كافوسكاري في إيطاليا (فينيسيا).

Professor of Higher Education at the University of Sidi Mohamed Ben Abdellah in Morocco, and Visiting Professor at the School of Advanced Studies in Social Sciences in France (Paris) and the Ca’ Foscari University in Italy (Venice).

*** أود أن أشكر إيتيان أنهايم Etienne Anheim ومرية لورد روزا Maria Lurdes Rosa على مساعدتهما ونصائحهما واقتراحاتهما البيبليوغرافية.



"يمثل تاريخ الأرشيفات جزءًا من تاريخ الذاكرة الجماعية والحاجة الطبيعية إلى التذكر؛ ولا بد من أن يشكل يوم إمكانية الكتابة، واحدًا من الأحلام الأكثر إثارة الممكن تحقيقها".

مارك بلوك[1]

تشهد دوائر المؤرخين خلال السنوات الأخيرة على ما يبدو اهتمامًا مضطردًا بالأرشيف، ومن مؤشرات ذلك تناسل الإصدارات ومشاريع البحث التي تهتمّ به بصفته مادة مصدرية، وتجتهد في النبش في تاريخه، ورصد مسارات الفاعلين في ميادينه، والتدقيق في مناهج الاشتغال وما يعنيه من الناحية الاجتماعية والسياسية والثقافية. والحال أن هذا الاهتمام في حد ذاته مثير، ويدفع إلى المساءلة؛ وفي الإمكان ردّه إلى ما يمكن اعتباره ارتباطًا، من قبيل القران الوطيد بين التاريخ والأرشيف، وهو أمر فرض نفسه وتقوّى باعتباره تيارًا فكريًا ومنهجيًا على الأقل منذ العصور الحديثة. ومن شدة ما اكتسب من الفعالية، بات الطرح من الثوابت التي أهّلت أصحاب مأثورات من الماضي، كي يتبوّؤوا أماكن مشهودة بالصفات التي دعا إليها جول ميشليه Jules Michelet، جاعلين من عقد الارتباط المشار إليه الأساس في صوغ تاريخ موضوعي وفق ما صرّح به ليوبولد فون رانكه في عبارته المشهورة "كيف حدثت الأمور بالفعل"[2]، أو كمقعّر تترسّب فيه الأدلّة المطلقة والنهائية المؤطرة للأحداث التاريخية على شاكلة ما ظنه شارل فيكتور لانغلوا وشارل سينيوبوس خلال الزمن الجميل[3]. وعلى الرغم من الإكراهات العملية للتقعيد لما يؤسس للطرح في مجالات أخرى منوعة، والاعتماد على طرائق طرح أرقى، كما قعّد لها مؤسّساها مارك بلوك ولوسيان فيفر في **مجلة الحوليات**، فإن الأرشيف المكتوب لا يبدو أنه فقد صفة السند الأوثق لكل عملية إعادة صوغ من المؤرخين للتاريخ، بصرف النظر عن طبيعة المادة الحاملة للكتابة.

بدءًا، تستوجب الإشارة إلى أن لفظ "أرشيف" يُطلق على مكوّنات عديدة ومنوعة ليست بالضرورة متجانسة، ومن الصنف نفسه. ويعمد بعض اللغات إلى استعمال ألفاظ مختلفة ذات معان غير قارة؛ ما يعطي الانطباع بامتلاكها قاموسًا غنيًا لفظيًا، لكنه في حقيقة الأمر معطًى يزيد الأمر غموضًا (مثلًا يُستعمل في الإنكليزيةً لفظا أرشيفات Archives وسجلات Records). والحال أن المتخصصين على بيّنة تامّة بصعوبة إيجاد مصطلح مشترك، ومن ثمة يوصون بتفضيل العبارات المدققة في الموسوعات على التعاريف المقتضبة الواردة في القواميس[4]. وفي ما يخص حقل البحث التاريخي، يغطي لفظ "الأرشيفات" في الآن نفسه المفاهيم المرتبطة بالمادة المصدرية والوثائق والآثار، وكذلك الذاكرة. وفي الغالب، يبلغ الخلط درجات قصوى، وهو خلط يبرز للعيان، عن قصد أو غيره، حين لا يلم المنخرطون في الجدل والنقاش بكامل قواعد الدلالات اللفظية المحددة معاني المصطلح. ومن بين المجادلين، شكّل الأرشيفيون والباحثون في التاريخ طرفين، كثيرًا ما اشتغلا يدًا بيد. فمنذ زمن ميشليه بصفته رئيس مصلحة الأرشيفات القديمة داخل مؤسسة الأرشيف الوطني الفرنسي بين عامي 1830 و1852، إلى زمن صدور الكتاب الدليل من تأليف سينيوبوس، بتوقيع مشترك

---

1 Marc Bloch, "Un dépôt d'archives," *Annales d'histoire économique et sociale*, vol. 14, no. 4 (1932), p. 189; Pierre Piétresson de Saint-Aubin, *Les archives de l'Aube, 1790-1927* (Troyes: A. Albert, 1930).

2 Leopold Von Ranke, *Geschichten der romanischen und germanischen Völker von 1494 bis 1535*, t. 1 (Leipzig: Reimer, 1824), p. V-VI.

3 Charles-Victor Langlois & Charles Seignobos, *Introduction aux études historiques* (Paris: Hachette, 1898), p. 253.

"يتوافر للتاريخ مخزون محدود من الوثائق، كما أن تطورات العلم التاريخي محدودة بفعل حركية العلم نفسها. وعندما تصبح الوثائق كلها معروفة وتمر عبر العمليات التي تجعلها قابلة للاستعمال، حينئذ يمكن للكتابة العالمة أن تبلغ نقطة النهاية".

4 Eric Ketelaar, "The Difference Best Postponed? Cultures and Comparative Archival Science," *Archivaria*, no. 44 (1997), pp. 142-148, ici p. 143.

"هناك العديد من المصطلحات في المعجم المهني الخاص بالأرشيف، التي يصعب فهمها في لغة أخرى، إلّا إذا كان الباحث يعرف تمامًا سياقها المهني والثقافي والقانوني والتاريخي وأحيانًا السياسي. مثلًا: 'القيمة الإثباتية' Evidential value، و'الجرد' Inventory، و'الضياع' Estray، التي لا تكفيها ترجمة القاموس فحسب؛ إذ لا يمكن فهمها إلّا إذا تم شرح إطارها المفاهيمي وصارت قابلة للفهم، في موسوعة، وليس في قاموس، كما افترض ذلك جينكينسون" (ترجمة المؤلف). ينظر كذلك:
Michel Duchein, "Les archives dans la Tour de Babel: Problèmes de terminologie archivistique internationale," *La gazette des archives*, no. 129 (1985), pp. 103-113.



مع لانغلوا، وهو الأرشيفي والعارف بالخطوط القديمة الذي عُيّن بعد الإصدار مديرًا لمؤسسة الأرشيف الوطني (1913-1929)، ساهم التعاون بين الطرفين سالفي الذكر في وضع أسس علمية لكتابة التاريخ. والواقع أنه على الأقل في فرنسا، ترتب على التوظيف القيام بمهمة حصرية، استفاد منه من عُيّنوا بعد مسار طويل محافظين أو أساتذة باحثين، ما أفصح عن التوترات التي كانت من دون شك في السابق كامنة، وترتب على الجدل في شأنها زعزعة هذا الارتباط الوثيق بمصادر الأرشيفات.

مهما بلغت قيمة ما يرتقبونه ويفترضونه، أو ما يُظنّ من قبيل الامتداد الطبيعي للارتقاب والافتراض، فإن هؤلاء وأولئك تأثروا، بشكل أو بآخر، بأطاريح مؤرخي تيار ما بعد الحداثة، من جان فرانسوا ليوتار Jean-François Lyotard إلى هايدن وايتْ Hayden White، مرورًا بجاك دريدا صاحب العبارة الشهيرة "حمّى الأرشيف"[5]، فقد زاد الأخير من سعة المفهوم باستعمال مجازي يمكن لأي دارس الإمساك بخيوطه[6]. وما كان لبعض المؤرخين، أو بالأحرى المؤرخات، ومن بينهن ناتالي زيمون دايفيس Natalie Zemon Davis وأرليت فارج A. Farge، على سبيل المثال وليس الحصر، أن ينتظروا إصدارات دريدا ليقرّوا بكون الأرشيفات مجالًا معرفيًا وموضوع ممارسات ثقافية، وليست مستودعًا تُختزن فيه الأحداث والوقائع. وقد صدرت عبارة "المنعطف الأرشيفي" عن فضاء ما ظُن، أول وهلة، أنه مؤهّلٌ للإحاطة بالموضوع، وهو فضاء الأنثروبولوجيين الذين تبنّوا على طريقتهم دور المنتقد نفسه الذي قام به في بداية القرن العشرين علماء الاجتماع تجاه المؤرخين. وقد لاحظت آن لورا ستولار في عام 2002، وجود هذا المنعطف الأرشيفي المفعّل منذ سنوات عدة، حين اعتمدت بوساطته دراسة تداعيات الهيمنة الاستعمارية ومضاعفاتها، والتي وقف عليها المختبر الذي تديره، وهو مختبر الهند الهولندية[7]. وكما أوضح إيريك كيتيلار جرّاء تعداده المنعطفات كلها التي كانت الأرشيفات موضوعها، فإن "المنعطف الأرشيفي" بالذات طعّم تساؤلات المؤرخين والأرشيفيين في اعتماد منهج يجمع في الآن نفسه بين تداخل الاختصاصات (الباحثون في العلوم الإنسانية)، والنظرة من الداخل، ومن دون اعتبار لمن هم من خارج التخصص (الأرشيفيون)[8].

---

5 نُشر هذا العمل الرائد لدريدا في صيغته الأصلية باللغة الفرنسية، وهو في الأصل محاضرة ألقاها في ندوة علمية Memory: The Question of Archives, Londres, Musée Freud, Juin 1994، لكنه اشتهر وقُرئ أكثر في الصيغة الإنكليزية التي أنجز ترجمتها إريك برينويتز Eric Prenowitz:
Jacques Derrida, *Mal d'archive: Une impression freudienne* (Paris: Galilée, 1995); Jacques Derrida, "Archive Fever," *Diacritics*, vol. 25, no. 2 (1995), pp. 9-63; Jacques Pouchepadass, "A proposito della critica postcoloniale sul 'discorso' dell'archivio," *Quaderni storici*, vol. 43, no. 3 (2008), pp. 675-690, ici pp. 677-679.

6 يراجع على سبيل المثال:
Carolyn Steedman, "The Space of Memory: In an Archive," *History of the Human Sciences*, vol. 11, no. 4 (1998), pp. 83-95.

وقد صدرت هذه المقالة في نشرة جديدة:
Carolyn Steedman, "'Something She Called a Fever': Michelet, Derrida, and Dust (or, in the Archives with Michelet and Derrida)," in: F.X. Blouin & W.G. Rosenberg (dir.), *Archives, Documentation and Institutions of Social Memory: Essays from the Sawyer Seminar* (Ann Arbor: University of Michigan Press, 2007), pp. 4-19; Éric Méchoulan (dir.), no spécial "Archiver/ Archiving," *Intermédialités*, no. 18 (2011), pp. 9-182.

هذه الحركة ليست موحدة، وقد أدى هذا التأثير إلى ردات فعل أكثر دقة بين بعض موظفي الأرشيف:
Brien Brothman, "The Limits of Limits: Derridean Deconstruction and the Archival Institution," *Archivaria*, no. 36 (1993), pp. 205-220; Terry Cook, "Archival Science and Postmodernism: New Formulations for Old Concepts," *Archival Science*, no. 1 (2001), pp. 3-24; Terry Cook, "Fashionable Nonsense or Professional Rebirth: Postmodernism and the Practice of Archives," *Archivaria*, no. 51 (2001), pp. 14-35; Tom Nesmith, "Reopening Archives: Bringing New Contextualities into Archival Theory and Practice," *Archivaria*, no. 60 (2005), pp. 259-274

7 نذكر على سبيل المثال:
Martin Diskins, "The Peasant Family Archive: Sources for an Ethnohistory of the Present," *Ethnohistory*, vol. 26, no. 3 (1979), pp. 209-229; Nicholas B. Dirks, "Annals of the Archive: Ethnographic Notes on the Sources of History," in: B.K. Axel (dir.), *From the Margins: Historical Anthropology and its Futures* (Durham: Duke University Press, 2002), pp. 47-65; Ann Laura Stoler, "Colonial Archives and the Arts of Governance," *Archival Science*, vol. 2, (2002), pp. 87-109, ici p. 92.

8 Eric Ketelaar, "Archival Turns and Returns: Studies of the Archive," in: A. Gilliland, S. Mckemmish & A. Lau (dir.), *Research in the Archival Multiverse* (Clayton: Monash University Publishing, 2017), pp. 228-268; Blouin & Rosenberg.



إن في ارتفاع عدد الاجتهادات المخصصة للأرشيفات في معانيها الواسعة، وما بلغته حجمًا ضمن الدراسات التاريخية؛ ما يدل على العودة بقوة إلى التساؤلات المنهجية الأساسية، وكانت غير واردة إلى حدود عقود خلت. وكما هو الشأن في وضع المرآة العاكسة، فإن لا مثيل لهذه الظاهرة الإخبارية إلّا المساءلة العميقة للقيمة الفلسفية والإبستيمولوجية للأرشيفات التي يطرحها الأرشيفيون الذين لا تشكل القضايا التقنية هوَسهم الوحيد. ثمة في واقع الأمر تياران أُطّرا مُبكرًا تحت يافطة "المنعطفين"[9]، يبدوان في تطور، دونما أخذ أحدهما مسار الآخر في الحسبان. وإن بشكل كاريكاتوري، فإن من شأن التوصيف بنعت "المنعطف" ما قد يُظَن به وجود ضرب من اقتسام المهمات بين الأرشيفيين (والأنثربولوجيين)، من جهة، وبين المؤرخين، أو بصيغة أخرى وجود مقابلة بين أصحاب "المنعطف الأرشيفي" وأصحاب "المنعطف الوثائقي"، من جهة أخرى. ويفهم **الأول** في هذا المقام بصفته نزوعًا إلى أخذ مواقع إبستيمولوجية لمحترفي الأرشيفات والباحثين المنكبين على تتبع آثار مختلف مسارات الأرشفة (الانتقاء والتسجيل والتوصيف والمحافظة)؛ أما **الثاني**، فيستند إلى أبحاث أطّرها، لمدة طويلة، الأرشيفيون أنفسهم، فأضحت فرعًا للبحث التاريخي ذا حيوية ودينامية، وهو تيار بحثي لا يكتفي باعتبار الوثائق والمحفوظات الأرشيفية مواد لازمة فحسب، بل يقاربها هي في حد ذاتها، بصفتها مواضيع تاريخية كاملة المواصفات، مُنتجة القيم الاجتماعية والسياسية والثقافية. وبغية التوضيح أكثر، يهتم المنعطف الأرشيفي، أولًا بما تفيد به الأرشيفات المجتمع، في حين ينكبّ المنعطف الوثائقي على رصد ما يفعله المجتمع بالأرشيف.

وغني عن البيان، ومع أن الجدل داخل أوساط كلا الجانبين بلغ درجات قصوى؛ ما عدا بعض المؤلفات القليلة التي سعى أصحابها ليكونوا جسورًا، فإن الاجتهادات في غالبيتها لم تختلق التلاقح المتبادل لأسباب تعود إلى اختلاف الطبائع وتنوّع الإشكاليات. وما عادت الاعتبارات الأرشيفية تقتصر على مقاربات تنبثق من فاعلين مهنيين (الأرشيفيين) فحسب، بل اكتسبت نزوعات جامعة تستحق، فعلًا، أن تجد لها موضعًا ضمن الأعمال الجامعية في التاريخ. وإن وجب الإقرار بكونها أحيانًا متعارضةً، يحسن تأكيد أن طرائق عمل كل فريق عند مقارعة قضية "الأرشيفات"، تنحو إلى إقامة البيّنة على أن البَون، وإن ما فتئ يتّسع، ليس بالصعب تجاوزه، ولا سيما بالنسبة إلى المؤرخين. إن من مصلحة هؤلاء التحرر من عقدة "المنعطفات" لأجل الأخذ في الحسبان مجموع الرهانات المعرفية للأرشفة، وامتدادًا له متابعة الجهود الرامية إلى إدماج ما يتخلّف عن المناهج الجديدة من مكاسب ضمن الأعمال المُنجزَة، وهي مكاسب ترمي إلى إعطاء النبش في الماضي نفسًا إضافيًا تؤسس له الوثائق المكتوبة دونما اعتبار لزمن صياغتها. وفي إطار هذا العرض البيبليوغرافي والتأريخي المتعمد إعطاؤه طابعًا مقارنًا، يبدو أنه من المستحيل بلوغ منتهى التفصيل المستفيض. ظن بعضهم أن الاهتمام التفضيلي بالأرشيفات العمومية في كل زمان ومكان، يمكّن من اعتماد وجهة نظر مقبولة، تعكس مفعول القوى الأكثر دينامية داخل كلا المنعطفين، كل في حد ذاته، وأحدهما بالنسبة إلى الآخر، وهي دينامية تنفلت جزئيًا من تداعيات التباعد غير الممكن تفاديها بمجرد أن تؤخذ في الحسبان، من جهة المساءلة الأرشيفية خارج النطاق الأوروبي وتنصبّ أكثر على الحاضر، بل على المستقبل، ومن جهة أخرى، على أعمال المؤرخين، وتعمد إلى الاستغلال المكثّف للمصادر الأوروبية من العصرين الوسيط والحديث.

ومن باب المصارحة، فإن هذا الرأي هو كذلك ما أؤمن به شخصيًا. فبصفتي مؤرّخًا اشتغلت في السابق محافظًا للأرشيف، وأعمل حاليًا أستاذًا باحثًا، أعتقد أنه ليس في وسع أحد التخصصَين وحدَه، وأعني بهما التاريخ والأرشفة، اختزال كنه هويتنا وجوهرها.

---

9 لن نثير من جديد في هذا المقام قضية المنعطفات في التاريخ، وقد فصلنا فيها في عدد سابق من هذه المجلة، صدر منذ سنوات:
David Armitage & Jo Guldi, "Le retour de la longue durée: Une perspective anglo-américaine," *Annales HSS*, vol. 70, no. 2 (2015), pp. 289-318, ici pp. 289-292.

وقد خصِّص عددٌ لهذا الموضوع في المجلة الأميركية:
"Historiographic 'Turns' in Critical Perspective," *The American Historical Review*, vol. 117, no. 3 (June 2012), pp. 698-813.



فبفعل الميولات الفنية وطبيعة التكوين، وكذلك القناعات والطموح المهني، نسعى للحفاظ على ضرب من التوازن في وجهات النظر، وإن أمكنه السموّ فوق الاختلافات في المقاربات التي تتجاذب، إلى حد المواجهة أحيانًا، الباحثين في التاريخ وممتهني الأرشفة. يتعلق الأمر من دون شك بوضع غير سوي، وغير طبيعي، ويؤدي عمليًا إلى صراع للثقافات يحول دون تحديد المشترك من الآراء والمواقف، وامتدادًا له القفز على ما هو من صميم اجتهادات التخصص والتراكم المعرفي للطرفين. إن من شأن التحدي الذي تطرحه إعادة النظر في الممارسات التاريخانية تحت ضغط إكراهات "المنعطف الأرشيفي"، أن يمثل في واقع الأمر الحل، والمكمل الإيجابي "للمنعطف التوثيقي" الذي أُدرج فيه منذ مدة البحث التاريخي.

تحديات المنعطف الأرشيفي

بقيت الأرشفة مدة طويلة من حيث هي علم، حكرًا على الأرشيفيين وحدهم، وعلى مجلّاتهم المتخصصة وطرائق اشتغالهم وأوليات العمل في الأرشيف وقواعده، وما يحصل من تراكم وتركيب، ويُعبّر عنه في مناسبات الإشادة وعروض الندوات والمؤتمرات والمظاهرات الاحتفالية[10]. وداخل هذا الفضاء المغلق إلى حدٍ ما، انصبّ الاهتمام على تاريخ الأرشيف، وبصفة خاصة الأرشيفات العمومية. كُرّست الجهود أولًا لفهم مؤصل لتاريخ المؤسسات والإدارات المكلّفة بالأرشيف، وبناء عليه، عرض التأثيرات القوية التي طبعت تعاقب الأزمنة الأرشيفية[11]. اعتبر الاهتمام بالشخصيات الكبرى ضمن جمهرة الأرشيفيين، وكذلك تاريخ دور الأرشيف (مراحل التشكل وما طرحته المحافظة من مشكلات وسُبل الانتقال وتنويع المحتويات)، لبنة أولى لازمة، ومن ثمة انبروا عمليًا ليُفصحوا عن كم واسع من المعطيات الأولية ذات الأهمية القصوى. وإن حملت هذه المادة معلومات وتحليلات وتعليقات ما يفيد حقًا البحث التاريخي، ومن شأنه خدمته من حيث هو علم يستوجب التأصيل، فإنها لم توفِ دومًا بالقيمة التي تحملها، وهو معطى مثير؛ لأن المجلات التاريخية التي أُسّست خلال القرن التاسع عشر، استقطبت، ليس ضمن من يكتبون فيها فحسب، بل حتى داخل لجان التحرير، في الآن نفسه أرشيفيين وأساتذة في الجامعات (وكذلك في الثانويات).

---

10 من النماذج عن الأعمال التركيبية:

Rafael Conde Y delgado de Molina, *Reyes y archivos en la Corona de Arag´on. Siete siglos de reglamentaci´on y praxis archivística (siglos XII-XIX)* (Saragosse: Instituci´on Fernando el Cat´olico, 2008).

ضمن الأعمال المُهداة اعترافًا بالفضل لأصحابه، نذكر على سبيل المثال:

Philippe Béchu, "Un feudiste et ses clients à la veille de la Révolution," in: *Plaisir d'archives. Recueil de travaux offerts à Danièle Neirinck* (Mayenne: éd. régionales de l'Ouest, 1997), pp. 191-234.

فيما يخص الندوات:

Lucio Lume (dir.), "Archivi e archivistica a Roma dopo l'Unità. Genesi storica, ordinamenti, interrelazion (Atti del convegno 12-14 marzio 1990)," Rome, Ufficio centrale per i beni archivistici, 1994.

أما فيما يتعلق بمناسبات الاحتفال، فيمكن مطالعة ما قُدِّم خلال انعقاد اللقاء، بمناسبة مرور أربعمئة عام على تأسيس فيليب الثاني مؤسسة أرشيف سيمانكا Simancas:

José Luis Rodríguez de Diego, *Instrucci´on para el gobierno del Archivo de Simancas (ano 1588) Estudio* (Madrid: Direcci´on général de bellas artes y archivos, 1988); Claire Béchu, *Les Archives nationales: Des lieux pour l'histoire de France: Bicentenaire d'une installation, 1808-2008* (Paris: Somogy/ Archives nationales, 2008).

وفي خصوص المراجع الفرنسية، فغالبيتها قديمة:

Olivier Poncet, "Fabrique des archives, fabrique de l'histoire du Moyen Âge au XIXe siècle. Une bibliographie," *Revue de synthèse*, vol. 125 (2004), pp. 183-195.

11 نورد هنا مقالة لها قيمة المرجعيات الكلاسيكية، نشرتها مجلة مهنية عالمية، يشرف عليها المجلس الدولي للأرشيفات:

Robert-Henri Bautier, "La phase cruciale de l'histoire des archives: La constitution des dépôts d'archives et la naissance de l'archivistique, XVIe-début XIXe siècle," *Archivum*, vol. 18 (1968), pp. 139-150.



ما يثير الانتباه أن البعد الموسوعي في العديد من الدراسات التمهيدية لعمليات الجرد، وحين وضع قوائم الأرشيفات، لا يبدو أنه قلّص من إهمال الباحثين في التاريخ، وكثيرون منهم في هرولتهم لا يهتمون بما تعرضه اللوائح من حيث المضمون والإحالات. ولكونهم عاجزين أصلًا عن فهمها، وكذلك لعدم اكتراثهم بها، درج المؤرخون على تصنيف هذه المادة المؤصل لها علميًا، في خانة الإنتاج من قيمة دنيا من صنف الأدبيات التقنية، كما لو أن المأموريات المفروضة مهنيًا (وصف المخزون وتبسيط سُبل الفهم والتعامل)، تحول دون تبنّي خطاب تاريخي سويّ. وفي وقت لاحق، خلال النصف الثاني من القرن العشرين، ضعف أكثر فأكثر الارتباط بين عالمي المؤرخين والأرشيفيين. أُسّست مجلات متخصصة جديدة، عملت على تتبع التطورات المهنية المتجددة لمهنة الأرشفة، من بينها **مجلة الوثائق** (1933)، ومجلة **الأرشيفي الأميركي** (1938)، لكنها لم تحظ، بالضرورة، باهتمام المؤرخين وقراءاتهم. نزع الأرشيفيون منذئذٍ إلى استعمال عبارة قدحية، هي "تخصص باطني من درجة دنيا"، ما يعطي الانطباع بعدم جدوى السعي للحصول على الاعتراف والاهتمام[12]. ومع ذلك، حصلت مؤخرًا طفرة في كتابات المهنيين المتخصصين الذين تحقق لهم قسط من الاستقلالية الطارئة في العلاقة مع أعمال المؤرخين.

مهما يكن، فإنه بفضل القراءات المتجددة للفظ/ المفهوم، وتدعو كلها، بإلحاح، إلى الانفتاح، ذهب الأمر أحيانًا إلى إكساب الأرشيفات مفهومًا أكثر شمولية بشكل جعله شبيهًا عند المقارنة بمفهوم "الأثر"[13]، فبات يمثل نقطة البداية ومنتهى الاجتهاد في العلوم الاجتماعية. وبناءً عليه، فإن الطموحات، على كل حال، مشروعة للدوائر العاملة في الأرشيفات، وترمي إلى أخذ المواقع كلها ضمن عملية إعادة الهيكلة العلمية والأكاديمية المدشّن لها في نهاية القرن العشرين، وتجد هنا حقلًا تطبيقيًا استثنائيًا. إن وضع مكانة الأرشيفات قيد المساءلة، وتبدو في حالة من الجمود منذ الأزل، بدأه أول الأمر الأرشيفيون أنفسهم، أو على الأقل بعضهم. فخلال العقد 1990-2000، ولا سيما في المجال الناطق بالإنكليزية، ونقصد بها في هذا المقام أساسًا أميركا الشمالية وأستراليا، تطوّرت نظريات قطعية بشأن المعنى الواجب إعطاؤه للأرشيف ووظيفة الأرشيفيين. والحال أن الأهمية المتحصلة جراء التداخل بين علوم الإعلام ونظريات ما بعد الحداثة، ومن تداعيات الأخيرة، تتمثل بحلحلة وضع اعتُبر جامدًا، وبقدر أقل التأثير فيه، فضلًا عن تضافر مجموع الظرفيات المُدرجة في خانة ما بعد الاستعمار أو الاستعمار الجديد (وهو ما فرضته العولمة)، وانبثاق الحركات النسائية[14]، ثم أخيرًا، وليس بآخر، فرض المعطيات الإلكترونية نفسَها على الجميع، وهي أمور استنفرت غليانًا حقيقيًا في ميادين الأرشيف. والحق أنه لم يحصل بعد إجماع بشأن هذه التطورات، ولا تزال إلى الآن موضوع جدل مفتوح، ولا سيما ما له صلة بالمرتكزات الكبرى، وهي بطبيعتها تخلط بين المطالب الاجتماعية والسياسية. وحريّ مع ذلك تسجيل، إيجابيًا، استمرارية مؤكدة، من صفاتها الرغبة في تجاوز الأزمنة والقارات. وعمليًا، تعكس الآراء الحالية بشأن الأرشيفات الطموحات المدنية والمواطنة نفسها التي غازلها أهل فترة الأنوار والقرن العشرين عندما حمّلوا الأرشيفات وظائف سياسية موجهة إلى رصّ بناء شخصية الأمم الأوروبية الغربية.

طوال العقدين أو الثلاثة عقود الأخيرة، تطرّق العديد من المجلات والمؤتمرات المهتمة بالأرشيف، إلى الثيمات الكبرى هذه، ولم يقتصر الجدل على الجوانب التقنية وحدها، ولا انحصر في المقاربة التاريخية التقليدية لتغليب كفة وجهات النظر السوسيولوجية والأنثربولوجية أو الفلسفية، وهو ما شهدت به الأصداء التي نقلتها، على سبيل المثال، مجلة **علوم الأرشيف** التي قرنت عنوانها

---

12 Wilfried Reininghaus, "Archivgeschichte: Umrisse einer untergründigen Subdisziplin," *Der Archivar*, vol. 61 (2008), pp. 352-360.

ينظر أيضًا، على مستوى فكري آخر، وفي سياق آخر، تاريخي وقومي:

Yves Pérotin, "Les archivistes et le mépris," *La gazette des archives*, vol. 68, no. 1 (1970), pp. 7-23.

13 Joseph Morsel, "Traces? Quelles traces? Réflexions pour une histoire non passéiste," *Revue historique*, vol. 680, no. 4 (2016), pp. 813-868, ici p. 855 sq.

14 حصل مؤخرًا دمج لهذين الحقلين التأريخيين؛ ينظر: Pouchepadass, p. 681 sq.



بآخر فرعي هو "مجلة المعلومات المحفوظة" الذي اعتُمد منذ عام 2001، عوضًا عن "الأرشيفات ومعلوميات المتاحف"[15]، وفي تغيير العنوان الفرعي دلالة عميقة. والحال أن الفضائل الجديدة التي اعترُف بها للأرشيفات، تبقى في خدمة الأسئلة الخاصة بالإستوغرافيا، كما هو الشأن بالنسبة إلى التواصل السياسي والمعرفة، أو الثقافة المادية كذلك. ومع ذلك، أدّت التطورات إلى إعادة التفكير بطريقة راديكالية في الموروث الأرشيفي الأوروبي المؤسَّس له داخل حلقة الدراسات التاريخية في القرن العشرين. وبهذا بات قائمًا ما أُعلِن عنه سالفًا، ولا يقتصر على التحاور مع المؤرخين وحدهم، إنما التأكيد على أن الأرشفة تنعم باستقلالية أكاديمية، وبمقدرتها التأثير في مجموع أطياف العلوم الإنسانية والاجتماعية، فضلًا عن اقتراح منظومة إبستيمولوجية خاصة، يمكن نعتها بـ "منطق الأرشيفات"[16]. وغير خفي ارتباط المنحى المعتمد بالأسئلة الكبرى التي ما فتئ يطرحها الأنثربولوجيون[17]، ولا يكلّون عن المناداة بمقارعتها، وهو ما يمكن تلمّسه بوضوح في العمل الجماعي الضخم الذي دعمته جامعة موناش الأسترالية، حيث أُسّست نظرية "نموذج المحفوظات المتسلسلة" التي تُعزّز التدخل الأساسي والفعال للأرشيفي في تشييد صرح الموروث الأرشيفي، ضمن رؤية استباقية، منذ إنشائها، تلبية لحاجات جميع المستخدِمين[18].

إن ما تُمارسه الدولة والفاعلون العاديون من تأثير قوي في مسارات التشييد الأرشيفي، لا يقبل به، غالبًا، بعض الأرشيفيين المنشغلين برد الاعتبار إلى ذواكر منسيّة، شابها الحذف أو التهميش. فقد اعتاد الأرشيفيون منذ عقود عديدة عدمَ الخضوع طواعيةً للمبادرات (أو بالأحرى غياب المبادرات) التي تتبنّاها الإدارات المنتجة للمستندات الورقية التي هم مكلّفون بتدبيرها. وقد قطعوا رسميًا، بدرجة أو بأخرى، مع النظرية المحافظة أو الطهرية التي تُجسّدها كتابات هيلاري جينكنسون (1882-1961)، محافظ "مكتب السجلات العامة"، المعروف بمعارضته لتجميع الأرشيفات الخاصة، وفي الوقت ذاته لتدخل الأرشيفيين منذ بداية إنشاء الوثائق داخل مكاتب الإدارات نفسها[19]. وفي فرنسا، شهدت مؤسسة الأرشيفات الوطنية تأسيس مصالح مكلفة بالأرشيفات الخاصة (1949)، وأرشيفات المقاولات (1952). وفي وقت لاحق، فرض الأرشيفيون أنفسهم صنّاعًا لما يقومون به من خلال المساهمة، إلى جانب

---

15 ومنذ خمسة عشر عامًا، نقف على:
Joanna Sassoon & Toby Burrows (dir.), "Minority Reports: Indigenous and Community Voices in Archives. Papers from the 4th International Conference on the History of Records and Archives (Perth, Western Australia, August 2008)," *Archival Science*, vol. 9, no. 1 / 2 (2009); Patricia Whatley & Caroline Brown (dir.), "The Philosophy of the Archive," *Archival Science*, vol. 9, no. 3 / 4 (2009); Randolph C. Head (dir.), "Archival Knowledge Cultures in Europe 1400-1900," *Archival Science*, vol. 10, no. 3 (2010); David A. Wallace (dir.), "Archives and the Ethics of Memory Construction," *Archival Science*, vol. 11, no. 1/2 (2011); Andrew Flinn & Elizabeth Shepherd (dir.), "Archives, Records, Identities: Question of Trust," *Archival Science*, vol. 11, no. 2 / 4 (2011); Sue Mckemmish et al. (dir.), "Keeping Cultures Alive: Archives and IndigenousHuman Rights," *Archival Science*, vol. 12, no. 2 (2012); Gillian Oliver & Wendy M. Duff (dir.), "GenreStudiesinArchives," *Archival Science*, vol. 12, no. 4 (2012); Caroline Brown et al. (dir.), "Memory, Identity and the Archival Paradigm," *Archival Science*, vol. 13, no. 2 / 3 (2013); Michelle Caswell (dir.), "Archives and Human Rights," *Archival Science*, vol. 14, no. 3 / 4 (2014); Milena Dobreva & Wendy M. Duff (dir.), "Digital Curation," *Archival Science*, vol. 15, no. 2 (2015); Andrew Flinn & Ben Alexander (dir.), "Archiving Activism and Activist Archiving," *Archival Science*, vol. 15, no. 4 (2015); Anne J. Gilliland & Marika Clifor (dir.), "Affect and the Archive, Archives and their Affects," *Archival Science*, vol. 16, no. 1 (2016).

16 Jason Lustig, "Epistemologies of the Archives: Toward a Critique of Archival Reason," *Archival Science*, vol. 20, no. 1 (2020), pp. 65-89.

17 Diskin; Ann Laura Stoler, *Along the Archival Grain: Epistemic Anxieties and Colonial Common Sense* (Oxford: Princeton University Press, 2009).

18 Mckemmish & Lau (dir.); Frank Upward, "Structuring the Records Continuum – Part One: Post Custodial Principles and Properties," *Archives and Manuscripts*, vol. 24, no. 2 (1996), pp. 268-285; Viviane Frings-Hessami, "La perspective du Continuum des archives illustré par l'exemple d'un document personnel," *Revue électronique suisse de science de l'information*, vol. 19 (Décembre 2018).

19 Hilary Jenkinson, *A Manual of Archive Administration Including the Problems of War Archives and Archive Making* (Oxford: Clarendon Press, [1922] 1965).

صدرت طبعة أولى في عام 1922، وتمت مراجعتها مرتين في عامي 1937 و1965؛ وكان لهذا المؤلف صدًى قوي داخل أوساط الأرشيفيين في العالم الأنكلوسكسوني.



الباحثين، في تدبير تجميع الأرشيفات الشفوية[20]. ومنذئذٍ أعربوا عن الحيطة من السلطة العمومية؛ لأن من شأن أرشيفها (مؤسسات ووثائق)، من شدّة ما يُمارسه من هيمنة، مواراة جوانب بكاملها من حقيقة الوضع الاجتماعي والإنساني. وبالنسبة إلى العديد من الأرشيفيين، وأبرزهم من الأنغلوفونيين، فإن مهنتهم دخلت عصر ما بعد حفظ الأرشيف، كما لو أن العلوم الإنسانية دخلت بدورها زمن ما بعد الحداثة[21]. ومن باب التذكير، فإن بعض الإكراهات المنهجية زاد تهويلًا مقاربة تيمة الكتابة التاريخية جرّاء طرح السؤال المباشر بشأن قدرة الأرشيفيين على الانفلات مما يمكن تسميته "قدرها الأرشيفي":

"وبالمثل، هل لثقافة كهذه [إنشاء الأرشيفات] مبنية إلى حدٍ كبير على الأرشيفات المستقلة تأثير في إدماج المزيد من الأصوات والآفاق في السرد التاريخي الوطني، أو أن الأحكام المسبقة المهنية والثقافية، المرتبطة بالجنس الأبيض والمعيارية، متأصلة بعمق، إلى درجة أنها تميل إلى الحضور في هذه الأرشيفات، حتى في غياب نظام وطني، أو مراقبة مركزية، أو تبني معايير في الأساس"[22]. إن النظريات الأميركية والأسترالية، على وجه الخصوص، جسّدت تدريجيًا ما يُشبه "انتقال السلطة"، حيث في إمكان الأرشيفي، بالمعنى الأكثر شمولية، المطالبة بالقطع مع خط التواصل مع العلوم التاريخية بغية الحصول على الإقرار بالفضل الأكاديمي[23]. إن التحدي المفروض على الممارسة التاريخية ليس بالأمر الهيّن، خاصة أننا في زمن يعرف استثمارًا غير مسبوق في تاريخ الأرشيفات ذاتها.

النقلة النوعية في تعامل المؤرخين مع المصادر من مجرد اعتبارها مادة إلى طور مقارعتها بصفتها موضوعًا للبحث

دونما ارتباط بالأسانيد والحجج التي تُغني الخطاب الأرشيفي هذا، عمد المؤرخون، إن صحّ التعبير، إلى "العودة" إلى الاعتماد على الأرشيفات. وقد خصّ الخطاب التاريخي الأرشيفات بالتثمين، لأنها الوسيلة لإعطاء الوثيقة صفةً وتسميةً مبتدعة. إن الاجتهادات التي استندت تصريحًا إلى مفهوم الأرشيفات، شدّدت في البدايات على طابعها المهيكل، أكثر منه على تفرد كل سرد بمادته في الأحداث. تم التعامل مع الوقائع بحد ذاتها في خضمّ تحليل يرفع من قيمة الجانب المبدع للحقيقة التاريخية، كما هي مكتوبة، لملامستها البعد العاطفي، أو لقولها الأمور في شموليتها، أو منحاها المغالي نسبيًا في الإعجاب[24]. وقد أُضيفت هذه الاجتهادات إلى امتدادات الفراغ المضطرد اتساع رقعته نتيجة اندحار البردايمات الكبرى المفسّرة. عمد روجيه شارتييه مستلهمًا

20 Institut D'histoire du Temps Présent, *Problèmes de méthode en histoire orale. Table ronde du 20 juin 1980* (Paris: IHTP, 1981); Danièle Voldman (dir.), *La bouche de la vérité? La recherche historique et les sources orales* (Paris: CNRS, 1992); Florence Descamps, *L'historien, l'archiviste et le magnétophone: De la constitution de la source orale à son exploitation* (Paris: Comité pour l'histoire économique et financière de la France, 2001);

ينظر أيضًا العدد الخاص:

"Les archives orales: bilan, enjeux et perspectives," *La gazette des archives*, vol. 211, no. 3 (2008).

21 Terry Cook, "The Conc ept of the Archival Fonds in the Post-Custodial Era: Theory, Problems and Solutions," *Archivaria*, vol. 35 (1992), pp. 34-37; Terry Cook, "Electronic Records, Paper Minds: The Revolution in Information Management and Archives in the Post-Custodial and Post-Modernist Era," *Archives and Social Studies*, vol. 1 (2007), pp. 399-443.

22 Anne J. Gilliland, "Archival and Recordkeeping Traditions in the Multiverse and their Importance for Researching Situations and Situating Research," in: Mckemmish & Lau (dir.), pp. 31-73, ici p. 68.

23 Ibid., p. 48, fig. 1-1; Michelle Caswell, "Teaching to Dismantle White Supremacy in Archives," *The Library Quarterly*, vol. 87, no. 3 (2017), pp. 222-235.

24 Natalie Zemon Davis, *Fiction in the Archives: Pardon Tales and their Tellers in Sixteenth Century France* (Stanford: Stanford University Press, 1987); Arlette Farge, *Le goût de l'archive* (Paris: du Seuil, 1989).



في تحليلاته المنصبّة على التفاعل بين الكاتب نفسه والمكلفين بالطبع (المقصود بهم المصففون والمجلدون والناشرون) خلال مسلسل استصدار كتاب مطبوع، إلى سبر أغوار مجموع التحديات، وبسطها في كتابه **على حافة الهاوية**[25]. إن في عدم كفاية الاحتياطات المُبطّنة والعادية والبدهية، ما يستوجب التنبيه إلى أنه في المسارات المختلفة والتراكمية للمصادر المكتوبة، ما يؤدي إلى فقدانها معانيها وما تقيمه من توجيه. ثم إن المؤرخين يعرفون منذ زمن طويل أن للأرشيفات تاريخًا، يؤثر في كتابة الماضي. وما يعتبر تجديدًا هو حجم التداخل بين العناصر المكوّنة، فتصبح الأرشيفات موضوع استبطان يحظى بالامتياز في إطار نهج، ليس بالبدعة الفردية الخاصة بهذا الباحث أو ذاك، ولا هو بالتجديد إلى ما نهاية للتعريف العادي لحالة المصادر، وإن لزم أحيانًا إقامة البينة على جدوى التجديد في حد ذاته[26].

مع ذلك، يستوجب التدقيق في ما يمكن أن ينظر إليه كلحظة شك جديدة. وما كان لازمًا انتظار نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين لطرح السؤال حول قيمة الأرشيفات في الممارسة التاريخية، وإعادة تقييم هذه الصفة. ولحظة الريبة هذه نفسها هي التي وسمت زمن جون مابيون Jean Mabillon (1632-1707). ففي مؤلفه **علم الوثائق** (1681)، أصدر هذا المفكر قواعد النقد التاريخي، بالارتكاز على وثائق الأرشيف في خضمّ مبادرة ترمي إلى إكسابها القوة الفاعلة باستعمال وسائل عمل خاصة، تسمح حين مقارعة الأرشيفات الصحيحة في ضبط الغث من السمين. لكنه على خلاف عمليات التحقق العلمي التي جرت في زمن ما يصطلح عليه بـ "عصر لويس الرابع عشر"، فإن الريبة الفلسفية، وكان يمكن التعبير عنها في آخر عهد الملك لويس الرابع عشر، انحازت إلى جانب إصباغ النسبية على كل إقرار وضعي لمصلحة شكل من أشكال الحقيقة[27]. وقد عكّرت هذه الريبة صفو الجدل الذي تعارض فيه القس الأكبر لكنيسة سان جيرمان دي بريه، مع بارثلوميو جيرمون، وهو قس يسوعي (1663-1718)، ففي معرض مرافعة الأخير لمصلحة البناء المنطقي القائم على الثقة في جودة المخزون (العمومي الأكثر من دونه)، ودحض وجوب المعالجة الخارجية والداخلية للوثيقة (محتمل أن تكون مزوّرة)، استثنى كل شكل للنقد المستقل الموجّه إلى الأرشيفات التي يمكن أن يستعملها المؤرخون وسيلةً للتحليل[28]. كما أن الأمر يتعلق آنئذٍ بظاهرة صراع للدفاع عن مواقع باتت مهدّدة بالزوال. عصفت حداثة مابيون بالكامل بأعمال المؤرخين بإعطائهم حرية انتقاد الوثيقة، بصرف النظر عن مصدرها. ومن خلال رفضه، ضمنيًا، المفهوم العتيق، المتمثل في الوثوق في المستندات المحفوظة، الذي عمل على منح قيمة جوهرية للوثيقة بناءً على حجة صاحبها وأرشيفاته، زوَّد مابيون المؤرخ بالأسلحة التحليلية التي سمحت له بالتحرر من هذا القيد، من أجل تكوين وجهة نظر متساوية حول أي وثيقة. والواقع أن هذا الانقلاب الرئيس لم يستغلّه مؤرخو القرن الثامن عشر، وإن عاشوا القطيعة بين تيار المعرفة الواسعة المؤسس لها على المصادر والسرد التاريخي. عمليًا لم يعتمد عصر الأنوار على الأرشيفات لبناء خطاب أدبي وفلسفي موضوعي عن التاريخ[29]. ومع ذلك، فإن الطفرة التي طرأت وأخذت لها مكانًا، كانت ذا وقع كبير لحملها أشكال التجاسر التاريخي كلها التي حصلت في القرون اللاحقة.

---

25 Roger Chartier, *Au bord de la falaise: L'histoire entre certitudes et inquiétude* (Paris: Albin Michel, 1998).

26 ينظر، على سبيل المثال، في هذا الصدد، الخطاب الذي تبنّاه بيير توبير:
Pierre Toubert, *Les structures du Latium médiéval. Le Latium méridional et la Sabine du IXe siècle à la fin du XIIe siècle* (Rome: École française de Rome, 1973).

27 Carlo Borghero, "Historischer Pyrrhonismus, Erudition und Kritik," *Das Achtzehnte Jahrhundert*, vol. 31, no. 2 (2007), pp. 164-178; Markus Völkel, "Wie beglaubt man den eigenen Glauben? Fallgeschichten aus dem Bereich der social epistemology," in: C. Spoerhase, D. Werle & M. Wild (dir.), *Unsicheres Wissen: Skeptizismus und Wahrscheinlichkeit, 1550-1850* (Berlin: De Gruyter, 2009), pp. 217-244.

28 Mark Mersiowsky, "'Ausweitung der Diskurszone' um 1700. Der Angriff des Barthélémy Germon auf die Diplomatik Jean Mabillons," in: T. Wallnig et al. (dir.), *Europäische Geschichtskulturen um 1700 zwischen Gelehrsamkeit, Politik und Konfession* (Berlin: De Gruyter, 2012), pp. 447-484.

29 Chantal Grell, *L'histoire entre érudition et philosophie: Étude sur la connaissance historique à l'âge des Lumières* (Paris: PUF, 1993).



بعد أن تعرّضت الأرشيفات لتداعيات ردة مثيرة بسبب الثورة الفرنسية، وهو ما حصل في باقي دول أوروبا، واستفادت من انتكاسة التجربة الإمبراطورية، فإنها خلال القرن التاسع عشر، استعادت مكانتها في خضمّ الطفرة التي شهدتها الكتابة التاريخية[30]. وجرى في ذلك الإبان وضع أسس جديدة للعلوم المساعدة للتاريخ (الدبلوماتيكا: التحقق من الوثائق، والباليوغرافيا: فك الخطوط القديمة، والفيلولوجيا: فقه اللغة)، لما لها من فائدة في حسن استغلال الأرشيفات، وما منحته من اطمئنان لروّاد التيار المُسمّى "المدرسة المنهجية" في ظل الجمهورية الثالثة. إن مصدر التأرجح الحاصل قبل قرنين من الزمن، كان التخوّفات والاعتراضات المُلحّة التي عبّر عنها علماء الاجتماع. وقد سجل فرانسوا سيمياند في مقالة شهيرة صدرت في عام 1903، النداء المنبّه الأكثر تعبيرًا عن هذا التوجّه المشكك في يقين المعرفة التاريخية[31]. ومعلوم أن هذه الانتقادات الجديدة التي بقيت خرساء بشأن الأرشيفات[32]، لم يكن لها الأثر نفسه في الكتابة التاريخية، بالقياس إلى سابقتها. ففي حين ترتّب على جملة الانتقادات الموجّهة إلى التيار التشكيكي حصول طلاق طويل المدى بين التاريخ والاتجاه الموسوعي الموروث عن القرن الثامن عشر، فإنها أدّت إلى انبثاق ما هو من قبيل الاستجابة إلى الحاجة المُلحّة، في شكل إنتاج خلّاق وحيوي، جسّدته مجلة **الحوليات** في القرن العشرين. ويكفي أن نقول إنه إذا كان التساؤل عن مكانة الأرشيف في التاريخ ليس جديدًا، فإن نتائج هذه الحركة لا يمكن التنبؤ بها بأي حال من الأحوال، حتى لو كانت الدلائل تشير إلى وجود مخرج من الأزمة يمكن تحقيقه من الأعلى، عن طريق انعكاسية التخصص[33].

من وجهة نظر نظام المعارف، فإن الاهتمام من جديد بالأرشيفات معطًى يدفع إلى التساؤل بشكل مباشر أو غير مباشر عن قيمة علوم الأرشيف وعلاقاتها بالتاريخ. هل الأرشفة علم في حد ذاته، أو أنها ليست كذلك؟ إنه سؤال يؤرق بال الأرشيفيين أنفسهم في مواجهتهم التحديات التي استفزّتها "علوم الإعلام"[34]. وكما رأينا، فإن السؤال في حد ذاته ليس، في رأيهم، مهمًا، بقدر معرفة هل هذه العلوم المحتملة مساعدة حقًا للتاريخ أو لا. وبالنسبة إلى المؤرخين، فثمة تطور إيجابي في النظرة إلى ما يربط التاريخ بالاختصاصات الموسومة لزمن طويل بأنها مساعدة (بمعنى المساعدة، وليس التبعية)، وهو ما تعنيه العلوم الأساسية في اللغة الألمانية التي تفرض نفسها في العديد من المجامع الأكاديمية الحالية (بون وهايلبدرغ وليبزيغ وكذلك ميونيخ). سايرت هذه الاختصاصات تطوّر التخصص التاريخي، وارتبطت به أحيانًا بصفة شبه حصرية في إدراك متفرّد للمعطيات؛ ومردّ التفرد إلى عدم التسليم بأن علمًا ما يتوجّه إلى خدمة تخصص واحد دون غيره، فضلًا عن سوء الاستعمال في ميادين القانون والاقتصاد. ومنذ زمن قريب في إطار ما يوسمه بعضهم بـ "المعرفة العالمة الجديدة"[35]، فإن هذه العلوم (التحقق من الوثائق وفك الخطوط القديمة)، أكّدت بالدليل القدرات المساعدة على الدفع بالبحث أكثر، وهي قدرات كان يشكك فيها منذ نصف قرن مضى، بما فيها القدرات على التكامل في الاتجاه العكسي لما ضبط لها في البدء على أنها وظيفية، ونعني بها جعل المصادر التاريخية مقروءة من خلال البحث عن مكامن النقص والقيم خارج السياقات، وما هو مغمور أو غائب. والمحصّلة أن هذه التخصصات الموجهة إلى كشف الرموز ووضع المصادر رهن الإشارة، جعلت المكامن المذكورة مكشوفة ومقروءة ضد معناها.

---

30 Maria Pia Donato, *L'archivio del mondo: Quando Napoleone confiscò la storia* (Bari: Laterza, 2019), pp. 109-111.

31 François Simiand, "Méthode historique et science sociale," *Annales ESC*, vol. 15, no. 1 ([1903] 1960), pp. 83-119.

32 لا يثير فرانسوا سيمياند مسألة الأرشيفات؛ إذ يستعمل مرة واحدة فقط كلمة "مصدر"، ويُفضّل عوضها لفظ "المادة الوثائقية".

33 Étienne Anheim, "Les lumières des étoiles lointaines: Réflexivité et sciences de l'homme au début du XXIe siècle," in: *Actes du premier congrès du réseau national des MSH, Caen, décembre 2012* (Caen: Réseau national des MSH, 2015), pp. 75-82.

34 ينظر التقرير القيّم للقاء التشخيصي لمطالب بهذا الشأن:
Christian Hottin, "'L'archivistique est-elle une science?' Réactions aux journées d'études organisées par l'École des chartes et l'Association des archivistes français à la Sorbonne (salle Louis-Liard) les 30 et 31 janvier 2003," *Labyrinthe*, vol. 16 (2003), pp. 99-105.

35 Yann Potin & Julien Théry, "L'histoire médiévale et la 'nouvelle érudition': L'exemple de la diplomatique," *Labyrinthe*, vol. 4 (1999), pp. 35-39.



ولأسباب ذات صلة بالتقاليد الأكاديمية والإرث الأرشيفي، فإن هذا "المنعطف التوثيقي" أكثره أوروبي وتاريخي، مقارنة بـ "المنعطف الأرشيفي". وقد سرى مفعوله بشكل أخص خلال العقد 1990-2000، ووجد غايته المنشودة في جملة ما ترتب على عمليات تفكير وتأمل جماعية[36]. وقد نقل نداءات مساءلة الظواهر المعروفة في اللغات الأوروبية بِـ "التدوين"[37]. والملاحظ أن الأرشيفات بقيت في قلب عملية "وضع الأمور في إطاراتها الأصلية". وإن بدا المعطى من قبيل البدهيات، وإن بشكل يشوبه الاضطراب، فإن تداعياته حُجبت عن الرؤية حتى في المقامات التي فعلت واشتغلت. حصل شعور بالحاجة إلى التذكير بأن المصادر اختلقت عبر طبقات متتالية[38]، وأنها تشكلت جراء مسلسل ترسّبات متعاقبة، سواء تعلق الأمر بالتسميات (السجلات والكتب ونظم الإحالات ...)، أم بالتوافق مع متطلّبات خارجية أخرى، تذكّر بأن الأرشيفات أصل وأساس للـ "مجموعات"[39]، أم حصيلة وساطة معرفية (المنشورات النقدية والرقمنة ...). إن هذه الاعتبارات من شدّة تأكيدها أن التاريخ لا يزال بعيدًا عن بلوغ ما وصفه رينان بالكمال النسبي[40]، لا شك في أنها تثير سخرية المتخصصين في علوم الأركيولوجيا، لاعتبارهم "وضع الأمور في إطاراتها الأصلية"، ليست عملية جوهرية لاكتساب المعارف فحسب، وإن أضحت منذ القرن التاسع عشر موضوعًا إداريًا مُؤسسًا له قانونيًا وإجرائيًا[41]. ومع ذلك، تبقى اعتبارات مهمة لتقييم موضوعي للكتابات التاريخية خلال العقد الأخير، بل حاسمة في العديد من المناحي.

وإذا كان لا بدّ من أدلّة إضافية، فمما يدل على قدرة ملاءمة الأرشيفات للتقعيد للخطابات كلها، الإشكاليات التي يطرحها المؤرخون ويقارعونها، وهي إشكاليات تتنوّع وفق إكراهات الفترات التاريخية الواجب أخذها في الحسبان. كان لمؤرخي العصور الوسطى السبق في هذا المضمار، وهو ما دلّت عليه الاجتهادات الكلاسيكية لمايكل كلانشي وباولو كامارازانو[42]. واستفادوا عمليًا في دراساتهم من مجموع تصنيفات التسجيلات والأرشفة (القوائم وضوابط التجميع والحفظ في علب، والسجلات)[43]. كانت هذه المواد الأساس المعتمد لاجتهادات مؤرخين ذوي مِراس في الدراسات المعمقة للتطورات الكبرى التي رافقت مسار الألفية المسماة

---

36 Joseph Morsel (dir.), "L'historien et ses sources," *Hypothèses*, vol. 7, no. 1 (2004), pp. 271-362; Anheim & Poncet (dir.), pp. 1-195.

37 على هذا المستوى، قد يكون المجلد التأسيسي هو هذا المنشور المرتبط بالندوة التي أقيمت في عام 1989:
Hagen Keller, Klaus Grubmüller & Nikolaus Staubach (dir.), *Pragmatische Schriftlichkeit im Mittelalter. Erscheinungsformen und Entwicklungsstufen* (Munich: Fink, 1992).

38 Ludolf Kuchenbuch, "Sources ou documents? Contribution à l'histoire d'une évidence méthodologique," *Hypothèses*, vol. 7, no. 1 (2004), pp. 287-315.

39 Joseph Morsel, "Les sources sont-elles 'le pain de l'historien'?" *Hypothèses*, vol. 7, no. 1 (2004), pp. 271-286.

40 Ernest Renan, *L'avenir de la science: Pensées de 1848* (Paris: Calmann Lévy, 1890), p. XIV.
"لقد تطورت كثيرًا العلوم التاريخية وما يدعمها من العلوم، وكذلك علوم فقه اللغة [...] لأنه من خاصيات هذه الدراسات التي سرعان ما بلغت كمالها النسبي، هو أنها شرعت في تدمير ذاتها".

41 Françoise Bercé, "La circulaire sur les fouilles du 13 mars 1838 (ministère de l'Intérieur)," *Bulletin archéologique du Comité des travaux historiques et scientifiques: Moyen Âge, Renaissance, temps modernes*, vols. 31-32 (2005), pp. 189-193; Anne Lehoërff, "Pratiques archéologiques et administration du patrimoine archéologique en Italie, 1875-1895: L'exemple des anciens territoires villanoviens," Mélanges de l'École française de Rome, vol. 111, no. 1 (1999), pp. 73-147, ici pp. 116-124.

42 Michael T. Clanchy, *From Memory to Written Record: England, 1066-1307* (Oxford: Blackwell, [1979] 2013); Paolo Cammarosano, *Italia medievale: Struttura e geografia delle fonti scritte* (Rome: La nuova Italia scientifica, 1991).

43 Olivier Guyotjeannin, Laurent Morelle & Michel Parisse (dir.), *Les cartulaires: Actes de la table ronde à Paris les 5-7 décembre 1991* (Paris: École des chartes, 1993); Adam J. Kosto & Anders Winroth (dir.), *Charters, Cartularies and Archives: The Preservation and Transmission of Documents in the Medieval West: Proceedings of a Colloquium of the Commission internationale de diplomatique (Princeton and New York, 16-18 septembre 1999)* (Toronto: Pontifical Institute of Mediaeval Studies, 2002); Patrice Beck, *Archéologie d'un document d'archives: Approche codicologique et diplomatique des cherches des feux bourguignonnes (1285-1543)* (Paris: École des chartes, 2006); Elena Cantarell Barella & Mireia Comas Via (dir.), *La escritura della memoria: los registros* (Barcelone: Promociones y publicaciones universitarias, 2011); Pierre Chastang, *La ville, le gouvernement et l'écrit à Montpellier, XIIe -XIVe siècle: Essai d'histoire sociale* (Paris: Publications de la Sorbonne, 2013); Marie Dejoux, *Les enquêtes de Saint Louis: Gouverner et sauver son âme* (Paris: PUF, 2014).



"وسيطية" في أوروبا. وفي خصوص هذه الفترة بالذات (ولا سيما الفترة الثانية منها)، تتوافر لنا تحليلات قليلة (أحيانًا كمية) تهم البيئة الاجتماعية والقانونية والمادية لمظاهر الأرشفة بالنسبة إلى مجتمع ما[44]. أدّى الاهتمام بمواقع كرونولوجية وبجوانب جوهرية لهذه القضايا من وجهة نظر منطقية كاملة، بهؤلاء الباحثين إلى اقتراح أحكام عن زوايا مرتبطة بالأرشفة وعمليات إعادة الترتيب المتتالية على طول القرون، من ذلك حالة المعالم المعمارية الكبرى من تشييد السادة الإقطاعيين زمن القرون الوسطى، وتطوّرها على المدى الطويل، وكذلك التحليل الدقيق لتمثل العالم من طرف مؤسسة الغرفة الرسولية في الفاتيكان منذ القرن الرابع عشر، تأسيسًا على ما تُفصح عنه لوائح الأرشيف البابوي[45]. وتنسحب المقاربة مبدئيًا على أصناف الكتابات كلها، وحتى إن حصل نزوع إلى الفصل بين الوثائق المُفصِحة عن الممارسات (المواثيق والحسابات ...) والمخطوطات، وقد دُوّنت بلغة بليغة بغية فهمها وتكريس خصوصياتها وتداعياتها الاجتماعية. تحوّل "المنعطف التوثيقي" إلى "منعطف براغماتي"، جراء استيعاب العبَر الألمانية والإنكليزية[46].

عمليًا، وُجّهت الدراسات المخصصة للعصور الحديثة وفق محاور تتقاطع أحيانًا لتوضيح تطور الدولة والثورات الثقافية، ويتوافق الشق الأول مع تصوّر لتحقيب تاريخ الأرشيفات، طُرح وفُكّر فيه في فرنسا، علمًا أن الطرح المؤكد وجود الدولة ووظيفيتها، توجّهٌ تشترك فيه دول أوروبية أخرى، ويقوم على اعتبار تواريخ بعينها تشكل منعطفات كرونولوجية متغيّرة بطبيعتها[47]. ولأن الدراسات التي تقرن قضايا الأرشيفات بتطور وظائف السلطات العمومية، وبشكل أوسع التي تستمد كنهها من رعاية الأمة/ الدولة، وبصرف النظر عما تُحيل إليه من حقائق، بما فيها المستويات الأكثر تواضعًا، هي في واقع الأمر الأكثر قدرة على تحقيق الشمولية، والأقصى قابلية للإدماج إن من وجهة النظر الخاصة بالحقب، أو الموضوعاتية[48]، وفي هذا الأفق بالذات، تجد لها موقع المساهمة الأكثر جلاء للدراسات المخصصة للفترات السابقة، من العصور القديمة إلى العصر الوسيط المركزي. وتشكّل أرشفة المدوّن كتابة صورة معكوسة للنظرة إلى أنظمة اجتماعية أخرى، وكذلك إلى الأنظمة القديمة والعصرية على السواء. وليس مهمًا إلّا بقدر اعتبارها مجرد ذكريات ماضٍ سحيق[49]. وحتى في أوج العصر الحديث، فإنه في حالة الإصلاح الكنسي الكاثوليكي في القرن السادس عشر، للحدّ من آثار

---

44 Paul Bertrand, *Les écritures ordinaires: Sociologie d'un temps de révolution documentaire, entre royaume de France et empire (1250-1350)* (Paris: Publications de la Sorbonne, 2015).

45 Philippe Contamine & Laurent Vissiére (dir.), *Les chartriers seigneuriaux: Défendre ses droits, construire sa mémoire, XIIIe -XXIe siècle* (Paris: Société de l'histoire de France, 2010; Valérie Theis, "Le monde de la Chambre apostolique (XIe-XIVe siècle): Ordonner les archives, penser l'espace, construire l'institution," Mémoire d'habilitation à diriger des recherches, Université de Versailles Saint-Quentin, 2016; Harmony Dewez (dir.), "Du nouveau en archives: Pratiques documentaires et innovations administratives (XIIIe-XVe siècle)," *Médiévales*, vol. 76 (2019).

46 Harmony Dewez, "Réflexions sur les écritures pragmatiques," in: *L'écriture pragmatique: Un concept d'histoire médiévale à l'échelle européenne* (Paris: LAMOP, 2012), pp. 20-35.

47 Bautier; Charles Braibant, *Le "grenier de l'histoire"et l'arsenal de l'administration: Introduction aux cours des stages d'archives de l'Hôtel de Rohan* (Paris: Imprimerie nationale, 1957).

هذا أيضًا هو محور الدراسة التركيبية الأخيرة التي أنجزها راندولف هاد، حيث رصد وقارن، ضمن حيّز زمني فريد، ترتيب الأرشيفات في مختلف الدول الأوروبية بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر:

Randolph C. Head, *Making Archives in Early Modern Europe: Proof, Information, and Political Record-keeping (1400-1700)* (Cambridge: Cambridge University Press, 2019).

48 Bruno Delmas & Christine Nougaret (dir.), *Archives et nations dans l'Europe du XIXe siècle: Actes du colloque organisé par l'École nationale des chartes (Paris, 27-28 avril 2001)* (Paris: École des chartes, 2004); Irene Cotta & Rosalia Manno Tolu (dir.), *Archivi e storia nell'Europa del XIX secolo: Alle radici dell'identità culturale europea, Atti del convegno internazionale di studi nei 150 anni dall'istituzione dell'Archivio Centrale, poi Archivio di Stato (Firenze, 4-7 dicembre 2002)*, 2 vols (Rome: Direzione generale per gli archivi, 2006); Attilio Bartoli Langeli, Andrea Giorgi & Stefano Moscadelli (dir.), *Archivi e comunità tra medioevo ed età moderna* (Rome: Direzione generale per gli archivi, 2009).

49 Ségolène Demougin (dir.), *La mémoire perdue: À la recherche des archives oubliées, publiques et privées, de la Rome antique* (Paris: Publications de la Sorbonne, 1994).



المد البروتستانتي، جرى التذكير بأن تأكيد أو إعادة تأكيد سلطة ما (في هذه الحالة سلطة الكنيسة) يستند دومًا إلى تشكيلة الأرشيفات واستعمالها. ويدل نموذج شارل بوروميه (1538-1584) بصفته رئيس أساقفة مدينة ميلانو الإيطالية، إلى أي حد يُعدّ ضروريًا الاعتماد على ما يحلّ محل الوثائق للترافع دفاعًا عن المزاعم القضائية المبتدعة حين ينتفض الإيمان بالقضية لمواجهة القانون أو الممارسة المطبّع معها. ويبرز النموذج نفسه كذلك كيف من شأن الانتقال المتكرر والمنتظم للقرارات والأحكام القضائية المبتدعة في خضمّ حركية الأرشيفات المركزية والأرشيفات المحلية، السماح بالتأسيس "لتنميط عدلي" يفرض نفسه بطريقة رجعية على بنيان مؤسساتي خارجي[50].

بناء على ما تعنيه الأرشيفات، تأخذ لها شكل إطارات الدولة الموسومة بالحديثة. إن الوضع في إيطاليا في زمن النهضة الأوروبية، وقد أخذت هذه الدولة صفة المختبر الإيطالي أو البابوي، انسحب على فترات سابقة بكثير (في القرنين الرابع عشر والخامس عشر)، كما على مجالات أخرى[51]. بدا منذئذ من غير المعقول تصوّر تاريخ يعرض الحقائق كما تريدها دولة النصف الأول من القرن السادس عشر، من دون إثارة قضايا الأرشيفات[52]. وبغية استيعاب الظاهرة الإمبراطورية المتمخّضة عن استغلال القارات الأخرى، تبيَّن أخيرًا أن من الضروري تركيز النظر على خزائن الأرشيفات المستحدثة لغايات دائمة أو مؤقتة لخدمة القوى الإمبراطورية[53]. ويلزم بالضرورة في هذه الحالة اعتماد الإشكالية الأصح، وتبنّي موقع المراقبة الأفضل. تَحسنُ، على سبيل المثال، المقارعة من موقع وسط بين الأرشفة والممارسة الإدارية، وإنشاء ملفات خاصة لتتبّع مسار الضباط العسكريين وما نطقوا به حين تقديم اليمين المقدسة، أو لمتابعة أطوار إحداث هيئة دبلوماسية جديدة، باعتبارها مؤشرًا على التعقيد الأرشيفي لطموحات مستحدثة تحرك الدولة وأجهزتها[54]. ويبدو

---

50 Marie Lezowski, "Sur le papier comme dans la rue: Les sbires de l'archevêque de Milan et l'efficacité de la compilation après Trente," in: A. Fossier, J. Petitjean & C. Revest (dir.), *Écritures grises: Les instruments de travail des administrations (XIIe -XVIIe siècle)* (Paris: École des chartes; Rome: École française de Rome, 2019), pp. 597-613; Marie Lezowski, "Le droit des archevêques Borromée et l'expérience notoire: Comment fonder l'usage sur un acte de foi?" *ThéoRèmes*, vol. 12 (2018); Marie Lezowski & Benedetta Borello, "Conflitti di precedenza, uso degli archivi e storiografia locale alla fine del Cinquecento (Pavia, 1592)," *Quaderni storici*, vol. 45, no. 1 (2010), pp. 7-39.

51 Theis.

52 Alain Tallon, *L'Europe au XVIe siècle: États et relations internationales* (Paris: PUF, 2010), pp. 175-178.

53 Arndt Brendecke, *Imperium und Empirie: Funktionen des Wissens in der spanischen Kolonialherrschaft* (Cologne: Böhlau, 2009).

ثمة طبعة إنكليزية منقحة وموجزة:

Arndt Brendecke, *The Empirical Empire: Spanish Colonial Rule and the Politics of Knowledge* (Berlin: De Gruyter Oldenbourg, 2018); Maria Pia Donato (dir.), "Early Modern Archives," *Journal of Early Modern History*, vol. 22, no. 5 (2018); Diego Navarro Bonilla, *La memoria escrita de la monarquía hispánica: Felipe II y Simancas* (Valladolid: Ediciones universidad de Valladolid, 2018).

تجدر الإشارة إلى أن المؤرخين المتخصصين في التاريخ المعاصر تناولوا المسألة بطريقة مبكرة:

Thomas Richards, *The Imperial Archive: Knowledge and the Fantasy of Empire* (Londres: Verso, 1993); Bernard S. Cohn, *Colonialism and its Forms of Knowledge: The British in India* (Princeton: Princeton University Press, 1996).

بصورة عامة، يراجع:

Tony Ballantyne, "Rereading the NationState: Colonial Knowledge in South Asia (and Beyond)," in: A. Burton (dir.), *After the Imperial Turn: Thinking with and through the Nation* (Durham: Duke University Press, 2003), pp. 102-121.

54 Isabella Lazzarini, "La nomination des officiers dans les États italiens du bas Moyen Âge (Milan, Florence, Venise): Pour une histoire documentaire des institutions," *Bibliothèque de l'École des chartes*, vol. 159, no. 2 (2002), pp. 389-412; Olivier Poncet, "Les traces documentaires des nominations d'officiers pontificaux (fin XIIIe -XVIIe siècle)," in: A. Jamme & O. Poncet (dir.), *Offices et papauté (XIVe -XVIIe siècle): Charges, hommes, destins* (Rome: École française de Rome, 2005), pp. 93-123; Isabelle Lazzarini, "Records, Politics and Diplomacy: Secretaries and Chanceries in Renaissance Italy (1350-c. 1520)," in: P.M. Dover (dir.), *Secretaries and Statecraft in the Early Modern World* (Édimbourg: Edinburgh University Press, 2016), pp. 16-36; Filippo de Vivo, "Archives of Speech: Recording Diplomatic Negotiation in Late Medieval and Early Modern Italy," *European History Quarterly*, vol. 46, no. 3 (2016), pp. 519-544; Filippo de Vivo, "Archival Intelligence: Diplomatic Correspondence, Information Overload, and Information Management in Italy, 1450-1650," in: L. Corens, K. Peters & A. Walsham (dir.), *Archives and Information in the Early Modern World* (Oxford: Oxford University Press, 2018), pp. 53-85.



السؤال جوهريًا حين كتابة تاريخ الدول العصرية؛ ومع ذلك لا يبدو الاهتمام به حاضرًا بقوة عند مؤرخي القرون الأربعة، بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر، في حين نجده مُفكّرًا فيه بشكل حدسي وعفوي عند مؤرخي القرون الوسطى. وينطلق هؤلاء من أن نقطة البداية، ويعنون بها انهيار نظام الأرشفة الروماني في الغرب المسيحي، فترة عذراء، ومن ثمة طرحوا قضايا أرشيفات السلطات العمومية، تارةً، وفق منطق التأسيس أو التأسيس من جديد، وتارةً وفق منطق القطيعة، في مقابل الاستمرارية في حين لن يتفاجأ البتة مؤرخُ القرن الخامس عشر الإيطالي أو مؤرخ الحروب الدينية بوجود الوثائق الأرشيفية التي أصبحت، ببساطة، أكثر وفرة مع مرور عقودٍ من الزمن.

فضلًا عن ذلك، إن التزايد الكمي ليس كل شيء، لم تتحكم في الظاهرة حصريًا حاجات الدولة، بل قُعِّد لها كذلك على أساس فهم يقيم الاختلافات بين التصنيفات الوثائقية؛ ما يصلح على الفور لإيطاليا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، حيث اكتسبت الأرشيفات الدبلوماسية شرعية بوساطة موقع وجودها (التمثيليات الدبلوماسية القروسطية)، ما يؤدي إلى نتيجة معاكسة في حالة فرنسا في الفترة نفسها. ولم يحتفظ بالأوراق السياسية والدبلوماسية، ليس لغياب الاهتمام بهذا القطاع، إنما لأن منتجيها (الكتّاب) افتقدوا ما يكفي من الشرعية المؤسساتية[55].

ما كان لمؤرخي الفترات الأكثر قربًا زمنيًا تجاهل تداعيات ظهور بيروقراطية تستجيب أكثر فأكثر إلى شروط النموذج المثالي الفيبيري (نسبة إلى ماكس فيبر)، المستقوي بسياسة أرشيفية مندمجة[56]، لكنهم تعاملوا مع الأرشيفات من منطلق الصراع والتنافس والهيمنة أو المنافسة بين الذواكر[57]. انصبّ بعض الاهتمام على المسائل ذات الصلة بالوصول إلى المادة الوثائقية – علمًا أن طرح صعوبة الوصول، سواء افتراضيًا أم أمرًا واقعيًا، لا يستحق أصلًا أن تُفرد له كتابات، ولا أن يثير الجدل[58]، وكان الاهتمام الأكبر عن الأثر السلبي للأرشيفات أو رهانات بناء مقارّ للأرشيف غير موجودة أصلًا، أو مرغوب فيها، أو باتت من قبيل الضروريات. وقد دُرس وفق مقاربات أنثربولوجية وسوسيولوجية وتاريخية، وإن بشكل شبه هامشي، لأن الأرشيفات وُضعت تحت اليافطة العريضة للعلوم الاجتماعية، جراء مساءلة وثائقية موحّدة، على الأقل من حيث التسمية[59].

إن التيمة التي حظيت بالقدر الأكبر من الإجماع والبحث، خاصة بين المؤرخين المتخصصين في العصور الحديثة، لا تزال هي التاريخ الثقافي أساسًا للاعتقاد في أن الأرشيفات تعكس كنه ذلك التاريخ، ليس لكون التيمة المُعلن عنها تعتبر مركزية، إنما لأنها تُمثّل نقطة الانطلاقة، بنفس القدر الذي تمثله بوصفها نقطةً للنهاية في ما يخص الأفكار والإنتاج التاريخاني[60]. يُحيل إدماج

---

55 Olivier Poncet, "Entre patrimoine privé, érudition et État. Les vicissitudes des papiers des ministres de la monarchie française (XIVe-XVIIe siècle)," in: M. L. Rosa (dir.), *Recovered Voices, Newfounds Questions: Family Archives and Historical Research* (Coimbra: Universidade de Coimbra, 2019), pp. 35-51.

56 Delphine Gardey, *Écrire, calculer, classer: Comment une révolution de papier a transformé les sociétés contemporaines (1800-1940)* (Paris: La Découverte, 2008).

57 Stéphane Péquignot & Yann Potin (dir.), *Les conflits d'archives. France, Espagne, Méditerranée* (Rennes: Presses Universitaires de Rennes, 2022).

58 Sonia Combe, *Archives interdites: Les peurs françaises face à l'histoire contemporaine* (Paris: Albin Michel, 1994).

استفاد هذا الكتاب من طبعة جديدة:

Sonia Combe, *Archives interdites: L'histoire confisquée* (Paris: La Découverte, 2001).

59 يراجع: الأفكار المرتبطة بالمنعطف الوثائقي لدى الأنثروبولوجيين، وعلاقتها الممكنة بانتظارات المؤرخين:
Étienne Anheim, "L'historien au pays des merveilles? Histoire et anthropologie au début du XXIe siècle," *L'Homme*, vols. 203-204 (2012), pp. 399-427.

60 Filippo de Vivo, Maria Pia Donato & Philipp Müller (dir.), "Archives and the Writing of History," *Storia della storiografia*, vol. 68, no. 2 (2015), divisé en deux sections: "Scholarly Practices in the Archives, 1500-1800," pp. 15-84 et; "Archives and History: Making Historical Knowledge in Europe During the Nineteenth Century," pp. 85-184.



الأرشيفات في التاريخ الثقافي بشكل غير مباشر إلى شكل من أشكال الأنا الأكاديمية عند المؤرخين الذي يجعلون منها موضوعًا للبحث، لكونها في نظرهم تمثل أماكن التقاء وتجميع لمنظومة تغلب الدراسات الإنسانية من قوة ما يزوّدها به المبدعون من طاقات، من قبيل غوتفريد ليبنتز ولودوفيكو أنطونيو موراتوري ومابيون.

كان هؤلاء في الآن نفسه مؤرّخين وفيلولوجيين معتادي التعامل مع المادة الأرشيفية، وساهموا في السجال الوثائقي، هذا العراك العلمي والسياسي الذي أذكته الوثائق والعقود، والذي عبّر عن التحوّلات الفكرية، وعن روح فلسفة عصر لويس الرابع عشر[61]. ومن بين السُبل العديدة التي سلكتها السلطات العمومية للتأسيس لوسائل البحث (التصنيف وقوائم الجرد والنسخ وملفات الوثائق)، والتي بدت وكأنها الطريق الأكثر أمانًا لوضع الأرشيفات في خدمة السياسة العمومية[62]. وبناء عليه، ووفق هذا الطرح، فإن المقرّ المخصص للأرشيفات والمؤسسة القائمة عليها، الموكل إليهما القيام بهذه الوظائف، يصبحان في مرتبة ثانوية. وقد وُضعت قيد التنفيذ صيغ صارمة يُرجى منها الالتفاف وفرض قانون الاحتضان داخل الدور، بغية ضرب الحصار على مكتبة أحد الوزراء (كولبير Colbert)، والملك[63]. كان ذلك بمنزلة الدليل على أن التسلّط يكمن في هذه الظاهرة بالذات. ثم إن أبحاثًا أخرى وضعَت نصب أعينها بقدر أقل الأرشفة، وركزت أكثر على ما يتضمنه المكتوب من قرارات سياسية وإدارية، ومن ثمة رُكّز الاهتمام على النقطة الأخيرة[64]. فخلال هذه الفترة، فرضت الرغبة ذاتها في تنظيم الأرشيفات وجعلها مركزًا للتوثيق، على حساب المنطق الكرونولوجي والإجرائي، بشكل يعطي الأهمية كلها للمواضيع اليومية والأفكار المؤطّرة لتدبير الإدارة والصادرة عنها والموجّهة للتبرير السياسي، أو الرغبة في التأسيس لمنظومة قانونية جديدة وذات امتدادات لتنظيم الأرشيفات عبر اعتماد نظم الاستنساخ ومستخلصات نهائية للملفات الأصلية، وكلّه من أجل خدمة غاية محددة مسبقًا[65].

شهدت الأرشيفات بعض التأخير الكرونولوجي والكمي في اجتهادات المؤرخين، لاعتبارهم عفوية المتاحف والمكتبات مؤسسات ثقافية بطبيعتها. وفي المقابل، نظروا إلى الأرشيفات بوصفها ملحقات، أو بالأحرى امتدادًا لهيمنة الإدارات. وكما بيّنا أعلاه، لا يمكن إهمال وجهة النظر الأخيرة، التي على كل حال تستوجب البحث أكثر. وعلى الرغم من أن المخزونات المتحفية والمكتبية ليست في منأى عن الاعتبارات السياسية والحكومية ومواقف السكرتاريات والمحاكم والمؤسسات الجنائية، فإنها تمتلك هي نفسها شكلًا من الثقافة الخاصة بها. ثم إن دينامية الدراسات الموجهة للدوائر العالمة في زمن العصور الحديثة الأولى، بقدر الأضواء المسلّطة نفسها على التحولات الثقافية والممارسة القانونية عند نهاية العصور الوسيطية، حملت مساهماتها

---

61 Olivier Poncet, "Au-delà de la preuve: La dramatisation des archives comme discours politique, social et savant (France, XVIe -XVIIe siècle)," in: Péquignot & Potin (dir.).

62 Olivier Guyotjeannin, "Les méthodes de travail des archivistes des rois de France (XIIIe -début XIVe siècle)," *Archiv für Diplomatik*, vol. 42 (1996), pp. 295-373; Randolph C. Head, "Knowing Like a State: The Transformation of Political Knowledge in Swiss Archives, 1450-1770," *The Journal of Modern History*, vol. 75, no. 4 (2003), pp. 745-782; Filippo de Vivo, *Information and Communication in Venice: Rethinking Early Modern Politics* (Oxford: Oxford University Press, 2007); Filippo de Vivo, *Patrizi, informatori, barbieri: Politica e comunicazione a Venezia nella prima età moderna* (Milan: Feltrinelli, 2012); Filippo de Vivo, "Cœur de l'État, lieu de tension: Le tournant archivistique vu de Venise (XVe -XVIIe siècle)," *Annales HSS*, vol. 68, no. 3 (2013), pp. 697-728; Corens, Peters & Walsham (dir.).

63 Jacob Soll, *The Information Master: Jean-Baptiste Colbert's Secret State Intelligence System* (Ann Arbor: University of Michigan Press, 2009); Emmanuelle Chapron, "The 'Supplement to all Archives': The Bibliothèque Royale of Paris in the Eighteenth Century," *Storia della storiografia*, vol. 68, no. 2 (2015), pp. 53-68.

64 John C. Rule & Ben S. Trotter, *A World of Paper: Louis XIV, Colbert de Torcy and the Rise of the Information State* (Montréal: McGill-Queen's University Press, 2014).

65 Dieter Gembicki, *Histoire et politique à la fin de l'Ancien Régime: Jacob-Nicolas Moreau (1717-1803)* (Paris: A-G. Nizet, 1979); Blandine Hervouët, *Jacob-Nicolas Moreau, le dernier des légistes: Une défense de la constitution monarchique au siècle des Lumières* (Paris: LGDJ Lextenso, 2009); Hermann H. Schwedt, "Das Archiv der römischen Inquisition und des Index," *Römische Quartalschrift*, vol. 93 (1998), pp. 267-280.



لمصلحة تاريخ الأرشيفات التي أخضعوها لمساءلات يمكن وصفها بالأساسية (بالمعنى الثوري للكلمة)[66]. إن المساءلة التي موضوعها القانون وتدوين التاريخ، غالبًا ما تُجسّدها جماعات مشتركة، بل من طرف الأفراد أنفسهم، وحصلت كذلك عبر الأرشيفات ومن أجلها[67]. والحال أن الأرشيفات اكتسب جرّاءها استحقاق المكانة التي تعود إليها داخل التاريخ الفكري للغرب المسيحي[68].

ويشكل التاريخ الاجتماعي للأرشيفات المخرج المنطقي لهذا الانقلاب في وجهات النظر. والواقع أن الأمر يتعلق في هذا المقام، بالجانب الأكثر تجديدًا في التحقيقات المُنجزة منذ السنوات الأخيرة. يتجسّد الأمر في جزء منه بالامتداد لتاريخ ثقافي يُقارع بشكل خاص من وجهة نظر المستعملين، يمكن وصفها بـ "المؤسساتية"، سواء أكانت في الخدمة المباشرة للسلطة العمومية أم للمساهمة في مناظرة حصلت أطوارها في الفضاء العمومي. إن في الاهتمام أولًا بالأرشيفيين وأصولهم وتكويناتهم ووضعهم المهني ومناهج العمل ووسائل المحافظة أو مساهماتهم العلمية، يجعل ممكنًا إبراز المسؤولية من الدرجة الأولى لفاعلين غالبًا ما يُجبرون على التواري لمصلحة المنتجين أو العلماء الكبار[69]. وفضلًا عن الأخذ في الاعتبار بصحيح جمهرة "صناع" الأرشيفات، فإن "المنعطف الوثائقي" يسمح بمقاربة المجتمع في كلياته عبر الأرشيفات. ويتعلق الأمر بالتسجيلات وما يدوّن من معلومات ومُعطيات وقراءات وقراءات متجددة واستنساخ ومستخلصات، وتشكل مجتمعة مادة مفيدة للعيش عبر التدوين المحتفظ به لتجارب ومسارات فردية وجماعية. ولا توجد أصلًا حدود لعمليات البحث الموجّهة لإعادة تفحص

---

66 في ما يخص عالَم موسوعيّي المرحلة الأولى من العصور الحديثة، ينظر:
Anthony Grafton & Lisa Jardine, *From Humanism to the Humanities: Education and the Liberal Arts in Fifteenth and Sixteenth Century Europe* (Londres: Duckworth, 1986); Anthony Grafton, *Forgers and Critics: Creativity and Duplicity in Western Scholarship* (Princeton: Princeton University Press, 1990); Anthony Grafton, *Worlds Made by Words: Scholarship and Community in the Modern West* (Cambridge: Harvard University Press, 2009); Ann M. Blair, *Too Much to Know: Managing Scholarly Information Before the Modern Age* (New Haven: Yale University Press, 2010).

وفي خصوص نهاية القرون الوسطى، يراجع:
Donald R. Kelley, *Foundations of Modern Historical Scholarship: Language, Law and History in the French Renaissance* (New York: Colombia University Press, 1970); Anthony Musson, "Law and Text: Legal Authority and Judicial Accessibility in the Late Middle Ages," in: J. Crick & A. Walsham (dir.), *The Uses of Script and Print, 1300-1700* (Cambridge: Cambridge University Press, 2004), pp. 95-115.

67 Donald R. Kelley, "Jean Du Tillet, Archivist and Antiquary," *The Journal of Modern History*, vol. 38, no. 4 (1966), pp. 337-354; Elizabeth A.R. Brown, "Jean Du Tillet, François Ier and the Trésor des Chartes," in: *Histoires d'archives: Recueil d'articles offert à Lucie Favier par ses collègues et amis* (Paris: Société des amis des Archives de France, 1997), pp. 237-247; Olivier Poncet & Isabelle Storez-Brancourt (dir.), *Une histoire de la mémoire judiciaire de l'Antiquité à nos jours: Actes du colloque (12-14 mars 2008)* (Paris: École des chartes, 2009); Randolph C. "Head, Documents, Archives and Proof Around 1700," *The Historical Journal*, vol. 56, no. 4 (2013), pp. 909-930.

68 Markus Friedrich, *Die Geburt des Archivs: Eine Wissensgeschichte* (Berlin: De Gruyter, 2013).

تُرجم هذا الكتاب إلى الإنكليزية:
Markus Friedrich, *The Birth of the Archive: A History of Knowledge* (Ann Arbor: University of Michigan Press, 2018).

69 Orietta Filippini, *Memoria della Chiesa, memoria dello Stato: Carlo Cartari (1614-1697) e l'Archivio di Castel Sant'Angelo* (Bologne: Il Mulino, 2010); Markus Friedrich, "Les feudistes, experts des archives au XVIIIe siècle: Recherche des documents, généalogie et savoir-faire archivistique dans la France rurale," *Bibliothèque de l'École des chartes*, vol. 171 (2013), pp. 465-515; Maria Guercio et al. (dir.), *Disciplinare la memoria: Strumenti e pratiche nella cultura scritta (secoli XVI-XVIII), Atti del convegno internazionale (Bologna, 13-15 marzo 2013)* (Bologne: Patròn editore, 2014); Filippo de Vivo, Andrea Guidi & Alessandro Silvestri (dir.), *Archivi e archivisti in Italia tra medioevo ed età moderna* (Rome: Viella, 2015); Markus Friedrich, "Being an Archivist in Enlightened France: The Case of Pierre-Camille Le Moine (1723-1800)," *European History Quarterly*, vol. 46, no. 3 (2016), pp. 568-589.

سنولي عناية خاصة للإحصاء النموذجي المرتبط بالشهادات على أوجه المهنة والأماكن والأثاث والأدوات الفكرية كلها التي أنجزها فيليبو دي فيفو:
Filippo de Vivo, Andrea Guidi & Alessandro Silvestri (dir.), *Fonti per la storia degli archivi degli antichi Stati italiani* (Rome: Direzione generale archivi, 2016).



المادة الوثائقية التي بلغتنا لاستنطاق الدوافع والأشكال والاستعمال[70]. ومن المؤكد أن المؤرخين في هذا المقام بالذات يتلمّسون أكثر حقيقة الأوضاع العائلية والخصوصية، وإن بقيت معاني الربط القوي بين الأرشيفات والقانون (أو القوانين). إن الاستغلال المعمق للأرشيفات العائلية والعناية بها، كما لو تعلق الأمر برعاية الحقل العائلي، والسعي للرفع من كمياتها وسُبل انتقالها، يُدرج في إطار الرهانات الكامنة التي تكسب أرقى ما في التداعيات الحالية للفعل الأرشيفي التاريخي[71]. والحال أن الاجتهادات المتعددة في علوم الأنساب، وهي للتذكير ذات قيمة عاطفية اجتماعيًا وسياسيًا، ومن صميم الاهتمامات العالمة، تُدرج بالكامل في إطار الانفتاح على تاريخ المجتمعات. وسواء وُسِمت بألفاظ منوعة، من قبيل "العملية"، أو "المشروع"، أو "الإنتاج"، أو "الممارسة"، فإن الظهور بقوة على السطح لأشكال الاهتمام كلها، إلى حد الهوس بالأنساب وقد زادته اتقادًا الرغبة الجامحة في تخصيص كل فرد بحاضر بناء على اعتبارات مستقاة من الماضي، وذلك كله لأسباب منوعة (دينية وجبائية وانضباطية ...)، من المعطيات المؤكدة في الأزمنة الحديثة[72]. في المقابل، أثار هذا الهم نهضة خطابات مبتدعة لاستعمال الأرشيفات، ومن تداعياتها تسليط الضوء أكثر عليها، وهو أمر مستجد في مضمار المنافسة الاجتماعية.

في ضوء اتساع رقعة المسالك، والقراءات المتجددة المنجزة، وما تم اكتشافه فعلًا، يجد المؤرخون أنفسهم منساقين للابتهاج بما أخذ شكل المتنفس المفيد للبحث. فبعد فترة عانوا فيها الأمرَّين، إلى حد الاستسلام لليأس، خرج التاريخ ومصادره بقوة. وقد أضحت الأرشيفات موضوع بحث كامل الجوانب، كما لو تعلق الأمر بمواضيع في القانون، بدليل ما تشهد عليه الحيوية المؤكدة للبرامج الدولية في هذا الميدان[73]. ومع ذلك، فإن الحقل لم يُستثمر إلّا قليلًا، ولا تزال الطريق طويلة؛ وثمة ما يدفع إلى وجوب القيام بمجهود إضافي وإعادة الإدماج في السياقات والقيام بتاريخ أكثر تعميقًا للمقعدات الأرشيفية التي يستند إليها جزء من معارفنا التاريخية.

---

70 Liesbeth Corens, Kate Peters & Alexandra Walsham (dir.), *The Social History of the Archive: Record-Keeping in Early Modern Europe* (Oxford: Oxford University Press, 2016).

يبرز هذا الكتاب العمل على توسيع اختصاصات الأرشيفات ووظيفيتها.

71 Maria de Lurdes Rosa & R.S. Nóvoa, *Arquivos de família: memórias habitadas, guia para salvaguarda e estudo de um património em risco* (Lisboa: Instituto de Estudos Medievais, 2014); Maria de Lurdes Rosa & Randolph C. Head (dir.), *Rethinking the Archive in Pre-Modern Europe: Family Archives and their Inventories from the 15th to the 19th Century* (Lisbonne: IEM, 2015).

وفي خصوص نموذجٍ من هذا النوع من الأبحاث:
Rita Sampaio da Nóvoa, "O Arquivo Gama Lobo Salema e a produção, gestão e usos dos arquivos de família nobre nos séculos XV-XVI," thèse de doctorat, Université nouvelle de Lisbonne/ université Paris 1 Panthéon-Sorbonne, 2016.

72 Olivier Rouchon (dir.), *L'opération généalogique: Cultures et pratiques européennes, XV-XVIIIe siècle* (Rennes: PUR, 2014); Stéphane Jettot & Marie Lezowski (dir.), *L'entreprise généalogique: Pratiques sociales et imaginaires en Europe (XVe -XIXe siècle)* (Bruxelles: Peter Lang, 2016); Volker Bauer, Jost Eickmeyer & Markus Friedrich (dir.), *Genealogical Knowledge in the Making: Tools, Practices, and Evidence in Early Modern Europe* (Berlin: De Gruyter, 2019); Robert Descimon & Élie Haddad (dir.), *Épreuves de noblesse: Les expériences nobiliaires de la haute robe parisienne, XVIe -XVIIIe siècle* (Paris: Les Belles Lettres, 2010); François Weil, *Family Trees: A History of Genealogy in America* (Cambridge: Harvard University Press, 2013).

73 تعتبر المداخل التي تبناها الباحثون مهمة، ذلك أن برامج كثيرة، مثل المجلس الأوروبي للأبحاث European Research Concil، أخذت من الأرشيفات موضوعًا لها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، من ذلك مشروع (التاريخ المقارن للأرشيفات في إيطاليا في نهاية القرون الوسطى وبداية العصور الحديثة) الذي يديره فيليبو دي فيفو (2012-2016)، وبرنامج Open Jerusalem (تاريخ المواطنة المترابط في القدس بين عامي 1840 و1940)، ويشرف عليه فانسون لومير Vincent Lemire (2014-2019)، ثم مؤخرًا Vinculum (تاريخ انتقال الذاكرة العائلية من مؤسسات تخليد الأمجاد في أوروبا بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر)، وتديره مرية دي لورد روزا Maria de Lurdes Rosa (2014-2019). وعلى مستويات أخرى، يستوجب استحضار برنامج Archifam (تاريخ أرشيفات العائلات في شبة الجزيرة الإيبيرية بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر)، وتؤطره دار فيلاسكيز la Casa de Velázquez (2013-2015)، أو مشروع البحث Temas (مصنفات مصادر الأرشيفات الحديثة)، وهو من تأطير مؤسسة أرشيفات الدولة في بلجيكا وجامعة لوفان Louvain (بدءًا من عام 2019).



لا يزال الدرب طويلًا أمام المؤرخين: في عملية استيعاب المنعطفات

إن صعوبة أخذ "المنعطف الأرشيفي" في الحسبان، من قبل "المنعطف التوثيقي"، تجعل من قبيل الشطط الاعتقاد في أن المؤرخين المتخصصين في التاريخ المعاصر وحدَهم من يهمهم الأمر، تأسيسًا على الظن في أن وثائق المرحلة القريبة تخضع بشكل مباشر للتدبير وفق ضوابط "ما بعد مرحلة المحافظة" الخاصة بالأرشيفات؛ ما يفترض نظرة جديدة إلى المخزون تحت تصرف الدارسين[74]. ومع ذلك، فمن الواضح أن مؤرخي الزمن الراهن ربما لديهم حاجة أكبر إلى فهم ما يحدث في وقتٍ يحدث فيه تطور فكري وتقني عميق في الأرشيفات الحالية، وعلى مستوى المسؤولين عنها؛ في حين ليس في وسع زملائهم الذين يشتغلون عن فترات أقدم تبادل الآراء وعرض المواقف مع أرشيفيي القرون السالفة، ومن ثم يكتفون بتحليل المادة المتوافرة، على قدر من التدقيق، مع اقترانها بمعطيات فرضها مؤرخون سبقوهم في معالجتها. إن في وضع الخطوط العريضة لخطاب يرمي إلى التحرر من القيود، أو متحرر أصلًا من الأرشيفات، يجعل الأرشيفيين لا يقتصرون على عرض ما يعرفونه مسبقًا؛ لأن الأرشيفات لا تملك سلطة من تلقاء نفسها، وشرحها يكون من قناعات الأرشيفي. في واقع الأمر، تستند الأرشيفات إلى سلطة من يكوّنها، وكذلك من يحفظها، أو يُقدم على تدميرها، وبشكل خاص من يجزي بالمال المهنيين المطلوب منهم ترتيبها وإعادة تصنيفها، وتوصيفها بشكل فني بصفة أو بأخرى، وكذلك الحسم في الخيارات العملية لوضع المخزون رهن الاستعمال. وتجثم المسؤوليات المتعددة بثقلها على المادة القابلة للاستغلال والمستغلة فعليًا في الدراسات، وإن بقيت الأخيرة حريصة على الالتصاق بتاريخ ما هو مدوّن. وفي وسع الإدراك الأرشيفي للمؤرخين الارتقاء أكثر والارتشاف من معين تيار الدراسات الأرشيفية.

وسيكون بطبيعة الحال من باب المبالغة، ومن دون شك المغالطة، التسليم بأن المؤرخين لم يدركوا ولا استوعبوا بعد دينامية التباعد التي فرضتها مقتضيات الوصول إلى المنبع، وقد عرضنا عددًا من الأمثلة في هذا الصدد. وفضلًا عنه، فقد نُبّهوا إلى مفعول الوساطة التي تمارسها طباعة الأعمال التاريخية والعالِمة ونشرها، والتي أضحت لا محيد عنها عندما اندثرت الصيغ الأصلية، وما بات ممكنًا للباحث الاطّلاع على المصدر الأصلي للوقوف على حجم النسبة المئوية لما يسمى "التقليص الافتتاحي" (المقصود به ما له صلة بالانتقاء وأمور أخرى مرافقة)، وما تعرض له الأصل ومكونات تركيبة التسفير (نعني بها القراءة وإعطاء المادة شكلًا جديدًا)[75]. ويُفصح المؤرخون عن الملاحظة نفسها بشأن تقنيات التوصيف (الفهرسة والجرد والسجلات والتحليل الدقيق بدرجة أو بأخرى ...) التي جرّاءها تنبثق تشوّهات في النظرة إلى المصادر، من دون الحديث طبعًا عن اقتحام الرقمنة لممارسات الباحثين[76].

مع ذلك، فإنه من المفارقات المثيرة أن علوم الأرشفة في حد ذاتها غائبة في أثناء الزمن الأول لعودة المؤرخين إلى المصادر. ففي فرنسا على سبيل المثال، كان تدريس التاريخ الأكاديمي للأرشفة خارج الدائرة المغلقة للعلوم المساعدة للتاريخ، ونعني بها

---

74 نود هنا أن نتجاوز التلاعب المتعمَّد بالكلمات في العنوان الداخلي، الذي لم يستطع كاتب المقالة مقاومته، في ما يتعلق بمصطلح "البذرة" الذي يردد صدى العمل المحفز لِـ: Stoler, *Along the Archival Grain* الذي قد تكون ترجمته الفرنسية: "الألياف الأرشيفية أو الملمس"، في إشارة إلى المعنى الإنكليزي "ضد التيار". والمؤلفة نفسها لا ترفض تعدد معاني هذا المصطلح - الذي يتضمن أيضًا معاني "حبة قمح" أو "حبة رمل"، وذلك في حوار مع زملائها الناطقين بالفرنسية:
Béatrice FraenkelL, Bertrand Müller & Yann Potin, "Suivre les archives dans le sens du 'grain': Entretien avec Ann Laura Stoler," *Écrire l'histoire*, vols. 13-14 (2014), pp. 169-174.

75 Joseph Morsel, "Quand l'historien masque que la norme fabrique le crime ... Le cas du registre de l'officialité de Cerisy en 1314-1315," *Genèses*, vol. 110, no. 1 (2018), pp. 55-78.

76 Yann Potin, "Institutions et pratiques d'archives face à la 'numérisation': Expériences et malentendus," *Revue d'histoire moderne & contemporaine*, vol. 58, no. 4 / 5 (2011), pp. 57-69.

في خصوص وجهة نظر الباحثين الذين لهم وعي تام بأثر رقمنة أرشيفات تنقيباتهم، المنجزة لأغراض أبحاثهم، يراجع:
Anne Both & Sarah Cadorel, "Pour en finir avec l'original? Des effets du numérique sur les archives scientifiques: le cas de beQuali," in: J-F. Bert & M.J. Ratcliff (dir.), *Frontières d'archives: Recherches, mémoires, savoirs* (Paris: éd. des archives contemporaines, 2015), pp. 157-164.



المدرسة الوطنية للوثائق. ففي هذه المؤسسة، تم تكوين الأطر المرتقب امتهانها لوظائف متعددة ومنوعة، وما يجمع بينها هو تأمين "المحافظة" (تجميع الأرشيفات وترتيبها ووضع المادة الوثائقية رهن الإشارة والاستعمال) على الرصيد الموروث، ولا سيما المكتوب منه، من خلال تعلم آليات "المقروئية"، والمقصود بها الاستيعاب وما يقتضيه من كشف لطبيعة المادة ومحتواها، وامتدادًا له وضعها رهن الإشارة (النشر والتوصيف)، ثم الطموح إلى أن يؤدي البحث التاريخي إلى إنتاج أطاريح عن تاريخ الأرشيفات، علمًا أنه من المفارقات المثيرة أن الباحثين لم يناقشوا أعمالًا في شكلها النهائي، أو قليلون فقط من كُتِب لهم ذلك[77]. ثمة اهتمام بعلوم الأرشفة في جامعات فرنسا؛ حيث توجد تكوينات متخصصة في مستوى الدراسات العليا (الماجستير)، تُدرج على العموم ضمن مسارات الدراسة في التاريخ، لكن يبقى التعليم، في غالبيته، موجهًا نحو التكوين في المهن المرتبطة بتدبير الأرشيفات. وفي هذا الصدد، فإن الوضع ليس مختلفًا بالتمام عن نظيره الذي قعّد له جينكنسون عندما تقدم بطلب اعتماد دبلوم الدراسات الأرشيفية، واستجابت إلى طلبه جامعة لندن في عام 1947. وفي أيامنا هذه، يبدو الانتقال من طور الاعتراف الأكاديمي بالكامل إلى المرحلة المراد بلوغها، وتقضي بمباشرة البحث في الدكتوراه، قد تأخر في فرض نفسه، على الرغم من أن مختبرات التكوين في الدكتوراه حرّة في اختيار عناوين الدبلومات التي تسلّمها. وحدها جامعة مدينة أنجيه، قررت بدءًا من عام 2015، تسليم شهادة الدكتوراه في علوم الأرشفة[78]. ولا يبدو أن موقف التردد المعتمد في فرنسا ساري المفعول في بلدان أوروبية أخرى، حيث اعتُمد العديد من الكراسي الجامعية لعلوم الأرشفة في إيطاليا (فلورنسا وترينتو)، وكذلك أدرجت جامعة لشبونة الجديدة ضمن برامجها مادة علوم الأرشفة التاريخية منذ موسم 2011-2012، مع الإشارة إلى أن نعت "التاريخية" على قدر من الأهمية، لأنه يدل على الرغبة في تسجيل الفرق مع التكوينات المهنية المحضة، وكذلك للتأكيد على العلاقة مع التكوين في التاريخ[79]. والحاصل أن الروابط القوية والمستدامة والمنطقية بين اهتمامات الأرشيفيين والمنعطف التوثيقي في طور التطور عند المؤرخين، معطى يبدو ممكنًا ومرغوبًا فيه.

من نافلة القول: إن الأرشيفات بنيات حيّة، ومواضيع صياغة في مرات متعددة[80]. وانطلاقًا من ذلك، فهي (أو بالأحرى أولًا وقبل شيء) مجموعات حصلت بفعل التراكم، لأن واضعيها ينتجون سلسلة التجميع والانتقاء، ليس دومًا بالضرورة بصفة متلائمة مع السياق الذي أُنتجت فيه. إن ما أثبته ميشال فوكو من إلزامية الاشتغال وفق تراتبية المعرفة، وتطبيقها على ترتيب الواقع الوثائقي بغية فهم أعمق للجدولة الفكرية قيد الإنشاء والتفعيل، أمر لم يحظَ كما كان متوقعًا بالدرس المعمّق، كما هو شأن جوانب أخرى[81]. ولم تتعرض المخزونات في المواقع كلها للتقلبات نفسها، وفي هذا الإطار بقيت الخصوصية الفرنسية قائمة وبقوة. بدأت مع المعاناة التي سلّطت على الأرشيفات في زمن أولى الفحوصات العالمة، وزادها تأثرًا جشع من سخّرتهم الدولة لتجميع الأرشيفات. حصل

77 تهم الاستثناءات النادرة الأرشيفات الكلاسيكية، من قبيل ذخائر الوثائق الملكية المعروفة بـ Le Trésor des Chartes:
Yann Potin, "La mise en archives du Trésor des chartes (XIIIe-XIXe siècle)," thèse de l'École des chartes, 2007; les papiers de Guillaume de Nogaret: Sébastien Nadiras, "Guillaume de Nogaret et la pratique du pouvoir," thèse de l'École des chartes, 2003; la communication des archives contemporaines en France: Marie Ranquet, "L'accès aux archives publiques en France: Le droit et la pratique vus par les archivistes depuis 1979," thèse de doctorat, École des chartes, 2016; Yujue Wavg, "Archives, pouvoir et société: la communication et la valorisation des archives en Chine et en France dans la deuxième moitié du XXe siècle," thèse de doctorat, École des chartes, 2014.

78 Damien Hamard, "Des paléographes aux archivistes: L'Association des archivistes français au cœur des réseaux professionnels (1970-2010)," thèse de doctorat, université d'Angers, 2015, à paraître en 2020 aux PUR.

79 في التعريف بهذا الحقل المعرفي، ينظر:
Maria de Lurdes Rosa, "Reconstruindo a produção, documentalização e conservação da informação organizacional pré-moderna: Perspetivas te´oricas e proposta de percurso de investigação," *Boletim do Arquivo da Universidade de Coimbra*, vol. 30 (2017), pp. 547-586, ici pp. 550-551.

80 Étienne Anheim & Olivier Poncet, "Fabrique des archives, fabrique de l'histoire," *Revue de synthèse*, vol. 125 (2004), pp. 1-14.

81 Michel Foucault, *Les mots et les choses: Une archéologie des sciences humaines* (Paris: Gallimard, 1966).



ذلك خلال العصور الحديثة[82]. ولاحقًا، فإن الإرث الأساسي للثورة الفرنسية ونظام الإمبراطورية، تعرّض لعمليات الانتقاء المنهجي للأرشيفات من المكتب الذي حمل التسمية نفسها، وجرّاء "الشيطنة الممنهجة"[83] التي فرضتها في تجربة فريدة في العالم، خططٌ لعمليات الترتيب والتصنيف التي تجمع بين الأرقام والحروف، وسِمتها الأولى التبدل في المستويات، مما هو وطني وإقليمي ومحلي، وعلى صعيد المستشفيات إلى مراتب أخرى أوسع. إن التراتبية في السلوك إجمالًا، وكذلك الخيارات وسبل التهوية تستوجب العثور عليها وراء عمليات التجميع، وقد أخذت صبغة لا غبار عليها أكسبها إيّاها الأرشيفيون في وقت لاحق. إن سمة المركزية للسلطة السياسية في فرنسا خلال القرن التاسع عشر، بصرف النظر عن أي نظام سياسي قام ودبّر الشأن العام، لم تساهم إلّا قليلًا في إكساب صفة أكثر منهجية للسيرة المعتمدة في المقارعة الفكرية والإدارية للأرشيفات العمومية. وبناء عليه، فإن صنف الجرد - الفهرسة بصفته الرابط الذي في حالة عدم ذكره أو على العكس حضوره بقوة[84]، تتغير المعطيات كلها، أدّى، بفضل التنوع الظاهر للعيان، دور الموجّه بشكل دائم للبحث التاريخي، ولا سيما بعد الإقلاع عن العرض المنمط المبالغ فيه للمعلومات، وعوضه تم اعتماد تراتبية قيمية عند اختيار الوثائق التي شملها التوصيف[85].

إن مختلف عمليات الضبط الدقيق أو كشافات قوائم ضبط المخزونات، بعثرت بالكامل مقاربة الأرشيفات لأن المؤرخين حين يكونون متخصصين في القرون الوسطى، يستوجب عليهم أخذها في الحسبان. ويمكن كذلك إثارة الانتباه أكثر بصفة عامة إلى البعد البنيوي للأرشيفات[86]، ولصفة الجمع هنا أهمية نوعية، وتُعدّ أساسية في استغلال المخزونات. في بعض الحالات، تكون معرفة سير إجراءات الأرشفة شرطًا أساسيًا للبحث التاريخي، خاصة عندما تكون هذه الإجراءات لصيقة بإنشاء الوثائق، كما تدل على ذلك حالة السجل الجرماني أو البروتوكولات البابوية، حيث تحمل كل وثيقة على حدة ترقيمًا وتسجيلًا يسمحان بمتابعة المآل المحدد لها.

وبشكل أكثر جلاء، فإن التفصيل في النظرية الأرشيفية في تجلّياتها الكلية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، هو ما يستوجب الاهتمام به لأن هذه النظرية بالذات تجثم بثقلها على المادة المدوّنة للتاريخ، ولا يمكن المرور مباشرة من طور الدراسات المدققة والدقيقة المشار إليها أعلاه، إلى القوائم على رفوف قاعات القراءة، بنيّة الشروع في البحث. فكما أنه من غير الوارد أصلًا أن يشتغل مهندس معماري على المعالم المعمارية القديمة وهو يجهل المراحل المتتالية للترميم، وهي عملية تستوجب أخذ الاعتبارات الأيديولوجية الحاضرة بقوة في الحسبان، وكذلك صيغ الإبداع التي لا تحيل إلى مرجعية ما، وتبدو كأنها انبثقت من فراغ، فمن المفيد فهم طموحات الكتابة التاريخية التي تتأثر بوسائل عمل الأرشيفيين. وما يستوجب معرفته في هذا المقام هو الامتداد المفاهيمي للقرار في شأن الرعاية الخاصة للمخزونات في فرنسا، الصادر في عام 1841، وما ترتب عليه حين التفعيل. تضمّن هذا النص مبدأً ينص

---

82 Olivier Poncet, "Le corrispondenze reali e governative della prima epoca moderna in Francia (secoli XV-XIX): Archiviare, trasmettere e pubblicare," in: A. Gioegi & K. Occhi (dir.), *Carteggi fra basso medioevo ed età moderna: Pratiche di redazione, trasmissione e conservazione* (Bologne: Il Mulino, 2018), pp. 323-349; Poncet, "Entre patrimoine privé, érudition et État."

83 بحسب العبارة التي استعملتها إحدى الباحثات وتحدثت عن "الشيطنة الممنهجة زمن الأنوار":
Agnès Bos, "Les archives des fabriques parisiennes à la fin du Moyen Âge et à l'époque moderne," *Bibliothèque de l'École des chartes*, vol. 156 (1998), pp. 369-405, ici p. 378.

84 يبدو هذا مبررًا صراحةً من خلال منشور مؤسس لوزير الداخلية، في 20 كانون الثاني/ يناير 1854، حيث يجري الحديث عن "الجرد" و"الفهرسة"، لكن ليس عن جرد مُفهرَس:
Lois, *Instructions et règlements relatifs aux archives départementales, communales et hospitalières, publiés sous les auspices du ministère de l'instruction publique et des beaux-arts* (Paris: H. Champion, 1884), pp. 55-57.

غالبًا ما يتم حذف هذا التمييز في ما بعد، وقد تم الحفاظ عليه في بعض عناوين أدوات البحث المنشورة.

85 Christine Nougaret & Bruno Galland, *Les instruments de recherche dans les archives* (Paris: Direction des archives de France/ Documentation française, 1999), p. 29.

86 Carlo Laroche, "Que signifie le respect des fonds? Esquisse d'une archivistique structurale," *La gazette des archives*, vol. 73 (1971).



على الملاءمة (الترتيب بحسب الصنف)[87]، وكذلك ما يسمى "المنهج التاريخي"، كما عبّر عنه فرانشيسكو بونايني (Francesco Bonaini)، ونظّر له في عام 1875 تحت تسمية "الترتيب التاريخي"، أو "مبدأ المصدر" المعتمد بوصفه صنفًا حرًا، جرى العمل به، على سبيل المثال، في برلين، بدءًا من عام 1857[88]. ومهما يكن، فإنه داخل هذه السياقات الوطنية، فرضت المقاربة التاريخية نفسها بوصفها معطًى مشتركًا، وإن اختلفت المادة المستهدفة من طرف النظريات المذكورة لكونها لم تخضع لأصناف معاملة متشابهة خلال فترة التأسيس ومع مرور الزمن، وذلك من دون الوقوف عند مفهوم "الحالة المثالية" في العلوم الأرشيفية، كما هو الشأن في الهندسة المعمارية، فإنه يبقى في تجلياته موضوع جدل إلى حد قيام بعض الأرشيفيين وبينهم جينكنسون، بجعل عدم التدخل الأرشيفي مذهبًا مطلقًا خلال النصف الأول من القرن العشرين[89].

من المجانب للصواب الاعتقاد بإمكان إكساب الأمور وضوحًا وموضوعية أكثر، وأن يكون مُتحكّمًا فيها، وأكثر شفافية خلال الزمن الراهن، ذلك أن الارتفاع المضطرد لإنتاج الأرشيفات أدّى إلى قلب الموقف بشكل راديكالي لمصلحة ما بات من قبيل الضروري القيام به عند نقطة البداية الأولى في عملية الأرشفة في صيغتها النهائية، وذلك من خلال مأسسة نظرية الأعمار الثلاثة للأرشيفات (الجارية والوسيطة والتاريخية)، وهي النظرية التي طُوّرت أولًا في الولايات المتحدة الأميركية[90]. ومنذئذٍ، لم يفتأ البون يتسع أكثر فأكثر بين الأرشيفيين والمؤرخين (ومنهم المتخصصون في الأزمنة المعاصرة)، مع تشديد الأرشيفيين على توصيف اجتهاداتهم على أنها تُدرج في إطار "الاستقلالية"[91]. وعمليًا، فإن عمليات الفرز والتدمير وإصدار التوصيات، وهي عمليات تُدرج ضمنيًا منذ مدة طويلة (أو بالأحرى قائمة منذ البدايات ومستمرة من دون انقطاع)، وأضحت بسبب ما تحققه من تراكمات وتطبيع معها، وكذلك مأسستها، مصادر تربك الفهم وتثير الريبة، وتدعو إلى الابتعاد عنها رويدًا رويدًا. وإذا كان لا بد من تعيين فترة وجد فيها المؤرخون أنفسهم مدعوّين أكثر إلى فهم القواعد المفعلة لضبط الممارسات الأرشيفية، فإنها بالضبط الفترة الأقرب زمنيًا، حيث أضحى صدام وجهات نظر المؤرخين والأرشيفيين حمّالًا لتنافر كامن. بدا ذلك واضحًا في فرنسا لمناسبة تبادل الآراء والمواقف حول مفهوم "الأرشيفات الأساسية"، وينسحب على الأرشيفات الرقمية، وكذلك التدمير المحتمل للأرشيفات الورقية، فتبيّن حينها التصوّر الصارم

---

87 Denise Ogilvie, "De Daunou à Natalis de Wailly: le cadre de classement à l'épreuve du principe du respect des fonds," in: M. Aubry, I. Chave & V. Doom (dir.), *Archives, archivistes et archivistique dans l'Europe du Nord-Ouest de l'Antiquité à nos jours. Actes du colloque de Roubaix (2-4 décembre 2004)* (Villeneuve d'Ascq: IRHIS-CEGES, 2006), pp. 293-301.

88 Elio Lodolini, "Respect des fonds et principe de provenance: Histoire, théories, pratiques," *La gazette des archives*, vol. 168 (1995), pp. 201-212.

89 على سبيل المثال، يمكن مشاهدة الدرس الذي ألقته إحدى الأرشيفيات:
Antonietta Quarta, *I nessi slegati e l'ombra del l'archivio: Analisi strutturale del l'Archivio postunitario del comune di Firenze fra il 1865 e il 1876* (Padoue: Libreria universitaria, 2015).

وفي موضوع الإرث النقدي لمواقف جينكنسون بشأن عالم الأرشيفات في الوقت الحالي:
Paige Hohmann, "On Impartiality and Interrelatedness: Reactions to Jenkinsonian Appraisal in the Twentieth Century," *The American Archivist*, vol. 79, no. 1 (2016), pp. 14-25.

يراجع أيضًا في خصوص التطبيق المعاصر لمفاهيم تمت صياغتها في أول دليل للعلوم الأرشيفية الحديثة على مخزونات الأرشيف القديم:
Samuel Muller, Johan Adriaan Feith & Robert Thomas Fruin, *Handleiding voor het ordenen en beschrijven van archieven: Ontworpen in opdracht van de Vereeniging van Archivarissen in Nederland* (Groningue: Erven B. van der Kam, 1898); Donna Holmes, "Passive Keepers or Active Shapers: A Comparative Case Study of Four Archival Practitioners at the End of the Nineteenth Century," *Archival Science*, vol. 6, no. 3 / 4 (2006), pp. 285-298.

90 Yves Pérotin, "L'administration et les trois âges des archives," *Seine et Paris*, vol. 20 (1961), pp. 1-4; Yves Pérotin, "Le grenier de l'Histoire et les récoltes excédentaires," *La gazette des archives*, vol. 50, no. 1 (1965), pp. 131-143.

91 لا تعني هذه الكلمة ما قصده إيليو لودوليني، حيث يعني بها المنافسة بين الأرشيفات والمكتبات ومراكز التوثيق:
Elio Lodolini, "The Wars of Independence of Archivists," *Archivaria*, vol. 28 (1989), pp. 36-47.



لما يعتبره المؤرخون من قبيل التحديات جراء التعامل حاليًا ومستقبلًا مع الأرشيفات[92]. وإذا كانت اليقظة الحمّالة لبعض التخوّف، التي أبان عنها المؤرخون حينئذٍ، منصبّة أساسًا على المرحلتين الأولى والثانية من المسار الأرشيفي، ونعني بهما على التوالي: فترة انتظار الحصول على وسائل البحث (الترتيب)، والحصول على الترخيص للاطلاع على الأرشيفات (الفحص المباشر)، فإنها في الوقت الراهن تحولت نحو التركيز قبليًا على السياسة المتبعة في الفرز والتخلّص من غير المرغوب فيه، أو ما يعتقد أنه من غير قيمة وفائدة (التجميع).

لا يشكل ضياع الأرشيفات عائقًا حتى حين الانكباب على كتابة التاريخ، وكذلك في حالة ضياعها أو إعادة تشكّلها. وحتى لا يُفهم الكلام على غير قصده، فليس واردًا أبدًا الابتهاج في حالة اختفاء الوثائق، أو منع حصول ردات فعل عندما توضع العراقيل أمام الباحثين، أو الحيلولة دون التعبير عن السخط عند حدوث ما يمس بصدقيتها من دون سبب وجيه، لكنه في حضرة واقع مُزرٍ أو مثير للريبة، فليس الأنسب هو الإغراق في التأفف والانغماس في التشكيك، أساسًا، لأن من شأن محصلة مكامن الغياب التحفيز على الاجتهاد أكثر. إن للمؤرخين القدرة على التكيّف مع نقائص السند الوثائقي حتى حين تعمد الأنظمة الشمولية إلى تقديمه في حلة رفيعة الشكل، ويحصل الإدراك بأن الواقع ليس بالكمال المُراد الترويج له[93]. والحال أن المؤرخ مدعوٌّ إلى بذل الجهد للاستمساك بناصية ليس بالضرورة بوسائل العمل، لكن بالمقعدات من صميم الفلسفة وتاريخ الممارسات للاشتغال وإنتاج الأرشيفات[94]. ومن الخطأ الاعتقاد أن الحوار، لا بد من أن يُقعّد له، كما أوضحه فرانسيس بلوين وويليم روزنبرغ في كتابهما الذي صدر حديثًا، والذي مع الأسف لم يلقَ سوى قليل من الاهتمام في فرنسا[95]. ولا مشاحة في أن العناصر كلها ذات الصلة بالمصلحة المشتركة والاستعمال الممنهج للتكنولوجيات (المعلوميات)، وكثافة الجدل في المواضيع المختلفة ذات العلاقة بالأرشيفات، مُعطيات تقرّب بين المهنتين الواجب عليهما على كل حال التأسيس لائتلاف أكثر ثباتًا. يكمن في حقيقة الأمر البرهان الأساسي في كون المعطيات تعبّد السبيل لجعل الأرشيفات التاريخية المرتقبة مستقبلًا، لا بد أن تكون "معقولة الشفافية في خصوصياتها الطبيعية، ومن حيث الشكل ومصادر المادة المكوّنة لها"[96]. والمؤكد أن من شأن دعامات منعطف توثيقي ما فتئ الأرشيفيون يدفعون به، أن يشعر بالإحباط من تداعيات خطاب يتوجّه أولًا إلى المؤرخين[97]. ومع ذلك، حريّ التركيز على أن الأجواء العامة داخل عالم الأرشيفات، تنعم بسيولة واضحة،

92 نشأ الجدل حول الأرشيف الرقمي من استيراد مصطلحات ذات أصل كندي إلى الإطار النظري للفكرة الأرشيفية الموجهة إلى صناع القرار السياسي، وجربت صياغتها بالتأكيد وقبل كل شيء على الحفظ الضروري.

Christine Nougaret, "Une stratégie nationale pour la collecte et l'accès aux archives publiques à l'ère numérique: Rapport à Madame Audrey Azoulay, ministre de la Culture et de la Communication," 24/3/1997, accessed on 24/1/2024, at: https://bit.ly/3UbxKo1Embrouille," le Blog de Marie Anne Chabin, accessed on 24/1/2024, at: https://bit.ly/3vPGYVS; "Politique des archives publiques: 'Les femmes ordinaires seront les premières sacrifiées'," *Le Monde*, 8/3/2018, accessed on 24/1/2024, at: https://bit.ly/3S9UcUT

بعد لقاء جمع مسؤولين من مؤسسة الأرشيفات الوطنية الفرنسية وموقعي التقرير سالف الذكر ومؤرخين من تيارات مختلفة، تم الإعلان عن اتفاق يجري بمقتضاه حذف البيانات الشخصية لطلبات الإجهاض.

93 Alain Blum & Martine Mespoulet, *L'anarchie bureaucratique: Pouvoir et statistique sous Staline* (Paris: La Découverte, 2003).

94 نذكر هنا:

Tim Cook, *Clio's Warriors: Canadian Historians and the Writing of the World Wars* (Vancouver: University of British Columbia Press, 2006).

يسلط تِيمْ كوك الضوء على الدور الذي قام به تأسيس الأرشيف في بناء تاريخ كندا العسكري، انطلاقًا من خطاب حول المسألة، فيه الكثير من الإطناب. ومن المؤكد أن مثل هذه التشوّهات تتجاوز بشكل ملحوظ التاريخ العسكري القومي، بما أن أرشيفات الحرب تبقى في الكثير من الأحيان خاضعة بشكل وثيق للسلطة العسكرية. وتجدر الإشارة، بهذه المناسبة، أنّ كوك كان في البداية أرشيفيًا قبل أن يصبح باحثًا في التاريخ العسكري.

95 Francis X. Blouin & William G. Rosenberg, *Processing the Past: Contesting Authority in History and the Archives* (New York: Oxford University Press, 2011); Sophie Cueuré, "Autorité de l'histoire, autorité de l'archive," *Écrire l'histoire*, vols. 13-14 (2014), pp. 175-177.

96 Blum & Mespoulet, p. 212.

97 Rodney G.S. Carter, "Francis X. Blouin & William G. Rosenberg, Processing the Past: Contesting Authority in History and the Archives," *Archivaria*, vol. 74 (2012), pp. 222-226.



وتمثّل في الآن ذاته الرد الصحيح على السلطة العملية التي تمارسها أحيانًا الإكراهات التقنية، مدعومة من طرف الفرق المتخصصة في علوم الإعلام العاملة في الجامعات[98]. وفضلًا عن ذلك، لا يدخل التفكير المتأني في موضوع التوثيق الرقمي الذي يعتبر في طور التأسيس في عالم تدبير المعطيات المرجعية، بل على العكس من ذلك؛ إذ تحضر، وبشكل غير مفاجئ، المعايير المؤسِّسة للأصالة القانونية "التفرد والنزاهة"، والأصالة الدبلوماسية "التناغم"، والأصالة التاريخية "الاكتمال والدقة والراهنية والملاءمة"[99].

يتعلق الأمر بفرصة لا يجرؤ أحد على وصفها بـ "التاريخية"، يستفيد منها المؤرخون، وقد تمكّنوا من فرصة "ردم الخندق الأرشيفي" الذي اتسعت سعته خلال العقود الأخيرة[100].

يستوجب عمليًا حصول تلاقح في الاتجاهين بين "المنعطف التوثيقي" بسبب التركيز الشديد على أولى حقب التأسيس لبعض الأرشيفات (القرون الوسطى والعصور الحديثة)، و"المنعطف الأرشيفي" في تمظهراته الأكثر تيسيرًا للبحث التاريخي[101]. عندئذ يمكن للباحث من مواقع أكثر ثباتًا، الانفلات من قبضة البعد "الهلوسي" للأرشيفات[102]، بحسب عبارة ميشال ميلو Michel Melot الذي خلص إلى أن تراكم الأرشيفات وامتلاكها، أضحى غاية في حد ذاتها، تتأطر ضمن نهج عفوي تتيحه القوانين الجارية وروتين العادة. كما يمكنه أن يرد بقوة على "هشاشة الأرشيف المفرطة" التي يدّعيها نقد ما بعد الحداثة المؤدّي إلى إنكار قدرة التاريخ التفسيرية[103]. وثمة تركيبات هجينة أخرى مرغوبة أيضًا؛ من ذلك، المقاربة الجدلية التي تفترض التفكير في المجتمع باعتباره مندمجًا في نسق تاريخي، حيث يكون الإدلاء بالحجة ضمانة وإكراهًا في الوقت ذاته، وبعبارة أخرى، الكف عن تصور نظام الأرشيفات وكأنه مجرد وجهة نظر عمودية، بل أفقية كذلك. ومن المعروف أن الرابط القوي (لكنه ليس بالأوحد) بين القانون والأرشيفات، أدى منذ وقت مبكر إلى تركيز الاهتمام على ما يظن مزوّرًا واعتباره المادة العرضية اللصيقة بالأرشيفات، ويستوجب أن تكون موضوع اهتمام المكلفين بالتصنيف والترتيب والمحافظة داخل مصالح الدبلوماسيين، ومعهود فيهم الضلوع في فنون التمييز بين ما هو صحيح وما هو مزوّر[104]. إن التعرف إلى كيفية تعامل المجتمع مع الوثيقة المزوّرة وسيرة المصالح القضائية تجاهها، ليس أقل أهمية من معرفة الطريقة التي وصلت بها هذه الوثيقة إلى مرحلة جمع الأرشيفات. ففي فرنسا خلال القرن التاسع عشر، ومن شدّة ما بات البحث، من قبيل الهوس، في آثار التزوير في منظومة الأرشيفات العمومية برمتها، أوجد الأرشيفيون داخل مؤسسة الأرشيفات الوطنية، صنفًا ملحقًا (AB XIX) خُصص لأغراض منوعة، من بينها استعماله بوصفه دعامة ثانوية تؤكد أو تنفي محتوى الأرشيفات

98 حتى إن بعضًا من "علماء الأرشيف" يجرؤ على الحديث عن "منعطف تاريخي":
Tom Nesmith, "What's History Got to Do with it? Reconsidering the Place of Historical Knowledge in Archival Work," *Archivaria*, vol. 57 (2004), pp. 1-27; Barbara L. Craig, "The Past May Be the Prologue: History's Place in the Future of the Information Professions," *Libraries & the Cultural Record*, vol. 46, no. 2 (2011), pp. 206-219.

99 Françoise Banat-Berger & Christine Nougaret, "Faut-il garder le terme archives? Des'archives' aux 'données'," *La gazette des archives*, vol. 233, no. 1 (2014), pp. 7-18, ici p. 16.

100 F.X. Blouin & W.R. Rosenberg, "Can History and Archives Reconnect: Bridging the Archival Divide," in: Blouin & Rosenberg, p. 207 sq; Michelle Caswell, "'The Archive' is not an Archives: On Acknowledging the Intellectual Contributions of Archival Studies," *Reconstruction, Studies in Contemporary Culture*, vol. 16, no. 1 (2016), accessed on 24/1/2024, at: https://bit.ly/427m9Be

101 Terry Cook, "The Archive(s) is a Foreign Country: Historians, Archivists and the Changing Archival Landscape," *The Canadian Historical Review*, vol. 90, no. 3 (2009), p. 103.

102 Michel Melot, "Des archives considérées comme substance hallucinogène," *Traverses*, vol. 36 (1986), pp. 14-19.

103 Pouchepadass, p. 675.

104 هكذا اكتسب "التعريف المعياري" (AFNOR) لمفهوم "الوثيقة الأرشيفية" علامته: "التدوين أو التسجيل باعتباره، أو بدعامته، قيمةً إثباتية أو إعلامية". والأرشيف هنا بصيغة المفرد.
Bruno Delmas (dir.), *Dictionnaire des archives: De l'archivage aux systèmes d'information, français-anglais-allemand* (Paris: AFNOR, 1991), p. 86.



العمومية المسترجعة لمناسبة حيازة أرشيفات خصوصية[105]. ولا تزال إلى الآن تسري إلزامية التأكد بالدليل والبرهان، بل رفعت من درجتها السلطات العمومية (الترسانة القانونية والإدارية)، وباتت مفروضة أكثر من أي زمن مضى، حيث يستوجب الإدلاء بالأرشيفات حين الترافع عن حقوق أو تبرير مصاريف أو أمور أخرى، وهو ما يلزم بالضرورة التعامل عن معرفة بالقوانين لتقليص مساحة الخلط بين الوثائق الصحيحة والوثائق المزوّرة[106]. وفي المقابل، يحصل ضرب من تكريس ثقافة التدوين والأرشفة، وهو ما يدل عليه الحرص على الاحتفاظ بالورق داخل الفئات الاجتماعية المتواضعة، وتوارثها جيلًا بعد جيل؛ وبموازاته، السعي لإنتاج ذاكرة مدونة خاصة بكل فرد، من سماتها الربط بين الماضي والحاضر[107].

عمليًا، شدَّ "المنعطف الأرشيفي" الانتباه إلى ذواكر "الجماعات المهيكلة"، ولم تكن من قبل قادرة على الاستمرار والإبقاء على الحيوية الذاتية اللازمة لافتقادها الأرشيفات. ومن المؤكد امتلاك المؤرخين الكفاءةَ المؤهِّلة للسير في درب لا يتوافق بالضرورة مع ما يعبده تيار الأرشيفات الذي تعتمده السلطات المؤسس لها قانونيًا – (العبارة مأخوذة حرفيًا من عنوان كتاب ستولير)، سواء كانت تابعة للدولة أم هي من حبك العائلات. وفي وسع المؤرخين، وهو ما أقام الباحث كيتيلار الدليل على صحته بشكل احترافي، التحقق من وجود "مجتمع ذي ثقافة أرشيفية"، انصهرت قناعاته جراء تفاعل ظواهر متقاطعة ناتجة من تعميم القراءة والكتابة، وجعل القانون مطلبًا اجتماعيًا ملحًا (من طرف المواطنين بقدر الحكومات نفسه)[108]. ولا تقتصر المطالبة نتيجة سريان علاقات الهيمنة كما بدا جليًّا في المجالات المستعمرة، بل اتسع نطاقها بطريقة أكثر شمولية، ليضم مجموع العالم وكل الأوساط الاجتماعية، سواء المتواضعة أم الدوائر المتحكمة على أعلى مستوى، اقتصاديًا وسياسيًا. إذا كان من حقنا طرح كل هذه الأسئلة حول أرشيفاتٍ قديمة جدًا، فإنها حاسمة حين إنشاء الأرشيفات حاليًا ومستقبلًا[109]. وصفوة القول: إن الطموحات الإبستيمولوجية والرهانات المواطنة تتقاسم في هذا الشأن بالذات الانتظارات نفسها.

في مواجهة المستحيل

تذكّر الحيوية الفكرية المشهودة في حقول التاريخ، كما في علوم الأرشيفات، بأنه لا وجود أبدًا للمعطيات البدهية. وقد تبيّنت اليوم، أكثر من أي زمن مضى، ضرورة الارتباط الوثيق بين الأرشيفات والعلم التاريخي وقيمه الجوهرية. إن الارتباط العضوي في شكل حلقات متراصة بين منتجي الأرشيفات والأرشيفيين والمؤرخين، ليس بالمعطى الهيامي، لا في ترتيبه، ولا في مكوّناته. تبنّت الدوائر المشتغلة في الأرشيفات، الاعتبارات الدالّة على تقلّص فعالية النهج التاريخي، بل هُمّش نهائيًا. وتبدو المفارقة صارخة حين الوقوف على مكانة المصادر والوثائق جراء إعادة تفكير المؤرخين فيها، مع الكثير من الاستباقية. وتبيّن كذلك أن اعتماد هؤلاء أكثر على الرهانات والتحوّلات الفكرية للأرشيفيين، لا يؤدي إلى الخلط بين المهنتين وصهرهما في واحدة، وهو ما كان يظنه بعض

105 Christine Nougaret, "Les archives privées, éléments du patrimoine national? Des séquestres révolutionnaires aux entrées par voies extraordinaires: Un siècle d'hésitation," in: I. Cotta & R. Manno Tolu (dir.), vol. 2, pp. 737-750, ici pp. 743-744.

106 Marc Aymes, "La domestication du faux," Mémoire d'habilitation à diriger des recherches, École des hautes études en sciences sociales, 2016.

107 Eric Ketelaar, "Muniments and Monuments: The Dawn of Archives as Cultural Patrimony," *Archival Science*, vol. 7, no. 4 (2007), pp. 343-357; Sylvie Mouysset, *Papiers de famille: Introduction à l'étude des livres de raison, France, XVe -XIXe siècle* (Rennes: PUR, 2007); Patrice Marcilloux, *Les ego-archives: Traces documentaires et recherche de soi* (Rennes: PUR, 2013).

108 Eric Ketelaar, *Archiving People: A Social History of Dutch archives* (La Haye: Stichting Archiefpublicaties, 2020).

109 Tamer El-Leitjy, "Living Documents, Dying Archives: Towards a Historical Anthropology of Medieval Arabic Archives," *Al Qantara*, vol. 32, no. 2 (2011), pp. 389-434.



المتتبعين خلال القرن التاسع عشر. ففي زمن صارت المادة الأرشيفية موضوع العديد من المهتمين مختلفي التوجهات، فالمؤكد أن الباحثين في التاريخ سيرتكبون أكثر من زلّة إن هم أهملوا المُضيّ قُدُمًا في هذا الاتجاه.

ومن خلال تنويع زوايا المقاربة حين استعمال المادة الوثائقية، فإن المحصلة التي لا يمكن تفاديها هي جعل قيام المؤرخ بما يفرضه عمله مأمورية مستحيلة، وهو ما يحصل بشكل غير مرتقب، حين تكديس كم هائل من الشهادات المكتوبة وإن اعتمد التشدد عند الانتقاء. ومهما يكن، فمن المفروض على كل باحث لا يتوافر له سوى كم قليل من المصادر القابلة للمساءلة، أن يتعامل بالصرامة العلمية، مقتديًا في سيرته المستقيمة بما سطّره أحد المتخصصين في التاريخ الوسيط (لودوف كوشينبوش) في مقولته: "إنها مهمة التاريخ المركزية من حيث هو علم، ونعني إن شئنا قوله القيام بعمليات منهجية مضبوطة جراءها يتم إلغاء ما يعد خسائر وتحوّلات"[110]. ولمدة طويلة، كانت الإحالة إلى أسفل الصفحة، وإلى المقولة المدعمة بالانتماء إلى الأرشيفات من قيمة الضمانة والبرهان المبسّط، كما اعتُبرا من المواد التي تتحكم إلى حدٍ ما في ترشيد العلم التاريخي[111]. وإذا كان لا بد من اختيار نهج يأخذ في الحسبان، في المطلق، الشروط الموضوعية "للإدماج في خانة الأرشيفات"[112]، فإن النقلة المباغتة تأخذ حينئذ صفة الصعقة[113]. ويفرض المشكل نفسه بدرجة أكثر حدّة، كما رأينا بالنسبة إلى التاريخ المعاصر. وحتى بالنسبة إلى الفترات الأكثر وفرة من حيث الأرشيفات، فإن المؤرخ في ظل واقع يومي يضغطه عدد من الإكراهات من تدريس وإشراف وتدبير إداري وبحث عن تمويل المشاريع[114]، لا يجد له محيدًا عن إدماج، وبصفة منهجية، في معرض التحليل والبرهنة على ما يسميه الأنثربولوجيون "الجانب الأعوج"، ويقصدون به المنحى المتحيز إلى الوثيقة؛ بمعنى آخر عرض مختلف العبَر المستقاة من "المنعطف" الذي يحمل التسمية نفسها[115].

وحين التمادي أكثر في سبر أغوار فضاءات الأرشيفات، فإن المخاطرة تكمن في توسيع أكثر لحجم الهوّة بين الأشكال المختلفة للتعبير التاريخاني، من دون بلوغ الوضوح المرتقب. إن من شأن السرد التاريخي في أعمال بعض الكتّاب، أن يفقد ما يؤسس للإقناع، وكذلك للوضوح المغري بالمتابعة، وهما العنصران الرئيسان المكتسبان جرّاء الرص المفهوم للنص السردي. والحال أن تبني النزاهة الفكرية والإفصاح بأريحية عن بعض الخيوط الرفيعة لمهنة المؤرخ، وما يترتب عليه من رسم "المعالم" المتّبعة لرصد حلقات الماضي وشرحه، ما يؤسس للمبتغى الأرقى درجةً للكتابة التاريخية[116]. وما يحسن قوله من باب التنبيه، هو الانتشاء برؤية المؤرخين وهم

---

110 Kuchenbuch, p. 306.

111 Anthony Grafton, *Die tragischen Ursprünge der deutschen Fussnote* (Berlin: BerlinVerlag, 1995).

والترجمة الإنكليزية هي كالآتي:

Anthony Grafton, *The Footnote: A Curious History* (Londres: Faber and Faber, 1997).

112 هذا من أجل استعادة عنوان:

Potin, "La mise en archives du trésor de chartes (XIIIe -XIXe siècle);" *Résumée dans Positions de thèses soutenues par les élèves de la promotion de 2007 pour obtenir le diplôme d'archiviste paléographe* (Paris: École des chartes, 2007), pp. 173-182.

113 ينطبق هذا المصطلح على الأرشيفات، كما على طبعات النصوص التي يمكن استخلاصها منها:

Bertrand Müller, "Des archives en mutation et du vertige de l'historien: Remarques historiographiques," *Études et sources* (2001), pp. 49-63; Olivier Poncet, "Les vertiges de l'historien moderniste: Éditer en contexte de prospérité archivistique (XVe -XIXe siècle)," in: O. Canteaut & R. Grobe (dir.), "Pourquoi éditer des textes médiévaux au XXIe siècle? 8e rencontre de la Gallia Pontificia,"*perspectivia. net* (Paris: 17 mai 2013), accessed on 24/1/2024, at: https://bit.ly/3SrlEyI

114 Étienne Anheim, *Le travail de l'histoire* (Paris: éd. de la Sorbonne, 2018), pp. 105-126.

115 Karim Boukhris, "Les 'biais' contenus dans les archives judiciaires: Le cas de la principauté et canton de Neuchâtel (Suisse), 1806-1876," *L'Atelier du Centre de recherches historiques*, vol. 5 (2009), accessed on 24/1/2024, at: https://bit.ly/47KH4v4

116 Carlo Ginzburg, *Mythes, emblèmes, traces: Morphologie et histoire*, M. Aymard et al. (trad.) (Lagrasse: Verdier, [1989] 2010).



يفقدون يومًا بعد يوم براءتهم وقناعاتهم شبه المؤكدة في العلاقة مع المادة الوثائقية، وهو ما يحصل للأرشيفيين الذين لا يمكن الزج بهم على الهامش، لينكبّوا، فحسب، على المهمات التقنية الخالصة للتدبير الإداري[117]. يستوجب دومًا تذكّر أن التاريخ ليس مجرد المجهود الدائم لإعطاء المصادر بناء موضوعيًا مهمًا، يأخذ من صفات الأشكال المعتمدة لبلوغ الحقيقة التاريخية[118]. ويمكن من باب الاستفزاز أو التضاد، التأكيد أن المؤرخين في أوضاع أكثر أريحية من الكيماويين، لأنهم لا يمكنهم استعمال مواد مغشوشة في تجاربهم المخبرية، في حين لا خيار أمام المؤرخين سوى استعمال مواد منوعة، وهي الصفة التي باتت عنصرًا للاستدلال، بل للتفسير والتوضيح[119]. ويحقق المؤرخون في مكنون المجتمعات ليس لأنها اندثرت، إنما لأنها موسومة بالتحوّلات، كما تتحوّل الآثار الشاهدة على هذا التطور إلى أقصى الدرجات، ولا تزال تتحول بالقدر نفسه[120].

أوليفيه بونسيه (المدرسة الوطنية للوثائق)

Olivier Poncet

École nationale des chartes-PSL

Centre Jean-Mabillon, EA 3624

olivier.poncet@chartes.psl.eu

معجم المصطلحات والعبارات والمؤلفات

- الأرشيفات الوطنية (فرنسا): Archives Nationales
- أرشيفات ومعلومات المتاحف: Archives and Museum Informatics
- البعد "الهلوسي" للأرشيفات: La dimension "hallucinogène" des archives
- التحقق من الوثائق (كلمة دبلوماتيكا مشتقة من "دبلوما" الإغريقية، وتعني العقد): Diplomatica
- تدبير المعطيات المرجعية: Master Data Management
- التدوين: Literacy/ Schriftlichkeit/ Scripturalité
- حُمى الأرشيف: Archives Fever

---

117 Bruno Galland, "La participation de l'archiviste à la recherche historique: un rôle à redéfinir?" *La gazette des archives*, vol. 204, no. 4 (2006), pp. 211-232.

118 Enrico Castelli Gattinara, "Vérités, histoires, réalités," *Espace Temps*, vols. 84-86 (2004), pp. 193-214.

119 مع ذلك، توجد متوازيات بين المقاربة التاريخية وعلوم المختبر. فمن المعروف أن الأشياء تحتفظ في ذاكرتها بأثر العمليات التي أدت إلى بنائها.
Anne Lehoërff, "Le métal archéologique du côté du laboratoire: Mythes et réalités d'un matériau," in: S. Boulud-Gazo & T. Nicolas (dir.), *Artisanats et productions à l'Âge du bronze: Actes de la journée de la Société préhistorique française (Nantes, 8 octobre 2011)* (Dijon/ Paris: Association pour la promotion des recherches sur l'âge du Bronze/ Société préhistorique française, 2015), pp. 97-108.

يأخذ الباحثون اليوم في الحسبان، بصورة متزايدة، المواد الفيزيائية والكيماوية الخام، التي تعتبر أيضًا بمنزلة مسجلات للتغيرات مع مرور الوقت. يراجع التأملات التي يشترك فيها أحد المؤرخين والعلماء المتخصصين في المواد القديمة، أو المواد المعاصرة:
Étienne Anheim, Mathieu Thoury & Loïc Bertrand, "Micro-imagerie de matériaux anciens complexes (I)," *Revue de synthèse*, vol. 136 (2015), pp. 329-354.

120 Morsel, p. 851.



- الدراسات الأرشيفية: Archival Studies
- ذخائر الوثائق الملكية المحفوظة في الأرشيف الوطني الفرنسي: Le Trésor des Chartes
- الزمن الجميل Belle époque: في فرنسا، تحيل عبارة الزمن الجميل إلى العشرين سنة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، حيث شهدت البلاد تقدمًا اقتصاديًا وتقنيًا بيِّنًا.
- السجال الوثائقي: Bella Diplomatica
- عصر لويس الرابع عشر: Le Grand Siècle
- عصر ما بعد حفظ الأرشيف: Ere post-conservatoire (post-custodial)
- علم الخطوط القديمة: Paléographie
- "علم الوثائق" كتاب جون مابيون: De re diplomatica (1681)
- العلوم الأساسية: Grundwissenschaften
- العلوم المساعدة للتاريخ: Hilfswissenschaften
- "كيف حدثت الأمور بالفعل" (عبارة المؤرخ الألماني ليوبولد فون رانكه): Wie es eigentlish gewesen
- مبدأ المصدر: Provenienzprinzip
- مجلة **الأرشيفي الأميركي**: *The American Archivist* (1938)
- مجلة **علوم الأرشيف**: *Archival Science*
- **مجلة المعلومات المحفوظة**: *Journal on Recorded Information*
- **مجلة الوثائق**: *La Gazette des archives* (1933)
- المدرسة الوطنية للوثائق (فرنسا): Ecole Nationale de Chartes
- معياري: Hétéronormatif
- مكتب السجلات العامة (بريطانيا): Public Records Office
- المنعطف الأرشيفي: Archival turn
- المنهج التاريخي: Metodo storico
- نموذج المحفوظات المتسلسلة: Records Continuum Model
- الوثوق في المستندات المحفوظة: Locus credibilis





المراجع

Anheim, Étienne & Olivier Poncet (dir.). "Fabrique des archives, fabrique de l'histoire." *Revue de synthèse*. vol. 125 (2004).

________. "L'historien au pays des merveilles? Histoire et anthropologie au début du XXIe siècle." *L'Homme*. vols. 203-204 (2012).

________. Mathieu Thoury & Loïc Bertrand. "Micro-imagerie de matériaux anciens complexes (I)." *Revue de synthèse*. vol. 136 (2015).

Actes du premier congrès du réseau national des MSH, Caen, décembre 2012. Caen: Réseau national des MSH, 2015.

________. *Le travail de l'histoire*. Paris: éd. de la Sorbonne, 2018.

Armitage, David & Jo Guldi. "Le retour de la longue durée: Une perspective anglo-américaine." *Annales HSS*. vol. 70, no. 2 (2015).

Aubry, M., I. Chave & V. Doom (dir.). *Archives, archivistes et archivistique dans l'Europe du Nord-Ouest de l'Antiquité à nos jours: Actes du colloque de Roubaix (2-4 décembre 2004)*. Villeneuve d'Ascq: IRHIS-CEGES, 2006.

Axel, B.K. (dir.). *From the Margins: Historical Anthropology and its Futures*. Durham: Duke University Press, 2002.

Aymes, Marc. La domestication du faux." Mémoire d'habilitation à diriger des recherches. École des hautes études en sciences sociales. 2016.

Burton, A. (dir.). *After the Imperial Turn: Thinking with and through the Nation*. Durham: Duke University Press, 2003.

Banat-Berger, Françoise & Christine Nougaret. "Faut-il garder le terme archives? Des'archives' aux 'données'." *La gazette des archives*. vol. 233, no. 1 (2014).

Barella, Elena Cantarell & Mireia Comas Via (dir.). *La escritura della memoria: los registros*. Barcelone: Promociones y publicaciones universitarias, 2011.

Bauer, Volker, Jost Eickmeyer & Markus Friedrich (dir.). *Genealogical Knowledge in the Making: Tools, Practices, and Evidence in Early Modern Europe*. Berlin: De Gruyter, 2019.

Bautier, Robert-Henri. "La phase cruciale de l'histoire des archives: La constitution des dépôts d'archives et la naissance de l'archivistique, XVIe-début XIXe siècle." *Archivum*. vol. 18 (1968).

Béchu, Claire. *Les Archives nationales: Des lieux pour l'histoire de France: Bicentenaire d'une installation, 1808-2008*. Paris: Somogy/ Archives nationales, 2008.

Beck, Patrice. *Archéologie d'un document d'archives: Approche codicologique et diplomatique des cherches des feux bourguignonnes (1285-1543)*. Paris: École des chartes, 2006.

Bercé, Françoise. "La circulaire sur les fouilles du 13 mars 1838 (ministère de l'Intérieur)." *Bulletin archéologique du Comité des travaux historiques et scientifiques. Moyen Âge, Renaissance, temps modernes*. vols. 31-32 (2005).

Bert, J-F. & M.J. Ratcliff (dir.). *Frontières d'archives: Recherches, mémoires, savoirs*. Paris: éd. des archives contemporaines, 2015.

Bertrand, Paul. *Les écritures ordinaires: Sociologie d'un temps de révolution documentaire, entre royaume de France et empire (1250-1350)*. Paris: Publications de la Sorbonne, 2015.



Blair, Ann M. *Too Much to Know: Managing Scholarly Information Before the Modern Age*. New Haven: Yale University Press, 2010.

Bloch, Marc. "Un dépôt d'archives." *Annales d'histoire économique et sociale*. vol. 14, no. 4 (1932).

Blouin, F.X. & W.G. Rosenberg (dir.). *Archives, Documentation and Institutions of Social Memory: Essays from the Sawyer Seminar*. Ann Arbor: University of Michigan Press, 2007.

________. *Processing the Past: Contesting Authority in History and the Archives*. New York: Oxford University Press, 2011.

Blum, Alain & Martine Mespoulet. *L'anarchie bureaucratique: Pouvoir et statistique sous Staline*. Paris: La Découverte, 2003.

Bonilla, Diego Navarro. *La memoria escrita de la monarquía hispánica. Felipe II y Simancas*. Valladolid: Ediciones universidad de Valladolid, 2018.

Borghero, Carlo. "Historischer Pyrrhonismus, Erudition und Kritik." *Das Achtzehnte Jahrhundert*. vol. 31, no. 2 (2007).

Blouin, F.X. & W.G. Rosenberg (dir.). *Archives, Documentation and Institutions of Social Memory: Essays from the Sawyer Seminar*. Ann Arbor: University of Michigan Press, 2007.

Boulud-Gazo, S. & T. Nicolas (dir.). *Artisanats et productions à l'Âge du bronze. Actes de la journée de la Société préhistorique française (Nantes, 8 octobre 2011)*. Dijon/ Paris: Association pour la promotion des recherches sur l'âge du Bronze/ Société préhistorique française, 2015.

Bos, Agnès. "Les archives des fabriques parisiennes à la fin du Moyen Âge et à l'époque moderne." *Bibliothèque de l'École des chartes*. vol. 156 (1998).

Boukhris, Karim. "Les 'biais' contenus dans les archives judiciaires: Le cas de la principauté et canton de Neuchâtel (Suisse), 1806-1876." *L'Atelier du Centre de recherches historiques*. vol. 5 (2009). at: https://bit.ly/47KH4v4

Braibant, Charles. *Le "grenier de l'histoire" et l'arsenal de l'administration: Introduction aux cours des stages d'archives de l'Hôtel de Rohan*. Paris: Imprimerie nationale, 1957.

Brendecke, Arndt. *Imperium und Empirie: Funktionen des Wissens in der spanischen Kolonialherrschaft*. Cologne: Böhlau, 2009.

________. *The Empirical Empire: Spanish Colonial Rule and the Politics of Knowledge*. Berlin: De Gruyter Oldenbourg, 2018.

Brothman, Brien. "The Limits of Limits: Derridean Deconstruction and the Archival Institution." *Archivaria*. no. 36 (1993).

Brown, Caroline et al. (dir.). "Memory, Identity and the Archival Paradigm." *Archival Science*. vol. 13, no. 2 / 3 (2013).

Cammarosano, Paolo. *Italia medievale: Struttura e geografia delle fonti scritte*. Rome: La nuova Italia scientifica, 1991.

Carter, Rodney G.S. "Francis X. Blouin & William G. Rosenberg, Processing the Past: Contesting Authority in History and the Archives." *Archivaria*. vol. 74 (2012).

Canteaut, O. & R. Grobe (dir.). "Pourquoi éditer des textes médiévaux au XXIe siècle? 8e rencontre de la Gallia Pontificia." *perspectivia. net*. Paris, 17 mai 2013. at: https://bit.ly/3SrlEyI



Caswell, Michelle (dir.). "Archives and Human Rights." *Archival Science*. vol. 14, no. 3 / 4 (2014).

________. "'The Archive' is not an Archives: On Acknowledging the Intellectual Contributions of Archival Studies." *Reconstruction. Studies in Contemporary Culture*. vol. 16, no. 1 (2016). at: https://bit.ly/427m9Be

________. "Teaching to Dismantle White Supremacy in Archives." *The Library Quarterly*. vol. 87, no. 3 (2017).

Cavazzini, Andrea. "L'archive, la trace, le symptôme: Remarques sur la lecture des archives." *L'Atelier du Centre de recherches historiques*. vol. 5 (2009).

Chapron, Emmanuelle. "The 'Supplement to all Archives': The Bibliothèque Royale of Paris in the Eighteenth Century." *Storia della storiografia*. vol. 68, no. 2 (2015).

Chartier, Roger. *Au bord de la falaise: L'histoire entre certitudes et inquiétude*. Paris: Albin Michel, 1998.

Chastang, Pierre. *La ville, le gouvernement et l'écrit à Montpellier, XIIe -XIVe siècle: Essai d'histoire sociale*. Paris: Publications de la Sorbonne, 2013.

Clanchy, Michael T. *From Memory to Written Record: England, 1066-1307*. Oxford: Blackwell, [1979] 2013.

Cohn, Bernard S. *Colonialism and its Forms of Knowledge: The British in India*. Princeton: Princeton University Press, 1996.

Combe, Sonia. *Archives interdites: Les peurs françaises face à l'histoire contemporaine*. Paris: Albin Michel, 1994.

________. *Archives interdites: L'histoire confisquée*. Paris: La Découverte, 2001.

Contamine, Philippe & Laurent Vissiére (dir.). *Les chartriers seigneuriaux: Défendre ses droits, construire sa mémoire, XIIIe -XXIe siècle*. Paris: Société de l'histoire de France, 2010.

Cook, Terry. "The Concept of the Archival Fonds in the Post-Custodial Era: Theory, Problems and Solutions." *Archivaria*. vol. 35 (1992).

________. "Archival Science and Postmodernism: New Formulations for Old Concepts." *Archival Science*. no. 1 (2001).

________. "Fashionable Nonsense or Professional Rebirth: Postmodernism and the Practice of Archives." *Archivaria*. no. 51 (2001).

________. "Electronic Records, Paper Minds: The Revolution in Information Management and Archives in the Post-Custodial and Post-Modernist Era." *Archives and Social Studies*. vol. 1 (2007).

________. "The Archive(s) is a Foreign Country: Historians, Archivists and the Changing Archival Landscape." *The Canadian Historical Review*. vol. 90, no. 3 (2009).

Cook, Tim. *Clio's Warriors: Canadian Historians and the Writing of the World Wars*. Vancouver: University of British Columbia Press, 2006.

Corens, Liesbeth, Kate Peters & Alexandra Walsham (dir.). *The Social History of the Archive: Record-Keeping in Early Modern Europe*. Oxford: Oxford University Press, 2016.

Corens, L., K. Peters & A. Walsham (dir.). *Archives and Information in the Early Modern World*. Oxford: Oxford University Press, 2018.

Cotta, Irene & Rosalia Manno Tolu (dir.). *Archivi e storia nell'Europa del XIX secolo: Alle radici dell'identità culturale europea: Atti del convegno internazionale di studi nei 150 anni dall'istituzione dell'Archivio Centrale, poi Archivio di Stato (Firenze, 4-7 dicembre 2002)*. 2 vols. Rome: Direzione generale per gli archivi, 2006.

Craig, Barbara L. "The Past May Be the Prologue: History's Place in the Future of the Information Professions." *Libraries & the Cultural Record*. vol. 46, no. 2 (2011).

Cueuré, Sophie. "Autorité de l'histoire, autorité de l'archive." *Écrire l'histoire*. vols. 13-14 (2014).

da Nóvoa, Rita Sampaio. "O Arquivo Gama Lobo Salema e a produção, gestão e usos dos arquivos de família nobre nos séculos XV-XVI." thèse de doctorat. Université nouvelle de Lisbonne/ université Paris 1 Panthéon-Sorbonne. 2016.

Davis, Natalie Zemon. *Fiction in the Archives: Pardon Tales and their Tellers in Sixteenth Century France*. Stanford: Stanford University Press, 1987.

de Diego, José Luis Rodríguez. *Instrucci´on para el gobierno del Archivo de Simancas (ano 1588) Estudio*. Madrid: Direcci´on général de bellas artes y archivos, 1988.

de Molina, Rafael Conde Y delgado. *Reyes y archivos en la Corona de Arag´on. Siete siglos de reglamentaci´on y praxis archivística (siglos XII-XIX)*. Saragosse: Instituci´on Fernando el Cat´olico, 2008.

de Saint-Aubin, Pierre Piétresson. *Les archives de l'Aube, 1790-1927*. Troyes: A. Albert, 1930.

________. *Information and Communication in Venice: Rethinking Early Modern Politics*. Oxford: Oxford University Press, 2007.

________. *Patrizi, informatori, barbieri: Politica e comunicazione a Venezia nella prima età moderna*. Milan: Feltrinelli, 2012.

________. "Cœur de l'État, lieu de tension: Le tournant archivistique vu de Venise (XVe -XVIIe siècle)." *Annales HSS*. vol. 68, no. 3 (2013).

________. Andrea Guidi & Alessandro Silvestri (dir.). *Archivi e archivisti in Italia tra medioevo ed età moderna*. Rome: Viella, 2015.

________. "Archives of Speech: Recording Diplomatic Negotiation in Late Medieval and Early Modern Italy." *European History Quarterly*. vol. 46, no. 3 (2016).

________. Andrea Guidi & Alessandro Silvestri (dir.). *Fonti per la storia degli archivi degli antichi Stati italiani*. Rome: Direzione generale archivi, 2016.

De Saint-Aubin, Maria Pia Donato & Philipp Müller (dir.). "Archives and the Writing of History." *Storia della storiografia*. vol. 68, no. 2 (2015).

Dejoux, Marie. *Les enquêtes de Saint Louis. Gouverner et sauver son âme*. Paris: PUF, 2014.

Delmas, Bruno (dir.). *Dictionnaire des archives. De l'archivage aux systèmes d'information, français-anglais-allemand*. Paris: AFNOR, 1991.

Delmas, Bruno & Christine Nougaret (dir.). *Archives et nations dans l'Europe du XIXe siècle: Actes du colloque organisé par l'École nationale des chartes (Paris, 27-28 avril 2001)*. Paris: École des chartes, 2004.

Demougin, Ségolène (dir.). *La mémoire perdue: À la recherche des archives oubliées, publiques et privées, de la Rome antique*. Paris: Publications de la Sorbonne, 1994.

Derrida, Jacques. "Archive Fever." *Diacritics*. vol. 25, no. 2 (1995).



________. *Mal d'archive: Une impression freudienne*. Paris: Galilée, 1995.

Descamps, Florence. *L'historien, l'archiviste et le magnétophone: De la constitution de la source orale à son exploitation*. Paris: Comité pour l'histoire économique et financière de la France, 2001.

Descimon, Robert & Élie Haddad (dir.). *Épreuves de noblesse: Les expériences nobiliaires de la haute robe parisienne, XVIe -XVIIIe siècle*. Paris: Les Belles Lettres, 2010.

Dewez, Harmony (dir.), "Du nouveau en archives: Pratiques documentaires et innovations administratives (XIIIe-XVe siècle)." *Médiévales*. vol. 76 (2019).

Diskins, Martin. "The Peasant Family Archive: Sources for an Ethnohistory of the Present." *Ethnohistory*. vol. 26, no. 3 (1979).

Dobreva, Milena & Wendy M. Duff (dir.). "Digital Curation." *Archival Science*. vol. 15, no. 2 (2015).

Donato, Maria Pia (dir.). "Early Modern Archives." *Journal of Early Modern History*. vol. 22, no. 5 (2018).

Donato, Maria Pia. *L'archivio del mondo: Quando Napoleone confiscò la storia*. Bari: Laterza, 2019.

Duchein, Michel. "Les archives dans la Tour de Babel: Problèmes de terminologie archivistique internationale." *La gazette des archive*. no. 129 (1985).

El-Leitjy, Tamer. "Living Documents, Dying Archives: Towards a Historical Anthropology of Medieval Arabic Archives." *Al Qantara*. vol. 32, no. 2 (2011).

Farge, Arlette. *Le goût de l'archive*. Paris: du Seuil, 1989.

Filippini, Orietta. *Memoria della Chiesa, memoria dello Stato: Carlo Cartari (1614-1697) e l'Archivio di Castel Sant'Angelo*. Bologne: Il Mulino, 2010.

Flinn, Andrew & Ben Alexander (dir.). "Archiving Activism and Activist Archiving." *Archival Science*. vol. 15, no. 4 (2015).

Flinn, Andrew & Elizabeth Shepherd (dir.). "Archives, Records, Identities: Question of Trust." *Archival Science*. vol. 11, no. 2 / 4 (2011).

Fossier, A., J. Petitjean & C. Revest (dir.). *Écritures grises: Les instruments de travail des administrations (XIIe -XVIIe siècle)*. Paris: École des chartes; Rome: École française de Rome, 2019.

Foucault, Michel. *Les mots et les choses: Une archéologie des sciences humaines*. Paris: Gallimard, 1966.

Fraenkell, Béatrice, Bertrand Müller & Yann Potin. "Suivre les archives dans le sens du 'grain': Entretien avec Ann Laura Stoler." *Écrire l'histoire*. vols. 13-14 (2014).

Friedrich, Markus. "Les feudistes, experts des archives au XVIIIe siècle: Recherche des documents, généalogie et savoir-faire archivistique dans la France rurale." *Bibliothèque de l'École des chartes*. vol. 171 (2013).

________. *Die Geburt des Archivs: Eine Wissensgeschichte*. Berlin: De Gruyter, 2013.

________. "Being an Archivist in Enlightened France: The Case of Pierre-Camille Le Moine (1723-1800)." *European History Quarterly*. vol. 46, no. 3 (2016).

________. *The Birth of the Archive: A History of Knowledge*. Ann Arbor: University of Michigan Press, 2018.

Galland, Bruno. "La participation de l'archiviste à la recherche historique: un rôle à redéfinir?" *La gazette des archives*. vol. 204, no. 4 (2006).



Gardey, Delphine. *Écrire, calculer, classer: Comment une révolution de papier a transformé les sociétés contemporaines (1800-1940)*. Paris: La Découverte, 2008.

Gattinara, Enrico Castelli. "Vérités, histoires, réalités." *Espace Temps*. vols. 84-86 (2004).

Gembicki, Dieter. *Histoire et politique à la fin de l'Ancien Régime. Jacob-Nicolas Moreau (1717-1803)*. Paris: A-G. Nizet, 1979.

Gilliland, Anne J. & Marika Clifor (dir.). "Affect and the Archive, Archives and their Affects." *Archival Science*. vol. 16, no. 1 (2016).

Gilliland, A., S. Mckemmish & A. Lau (dir.). *Research in the Archival Multiverse*. Clayton: Monash University Publishing, 2017.

Gioegi, A. & K. Occhi (dir.). *Carteggi fra basso medioevo ed età moderna: Pratiche di redazione, trasmissione e conservazione*. Bologne: Il Mulino, 2018.

Ginzburg, Carlo. *Mythes, emblèmes, traces: Morphologie et histoire*. M. Aymard et al. (trad.). Lagrasse: Verdier, [1989] 2010.

Grafton, Anthony & Lisa Jardine. *From Humanism to the Humanities: Education and the Liberal Arts in Fifteenth and Sixteenth Century Europe*. Londres: Duckworth, 1986.

________. *Forgers and Critics: Creativity and Duplicity in Western Scholarship*. Princeton: Princeton University Press, 1990.

________. *Die tragischen Ursprünge der deutschen Fussnote*. Berlin: BerlinVerlag, 1995.

________. *The Footnote: A Curious History*. Londres: Faber and Faber, 1997.

________. *Worlds Made by Words: Scholarship and Community in the Modern West*. Cambridge: Harvard University Press, 2009.

Grell, Chantal. *L'histoire entre érudition et philosophie: Étude sur la connaissance historique à l'âge des Lumières*. Paris: PUF, 1993.

Guercio, Maria et al. (dir.). *Disciplinare la memoria: Strumenti e pratiche nella cultura scritta (secoli XVI-XVIII): Atti del convegno internazionale (Bologna, 13-15 marzo 2013)*. Bologne: Patròn editore, 2014.

Guyotjeannin, Olivier, Laurent Morelle & Michel Parisse (dir.). *Les cartulaires. Actes de la table ronde à Paris les 5-7 décembre 1991*. Paris: École des chartes, 1993.

________. "Les méthodes de travail des archivistes des rois de France (XIIIe -début XIVe siècle)." *Archiv für Diplomatik*. vol. 42 (1996).

Hamard, Damien. "Des paléographes aux archivistes: L'Association des archivistes français au cœur des réseaux professionnels (1970-2010)." thèse de doctorat. université d'Angers. 2015.

Head, Randolph C. "Knowing Like a State: The Transformation of Political Knowledge in Swiss Archives, 1450-1770." *The Journal of Modern History*. vol. 75, no. 4 (2003).

Head, Randolph C. (dir.). "Archival Knowledge Cultures in Europe 1400-1900." *Archival Science*. vol. 10, no. 3 (2010).

________. "Documents, Archives and Proof Around 1700." *The Historical Journal*. vol. 56, no. 4 (2013).



________. *Making Archives in Early Modern Europe: Proof, Information, and Political Record-keeping (1400-1700)*. Cambridge: Cambridge University Press, 2019.

Hervouët, Blandine. *Jacob-Nicolas Moreau, le dernier des légistes. Une défense de la constitution monarchique au siècle des Lumières*. Paris: LGDJ Lextenso, 2009.

Histoires d'archives. Recueil d'articles offert à Lucie Favier par ses collègues et amis. Paris: Société des amis des Archives de France, 1997.

Jamme, A. & O. Poncet (dir.). *Offices et papauté (XIVe -XVIIe siècle): Charges, hommes, destins*. Rome: École française de Rome, 2005.

Hohmann, Paige. "On Impartiality and Interrelatedness: Reactions to Jenkinsonian Appraisal in the Twentieth Century." *The American Archivist*. vol. 79, no. 1 (2016).

Holmes, Donna. "Passive Keepers or Active Shapers: A Comparative Case Study of Four Archival Practitioners at the End of the Nineteenth Century." *Archival Science*. vol. 6, no. 3 / 4 (2006).

Hottin, Christian. "'L'archivistique est-elle une science?' Réactions aux journées d'études organisées par l'École des chartes et l'Association des archivistes français à la Sorbonne (salle Louis-Liard) les 30 et 31 janvier 2003." *Labyrinthe*. vol. 16 (2003).

Institut D'histoire du Temps Présent. *Problèmes de méthode en histoire orale. Table ronde du 20 juin 1980*. Paris: IHTP, 1981.

Jenkinson, Hilary. *A Manual of Archive Administration Including the Problems of War Archives and Archive Making*. Oxford: Clarendon Press, [1922] 1965.

Jettot, Stéphane & Marie Lezowski (dir.). *L'entreprise généalogique: Pratiques sociales et imaginaires en Europe (XVe -XIXe siècle)*. Bruxelles: Peter Lang, 2016.

Keller, Hagen, Klaus Grubmüller & Nikolaus Staubach (dir.). *Pragmatische Schriftlichkeit im Mittelalter: Erscheinungsformen und Entwicklungsstufen*. Munich: Fink, 1992.

Kelley, Donald R. *Foundations of Modern Historical Scholarship: Language, Law and History in the French Renaissance*. New York: Colombia University Press, 1970.

________. "Jean Du Tillet, Archivist and Antiquary." *The Journal of Modern History*. vol. 38, no. 4 (1966).

Ketelaar, Eric. "The Difference Best Postponed? Cultures and Comparative Archival Science." *Archivaria*. no. 44 (1997).

________. "Muniments and Monuments: The Dawn of Archives as Cultural Patrimony." *Archival Science*. vol. 7, no. 4 (2007).

Gilliland, A., S. Mckemmish & A. Lau (dir.). *Research in the Archival Multiverse*. Clayton: Monash University Publishing, 2017.

________. *Archiving People: A Social History of Dutch archives*. La Haye: Stichting Archiefpublicaties, 2020.

Kosto, Adam J. & Anders Winroth (dir.). *Charters, Cartularies and Archives: The Preservation and Transmission of Documents in the Medieval West: Proceedings of a Colloquium of the Commission internationale de diplomatique (Princeton and New York, 16-18 septembre 1999)*. Toronto: Pontifical Institute of Mediaeval Studies, 2002.



Kuchenbuch, Ludolf. "Sources ou documents? Contribution à l'histoire d'une évidence méthodologique." *Hypothèses*. vol. 7, no. 1 (2004).

la communication des archives contemporaines en France: Marie Ranquet. "L'accès aux archives publiques en France. Le droit et la pratique vus par les archivistes depuis 1979." thèse de doctorat, École des chartes, 2016.

Langeli, Attilio Bartoli, Andrea Giorgi & Stefano Moscadelli (dir.). *Archivi e comunità tra medioevo ed età moderna*. Rome: Direzione generale per gli archivi, 2009.

Langlois, Charles-Victor & Charles Seignobos. *Introduction aux études historiques*. Paris: Hachette, 1898.

Laroche, Carlo. "Que signifie le respect des fonds? Esquisse d'une archivistique structurale." *La gazette des archives*. vol. 73 (1971).

Lazzarini, Isabella. "La nomination des officiers dans les États italiens du bas Moyen Âge (Milan, Florence, Venise): Pour une histoire documentaire des institutions." *Bibliothèque de l'École des chartes*. vol. 159, no. 2 (2002).

Lehoërff, Anne. "Pratiques archéologiques et administration du patrimoine archéologique en Italie, 1875-1895: L'exemple des anciens territoires villanoviens." *Mélanges de l'École française de Rome*. vol. 111, no. 1 (1999).

L'écriture pragmatique. Un concept d'histoire médiévale à l'échelle européenne. Paris: LAMOP, 2012.

les papiers de Guillaume de Nogaret: Sébastien Nadiras. "Guillaume de Nogaret et la pratique du pouvoir." thèse de l'École des chartes, 2003.

Lezowski, Marie & Benedetta Borello. "Conflitti di precedenza, uso degli archivi e storiografia locale alla fine del Cinquecento (Pavia, 1592)." *Quaderni storici*. vol. 45, no. 1 (2010).

________. "Le droit des archevêques Borromée et l'expérience notoire: Comment fonder l'usage sur un acte de foi?" *ThéoRèmes*. vol. 12 (2018).

Lodolini, Elio. "The Wars of Independence of Archivists." *Archivaria*. vol. 28 (1989).

________. "Respect des fonds et principe de provenance: Histoire, théories, pratiques." *La gazette des archives*. vol. 168 (1995).

Lois, instructions et règlements relatifs aux archives départementales, communales et hospitalières, publiés sous les auspices du ministère de l'instruction publique et des beaux-arts. Paris: H. Champion, 1884.

Lume, Lucio (dir.). "Archivi e archivistica a Roma dopo l'Unità. Genesi storica, ordinamenti, interrelazion (Atti del convegno 12-14 marzio 1990)." Rome: Ufficio centrale per i beni archivistici, 1994.

Lustig, Jason. "Epistemologies of the Archives: Toward a Critique of Archival Reason." *Archival Science*. vol. 20, no. 1 (2020).

Marcilloux, Patrice. *Les ego-archives: Traces documentaires et recherche de soi*. Rennes: PUR, 2013.

Mckemmish, Sue et al. (dir.). "Keeping Cultures Alive: Archives and IndigenousHuman Rights." *Archival Science*. vol. 12, no. 2 (2012).

Méchoulan, Éric (dir.). "Archiver/ Archiving." *Intermédialités*. no. 18 (2011).

Melot, Michel. "Des archives considérées comme substance hallucinogène." *Traverses*. vol. 36 (1986).

Morsel, Joseph (dir.). "L'historien et ses sources." *Hypothèses*. vol. 7, no. 1 (2004).



________. "Les sources sont-elles 'le pain de l'historien'?" *Hypothèses*. vol. 7, no. 1 (2004).

________. "Traces? Quelles traces? Réflexions pour une histoire non passéiste." *Revue historique*. vol. 680, no. 4 (2016).

________. "Quand l'historien masque que la norme fabrique le crime ... Le cas du registre de l'officialité de Cerisy en 1314-1315." *Genèses*. vol. 110, no. 1 (2018).

Mouysset, Sylvie. *Papiers de famille: Introduction à l'étude des livres de raison, France, XVe -XIXe siècle*. Rennes: PUR, 2007.

Müller, Bertrand. "Des archives en mutation et du vertige de l'historien: Remarques historiographiques." *Études et sources*, 2001.

Muller, Samuel, Johan Adriaan Feith & Robert Thomas Fruin. *Handleiding voor het ordenen en breschrijven van archieven: Ontworpen in opdracht van de Vereeniging van Archivarissen in Nederland*. Groningue: Erven B. van der Kam, 1898.

Crick, J. & A. Walsham (dir.). *The Uses of Script and Print, 1300-1700*. Cambridge: Cambridge University Press, 2004.

Nesmith, Tom. "What's History Got to Do with it? Reconsidering the Place of Historical Knowledge in Archival Work." *Archivaria*. vol. 57 (2004).

________. "Reopening Archives: Bringing New Contextualities into Archival Theory and Practice." *Archivaria*. no. 60 (2005).

Nougaret, Christine. "Une stratégie nationale pour la collecte et l'accès aux archives publiques à l'ère numérique: Rapport à Madame Audrey Azoulay, ministre de la Culture et de la Communication." 24 mars 1997. at: https://bit.ly/3UbxKo1

Nougaret, Christine & Bruno Galland. *Les instruments de recherche dans les archives*. Paris: Direction des archives de France/ Documentation française, 1999.

Cotta, Irene & Rosalia Manno Tolu (dir.). *Archivi e storia nell'Europa del XIX secolo: Alle radici dell'identità culturale europea. Atti del convegno internazionale di studi nei 150 anni dall'istituzione dell'Archivio Centrale, poi Archivio di Stato (Firenze, 4-7 dicembre 2002)*. 2 vols. Rome: Direzione generale per gli archivi, 2006.

Oliver, Gillian & Wendy M. Duff (dir.). "GenreStudiesinArchives." *Archival Science*. vol. 12, no. 4 (2012).

Péquignot, Stéphane & Yann Potin (dir.). *Les conflits d'archives: France, Espagne, Méditerranée*. Rennes: Presses Universitaires de Rennes, 2022.

Pérotin, Yves. "L'administration et les trois âges des archives:" *Seine et Paris*. vol. 20 (1961).

________. "Le grenier de l'Histoire et les récoltes excédentaires." *La gazette des archives*. vol. 50, no. 1 (1965).

________. "Les archivistes et le mépris." *La gazette des archives*. vol. 68, no. 1 (1970).

Plaisir d'archives. Recueil de travaux offerts à Danièle Neirinck. Mayenne: éd. régionales de l'Ouest, 1997.

Poncet, Olivier. "Fabrique des archives, fabrique de l'histoire du Moyen Âge au XIXe siècle. Une bibliographie." *Revue de synthèse*. vol. 125 (2004).



Poncet, Olivier & Isabelle Storez-Brancourt (dir.). *Une histoire de la mémoire judiciaire de l'Antiquité à nos jours. Actes du colloque (12-14 mars 2008)*. Paris: École des chartes, 2009.

Péquignot, Stéphane & Yann Potin (dir.). *Les conflits d'archives. France, Espagne, Méditerranée*. Rennes: Presses Universitaires de Rennes, 2022.

Potin, Yann & Julien Théry. "L'histoire médiévale et la 'nouvelle érudition': L'exemple de la diplomatique." *Labyrinthe*. vol. 4 (1999).

________. "La mise en archives du trésor de chartes (XIIIe -XIXe siècle)." thèse de l'École des chartes. 2007

________. "Institutions et pratiques d'archives face à la 'numérisation'. Expériences et malentendus." *Revue d'histoire moderne & contemporaine*. vol. 58, no. 4 / 5 (2011).

Pouchepadass, Jacques. "A proposito della critica postcoloniale sul 'discorso' dell'archivio." *Quaderni storici*. vol. 43, no. 3 (2008).

Quarta, Antonietta. *I nessi slegati e l'ombra del l'archivio: Analisi strutturale del l'Archivio postunitario del comune di Firenze fra il 1865 e il 1876*. Padoue: Libreria universitaria, 2015.

Ranke, Leopold Von. *Geschichten der romanischen und germanischen Völker von 1494 bis 1535*. t. 1. Leipzig: Reimer, 1824.

Reininghaus, Wilfried. "Archivgeschichte: Umrisse einer untergründigen Subdisziplin." *Der Archivar*. vol. 61 (2008).

Renan, Ernest. *L'avenir de la science. Pensées de 1848*. Paris: Calmann Lévy, 1890.

Rosa, M.L. (dir.). *Recovered Voices, Newfounds Questions: Family Archives and Historical Research*. Coimbra: Universidade de Coimbra, 2019.

Résumée dans Positions de thèses soutenues par les élèves de la promotion de 2007 pour obtenir le diplôme d'archiviste paléographe. Paris: École des chartes, 2007.

Richards, Thomas. *The Imperial Archive: Knowledge and the Fantasy of Empire*. Londres: Verso, 1993.

Rosa, Maria de Lurdes & R.S. Nóvoa. *Arquivos de família: memórias habitadas, guia para salvaguarda e estudo de um património em risco*. Lisboa: Instituto de Estudos Medievais, 2014.

Rosa, Maria de Lurdes & Randolph C. Head (dir.). *Rethinking the Archive in Pre-Modern Europe: Family Archives and their Inventories from the 15th to the 19th Century*. Lisbonne: IEM, 2015.

________. "Reconstruindo a produção, documentalização e conservação da informação organizacional pré-moderna. Perspetivas te´oricas e proposta de percurso de investigação." *Boletim do Arquivo da Universidade de Coimbra*. vol. 30 (2017).

Rouchon, Olivier (dir.). *L'opération généalogique: Cultures et pratiques européennes, XV-XVIIIe siècle*. Rennes: PUR, 2014.

Rule, John C. & Ben S. Trotter. *A World of Paper: Louis XIV, Colbert de Torcy and the Rise of the Information State*. Montréal: McGill-Queen's University Press, 2014.

Sassoon, Joanna & Toby Burrows (dir.). "Minority Reports: Indigenous and Community Voices in Archives. Papers from the 4th International Conference on the History of Records and Archives (Perth, Western Australia, August 2008)." *Archival Science*. vol. 9, no. 1 / 2 (2009).



Spoerhase, C., D. Werle & M. Wild (dir.). *Unsicheres Wissen: Skeptizismus und Wahrscheinlichkeit, 1550-1850*. Berlin: De Gruyter, 2009.

Schwedt, Hermann H. "Das Archiv der römischen Inquisition und des Index." *Römische Quartalschrift*. vol. 93 (1998).

Simiand, François. "Méthode historique et science sociale." *Annales ESC*. vol. 15, no. 1 ([1903] 1960).

Stoler, Ann Laura. "Colonial Archives and the Arts of Governance." *Archival Science*, vol. 2 (2002).

Soll, Jacob. *The Information Master: Jean-Baptiste Colbert's Secret State Intelligence System*. Ann Arbor: University of Michigan Press, 2009.

Steedman, Carolyn. "The Space of Memory: In an Archive." *History of the Human Sciences*. vol. 11, no. 4 (1998).

Stoler, Ann Laura. *Along the Archival Grain: Epistemic Anxieties and Colonial Common Sense*. Oxford: Princeton University Press, 2009.

Tallon, Alain. *L'Europe au XVIe siècle: États et relations internationales*. Paris: PUF, 2010.

Theis, Valérie. "Le monde de la Chambre apostolique (XIe-XIVe siècle): Ordonner les archives, penser l'espace, construire l'institution." mémoire d'habilitation à diriger des recherches, université de Versailles Saint-Quentin, 2016.

Toubert, Pierre. *Les structures du Latium médiéval: Le Latium méridional et la Sabine du IXe siècle à la fin du XIIe siècle*. Rome: École française de Rome, 1973.

Upward, Frank. "Structuring the Records Continuum – Part One: Post Custodial Principles and Properties." *Archives and Manuscripts*. vol. 24, no. 2 (1996).

Viviane Frings-Hessami, "La perspective du Continuum des archives illustré par l'exemple d'un document personnel." *Revue électronique suisse de science de l'information*. vol. 19 (Décembre 2018).

Voldman, Danièle (dir.). *La bouche de la vérité? La recherche historique et les sources orales*. Paris: CNRS, 1992.

Wallace, David A. (dir.). "Archives and the Ethics of Memory Construction." *Archival Science*. vol. 11, no. 1 / 2 (2011).

Wallnig, T. et al. (dir.). *Europäische Geschichtskulturen um 1700 zwischen Gelehrsamkeit, Politik und Konfession*. Berlin: De Gruyter, 2012.

Wavg, Yujue. "Archives, pouvoir et société: la communication et la valorisation des archives en Chine et en France dans la deuxième moitié du XXe siècle." thèse de doctorat. École des chartes. 2014.

Weil, François. *Family Trees: A History of Genealogy in America*. Cambridge: Harvard University Press, 2013.

Whatley, Patricia & Caroline Brown (dir.). "The Philosophy of the Archive." *Archival Science*. vol. 9, no. 3 / 4 (2009).


مراجعات كتب
Book Reviews





الرقم التعريفي: DOI: https://doi.org/10.31430/HNTR5489

عبد الإله بنمليح | Abdelilah Benmlih*

مراجعة كتاب الأغراس والبساتين في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط وبداية العصر الحديث: الانتشار والوظائف والانحسار

Book review *Crops and Gardens in the Far Maghreb During the Medieval and Early Modern Period: Distribution, Functions, and Decline*

المؤلف: المصطفى طهر.

عنـوان الكتاب: الأغراس والبسـاتين في المغرب الأقصى خلال العصر الوسـيط وبداية العصر الحديث: الانتشـار والوظائف والانحسار.

الناشر: منشورات مختبر التراب والتراث والتاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة آنفو – برانت.

سنة النشر: 2022.

عدد الصفحات: 147.

* أستاذ في شعبة التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، المغرب.

Professor in the Department of History, Faculty of Arts and Humanities, Dhar El Mehraz, Sidi Mohamed Ben Abdellah University, Fez, Morocco.

benmlih_abdelilah@yahoo.fr



الكتاب في سياقه الموضوعاتي – المجالي

يلفت نظرنا في الكتاب أمران: أولهما انصراف المؤلف إلى البستنة والأغراس أساسًا، ولم تكن إشاراته إلى الفلاحة إلا ضرورة يقتضيها السياق. وثانيهما اتخاذه المغرب الأقصى مجالًا لموضوع كتابه، وهو ما جعله متميزًا من دراسات مغربية وغير مغربية حديثة، من قبيل كتاب الأستاذ يوسف نكَادي[1]، وقبله الأطروحة الجامعية التي أنجزها مصطفى عبد القادر غنيمات[2]، وخَصّص القسم الثالث منها لـ "الفلاحة في المغرب والأندلس"، في مئتي صفحة[3]، من أصل 398 صفحة (أي بنسبة تصل إلى 50 في المئة)، غير أن القارئ يفاجأ بأن حضور المغرب اقتصر على العنوان فقط. فقد ركز صاحب الأطروحة على الأندلس من بداية عمله حتى نهايته.

والواضح أنّ التوجه بالبحث نحو الفلاحة الأندلسية يجد تفسيره في وفرة نسبية في النصوص والمصادر والكتابات الفلاحية، مقابل ندرتها في المغرب الأقصى. وهو ما تؤكده قراءة كتاب **الفلاحة والتقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط**[4]، الذي ضم عشرة مقالات، صنّفناها مجاليًا، كالتالي:

- خمسة مقالات عن الأندلس: أربعة بتصريح واضح في العنوان[5]، وواحد يهم مصادر ابن البيطار في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي[6].
- مقال واحد عن إفريقية[7].
- مقال واحد عن المشرق، وترد فيه إشارات مغربية متفرقة عن الحناء[8]، خارج العصر الوسيط، إذ تعود إلى سنة 922هـ/1559م؛
- مقال واحد عن أوروبا القديمة[9]؛
- مقالان، نصّ صاحب المقال الأول في العنوان على المغرب والأندلس[10]، وأثبت صاحب المقال الثاني في العنوان: الغرب الإسلامي[11].

والمطّلع على مقال سعيد بنحمادة المعنون: "التراث الفلاحي الإسلامي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط: مقوماته ومراحل تطوره"، لا يجد عناءً في تسجيل حضور المغرب بنماذج وإشارات قليلة جدًّا تهمّ مدينتَي مراكش المرابطية الموحدية[12]، وفاس المرينية[13]، عكس ما يحيل عليه الاختيار المجالي في العنوان، وهو المغرب والأندلس.

1 يوسف نكادي، **الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري** (وجدة: مطبعة الجسور، 2007).

2 مصطفى عبد القادر غنيمات، "علم الفلاحة في الثقافة العربية الإسلامية: تاريخه وأسسه الفكرية ومناهجه"، أطروحة دكتوراه الدولة في الفلسفة، إشراف الأستاذ سالم يفوت، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1993، مرقونة.

3 المرجع نفسه، ص 170-370.

4 **الفلاحة والتقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط**، إشراف حسن حافظي علوي (الدار البيضاء: مؤسسة الملك عبد العزيز؛ الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2011).

5 فائزة البوكيلي، "التراث الفلاحي بالأندلس في عهد كل من ملوك الطوائف والمرابطين"، ص 107-122؛ أحمد الطاهري، "تقنيات الفلاحة الأندلسية بين التراث العلمي المحفوظ والدراسات التاريخية"، ص 179-214؛ إبراهيم القادري بوتشيش وعبد الهادي البياض، "التربة: آفاتها، تقنيات علاجها وتدبير استغلالها في ضوء الأدبيات الفلاحية: (القرن 5ه/11م)"، ص 215-241؛ يوسف نكادي، "أساليب الزراعة والغراسة والتناوب بين الاستغلال والاستراحة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري"، ص 243-265.

6 البضاوية بلكامل، "مصادر ابن البيطار في كتابه 'الجامع لمفردات الأدوية والأغذية'"، ص 147-177.

7 محمد حسن، "أصناف الإنتاج الزراعي بإفريقيّة: من القرن 6ه/12م إلى القرن 9ه/15م"، ص 267-287.

8 حسن حافظي علوي، "'الروضة الغنّاء في منافع الحناء' لمحمد بن محمد بن زين العابدين الغُمَري سبط المَرْصَفي"، ص 13-34.

9 سعيد البوزيدي، "كتب الفلاحة خلال الفترة القديمة: من الممارسة إلى التدوين فالتنظير"، ص 35-57.

10 سعيد بنحمادة، "التراث الفلاحي الإسلامي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط: مقوماته ومراحل تطوره"، ص 59-106.

11 محمد حناوي، "ملاحظات حول بعض كتب البيطرة بالغرب الإسلامي في العصر الوسيط"، ص 123-146.

12 المرجع نفسه، ص 64، 85.

13 بنحمادة، ص 64.



أما محمد حناوي فقد كان منصفًا في مقاله، عندما تناول أنموذجين، الأول أندلسي: **كتاب الفلاحة** لابن العوام الإشبيلي الذي خَطَّه في ضواحي إشبيلية في النصف الثاني من القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد[14]، والأنموذج الثاني مخطوط مغربي مراكشي: "سيرة أجود الأنجاد في مراتب الجهاد" لأبي عبد الله محمد بن أبي سعيد عثمان المراكشي (من أهل القرن السابع أو الثامن الهجري)[15]. وكان الموضوع البيطرة وليس الفلاحة.

هذا باختصار عن وضع كتاب الأستاذ المصطفى طهر، الذي لا يعكس صغرُ حجمه محدودية فائدته، بقدر ما يعكس اقتحامَه موضوعًا بكرًا لم يحظ بعناية لافتة، في شقّيه: الموضوعاتي المتمثل في البستنة، والمجالي المتمثل في المغرب الأقصى. ولنا اليقين أنه سيكون لهذا العمل ما بعده، إذا ما انتبه إليه النبهاء والنجباء من طلبتنا المقبلين على اختيار مواضيع جديدة لأطاريحهم الجامعية.

البستنة في المغرب الأقصى: من التجريد إلى التجريب

يُرجع أبو جعفر أحمد بن عمر الغافقي (المتوفى عام 560هـ/ 1165م) إحجامه عن التأليف في الفلاحة والصيدلة إلى: "قلة أهل البصر... [الذين] يُؤثرون الكتاب الذي بين أيديهم ويقدمونه ويفضلونه على غيره؛ إما لأن واضعه كان ذا جاهٍ ومنزلة عند السلطان، وإما لأنه كان رجلا كثير المال [...] أما نفس الكتاب فلا يفهمون منه لا ما يفضُل به على غيره، ولا ما يفضُل غيره به عليه [...] وآذان الجَهَلة مُصغيةٌ إليهم، وذوو البصر والمعرفة والإنصاف أقل من القليل"[16].

بناءً على ذلك وعلى ما عُرف عن ابن العوام من عدم إثبات "من المعارف الفلاحية إلا ما صحَّت به التجربة"[17]، انتبه المؤلف المصطفى طهر إلى ضرورة اعتماد كتاب يُحتذى به مدخلًا لمؤلفه، فلم يجد أقرب إليه من ابن العوام نفسه، وكتابه في الفلاحة القائم على التجريب لا التجريد، كما شاع في مؤلفات سابقة عليه. وتجلى ذلك أيضًا عندما ركز المؤلف، في تناوله لهذا الكتاب، على العناصر الثلاثة ذات المنحى التجريبي، وهي على التوالي:

- إصلاح الأرض وعلاقة التربة بالمغروسات (ص 9-11).
- الغراسة بين المعارف النظرية والأشغال الميدانية (ص 12-16).
- البستان النموذجي (كما يراه ابن العوام)، (ص 16-18).

ونجد مصداق هذا التوجه في ارتباط علم الفلاحة بالفلسفة[18]، فقد ازدهر بازدهارها وتدهور تبعًا لتراجعها، عندما أُعلنت الحرب عليها، أو كما عبّر عن ذلك أحد الباحثين "وُجهت لها سهام الاغتيال، وصدرت في حقها الفتاوى الفقهية التي اعتبرتها 'أساس السفه والانحلال، ومادة الحيرة والضلال، ومثار الزيغ والزندقة'"[19].

---

14 حناوي، ص 124.

15 المرجع نفسه.

16 أبو جعفر أحمد بن عمر الغافقي، **كتاب الأدوية المفردة في النبات**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم: 155ق، ص 1، نقلًا عن: بنحمادة، ص 66.

17 أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد ابن العوام (عاش في نهاية القرن 6 وبداية 7هـ/ 12-13م)، **كتاب الفلاحة**، دراسة وتعليق غارسيا سانشيز وإستفان فرنانديز ميخو، مدريد، 1988، 1/9، نقلًا عن: المرجع نفسه.

18 بنحمادة، ص 78-79.

19 فتوى ابن الصلاح الشهرزوري (ت. 643هـ/ 1246م)، نقلًا عن: بنحمادة، ص 87.



أربعة نماذج للتأمل

لا نناقش الكتاب موضوع هذه القراءة، في جانبه المعرفي، فذلك من اختصاص صاحبه وهو أدرى به من غيره، خصوصًا عندما ضمّن كتابه أمثلة كثيرة عن البساتين وأسمائها والاختلافات القائمة، وكذلك عن المقومات الثلاثة للبستنة: الأرض والماء والإنسان، ثم عن الأبعاد الوظيفية للبساتين، الاقتصادية والعسكرية والسياسية والدينية والطبية والنفسية وغيرها، بل سنركز على الآراء التي أدلى بها المؤلف، حين ارتدى جبة التفسير، والتي اخترنا منها، على سبيل المثال لا الحصر، أربعة نماذج.

1. أنموذج أول

انتهى المؤلف بخصوص أسماء البساتين إلى أن "هذا التنوع في الأسماء يوحي بأن الأمر يتعلق بمساحات مغروسة تختلف من حيث نوع المغروسات والشكل والتجهيزات، وخاصة المساحة. إلا أن الدراسات أثبتت أن الأمر أشد تعقيدًا وأن المعطيات المصدرية يشوبها الكثير من الغموض (ص 27). وأحال على الكتاب الشهير لأندريه ميكيل[20].

وفي اعتقادي أن المسألة لسانية أساسًا، على اعتبار أن إطلاق شخص أو جماعة أو هيئة اسمًا معيّنًا، يمتح من البيئة التي وُجد فيها هؤلاء، أو بصورة أصح من البيئات جمعًا لا إفرادًا، وتبعًا أيضًا لمعرفة المؤلف بهذه البيئات، فقد يستعمل مقابل لفظ محلي لفظًا أو مصطلحًا سائدًا في بلدته أو مدينته أو قريته. ولنا أمثلة من الطوبونيميا المرتبطة بالموضوع ذاته في مدينة فاس، حيث نتوفر على نماذج للأسماء التالية:

- الجنان: حومة راس الجنان؛
- العرصة: عرصة المدلسي (تحريف الأندلسي) / العرصة بدرب العامر، حومة اللمطيين؛
- المنية: المنية الفوقية والمنية التحتية والمنية الوسطية؛
- الرياض: رياض جحا.

والملاحظ أن جميع هذه الأسماء تمتح من المعجم اللغوي السائد، وهكذا لا نعثر في طوبونيميا مدينة فاس ذات الصلة على مصطلحات مثل البستان أو الحديقة أو الحائط أو البحيرة، ... إلخ، هذا دون أن نغفل الانتباه إلى عدم الاطمئنان في هذا الباب إلى الكتب المترجمة أو المعربة، من قبيل: كتاب **وصف إفريقيا** للحسن الوزان الفاسي، وكتاب **إفريقيا** لمارمول كربخال؛ نظرًا إلى حضور لغة المترجِم واحتجاب لغة المؤلِّف.

2. أنموذج ثانٍ

أثارنا في موضوع العرصة تقليب المؤلف الآراء بخصوص ماهيتها، وإدراجه لها، على نحو صريح في نهاية المطاف، ضمن المجال المغروس أو البستان أو غيرهما، مغلّبًا ذلك على رأي الباحث طارق مدني القائل إن إطلاق اسم "العرصة في فاس .. على البساتين التابعة

---

20 André Miquel, *La géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du XIè siècle*, coll. Les ré-impressions (Paris: Mouton & Co, Publications de l'École Pratique des Hautes Études, 2001).

تُرجم الكتاب إلى اللغة العربية: أندريه ميكيل، **جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر**، ترجمة إبراهيم خوري (دمشق: دار إشبيلية، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1983).



للدور"، استنادًا إلى عبد الكبير بن هاشم الكتاني[21]، الذي قال إن "العرصة: بيت تتخلله الأشجار وأحواض الورود"، وبنى رأيه هذا على ما توحي به نصوص تاريخية "توحي أحيانًا بأن الأمر قد يتعلق بمساحة أرضية فارغة قابلة للبناء أو مخصصة للزرع" (ص 33).

ولا مراء في أن هذا منهج علمي سليم، لكن المشكل في عبارة المؤلف الواردة بين رأي الباحث طارق مدني ووصف عبد الكبير الكتاني، وهي "وهذا ما يؤكده"[22]؛ من دون الانتباه إلى أيهما السابق واللاحق. ولو صيغت العبارة في صيغة الماضي، لأصبحت كالتالي: "وهذا ما أكده"، ولكان أسلم وأوضح.

3. أنموذج ثالث

قول المؤلف: "يُعتبر الإنسان أكبر مخرب للبيئة" (ص 111)، وهو بصدد بسط عوامل انحسار البستنة في المغرب الأقصى الوسيط وبداية الحديث، يحمل، في نظري، حكمًا إطلاقيًا، لم يراع الظرفيات والحيثيات التي يجري فيها الإجهاز على البساتين خاصة والأراضي الفلاحية عامة. وقد أكد المؤلف ذلك عندما خص العوامل الطبيعية، من أعاصير وبرد وسيول وجفاف وجراد ومجاعات وأوبئة ...، وغيرها، بحوالى أربع صفحات[23]، وخص العوامل الحضارية والبشرية، من توسعٍ عمراني وضعف الخبرة وإقطاعٍ وحيفٍ جبائي وحروبٍ وفتن ... إلخ، بحوالى 12 صفحة[24].

وفي اعتقادي أنه يمكن التخفيف من حدة هذا الإطلاق عبر وصف هذه العوامل البشرية بالفردية أحيانًا وبالجماعية أحيانًا أخرى، آنذاك ربما حققنا الإنصاف في حق الإنسان: فالحروب مثلًا ليس الفرد دائمًا هو المسؤول عنها، بل الدولة أو القبيلة.

4. أنموذج رابع

تحفَّظَ المؤلف بخصوص ما ذهب إليه ابن خلدون وهو يربط بين الضرائب ونهاية الدولة، حينما نص على أن حدوث المجاعات آنئذ مرتبط بقبض الناس "أيديهم عن الفلح في الأكثر، بسبب ما يقع في أواخر الدول من العدوان في الأموال والجبايات والبياعات بالمكوس، أو من الفتن الواقعة في انتقاض الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة"[25]، وسجل أن هذا الربط على الرغم من وجاهته، يظل ناقصًا أمام وجود نصوص وإشارات إلى إجحاف ضريبي في مرحلة تأسيس الدول وقوّتها (ص 113).

غير أن المؤلف لم يسند رأيه وتحفّظه بأدلة تثبت ما ذهب إليه؛ ما يجعلنا أمام رأي خلدوني ثابت، لم يتوقف عن ترديده، فهو يرى في المكوس والمغارم مؤشرًا على تحديد قيمة الأقوات، بل إنه يميز في ارتفاع أسعارها بين المدينة والبادية، ويسجل أنّ الأولى أغلى من الثانية، فـ "الأمصار بالعكس، سيما في أواخر الدول"[26]. وبيان ذلك أن ابن خلدون عالج المسألة الضريبية من عدة أوجه وانتهى إلى أن "أقوى الأسباب في الاعتمار تقليل مقدار الوظائف على المعتمرين ما أمكن، فبذلك تنشط النفوس ليقينها بإدراك المنفعة فيه"[27]. وكرر ذلك بقوله: "إذا قلت الوزائع والوظائف على الرعايا، نشطوا للعمل ورغبوا فيه"[28].

---

21 عبد الكبير بن هاشم الكتاني، **زهر الآس في بيوتات أهل فاس**، تحقيق علي بن المنتصر الكتاني، الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس، ج 1 (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2002)، ص x.

22 المرجع نفسه.

23 المرجع نفسه، ص 107-111.

24 المرجع نفسه، ص 111-123.

25 عبد الرحمن بن خلدون، **المقدمة**، تحقيق عبد السلام الشدادي، ج 2 (الدار البيضاء: بيت الفنون والعلوم والآداب، منشورات خزانة ابن خلدون، 2005)، ص 109-110.

26 المرجع نفسه، ص 213؛ وفي سياق آخر يكرر الفكرة ذاتها: "وربما يزيد ذلك في آخر الدول زيادة بالغة". المرجع نفسه، ص 70.

27 المرجع نفسه، ص 67.

28 المرجع نفسه.



وفي موضع آخر ذكر ابن خلدون: "أن الجباية أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجُملة، وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة"[29]؛ لظروف ترتبط بالميل إلى الترف وتزايد نفقات الدولة ونضوب معين مصادر معينة للدخل، من قبيل الغزو وغير ذلك. ومصداق ذلك ما يتحدث عنه المؤرخون والكتّاب بخصوص السياسة الضريبية لدولة ما في بداية عهدها، حيث تسهم سياستها القائمة على الضرائب الشرعية فقط، من زكاة وعشور وخراج، في التمهيد لها وجذب الناس إليها. وهذا ما نجد صدى له فيما ذكره الجغرافي الأندلسي أبو عبيد البكري عندما ربط قيام دولة المرابطين بانتشار الحق والعدل: "وهذه القبائل[30] هي التي قامت بعد الأربعين وأربعمائة بدعوة الحق ورد المظالم وقطع جميع المغارم"[31]. فلعل في الأمر نظرًا.



29 المرجع نفسه.

30 يقصد قبائل صنهاجة الصحراء، من لمتونة ومسوفة وجدالة، وغيرها.

31 أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، **المسالك والممالك**، تحقيق وتقديم أدريان فان ليوفن وأندري فيري، ج 2 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992)، ص 858.



المراجع

العربية

ابن خلدون، عبد الرحمن. **المقدمة**. تحقيق عبد السلام الشدادي. الدار البيضاء: بيت الفنون والعلوم والآداب، منشورات خزانة ابن خلدون، 2005.

البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز. **المسالك والممالك**. تحقيق وتقديم أدريان فان ليوفن وأندري فيري. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992.

طهر، المصطفى. **الأغراس والبساتين في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، وبداية العصر الحديث: الانتشار والوظائف والانحسار**. فاس: منشورات مختبر التراب والتراث والتاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، مطبعة آنفو – برانت، 2022.

الفلاحة والتقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط. إشراف حسن حافظي علوي. الدار البيضاء: مؤسسة الملك عبد العزيز؛ الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2011.

غنيمات، مصطفى عبد القادر. "علم الفلاحة في الثقافة العربية الإسلامية: تاريخُه وأسسُه الفكرية ومناهجه". أطروحة دكتوراه الدولة في الفلسفة. إشراف سالم يفوت. جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، شعبة الفلسفة والاجتماع وعلم النفس، الرباط. 1993. مرقونة.

الكتاني، عبد الكبير بن هاشم. **زهر الآس في بيوتات أهل فاس**. تحقيق علي بن المنتصر الكتاني. الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2002.

نكَادي، يوسف. **الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري**. وجدة: مطبعة الجسور، 2007.

الأجنبية

Miquel, André. *La géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du XIè siècle*. coll. Les ré-impressions. Paris: Mouton & Co, Publications de l'École Pratique des Hautes Études, 2001.



الرقم التعريفي: DOI: https://doi.org/10.31430/QIYV9263

خالد جدي | Khalid Jeddi*

مراجعة كتاب البربر بين المغرب والمشرق (من القرن السابع إلى الخامس عشر)

Book Review *The Berbers Between Maghreb and Mashreq (VII-XV Century)*

عنوان الكتاب: البربر بين المغرب والمشرق (من القرن السابع إلى الخامس عشر).

العنوان الأصلي: *The Berbers Between Maghreb and Mashreq (VII-XV Century)*.

المشرف: دومينيك فاليريان Dominique Valérian.

الناشر: مدريد: كازا دي فيلازكيز Madrid: Casa de Velázquez.

سنة النشر: 2021.

عدد الصفحات: 181.

* أستاذ التاريخ والجغرافيا في التعليم الثانوي التأهيلي، مديرية التربية الوطنية بمراكش، حاصل على دكتوراه في التاريخ المعاصر من جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب.

High School History and Geography teacher in Marrakech province, Morocco. He holds a PhD Modern History From Ibn Zohr University, Agadir, Morocco.

khalid.jeddi@outlook.fr



مقدمة

صدر عام 2021، عن منشورات كازا دي فيلازكيز، التابعة للمدرسة الفرنسية، كتاب جماعي عنوانه **البربر بين المغرب والمشرق (من القرن السابع إلى الخامس عشر)**، تحت إشراف دومينيك فاليريان. وقد انطلق هذا الكتاب من إشكالية مفادها ضرورة دراسة النصوص الوسيطية وتحليلها لمجابهة ادعاء الطابع الشرقي للبربر، من خلال تطوير سلاسل الأنساب الوهمية للقبائل، التي تقدم المغرب على أنه مستشرق حتى قبل الفتح. لكن هذا البناء رافقه، بسرعة كبيرة، خطاب لمؤلفين من شمال أفريقيا زعموا المكانة الأصلية والمرموقة للبربر مقابل المشرقيين. اتبعت الدراسات التي جرى جمعها في هذا الكتاب هذا الجدل الدائم في الخطاب، بين ادعاء الأصل الشرقي ودور الشعوب المسلمة المغاربية البارز في مصير الإسلام في هذه المنطقة.

استهل فاليريان هذا الكتاب بمقدمة مطولة، عرج فيها على جذور مصطلح البربر، وبيّن أن هذا المصطلح في اللغات الأوروبية يستعمل لتعيين هذا الجزء من العالم، وأنه يستخدم على نطاق واسع في التأريخ الاستعماري مع خلفية أيديولوجية (ص 3)، رغبةً في "إرباك" المنطقة المغاربية، ومحاولةً لتقليص ارتباطها بالمشرق العربي، وإبراز مصير مجتمع قديم بين أوروبا ومستعمراتها الجديدة، ورأى أن المغرب العربي[1] لا يزال، من دون شك، الأنسب للعصور الوسطى، لأنه الاسم الذي استخدمه المؤلفون الناطقون باللغة العربية في ذلك الوقت. ومع ذلك، من الضروري التفكير في آثارها من حيث التصنيف الجغرافي، وفهم تاريخ المنطقة.

يقترح فاليريان إعادة التفكير في النظرية التي تربط المغارب بالشرق، بطريقة ما، بوصفها مركزًا للعالم الإسلامي، ويدعو إلى التشكيك في مكانتها في هذا الفضاء، وعلى نطاق أوسع اندماجها في الإسلام، فضلًا عن خصوصيتها. استدل الباحث بدراسة عمليات الأسلمة والتعريب (ص 5)، حيث جرى الاندماج في دار الإسلام على نحو تدريجي، وفقًا لأساليب متنوعة جدًّا، اعتمادًا على المناطق والفترات. وقد خلص إلى أن فكرة استشراق المنطقة المغاربية ظهرت في العصر الإسلامي في وقت مبكر جدًّا في التأريخ الإسلامي، على أنّ الفكرة لا تخلو من المشكلات بحسب زعمه؛ إذ تعود جذورها إلى دراسة العصور القديمة، ولا سيما الفترة القرطاجية التي ربطت المنطقة بالشرق من خلال المراكز التجارية الفينيقية، لكن خلال الفتوحات الإسلامية جرى دمج المنطقة المغاربية كلّها في فضاء مستقطب في الشرق العربي.

أولًا: أصول البربر

يشتمل القسم الأول من الكتاب على فصلين. في الفصل الأول، قاربت أنلييس نايف (ص 15-28) قضية البربر في المغارب من خلال مدخل الأصول، وقد عادت إلى المصطلح من منظور ماضي هذه المنطقة في زمن القرون الأولى للإسلام، محاولةً وضع مصطلح البربر في إطار إشكالي: أهو مصطلح قديم أم هو اختراع إسلامي؟ (ص 16). وقدّمت الباحثة أدلة تاريخية يونانية بحسب الطرح الأول، وقدمت تحاليل فيلولوجية للبرهنة على أن للمصطلح جذوره في اللغة العربية أثناء الاتصال باللسان البربري وفقًا للطرح الثاني، وقد لجأت إلى تبرير هذا النهج باحتكامها إلى المصادر الجغرافية العربية المتخصصة، وادعت أنّه لم يكن ثمّة مصطلح يشير إلى جميع السكان الذين يعيشون في المنطقة التي تتوافق مع المغارب حاليًا قبل استخدام مصطلح "البربر" في اللغة العربية. واستنتجت في نهاية دراستها أن هذا المصطلح حاضر في أذهان مؤلفي العصور الوسطى في العالم الإسلامي، وأن عبارة "لغة البربر" ليست عامة، بل هي خاصة بالمجموعة.

1 هذا المصطلح غير وارد في المصادر الوسيطية (ما كان مصطلحات من قبيل "أقصى المغرب"، و"المغرب الأقصى"، و"السوس الأقصى"، و"إفريقية" ... إلخ). والمصطلح الذي تم التوافق عليه، من حيث الدلالة الحضارية، هو "الغرب الإسلامي" أو "المغرب الإسلامي"، أو "المغارب" إذا استثنينا الأندلس.



إن هذا الجدل الذي لم يتمّ توضيحه هو أحد الموروثات التي لا جدال فيها في فترة العصور الوسطى، وأضافت الباحثة أن غياب المصادر التي كتبها مؤلفون يسمون أنفسهم الـ "بربر"، لتوضيح هذه القضايا، قد جرى تناولها منذ فترة طويلة، باعتبارها عقبة منهجية رئيسة أمام التفكير في الموضوع. ومع ذلك، فإن الدراسة المتجددة للمصادر الإباضية قد أظهرت على نحو قاطع وجود هذه النصوص. ولعل أقواها نص إباضي ألّفه شخص يدّعي أنه بربري، وهو أبو العباس أحمد بن سعيد الشمّاخي، في كتابه **بدء الإسلام وشرائع الدين**. فبحسب نايف، لا توجد معارضة بربرية للعرب في هذا الكتاب، بل تمثّل للأحاديث التي جاء بها الكتاب تتويجًا لبنية متشابهة؛ حيث المغارب مَهْد الإسلام الإباضي، والبربر هم ناقلوه؛ أي إنّه يوجد شعب جديد يقف ضد الإمبراطورية المستبدة في المشرق (ص 26). وهكذا، سعى ابن سلام إلى خلق ذاكرة جماعية معارضة للصور النمطية عن البربر الناتجة من ثوراتهم، مقارنةً بالسكان الآخرين.

في الفصل الثاني، قارب رامزي الرويغي ورقة البربرية وأقنِعتها (ص 29-42)، وقد أشار الباحث إلى أن فتوحات القرن السابع الميلادي تميزت بعملية تكامل إداري ومالي في الغرب الإسلامي حتى القرن التاسع الميلادي، وإلى أن هذا التوحيد قد ظل مشروعًا غير مكتمل، إلى حد بعيد، باستثناء إفريقية، وعدد قليل من الجيوب الأخرى. إن الممالك التي تأسست في الغرب الإسلامي في نهاية القرن الثامن (الأغالبة والأدارسة مثلًا)، وكذلك تنصيب قوة أموية مستقلة بأيبيريا، تثبت كلّها أن الإمبراطورية العباسية لم يكن لها سلطة حقيقية على الغرب الإسلامي (ص 31). وهذه الظروف السياسية في المنطقة ساهمت في التمثلات التي قدمها المؤلفون الشرقيون عن "الغرب الإسلامي" عمومًا، و"البربر" خصوصًا، مع العلم أنّ المصادر المحلية (نهاية القرن التاسع للميلاد) تحدد مصدر العديد من سوء الفهم بين المؤرخين الشرقيين حول البربر.

استنتج الباحث أن بداية الأصل العربي لمجموعات معينة من البربر مقبول في نهاية القرن الثامن الميلادي (ص 35). وإضافة إلى الجانب الأسطوري، أو المفتعل، في كتب الأنساب، تشير الأنساب الواردة فيها إلى عملية يتمّ في نهايتها دمج معرفة معينة عن الغرب الإسلامي في المعرفة الإمبراطورية المشرقية. وهكذا، جعل اليمنيون المستقرون في الغرب الإسلامي مكانةً لأنفسهم في قلب الذاكرة الجماعية المحلية (ص 39-40)، باستخدام شكل من أشكال المعرفة والغموض على نطاق واسع. وقد تساءل الباحث في خاتمة دراسته: ماذا قال علماء الأنساب في صنهاجة وكتامة عن هذه الشبكة من الأنساب؟ وكان الرد: في حالة انعدام مصدر، سيكون من المفيد ملاحظة مساهمة الخطاب حول "التشابه" بين العرب (خصوصًا السوريين واليمنيين) والأمازيغ في تجسيد فئتين من العرب والبربر في المشرق والغرب الإسلامي.

ثانيًا: المقاومات وخطاباتها المضادة

نجد ثلاث دراسات في الجزء الثاني من الكتاب. وقد تناولت سولينا شوني (ص 45-54) قضية مقاومة السكان "البربر" ضد الجيوش الإسلامية أثناء "غزو" شمال أفريقيا. ولهذه المنطقة مكانة خاصة في التأريخ العربي في العصور الوسطى. وعلى الرغم من تحول البربر على نحو سريع إلى الإسلام، وانخراطهم المبكر في مشروع غزو شبه الجزيرة الأيبيرية، ومشاركتهم اللاحقة في تطوير الحضارة "العربية" في الغرب، فإنّ ذكرى المعارك التي قادتها القبائل الكبيرة مثل مصمودة، أو الزعماء من أمثال كسيلة والكاهنة، جرى تضخيمها بين القرنين التاسع والرابع عشر الميلاديّين، وأحيانًا يجري اتخاذ بُعدٍ أسطوري في هذا الشأن (ص 51). وفي وقت لاحق، خلال الحقبة الاستعمارية، غدا هذا العامل أدبًا تاريخيًّا وفيرًا جدًّا، بطريقة لا تخلو من الدوافع السياسية الخفية، لكنه عرف، على نحو جديد، امتدادات ملحوظة في الثقافة البربرية المعاصرة.



ثمّ تناول علاوة عمارة "تطور الخطاب حول البربر في المصادر السردية للغرب الإسلامي خلال العصور الوسطى (ما بين القرنين التاسع والرابع عشر)" (ص 55-70)، فجاءت إشكالية هذا الفصل كما يلي: التركيز على الخطابات التي أصدرها المؤلفون الناطقون باللغة العربية حول سكان المنطقة المغاربية في وقت الفتح الأموي، وتقاليد ما قبل الإسلام التي تبناها هؤلاء المؤلفون، والتي جرى استغلالها في تصنيف البربر، مع طرح الأسئلة الآتية: من أي تاريخ تحدد هذه النصوص السكان على أنهم من السكان الأصليين وخاصة البربر؟ وما الصور والتمثيلات التي جرى إنشاؤها حول هؤلاء السكان؟ وما المعايير التي جرى استخدامها لتحديدها وتصنيفها؟ (ص 55).

استند الباحث في هذا الفصل إلى مصادر مختلفة، في إطار حسابات الفتوحات من كتب الأنساب، وقواميس السير الذاتية، والسجلات، والأوصاف الجغرافية، فأنجز قراءة نقدية لهذا التوثيق النصي، من أجل محاولة تحليل تطور خطاباته حول البربر بين القرنين التاسع والرابع عشر، وبيّن أن أصول الاستقرار في المنطقة المغاربية لطالما كانت موضوعًا للنقاش التأريخي، وأنّ مؤرخي ما قبل التاريخ يقبلون بفكرة الوجود البشري القديم جدًّا، لكن المؤرخين الذين تناولوا الأساطير القديمة والعصور الوسطى في المنطقة، أثناء البحث عن أصول البربر، أظهروا صلة هذه المنطقة بالشرق الأدنى القديم. واستند الباحث لتبرير دراسته إلى نص إباضي أُلِّف عندما بدأت الأراضي الإباضية تتجلى ثقافيًا بعد فترة اتسمت بالاضطرابات السياسية والعسكرية في المنطقة المغاربية (ص 69).

أمّا سيريل إيليت، فقد ركز في دراسته (ص 71-91) على نص ابن سلام، واعتبره من النصوص التي تقدّم أحاديث فريدة حول البربر بين المشرق وإباضية الغرب الإسلامي خلال القرن التاسع، واعتبر أنه من أبرز فتوح الإسلام في الغرب الإسلامي (ص 72)، رغم كونه من الكتب المفقودة التي اكتشفها، عام 1964، سالم بن يعقوب الجربي التونسي. وقد قرأ الباحث هذا النص، ولم يبخل في تقديم تأويلات رأى أنها مناسبة لتدعيم طرحه في الموضوع، واعتبر أن تتبع مزايا البربر يكون من خلال الأحاديث النبوية التي تجعلهم حاملي الوحي حتى نهاية الكتاب.

يحتل هذا النص، بحسب الباحث، مكانة استراتيجية لأنه يأتي بـ "اللمسة الأخيرة" والضمانة "النبوية" لمشروع تبرير الثورات التي أدت إلى التحرير السياسي للغرب الإسلامي، لا سيما تحت رعاية "الدولة" الإباضية. وبحسب إيليت، فإن نص ابن سلام هو الطريق الأكثر أمانًا؛ إذ يصور منطقة الغرب الإسلامي بوصفها مساحة مقدَّرًا لها أن تصبح مهد الإسلام الجديد، عندما يحل البربر "الشعب المختار"، محل العرب، بعد تجريدهم من دورهم المتمثل في أنهم "حملة للوحي"، ويستدل الباحث على ذلك بأنّ المرء يمكن أن يدرك بسهولة في هذا الكتاب صدى الخطاب المناهض لقريش، بوصفه ضمانًا لمشروع حقيقي لتفكيك أيديولوجية الإمبراطورية العباسية (ص 87-88).

يتحدى هذا الكتاب أولًا أسبقية الشرق والحجاز ومركزيتهما، وهو ما أكدته الجغرافيا العباسية باستمرار. وتجد الفكرة المبتذلة لانحدار الإسلام تعبيرًا جديدًا في "الاستعارة النباتية" للشجرة التي تتلاشى جذورها وجذوعها في حين تزدهر أوراقها. وتعلن هذه الاستعارة عن انحطاط الشرق، وخصوبة تربة الدين، وحيوية بلاد الإسلام الجديدة؛ إذ سيأخذ شعب جديد من الأهالي "الشعلة" من العرب (ص 89).

تطور خطاب الشرعية ضد الشرق في سياق التحرر السياسي للغرب الإسلامي من دار الإسلام، منذ منتصف القرن الثامن الميلادي من خلال جهود أمويّي قرطبة لتقديم الأندلس بوصفها مركزًا جديدًا للعروبة في الإسلام بحسب تأويل الباحث. وقد أضاف إلى ذلك أن أمراء قرطبة لم يشككوا في أسس الخطاب المشحون بالمراجع الشرقية، في حين أزعج ابن سلام التسلسل الهرمي المعتاد للإسلام بإعلانه تفوق البربر على العرب الذين يشكلون أصل الإسلام، الذي امتد إلى الشعوب الأخرى من خلال الفتح، لكن ابن سلام يذكرنا باستمرار بأنهم تسببوا في انشقاق كبير في المنطقة.



يبدو أن غزو المجموعات القبلية من قبل الإباضية، قد استند، إلى حد بعيد، إلى تفاقم الانقسام بين نخب العرب الفاتحين، التي جاءت من الشرق، والسكان المحليين.

ثالثًا: اللغات والأنساب البربرية

عرّج القسم الثالث من الكتاب على قضية اللغات والجينيالوجية البربرية، وذلك من خلال مصطلحات قديمة وقراءات جديدة لثلاثة فصول. وفي فصل "كلمات قديمة، قراءات جديدة: التهجين الثقافي في المغارب في العصور الوسطى"، تشير هيلينا دي فيليب، على نحو توضيحي لـ "التهجين الثقافي"، إلى فكرة أن مصطلح البربر، مأخوذ من العالم اليوناني - اللاتيني من جانب العرب. ويشير هذا، قبل كل شيء، إلى واقع لغوي واسع الانتشار؛ إذ وقفت الباحثة على قضية مهمة متعلقة بتنظيم المجتمع الأمازيغي، بيّنت من خلالها أن المصادر تكشف عن أنظمة مختلفة للسلطة في منطقة الغرب الإسلامي، لكنها بعيدة كل البعد عن التجانس في جميع أنحاء الإقليم. إن تعدد أنظمة السلطة والبنى الاجتماعية أمرٌ واضح، لكن ذلك لم يمنع المؤلفين العرب من احتواء هؤلاء السكان في نوع من البنية القبلية على غرار النظام الشرقي. وبهذا المعنى، فإن ندرة المصطلحات التي تشير إلى الإطار القبلي أمرٌ لافت للنظر في أقدم المصادر التي عالجت الموضوع، وفي المصادر الإباضية المنتجة في سياق أمازيغي أيضًا. وبحسب الباحثة، فإنّ مصطلحات "جالوت" Ğālūt، و"أكليد" Agellid، والبتر، والبرانيس، تُعدّ كلّها موضوعًا لفرضيات ودراسات مختلفة، وتدعي مثل هذه الأعمال أنها تدرك معنى هذه المصطلحات، إضافة إلى دورها في تكوين مجتمع شمال أفريقيا. وقد مثلت طوال عقود خطًّا مستمرًّا من النقاش الأكاديمي (ص 97).

وتضمنت الأعمال التي تركز على هذه "الثنائية" الشهيرة للشعوب الأمازيغية تحليلات اشتقاقية وأنثروبولوجية ادعت أنها تستجيب لمسمّياتهم، وهي تفسر هذه المصطلحات بناءً على أنماط ملابسهم، والحجج ذات الطابع الديني. واستنتجت الباحثة أن لغة الأنساب تشكّل أداةً تأريخية شرقية حددت فَهْم المجتمع المغاربي حتى تاريخ قريب نسبيًّا.

تشهد النصوص المغاربية دورًا متزايدًا منحه إيّاها المؤلفون العرب، وهذا الوضع لا يمنع السلالات الحاكمة من البربر من ربط أصولهم بالعرب، بوصف ذلك وسيلة لترسيخ سلطتهم السياسية والدينية. هكذا، وفي حالة المرابطين، تُستخدم المصادر الشرقية على وجه الخصوص، وتُستمد منها الشرعية.

أمّا محمد مواك، فقد شيَّد فصل "العالم البربري في المصادر العربية المشرقية الوسيطية: أصل البربر و'الفكرة' الأفرو-آسيوية و'الرؤية' العربية الإسلامية" (ص 111-136)، على إشكالية مرتبطة بمفهوم لغوي. ومن المرجح أن تمرّ هذه الإشكالية بنقطة تحول لتصبح سؤالًا تاريخيًّا؛ أي معرفة إنْ كان من الممكن تحقيق تأريخ للمفهوم اللغوي "الأفرو-آسيوي" من أجل تحويله، إن أمكن، إلى موضوع تاريخي حقيقي (ص 114-115).

لعل ما يميز مبحث مواك هو تسليطه الضوء على المواد التي تحدد، على نحو أفضل، مكانة البربر في الإنتاج الجغرافي للشرق في العصور الوسطى. وقد حاول تحديد الحقائق المتعلقة بالشرق كمهد محتمل للجماعات العرقية الأفرو-آسيوية، فخاض في المفاهيم المعقدة المرتبطة بهذه الجماعات؛ أي المفاهيم التي قامت على نحو أساسي بتحريك المناقشات اللغوية من دون حاجة إلى الاهتمام بالجوانب الجغرافية التاريخية.

إن مفهوم القرابة اللغوية نسبي؛ فهو لغوي بطبيعته، ولا يتضمن أي شيء من حيث الأنثروبولوجيا (أصل السكان) أو الثقافة، ثمّ إنه دائمًا نسبي في الوقت المناسب، ويواجه عقبات كرونولوجية وأساليب المقارنة اللغوية.



يبدو أن العلاقات التي يمكن تأسيسها علميًّا لا تعود البتّة إلى ما بعد العصر الحجري. ومع ذلك، يجب التذكير، بحسب الباحث، بأن تاريخ البشرية والجماعات العرقية وعلم اللغات، لا يبدأ بالحجر المصقول والزراعة. ومن الضروري الإشارة إلى أن القرابة الأفرو-آسيوية للأمازيغ لا تعني بأي حال وجود أصل شرق أوسطي أو سامي أو شرق أفريقي. وصرح الباحث بأن تلك الطريقة هي التي يمكن بها اعتبار اللغة البربرية لغة "أصلية" لشمال أفريقيا، وأنه لا يوجد حاليًّا أي أثر إيجابي لأصل خارجي، أو طبقة أخرى سابقة على الطبقة الأمازيغية (ص 129-131).

شيَّد الباحث مقاربته هذه، على علم اللغة التاريخي ليبرهن، بحسب قراءاته المتعددة، على أن الكتّاب العرب في الشرق الإسلامي كانوا قادرين على تطوير قصص تسلط الضوء على الزخارف التاريخية والأسطورية، وتتبع ولادة العالم الأمازيغي في سياقه الشرقي، أو الآسيوي، أو الأفريقي؛ ففحص هذه الزخارف وفقًا للنصوص المتاحة، على الرغم من طابعها المتحيز، وتساءل: هل من الممكن القول إنّ جزءًا كبيرًا من أفريقيا كان أمازيغيًّا، إذا نظرنا إلى الحقائق التاريخية اللغوية التي جرى إبرازها عن أمازيغ الشمال وأمازيغ الساحل؟

أشار الباحث إلى أن الإجابة عن مثل هذا السؤال المعقد، والبعيد المدى، تنطوي على نقد متجدد ومنطقي للمسمّيات الأفرو-آسيوية، والمسمّيات السامية المطبقة على المجال الأمازيغي. وفي ضوء نتائج البحث الجديدة المذكورة آنفًا، يشير مصطلح "البربر"، قبل كل شيء، إلى واقع لغوي واسع الانتشار. وقد خصص مواك عدة فقرات من مساهمته في توجيهنا إلى المخططات التفسيرية الحديثة للوضع اللغوي الاجتماعي في شمال أفريقيا (ص 135).

ويضيف الباحث أنه جرى الاستشهاد بكثرة في النصوص العربية الشرقية، لكن من الضروري ألا تغيب عن بالنا حقيقة أن هذه الاقتباسات تشير أحيانًا إلى جماعة بربرية أخرى غير تلك الموجودة في أفريقيا. أما الاستنتاج المركزي لمبحثه، بوصفه جزءًا من الجواب عن السؤال المذكور آنفًا، وهذا برنامج آخر لبعثة أخرى في العالم الأمازيغي، فيجب أن يحاول هذا المشروع، بأي حال من الأحوال، إثبات أن البربر، على عكس ما يخبرنا به التاريخ العربي الإسلامي، كانوا بالفعل جزءًا من التاريخ الأفريقي.

ومن خلال منظور آخر، أشار مهدي غويركات في دراسته الأخيرة "اللسان الغربي حيث لغة الموحدين" (ص 137-149)، عبر مدخل اللغويات، إلى أنه لم يكن للغرب الإسلامي سمعة طيبة في الشرق والأندلس، بعد معارضة شديدة لـ "الغزاة" العرب، وإلى أنّ الأمر انتهى بالسكان الأصليين إلى رفض هذا "الاحتلال". وفي الواقع، سارت الأسلمة جنبًا إلى جنب مع هذا الاستقلال السياسي، فقد حدثت، باستثناء إفريقية، في إطار هيمنت فيه مختلف أشكال الإسلام: الخوارج، والشيعة، والأشكال البربرية المختلفة للإسلام (بورغواطة ... إلخ) (ص 138).

بين الباحث أن الخطب التي أُلقيت بـ "اللغة الغربية" (ثنائية اللغة العربية - البربرية) كانت تحظى بالأسبقية على الخطب التي أُلقيت باللغة العربية، بما في ذلك في قصر الموحدين في إشبيلية أثناء الاستقبالات الرسمية.

وقد اقترح الباحث لفهم ثنائية اللغة العربية - البربرية إشارات مصدرية وتأويلية على عدة مستويات؛ منها إشارة الإدريسي عندما لاحظ وجود قبائل أمازيغية تعرف اللغة العربية حول فاس، وهو عنصر لافت للنظر على نحو كافٍ، في رأيه؛ ما يؤكد أن النظام كان قائمًا على التعايش المقيد، إلى حد ما، بين عبد المؤمن بن علي ونسله وشيوخ الموحدين، في المناطق التي يسود فيها نموذج اجتماعي معتدل نسبيًّا، وحيث يتحدث الغالبية العظمى من السكان لغة واحدة فقط هي اللغات البربرية.



رابعًا: قضايا الكتاب

تتلخص أهم نقاط هذا الكتاب في القضايا التالية:

القضية الأولى: على مدى السنوات الماضية، شهدنا في فرنسا إحياءً للبحوث التاريخية المتعلقة بالمجال المغاربي في العصور الوسطى[2]. ومن الضروري أيضًا التأكيد على أهمية التأريخ الإسباني النشط في الأندلس والمغارب في العصور الوسطى مع أعمال العديد من المؤرخين؛ ومنهم، على سبيل المثال لا الحصر، مرسيدس غارسيا أرينال. أما على المستوى المغاربي – إضافةً إلى المصادر الوسيطية المهتمة بتاريخ البربر بالغرب الإسلامي (مثل كتاب **بدء الإسلام وشرائع الدين** لابن سلام الإباضي، و**مفاخر البربر** لمؤلف مغربي مجهول، و**كتاب الأنساب لصالح بن عبد الحليم الإيلاني** (القرن 8هـ/ 14م) – فإنّ الدراسات المعاصرة المتعلقة بتاريخ البربر في المغارب حققت تراكمًا في تونس[3]، على الرغم من أن موضوع الأمازيغ مُبعد في تحاليلها. وأما في الجزائر والمغرب، فإنّ مبحث الأمازيغية حاضر بقوة في العديد من الكتابات[4].

القضية الثانية: تعتبر دراسة التاريخ المغاربي منذ بداياته الأولى عملية إستوغرافية معقدة، خاصة مع الفترة الأولى للوجود العربي[5]؛ فالوجود العربي في المجال المغاربي شكّل تغييرًا كبيرًا في تاريخ سكان هذه المناطق، لكن ثمة قضية أساسية، تتمثل في أنّ المصادر المغاربية التي جرى إنتاجها خلال هذا الوقت عديدة، لكنها اختفت جميعها تقريبًا، ثم إن المصادر التي تتحدث عن الفترة نفسها هي عبارة عن شهادات غالبًا ما تكون من أصل خارجي (مشرقي وأندلسي)؛ لذا علينا تحديد آثار تطور مجتمعات المغارب في العصور الوسطى، وينبغي للمؤرخين المعاصرين معالجة المصادر التاريخية أو المصادر التي لها صلة بالتاريخ الوسيط. فإذا كان ثمة تشابه بين الإستوغرافيا المغاربية في بداية العصور الوسطى ونظيرتها المشرقية، فإنه ثمة في فترة لاحقة تغيير في هذا التأليف، أصبحت بنيته تختلف في العديد من الخصائص عن بنية نظيره في المشرق (كتب التراجم نموذجًا)، بل إن بعض الأجناس والأنواع المصدرية المغربية حققت قطيعة في هذا الصدد مع مثيلتها المشرقية[6].

القضية الثالثة: الباحثون المشاركون في المؤلف حاولوا البحث عن مناطق البربر الرئيسة، عبر سلسلة من الدراسات التاريخية؛ إذ لاحظنا العديد من المقالات تتبادل الاتهامات حول أصل البربر، بين القراءة التي ترجعهم إلى المجال المشرقي، أو المجال القبطي، والمجال الأوروبي، عبر مقاربة التناهج التي برعت فيها مدرسة الآنال الفرنسية. لا شك في أن هذه الاتهامات كان لها دوافع متعددة، وهذا موضوع تناوله العديد من الباحثين.

---

2 Dominique Valérian (dir.), *Islamisation et arabisation de l'Occident musulman médiéval (VIIe-XIIe siècle)* (Paris: Éditions de la Sorbonne, 2011).

3 هشام جعيط، **الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي** (بيروت: دار الطليعة، 1984)؛ هشام جعيط، **الكوفة: نشأة المدينة العربية الإسلامية** (بيروت: دار الطليعة، 1986)؛ هشام جعيط، **الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر** (بيروت: دار الطليعة، 1992)؛ هشام جعيط، **تأسيس الغرب الإسلامي** (بيروت: دار الطليعة، 2004).

4 إضافة إلى منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية حول الموضوع، نذكر على سبيل المثال لا الحصر دراسات من قبيل: إبراهيم القادري بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين** (بيروت: دار الطليعة، 1998)؛ محمد حقي، **البربر في الأندلس** (الدار البيضاء: شركة النشر والتوزيع المدارس، 2001)؛ عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب** (بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2009)؛ عبد القادر بوباية، **البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري** (بيروت: دار الكتب العلمية، 2011)؛ محمد القبلي (إشراف)، **تاريخ المغرب: تحيين وتركيب** (الرباط: مطبعة عكاظ الجديدة؛ المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، 2011)؛ مولاي التقي العلوي، علال ركوك وحفيظة الهاني (إعداد وإخراج)، **أصول المغاربة**، (الرباط: منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، 2016)؛ **المجتمع والحكم والدين بالمغرب في نهاية العصر الوسيط**، تحرير وتعريب محمد القبلي، تقديم كلود كاهين (الرباط: مطبعة المعارف الجديدة؛ المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، 2017).

5 القبلي (إشراف)، ص 145.

6 من النماذج، على سبيل المثال لا الحصر، ينظر: أبو الوليد محمد بن رشد، **كتاب الكليات** (العرائش: منشورات معهد الجنرال فرانكو للدراسات والأبحاث العربية الإسبانية، 1939).



القضية الرابعة: يبين الكتاب أن البربر خضعوا لدراسات عديدة، في إطار سياسة تعارضهم مع العرب (المدرسة الكولونيالية)، التي أصرّت على ارتباطهم بالأوروبيين. لقد أضاف الكتاب أنه ما دام يجري استنكارٌ لهذا الخطاب، في سياق نقد ما بعد الاستعمار، رغم أن هذا التأريخ لا يخلو من الغموض والتردد بشأن مكانة البربر في تاريخ المغارب، فإنّ المشكلة تبرز في بعض الأحيان مع ادعاءات الهوية المتناقضة، التي هي أساس الخطاب التاريخي في العصور الوسطى، والتي أظهرها بوضوح اختيار عبد الله العروي الذي قال: "إنّ عدم وجود أي شيء" يكون أفضل لربط المنطقة بقطب شرقي[7].

خاتمة

يُعدّ كتاب **البربر بين المغرب والمشرق** درسًا أكاديميًّا ومعرفيًّا، وهو بمنزلة مراجعة نقدية للمؤلفات القروسطية المشرقية والمغاربية والأندلسية، والكولونيالية والأنثروبولوجية، والدراسات الراهنية، المتعلقة بتاريخ البربر وأصلهم، وعلاقتهم بالشرق. وهذا الكتاب سريع الإيقاع، ومليء بالمعلومات التاريخية الجادة التي يسعى الباحث في شؤون الماضي للحصول عليها، وهي ذات طابع جريء، ولها العديد من الميزات التأويلية، ويمكن اعتبار ما ورد فيه من دراسات مشاريع بحثيّة مهمة تحتاج إلى الدراسة والتمحيص.



7 العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ص 44-46.



المراجع

العربية

ابن رشد، أبو الوليد محمد. **كتاب الكليات**. العرائش: منشورات معهد الجنرال فرانكو للدراسات والأبحاث العربية الإسبانية، 1939.

بوباية، عبد القادر. **البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري**. بيروت: دار الكتب العلمية، 2011.

بوتشيش، إبراهيم القادري. **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**. بيروت: دار الطليعة، 1998.

جعيط، هشام، **الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي**. بيروت: دار الطليعة، 1984.

________. **الكوفة: نشأة المدينة العربية الإسلامية**. بيروت: دار الطليعة، 1986.

________. **الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر**. بيروت: دار الطليعة، 1992.

________. **تأسيس الغرب الإسلامي**. بيروت: دار الطليعة، 2004.

حقي، محمد. **البربر في الأندلس**. الدار البيضاء: شركة النشر والتوزيع المدارس، 2001.

العروي، عبد الله، **مجمل تاريخ المغرب**. بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2009.

العلوي، مولاي التقي. **أصول المغاربة**. علال ركوك وحفيظة الهاني (إعداد وإخراج). الرباط: منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، 2016.

القبلي، محمد (إشراف). **تاريخ المغرب: تحيين وتركيب**. الرباط: مطبعة عكاظ الجديدة؛ المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، 2011.

المجتمع والحكم والدين بالمغرب في نهاية العصر الوسيط. تحرير وتعريب محمد القبلي. تقديم كلود كاهين. الرباط: مطبعة المعارف الجديدة؛ المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، 2017.

الأجنبية

Valérian, Dominique (dir.). *Islamisation et arabisation de l'Occident musulman médiéval (VIIe-XIIe siècle)*. Paris: Éditions de la Sorbonne, 2011.



DOI: https://doi.org/10.31430/TYPR3683 :الرقم التعريفي

محمد حبيدة | Mohamed Houbaida*

الكتابة التاريخية التركية بعيون مغربية

Turkish Historical Writing Through Moroccan Eyes

المؤلف: عبد الرحيم بنحادة.

عنوان الكتاب: إستوغرافيات تركية: في كتابة الأتراك لتاريخ الدولة العثمانية (1860-1973).

الناشر: الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

سنة النشر: 2022.

عدد الصفحات: 479.

* أستاذ التاريخ في جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب.

Professor of History at Ibn Tofail University, Keneitra, Morocco.

houbaidamohamed@yahoo.fr



كتب عبد الرحيم أبو حسين، أستاذ التاريخ العثماني بالجامعة الأميركية في بيروت، ما يلي: "يختلف كتاب [عبد الرحيم بنحادة] في تناوله لهذه الدولة (العثمانية) عن معظم ما كُتِب عن التاريخ العثماني في اللغة العربية؛ إذ إن تناوله لها ابتعد عما درج عليه المؤرخون الذين كتبوا بالعربية، من إدانة للماضي العثماني أو الإشادة به، كما ابتعد عن الأسلوب السردي للأحداث السياسية والعسكرية، وقدّم كتابًا يعالج التاريخ العثماني عبر محاور معينة" (تقديم، ص 21). وإذا كان عبد الرحيم بنحادة قد أنتج عملًا نوعيًّا؛ فلأنه راكم تجربة كبيرة في ميدان البحث التاريخي راوحت بين تاريخ المغرب وتاريخ تركيا، وَلِسعة اطلاعه على الأرشيفات والأدبيات ذات الصلة بتاريخ العثمانيين والأتراك، ومعرفته باللغات التركية والفرنسية والإنكليزية، ولتمكُّنه من أدوات الصنعة التاريخية التي تجعل المؤرخ، كما يقول المؤرخ البريطاني روبين جورج كولينغوُود في كتابه **فكرة التاريخ**، يرتقي إلى "التبصر فيما يشتغل به من قضايا تاريخية"[1].

يأتي هذا الكتاب بعد اختمار طويل؛ إذ سبق للمؤلِّف، الذي اشتغل في السابق أستاذًا للتاريخ في جامعتي فاس والرباط بالمغرب، وهو يشتغل حاليًّا في معهد الدوحة للدراسات العليا، ورئيسَ تحريرٍ لمجلة **أسطور** للدراسات التاريخية، أن أصدر عددًا من الأبحاث المرتبطة بالتاريخ والثقافة العثمانيين، وخاصة **المغرب والباب العالي من منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر** (1998)؛ **والعثمانيون: المؤسسات والاقتصاد والثقافة** (2008)؛ **وجنة الكفار: سفير عثماني في باريس 1721** (2018). ومعنى ذلك أنه انتقل في هذه التجربة الجديدة من التاريخ باعتباره واقعًا وثقافةً إلى التاريخ من منظور الكتابة والتصور والمنهج. وهذا الانتقال هو الذي يفتح للقارئ أُفقًا واسعًا على التيارات التاريخية، والتحولات الحاصلة في الهوية التركية، والاستعمالات السياسية للماضي. وقد تطلب هذا العمل التركيبي، من دون شك، سنوات من البحث والتحرير، لكن النتيجة ذات أهمية، ومن شأنها أن تغني المكتبة العربية.

في البداية، يستدعي هذا الكتاب عرض مجموعة من الملاحظات:

1. أن يخوض مؤرخ مغربي في بحث يهم تاريخًا غير تاريخ المغرب، فهذا في حد ذاته أمرٌ مهمّ جدًّا، مقارنةً بأغلبية الأبحاث التي ينجزها الباحثون المغاربة، والتي تصب في مجرى التاريخي المغربي، مع العلم أن الانفتاح على تاريخ الآخر يكتسي أهمية قصوى، لأنه يمكِّن من رؤية تاريخ الذات في المرآة، ولا يتيح للباحث فرصةَ الاطلاع على تاريخ الآخر فحسب، بل إمكانيةَ تلمّس المناهج والرؤى المستعملة في كتابته أيضًا، إضافة إلى اللغة التي يُكتب بها هذا التاريخ؛ ما يعطي الدراسة سمةً مميَّزة. ويؤكد تاريخ التاريخ في تركيا هذا الطرح؛ إذ نبَّه المؤلف إلى أن تاريخ الآخر، المتمثل في التاريخ الأوروبي، شكَّل بالنسبة إلى المؤرخين الأتراك واجهةً من واجهات تجديد الكتابة التاريخية.

2. فيما يتعلق بالمرحلة المدروسة في هذا الكتاب، يضع التاريخُ العثماني التاريخَ العربي على المحك، وخاصة مرحلة نهاية القرن التاسع عشر ومطلع العشرين؛ فقد افترقت السُّبل بين القاهرة وإسطنبول فيما يتصل بالتعامل مع الحداثة القادمة من أوروبا، وذلك حينما سعت النهضة العربية إلى التوفيق بين الماضي الإسلامي والحاضر المشبع بالأفكار والتقنيات الغربية، ونحَت القومية التركية مع "تركيا الفتاة"، ثم مع جمهورية مصطفى كمال، في اتجاه "فتح الباب على مصراعيه" أمام هذه الأفكار والتقنيات، وتحوّل الدولة العثمانية إلى دولة تركية، أدّى التاريخ دورًا كبيرًا في بناء هويتها.

3. يُستحضر في هذا السياق أيضًا الاحتكاك المبكر الذي أبان عنه المؤرخون الأتراك، من الوجهة الإستوغرافية، مع الكتابات التاريخية الأوروبية، وهو يظهر في محطات كثيرة، منها النقاش الذي أثاره مؤسس مجلة **الحوليات**، لوسيان فيفر، في تفاعله مع كتاب محمد فؤاد كوبرولي **قيام الدولة العثمانية**، الذي هو في الأصل مجموعة من المحاضرات كان قد ألقاها في جامعة

1 R. G. Collingwood, *The Idea of History*, Revised Edition, Jan van der Dussen (ed.) (Oxford: Oxford University Press, 1994 [1946]), p. 8.



السوربون، وذلك في السنة نفسها التي صدر فيها هذا الكتاب (1937)[2]، ومنها أيضًا تلقّي المؤرخين الأتراك لأطروحة فيرناند بروديل، التي صدرت عام 1949 كتابًا عنوانه **البحر المتوسط والعالم المتوسطي زمن فيليب الثاني**، بالنقاش والشرح وإبداء الملاحظات، كما صنع عمر لطفي بركان في القراءة النقدية التي أنجزها عن هذا الكتاب عام 1954، والتي نُشرت في مجلة **الحوليات**، بعنوان **الحوض المتوسط لفيرناند بروديل بعيون إسطنبول**[3].

تناول عبد الرحيم بنحادة الكتابة التاريخية في تركيا من زوايا متعددة، وبلور هندسةً ارتسمت في أربعة فصول متدرجة من الوجهة الزمنية والمعرفية؛ إذ تطابق السياقات السياسية والاجتماعية المتغيرة التي جعلت التاريخ يجيب عن أسئلة هذه السياقات على نحو متغير أيضًا:

1. الكتابة التاريخية في القرن التاسع عشر حتى مطلع العشرين، أي إلى ثورة 1908، وهي المرحلة التي نعتها المؤلِّف بِـ "التاريخ زمن التحديث والتنظيمات" (1798-1908)؛ إذ استطاعت هذه التاريخية فتح آفاق غير معهودة في التأليف التقليدي، من حيث حضور الحس النقدي وتوسيع دائرة المصادر والسعي إلى "قول الحقيقة"، علمًا أن هذه المرحلة اتسمت بالعمل الصحافي والإقبال على استعمال الطباعة.
2. التحولات التي تعلقت بهذه الكتابة ما بين 1908 و1924، وهي معروفة بالمرحلة الدستورية الثانية؛ فقد تمأْسَس التاريخ وتمهْنَن، وسادت أفكار قومية، وزادت إمكانات الانفتاح على العطاءات الأوروبية؛ ما مكّن من ظهور أولى الأعمال التركيبية المكتوبة بِـ "طريقة حديثة".
3. الكتابة التاريخية في ظل الجمهورية الأولى، أي في عهد مصطفى كمال أتاتورك (1924-1938)، التي عرفت خلالها تركيا إصلاح الجامعة وإصلاح اللغة بتبنّي الحرف اللاتيني. وهذه المرحلة هي التي ينعتها المؤلف بِـ "التاريخ في أسر الجمهورية"؛ إذ جرى تحوّلٌ في الاهتمام من تاريخ العثمانيين إلى تاريخ الأتراك، وأصبح "التاريخ أداةً لتبرير الحاضر" وتعزيز الهوية.
4. مرحلة إعادة تملُّك التاريخ العثماني أو "العودة إلى الواجهة" (1938-1973)؛ إذ ظهرت كراسيّ عديدة همّت هذا التاريخ، وأخذت العناية بالأرشيف العثماني أبعادًا كبيرة، وبرز مؤرخون مرموقون ذوو صيت عالمي أيضًا.

وهذه الفصول الأربعة مبيَّنةٌ بتعبيرات وتسميات موفَّقة تضع القارئ في صورة التحول الذي شهدته الكتابة التاريخية بالعلاقة مع التطورات السياسية والاجتماعية والثقافية. ومن هذا الكم الهائل والغني من المعطيات والتحليلات التي قدمها المؤلِّف بلغة متينة وأسلوب انسيابي، يمكن الاحتفاظ بهذه الثلاثية التي بدت لي ذات أهمية قصوى، مقارنةً بتجارب إستوغرافية أخرى.

أولًا: اللغة والترجمة والهوية التركية

ما يثير الانتباه في التجربة التركية/ العثمانية هو الاهتمام باللغات الأوروبية وترجمة أعمال الأدباء والمفكرين والمؤرخين الأوروبيين منذ القرن التاسع عشر. وخير مثال على هذه المرحلة المبكرة أحمد وفيق (1823-1891) الذي درَس في باريس ستّ

2 Lucien Febvre, "Aux origines de l'Empire ottoman," Compte rendu, *Annales d'histoire économique et sociale*, vol. 9, no. 43 (1937), pp. 100-101.

في هذه القراءة يصف لوسيان فيفر الكِتابَ بأنه "رائع"، ويصف صاحبَه بالعالِم "الذي يحظى بالتقدير لدينا [أي لدى المؤرخين الفرنسيين] بفضل أعمالِه والدروسِ التي ألقاها بنجاح في السوربون"، ينظر: .Ibid., p. 100

3 O. L. Barkan, "La 'Méditerranée' de Fernand Braudel vue d'Istamboul," *Annales. Economies, Sociétés, Civilisations*, 9ème année, no. 2 (1954), pp. 189-200.



سنوات، وكان عارفًا بعدد من اللغات الحية (الفرنسية والإيطالية والألمانية) والكلاسيكية (اللاتينية والإغريقية). ولم تهتمّ الترجمة إلى اللغة العثمانية في هذه المرحلة بدراسات الأوروبيين عن تاريخ العثمانيين، خاصة تلك التي استندت كثيرًا إلى الأرشيف العثماني فحسب، بل اهتمت أيضًا بالأعمال المرتبطة بتاريخ أوروبا، ومناهج البحث التاريخي الأوروبي، على النحو الذي تمثّل في تجربة المؤرخ علي رشاد الذي ترجم عددًا من الدراسات المهمة، مثل تلك التي جادت بها قريحة كبار المؤرخين الفرنسيين الوضعانيين، وفي مقدمتهم شارل سينيوبوس وإرنست لافيس وألفريد رامبو، مع العلم أن حركة الثقافة والترجمة كانت قد شهدت رواجًا كبيرًا خلال القرن التاسع عشر في صفوف المدرِّسين والصحافيين والموظفين والدبلوماسيين. لقد "كان التاريخ بالترجمة، كما يقول صاحب الكتاب، مدخلًا مهمًا لتوجه جديد في الكتابة التاريخية التركية" (ص 71). وهذا التوجه الجديد المنفتح على تاريخ العالم هو الذي تواصل مع عدد من المؤرخين خلال القرن العشرين.

مكّن هذا الانفتاح على الإنتاجات المعرفية الأوروبية، بواسطة اللغة والترجمة، من اكتساب أدوات منهجية جديدة في تناول الماضي، ومراجعة عدد من القوالب التاريخية، مثل التحقيب؛ إذ كان الأتراك، في الأصل، يفهمون تاريخهم انطلاقًا من التمييز بين مرحلتَي ما قبل الإسلام وما بعده، فصاروا يعتمدون التحقيب الأوروبي القائم على أساس عصر قديم (إلى حدود سقوط روما) وعصر وسيط (ممتد من سقوط روما إلى سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين) وعصر "حديث" (حتى القرن التاسع عشر)، تلك الحقب التي نعتها أحمد حلمي بِـ "الأزمنة المتقدمة" و"الأزمنة المتوسطة" و"الأزمنة الحديثة". وقد مكّن هذا الانفتاح من ظهور "تواريخ عالمية" جديدة، متحررة من الرؤية الإسلامية، لأنها كُتبت بنفَس مستلهم من التصور الأوروبي، كما يظهر من ما أصدره أحمد وفيق عام 1863، **حكمت ء تاريخ** (فلسفة التاريخ)، وأحمد حلمي ومحمد مراد، على التوالي، في الأعوام 1866-1875، و1880-1882، ضِمن العنوان نفسه **تاريخ عمومي** (التاريخ العام)، ورفعت أفندي عام 1879 الذي أصدر **نقد التواريخ**، فضلًا عن مؤلفين آخرين كانوا يتقنون اللغات الأوروبية، وخاصة اللغة الفرنسية التي أثّرت حينئذ في الأتراك وغيرهم من الأمم، بالنظر إلى ما اشتملت عليه المؤلفات المكتوبة بهذه اللغة من أفكار مرتبطة بفلسفة الأنوار، وبالتحولات التي أحدثتها الثورة الفرنسية.

واستمرت هذه الدينامية في المرحلة الجمهورية حينما تحولت الدولة العثمانية إلى دولة وطنية تركية، خاصة مع التطور الذي لحق المؤسسات التي اعتنت بها الدولة الجديدة بقيادة مصطفى كمال أتاتورك، في سياق تعزيز الهوية التركية؛ إذ جرى التشديد على التاريخ الوطني المرتبط بِـ "تاريخ أتراك الأناضول"، حتى إنه هيمن على الدراسات التاريخية التركية خلال الثلاثينيات من القرن العشرين، وأفرز توجهًا سعى إلى القطع مع الماضي العثماني وتغيير الاهتمام نحو "البحث عن الأصول التركية"، واعتبار تركيا مجالًا للبحث التاريخي. وظهرت أيضًا مجلة **توركيات** التي صدر عددها الأول عام 1925 بإشراف المؤرخ كوبرولي، والتي عملت على تعزيز الدراسات التركية، وترجمة الأبحاث المكتوبة باللغات الأجنبية، والتعريف بالوثائق ونشرها، ومراجعة المؤلفات، خاصة تلك الصادرة في أوروبا والمهتمة بتركيا.

ظهرت هذه الدينامية منذ "المرحلة الدستورية الثانية" (1908-1924)؛ إذ تمأسس التاريخ، بعد ثورة 1908 وتوجهات جمعية الاتحاد والترقي السياسية، فظهر باحثون جدد ساهموا في تدفق الكتابة التاريخية، من بينهم أحمد أغا أوغلو الذي درَس في جامعة موسكو وساهم في ترسيخ الدرس الاستشراقي، ونشأت جمعياتٌ (مثل "جمعية التاريخ العثماني")، ومجلاتٌ متخصصة (**مجلة جمعية التاريخ العثماني** التي صدر عددها الأول عام 1910، و**مجلة تورك يوردي** (الوطن التركي) التي أُسست عام 1911، ونشأت أيضًا جامعاتٌ (دار الفنون) كان لها كذلك تأثير عميق في مهْنَنة التاريخ بعد أن كان من اختصاص "القلمية".

كانت اللغة حاضرة بقوة في هذه التجارب. ومع إحداث الجامعة عام 1900، انفتح الأتراك على أوروبا انفتاحًا علميًّا كبيرًا؛ إذ جرى إرسال الطلاب إلى ألمانيا، خصوصًا، لتلقي المعارف ونقلها، إضافة إلى مجيء عدد من المؤرخين الألمان الذين درَّسوا في الجامعة



و"استمروا في أداء هذا الدور في الثلاثينيات من القرن العشرين" (ص 129)، ومنهم يوهان هاينريش مورتمان الذي درّس المناهج التاريخية، وليمان هاوت المتخصص في التاريخ القديم، وعالم الآثار إيكهارد أونغر. والجدير بالذكر أن هذه المواد دُرّست بالألمانية بحضور مترجمين إلى اللغة التركية، وأن عددًا من الباحثين نشروا أبحاثًا ذات طبيعة منهجية مترجمة من اللغات الأوروبية؛ ما مكّن من خلق نقاش فكري كبير حول أهمية الدراسات التاريخية وتطورها وسُبل تجاوز الكتابة الإخبارية؛ لكونها دراسات مرتبطة بِـ "تركيب فلسفي وأدبي مبني على التوثيق" (ص 132)، وليست مرتبطة باستعراض الأحداث والشخصيات.

وتعززت هذه الرؤية في العهد الجمهوري حينما نهج مصطفى كمال سياسة تحديث هياكل النظام التعليمي، فحوّل دار الفنون إلى جامعة إسطنبول التي حضرت فيها اللغة والمعرفة الألمانية حضورًا قويًّا استمر حتى السبعينيات من القرن العشرين. وتزامن هذا الحضور مع إصلاح اللغة، بلتْنَنة الحروف والتخلي عن الحرف العربي، المعروف في الأدبيات التاريخية بِـ "الثورة اللغوية". ويرى المؤلف أن ما عاشته تركيا من تحولات على مستوى اللغة يشكّل امتدادًا للتطور اللغوي الذي شهدته أوروبا والعالم في القرن التاسع عشر، باعتباره قرن "صناعة اللغات" على المستوى "البنائي والمعجمي" و"تطوير المنتوج المكتوب بشكل عام" (ص 195). وقد أدّت هذه الثورة اللغوية دورًا كبيرًا في تطوير حركة الترجمة؛ إذ نُقلت كرّاسات وكتب كثيرة من اللغات الأوروبية إلى اللغة التركية، وإن كانت ترجمة "الأعمال الأدبية والفلسفية الغربية الخالدة" لم تبدأ إلا في خمسينيات القرن العشرين.

وساهمت جامعة أنقرة التي تأسست قبيل الحرب العالمية الثانية، وجامعات جديدة أخرى، وأيضًا مؤسسة التاريخ التركي، والعناية التي أولتها الدولة للأرشيف، ذلك أنها جعلته رهنًا لإشارة الباحثين، في تعزيز الدراسات التاريخية بإحداث كراسي تهم مختلف التخصصات والحقب، ونشر الأعمال التاريخية، وكذلك الترجمات التي همّت كتب التاريخ من اللغات الفرنسية والإنكليزية والألمانية إلى اللغة التركية. وفي كل هذه العمليات، استطاع المؤرخون الأتراك توجيه الدراسات بأفكارهم وتكوينهم المرتبط في معظم الأحيان بالدراسة في الخارج وإتقان اللغات الأوروبية؛ كما هو الحال بالنسبة إلى عفت إينان التي تعلمت اللغة الفرنسية في لوزان، ويوسف أكجورا الذي درَس في باريس وكان على دراية بالنقاشات المعرفية والمنهجية الدائرة بين المؤرخين الوضعانيين الفرنسيين خلال القرن التاسع عشر، وكوبرولي المهتم باللغات الأوروبية، وخاصة الفرنسية؛ إذ ترجم عددًا من الأعمال إلى اللغة التركية، وأنور ضياء قرال الذي تابع دراساته في التاريخ في فرنسا تحت إشراف المؤرخ الوضعاني البارز شارل سينيوبوس، وعمر لطفي بركان الذي درَس التاريخ الاقتصادي بجامعة ستراسبورغ بداية من عام 1920، فهذه الجامعة كانت المعقل الرئيس لمجموعة من المؤرخين المجددين الذين أحدثوا تيار الحوليات، وقد جمعت أيضًا بين بلوسيان فيفر ومارك بلوك وموريس هالفاكس، إضافة إلى خليل إنالجيك، وهو المؤرخ الذي "اخترق الآفاق"، وفق تعبير المؤلِّف، لكونه درّس في جامعات عالمية، وحاز عضوية أكاديميات علمية في تركيا والولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا.

ثانيًا: تاريخ الآخر واجهةً من واجهات التجديد والوعي التاريخيين

تأثر المؤرخون الأتراك تأثرًا كبيرًا بتاريخ فرنسا خلال القرن التاسع عشر. ويتجلى ذلك في اطلاعهم على ما كتبه الفرنسيون في عصر الأنوار وحول الثورة الفرنسية. غير أن الانفتاح على الغرب يعود إلى القرن الثامن عشر لما أرسلت الدولة العثمانية بعثات سفارية كثيرة إلى مختلف بلدان أوروبا قصد الاطلاع على منجزاتها والنهل منها. لكن المخاض السياسي الذي عاشه العثمانيون في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع العشرين، مع تجربة 1876 الدستورية وثورة تركيا الفتاة (1908)، مثّل سياقًا سياسيًّا وثقافيًّا ملائمًا، حصل فيه تفاعل كبير بين المثقفين الأتراك الشبان الذين درَسوا في باريس، وبين الأفكار الثورية والقومية الرائجة في فرنسا، فقد تشكّل



لديهم وعي تاريخي بإرادة التغيير، فنقلوا معهم هذه الأفكار ووضعوها على محك الواقع؛ من خلال ما أبانوا عنه من حيوية سياسية في معترك الأحداث، وما نشروه في شكل مقالات وترجمات ومؤلفات. وهذا ما يفسر اهتمام عدد من المؤرخين الأتراك بتاريخ الثورة الفرنسية التي كانت "بمنزلة أداة استعملت للتحضير لثورة 1908" (ص 172). ومن هؤلاء المؤرخين علي كمال، وديران كليكيان، وعلي رشاد. فقد كتب كمال **رجال الثورة**، فاستعرض سِيَرهم وأفكارهم وتوجهاتهم، معتبرًا الثورة الفرنسية "حادثًا فارقًا في تاريخ البشرية جمعاء"، و"مختبرًا ليس فقط لتعلم تاريخ فرنسا، ولكن أيضًا تاريخ الإنسانية" (ص 175). وألّف كليكيان كتابين في تاريخ أوروبا، **التاريخ السياسي العام** الذي تناول فيه القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، و**أوروبا الاجتماعية والسياسية في القرن التاسع عشر**، الذي تحدث فيه عن تاريخ فرنسا، وخاصة عن أعمال فلاسفة الأنوار الفرنسيين، مثل شارل لوي دي سيكوندا (مونتيسكيو)، وفرانسوا ماري آرُوويه (فولتير)، وجان جاك روسُّو، وعن الثورة الفرنسية باعتبارها حدثًا سياسيًّا بارزًا "يندرج ضمن النضال من أجل الحريات السياسية والاجتماعية والبناء السياسي للأمم، ومصدرَ إلهامٍ أساسي" (ص 177). أمّا علي رشاد، الذي يعتبر "مؤرخ الثورة الفرنسية بامتياز"، فقد خصص كتابيه **تاريخ الحاضر**، و**مفصل ومصور فرانسه اختلال كبيري تاريخي** (التاريخ المفصل والمصور لتاريخ الثورة الفرنسية الكبرى) لأحداث ثورة 1789، وما أعلنته من مبادئ وحقوق، وما ولَّدته من نزعة وطنية وجمهورية.

ومن ناحية أخرى، وخاصة عقب إعلان مصطفى كمال الجمهورية التركية عام 1923 وتراجع الاهتمام بتاريخ الإمبراطورية العثمانية، نهجت الدولة الجديدة في برامجها التعليمية سياسة تقضي بإعادة بناء الوعي التاريخي عبر ربط الصلة بتاريخ أوروبا والعالم، فجرى التركيز على دور الأتراك في الحضارات العالمية، ومساهمتهم في الانتقال من القرون الوسطى إلى الأزمنة الحديثة، وعلى تاريخ النهضة والإصلاح الديني، والثورات الأوروبية، وتاريخ روسيا، والاستعمار في أفريقيا وآسيا، والحرب العالمية الأولى. وجرى الاهتمام كذلك بِـ "مفهوم التاريخ وأهميته وعلاقته بالعلوم الأخرى" (ص 211)

ولعل ما أفرزه هذا الانفتاح على تاريخ أوروبا، وفرنسا بوجه خاص، متمثّل في الرؤية الجديدة التي صارت تفعل فعلها في طريقة فهم المؤرخين الأتراك للتاريخ، ألا وهي الصلة الموجودة بين ما هو سياسي وما هو اجتماعي. حينما قال كليكيان :"في القرن التاسع عشر أصبحت آمال الشعب تدخل معترك السياسة، ولم تعد السياسة ساحة لتدافع الدبلوماسيين" (ص 177)، فإنه وقَّع على تحول كبير في منظور الكتابة التاريخية التركية في مطلع القرن العشرين. وستتسع هذه الرؤية، التي صارت تأخذ في الحسبان أهمية الفعل الاجتماعي ودور الأفكار في بلورة هذا الفعل، في أواسط هذا القرن بفضل انفتاح جيل جديد من المؤرخين على مناهج مدرسة الحوليات الفرنسية، كما يظهر ذلك لاحقًا.

ثالثًا: تطور تيارات البحث التاريخي

بعد مرحلة من الانحسار عرفتها الدراسات التاريخية المرتبطة بالتاريخ العثماني خلال المرحلة التي كانت فيها تركيا تحت حكم مصطفى كمال، انتعشت هذه الدراسات وتطورت بفضل الجهود الكبيرة التي بذلها عدد من المؤرخين الأتراك، وفي مقدمتهم كوبرولي الذي تكوّن على يده جيل من الباحثين الذين اشتغلوا وفقًا لمناهج جديدة. ويرى المؤلف أن التأثير الذي مارسه كوبرولي أنجب تيارين كبيرين؛ أحدهما تيارٌ وضعاني ارتبط بالوثائق وسرد الوقائع، على النحو الذي يظهر مع إسماعيل حقي أوزون جارشلي، وأنور ضياء قرال، وأحمد وفيق، أما الآخر فهو تيارٌ مجدِّد انفتح على المدارس التاريخية الغربية، وقد مثّله بصفة رئيسة عمر لطفي بركان وخليل إنالجيك، مع الأخذ بعض القواسم المشتركة بين التيارين في الحسبان؛ لكون جميع هؤلاء المؤرخين اهتموا بنشر الوثائق (بطريقة نقدية وتحليلية)، وكتبوا تاريخًا تركيبيًّا. وإذا كان التيار الأول الذي اهتم بالتاريخ السياسي والدبلوماسي قد ركز على المرحلة المتأخرة



من الدولة العثمانية، فإن التيار الثاني الذي وضع في الواجهة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، سلط الضوء بالخصوص على المرحلة الممتدة من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر.

وما أثار انتباهنا أكثر، مقارنةً بأهمية الدراسات من الناحية المنهجية، هو التيار الثاني الذي احتك بمدرسة الحوليات وتأثر بها ودخل في حوار معها. وهذا ما يتبيّن من تجربة مؤرخين كبيرين، هما عمر لطفي بركان وخليل إنالجيك.

تمكن عمر لطفي بركان، بفضل دراساته العليا في جامعة ستراسبورغ على يد مؤسسي مدرسة الحوليات، بلوك وفيفر، في نهاية عشرينيات القرن العشرين، من الانخراط في التاريخ الاقتصادي. وفي جامعة إسطنبول درّس التاريخ الاقتصادي، بجوار الألماني ألكسندر روستوف، وشرع في البحث في موضوعات همّت في البداية **مسألة ملكية الأرض في بدايات الإمبراطورية العثمانية**، لينتقل فيما بعد من هذا الموضوع، الذي تزامن مع إقبال الدولة على الإصلاح الزراعي، إلى التاريخ الديموغرافي. ويعتبر اقتحام ميدان التاريخ الديموغرافي بالغ الأهمية بسبب السّبق الذي حققه هذا المؤرخ حتى من خلال مقارنته بمؤرخي مدرسة الحوليات الفرنسيين الذين أنتجوا دراسات مهمة جدًّا في هذا الموضوع خلال الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين. فقد نشر عمر لطفي بركان عام 1940 مقالة عنوانها **الدفاتر الإحصائية المتعلقة بأعداد السكان وتقييد الأراضي**، وواصل البحث في الموضوع نفسه خلال الخمسينيات، فاتحًا نقاشًا مثمرًا مع الإستوغرافيا العالمية، وعيًا منه بأن "إحدى أهم الطرق في التعامل مع تاريخ الإمبراطورية العثمانية بمنهجية جديدة وإيجاد مكانة لها في التاريخ العالمي، يكمن في تكريس حقل بحثي يساهم في إماطة اللثام عن الكثير من جوانب التاريخ العثماني، وهذا الحقل البحثي هو: الديموغرافيا التاريخية" (ص 363-364). وفضلًا عن ذلك، اهتم بالتاريخ المالي، فأنجز سلسلة من الدراسات تناولت القرنين السادس عشر والسابع عشر، دخل إثرها في نقاش مع بروديل الذي كان قد اهتم بتأثير المعادن النفيسة في اقتصاديات بلدان الحوض المتوسط خلال القرن السادس عشر، ليخلص إلى نتيجة أساسية مفادها أن "تخفيض العملة التركية (الأقجه) عام 1566 يشكّل أهم مؤشر على ضعف الدولة العثمانية" (ص 367). وقد أسس بركان، بفضل هذه الأبحاث، توجهًا كبيرًا في التاريخ الاقتصادي سار عليه فيما بعد خليل إنالجيك وشوكت باموك.

أمّا المؤرخ البارز الثاني الذي يمثل تيار التجديد المنهجي، فهو خليل إنالجيك الذي اعتبره مركز كامبريدج الدولي للبيوغرافيا من بين ألفَي باحث مؤثّر في ميدان العلوم الاجتماعية في العالم، وكتب عنه عالم الاجتماع الأميركي إيمانويل والرشتاين هذه العبارات: "اليوم يُقرأ خليل إنالجيك ويُدرَّس في جامعات عالمية [...] إنالجيك جلب منهجيته ومعرفته إلى مهنة التأريخ، هو عَلَمٌ مميَّز تتفق عليه الدوائر العلمية. تعلم منه مئات الطلاب الذين ينتمون إلى مدرسة إنالجيك، القدرة ليس فقط على استخدام المصادر الأولية، وفحص الوثائق والمخطوطات، ولكن أيضًا كتابة التاريخ من العديد من الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية" (ص 381). وإذا كان برنارد لويس قد اعتبر كوبرولي ولطفي بركان "مؤرخَين كبيرَين في زمنهما"، وإنالجيك "مؤرخًا كبيرًا لكل الأزمنة" (ص 382)، فلأن حياة إنالجيك كانت مديدة (1916-2016)، وممتلئة بالتاريخ إلى حد التخمة؛ ففي نهاية حياته وقد بلغ من الكِبر عتيًّا، أسس قسم التاريخ في جامعة بلكنت الحديثة النشأة، عام 1992، وأشرف على إعداد مجلدين ضخمين عن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي العثماني في الفترة 1300-1900، وعلى كتاب عن الحضارة العثمانية صدر باللغتين التركية والإنكليزية.

لكن قبل هذه المرحلة التي يسميها المؤلِّف "المرحلة التركية الثانية" (1992-2016)، كان إنالجيك قد أنجز أبحاثًا مرجعية عن تاريخ العثمانيين، في طليعتها الكتاب الذي صدر في لندن عام 1973 بعنوان **الإمبراطورية العثمانية: العصور الكلاسيكية، 1300-1600**، الذي لا محيد عنه بالنسبة إلى الدارسين والمتخصصين، مع العلم أنه كان قد تلقّى تكوينه بجامعة أنقرة قبل أن



يرحل إلى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأميركية؛ إذ اطلع على الأرشيفات ووقف على النقاشات الدائرة في أوساط المستشرقين والمؤرخين المتخصصين في التاريخ العثماني، وقد التقى في فرنسا فيرناند بروديل خصوصًا.

وتكمن أهمية هذا الكتاب في نفَسه التركيبي الذي ميَّزه من كثير من الدراسات التي كانت تعج بها ساحة التأليف والنشر، وفي مراجعة الصور النمطية التي هيمنت على أبحاث الأوروبيين عن العثمانيين أيضًا. وفي هذا العمل، وأعمال أخرى كثيرة، كانت مدرسة الحوليات حاضرة بقوة، ويظهر ذلك في مفهوم الزمن الطويل الذي اقتبسه من بروديل ووظّفه في دراساته عن البنى الاجتماعية والاقتصادية؛ من هياكل عقارية، ومستويات ديموغرافية، وأنشطة تجارية، وتوترات اجتماعية، وهو ما جعلها "ثورة في الدراسات العثمانية" وفقًا لعبارة المؤلِّف (ص 396).

قدّم عبد الرحيم بنحادة عملًا تركيبيًّا، ومرجعًا أساسيًّا بالنسبة إلى كل باحث في تاريخ التاريخ. لقد فكّك الكيفية التي فهم بها الأتراك تاريخهم، وبيَّن التطور الذي حصل في هذا الفهم؛ من تصور تقليدي محكوم بالقوالب الإسلامية المعمول بها في التحقيب وذِكر الأحداث والتعامل مع المستندات، إلى رؤية جديدة مستلهمة من التجارب الأوروبية، تقضي بتفحص الوثائق ونقدها، ولم يكن الاهتمام مركزًا على الأحداث السياسية والعسكرية فحسب، بل شمل أيضًا تاريخ المؤسسات والمجتمع والاقتصاد والثقافة، وذلك ضمن دينامية من المخاض والتحول السياسيين اللذين عرفتهما تركيا، والممتدين خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. وفي تطور هذا الفهم، اضطلعت الجامعات، أساسًا، ومختلف الجمعيات والمؤسسات الثقافية والعلمية، بدور كبير في مهْنَنة التاريخ وابتكار الهوية، وفي تكوين أجيال متعاقبة من المؤرخين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة تحصين البحث التاريخي وتطويره ووضعه على محك التجارب العالمية. ومثل هذا الكتاب من شأنه أن ينير الطريق للباحثين العرب من أجل الوقوف على تجارب إستوغرافية أخرى في إيران والهند والصين وأفريقيا وباقي المجالات غير الأوروبية، لكن ذلك يكون بالأدوات واللغات التي تمكّن من بلوغ نتائج ذات أهمية، فضلًا عن تقديم إضافات نوعيّة.





المراجع

Barkan, O. L. "La 'Méditerranée' de Fernand Braudel vue d'Istamboul." *Annales. Economies, Sociétés, Civilisations*. 9ème année, no. 2 (1954).

Collingwood, R. G. *The Idea of History*. Revised Edition. Jan van der Dussen (ed.). Oxford: Oxford University Press, 1994 [1946].

Febvre, Lucien. "Aux origines de l'Empire ottoman." *Annales d'histoire économique et sociale*. vol. 9, no. 43 (1937).

خالد زيادة

مصر: الثقافة والهوية



صدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات كتاب **مصر: الثقافة والهوية**، وهو من تأليف خالد زيادة، وتتركز فصوله التسعة في بحث السياسة المصرية منذ بداية القرن التاسع عشر، مع ظهور ملامح المرض في جسد الإمبراطورية العثمانية وازدياد نفوذ الدول الأوروبية، كما يتناول الكتاب انفتاح الثقافة والمثقفين على الأفكار الواردة، وعلاقة الثقافة بالسياسة، وذلك بعد استعراض تاريخي لعلاقة المصريين بالسلطة والعسكر في حقبات تغيُّر الدول المتعاقبة على حكم مصر ودور المثقف وتأثيره في التحولات الاجتماعية والثقافية والثورية. يقع الكتاب في 256 صفحة، شاملةً ببليوغرافيا وفهرسًا عامًّا.





وثائق ونصوص
Primary Sources





Received التسلم
2023-05-02

Revised التعديل
2023-10-07

Accepted القبول
2023-10-28

DOI: https://doi.org/10.31430/BUBS3750 :الرقم التعريفي

فريدة محمد علي جاموس | *Farida Mohamed Ali Gamus

محمد علي جوهر ودفنه في المسجد الأقصى نموذجًا للعلاقات الهندية – الفلسطينية في فترة الانتداب البريطاني

Muhammad Ali Jauhar's Burial at the Al-Aqsa Mosque: A Model of Indian-Palestinian Relations During the British Mandate

تنطلق هذه الدراسة من إشكالية مفادها أنه على الرغم من أن محمد علي جوهر توفي في لندن، وهو هندي الجنسية، فإنه دُفن في القدس في أحد أروقة المسجد الأقصى بقرار من رئيس المجلس الإسلامي الأعلى أمين الحسيني، وسط ترحيب عربي وإسلامي، ومساهمة بريطانية، واعتراض يهودي. تحاول الدراسة الكشف عن الأسباب الكامنة وراء هذا الحدث؛ أي توضيح دور محمد علي في دعم القضية الفلسطينية، وتوطيد العلاقات الهندية - الفلسطينية. وتفترض الدراسة أنه لو لم يكن محمد علي مسلمًا لما اهتم بفلسطين وقضيتها وهو بعيد من الدار، وعنده من المشاغل القومية والوطنية ما يشغله عن أي أمرٍ آخر، والتأكيد على أن المسجد الأقصى ليس للفلسطينيين فحسب، إنما لمسلمي العالم أجمع.

كلمات مفتاحية: الهند، فلسطين، الانتداب البريطاني، الإسلام، مناهضة الاستعمار.

Mohammad Ali Jauhar, an Indian Muslim activist and major political figure, died in London in 1931, but was buried at the Al-Aqsa Mosque, with the assent of the President of the Supreme Islamic Council, Amin Al-Husseini. The move was welcomed by Arabs and Muslims, aided by the British and opposed by Jews. This paper examines the reasons for this burial, explaining Jauhar's role in supporting the Palestinian cause and consolidating Indian-Palestinian relations. The study assumes that were Jauhar not a Muslim, he would have paid little attention to the cause of Palestine, far away from his own country, especially as he was concerned with pressing national and patriotic issues. The incident is thus an illustration of the importance of the Al-Aqsa Mosque not only to the Palestinians but to the entire Muslim world.

Keywords: India, Palestine, Mandate Era, Islam, Anti-Colonialism.

* باحثة مُتخصصة بمدينة القدس العثمانية والانتدابية، حاصلة على الماجستير في التاريخ العربي الإسلامي من جامعة بيرزيت. طالبة دكتوراه في جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين.

A Researcher Specializing in Ottoman and Mandate Jerusalem, Holding a Master's Degree in Arab-Islamic History from Birzeit University. PhD. Candidate at An-Najah National University, Nablus, Palestine.

farida.ma.johar@gmail.com



مدخل

بدأت قُدسية المسجد الأقصى عند المسلمين منذ أن أُسري إليه نبيّنا الكريم محمد بن عبد الله، هذه القدسية التي جعلت العرب والمسلمين جميعًا يستقبلون (أولى القبلتين) المكان قبل مكة، ويعتبرون خدمته فرضًا وجهادًا دينيًا، ويتمنّون من ربهم أن يجعل مدافنهم في ترابه وجواره.

وكما قال الشاعر تميم البرغوثي[1] في قصيدة "القدس":

في القدس تنتظمُ القبورُ، كأنهنَّ سطورُ تاريخِ المدينةِ والكتابُ ترابُها

الكل مرُّوا من هُنا

امرُر بها واقرأ شواهدَها بكلِّ لغاتِ أهلِ الأرض

كان محمد علي جوهر Mohammad Ali Johar سياسيًا وصحافيًا هنديًا، وزعيمًا لـ 70 مليون مسلم هندي في وجه الانتداب البريطاني في الهند[2]، أسس مع شقيقه شوكت علي Shaukat Ali جمعية "خدام الكعبة"[3] التي أصبح اسمها في ما بعد "جمعية الخلافة"[4]. اشترك مع المهاتما غاندي Mahatma Gandhi في حركة عدم التعاون الأولى في الهند[5]، وكان من مناصري الدولة العثمانية[6]، ومن المدافعين عن فلسطين والمسجد الأقصى، ساهم في جمع التبرعات لإعمار المسجد في عام 1922[7]، وزار القدس بعد أحداث البُراق في عام 1929[8].

يوجد ضريحه داخل الرواق القائم بين باب القطانين وباب الحديد، في أروقة المسجد الأقصى[9]، تبلغ مساحته نحو 56م^2، على بابه بلاطة رخامية، طولها متران وعرضها 56سم، حفر عليها الخطاط عبد القادر الشهابي[10] اسم الفقيد وآية من القرآن الكريم

---

1 تميم مريد البرغوثي، شاعر فلسطيني، من قرية دير غسانة، حصل على الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة بوسطن في عام 2004. نشأ في أسرة تهتم بالأدب العربي، فوالده الشاعر الفلسطيني مريد البرغوثي، ووالدته الروائية المصرية رضوى عاشور. ينظر: تميم البرغوثي، **قالوا لي بتحب مصر**، ط 2 (القاهرة: دار الشروق، 2007)؛ تميم البرغوثي، **في القدس** (القاهرة: دار الشروق، 2009)، ص 11.

2 "اليوم التاريخي العظيم محمد علي بالقدس لماذا يدفن بفلسطين"، **الكرمل**، العدد 1550، 1931/1/28، ص 1-2.

3 جماعة خدام الكعبة، أُسّست في الهند، لاعتقادهم أن الحكومة العثمانية لم تعد قادرة على حماية الحرمين الشريفين، وعلى المسلمين العناية به. نشر نظامها، بعد بيان مقاصدها وأغراضها، المحامي مشير حسين القدوائي. ينظر: عبد الحق الأعظمي البغدادي، "جمعية خدام الكعبة"، **المنار**، العدد 16 (جمادى الأولى 1331هـ)، ص 384؛ محمد رشيد رضا، "نظرة في الحرمين الشريفين ومشروع جماعة خدام الكعبة"، **المنار**، العدد 16 (رجب 1331هـ)، ص 545.

4 "نداء الزعيم الهندي مولانا محمد علي رئيس مؤتمر الخلافة بشأن حالة فلسطين وحوادثها الأخيرة"، **الجامعة العربية**، العدد 273، 1929/10/23، ص 1.
خدام الكعبة، حركة إسلامية سياسية ظهرت في الهند، وتعتبر أقدم حركة إسلامية دعت إلى استعادة الخلافة في العصر الحديث. وهي عبارة عن حملة احتجاج سياسي إسلامي عام، أطلقها مسلمو الهند البريطانية، بقيادة محمد علي جوهر وأخيه شوكت، وحكيم أجمل خان، وأبو الكلام آزاد لإعادة الخلافة العثمانية. ينظر: عبد الله محمد علي الشهراني، "موقف جمعية الخلافة الهندية من ضم الملك عبد العزيز الحجاز 1337-1344هـ/ 1919-1926م"، **مجلة القراءة والمعرفة**، العدد 223 (أيار/ مايو 2020)، ص 342.

5 أُطلقت حركة عدم التعاون في 1920/9/1، من المهاتما غاندي، وتهدف إلى تحقيق الحكم الذاتي والحصول على الاستقلال الكامل عن طريق اللاعنف، من خلال إقناع جميع الهنود بسحب عملهم من أي نشاط يدعم الحكومة البريطانية واقتصادها في الهند. ينظر: مهنداس كارامشاند غاندي، **غاندي السيرة الذاتية**، ترجمة محمد إبراهيم السيد (القاهرة: مؤسسة هنداوي، 2017)، ص 641-642.

6 "فقيد الإسلام والشرق العظيم مولانا محمد علي الفقيد العظيم"، **الجامعة العربية**، العدد 515، 1931/1/23، ص 1.

7 "أقوال الصحف الأجنبية في الفقيد العظيم مولانا محمد علي"، **الجامعة العربية**، العدد 525، 1931/2/6، ص 1.

8 "الزعيم الكبير مولانا محمد علي يدخل فلسطين بعد أن منعته من الدخول"، **الجامعة العربية**، العدد 184، 1928/11/22، ص 3.

9 "بناء ضريح الزعيم محمد علي في أحد أروقة الحرم المقدسي"، **الأخبار**، العدد 3403، 1931/1/15، ص 3.

10 عبد القادر الشهابي، خطاط حكومة فلسطين الرسمي، متخصص في الخطوط العربية، درس في المدارس الأميرية والأهلية. وعمل في حفر الأختام ونقش الأحجار الكريمة والحفر على الزنك والنحاس في مكتبه في حارة النصارى في جوار الخانقاه في القدس. ينظر: **لسان العرب**، العدد 175، 1922/3/2، ص 3.
لسان العرب (القدس)، الصحيفة الفلسطينية الأولى التي كانت تصدر يوميًا (ولم يدم ذلك إلا سنة واحدة)، صدر العدد الأول منها في 24 حزيران/ يونيو 1921.



﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (التوبة: 111)، بطلب من الحاج محمد أمين الحسيني[11] (ينظر الملحق 1). السؤال الذي يطرح في هذا السياق، وتحاول هذه الدراسة الإجابة عنه، من هو محمد علي جوهر؟ وما موقفه من ثورة البُراق والصراع على ملكية حائط البراق؟ وهل دعمَ فلسطين ماليًا وسياسيًا؟ وهل زار فلسطين واطّلع على حالها؟ وما موقفه من سياسات الانتداب البريطاني في القدس؟ ولماذا لقيت جنازته كل هذا الاهتمام الفلسطيني والعربي؟ وما الدافع وراء دفنه في القدس؟ وما علاقة بريطانيا بذلك؟ أكان اعتراض اليهود على دفنه في القدس نابعًا من ادّعائهم ملكية المسجد الأقصى، أم لاعتبارهم أن دفنه في القدس يؤكد إسلامية هذا المسجد، أم نتيجة لمواقفه المعارضة للصهيونية؟

تفترض الدراسة أن السبب الرئيس لدفن محمد علي جوهر في القدس هو ترسيخ أواصر الوحدة الإسلامية والعربية، التي كان من دُعاتها، إضافة إلى أنها كانت محاولة من رئيس المجلس الإسلامي الأعلى[12] لتكريم محمد علي جوهر على موقفه من القضية الفلسطينية. ويمكن القول إن رئيس المجلس الإسلامي الأعلى أراد أن يؤكد أن المسجد الأقصى إرث لجميع المسلمين مهما اختلفت أصولهم، وعلى جميع المسلمين حمايته والدفاع عنه.

للإجابة عن هذه التساؤلات، سيجري الاعتماد أساسًا على الصحف الفلسطينية والأجنبية، واستخدام المنهج التاريخي التحليلي المقارن، وذلك لدراسة وتحليل ما ورد في هذه الصحف حول أهم الأعمال التي قام بها محمد علي جوهر والمؤتمرات التي شارك فيها دعمًا للقضيتين الهندية والفلسطينية، إضافة إلى المقارنة بين آراء الصحف الفلسطينية والأجنبية في خصوص دفنه في القدس. كما سيُستخدم المنهج التاريخي الوصفي، وذلك لوصف عملية التأبين والاهتمام العربي والفلسطيني بجثمان محمد علي جوهر.

تكتسب هذه الدراسة أهميتها من معالجتها سيرة شخصية سياسية هندية مؤثرة، ساهمت على نحوٍ فعال في دعم القضية الفلسطينية عربيًا وعالميًا. ونظرًا إلى حداثة الموضوع وتفرّده، فقد واجهت الباحثة صعوبة في الحصول على المعلومات؛ ما دفعها إلى اللجوء إلى الوثائق الخاصة بالمجلس الإسلامي الأعلى، المحفوظة في مؤسسة إحياء التراث في القدس/ أبو ديس، والاستعانة بمجموعة من الصحف العربية والأجنبية، منها صحيفة **فلسطين**[13] و**الكرمل**[14] و**الجامعة العربية**[15] و**اليرموك**[16] و**النفير**[17]

---

11 "أين وصل العمل في ضريح الفقيد العظيم"، **فلسطين**، العدد 256، 1931/1/22، ص 4.
الحاج محمد أمين الحسيني أو المفتي (1895-1974)، ولد في مدينة القدس وتلقى تعليمه الأساسي فيها، وانتقل بعدها إلى مصر ليدرس في دار الدعوة والإرشاد، ومن ثم التحق بالكلية الحربية في إسطنبول، ليلتحق بعدها بالجيش العثماني، ثم في صفوف الثورة العربية الكبرى. كان المفتي العام للقدس ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى الذي أُنشئ في عام 1922، ورئيس اللجنة العربية العليا. توفي في لبنان ودفن فيه. ينظر: عجاج نويهض، "الحاج محمد أمين الحسيني"، **شؤون فلسطينية**، العدد 36 (آب/ أغسطس 1974)، ص 1-11.

12 المجلس الإسلامي الأعلى، في بداية الاحتلال البريطاني لفلسطين، أصبحت إدارة الأوقاف والمحاكم الشرعية وتعيين القضاة المسلمين تابعة لوزارة العدل والقضاء البريطانية، ما أدى إلى غضب القيادات الدينية الفلسطينية والشعب؛ حيث كانوا يرون ضرورة تشكيل إدارة إسلامية لإدارة الأوقاف الإسلامية وإدارة المحاكم الشرعية وجميع الأمور الدينية المتعلقة بالمسلمين، وأن ينحصر الإشراف على الوظائف الدينية ووظائف الأوقاف بأيدي المسلمين فحسب، لأن التدخل البريطاني في إدارة الشؤون الدينية والأوقاف سيفتح تدريجًا الباب لسيطرة بريطانيا على الأوقاف الإسلامية والتحكم فيها. وجرى تعيين الحاج محمد أمين الحسيني رئيسًا له. ينظر: هيا موسى العزة، "إدارة المسجد الأقصى المبارك"، رسالة أعدت للحصول على شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن، 2021، ص 35.

13 **فلسطين** (يافا)، صحيفة إخبارية، اعتبرت إحدى أهم الصحف العربية في فترة الانتداب. ظهر العدد الأول منها في 15 كانون الثاني/ يناير 1911.

14 **الكرمل** (حيفا)، أسّسها في عام 1908، صحيفة أسبوعية نجيب نصار، واهتمت بالقضايا السياسية والاجتماعية.

15 **الجامعة العربية** (القدس)، جريدة يوميّة سياسيّة، صدر العدد الأول منها في 20 كانون الثاني/ يناير 1927. أسّسها منيف الحسيني، أحد روّاد الحركة الوطنيّة والأدبيّة، وكان صاحب نزعة قوميّة ومقرّبًا من المجلسيين (حزب المفتي الحاج أمين الحسيني).

16 **اليرموك** (حيفا)، أول صحيفة عربية يومية تصدر من حيفا، دعت، منذ لحظة صدورها، إلى مواجهة الصهيونية.

17 **النفير** (الإسكندرية – القدس - حيفا)، صحيفة سياسية إخبارية، أصدرها بداية إبراهيم زكا (وُلد في حيفا، في عام 1870 تقريبًا) في عام 1902 في الإسكندرية باسم **النفير العثماني**. وفي أعقاب العودة إلى العمل بالدستور العثماني في عام 1908، انتقلت الصحيفة إلى شقيقه إيليا زكا (حيفا، تقريبًا 1875-1926)، الذي عاد إلى إصدارها من جديد تحت اسم **النفير** في مدينة القدس، ثم انتقل بها في عام 1913 إلى حيفا.



والأخبار[18]؛ لمعرفة المزيد عن نضاله ومواقفه السياسية من الأحداث التي شهدتها مدينة القدس. هذا إضافة إلى كتب بعض الشخصيات التي عاصرت محمد علي جوهر، أمثال محمد رشيد رضا[19] ومحمد لطفي جمعة[20].

أولًا: نشأة محمد علي جوهر وبداية تبلور فكره السياسي

وُلد محمد علي جوهر في عام 1878 في مدينة رامبور، الهند[21]. عمل والده في وظيفة عالية في الحكومة، إلّا أنه توفي في عمر الثانية والخمسين عامًا، وكان محمد علي جوهر آنذاك في عامه الأول من العمر؛ فتربّى في كنف أمه التي كانت تلقب بأم الهنود، لأن ابنيها خدما الإسلام والهند، كما كانت تخطب في الجماهير وتحثّهم على النهضة والاستقلال[22]. تلقى محمد علي جوهر علومه الثانوية في جامعة عليكره الإسلامية[23]، كما درس في جامعة أكسفورد، وحصل على شهادة الماجستير في التاريخ الحديث في عام 1898[24].

تزوج في عام 1902 بابنة عمه، أمجادي بيجوم، بنت عزمت علي خان، التي ساهمت إلى حدّ بعيد في خلق الوعي السياسي بين النساء الهنديات، كما رافقته في جميع جولاته، وحضرت جميع جلسات جمعية الخلافة. وكتب عنها المهاتما غاندي في كتابه **الهند الشابة** مقالة عنوانها "امرأة شجاعة"[25].

شغل محمد علي جوهر منصب مدير التعليم في رامبور[26]، ومن ثم عيّنته الحكومة في وظيفة إدارية كبيرة، وكان له مستقبل باهر في السلك الحكومي، لكنه لم يرغب في التقيّد بأغلال الوظيفة وآثر عليها الأعمال الحرة. فاستقال من وظيفته وأصدر جريدتين في مدينة كلكتا عاصمة الهند[27]: يومية باللغة الأوردية اسمها *Hamdard*، أي الرحيم؛ وأُسبوعية بالإنكليزية، تحت عنوان *The Comrade*، أي الصاحب أو الرفيق، وكانت الثانية سببًا في شهرته؛ إذ شبّهه الإنكليز بالكاتب الإنكليزي والتر سكوت Walter Scott[28].

---

18 **الأخبار** (يافا)، جريدة أدبية تجارية زراعية سياسية نقدية، صدرت ثلاث مرات في الأسبوع (مؤقتًا). صاحب امتيازها هو بندلي حنا غرابي. صدر العدد الأول منها في 26 حزيران/ يونيو 1909.

19 محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بَهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني، البغدادي الأصل، صاحب **مجلة المنار**، وأحد رجال الإصلاح الإسلامي. من الكتّاب العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير. ينظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، 8 ج، ط 15 (بيروت: دار العلم للملايين، 2002)، ج 6، ص 126.

20 محمد لطفي جمعة، كاتب ومترجمٌ وروائي، كان موسوعي المعرفة، ويجيد العديد مِن اللغات، كما أنه أحد كبار المحامين والناشطين السياسيّين المصريين في عصره. حصل على درجة الدكتوراه من كلية الحقوق في ليون، في عام 1912، درّس بعدها مادة القانون الجنائي في الجامعة المصرية. المرجع نفسه، ج 7، ص 15-16.

21 "مولانا محمد علي شيء من تاريخه وحياته"، **الجامعة العربية**، العدد 187، 1928/12/3، ص 1.
رامبور Rampur، مدينة تقع شمال الهند. ينظر: الأميرة سكندر بنغيم، **مذكرات رحلة حج لأميرة بوبال، النواب: سكندر بيغم (1233-1285هـ)**، ترجمة إبراهيم البطشان وثمامة فيصل بن أبي المكارم (لندن: eKutub Publishing House، 2022)، ص 24.

22 محمد لطفي جمعة، **حياة الشرق: دوله وشعوبه وماضيه وحاضره** (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2014 [1922])، ص 219.

23 جامعة (عليكره) الإسلامية، أنشأها أحمد خان، المتوفى في عام 1898، وهو أول مسلم أذاع فوائد الثقافة الغربية في بلاده، وحاول التوفيق بين هذه الثقافة والثقافة الإسلامية في الهند. تشمل الدراسة فيها الآداب والعلوم والهندسة والطبّ. تضمّ كليات الطبّ، العلوم والصناعات، الهندسة والتكنولوجيا. ينظر: أحمد حسن الزيات، **مجلة الرسالة**، العدد 266، ص 77؛ محيي الدين الألوائي، "سيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكرة الإسلامية"، **البنوك الإسلامية**، العدد 11 (أيار/ مايو 1980)، ص 64-65.

24 "استشهاد البطولة في أرض الحرية"، **فلسطين**، العدد 257-1637، 1931/1/23، ص 3.

25 Rizwan Lateef Khan, "Amjadi Begum: 'A Brave Woman'," *twocircles.net*, 1/4/2015, accessed on 31/12/2023, at: https://bit.ly/3TFl7KA

26 "Maulana Muhammad Ali Jauhar," *Indian Muslim Legends*, accessed on 31/12/2023, at: https://bit.ly/3RCk3nX

27 كلكتا، مدينة هندية، كانت عاصمة الهند القديمة حتى عام 1911.

28 "فقيد الإسلام والشرق العظيم مولانا محمد علي".
والتر سكوت، روائي وكاتب مسرحي وشاعر إسكتلندي، ولد في 15 آب/ أغسطس 1771، وتوفي في 21 أيلول/ سبتمبر 1832.



ولما نشبت الحرب العالمية الأولى (1914)، دخلت تركيا إلى جانب الألمان، عندها شعر مسلمو الهند بتنازع الولاء في نفوسهم، فكانوا من جهة يشعرون بأنهم مرتبطون بالخلافة في تركيا، ومن جهة أخرى يقتضي الواجب عليهم مساعدة بريطانيا في الحرب والانضمام إلى صفها في مقاتلة تركيا، وفي النهاية اضطروا إلى الانضمام إلى بريطانيا. لكن الصحف البريطانية، مثل *The Morning Post* و*The Times*، وصفت الأتراك بأنهم مطايا الألمان وخَدَمهم، فرأى محمد علي جوهر أن تلك الحملة ليست من الإنصاف في شيء، فأخذ يدعو المسلمين إلى عدم محاربة الأتراك[29]، وكتب في جريدته الإنكليزية مقالة طويلة، بعنوان "انتخاب الأتراك"؛ ما أدى إلى غضب السلطات البريطانية في الهند، فأوقفت جريدته بأمر من اللورد هاردينج Lord Hardinge[30]، نائب الملك في الهند[31]، واعتُقل هو وشقيقه شوكت علي في أيار/ مايو 1915 باعتبارهما خطرًا على الأمن، ولتدخّلهما في الشؤون السياسية، وبقي في السجن حتى نهاية عام 1919[32].

ثانيًا: جهود محمد علي جوهر تجاه القضية الفلسطينية

حينما تضرر المسجد الأقصى بفعل زلزال عام 1923، ساعد محمد علي جوهر الوفد الفلسطيني القادم إلى الهند برئاسة جمال الحسيني[33] ابن عم المفتي وساعده الأيمن، والشيخ محمد مراد مفتي حيفا[34]، لجمع المساعدات لترميمه، وأصدر بيانًا دعا فيه مسلمي الهند إلى التبرع لهذه الغاية، وقد كان لبيانه أثر كبير، أدّى إلى نجاح الوفد نجاحًا كبيرًا، حيث غادر محمّلًا بمئات الألوف من الرُوبيات[35].

عندما قدم إلى دمشق في عام 1928، أرسل إليه الحاج أمين الحسيني برقية يدعوه فيها إلى زيارة فلسطين، فرحّب محمد علي جوهر بالفكرة، وأبلغهم أنه سيزورها عن طريق مدينة طبريا، لكنه عندما وصل إلى طبريا، رفضت حكومة فلسطين إدخاله وأمرته

---

29 جمعة، ص 221.

30 تشارلز هاردينج، بارون هاردينج الأول من بينشورست (1858-1944)، دبلوماسي ورجل دولة بريطاني، شغل منصب نائب الملك، والحاكم جنرال الهند بين عامي 1910 و1916. وفي أثناء وجوده في روسيا، عمل قائمًا بالأعمال في غياب السفير، وبعد فترة قصيرة من عمله وكيلًا مساعدًا لوزارة الخارجية، أصبح سفيرًا لدى روسيا في عام 1904. وفي عام 1906، تمت ترقيته إلى منصب وكيل الوزارة الدائم في وزارة الخارجية، عمل على نحو وثيق مع وزير الخارجية الليبرالي السير إدوارد غراي. وفي عام 1907، رفض منصب السفير لدى الولايات المتحدة. وفي عام 1910 جرت ترقيته إلى رتبة النبلاء بصفته بارون هاردينج من بينشورست، في مقاطعة كينت، وعيّنته حكومة أسكويث نائبًا للملك في الهند.
Douglas Goold, "Lord Hardinge and the Mesopotamia Expedition and Inquiry, 1914-1917," *The Historical Journal*, vol. 19, no. 4 (December 1976), pp. 919-945.

31 "فقيد الإسلام والشرق العظيم مولانا محمد علي".

32 "نبذة أخرى من تاريخ مولانا محمد علي"، **فلسطين**، العدد 259-1639، 1931/1/25، ص 4.

33 جمال محمد صالح الحسيني، وُلد في القدس، وتلقى دراسته الابتدائيّة فيها أيضًا، وتابع علومه الثانويّة في مدرسة المطران غوبات (مدرسة صهيون)، التحق في عام 1912 بالجامعة الأميركية في بيروت بغية دراسة الطب، لكنه عاد إلى القدس عند اندلاع الحرب العالمية الأولى (1914). عمل سكرتيرًا لدائرة الصّحة في القدس، ثم مساعدًا لحاكم لواء نابلس. استقال من منصبه الرسمي في عام 1920، وأنشأ مكتبًا للترجمة. انضمّ جمال الحسيني مبكرًا إلى الحركة الوطنية الفلسطينية. ينظر: "جمال الحسيني"، **الموسوعة التفاعلية للقضية الفلسطينية**، في: https://bit.ly/41GBOqI

34 محمد مراد (1875-1929)، وُلد في حيفا، وتعلّم في جامع الجزار في غزة، ثم تخصص في الشريعة الإسلامية واللغة العربية في الأزهر الشريف في القاهرة. يذكر بعض المصادر أنه تعلّم في القسطنطينية؛ استقال من منصب الإفتاء في عام 1929، لينضم إلى المجاهدين؛ قُتل في معركة ضد المستوطنين في مستوطنة الكرمل في عام 1929. ينظر:
"Murad, Sheikh Mohammed (1875-1929)," PASSIA – Jerusalem (Palestinian Academic Society for the Study of International Affairs), accessed on 31/12/2023, at: https://bit.ly/3ve8XOt

35 "وفد المسجد الأقصى في الهند"، **بيت المقدس**، العدد 228، 1924/1/17، ص 2 (**بيت المقدس** (القدس)، صدر العدد الأول منها في 26 كانون الأول / ديسمبر 1919. في السنة الثانية لصدورها، نشرت مقالة افتتاحية، تحدثت فيها عن كونها قد أُسّست في عام 1908، بديلًا من صحيفة **الإنصاف** التي صدرت في العهد العثماني)؛ "وفد المسجد الأقصى في الهند"، **فلسطين**، العدد 647-89، 1924/1/22، ص 1.



بالعودة إلى دمشق، وحاول أن يفهم من رجال المخفر سبب هذا المنع، فلم يوفق، فأجابهم: "فلسطين ليست وطن بلفور وإنما هي بلاد المسلمين"[36].

احتج سكان فلسطين، واعتبروا ذلك استخفافًا بمشاعرهم وعواطفهم[37]، فتراجعت حكومة فلسطين عن قرارها، بتدخل من أمين الحسيني، وسمحت له بالدخول، فبعث أمين الحسيني برسالة إليه يُبلغه بقرار الحكومة[38]. وصل محمد علي جوهر إلى القدس، واستُقبل في القسم الفني في المسجد الأقصى، فخطب رئيس المجلس الإسلامي الأعلى مرحّبًا به، ثم تكلم محمد علي جوهر بموضوع فلسفة الدين الإسلامي[39].

لم تُعجب هذه الزيارة اليهود، وقد نقلت صحيفة **الجامعة العربية** مقالة كُتبت في إحدى الصحف اليهودية، جاء فيها أنه كان يجب على الحكومتين الإنكليزية والفرنسية أن تُحدّد على الزعماء في هذه البلاد ما يجب عليهم أن يقوموا به من الأعمال عند مقابلتهم هذا الزعيم، لأن خطره عظيم على الأمن العام في البلاد[40]. وقد اعترض أيضًا أحد القادة البريطانيين على هذه الزيارة، وسأل وزير المستعمرات، كيف يُسمح لشخص هاجم السياسة البريطانية والصهيونية بالدخول إلى فلسطين، حيث يؤدي ذلك إلى ظهور النزعة الاستعمارية الاستيطانية التي ترحب بأي إنسان لمجرد اعتناقه اليهودية على أرض فلسطين، وتعترض على زيارة إنسان مسلم إلى بلد مسلم[41].

بعد ثورة البُراق في فلسطين، في عام 1929، نشر محمد علي جوهر مقالة في جريدة **بومباي كرونيكل** *The Bombay Chronicle*[42]، وجّهها إلى أهل الهند كافة، من مسلمين وهندوس، بسط فيها حال فلسطين، وأشار إلى المطامع الصهيونية السياسية والدينية فيها[43] (ينظر الملحق 2). قال فيها إنه شاهد بأم عينه خلال نزوله ضيفًا في بيت أمين الحسيني الذي يقع فوق حائط البُراق، كيف أن اليهود يقومون بصلواتهم ومعهم الكراسي والمقاعد والطاولات والشموع، وسيلةً من وسائل التملك للمكان الإسلامي الوقفي الذي اعترف به الكتاب الأبيض[44] الصادر في تشرين الثاني/ نوفمبر 1928 بأنه وقف إسلامي، وهو فوق هذا محاط بالأحياء الإسلامية من جميع الجهات. وأنه حينما اعترض المسلمون على هذا العدوان، أمرت السلطات الإنكليزية برفع الأدوات

---

36 "ليست فلسطين بلاد بلفور منع مولانا محمد علي من الدخول إلى فلسطين المقدسة"، **اليرموك**، العدد 306، 1928/11/23، ص 3؛ "الزعيم الهندي الكبير محمد علي"، **الجامعة العربية**، العدد 184، 1928/11/22، ص 1؛ "Mohammad Ali in Damascus," *The Palestine Bulletin*, vol. 4, no. 1178 (30/11/1928), p. 1.

37 "جنين تحتج لمنع مولانا محمد علي"، **الجامعة العربية**، العدد 186، 1928/11/29، ص 3.

38 "الزعيم الكبير مولانا محمد علي يدخل فلسطين بعد أن منعته من الدخول"؛ "مولانا محمد علي وضغط المستعمرين عليه"، **الجامعة العربية**، العدد 187، 1928/12/3، ص 1.

39 "مولانا محمد علي بفلسطين"، **اليرموك**، العدد 305، 1928/11/16، ص 2؛ "آخر أخبار الزعيم المسلم الهندي مولانا محمد علي"، **اليرموك**، العدد 306، 1928/11/23، ص 3.

40 "مولاي محمد علي والصحف اليهودية"، **الجامعة العربية**، العدد 186، 1928/11/29، ص 1؛ "مولانا محمد علي لم يسافر إلى القاهره"، **الجامعة العربية**، العدد 186، 1928/11/29، ص 2.

41 "Mohammad Ali's Palestine Visit in Commons," *The Palestine Bulletin*, vol. 4, no. 1177 (29/12/1928), p. 1; "Muhammad Ali Dead," *The Palestine Bulletin*, vol. 7, no. 1819 (5/1/1931), p. 1.

42 **بومباي كرونيكل**، صحيفة باللغة الإنكليزية، أصدرها السير فيروزشاه ميهتا (1845-1915) في بومباي، في عام 1907، بهدف نشر الأفكار القومية المعتدلة في كل من الدوائر الاقتصادية ذات التعليم الغربي والمثقفين.
Nataša Mišković, Harald Fischer-Tiné & Nada Boškovska (eds.), *The Non-Aligned Movement and the Cold War: Delhi, Bandung, Belgrade* (Abingdon/ New York: Routledge, 2014), p. 52.

43 "نداء الزعيم الهندي الكبير مولانا محمد علي رئيس مؤتمر الخلافة بشأن حالة فلسطين وحوادثها الأخيرة"، **النفير**، العدد 7، 1929/10/25، ص 4، 7.

44 الكتاب الأبيض 1928، أصدرته الحكومة البريطانية في 1928/11/19، للتأكيد على الملكية الإسلامية لحائط البُراق في القدس، مع حقوق يهودية محددة للوصول إلى الحائط الصلاة. ينظر: "الكتاب الأبيض الإنجليزي"، **فلسطين**، العدد 81-1141، 1928/12/11، ص 3.



التي أتى بها اليهود إلى البراق، إلّا أنها لم تتخذ التدابير الحاسمة والنهائية لتنفيذ ما أمرت به، كي يكسب اليهود حقوقًا جديدة في المكان[45]، والوسيلة لهذا عدم تنفيذ "الستاتيكو"[46]. وأشار إلى أن ذلك كله يؤدي إلى خسارة المسلمين رأس مال قضيتهم شيئًا فشيئًا، وأن اليهود يقومون بدعاية جديدة باسم الدين سترًا لمطامعهم السياسية حتى يتم لهم بناء الوطن القومي، فيكونون قد جعلوا مسلمي فلسطين غرباء في ديارهم وأوطانهم[47]. وهذا ما حدث لاحقًا. ونُشر خطابه في فلسطين في كراس صغير، تحت عنوان **فلسطين تتعذب لأن الهند ليست حرة**[48].

حينما عزم محمد علي جوهر على الذهاب إلى المؤتمر الهندي العام في لندن، أرسل إلى رئيس المجلس الإسلامي الأعلى يطلب منه الإسراع في إرسال وفد إلى لندن يدافع عن البُراق وقضية فلسطين، فأرسل أمين الحسيني، ابن عمه جمال الحسيني[49] (ينظر الملحق 3). وأكد المؤتمر أن فلسطين هي وديعة العالم الإسلامي كله، وليست وديعة مسلمي فلسطين فحسب، ولأجل ذلك، فإن مسلمي الهند تُهمهم الحالة الحاضرة في فلسطين واستقلالها الإداري، لذلك اتفق المجتمعون على إرسال وفد إلى أوروبا لتقديم كل المساعدات الممكنة لمسلمي فلسطين، وتعيين لجنة دائمة للاهتمام بشؤون القدس، كما طالبت حكومة فلسطين بالإفراج عن جميع المسلمين الذين حُكم عليهم بسبب ثورة البُراق، وأن يكون 16 أيار/ مايو من كل عام، يوم فلسطين في كل بلاد الهند وبورما وسيلان[50]. وتظاهر 100 ألف مسلم ضد وعد بلفور (1917) ورفع المتظاهرون برقيات الاحتجاج على حالة فلسطين وطلبوا تأييد العرب في مطالبهم الوطنية وإنصافهم في قضيتهم[51].

وحينما زار باريس، أقام له الطلاب العرب حفلة تكريمية، ألقى فيها كلمة، تحدث فيها عن مطالب الهند الاستقلالية التي ستُعرض على المؤتمر الهندي العام. وأشار إلى الكتاب الأبيض، وقال إن فيه بعض النقاط الجوهرية التي يعدّها العرب في مصلحتهم، لكن العبرة في الأعمال لا في الأقوال. فما أهميته للعرب إذا بقيت بيوع الأراضي سائرة في مجراها الطبيعي، وعدد المهاجرين اليهود في تزايد. وإذا أراد العرب أن يستفيدوا مما جاء فيه، فعليهم إجبار الحكومة على تنفيذ محتواه. وبعد ذلك أبرق الطلاب العرب من فلسطين وسورية ومصر إلى وزراء المستعمرات يطالبون بتنفيذ نصوص الكتاب الأبيض[52].

وحينما حضر اجتماع العصبة الوطنية في لندن، ألقى خطابًا قال فيه إن الهنود غير راضين عن السياسة الإنكليزية في فلسطين، وبخاصة وعد بلفور، وأشار إلى أن سبب المشكلة القائمة في فلسطين اليهود المهاجرون، فليعد كل يهودي من حيث أتى، لأن سكان فلسطين الأصليين أصبحوا الآن في عقر دارهم بلا ديار، بسبب عدد اليهود المهاجرين. وقال إن أحد زعماء الصهيونية عرض عليه ما يشاء من النقود إذا هو وافق على إنشاء دولة صهيونية في فلسطين، إلّا أنه رفض، وقال: "الحمد لله أننا لم نبِع ضمائرنا بعد".

---

45 "فقيد الإسلام والشرق العظيم مولانا محمد علي الفقيد العظيم".

46 صدر قانون ستاتيكو في 15 شوال 1268هـ/ 1825/8/2م، وهو قانون الوضع الراهن الذي صدر عن الدولة العثمانية، وكان يقوم على تثبيت حقوق كل طائفة وجماعة دينية كانت موجودة في القدس، من دون السماح بإحداث تغيير. ينظر: "حول خرق الستاتيكو"، **الإقدام**، العدد 217، 1929/10/15، ص 2؛ "المؤتمر الهندي الإسلامي العام"، **فلسطين**، العدد 50-1430، 1930/5/1، ص 3.
الإقدام (حيفا/ يافا)، جريدة سياسية انتقادية جامعة، صاحبها ومديرها المسؤول يوسف سلوم، صدر العدد الأول منها في 1 آب/ أغسطس 1926 في حيفا. وبعد ذلك انتقلت لتصدر في مدينة يافا، لذلك حملت لقب "الجريدة المتنقلة".

47 "نداء الزعيم الهندي الكبير مولانا محمد علي بشأن حالة فلسطين وحوادثها الأخيرة"، **اليرموك**، العدد 363، 1929/10/22، ص 2.

48 "حوادث فلسطين في الهند نداء الزعيم الهندي مولانا محمد علي"، **الإقدام**، العدد 225، 1929/10/25، ص 2.

49 "أقوال الصحف الأجنبية في الفقيد العظيم مولانا محمد علي".

50 "المؤتمر الهندي الإسلامي العام"؛ "برقية المؤتمر الهندي الإسلامي العام"، **الحياة**، العدد 27، 1930/5/4، ص 4.
الحياة (القدس)، جريدة يومية سياسية أدبية اجتماعية واقتصادية وعلمية، صدرت في عام 1930.

51 "عطف الهنود على فلسطين فهل تسمع بريطانيا"، **الحياة**، العدد 39، 1930/5/21، ص 1.

52 "مولانا محمد علي يخطب في باريس عن الهند وفلسطين"، **الجامعة العربية**، العدد 473، 1930/11/24، ص 1.



وطلب من وزير المستعمرات الإنكليزي سيدني جيمس ويب Sidney James Webb[53] تنفيذ الكتاب الأبيض، فقال له باسفيلد: "إننا نتمسك بأهداب هذا الكتاب، إنما لا بد من بعض الإيضاحات"، فرد عليه محمد علي جوهر: "لا تجعلوا هذه الإيضاحات تمحو سطوره كلها"[54]. واستفز كل ذلك حاكم الهند العام الماركيز هاردينج، وقال يريد محمد علي جوهر أن يطرد الصهيونيين من فلسطين، ومن ثم يأتي بالمسلمين الهنود إلى فلسطين، لكن هذا بعيد جدًا، لأن اليهود حركة فاعلة ذات أثر، سواء رضي محمد علي جوهر أم رفض[55]. ويتضح لقارئ خطاب حاكم الهند العام الدفاع الكبير عن الصهيونية وأهدافها. وهي حال السياسة البريطانية في فلسطين أيضًا. ونقلت جريدة **الجامعة العربية** عن كاتب فرنسي قوله إن فلسطين تدار بأحط أنواع الحكم الاستعماري، فإذا استمرت الجهود الصهيونية في فلسطين سائرة على هذا المنوال، فسوف تتحول في القريب العاجل إلى بلاد صهيونية محض، لا ترى فيها غير الشعب الصهيوني الذي هو خليط من أنحاء أوروبا وأميركا[56].

عند عقد المؤتمر الهندي العام، حضره محمد علي جوهر، على الرغم من مرضه، وألقى فيه خطابًا وجّهه إلى ملك بريطانيا، الملك جورج، وطالبه بإنصاف 320 مليون هندي. وقال إني لا أريد أن أعود إلى بلادي إلّا إذا استطعت العودة ومعي مادة الحرية في يدي، وإلّا فلن أرجع إلى وطني المستعبد، وأفضّل الموت في بلد أجنبي ما دام بلدًا حرًا، وشاء القدر أن يتوفّى بعد هذا الخطاب[57].

ثالثًا: وفاته ودفنه في القدس

أوقفت مدينة بومباي في 5 كانون الثاني/ يناير 1931 دولاب العمل؛ إذ أُغلق 50 مصنعًا للقطن، يعمل فيها مئة ألف عامل، طوال 24 ساعة. وأُقفِلَت المحال في جميع أنحاء المدينة، حدادًا على وفاة محمد علي جوهر في لندن، وقد وافق ذلك اليوم انقضاء ثمانية شهور على دخول المهاتما غاندي السجن[58].

وحينما جرى ترتيب نقل جثمانه إلى الهند، أرسل رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في فلسطين برقية إلى شقيقه شوكت علي، موضحًا له الحزن الذي عمّ فلسطين لوفاة شقيقه، وعن تعازيهم الحارةِ له[59]، واقترح عليه أن يجري دفنه في فلسطين، في أحد أروقة المسجد الأقصى[60]، فوافق شوكت علي على ذلك، وقال هذا فخرٌ نتقبّله مع عظيم الشكر، وأضاف: "كان أخي يحب العرب، ويعنى بخدمتهم، فلذلك أحببنا أن نعطيه لأهل فلسطين"[61] (ينظر الملحق 4). كما أرسل المهاتما غاندي من سجنه برقية إلى شوكت

---

53 سيدني جيمس (13 تموز/ يوليو 1859–13 تشرين الأول/ أكتوبر 1947)، بريطاني اشتراكي وخبير اقتصادي وأحد مؤسسي كلية لندن للاقتصاد، وأحد الأعضاء الأوائل في الجمعية الفابية في عام 1884، بالاشتراك مع جورج برنارد شو. وهو عضو في برلمان المملكة المتحدة 32 و33. ينظر:
C. E. Hill, "Sidney Webb and the Common Good: 1887-1889," *History of Political Thought*, vol. 14, no. 4 (Winter 1993), pp. 591-622.

54 "خطاب مولانا محمد علي في اجتماع العصبة"، **فلسطين**، العدد 213-1593، 1930/11/28، ص 1.

55 "الماركيز ريدنج ومولانا محمد علي"، **الجامعة العربية**، العدد 489، 1930/12/17، ص 1.

56 "سياسة بريطانيا المعقدة في فلسطين"، **الجامعة العربية**، العدد 399، 1930/7/7، ص 1.

57 "من خطاب للزعيم الكبير مولانا محمد علي ألقاه في المؤتمر الهندي العام"، **الحياة**، العدد 237، 1931/1/23، ص 1؛ "نبذة أخرى من تاريخ مولانا محمد علي"، **فلسطين**، العدد 259-1639، 1931/1/25، ص 4.

58 "صدى وفاة الزعيم الكبير مولانا محمد علي في الهند"، **الجامعة العربية**، العدد 506، 1931/1/11، ص 2.

59 "وقع وفاة الزعيم محمد علي"، **فلسطين**، العدد 246-1626، 1931/1/9، ص 2؛ "جثمان الزعيم الهندي مولانا محمد علي"، **فلسطين**، العدد 248-1628، 1931/1/11، ص 3.

60 "الزعيم الخالد مولانا محمد علي يدفن بجوار المسجد الأقصى"، **الحياة**، العدد 230، 1931/1/15، ص 1؛ "مدفن محمد علي"، **الكرمل**، العدد 1545، 1931/1/10، ص 3؛ "نقل رفات الزعيم محمد علي إلى فلسطين"، **الأخبار**، العدد 3403، 1931/1/15، ص 2.

61 "أعطته الهند للعرب"، **الحياة**، العدد 242، 1931/1/29، ص 2؛ مؤسسة إحياء التراث والبحوث الإسلامية (ميثاق) – أبو ديس، رقم الملف 0/24/6.2/55.



علي يُعزّيه بوفاة شقيقه، وكان نص البرقية "مصابكم مصابنا"[62]. وقررت الحكومة البريطانية أن تكون نفقات نقل جثمان محمد علي جوهر من إنكلترا إلى القدس على حساب الخزينة الإنكليزية[63].

جُهّز ضريح محمد علي جوهر داخل الرواق القائم بين باب القطانين وباب الحديد، من أروقة المسجد الأقصى، إلى يسار الداخل من باب القطانين (ينظر الملحق 5)، بمساحة نحو 56م². صُقلت جدرانه وغُطّيت بالرخام، وأغلقت النافذتان الغربية والشمالية اللتان كانتا في أعلى الحائط بالزجاج الملون، وفتحت له نافذة ومدخل، وعلى أعلى النافذة وضعت بلاطة رخام بطول مترين وعرض 56سم، كتب عليها الخطاط عبد القادر الشهابي:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (التوبة: 111)، ضريح المجاهد العظيم مولانا محمد علي جوهر، تغمّده الله برحمته. توفي بلندن في النصف من شعبان، ودفن بالقدس في الخامس من رمضان سنة 1349هـ[64].

وفي الساعة الرابعة من صباح يوم 21 كانون الثاني/ يناير، وصلت الباخرة باركندا إلى بورسعيد، وفيها جثمان محمد علي جوهر، يرافقه شقيقه شوكت علي وأرملته. وقد شارك في استقباله كبار الشخصيات المصرية والعربية والشعبية، ومنهم أحمد زكي باشا[65] مندوبًا عن الأمير عمر طوسون[66]، وأحمد بك مختار سكرتير الأمير محمد علي[67]، وإبراهيم بك يوسف عطا الله عضو مجلس الشيوخ وعلي بك لهيطة نيابة عن مصطفى النحاس باشا[68]، وأناب إسماعيل صدقي باشا[69] مدير مكتبه ليمثل الحكومة رسميًا.

---

62 "غاندي يعزي بالفقيد العظيم"، **الجامعة العربية**، العدد 516، 1931/1/25، ص 3.

63 "نفقات نقل جثمان مولانا محمد علي"، **فلسطين**، العدد 257-1637، 1931/1/23، ص 3؛ "أخبارنا التليفونية الأخيرة"، **فلسطين**، العدد 246-1626، 1931/1/9، ص 3.

64 "بناء ضريح الزعيم محمد علي في أحد أروقة الحرم المقدسي"؛ "أين وصل العمل في ضريح الفقيد العظيم".

65 أحمد زكي بن إبراهيم بن عبد الله (1867-1934)، شيخ العروبة، أديب مصري، من كبار الكتّاب. ولد في الإسكندرية وتخرج في مدرسة الإدارة والحقوق في القاهرة، أتقن الفرنسية، وكان يفهم الإنكليزية والإيطالية، وله بعض المعرفة باللاتينية. عُيّن مترجمًا لمجلس النظار، ثم سكرتيرًا ثانيًا، ثم أول. منح لقب باشا واتصل بعلماء المشرقيات، ومثّل مصر في مؤتمراتهم. وقام بفكرة إحياء الكتب العربية، فطبعت الحكومة المصرية مخطوطات عدة، تولى هو تصحيحها ومراجعتها. وأحكم صلته برجالات العرب في جميع أقطارهم. سُمّي شيخ العروبة، وسمّى داره بيت العروبة. جمع في مكتبته نحو عشرة آلاف كتاب ووقفها، فنقلت بعد وفاته إلى دار الكتب المصرية. ينظر: الزركلي، ج 1، ص 126-128.

66 عمر بن طوسون بن محمد سعيد بن محمد علي (1872-1944)، مؤرخ وباحث، من الأمراء السابقين في مصر. مولده ووفاته في الإسكندرية. تعلم في سويسرا. أتقن مع العربية التركية والفرنسية والإنكليزية. وعكف على تاريخ مصر الحديث وآثارها، وصنف كتبًا كثيرة بالعربية والفرنسية، واستعان في تأليفها ببعض كبار الكتّاب. آزر الحركة الوطنية المصرية بقلمه وماله، غير متقيد بتقاليد أسرته، في الانكماش عن الدخول في غمار الجمهور. وساعد أهل طرابلس الغرب حين أغارت عليهم إيطاليا في عام 1910 . كان من أعضاء المجمعين العلميين في مصر ودمشق، ومن أعضاء الجمعية الجغرافية في مصر. المرجع نفسه، ج 5، ص 48-49.

67 محمد علي بن محمد توفيق بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي (1875-1955)، ولد في القاهرة، وهو من الأمراء السابقين في مصر. شقيق الخديوي عباس حلمي الثاني، تعلم في القاهرة وسويسرا. وقام برحلات كثيرة، وأجاد الفرنسية والإنكليزية والتركية. ولما قامت الثورة العسكرية في مصر 1952 أقام قليلًا، ثم رحل إلى سويسرا، فتوفي في لوزان، ودفن في القاهرة. المرجع نفسه، ج 6، ص 306-307.

68 "يوم رثاء سمو الأمير محمد علي ودولة النحاس باشا وجنازة مولانا محمد علي"، **الحياة**، العدد 237، 1931/1/23، ص 1.
مصطفى النحاس باشا (1879-1965)، زعيم مصري، درس الحقوق، وعمل في المحاماة في المنصورة، إلى أن عُيّن قاضيًا في المحاكم الأهلية، انتسب إلى الوفد المصري برئاسة سعد زغلول. اعتقل مع زغلول وصحبه في عام 1921 في سيشل. انتخب وكيلًا، فرئيسًا لمجلس النواب. وبعد وفاة زغلول اختير خليفة له في رئاسة الوفد. تولى رئاسة الوزارة خمس مرات، وعقد معاهدة مع بريطانيا، كانت مقدمة للاستقلال. لزم بيته مكرهًا بعد الثورة 1952، حتى توفي في القاهرة. الزركلي، ج 7، ص 246.

69 إسماعيل صدقي باشا (1875-1950)، ابن أحمد شكري، ابن محمد سيد أحمد، سياسي مصري، ولد في الإسكندرية، تعلم في مدرسة الفرير ومدرسة الحقوق. ولي نظارة الزراعة. وعمل مع الوفد المصري في بدء تأليفه، اعتقل مع سعد زغلول وآخرين في مالطة في عام 1919 لشهر واحد، وبعد إطلاقه انقلب على الوفد. عيّن وزيرًا للمالية في عام 1921. اشترك مع ثروت باشا في مباحثاته مع اللورد اللنبي التي انتهت بتصريح 28 شباط/ فبراير. ولي رئاسة الوزارة بين عامي 1930 و1933، فغيّر الدستور المصري، وأنشأ حزبًا سمّاه حزب الشعب، وفتك ببعض العمال. وترأس الوزارة ثانية بين عامي 1946 و1947، ففاوض وزير الخارجية البريطانية (بيفن) ووضعا مشروع صدقي – بيفن، فرفضه أكثر المفاوضين المصريين، فاستقال من الوزارة وذهب إلى أوروبا، توفي في باريس، ونقل إلى القاهرة. وكان الجمهور المصري يمقت حكمه وحاول بعضهم اغتياله. وكان قويّ الصلة بالبنوك والشركات المالية، فانفرد بآراء مستنكرة في بعض القضايا القومية. المرجع نفسه، ج 1، ص 315.



والتفتازاني[70]، وخير الدين الزركلي[71]. ومن ثم سار الموكب إلى المسجد العباسي[72] وصليت على الجثمان صلاة الجنازة، وبعد الصلاة حمله 12 جنديًا من جنود الميناء، وشارك في الموكب نحو 50000 شخص، في مقدمهم أعيان بورسعيد ورجال الوفود ومندوبو الصحف وقنصل بريطانيا، واستغرق الموكب حوالى ساعة ونصف الساعة حتى وصل إلى عربة السكة الحديد التي خُصصت لنقله إلى القنطرة في القدس، وأقام شوكت علي وعائلة الفقيد في صالون المندوب السامي في مصر[73].

أما عن استعداد فلسطين لاستقبال الجثمان، فقد أرسل رئيس المجلس الإسلامي الأعلى 5000 دعوة إلى كبار الشخصيات العربية والأجنبية لحضور التأبين[74] الذي نشرت الصحف الفلسطينية برنامجه الخاص. وصُنعت، في مشغل دار الأيتام الإسلامية الكائن في حارة النصارى، سجادة خاصة، حيكَ عليها رسم محمد علي جوهر، كُتب تحته فقيد الإسلام الزعيم الهندي الكبير مولانا محمد علي جوهر، كي تُقَدّم إلى شقيقه شوكت علي لذكرى جهاد شقيقه في سبيل فلسطين وقضيتها[75]. وأرسل الأمير محمد علي قطعة من قماش الكسوة النبوية الشريفة ليُغطى بها النعش[76].

توقف الموكب في أكثر من محطة، بداية من القنطرة إلى خان يونس، فغزة، ومن ثم اللد والرملة، إلى أن وصل إلى القدس في يوم الجمعة، الساعة 9:30، وكان في استقباله رئيس المجلس الإسلامي الأعلى ووزير الأفغان محمد صادق بك المجدوي[77] ومحمد علي باشا وزير الأوقاف المصرية[78] وجمهور من العلماء والقضاة والمدرسين من مختلف مدن فلسطين[79]. تقدم الموكب مجموعة من فرسان البوليس الفلسطيني والإنكليزي، ومن ثم الجثمان الذي كان يحيط به العلماء وأعيان القدس ووجهاء من مصر وسورية وشرق الأردن ومدن فلسطين وقُراها، ومن ثم الجماهير الغفيرة التي شاركت في تشييع الموكب من المحطة إلى المسجد الأقصى، والتي قُدّر عددها بنحو 200 ألف شخص[80]. وقد استقبل وفد من جمعية السيدات العربيات[81] في القدس، مسلمات ومسيحيات، أرملة محمد علي جوهر وبقين معها إلى ما بعد الدفن[82].

---

70 محمد الغنيمي التفتازاني (1893-1936)، أديب، من مشايخ المتصوفة في مصر. وُلد في خطة الغنيمية التابعة لمدينة الزقازيق. تعلم في الزقازيق وفي مدرسة رأس التين، الإسكندرية. ورث في عام 1909 عن جده لأمه إبراهيم الغنيمي مشيخة الطريقة الغنيمية الخلوتية، وأصدر مجلة **البشائر** الصوفية. شارك في تأسيس جماعة الرابطة الشرقية وكان خطيبًا، فيه دعابة، وله نظم، يحسن الإنكليزية ويفهم الفرنسية. توفي في القاهرة. ينظر: المرجع نفسه، ج 8، ص 267.

71 "الاحتفال العظيم في بورسعيد بتشييع جثمان الفقيد العظيم مولانا محمد علي"، **الجامعة العربية**، العدد 515، 1931/1/23، ص 3؛ "جثمان الفقيد في بورسعيد حكومة مصر تشترك رسميًا"، **الحياة**، العدد 237، 1931/1/23، ص 1؛ "جثمان مولانا محمد علي"، **فلسطين**، العدد 249-1629، 1931/1/13، ص 3؛ "مولانا محمد علي الاستعداد للاحتفال بدفن جثمان"، **فلسطين**، العدد 251-1631، 1931/1/16، ص 1.
خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي (1893-1976م)، سياسي وكاتب ومؤرخ وشاعر سوري. نشأ في دمشق، وتعلم في مدارسها الأهلية، أصدر العديد من المجلات والصحف والكتب. الزركلي، ج 6، ص 325.

72 المسجد العباسي أحد أقدم المساجد التي بنيت في بورسعيد في مصر وأشهرها، أُنشئ في عام 1904، في عهد خديوي مصر عباس حلمي الثاني، ويُعد أحد الآثار الإسلامية المسجلة في بورسعيد، ويقع في حي العرب. ينظر: محمود عباس أحمد عبد الرحمن، **معالم مصر الحديثة والمعاصرة** (الهرم: الدار العالمية، 2006)، ص 270-271.

73 "الاستقبال في البلاد الأخرى"، **الجامعة العربية**، العدد 516، 1931/1/25، ص 3؛ "الاحتفال العظيم في بورسعيد بتشييع جثمان الفقيد العظيم مولانا محمد علي"؛ "لاستقبال مولانا شوكت علي"، **الحياة**، العدد 236، 1931/1/22، ص 1.

74 "Indian Leader's Funeral," *The Palestine Bulletin*, vol. 7, no. 1823 (16/1/1931), p. 1.

75 "ذكرى جهاد محمد علي نحو فلسطين"، **فلسطين**، العدد 251-1631، 1931/1/16، ص 3.

76 "يوم رثاء سمو الأمير محمد علي ودولة النحاس باشا وجنازة مولانا محمد علي".

77 "وزير الأفغان المفوض يشترك في الاحتفال"، **فلسطين**، العدد 257-1637، 1931/1/23، ص 7؛ "وزير الأفغان"، **الحياة**، العدد 237، 1931/1/23، ص 1.

78 "رثاء محمد علي"، **الكرمل**، العدد 1549، 1931/1/24، ص 2.

79 "اليوم التاريخي العظيم محمد علي بالقدس لماذا يدفن بفلسطين".

80 "اليوم العظيم المشهود في تاريخ فلسطين 20.000 تشترك في القدس بتشييع جنازة الزعيم الجليل الفقيد العظيم مولانا محمد علي"، **الجامعة العربية**، العدد 516، 1931/1/25، ص 2.

81 جمعية السيدات العربيات، جمعية كانت تقوم على رفع شأن النهضة النسائية، إضافة إلى خدماتها في سبيل مساعدة الفقراء والمحتاجين في المأكل والملبس، إضافة إلى الخدمات الطبية. وعملن أيضًا في مساعدة التلميذات المحتاجات، ليكنّ عضوات عاملات في المدينة. ينظر: "أعمال جمعية السيدات العربيات في القدس"، **فلسطين**، العدد 64-2022، 1932/5/15، ص 5.

82 "وفد السيدات"، **الكرمل**، العدد 1549، 1931/1/24، ص 3.



بدأ سير الموكب من المحطة في الساعة العاشرة صباحًا، ووصل إلى باب العامود بعد ساعتين ونصف الساعة، وهناك أُنزل النعش عن ظهر السيارة، وحمل على الأكتاف، وقد ازدحم فناء الصخرة المشرفة بالجماهير حتى تعذر الوقوف، ووقف شوكت علي يتقبّل تعازي قناصل الدول وكبار رجال الحكومة والرؤساء الروحانيين والأجانب. وأدخل النعش من باب الجنة، أي الباب الشمالي لقبة الصخرة المشرفة، حيث صلى عليه جمهورٌ كبير من العلماء والوجهاء وجمهور الأمة، ثم أخرج من الباب الجنوبي، إلى المسجد القبلي[83] الذي اكتظ بجماهير المصلين، وهناك صُلّيت صلاتا الجمعة والجنازة، وحضرت الصلاة أرملة الفقيد[84].

بدأ التأبين في صحن الصخرة المشرفة على المنبر الرخامي المحاذي للميازين الجنوبية، وإليه أخرج النعش، ووضع إلى جانب المنبر، ثم صعد المنبر شقيقه شوكت علي[85] وارتجل كلمة بالإنكليزية كان يترجمها جمال الحسيني[86]، ثم وقف رئيس المجلس الإسلامي الأعلى أمين الحسيني وألقى خطابه في تأبين الفقيد[87]، ومن ثم ألقى شيخ العروبة أحمد زكي كلمة نيابة عن الأمير عمر طوسون[88]، وكانت كلمة لعبد الحميد سعيد الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين في مصر[89]، ثم ناب عبد الوهاب النجار عن أمير الشعراء أحمد شوقي وألقى قصيدته التي نظمها في رثاء محمد علي جوهر، ومنها هذه الأبيات:

بَيتٌ عَلى أَرضِ الهُدى وَسَمائِهِ	الحَقُّ حائِطُهُ وَأُسُّ بِنائِهِ
وَاليَومَ ضَمَّ الناسَ مَأتَمُ أَرضِهِ	وَحَوى المَلائِكَ مِهرَجانُ سَمائِهِ
يا قُدسُ هَيِّئ مِن رِياضِكَ رَبوَةً	نَزيلِ تُربِكَ وَاِحتَفِل بِلِقائِهِ
هُوَ مِن سُيوفِ اللَهِ جَلَّ جَلالُهُ	ومِن سُيوفِ الهِندِ عِندَ قَضائِهِ[90]

ثم ألقى محمد الغنيمي التفتازاني شيخ السادة الغنيمية والسكرتير العربي لجمعية الرابطة الشرقية[91]، باسم الرابطة، كلمة التأبين، وبعده كانت كلمة لزعيم تونس عبد العزيز الثعالبي، باسم شمال أفريقيا والمغرب[92]، ومن ثم قصيدة رثائية للشاعر وديع البستاني، باسم مسيحيي فلسطين، ويقال إنه عندما ألقى منها البيت الآتي:

83 تبلغ مساحة المسجد الأقصى 144 دونمًا، والمسجد القبلي هو الجزء الجنوبي المسقوف من المسجد ذي القبة الرصاصية.

84 "اليوم العظيم المشهود في تاريخ فلسطين".

85 المرجع نفسه.

86 "المهرجان العظيم في دفن جثمان مولانا محمد علي"، **صوت الشعب**، العدد 675، 1931/1/31، ص 2.
صوت الشعب (بيت لحم)، صحيفة سياسية إخبارية، كانت تصدر أسبوعيًا، منذ عام 1922.

87 "إلى الأمة العربية الكريمة في فلسطين"، **الجامعة العربية**، العدد 515، 1931/1/23، ص 1؛ "خطاب حضرة صاحب السماحة الحاج أمين أفندي الحسيني في رثاء الفقيد العظيم مولانا محمد علي"، **الجامعة العربية**، العدد 516، 1931/1/25، ص 1.

88 "كلمة شيخ العروبة العلامة أحمد زكي باشا في تأبين الفقيد العظيم"، **الجامعة العربية**، العدد 516، 1931/1/25، ص 1-2.

89 "خطاب صاحب السعادة الدكتور عبد الحميد بيك سعيد الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين في القطر المصري في تأبين الفقيد"، **الجامعة العربية**، العدد 517، 1931/1/26، ص 1؛ "مؤبنو الفقيد العظيم"، **الحياة**، العدد 237، 1931/1/23، ص 1.

90 "قصيدة أمير الشعراء أحمد بك شوقي في رثاء الفقيد العظيم"، **الجامعة العربية**، العدد 516، 1931/1/25، ص 1؛ أحمد شوقي، **الشوقيات**، ج 3 (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2012)، ص 551.

91 جمعية الرابطة الشرقية، جمعية للتعارف والتعاون العلمي والأدبي والاقتصادي بين الشعوب الشرقية، بدأت فكرتها في حفلة كُرّم فيها أحد الوجهاء الإيرانيين في مصر كاتبًا وأديبًا إيرانيًا، أراد العودة إلى بلاده. هذا الأديب هو عبد المحمد، صاحب جريدة **جهرنما** الفارسية المصرية، وذلك الوجيه هو ميرزا مهدي بك رفيع مشكي، أمين التجار، وقد أجاب الدعوة كثيرون من كبار العلماء والأدباء والوجهاء المصريين وغيرهم. فاقترح كل من محمد رشيد رضا وأحمد زكي باشا والشيخ مصطفى القاياتي إنشاء جمعية تدعم التعاون العلمي والأدبي، فأفضى ذلك إلى اقتراح تأليف لجنة لوضع مشروع الجمعية، فتألفت اللجنة، ثم شرعت تجتمع في دار عبد الحميد البكري. ينظر: محمد رشيد رضا، "جمعية الرابطة الشرقية"، **المنار**، العدد 23 (رجب 1340هـ)، ص 219.

92 "كلمة زعيم تونس العلامة الأستاذ عبد العزيز الثعالبي في رثاء صديقه الفقيد العظيم مولانا محمد علي"، **الجامعة العربية**، العدد 517، 1931/1/26، ص 1.



فشفت آذان السمـاء مؤذن | يـرتـل من آيـاتـه وينغـم

نطق المؤذن بمآذن المسجد الأقصى لأذان العصر بصوتٍ عالٍ، فكان توافقًا غريبًا[93]، ثم ألقى مصطفى الغلاييني[94] رئيس المجلس الإسلامي في بيروت ومندوب الهيئات والجمعيات السورية في الساحل والداخل، قصيدته وكان مطلعها:

قـد رُوع المسلمـون والعـربُ | ساعـة جـاء النعـي ينتحـبُ
فـالهند مفجـوعة بسـيـدها | تلظى بنار الجـوى وتلتهـب
والعرب من تونس إلى عدنٍ | مشبوبةٌ في صدورها الكربُ(95)

ونيابة عن الأمير محمد علي، ألقى عجاج نويهض[96] كلمة، ثم ارتجل خطابًا تكلم فيه عن بعض النواحي البارزة في حياة محمد علي جوهر، مما لم يذكره المؤبّنون والخطباء، ومما تفرّد هو بمعرفتها، نظرًا إلى صلته الوثيقة به[97]. ثم ألقى شوكت علي خطابًا وجيزًا، قال فيه وهبناكم خير ما عندنا، فعاهدونا على الجهاد[98]. وقد كان هناك عدد كبير جدًا من المؤبنين الذين نظموا شعرًا أو نثرًا باسم أشخاصهم أو جمعياتهم أو هيئاتهم السياسية والاجتماعية والخيرية، لكن ضيق المقام حال دون إلقاء مراثيهم[99].

ثم سارت الجماهير بالتهليل والتكبير، تحمل النعش إلى الضريح في المدرسة الخاتونية[100]، ونظرًا إلى ضيق المكان هناك، لم يدخل إليه إلّا شقيقه ونجله زاهد علي وأرملته ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى وأعضاء الوفود الإسلامية، منهم الشيخ عبد الله سراج[101] مندوب الملك حسين، والتفتازاني والشيخ نادر حسن الأنصاري شيخ زاوية الهنود في القدس[102]، وصلّوا جميعهم عليه (ينظر الملحق 6).

وفي التأبين، برز لنا صدق الرابطة الوطنية بين المسلمين والنصارى الذين شاركوا مشاركة فاعلة فيه، كما أرسلوا وفودًا من مدن وقرى فلسطين كلها، أُسوةً بالمسلمين، ليشاركوا فيه[103].

---

93 "قصيدة الأستاذ البستاني في رثاء الفقيد العظيم"، **الجامعة العربية**، العدد 517، 1931/1/26، ص 2.

94 مصطفى بن محمد سليم الغلاييني (1886-1944)، شاعر وكاتب من أعضاء المجمع العلمي العربيّ، عمل خطيبًا في الجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى. ورحل في عام 1922 إلى شرقي الأردن، فعهد إليه الشريف عبد الله بتعليم ابنيه، فمكث مدة وانصرف إلى بيروت، فنُصّب رئيسًا للمجلس الإسلامي فيها، وقاضيًا شرعيًا إلى أن توفي. الزركلي، ج 7، ص 245.

95 "قصيدة الأستاذ الغلاييني في رثاء الفقيد العظيم"، **الجامعة العربية**، العدد 517، 1931/1/26، ص 1.

96 عجاج نويهض (1898-1982)، باحث ومفكر ومترجم، وُلد في لبنان. كان يكره أنواع التعصب، ويرفض آراء الملحدين الذين لا يعيرون تعاليم الدين الحنيف الاحترام اللازم. عُرف بترجمته **بروتوكولات حكماء صهيون**. عمل في المجلس الإسلامي الأعلى في فلسطين ومارس المحاماة، وكان مديرًا للقسم العربي في دار الإذاعة الفلسطينية، ثم مدير الإذاعة الأردنية، ومدير المطبوعات في الحكومة الأردنية، وشغل منصب مساعد رئيس الديوان الملكي في عمّان. وهو صاحب مجلة **العرب** الأسبوعية، ومطبعة "العرب" في القدس منذ عام 1932. ينظر: محمد خير بن رمضان بن إسماعيل يوسف، **تكملة معجم المؤلفين-وفيات** (بيروت: دار ابن حزم، 1997)، ص 275-371.

97 "كلمة سمو الأمير محمد علي في عزاء الفقيد العظيم"، **الجامعة العربية**، العدد 516، 1931/1/25، ص 1.

98 "أعاظم الرجال"، **الكرمل**، العدد 1549، 1931/1/24، ص 3.

99 "اليوم العظيم المشهود في تاريخ فلسطين".

100 المدرسة الخاتونية، تقع في باب الحديد، جوار المسجد الأقصى، أوقفتها أغل خاتون بنت شمس الدين محمد بن سيف الدين القازانية البغدادية، ثم أكملت عمارتها ووقفت عليها أصفهان شاه بنت الأمير قازان شاه في عام 782، ومن أوقافها قرية دير جرير في ظاهر القدس. محمد كرد علي، **خطط الشام**، ط 3 (دمشق: مكتبة النوري، 1983)، ج 6، ص 118؛ فريدة محمد علي جاموس، "دور العلماء في النظام التعليمي في القدس في أواخر العهد العثماني 1800-1917"، رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستير، جامعة بيرزيت، فلسطين، 2010، ص 10-150.

101 عبد الله بن عبد الرحمن سراج (1875-1948)، وُلد في مكة المكرمة، وتلقى تعليمه في المدرسة الصولتية، ثم التحق بالأزهر. أصبح مفتي الحنفية في مكة في عام 1907. انتُخب ممثلًا عن مكة المكرمة في مجلس المبعوثان العثماني، وكان قاضي القضاة في الحجاز، كما تولّى منصبي نائب رئيس وزراء المملكة ورئيس وزرائها. يُعدُّ أول وآخر رئيس وزراء أردني مُعَمَّم. محمد علي مغربي، **أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر والخامس عشر للهجرة وبعض القرون الماضية**، ج 3 (جدة: دار تهامة، 1404هـ)، ص 375-393.

102 اليوم العظيم المشهود في تاريخ فلسطين".

103 "اشتراك النصارى"، **الكرمل**، العدد 1549، 1931/1/24، ص 2.



أما عن موقف اليهود من دفن محمد علي جوهر في القدس، فقبل وصول الجثمان كُتبت مقالة في صحيفة **الأورور**[104] اليهودية، كان عنوانها "ماذا حدث في عقول الصهيونية؟"، اتهموا فيه أمين الحسيني باستغلال محمد علي جوهر حيًّا وميتًا، وأنه يريد أن يجعل مسلمي الهند يقومون بحركة زحف كبيرة إلى فلسطين، إلى "هيكل سليمان" كما جاء في المقالة، وتساءلت المقالة عن سبب غفلة زعماء الصهيونية عمّا يحدث، وذكّر كاتبها اليهود بمواقف محمد علي جوهر من الصهيونية، وقال هذا محمد علي جوهر الذي قال في المؤتمر الهندي: "أيتها الحكومة البريطانية إن كنت عاجزة عن سحق الصهيونية في فلسطين وإذا كان فمك لا يتسع لابتلاع الصهيونيين، فإن 70 مليونًا من مسلمي الهند سيأتون إلى فلسطين لابتلاعها". وأشارت المقالة إلى المقالة التي كتبها محمد علي جوهر وقال فيها: "الصهيونية مجرمة، الصهيونية دنسة، وفلسطين مقدسة، فكيف تحاول إنكلترا الجمع بين النقيضين؟". وأكدت المقالة أن محمد علي جوهر عدو الصهيونية الألد، وزميل هتلر في فلسطين، فكيف يدفن في القدس[105].

تجب الإشارة أيضًا إلى موقف صحيفة **دافار**[106] وهي الصحيفة الرسمية لحزب العمال اليهودي الذي يعتبر صاحب الغالبية المطلقة في جميع المؤسسات الصهيونية في فلسطين وخارجها في فترة الانتداب، فقد اعتبرت دفن محمد علي جوهر في القدس مؤامرة تستحق السخط والغضب[107]. وأن فكرة رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في دفن محمد علي جوهر في القدس ما هي إلّا إعادة أواصر المحبة بين العرب والهنود التي بدأت منذ عهد السلطان عبد الحميد[108]، إضافة إلى جلب زعماء العالم إلى القدس لمناقشة قضية فلسطين بحجة تأبين محمد علي جوهر[109]، ومن ثمّ فإن ذلك كله لا يصب في مصلحة اليهود، كما صرّحت إحدى الصحف في عام 1923، أن اليهودي الذي لا يعتبر المسجد الأقصى وقفًا يهوديًا، فهو خائن[110].

جاء الزعيم الرسمي للصهيونية في فلسطين، فريدريك هيرمان كيش Frederick Hermann Kisch[111] يداري على ما قامت به الصحف اليهودية، وليمثل العكس تمامًا، فقد أرسل إلى شوكت علي رسالة تعزية يُعرب له فيها عن أسفه الشديد لوفاة شقيقه[112]، ويتمنى أن يكون نقل جثمان محمد علي جوهر إلى فلسطين لدفنه فيها فاتحة هدوء وسلام بين المسلمين واليهود. وبعث إلى

---

104 *L'AURORE* مجلة أسبوعية، أسّسها لوسيان شيوت في إسطنبول، في عام 1909. وأُغلقت في عام 1919 بسبب ضغوط من السلطات التركية، وهناك من يقول لأسباب اقتصادية. وفي عام 1921 انتقل شيوت للعيش في القاهرة. وفي عام 1924 أعاد نشرها في القاهرة، تحت اسمها وشكلها الأصليين. ينظر: المكتبة الوطنية الإسرائيلية (بالعبرية)، في: https://bit.ly/48fCI07

105 "أقوال الصحف الأجنبية في الفقيد العظيم مولانا محمد علي".

106 **دافار** (وتعني بالعربية القول)، جريدة عبرية إسرائيلية يومية، صدرت بين عامي1925 و1996 عن الهستدروت العامة، وتعني كلمة دافار بالعبرية القول.

107 "رياء ونفاق ولكن لا بأس بهما"، **فلسطين**، العدد 356-1636، 1931/1/22، ص 2.

108 "على حساب من سيتم دفن محمد علي"، **دافار**، 1931/1/11، ص 1. (بالعبرية)

109 "Muhammad Ali and the Arabs," *The Palestine Bulletin*, vol. 7, no. 1821 (7/1/1931), p. 1; "Sentinel," *News Brevities*, vol. 81, no. 4 (23/1/1931), p. 27.

السلطان عبد الحميد الثاني (1842-1918) هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية، والسادس والعشرون من سلاطين آل عثمان الذين جمعوا بين الخلافة والسلطنة، وآخر من امتلك سلطة فعلية منهم، تقسم فترة حكمه قسمين: الدور الأول وقد دام مدة سنة ونصف السنة، ولم تكن له سلطة فعلية، والدور الثاني، حكم خلاله حكمًا فرديًا دام قرابة ثلاثين عامًا. تولى الحكم في 31 آب/ أغسطس 1876، وخُلع بانقلابٍ في 27 نيسان/ أبريل 1909. سيف الله أرباجي، **السلطان عبد الحميد الثاني: مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية** (القاهرة: دار النيل، 2011).

110 "هل المسجد الأقصى وقف يهودي"، **اليرموك**، العدد 305، 1928/11/16، ص 3.

111 فريدريك هيرمان كيش (1888-1943)، التحق بكلية كليفتون، وبعدها بالأكاديمية العسكرية الملكية في وولويتش. انضم إلى المهندسين الملكيين في عام 1909 وخدم معهم في الحرب العالمية الأولى في فرنسا والشرق الأوسط. شغل أيضًا منصب رئيس اللجنة الصهيونية لمنطقة القدس بين عامي 1923 و1931. وقد سمحت له خلفيته العسكرية البريطانية بإقامة علاقات ممتازة مع الإدارة البريطانية لفلسطين الانتدابية.

112 "رياء ونفاق ولكن لا بأس بهما".



صحيفة **فلسطين** نص تعزية الوكالة اليهودية، لنشرها فيها، ومن ثم أرسل حاييم وايزمان Chaim Weizmann[113] إلى رئيس المجلس الإسلامي الأعلى يطلب منه بأن يسمح لليهود بالاشتراك في الجنازة[114].

وعادت الصحف اليهودية لتزرع بذور الفتنة بين مسلمي الهند وفلسطين بعد انتهاء مراسم الدفن، فقالت لو دفن محمد علي جوهر في رامبور في الهند لكان لقي احتفالًا عظيمًا، وأن مسلمي فلسطين لم يقدّروا محمد علي جوهر حق تقديره. كما قال أحد اليهود ساخرًا بعد دفن محمد علي جوهر في القدس، مُحدّثًا شخصًا طلب منه أن يُعلّمه المكر، فأجابه من أراد أن يتعلم المكر، فليذهب إلى مفتي القدس! لأن الرجل الذي استطاع بمكره أن يدفن محمد علي جوهر في القدس، فهو يستطيع أن يعلم المكر أكثر من أي شخص آخر[115].

خاتمة

كان محمد علي جوهر سياسيًا وصحافيًا هنديًا، عارض الانتداب البريطاني في الهند، وفي بلاد المسلمين جميعًا، عرف بمناصرته للمسلمين وقضية فلسطين، زار القدس بعد أحداث البُراق وانتقد السياسة البريطانية في تعاملها مع قضايا المسلمين هناك، وأدرك أن السياسة البريطانية تصب في مصلحة اليهود على حساب الفلسطينيين. ونبّه العرب إلى خطورة الهجرة اليهودية وبيوع الأراضي التي تجري في فلسطين. وحينما توفي ووصل جثمانه إلى القدس، حضر التأبين مجموعة كبيرة من علماء المدينة وأعيانها، ووجهاء من مصر وسورية وشرق الأردن ومدن فلسطين وقراها، إضافة إلى الجماهير الغفيرة من مسلمين ومسيحيين ويهود.

أما في خصوص الموقف البريطاني من جنازة محمد علي جوهر وترحيبها بدفنه في المسجد الأقصى، على الرغم من منعه في السابق من دخول فلسطين، وهو على قيد الحياة، فيعود إلى أسباب سياسية وأمنية فحسب، لأن ما حدث بعد وفاته، مثل الإفراج عن غاندي وإخراج الهند شيئًا فشيئًا من يد السلطات البريطانية، يؤكد أن الذي زرع بذور الحرية هو محمد علي جوهر، والذي قطفها هو غاندي، وهذا النموذج متكرر في التاريخ الحديث، كما حدث مع مالكوم إكس ومارتن لوثر كنغ في الولايات المتحدة الأميركية.

فطنت الصهيونية لخطورة دفن محمد علي جوهر في القدس، واعترض الصهيونيون في بداية الأمر، ولعل اعتراضهم لم يكن لحادث الدفن في حد ذاته، فقد كان اعتراضهم على مكان الدفن، في ذلك المكان الإسلامي المقدس الذي عرف العالم ما يبذله اليهود في سبيل حيازته. ولم تكن مطامع اليهود في هذه البلاد سرًا مغلقًا، ولم يأتِ اليهود إلى فلسطين طامعين في أراضي العرب الزراعية حبًا في الاستعمار الزراعي فحسب، بل لم يجنوا من الأراضي التي استثمروها من العرب جزءًا من فائدة الأموال التي دفعوها، كما أنهم لم يستغلوا أكثر من ثلث ما في أيديهم من الأراضي، لأن الهدف الحقيقي كان بسط سيادتهم السياسية تحقيقًا لمطامعهم القومية، ولسنا نعلن حقيقة جديدة إذا قلنا إن الصراع بين العرب واليهود في هذه البلاد كان وسيبقى صراعًا على الحق السياسي الذي يُعد تفريط المسلمين فيه تنازلًا عن حقهم الطبيعي في الحياة.

يجب أن نعيد صياغة تاريخنا بأيدينا حتى نحميه من السرقة والضياع .

113 حاييم وايزمان (1874-1952)، يعد أشهر شخصية صهيونية في التراث الصهيوني بعد تيودور هرتزل. أدّى الدور الأهم في استصدار وعد بلفور في تشرين الثاني/ نوفمبر 1917.

114 "بعد يوم محمد علي"، **فلسطين**، العدد 263-1643، 1931/1/30، ص 4؛ "الوكالة اليهودية تعزي بالفقيد العظيم"، **الجامعة العربية**، العدد 516، 1931/1/25، ص 3.

115 "بعد يوم محمد علي"، ص 4.



المراجع

العربية

أرباجي، سيف الله. **السلطان عبد الحميد الثاني: مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية**. القاهرة: دار النيل، 2011.

الألوائي، محي الدين. "سيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكرة الإسلامية". **البنوك الإسلامية**. العدد 11 (أيار/ مايو 1980).

البرغوثي، تميم. **قالوا لي بتحب مصر**. ط 2. القاهرة: دار الشروق، 2007.

______. **في القدس**. القاهرة: دار الشروق، 2009.

البغدادي، عبد الحق الأعظمي. "جمعية خدام الكعبة". **المنار**. العدد 16 (جمادى الأولى 1331هـ).

بنغيم، سكندر. **مذكرات رحلة حج لأميرة بوبال، النواب: سكندر بيغم (1233-1285هـ)**. ترجمة إبراهيم البطشان وثمامة فيصل بن أبي المكارم. لندن: eKutub Publishing House، 2022.

جاموس، فريدة محمد علي. "دور العلماء في النظام التعليمي في القدس في أواخر العهد العثماني 1800-1917". رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستير. جامعة بيرزيت. فلسطين. 2010.

جمعة، محمد لطفي. **حياة الشرق: دوله وشعوبه وماضيه وحاضره**. المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2014 [1922].

رضا، محمد رشيد. "نظرة في الحرمين الشريفين ومشروع جماعة خدام الكعبة". **المنار**. العدد 16 (رجب 1331هـ).

______. "جمعية الرابطة الشرقية". **المنار**. العدد 23 (رجب 1340هـ).

الزركلي، خير الدين. **الأعلام**. ط 15. بيروت: دار العلم للملايين، 2002.

الشهراني، عبد االله محمد علي. "موقف جمعية الخلافة الهندية من ضم الملك عبد العزيز الحجاز 1337-1344 هـ/ 1919-1926م". **مجلة القراءة والمعرفة**. العدد 223 (أيار/ مايو 2020).

شوقي، أحمد. **الشوقيات**. المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2012.

عبد الرحمن، محمود عباس أحمد. **معالم مصر الحديثة والمعاصرة**. الهرم: الدار العالمية، 2006.

العزة، هيا موسى. "إدارة المسجد الأقصى المبارك". رسالة أعدت للحصول على شهادة الماجستير. جامعة اليرموك، الأردن، 2021.

غاندي، مهنداس كارامشاند. **غاندي السيرة الذاتية**. ترجمة محمد إبراهيم السيد. القاهرة: مؤسسة هنداوي، 2017.

كرد علي، محمد. **خطط الشام**. ط 3. دمشق: مكتبة النوري، 1983.

مغربي، محمد علي. **أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر والخامس عشر للهجرة وبعض القرون الماضية**. جدة: دار تهامة، 1404هـ.

الموسوعة التفاعلية للقضية الفلسطينية. في: https://bit.ly/41GBOqI

نويهض، عجاج. "الحاج محمد أمين الحسيني". **شؤون فلسطينية**. العدد 36 (آب/ أغسطس 1974).

يوسف، محمد خير بن رمضان بن إسماعيل. **تكملة معجم المؤلفين-وفيات**. بيروت: دار ابن حزم، 1997.



الأجنبية

Goold, Douglas. "Lord Hardinge and the Mesopotamia Expedition and Inquiry, 1914-1917." *The Historical Journal*. vol. 19, no. 4 (December 1976).

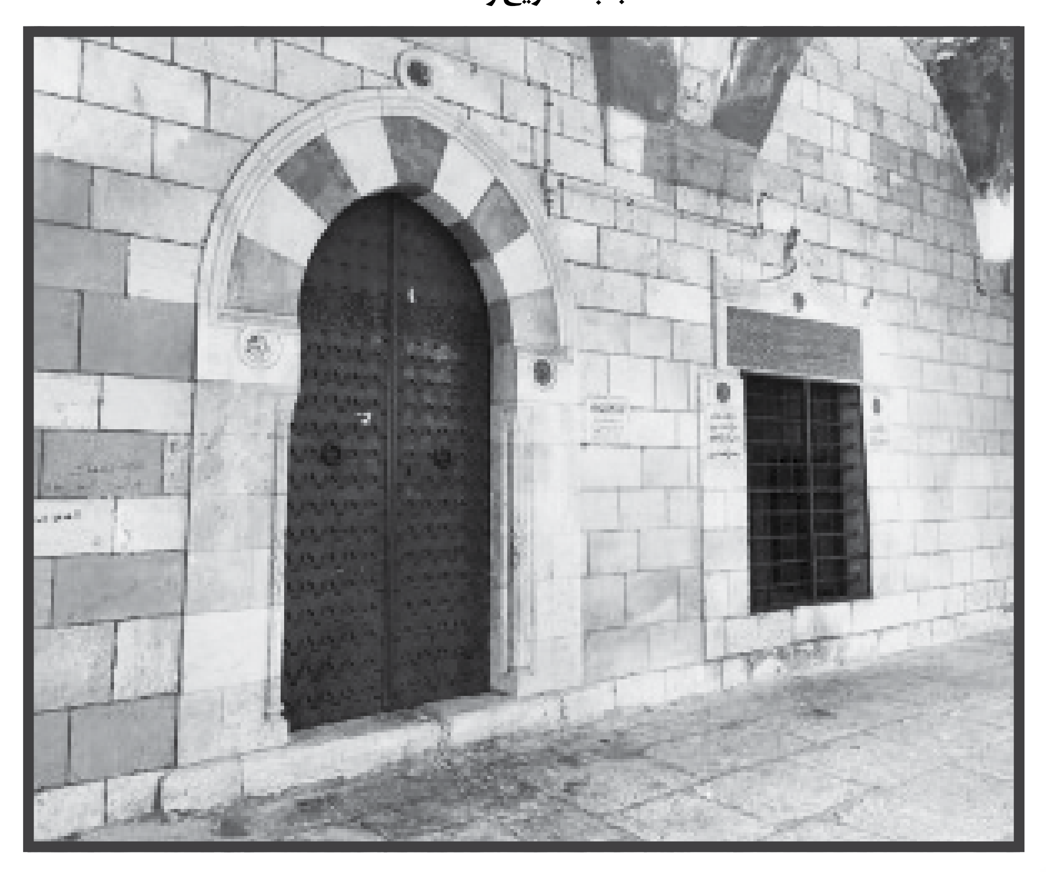
Hill, C. E. "Sidney Webb and the Common Good: 1887-1889." *History of Political Thought*. vol. 14, no. 4 (Winter 1993).

Mišković, Nataša, Harald Fischer-Tiné & Nada Boškovska (eds.). *The Non-Aligned Movement and the Cold War: Delhi, Bandung, Belgrade*. Abingdon/ New York: Routledge, 2014.

"Murad, Sheikh Mohammed (1875-1929)." PASSIA – Jerusalem (Palestinian Academic Society for the Study of International Affairs). at: https://bit.ly/3ve8XOt

الملاحق

الملحق (1)
باب الضريح ونافذته



المصدر: تصوير الباحثة، 2022.



نافذة الضريح



المصدر: المرجع نفسه.

باب المكان المدفون فيه المرحوم مولانا محمد علي


باب المكان المدفون فيه المرحوم مولانا محمد علي

المصدر: بيان المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى في فلسطين لسنة 1923-1924 (القدس: مطبعة دار الأيتام الإسلامية، 1924).



الملحق (2)
نداء الزعيم الهندي الكبير مولانا محمد علي

نداء الزعيم الهندي الكبير

مولانا محمـــــد على

رئيس مؤتمر الخلافة

بشأن حالة فلسطين وحوادثها الاخيرة سنة ١٣٤٨ — ١٩٢٩

وجهه الى اهل الهند مسلمين وهندوس في جريدة (بومبي كرونكل Bombay Chronicle)
في سبتمبر ١٩٢٩

نشر مولانا محمد علي ، الزعيم الهندي الكبير ورئيس مؤتمر الخلافة ، بياناً مسهباً في جريدة (بومبي كرونكل Bombay Chronicle الصادر في سبتمبر ١٩٢٩) بَسَطَ فيه الحالة في فلسطين والظلم النازل باهلها ، وفصّل المطامع الصهيونية ، السياسية والدينية ، ودعا اهل الهند مرة ثانية ليُقسموا الايمان المغلظة بانهم لا يدّخرون نفساً ولا مالاً في سبيل الدفاع عن البراق الشريف والمسجد الاقصى ، وهذا بعض ما جاء في بيانه الذي كان له أبلغ الأثر في اهل الهند من مسلمين وهندوس .

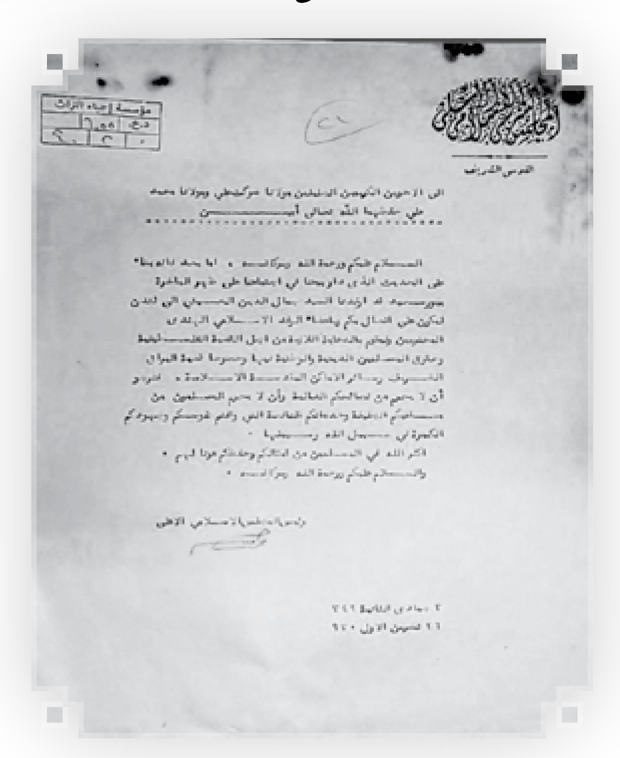
قال في هذا النداء :

(.... ان افئدة المسلمين الحقيقيين في قارّات العالم الخمس ، قد ارتاعت وَجلاً لهذا الحادث العظيم في فلسطين ، لان العالم الاسلامي لا يمكنه ان يتحمل ، فوق ما تحمّل الى الآن ، ضياع أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين .

المصدر: مؤسسة إحياء التراث والبحوث الإسلامية (ميثاق) –القدس/ أبو ديس. رقم الملف 13/30/1.72/4.



الملحق (3)



القدس الشريف

إلى الأخوين الكريمين المسلمين مولانا شوكت علي ومولانا محمد علي حفظهما الله تعالى آمين

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

رئيس المجلس الإسلامي الأعلى

المصدر: مؤسسة إحياء التراث والبحوث الإسلامية (ميثاق) – القدس/ أبو ديس. رقم الملف 0/24/6.2/55.



المصدر: **بيان المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى في فلسطين لسنة 1923-1924.**



الملحق (4)

مؤسسة إحياء التراث

برقية

لندن في ٨/١/١٩٣١

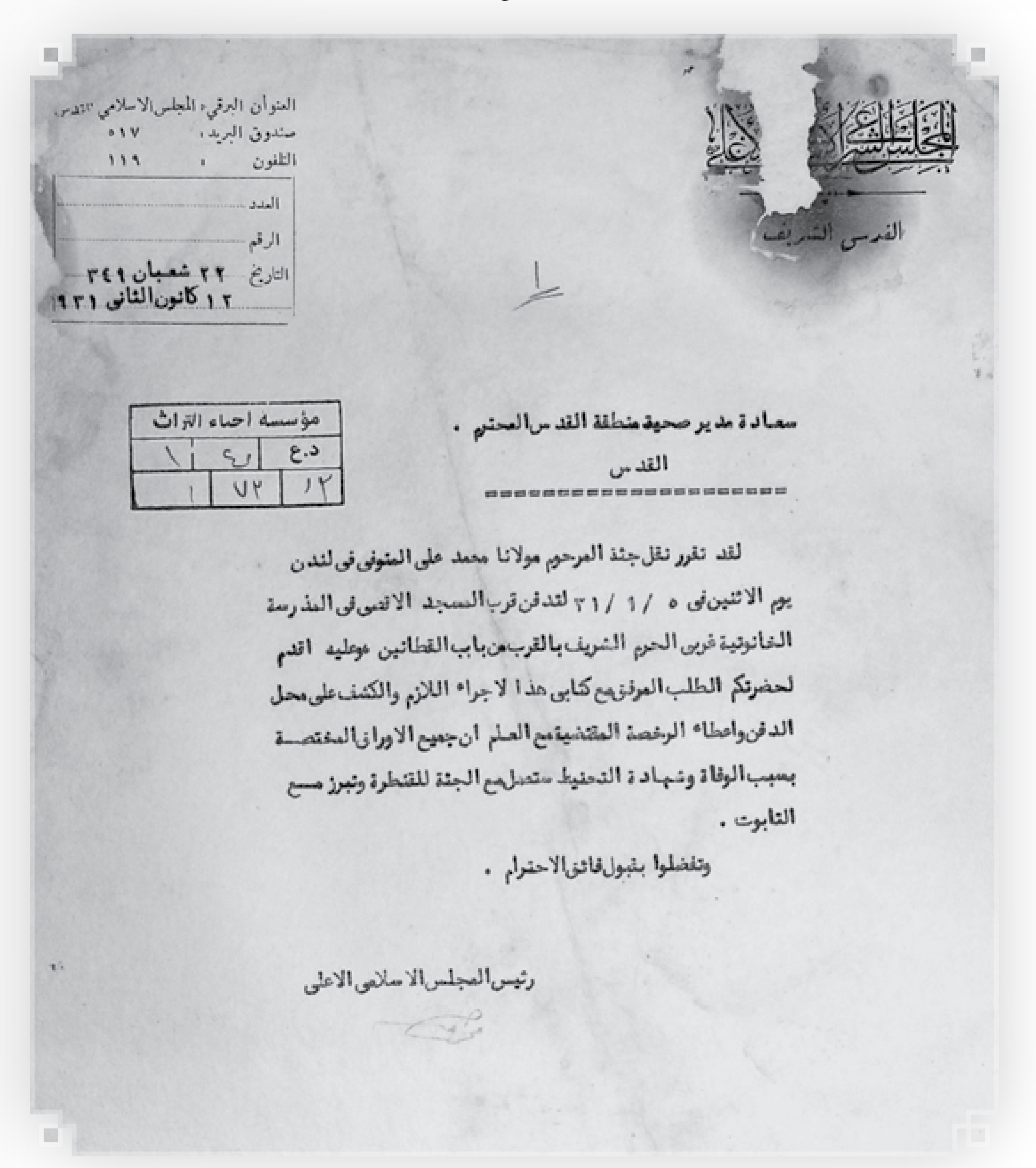
أمين الحسيني – رئيس المجلس الاسلامي الاعلى – القدس

نحن وحرم الفقيد والعائلة والاصدقاء نتقبل مع الفخر والشكر اقتراحكم بدفن الفقيد مولانا محمد علي في فناء المسجد الاقصى ببيت المقدس وهي قبلة الاسلام الاولى . وقبل ورود برقيتكم كانت عزيمتنا صحت على دفنه في وطنه العزيز دلهي حيث مثوى الوالدة بها ومثوى كثير من الاهل والولد في رامبور . ولكنكم باقتراحكم هذا اوليتمونا فخراً نتقبله مع عظيم الشكر . اعلمكم أن مولانا محمد على كثيرا ما جرى على لسانه اسم بيت المقدس وهو على فراش الاحتضار . مسافرون في الباخرة ماركندا فنصل بورسعيد في صباح اليوم الحادي والعشرين . الحكومة البريطانية تفضلت فابرقت الى المندوب السامي في فلسطين بتقديم كل مساعدة . فوض مصر يتخذ التدابير لتسهيل النزول الى البر . حرم الفقيد محمد علي وانا وزاهد علي مرافقون رفات الفقيد . الرجاء اعلام اخواننا في مصر وسوريا .

شوكت علي

المصدر: مؤسسة إحياء التراث والبحوث الإسلامية (ميثاق) – القدس/ أبو ديس. رقم الملف 0/24/6.2/55.

الملحق (5)



المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى
القدس الشريف

العنوان البرقي: المجلس الاسلامي القدس
صندوق البريد: ٥١٧
التلفون: ١١٩
العدد
الرقم
التاريخ ٢٢ شعبان ٣٤٩
١٢ كانون الثاني ٩٣١

مؤسسة احياء التراث		
د.ع	ر.ح	م
١٢	٧٢	١

سعادة مدير صحية منطقة القدس المحترم .
القدس
=====================

لقد تقرر نقل جثة المرحوم مولانا محمد على المتوفى فى لندن يوم الاثنين فى ٥ / ١ / ٣١ لتدفن قرب المسجد الاقصى فى المدرسة الخانونية قرب الحرم الشريف بالقرب من باب القطانين وعليه اقدم لحضرتكم الطلب المرفق مع كتابى هذا لاجراء اللازم والكشف على محل الدفن واعطاء الرخصة المقتضية مع العلم ان جميع الاوراق المختصة بسبب الوفاة وشهادة التحنيط ستصل مع الجثة للقنطرة وتبرز مع التابوت .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

رئيس المجلس الاسلامي الاعلى

المصدر: مؤسسة إحياء التراث والبحوث الإسلامية (ميثاق) – القدس/ أبو ديس. رقم الملف 40/13/31/1.73.



الملحق رقم (6)
جمهور المشيعين في جنازة محمد علي في المسجد الأقصى

جمهور المشيعين لجنازة المرحوم مولانا محمد علي في المسجد الاقصى

المصدر: **بيان المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى في فلسطين لسنة 1923-1924.**



ندوة أسطور
Ostour Symposium





تجربة الكتابة التاريخية في المغرب: سياقات واتجاهات

The Experience of Historical Writing in Morocco: Contexts and Trends

استكمالاً لسلسلة ندوات الكتابة التاريخية في البلدان العربية التي تنظمها **أسطور** للدراسات التاريخية، عقدت ندوة بعنوان تجربة الكتابة التاريخية في المغرب: سياقات واتجاهات على مدى ثلاثة أيام 27 - 29 تشرين الأول/أكتوبر 2022، وقد تناولت جملة من المحاور، هي التاريخ القديم بين النص الآثار، ونصوص ومؤرخون، والتاريخ بين التكوين الأكاديمي والبحث التاريخي، وتأملات في البحث في التاريخ الاقتصادي، والمعمار والدين، وجوانب من حصيلة البحث في التاريخ الاجتماعي وسحر القرن التاسع عشر، والتاريخ الراهن والذاكرة. وقد شارك في الندوة عدد كبير من المؤرخين والباحثين الشباب. وتنشر **أسطور** في هذا العدد القسم الثالث، والأخير، من مقالات هذه الندوة التي تتضمن: أضواء على حصيلة البحث الأثري بالمواقع التاريخية القديمة من خلال الكتابات المغربية لعلي واحدي، وقراءة موضوعاتية في الهيستوريوغرافيا المغربية لكتابة تاريخ المغرب القديم لسعيد البوزيدي، وحصيلة البحث في تاريخ مغرب القرن العشرين: محاولة في الرصد والتقييم لقاسم الحادك، وتاريخ الجماعات اليهودية المغربية: وظيفية البحث الأكاديمي في إعادة صُنع الشخصية المغربية لمحمد حاتمي.

سلسلة ندوات الكتابة التاريخية في البلدان العربية هي مجموعة من الندوات القطاعية التي تطرح مجموعة من الأسئلة على الباحثين والمؤرخين العرب، من بينها: كيف كتب المؤرخون تاريخ بلدانهم؟ وما الأسئلة التي أرّقتهم؟ وما السياقات السياسية والإبستيمية التي قادتهم إلى التركيز على مواضيع دون غيرها؟ وكيف حقّبوا التاريخ وفتّتوه؟ وما الصعوبات التي تواجههم في إثارة مواضيع جديدة؟ وهل استطاعوا التغلب على فقر المادة التاريخية من خلال الانفتاح على مواد ونصوص جديدة؟ وما صورة انفتاحهم على المدارس الغربية؟

تعتزم **أسطور** مناقشة بعض هذه القضايا وغيرها من خلال رصد ما توصّل إليه البحث التاريخي في البلدان العربية. وتهدف من ذلك إلى تعميق النقاش بين المتخصصين في البلد الواحد. وتهدف، أيضًا، إلى مناقشة التقاطعات والاختلافات الموجودة في مقاربة القضايا التي طُرحت. ومن ثمّ، تكون بمنزلة أداة أساسية لإنجاز بحوث تركيبية عن تطور المعرفة التاريخية في العالم العربي، بعيدًا عن التعميمات والأفكار المسبقة والصور النمطية التي تشكّلت. أمّا الندوات التي تقترحها الدورية، فهي عبارة عن استبيان يتضمن أسئلة عديدة منمَّطة موجَّهة إلى المتخصصين في حقل الكتابة التاريخية ممن راكموا تجربة بحثية ذات أهمية.

Continuing the series of symposiums on historical writing in the Arab countries, the *Ostour Journal for Historical Studies* held a symposium on The Experience of Historical Writing in Morocco: Contexts and Trends was held over a period of three days, 27 - 29 October 2022. The symposium revolved around several themes: Ancient History between text and antiquities, texts and historians, history between academic formation and historical research, reflections on research in economic history, architecture and religion, aspects of the outcome of research in social history and nineteenth-century magic, current history, memory. A large number of young historians and researchers participated in the symposium. *Ostour* publishes in this issue the third and final part of the articles of this symposium, Which includes : Findings from Archaeological Digs at Ancient Sites Through Moroccan Writings by Ali Wahidi, Outcomes of Research on Morocco's 20th Century History: An Evaluation. by Kacem El Hadeg, An Objective Reading of Moroccan Historiography in Writings on the History of Ancient Morocco by Saïd El Bouzidi and The History of Jewish Groups in Morocco: The Functionality of Academic Research in the Re-Creation of the Moroccan Personality by Mohammed Hatmi.

Within this framework *Ostour* will soon be organising various focused seminars on historiography in Arab countries: How have historians written the history of their countries? What are the questions that have kept them awake at night? What are the political and epistemological questions that have led them to favour some topics over others? What periodisations have they adopted? What are the difficulties that they face in taking up new topics? Have they been able to overcome the poverty of historical material by considering new items and new texts? How open have they been to western schools of thought? *Ostour* will discuss all these issues and more, in the hope of deepening discussions between experts in each country and establishing points of similarity and difference in their approaches. This will serve as a foundation for complex studies of the development of historical knowledge in the Arab World, avoiding the generalisations, prejudices and stereotypes.



الرقم التعريفي: DOI: https://doi.org/10.31430/NQBU7742

علي واحدي | Ali Wahidi*

أضواء على حصيلة البحث الأثري بالمواقع التاريخية القديمة من خلال الكتابات المغربية

Highlights on the Outcome of Archaeological Research at Ancient Historical Sites Through Moroccan Writings

بعد تطبيق نظام الحماية على المغرب، كان أول ما قامت به الإقامة العامة الفرنسية إحداث مصلحة الفنون والآثار. أشرفت هذه الهيئة العلمية على التنقيبات والأبحاث الأركيولوجية في أهم المواقع الأثرية، وخاصة موقع وليلي بإيعاز من الجنرال ليوطي. وقد سوّقت لأهم إنجازاتها بأن ربطت مشروعها الاستعماري بإعادة إحياء أمجاد الرومان في شمال أفريقيا عمومًا، والمغرب خصوصًا. واجتهدت في إبراز المواقع والحقب التاريخية الرومانية وإتلاف سائر الفترات الإسلامية، من دون البحث عن المستويات المورية (ما قبل الرومانية). غير أن هذه الدراسات أبانت أن بلاد المور حظيت باهتمام القوى الرومانية على نحو خاص فيما أصبح يُعرف بـ "المغرب النافع" حيث توجد أهم المواقع الأركيولوجية.

مع بداية الاستقلال، ظل البحث الأركيولوجي في المغرب رهين البعثات العلمية الأجنبية، ثم أصبح مُنحصرًا في المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث INSAP. وتعتبر كلية الآداب والعلوم الإنسانية في ظهر المهراز، التابعة لجامعة سيدي محمد بن عبد الله، رائدة في تكوين جيل من الباحثين مَزجوا النصوص القديمة وممارسة التنقيبات الميدانية. ومع إنشاء المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث عام 1986 وإصرار الجامعات على تكوين الباحثين في التاريخ القديم والأركيولوجيا، بدأت تظهر دراسات لباحثين مغاربة باللغات الأجنبية وبالعربية في إطار الأبحاث الجامعية، وفي إطار مشاريع البحث العلمي المموّلة.

كان من نتائج هذه الاجتهادات أن بدأت تظهر بوادر مدرسة أثرية مغربية رسمت لنفسها مشاريع علمية تروم الغوص في عمق تاريخ المغرب في فترة ما قبل التاريخ، وفي الفترة القديمة، وفي الفترة الإسلامية، وقد انفتحت على تخصصات علمية أخرى أضاءت جوانب من البحث الأثري إلى أن اكتشفت بعثة علمية مغربية - ألمانية إنسان جبل إيغود. ومنذ وقت قريب، اكتُشف أقدم عقد قريبًا من الصويرة.

تروم هذه الورقة تقديم حصيلة البحث الأثري في المغرب من عام 1956 حتى الوقت الراهن، مع وضع خريطة لأهم المواقع الأثرية، وتتبع أهم الاكتشافات التي تهم كلًّا من الفن الصخري واللقى الأثرية وغيرها من المواد التي تشكّل نتائج البحث الأثري في المغرب بأيدٍ مغربية.

* أستاذ التاريخ القديم والآثار بجامعة سيدي محمد بن عبد الله في كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز بفاس في المغرب.

Professor of Ancient History and Archaeology at Sidi Mohamed Ben Abdellah University, Faculty of Arts and Human Sciences, Dhar El Mehraz in Fez, Morocco.

ouahidi_ali@yahoo.fr



أولًا: إحداث مصلحة الآثار في المغرب: من مهمات الكشف عن أمجاد روما إلى الاضطلاع بالدور العلمي

اجتهدت مؤسسة الحماية الفرنسية في وضع أسس البحث الأثري في المغرب عبر ترسانة من القوانين خولت حق الامتياز في التنقيب في المواقع التاريخية والأثرية واحتكار نشر نتائج أبحاثها، وكذا نهب العديد من اللقى الأثرية، وطمس بعض فترات تاريخ المغرب القديمة والعربية والإسلامية أيضًا. وقد صدر أول ظهير ينص على المحافظة على المباني التاريخية والكتابات في 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1912. وارتبطت مصلحة الأركيولوجيا بمصلحة التحف التي كانت تابعة لمديرية التثقيف العمومي والفنون الجميلة. وفي عام 1930، انتقلت مصلحة الأركيولوجيا إلى المتحف الأثري في الرباط.

وفي إثر حصول المغرب على الاستقلال، ظل البحث الأثري تابعًا لمصلحة الفنون الجميلة، ثم انتقل إلى وزارة التربية الوطنية في الفترة 1956-1962، وانتقل بعد ذلك إلى وزارة السياحة في الفترة 1962-1963، ثم أصبح تابعًا لوزارة الإعلام في الفترة 1963-1965، وعاد من جديد إلى وزارة التربية الوطنية في الفترة 1965-1968، وأصبح تابعًا لوزارة الشؤون الثقافية والتعليم الأصيل ابتداءً من 9 تموز/ يوليو 1968. وقد كان معظم الباحثين أجانب، وخصوصًا الفرنسيين منهم، وكانت نتائج أبحاثهم تُنشر باللغة الفرنسية في **النشرة الأثرية المغربية** *Bulletin d'Archéologie Marocaine*.

أُسِّس المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث تحت الإشراف المباشر لوزارة الثقافة. وإلى جانب القيام بالأبحاث والتنقيبات الأركيولوجية، عمل المعهد على مَغْرَبَة أُطره في الإدارة المركزية والجهوية، والمساهمة في تكوين باحثين وأساتذة مغاربة إلى جانب الأطر الفرنسية المتعاونة. وقد انخرطت المؤسسة الجامعية في المغرب أيضًا في هذا المشروع الوطني الهادف إلى خلق نواة بحث وتدريس بالنسبة إلى التاريخ القديم والبحث الأثري في شُعب التاريخ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مع بعض الاستثناءات في شعب الجيولوجيا في كليات العلوم. وابتداءً من عام 2006، وفي إطار إحداث نظام "الماستر"، عملنا على فتح هذا المجال في التراث التاريخي والأركيولوجي في المغرب القديم في كلية الآداب في ظهر المهراز بفاس، وقد تخرجت فيها ثلاثة أفواج في الفترة 2006-2011.

عملت دراسات حديثة على كتابة تاريخ الأبحاث الأثرية في المغرب منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ إذ يتبين أن المؤرخين المغاربة لم يكن لديهم دراية بهذا العلم الحديث، في حين أنّ الأوروبيين، وخاصة الفرنسيين، وجدوا في المغرب موطن التنقيب والبحث لما اكتشفوا فيه من بقايا أثرية كانت تحتاج إلى عملية النبش. وبدأت كتب الرحلات الجغرافية والاستطلاعية تعجّ بمعلومات عن بعض المآثر التي مروا منها في رحلاتهم. وأثارت هذه التقارير انتباه المؤسسات العلمية والجامعات الأوروبية التي أخذت في إرسال بعثات علمية للوقوف على أهمية هذه المواقع وإمكانية البحث والتنقيب فيها وإقامة مشاريع أركيولوجية، خصوصًا في المواقع القديمة.

وتعود التحريات الميدانية الأولى التي جرى تدوينها في الكتابات الفرنسية إلى أوغست بوميي (1823-1876) August Beaumier وشارل دو فوكو (1858-1916) Charles de Foucauld؛ إذ دوّنا في رحلاتهما أخبارًا ومعلومات جمعاها عن المواقع التي مرّا بها، إضافة إلى معطيات شفوية عمّا كانت الساكنة المحلية تتناقله عن هذه المواقع. ويعتبر شارل تيسو (1828-1884) Charles Tissot رائدًا في وضع الخريطة الجغرافية للمواقع الأثرية للمغرب وشمال أفريقيا؛ إذ قام بإنجاز خريطة موريتانيا الطنجية (1871-1876) Mauretania Tingitana، اعتمادًا على المسالك الطرقية التي قدّمها المؤرخ اللاتيني أنطونينوس. ومع بداية الحماية الفرنسية على المغرب، أجرى هنري دو لامارتينيير (1859-1922) Henri de La Martiniére حفريات في موقعَي وليلي وليكسوس (1885-1889). وقد أصبح عضوًا في المفوضية الفرنسية في طنجة (1882-1889)، وأشرف على عدة تنقيبات في المواقع الأثرية للمدينة وأحوازها. وكان من نتائج ذلك



أن ظهرت له مؤلفات حول مواقع المغرب الأثرية من قبيل **الطريق من فاس إلى وجدة** *Itinéraire de Fez à Oudjda* (عام 1895)، ثم **إشعار بشأن المغرب** *Notice sur le Maroc* (عام 1897)، و**خطاطة تاريخ المغرب قبل وصول العرب** *Esquisse de l'histoire du Maroc avant l'arrivée des Arabes* (عام 1912)، و**مذكرات المغرب** *Souvenirs du Maroc* (عام 1919).

موازاةً مع أعمال دو لا مارتينيير، نشر موريس بيسنييه (1873-1933) Maurice Besnier، تحت إشراف عالم الاجتماع إدوارد ميشو بيلير (1857-1930) Édouard Michaux-Bellaire عدة كتب في إطار سلسلة "الأرشيفات المغربية" خلال الفترة 1904-1936، همّت تاريخ المغرب وثقافته وتراثه المادي واللامادي. وحتى إن كان الغرض من هذه الدراسات تسهيل المشروع الاستعماري الفرنسي للمغرب، فقد جرى تدوين العديد من المعطيات التاريخية والأثرية، وخصوصًا الشفوية منها.

وعقب توقيع المغرب معاهدة الحماية الفرنسية واستقرار الإسبان في المنطقة الشمالية والجنوبية من المغرب عام 1912، أصبحت البلاد مختبرًا مفتوحًا للتنقيبات الأركيولوجية. ويعتبر لويس شاتلان (1883-1950) Louis Chatelain من أوائل الأركيولوجيين الذي عملوا في علم الآثار الكلاسيكي في المغرب، خصوصًا بعد أن جرى تعيينه، عام 1915، للإشراف على الحفريات في موقع وليلي، وذلك بعد أن عيّنه المقيم العام الجنرال ليوطي، عام 1918، مديرًا لمصلحة الآثار في المغرب. ولعل ما يُسجَّل لشاتلان هو الإشراف على إنشاء المتحف الأثري في الرباط عام 1931؛ إذ أخذ في البداية اسم هذا الباحث (متحف لويس شاتلان). وقد خلفه ريمون ثوفنو (1896-1981) Raymond Thouvenot الذي ترأس مصلحة الآثار في المغرب، لتتوالى التنقيبات في المواقع الأثرية التي أغنت خريطة المغرب الأركيولوجية إلى أن تولى موريس أوزينا (1926-2004) Maurice Euzennat ابتداءً من عام 1955 مهمة الإشراف على هذه المصلحة. وفي إثر حصول المغرب على الاستقلال، أُسندت مسؤولية هذه المصلحة إلى الباحثة المغربية نعمة الله الخطيب بوجيبار عام 1963.

وتعود الأبحاث الأثرية بمنطقة النفوذ الإسباني حول التراث الأركيولوجي المغربي إلى نهاية خمسينيات القرن التاسع عشر؛ إذ جرى تكليف إميليو لافوينتي ألكانتارا (1825-1868) Emilio Lafuente Alcántara بموجب أمر ملكي، مؤرخ في 31 تشرين الأول/ أكتوبر 1859، بمصاحبة الجيش الإسباني خلال حرب تطوان. تولّى هذا الباحث عملية رفع الآثار والنقوش المكتوبة الموجودة على أسوار المدينة الموريسكية ودراستها، وتولى أيضًا جمع القطع الفنية والتحف الخاصة بالمنطقة الشمالية. وتولى ذلك بعده خوسيه ماريا مورغا Jose Maria Morga، ورامون جودينيز ألفاريز Ramon Jordinez، وساتورنينو زيمينيس نوريش Saturnino Ximénez Enrich الذي قام بثلاث رحلات إلى المغرب خلال السنوات 1882 و1883 و1884. ومع نهاية القرن التاسع عشر، وصل إلى المغرب مجموعة من الرحالة والمستكشفين الإسبان، ومنهم مانويل تيلو ألموندارين، وأنتونيو راموس (1880-1962) Antonio Ramos، والرحالة خوسيه بوادا روميو José Boada y Romeu الذي قام برحلة، في الفترة 1889-1894، أرّخها في كتابه **ما وراء المضيق: أسفار إلى المغرب** *Allende el estrecho: Viajes por Marruecos*. ونشرت الصحف الإسبانية مقالات وتقارير حول المواقع الأثرية والتراث المغربي لصحافيين ورحالة اتخذوا من "المغرب المجهول" مجالًا لاكتشافاتهم. وكتبت سبينوزا دي لوس مونتيروس Espinosa de los Monteros سلسلة من المقالات الصحافية حول الآثار الإسلامية لمدينة سبتة.

ساهمت الأكاديمية الملكية للتاريخ في مناطق الحماية الإسبانية في دعم الدراسات حول التراث الأركيولوجي المغربي ونشرها. وفي البداية، ركّزت اهتماماتها، على التاريخ الموريسكي لتطوان والمواقع الأثرية المجاورة لها، مثل موقع تامودا، ثم جرى توسيع مجال دعمها لمشاريع البحث نحو لكسوس. وقد أشرف سيزار لويس دي مونتالبان César Louis de Montalbán في الفترة 1925-1935، وبيلايو كوينتيرو أتاوري Pelayo Quintero Atauri في الفترة 1940-1947، على العديد من عمليات الإستبارات في الموقع،



وجرى القيام ببعض الحفريات فيه؛ ومن ثم نُشرت في دوريات الأكاديمية الملكية للتاريخ الإسبانية. ثم واصل ميغيل تارراديل Miguel Tarradell في الفترة 1948-1954 عملية البحث والتنقيب في مواقع المنطقة الخليفية، وعُيّن على رأس الدائرة الأثرية للمغرب الإسباني، ومتحف تطوان.

حظيت فترة ما قبل التاريخ في المغرب باهتمام خاص من مصلحة الآثار في المغرب. وقد بدأ الاهتمام بمواقع هذه الفترة مع أعمال أرمون رولمان (1896-1948) Armand Rhoulman الذي تولّى مهمة مفتش آثار ما قبل التاريخ. وساهمت حفريات موريس أنطوان Maurice Antoine، وبيير بيبرسون (1909-1992) Pierre Biberson، وجان روش (1913-2008) Jean Roche، وجورج سوفيل Georges Souville، وأندريه جودان (1921-2003) André Jodin، في إبراز المكانة التي يحظى بها المغرب في الكشف عن هذه الحقبة الغنية، سواء كان ذلك من حيث مواقعها التاريخية أو المواد التي تحتفظ بها الطبقات الجيولوجية والمنحوتات الصخرية. وساهمت الأبحاث عن مواقع ما قبل التاريخ في الوقوف على تراث النقوش والرسوم الصخرية في الأطلس الكبير والمناطق الجنوبية. وقد أشرف جان مالهوم Jean Malhomme على وضع أول مجمع لهذه النقوش والرسوم الصخرية الخاصة بالمغرب قبل تعزيزها بما جرى الكشف عنه في مواقع ساحل البحر الأبيض المتوسط والساحل الأطلسي.

وحظيت المواقع الأركيولوجية الإسلامية باهتمام المؤرخين، ثم المهندسين المعماريين قبل أن تصل أولى الوفود من الأثريين الفرنسيين، من قبيل هنري طيراس (1895-1971) Henri Terrasse، وهنري باصي (1892-1926) Henri Basset، اللذَين كرّسَا اهتماماتهما لهذه الفترة من تاريخ المغرب. وأدّت مصلحة الفنون الجميلة والمباني التاريخية دورًا كبيرًا في جَردِ المواقع والمباني التاريخية الإسلامية وتصنيفها وتسجيلها بصفتها تراثًا تاريخيًا يتطلب المحافظة عليه وحمايته. وتولّى معهد الدراسات العليا المغربية مهمات التعريف بهذه المباني التاريخية والتعريف بالتراث الإسلامي ذي الطابع المغربي.

شكّل إحداث المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث (عام 1986) تحولًا في اهتمام المغاربة بالمواقع الأثرية والتراث؛ إذ جرى تكوين فرق البحث المشتركة التي تضم مغاربة وأجانب، عملت في البداية على تكوين أثريِّين مغاربة واصلوا دراساتهم وحفرياتهم في المواقع الأركيولوجية. وتولّت جوديا حصار بنسليمان مهمات إدارة المعهد إلى جانب عبد العزيز توري؛ قبل أن يعيَّن عمار أكراز، ثم عبد الواحد بنصر، ثم عبد الجليل بوزوكار. وتنوعت فرق البحث بين أركيولوجيا ما قبل التاريخ وأركيولوجيا ما قبل الإسلام والأركيولوجيا الإسلامية. وكان اكتشاف إنسان جبل إيغود، الذي يؤرخ لبقايا أقدم إنسان عاقل (أومو سابيانس)، من جانب فريق بحث مغربي - ألماني برئاسة الباحث عبد الواحد بنصر، يعود تاريخه إلى نحو 320 ألف سنة، ثورةً علمية وتاريخية جعلت من المغرب مهد الفصيلة البشرية التي انتشرت في المجال المتوسطي. وكان لهذا الاكتشاف العلمي أثر إيجابي في جعل المواقع الأركيولوجية المغربية مواطن جذبٍ للبعثات العلمية الدولية. وجرى فتح ورش تثمين لهذه المواقع وتوظيفها في السياحة والتنمية الترابية. وتشكّلت مجموعة من فرق البحث التي تجاوزت التخصصات الضيقة لتشمل علماء المؤرخين وعلماء الآثار والأنثروبولوجيا والجيولوجيين والطوبوغرافيين؛ من أجل دراسة المواد التي تُستخرج من المواقع التاريخية والأثرية، واستنطاق مخلفاتها الأثرية، وتوظيف كنوزها في البحث العلمي والتنمية.

ثانيًا: هيستوريوغرافية البحث الأثري في المغرب (1956-2020)

هل توجد في المغرب مدرسة للبحث الأثري؟ كثيرًا ما يتردد هذا السؤال في الأوساط الأكاديمية، خصوصًا بعد منتصف القرن العشرين. قد يصعب الحديث عن مدرسة مغربية. ولئن كانت عملية مَغْرَبة الأطر العلمية من مهمات إحداث المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث منذ عام 1986، فإن ما يجب التنبيه إليه هو أنّ الجيل الأول من الأثريين المغاربة مدينٌ للمدرسة الفرنسة والإسبانية، وأن أغلبية



مشاريع البحث والتنقيب في المواقع الأثرية المغربية تكون بشراكة مع فرق البحث الفرنسية والإسبانية والإيطالية والإنكليزية. وتعتبر جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس أولى المؤسسات الجامعية التي احتضنت الرعيل الأول من الأساتذة الذين مزجوا التاريخ القديم وعلم الآثار. وقد ساهم انخراط أساتذة الجامعة في دعم مشروع المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث، وفي تكوين خريجي المعهد، كما أنهم شاركوا في الحفريات الأركيولوجية التي عرفتها مواقع وليلي، ومعسكر سيدي موسى بوفري (نواحي عين الجمعة)، وزليل (أي الدشر)، وغيرها.

وكان من نتائج انفتاح الجامعة المغربية على علم الآثار أن تمت مناقشة أغلبية الأطروحات في الآثار بهذه الجامعة، وقد عُزّزت بأبحاث التخرج من المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث. وإنّ ما ميز هذا الإنتاج العلمي هو أن بعضه جرى تحضيره باللغة العربية؛ ما كسر حاجز الاحتكار والتبعية الفرنكفونية في البحث الأثري في المغرب. ثم إن هذه الدراسات شرعت في تناول فترات ما قبل التاريخ، وفترة ما قُبيل التاريخ أيضًا، عبر الاهتمام بالنقوش والرسوم الصخرية والقيام بالحفريات الأثرية للمواقع الإسلامية.

ترتكز دراسة حصيلة البحث الأثري في المغرب لهذا العمل على قاعدتين من قواعد البيانات: تهم الأولى متن عملٍ يتكون من 188 إصدارًا للباحثين المغاربة في الفترة 1956-2021، في حين تهمّ الثانية الأبحاث الجامعية التي جرت مناقشتها في المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث إلى حدود عام 2020، وقد بلغت 45 رسالة، إضافة إلى أطروحات الدكتوراه التي نوقشت في الجامعات المغربية[1]. وتشكّل قاعدة هذه البيانات أرضية للمساءلة وتتبّع مسار البحث الأثري في المغرب حتى الوقت الراهن.

ومن أجل وضع خريطة البحث الأثري في المغرب بعد الاستقلال، اعتمادًا على هذا الإنتاج العلمي، جرى تصنيف هذه الأعمال وترتيبها وفق طبيعتها وسنة نشرها أو مناقشتها. وقد مكّننا هذا العمل من طرح أسئلة متعلقة بالاهتمامات التي انصبّت عليها الأبحاث الأثرية في المغرب بعد الاستقلال. ولعل ما يثير الانتباه هو ازدياد الإنتاجات العلمية المكتوبة باللغة العربية أو اللغات الأخرى، فضلًا عن توسيع المجالات الجغرافية لهذه الدراسات لتشمل المناطق الصحراوية والجبلية التي ظلت إلى حد ما مهمشة في دراسات الأوروبيين للمواقع الأثرية في المغرب القديم.

يشجّع متن العمل للدراسات الأركيولوجية التي قام بها الباحثون المغاربة حول المواقع الأثرية في المغرب، وهي تصل إلى 332 عنوانًا، على تكوين بنك للمعلومات يساعد في طرح أسئلة تهمّ جوانب متعددة عن طبيعة هذه الأبحاث والأدوات التي استعملتها، إضافةً إلى اتجاهاتها الفكرية والعلمية من خلال مواضيعها. وحيث إن الغاية من هذه الورقة وضعُ خريطةٍ موضوعاتية لهذه الدراسات، فإننا سنعمل على تقديم محاورها الرئيسة.

ثالثًا: الفهرسة الموضوعاتية لنتائج البحث الأثري في المغرب بعد الاستقلال: من التقليد إلى ترسيخ الهوية المحلية

قد يبدو نتاج البحث الأثري في المغرب بعد الاستقلال غير مُرضٍ وغير كافٍ للقيام بعملية تقييمية. بيد أن مرور أزيد من نصف قرن من الزمان على الاستقلال، وتحمّل الباحثين المغاربة هذه المسؤولية، يستوجبان قراءة هذا الإنتاج العلمي. ثم إن الأبحاث الأثرية في هذه الفترة الأخيرة أخذت بعدًا جعل الاكتشافات الأثرية تصنف المغرب بوصفه من بين الورش الدولية للبحث الأثري، خصوصًا مع توالي اكتشاف بقايا الحيوانات المنقرضة كالديناصورات، واكتشاف فريق من العلماء الدوليين ومعهم فريق مغربي لبقايا متحجرة من البشر،

1 علي واحدي وسعيد البوزيدي، **مساهمة الأبحاث الجامعية في البحث الأثري بالمغرب: نموذج كلية الآداب**، أعمال ممارسة العلوم الاجتماعية في البلدان المغاربية، ظهر المهراز، فاس، نصوص مهداة إلى الأستاذ إدريس المنصوري (الدار البيضاء: مؤسسة الملك عبد العزيز، 2014)، ص 27-34.



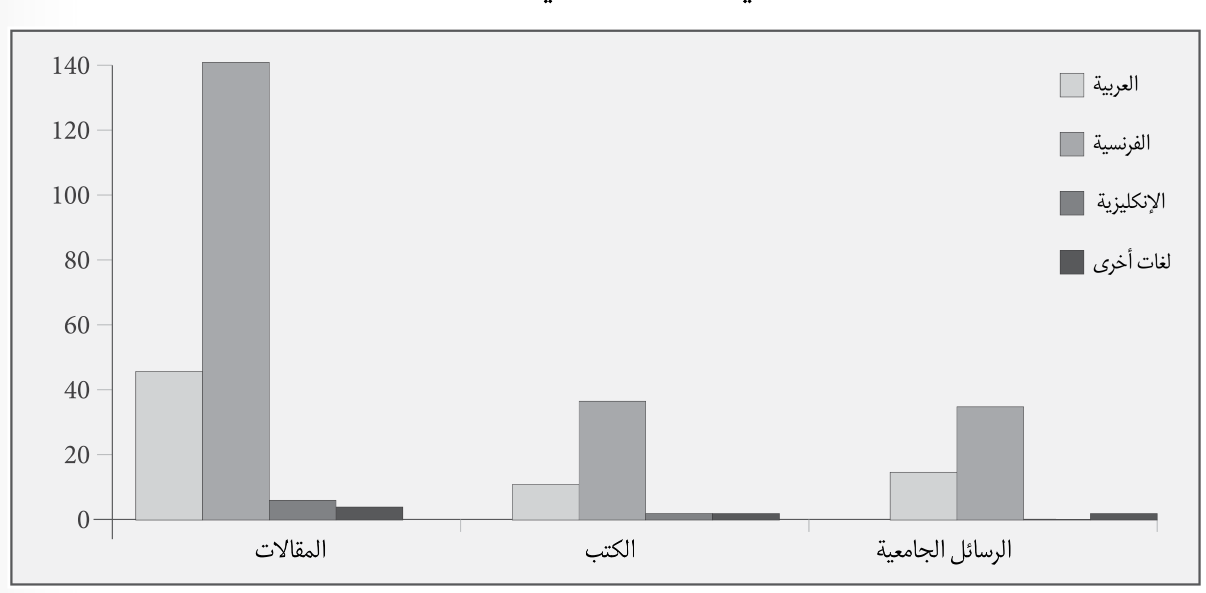
تعود أصولها تاريخيًّا إلى ما بين 300 ألف و320 ألف سنة في جبل إيغود في المغرب، وأخيرًا ما كانت تحتفظ به مغارة الدار البيضاء من مؤشرات عن الفترة الأشولية. هذا الاكتشاف لأقدم آشولي في شمال أفريقيا الذي يعود إلى مليون و300 سنة، بموقع (ل) طوما 1 غرب الدار البيضاء، لم يكن مصادفة، بل هو ثمرة مسار طويل من الأبحاث التي جرت في إطار برنامج مغربي – فرنسي أُطلق منذ عام 1978، ثم اكتشافات عام 1985، وتنقيبات عام 1988 إلى أن أُعلن سنة 2021 عن أقدم بقايا إنسان آشولي في شمال أفريقيا في المغرب.

يقدّم بنك المعلومات للدراسات الأثرية في المغرب مسالك موضوعاتية تسعف في طرح أسئلة تتضمن لغة نشر المقال، ومستوى تعاون الباحثين في إنجاز أعمالهم العلمية، ثم ميادين البحث الأركيولوجي ومواضيعه، وأخيرًا طبيعة المنشورات ومكان النشر وسنة طبع المقال وإخراجه. وتجدر الإشارة، في هذا السياق، إلى أن هذه الأسئلة مترابطة فيما بينها على نحو يمكّن من تسليط الضوء على حصيلة البحث الأثري في المغرب بأقلام مغربية على امتداد النصف الثاني من القرن العشرين.

وتكشف نتائج الفهرسة الموضوعاتية لحصيلة البحث الأثري في المغرب بعد الاستقلال عن أن اللغة الفرنسية هي أداة البحث والتواصل، سواء تعلّق الأمر بالأعمال الأكاديمية من قبيل الأطروحات والأبحاث أو الكتب والأعمال الجماعية والمقالات.

الشكل (1)

اللغة في الأبحاث الأثرية في المغرب القديم



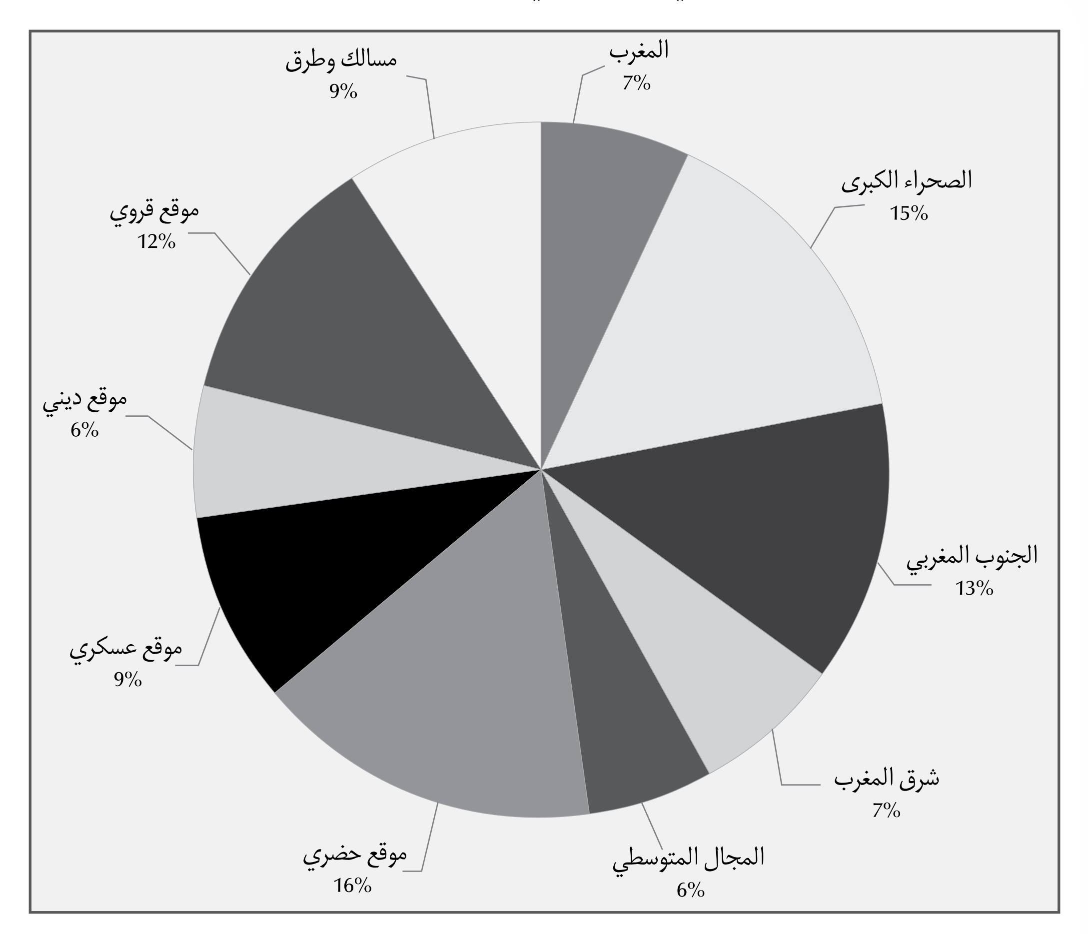
المصدر: من إعداد الباحث.

لعل ما يثير الانتباه هو تصاعد استعمال اللغة العربية في الأبحاث ونشر سلسلة من الدراسات الأثرية باللغة العربية، وهو ما يساهم كثيرًا في التعريف بهذا الموروث على نحو أكبر، ويفتح المجال لغير الفرنكفونيين؛ من أجل المساهمة في دمقرطة الحقل الأركيولوجي في المغرب، ودعوة الجامعات إلى الانخراط في هذه الورش الوطنية.

غطّت الأبحاث الأثرية المغربية كل تراب المملكة، وإن كانت ثمة تفاوتات على مستوى الإنتاج العلمي بحسب الجهات أو طبيعة المواقع التي حظيت بالاهتمام. ويتبين أن الدراسات الأركيولوجية وجدت في مناطق المغرب الصحراوية والجنوبية مجالَ اشتغالها؛ بالنظر إلى ما تزخر به هذه المناطق من مواقع تهمّ فترة ما قبل التاريخ أساسًا.



الشكل (2)
التوزيع الجغرافي والموضوعاتي لاهتمامات الباحثين المغاربة



المصدر: المرجع نفسه.

تشكّل مواقع المدن والحواضر القديمة ورشة أغلبية الأبحاث التي تناولتها الأبحاث الأثرية المغربية. وفي هذا السياق، يجب الإقرار بتصاعد الدراسات التي تهم المواقع القروية، سواء أكانت جهوية أم تهم مواقع بنايات معزولة في مجال قروي معيّن. وقد تجاوزت الدراسات المواقع العسكرية التي كانت مهمة جدًّا خلال الفترة الكولونيالية؛ ما يؤشر إلى توجه جديد للدراسات الأثرية في المغرب بعد الاستقلال.

تعددت المواد الأثرية التي انصبّت عليها اهتمامات الباحثين، ويسعفنا تصنيف هذه المواد في الوقوف على الأهمية التي حظيت بها هذه المخلفات الأثرية ومدى مساهمتها في كتابة تاريخ المغرب استنادًا إلى "الوثيقة الصامتة". ويكشف تنوع المواد الأثرية موضوع الدراسات العلمية المغربية عن ظهور تخصصات في البحث الأثري المغربي بين الباحثين. وقد تكوّن، فعلًا، جيل من الباحثين في علم الآثار متخصص في دراسة مادة بعينها؛ من قبيل الفسيفساء، والخزفيات، والأمفورات، وغيرها. ويعكس هذا التخصص مستوى من تطور البحث الأثري المغربي؛ فهو لم يعد كرونولوجيًّا بين الباحثين في فترات ما قبل التاريخ وفترات ما قبيل التاريخ والفترة الكلاسيكية القديمة فحسب، بل أصبح يهمّ أيضًا مواد أثرية بعينها.



لعل ما يثير الانتباه في فهرسة مواضيع الاهتمامات الأثرية في المغرب هو اهتمامها بالفخاريات والخزفيات بوصفها مواد للدراسة. ومردّ ذلك، بحسب الباحثين أنفسهم، إلى أن هذه المواد هي التي جرى اعتمادها في تأريخ الفترات الزمنية، وفي تتبّع التطور الاقتصادي لنشاط معيّن. ثم إن أغلب المواقع الأثرية في المغرب هي بمنزلة "مكتبة أركيولوجية"؛ بالنظر إلى ما تزخر به المواقع من هذه المواد الأساسية في النبش عن تاريخ الموقع. ولا تزال الفسيفساء من المواضيع التي تثير اهتمام الباحثين إلى جانب ما كشفت عنه اهتمامات الأوروبيين. وقد أبانت فهرسة المواضيع عن ظهور توجهات جديدة في البحث الأثري تهمّ أساسًا التغذية وأدوات تحضيرها، من قبيل المَعاصر والمخابز والأفران ومحلات التسويق والاستهلاك، وهو أمرٌ يؤشر إلى توجه جديد في البحث الأثري المغربي نحو استقصاء سُبل عيش الإنسان اعتمادًا على المنتوج المحلي.

الشكل (3)

مواضيع الأبحاث التي تناولتها الدراسات الأثرية في المغرب القديم

حلي
مواد غذائية
حمامات
قنوات الماء
معاصر
مقابر جنائزية
أفران
فسيفساء
عظام
تماثيل
معابد
خزف
فخار
نقائش
نقود
0 5 10 15 20 25 30 35 40 45 50

المصدر: المرجع نفسه.

تكشف الفهرسة الموضوعاتية لنتائج البحث الأثري للمغاربة عن تنوع في المواضيع التي همّت المباني الأثرية وكذلك المخلفات من المواد التي جرى العثور عليها. وقد كان من نتائج هذه المجهودات أن أصبحت الآثار مادة أساسية في قراءة محتوى المصادر التاريخية، خصوصًا أنها تقدّم دليلًا ملموسًا على الأحداث والوقائع، وتشهد على التحولات التاريخية التي عرفتها البلاد خلال الفترة القديمة.

خاتمة

تعبِّر هذه الورقة عن مرحلة مهمة في مقاربة الإنتاج العلمي للبحث الأثري في المغرب، وهي مرحلة تحتاج إلى مواكبة هيستوريوغرافية وخلق بنك للمعلومات في الجامعة المغربية؛ من أجل التعريف بالعديد من الأعمال ونشرها لتكون في متناول الباحثين والمهتمين بتاريخ بلادنا، فضلًا عن وضع خريطة الاهتمامات المستقبلية التي من شأنها أن تساهم في فتح ورش أركيولوجية ببلاد المور خلال الفترة القديمة.



ببليوغرافيا الأبحاث الأركيولوجية بالمغرب القديم بأقلام مغربية

كتب ودراسات باللغة العربية

أعشي، مصطفى. **نقائش معاهدات السلام بين الباكوات الأمازيغ والرومان في موريطانيا الطنجية خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين**. تقديم محمد حمام. سلسلة نصوص ووثائق 2. الرباط: مطبعة المعارف الجديدة؛ المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية؛ مركز الدراسات التاريخية والبيئية، 2004.

أكراز، عمار. "أوبيدوم نوفوم وناحيتها: وضعية البحث الأثري". في: موحن، وليد. **مدينة القصر الكبير: الذاكرة والحاضر**. سلسلة الندوات 1. القصر الكبير: منشورات مجموعة الدراسات والأبحاث حول القصر الكبير، 2000.

أكرير، عبد العزيز. "تمودا أقدم حاضرة بوادي مارتيل شمالي المغرب". **مجلة كلية الآداب بني ملال**. العدد 3 (2001)، ص 67-86.

أوعشي، مصطفى. "إسهام النقوش الصخرية بالجنوب المغربي في التعريف ببداية استئناس الحيوانات". **المناهل**. السنة 23، العدد 58. عدد خاص بالأقاليم المغربية الجنوبية (آذار/ مارس 1998)، ص 28-45.

بل الفايدة، عبد العزيز. "النقائش كمصدر لتاريخ المغرب". مجلة **بحوث**. العدد 6 (1995)، ص 199-207.

بلكامل، البيضاوية. "الفسيفساء (تعريف، تاريخ وتقنية)". **مجلة تاريخ المغرب**. العدد 3 (حزيران/ يونيو 1983)، ص 63-67.

_______."مفارقة المصادر الأدبية والأثرية حول مواقع ما قبل الإسلام بالمغرب". مجلة **بحوث**. العدد 6 (1995)، ص 175-181.

_______. "جزيرة سيرني بين المصادر المكتوبة والمصادر الأثرية". **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**. العدد 20 (1995)، ص 93-103.

_______. "المرأة من خلال فسيفساء الشمال الأفريقي". مجلة **أمل**. العدد 13-14 (1998)، ص 8-18.

_______. "أنشطة فلاحية واستغلاليات من خلال فسيفساء الشمال الأفريقي". في: **البادية المغربية عبر التاريخ**. تنسيق إبراهيم بوطالب. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. سلسلة ندوات ومناظرات 77. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1999، ص 11-28.

_______. "فسيفساء المغرب القديم بين ضراوة الأحكام المسبقة، هاجس التخصص وتعددية المشارب". مجلة **أمل**. العدد 27 (عدد خاص) (2002)، ص 62-74.

_______. **مظاهر اقتصادية من خلال فسيفساء الشمال الأفريقي**. الرباط: فيديبرانت، 2003.

_______. "الواقعية من خلال فسيفساء الشمال الأفريقي". في: بن ميس، حليمة غازي. **أضواء جديدة على تاريخ شمال أفريقيا القديم وحضارته: أعمال تكريم الأستاذ المصطفى مولاي رشيد**. الرباط: مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، 2007. ص 75-91، هوامش بيبليوغرافية، ص 89-90، لوحات خ. ن.، ص 91.

بنحيون، ماجدة. "مساهمة المصادر الأثرية في الكشف عن بعض الجوانب المجهولة من اقتصاد المغرب القديم". في: **المدينة في تاريخ المغرب العربي: أشغال الندوة المنظمة من 24 إلى 26 نوفمبر 1988**. بن مسيك، الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1990، ص 149-163.



بوجيبار، نعيمة الخطيب. "كتابات ما قبل العصر الروماني". **مذكرات من التراث المغربي**. العدد 1 (1985)، ص 135-139.

______. "نقود ما قبل العصر الروماني". **مذكرات من التراث المغربي**. العدد 1 (1985)، ص 161-163.

بودوهو، نزهة. "موجز لأهم نتائج الأبحاث الميدانية في مقدمة جبال الريف". مجلة **كنانيش**. العدد 3 (2001)، ص 155-158.

البوزيدي، سعيد. "من بناصا إلى بور ليوطي: الميناء النهري للقنيطرة على واد سبو". في: **ندوة المدن المراسي في تاريخ المغرب: أشغال الأيام الوطنية 18 للجمعية المغربية للبحث التاريخي**. الرباط: منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، 2013، ص 107-148.

سراج، أحمد. "ظاهرة الأركيولوجيا السرية بالمغرب". **النشرة الأثرية المغربية**. العدد 9 (2002)، ص 3-22.

شداد، عبد المحسن. **دليل المدن والمواقع الأثرية القديمة بشبه الجزيرة الطنجية**. تطوان: مطبعة الحمامة، 2018.

العزيفي، محمد رضوان. "التعمير القديم لوادي مرتيل". في: **جبال الريف: المجال والإنسان: أعمال نظمتها شعبة الجغرافيا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، 3-5 نيسان/ أبريل 1989**. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1990، ص 65-81.

______. "هل مدافن ناحية طنجة فينيقية الأصل؟ قراءة جديدة للأبحاث الأثرية الفرنسية بالمغرب". مجلة **المصباحية**. العدد 2 (1996)، ص 11-28.

______. "الفينيقيون بفحص طنجة وعلاقاتهم بالسكان من خلال مقابر المنطقة ومحتوياتها المؤرخة ما بين القرن السابع وأواسط القرن السادس ق. م.". **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية** (جامعة سيدي محمد بن عبد الله). العدد 11 (2002)، ص 195-210.

______. "مساهمة في دراسة حالة السكان القدامى للمغرب خلال المرحلة الفينيقية: دفناء مقابر ناحية طنجة نموذجًا". مجلة **أمل**. العدد 27 (2002)، ص 172-205.

العسري، عبد الرزاق. "قراءة إيكونوغرافية في بعض النصب التذكارية الإغريقية الرومانية". مجلة **بحوث** (1995)، ص 227-326.

العيوض، محمد. "آراء حول تحديد موقع مستوطنة بابا يوليا الرومانية". **مجلة الدعم**. العدد 2 (حزيران/ يونيو 1996)، ص 59-65.

______. "مدينة تموسيدا بين النصوص القديمة والبحث الأثري". **مجلة الدعم**. العدد 3 (أيار/ مايو 1997)، ص 21-23.

______. "حصيلة البحث الأثري بموقع بناصا". مجلة **أمل**. العدد 27 (2002)، ص 150-157.

______. **مدن المغرب القديم من خلال إشارات النصوص ونتائج البحث الأثري**. الرباط: الرباط نت، 2011).

______. "جوانب من الحياة الاقتصادية في موقع بناصا الأثري: المخابز والمخازن". في: **موريطانيا والعالم المتوسطي: أعمال الندوة الدولية التي احتضنتها جامعة عبد المالك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أيام 24-25-26 نوفمبر 2016**. تطوان: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2018.

غازي، حليمة. **نقائش لاتينية لموريطانيا التنكية**. سلسلة دراسات وأبحاث 24. الرباط: منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية؛ مركز الدراسات التاريخية والبيئية؛ مطبعة المعارف الجديدة، 2011.



قنينبة، زهراء. "إشكالية صيانة وترميم اللقى الأثرية: الفسيفساء نموذجًا". مجلة **أمل**. العدد 27 (2002)، ص 127-613

ليمان، حسن. "حصيلة البحث الأثري بمنطقة العنصر". في: **صفرو ومنطقتها: بيئة، تاريخ، مجتمع، فكر**. الملتقى الثقافي الثالث، مدينة صفرو. الدار البيضاء: منشورات الملتقى الثقافي صفرو، 1990.

ليمان، حسن [وآخرون]. "معطيات عن مشروع حفريات البعثة المغربية – الإنجليزية بوليلي". مجلة **أمل**. العدد 27 (2002)، ص 137-149.

مجدوب، محمد. "العملة الملكية في المغرب القديم". مجلة **بحوث**. العدد 5 (1992)، ص 47-60.

________. "حصيلة التحريات الأثرية في منطقة عبدة الكبرى". في: **تاريخ إقليم أسفي: من الحقبة القديمة إلى الفترة المعاصرة**. الدار البيضاء: مؤسسة دكالة للثقافة والتنمية، 2000، ص 66-80.

________. "محاولة في رصد حصيلة الأبحاث الأثرية حول المغرب القديم قبل العهد الروماني". مجلة **أمل**. العدد 27 (عدد خاص (2002)، ص 87-108.

المحفوظ، أسمهري. "منطقة الريف من عصور ما قبل التاريخ إلى مجيء الإسلام". في: أبو القاسم، الخطير. **مساهمات في دراسة منطقة الريف**. سلسلة دراسات 14. الرباط: منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية؛ مطبعة المعارف الجديدة، 2011، ص 5-48.

مقدون، محمد. "البحث الأثري حول المغرب القديم ما بين السنتين 1956 و1990". مجلة **بحوث**. العدد 6 (1995)، ص 183-197.

المكناسي، أحمد. "البنيان: حصن روماني بين تطوان وطنجة" (ترجمة لمقال طراديل)". **مجلة تطوان** (1956)، ص 169-174.

________. "تمثالان برونزيان من لكسوس" (ترجمة لمقال طراديل بالإسبانية). **مجلة تطوان** (1956)، ص 89-107.

________. "دراسة عن الخزف الإسلامي القديم في المغرب". **مجلة تطوان**. العدد 2 (1957)، ص 123-128.

________. **مدينة ليكسوس الأثرية**. تطوان: دار كريماديس للطباعة، 1961، 32 ص ، لوحات خ. ن.، (من تاريخ المغرب القديم).

المكناسي، أحمد وأحمد المشرفي. **خريطة المغرب الأركيولوجية**. تطوان: دار كريماديس للطباعة، 1962.

منقاشي، محمد. "الكشوف الأثرية والبيئة". مجلة **المناهل**. العدد 46 (آذار/ مارس 1995)، ص 389-400.

مولاي رشيد، المصطفى. "طنجس والمسالك الرومانية". **مجلة دار النيابة**. العدد 10 (1986)، ص 31-33.

النشيوي، العربي. "الدراسات الأثرية المغربية: استمرارية أم قطيعة مع الطرح الاستعماري". مجلة **أمل**. العدد 27 (عدد خاص (2002)، ص 23-40.

نوري، عبد العزيز. "المسح الأثري لحوض 'سبو' ومنطقة 'غمارة' (نتائج الموسم الأول)". **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**. العدد 11 (1985)، ص 151-168.

واحدي، علي. **النشاط الاقتصادي في المغرب ما قبل الإسلام: دراسة أركيولوجية لوليلي ومجالها**. الرباط: منشورات الزمن، 2016.

________. **صناعة الزيت بالمغرب القديم**. الرباط: منشورات مختبر البيبليوغرافيا التحليلية والتوثيق للتراث المغاربي، 2017.



واحدي، علي وسعيد البوزيدي. "أدب الرحلة الجغرافية العربية كمصدر للمعرفة التاريخية والأنتروبولوجية". **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**. العدد 10 (2012)، ص 129-156.

________. "الأمم الغابرة والمواقع الأثرية الخالدة في مؤلف 'مروج ومعادن الجوهر' للمسعودي: قراءة منهجية جديدة". **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**. العدد 19 (2013)، ص 69-98.

________. "مساهمة الأبحاث الجامعية في البحث الأثري بالمغرب: نموذج كلية الآداب، ظهر المهراز، فاس". في: **ممارسة العلوم الاجتماعية في البلدان المغاربية: نصوص مهداة إلى الأستاذ إدريس المنصوري 1949-2012 مع مختارات من مقالاته**. الدار البيضاء: مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، 2014، ص 27-34.

________. "من الثقالة المُقنطرة إلى الثقالة الأسطوانية لمعاصر الزيتون بموريطانيا الغربية". في: **التراث الموري (الأمازيغي) بالمغرب القديم**. فاس: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس، 2014، ص 133-143.

________. "الضيعات الفلاحية بالبادية المغربية: بنايات 'الفلا' بمنطقة الغرب". **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية** (جامعة سيدي محمد بن عبد الله). العدد 19 (تشرين الأول/ أكتوبر 2015)، ص 11-51.

________. "بادية شمال أفريقيا قبل السيطرة الرومانية: مساهمة المصادر الأدبية ونتائج الأبحاث الأثري". في: **التراث القديم لبلاد المغرب من البدء إلى نهاية الممالك الأفريقية: أعمال الندوة الدولية المنعقدة بفاس، 7-9 أيار/ مايو 2015**. سلسلة ندوات ومناظرات 55. الرباط: منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2019.

________. "تنظيم واستغلال المجال القروي بحوض اللوكوس خلال الفترة القديمة: بين المعطيات التاريخية ونتائج البحاث الأثرية". في: **ومضات من تاريخ شمال أفريقيا القديم: تكريم الأستاذ مصطفى أعشي**. البيضاوية بلكامل وسيدي محمد العيوضي وزهراء قنينة (تنسيق). الرباط: مطبعة دار السلام، 2019، ص 201-236.

________. "المواقع الجغرافية والأحداث التاريخية في كتاب 'نزهة المشتاق' للإدريسي". **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**. العدد 17 (2012)، ص 103-126.

كتب ودراسات بلغات أجنبية

Akerraz, Aomar & A. El Khayari. "Prospections archéologiques dans la région de Lixus, Résultats préliminaires." in: Khanoussi, Mustapha, Paola Ruggeri & Cinzia Vismara (eds.). *L'Africa Romana: Atti del XIII convegno di studio. Djerba. 10-13 dicembre 1998*. vol. II. Rome: Carocci editore, 2000, pp. 1645-1668.

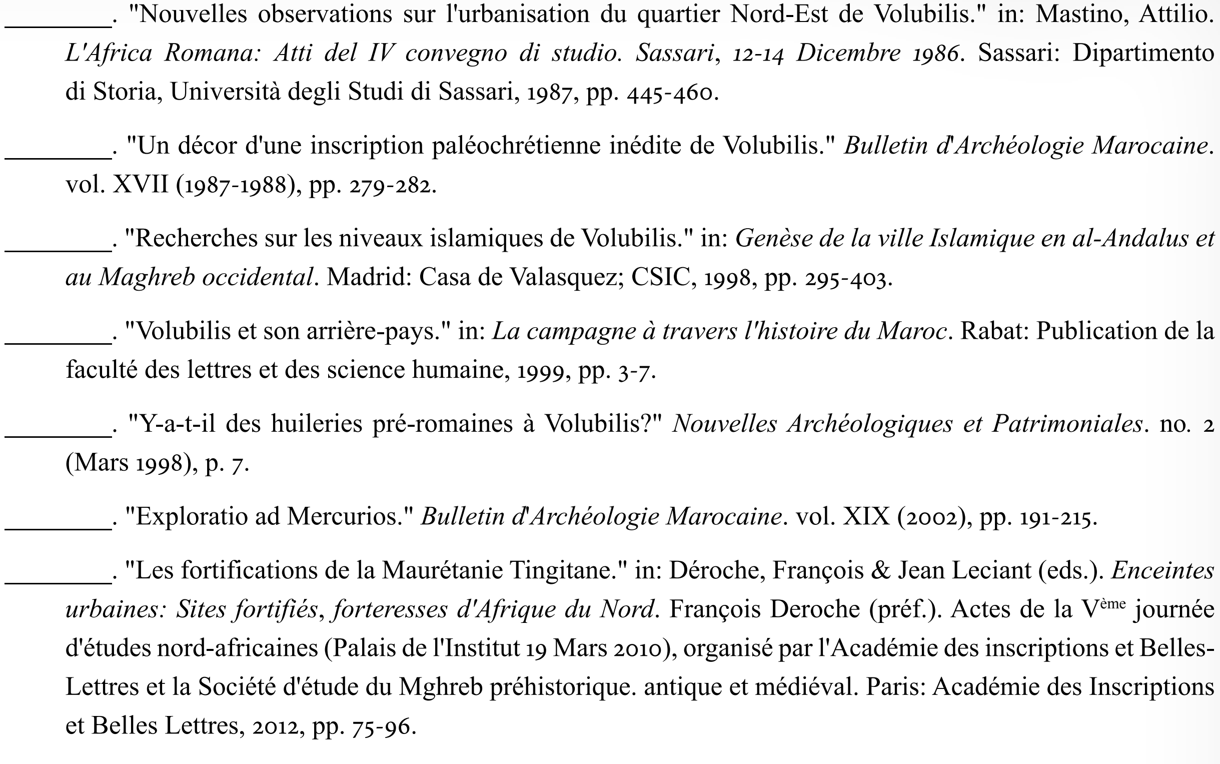
Akerraz, Aomar & Maurice Lenoir. "Les huileries de Volubilis." *Bulletin d'Archéologie Marocaine*. vol. XIV (1981-1982), pp. 95-98.

________. "L'oléiculture dans le Maroc antique." *Olivae*. no. 3 (Octobre 1984), pp. 12-17.

Akerraz, Aomar "Les thermes du capitole (Volubilis)." *Bulletin d'Archéologie Marocaine*. vol. XVI (1985), pp. 101-120.

________. "Notes sur l'enceinte tardive de Volubilis." in: Lancel, Serge (ed.). *Actes du IIe Colloque International sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord.* Bulletin Archéologique du comite des travaux historique et scientifique 19. Paris: Bibliothèque nationale, 1985, pp. 429-436.




________. "Nouvelles observations sur l'urbanisation du quartier Nord-Est de Volubilis." in: Mastino, Attilio. *L'Africa Romana: Atti del IV convegno di studio. Sassari, 12-14 Dicembre 1986*. Sassari: Dipartimento di Storia, Università degli Studi di Sassari, 1987, pp. 445-460.

________. "Un décor d'une inscription paléochrétienne inédite de Volubilis." *Bulletin d'Archéologie Marocaine*. vol. XVII (1987-1988), pp. 279-282.

________. "Recherches sur les niveaux islamiques de Volubilis." in: *Genèse de la ville Islamique en al-Andalus et au Maghreb occidental*. Madrid: Casa de Valasquez; CSIC, 1998, pp. 295-403.

________. "Volubilis et son arrière-pays." in: *La campagne à travers l'histoire du Maroc*. Rabat: Publication de la faculté des lettres et des science humaine, 1999, pp. 3-7.

________. "Y-a-t-il des huileries pré-romaines à Volubilis?" *Nouvelles Archéologiques et Patrimoniales*. no. 2 (Mars 1998), p. 7.

________. "Exploratio ad Mercurios." *Bulletin d'Archéologie Marocaine*. vol. XIX (2002), pp. 191-215.

________. "Les fortifications de la Maurétanie Tingitane." in: Déroche, François & Jean Leciant (eds.). *Enceintes urbaines: Sites fortifiés, forteresses d'Afrique du Nord*. François Deroche (préf.). Actes de la V[ème] journée d'études nord-africaines (Palais de l'Institut 19 Mars 2010), organisé par l'Académie des inscriptions et Belles-Lettres et la Société d'étude du Mghreb préhistorique. antique et médiéval. Paris: Académie des Inscriptions et Belles Lettres, 2012, pp. 75-96.

Akerraz, Aomar & Emanuel Papi. "Thamusida." in: Vismara, C. (ed.). *Paysages antiques du Maroc: Recherches archéologiques Maroco-Italiennes*. Rabat: Editioni Quasar, 2003, pp. 10-23.

Akerraz, Aomar & G. Ranieri. "Volubilis." in: Vismara, C. (ed.). *Paysages antiques du Maroc: Recherches archéologiques Maroco-Italiennes*. Rabat: Editioni Quasar, 2003, pp. 48-56.

Akerraz, Aomar et al. "Dchar- Djdid. les découvertes monétaires." *Bulletin de la Société Française de Numismatique*. vol. 46 (1991), pp. 65-69.

Akerraz, Aomar et al. "EL Qsar el Kbir et la route intérieure de Maurétanie Tingitane entre Tremuli et Ad Novas." in: *L'armée et les affaires militaires. Actes du 4ème colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord*. histoire et archéologie de l'Afrique du Nord 2. Paris: CTHS, 1991, pp. 367-408.

Akerraz, Aomar et al. "Les fouilles de Dchar Djedid entre 1977-1980." *Bulletin d'Archéologie Marocaine*. vol. XIV (1981-1982), pp. 169-244.

Akerraz, Aomar et al. "Recherches archéologiques à Dchar Jedid: Les découvertes monétaires." *Bulletin de la Société Française de Numismatique*. vol. 44 (1989). pp. 510-515.

Akerraz, Aomar et al. "Recherches archéologiques sur le Bassin de Sebou (Gilda. Righa. Périple d'Hannon)." *Bulletin d'Archéologie Marocaine*. vol. XVI (1985-1986), pp. 235-255.

Akerraz, Aomar et al. *Sidi Ali Ben Ahmed-Thamusida 2*. Elisabetta Gliozzo et al. (eds.). Roma: Edizioni Quasar di Severino Tognon S.R.L., 2009, pp. XI-276, appendice, pp. 269-276.

Akerraz, Aomar, Ahmed Siraj & Cinzia Vismara. "Rif." in: Vismara, C. (ed.). *Paysages antiques du Maroc: Recherches archéologiques Maroco-Italiennes*. Rabat: Editioni Quasar, 2003, pp. 24-39.



Akerraz, Aomar, Cinzia Vismara & Ahmed Siraj (dir.). *Carte archéologique du Maroc: le Rif cotier: Recherches archéologiques maroco-italiennes 2000-2005*. Collection Villes et Sites Archéologiques du Maroc VII. Rabat/Tanger: Royaume du Maroc, Ministère de la Culture, Institut National des Sciences de l'Archéologie et du Patrimoine,, 2019, p. 385.

Akerraz, Aomar, Hassan Limane & René Rebuffat. *Carte archéologique du Maroc antique*. Collection Villes et Sites Archéologiques du Maroc II. Kénitra-Sidi Yahya du Gharb. Rabat: INSAP. 2012, p. 91, bibliogr. 16, fig. h.t. dont 1 dépl. tab.

Akerraz, Aomar, Maurice Lenoir & E. Lenoir. "Le Forum de Volubilis: Eléments du dossier archéologique." in: *Los Foros Romanos de las Provincias occidentales*. Madrid: Ministerio de Cultura, 1987, pp. 203-219.

Alaioud, Sidi Mohammed. "Note sur une huilerie du quartier Est de Volubilis." in: Khanoussi, Mustapha, Paola Ruggeri & Cinzia Vismara (eds.). *L'Africa Romana: Atti del XI convegno di studio cartagine 15-18 Dicembre 1994*. Ozieri: Il Torchietto, 1996, pp. 607-610.

________. "L'économie de Banasa à l'époque provinciale." in: Khanoussi, Mustapha, Paola Ruggeri & Cinzia Vismara (eds.). *L'Africa Romana: Ai confini dell' Imperio: Contatti. scambi. conflitti: Atti del / XV (Quinzième) convegno di studio (Tozeur. 11-15 dicembre 2002)*. vol. III. Collan adel Dipartimento di Storia dell'Università degli Studi di Sassari 21. Roma: Carocci editore, 2004, pp. 1899-1912.

Allaoui, Mohamed Kbiri, Ahmed Siraj & Cinzia Vismara. "Recherches archéologiques maroco-italiennes dans le Rif." in: Khanoussi, Mustapha, Paola Ruggeri & Cinzia Vismara (eds.). *L'Africa Romana*: *Ai confine dell'Imperio: contatti. scambi. conflitti: Atti del/XV(Quinzième) convegno di studio (su l'Africa romana), Tozeur. 11-15 Dicembre 2002*. Rome: Carocci Editore, 2004, pp. 567-604.

Atti del V° congresso internazionale di studi Fenici e punici. Palermo-Marsala. 2-8 oct. 2000 (Palermo: Università di Palermo, Facultà di lettere e filosofia, 2005).

Behel, M. "Note sur un four de potier du quartier-Est de Volubilis." *Bulletin Archeologique Marocaine.* vol. XVIII (1998), pp. 343-347.

Bekkari, M. "L'Archéologie marocaine de 1966-1967." *Bulletin Archeologique Marocaine.* vol. VII (1967), pp. 651-662.

________. "L'Archéologie marocaine de 1968-1969." *Bulletin d'Archéologie Marocaine*. vol. VIII (1968-1969), pp. 241-248.

________. "L'expansion phénicienne au Maroc." in: *L'expansiome fenicia nel Méditerraneo: Relazioni dell colloquio in Roma.* Roma: Consiglio Nazionale delle Ricerche, 1971, pp. 29-46.

Ben-Ncer, Abdelwahab. "Etude du Tumulus 1 de R'jem Souk (province de Taza, Maroc)." in: *L'Afrique du Nord antique et médiévale: Acte du VIIIe colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord (1er colloque international sur l'histoire et l'archéologie du Maghreb). Tabarka. 8-13 Mai 2000*. Tunis: Institut National du Patrimoine, 2003, pp. 25-34, bibliogr., p. 30, 6 fig. h.t., pp. 31-34.

Benslimane, J. Hassar. "L'archéologie marocaine de 1973-1975." *Bulletin d'Archéologie Marocaine*. vol. X (1976), pp. 243-252.

________. "Note à propos d'un bronze arabe trouvé à Chellah." *Bulletin d'Archéologie Marocaine*. vol. X (1976), pp. 173-184.



Bokbot, Youssef & Jorge Onrubia-Pintado. "Substrat autochtone et colonisation phénicienne au Maroc: Nouvelles recherches protohistoriques dans la péninsule Tingitane." in: *L'Afrique du Nord antique et Médiévale: productions et exportations africaines. Actualités archéologiques*: *Actes du Vie Colloque international sur l'Histoire et l'Archéologie de l'Afrique du Nord. pau*, *Octobre 1993*. Paris: CTHS. 1995, pp. 219-231, discussion, pp. 230-231, bibliogr., pp. 228-229, 1 fig.

Bokbot, Youssef et al. "Le complexe funéraire et culturel d'Adrar Zerzem (Anti-Atlas. Maroc): Résultats préliminaires." in: *Lieux de cultes aires votives*, *temples*, *églises*, *mosqueés: Actes du Ixe colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord antique et médiéval. Tripoli*, *19-25 Février 2005*. Paris: CNRS, 2008, pp. 21-29, 7 fig. (Etudes d'Antiquités Africaines).

Bokbot, Youssef. "Labase vallée de l'Oued Loukkos à la fin des temps préhistoriques." in: *Lixus: Actes du Colloque organisé par l'Institut des Sciences de l'Archéologie et du patrimoine de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome*, *Larache*, *8-11 Novembre 1989*. Rome: Palais Famaise, 1992, pp. 17-26, 2 fig., bibliogr., pp. 25-26.

________. "Tumulus protohistoriques du pré-Saharien Marocain: Indices de minorités religieuses." in: *L'Afrique du Nord antique et médiévale: Protohistoire, cités de l'Afrique du Nord, fouilles et prospections récentes Actes du VIIIe colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord (1er colloque international sur l'histoire et l'archéologie du Maghreb), Tabarka*, *8-13 Mai 2000*. Tunis: Institut National du Patrimoine, 2003, pp. 35-45, bibliogr., p. 40, 6 fig. h.t., pp. 41-45.

________. "Monuments funéraires protohistoriques du Maroc présaharien." in: *Les imazighens et l'espace saharien à travers l'histoire*. Centre des Etudes Hitoriques et environnementales, Série Colloques et Conférences 41. Rabat: Imprimerie El Maarif Al Jadida, 2015, pp. 3-24, 12 fig. h.t., pp. 13-22, bibliogr., pp. 23-24.

Boudouhou, Nouzha. "Découverte d'une ciste lithique entre le Loukkos et le Sebou (Piemont rifain)." *Antiquités Africaines*. vol. 33 (1997), pp. 35-37.

________. "Découverte d'une ciste lithique entre le Loukkos et le Sebou (Piémont rifain)." *Antiquités Africaines*. vol. 36 (2000), pp. 9-14.

________. "L'histoire des populations à travers les découvertes archéologie dans le Maroc oriental de la protohistoire à la fin de l'Antiquité." in: *L'Africa Romana: Mibilita delle persone e dei popoli*, *dinamiche migratoire*, *emigrazione ed immigraeioni nelle province occidental dell'imperio romano: Atti del XVI convegno di studio (su l'Africa romana). Rabat 15-19 dicembre 2004*. vol. 1. Publicazioni del Centro di studi Interdisciplinani sulle Province Romane dell' Univeresità degli di Sssari 31. Roma: Carocci editore, 2006, pp. 355-382, 10 fig.

________. "Les monuments funéraires du Maroc oriental: Les tumuli." in: *Monument et cultes funéraires d'Afriqe du Nord: Actes de la vie journée d'études nord-aricaines organisée par l'Acadimie des inscriptions et Belles-Lettres et la Société d'étude du Maghreb préhistorique antique et médiévale au Palais de l'Institut. 28 Mars 2008*. Paris: Académie des Inscriptions et Belles-Lettres. 2010, pp. 9-46, 23 fig., 1 tableau.

________. "Les monuments mégalithiques de l'Est marocain: Etat des recherches et nouvelles découvertes." in: *L'Africa Romana: Tranformazione dei paesaggi del potere nell'Africa settentrionale fino alla fine del mondo antico. Atti del XIX convegno di studio (su l'Africa romana). Sassari. 16-19 dicembre 2010*. vol. 1. Roma: Carocci editore, 2012, pp. 1235-1248. fig., bibliogr., pp. 1247-1248.



________. "Le territoire entre le Royaume maure et la Numidie: remodelages politiques et bilan des découvertes archéologique." in: *Patrimoie Maure (Amazigh) du Maroc Antique. Fés 29-31 Mars 2013*. Publications dela Faculé des Lettres et des Sciences Humaines de Saiss 33. Fés: Saiss Imprimerie, 2014, pp. 84-109, fig., table, bibliogr., pp. 106-109.

________. "Le patrimoine archéologie antique du nord-est du Maroc." in: *Le patrimoine et l'Histoire Antique du Maroc*. Rabat: Centre Tarik Ibn Zyad, 2015, pp. 13-29, 1 fig., bibliogr., pp. 27-29.

Bouzidi, R. "Nouvelle maison romaine de Volubilis." in: Khanoussi, Ruggeri & Cinzia Vismara (eds.), *L'Africa Romana: Atti del XIII convegno di studio, Djerba, 10-13 dicembre 1998*. IRIS, 2000, pp. 1789-1795.

Cheddad, A. "Notes sur quelques sites archéologiques du Nord marocain." in: Khanoussi, Ruggeri & Cinzia Vismara (eds.). *L'Africa Romana: Atti del XIII convegno di studio, Djerba, 10-13 dicembre 1998*. IRIS, 2000, pp. 1803-1817.

Chergui, A., A. Ichkhakh & H. Limane, "Note sur un moule de terre cuite de Volubilis," in: Khanoussi, Ruggeri & Cinzia Vismara (eds.). *L'Africa Romana: Atti del XIII convegno di studio, Djerba, 10-13 dicembre 1998*. IRIS, 2000, pp. 1621-1625.

________. "Nouvelles inscriptions d'Ain Schkour." in: Khanoussi, Ruggeri & Cinzia Vismara (eds.). *L'Africa Romana: Atti del XIII convegno di studio, Djerba, 10-13 dicembre 1998*. IRIS, 2000, pp. 1613-1620.

El Azifi, M. R. "Les nécropoles de la région de Tanger sont –elles phéniciennes?" in: *Actes du III^ème^ congrés international des études phéniciennes et puniques*, *Tunis*, *11-16. Nov.1991*. vol. I. Tunis: Institut National du Patrimoine, 1995, pp. 401-414.

El Harrif, F. Z. & J. B. Girard. "Préliminaire à l'établissement du corpus des monnaies de Lixus." in: *Lixus: Actes du Colloque organisé par l'Institut des Sciences de l'Archéologie et du patrimoine de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome. Larache, 8-11 Novembre 1989*. Rome: Ecole française de Rome, 1992, pp. 267-269.

El Hasroufi, Mohammed. "Les centuriations de la plaine du Loukkous (Maroc) à l'époque romaine." in: *Actas del seminario Hispano-Marroqui de especialization en arqueologica*, *Juillet. Tanger 2005*, *Septembre 2005*. Cadiz: Servicio de Publicaciones de la Universidad de Cadiz, 2006, pp. 213-217. fig., bibliogr., pp. 216-217.

________. "Etude du territoire de Loukos: Nouvelles dates pour les centuriation." in: *En La Orilla africana del circula del Estracho. Historiografia y protectos actuales: Actas del II seminario Hispano-Marroqui de especialization en arqueologica*. Coleccion de Monografias del Museo Arqueologico de Tetuan II. Cdiz: Servicio de Publicaciones de la Universidad de Cdiz, 2008, pp. 441-457, 11 fig., Bibliogr., pp. 456-457.

El Khatib-Boujibar, N. "Inscriptions nouvelles du Maroc." *Bulletin d'Archéologie Marocaine*. vol. V (1964), pp. 379-383.

________. "L'Archéologie marocaine de 1961-1964." *Bulletin d'Archéologie Marocaine*. vol. V (1964), pp. 361-378.

________. "L'Archéologie marocaine de 1964-1965." *Bulletin d'Archéologie Marocaine*. vol. VI (1966), pp. 539-550.

________. "Le problème de l'alimentation en eau à Lixus." in: *Lixus: Actes du Colloque organisé par l'Institut des Sciences de l'Archéologie et du patrimoine de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome, Larache, 8-11 Novembre 1989*. Rome: Ecole française de Rome, 1992, pp. 305-323.



El Khayari, A. "Les thermes extra-muros à Volubilis." in: Mastino, Attilia & Paola Ruggeriz (eds.). *L'Africa Romana: Atti del X convegno di studio, Oristano, 11-13 Dicembre 1992*. Sassari: Editrice Archivio Fotografico Sardo, 1994, pp. 301-312.

________. "Une stèle funéraire portant une inscription néopunique découverte dans le temple C à volubilis." *Semitica*. vol. 50 (2000), pp. 55-68.

El Khayari, A. et al. "Les stèles votives de Maurétanie Tingitane." in: *Numismatique, langues, écritures et arts du livre, spécificité des arts figurés: Afrique du Nord antique et médiévale*. Actes du VIIe colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du nord, Nice, 31-31 oct. 1996. Paris: CTHS, 2000, pp. 443-470.

El Khayari, A., H. Hassini, M. Kbiri-Alaoui. "Les amphores phéniciennes et puniques de Mogador." in: *Actes des 1ères journeés d'archéologie et du patrimoine, Rabat, 1-4 Juillet 1998*. Rabat: Société Marocaine d'Archéologie et du Patrimoine, 2001, pp. 64-73.

El Khayari, A., M. Kbiri-Alaoui & M. Ettahiri. "L'amphore du type carmona en Maurétanie occidentale." *Nouvelles Archéologiques et Patrimoniales.* no. 2 (Mars 1998), pp. 10-11.

El Khayari, A., V. Brouquier-Reddé & A. Ichkhakh. "Recherches sur les monuments religieux de Maurétanie Tingitane de L. Chatelain à la mission des temples." in: *Actes des 1ères journeés d'archéologie et du patrimoine*, vol. 2: *Archéologie Préislamique, Rabat, 1-4 Juillet 1998*. Rabat: Société marocaine d'archéologie et du patrimoine, 2001, pp.187-197.

________. "Le temple B de Volubilis: Nouvelles recherches." *Antiquités Africaines*, no. 34 (Hommages à George Souville) (1998), pp. 65-72.

El Machrafi, K. & F. Laubenheimer Leenhardt. "Pour un catalogue du Museé des Antiquités de Rabat." *Bulletin de la société d'histoire du Maroc*. vol. III (1970-1971), pp. 37-62.

El Rhodani, M. et al. "Données préliminaires sur les anciennes carrières du site antique de Volubilis (Maroc)." *Minbar Al-Jamiaa*. vol. 20. Actes de la 2ème rencontre internationale sur le Patrimoine architectural Méditerranéen (RIPAM 2) (2010), pp. 254-272, 14 pl. références bibliogr. pp. 271-272.

En-Nachioui, L. "Las primeras excavationes en Volubilis (Marruecos): Arqueologia. historia o simple colonizacion?" *Pyrenae*. no. 26 (1995), pp.161-170.

Fassi, D. (1995), "A propos du repérage archéologique dans une plaine d'inondation: Le cas du Gharb," in: *L'Afrique du Nord antique et médiévale: monuments funéraires, institutions autochtones*: *VIe Colloque international sur L'histoire et l'archéologie de L'Afrique du nord (Pau 1993)* (Paris: CTHS, 1995), pp. 292-297.

Habibi, M. & L. Pardo. "Le comptoir phénicien de Mogador: Approche chronologique et céramique à engobe rouge." in: *Actes des 1ères journeés d'archéologie et du patrimoine, Rabat, 1-4 Juillet 1998*. Rabat: Société Marocaine d'Archéologie et du Patrimoine, 2001, pp. 53-63.

Habibi, M. "La céramique à engobe rouge phénicienne à Lixus," in: *Lixus: Actes du Colloque organisé par l'Institut des Sciences de l'Archéologie et du patrimoine de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome. Larache, 8-11 Novembre 1989*. Rome: Ecole française de Rome, 1992, pp. 145-153.

________. "A propos du temple H et du temple de Melqart-Heraclés à Lixus," in: Mastino, Attilia & Paola Ruggeriz (eds.). *L'Africa Romana: Atti del X convegno di studio, Oristano, 11-13 Dicembre 1992*. Pubblicazioni del



Dipartimento di Storia dell'Università degli Studi di Sassari 25. Bruxelles: Société d'Études Latines de Bruxelles, 1995, pp. 231-241.

Hamid, Khadija (2012). *Histoire du Maroc à la lumière de l'archéologie: A la recherche de mon identité marocaine.* Casablanca: Afrique Orient. 2012, p. 388, couv. III, notes, pp. 381-382, bibliog. p. 383.

Hansali, Meriem, Hakim Ammar. "Note sur les huileries de Sala." in*: L'Africa Romana: I luoghi e le forme dei mestieri e della produzione nelle province african: Atti del XVII convegno di studio (su l'Africa romana), Olbia. 11-14 Dicembre 2008*. vol. 1. Sassari: Carocci, 2010, pp. 545-555, 4 fig.

Hassini, H. "Amphores africaines tardives à Banasa." *Bulletin d'Archéologie Marocaine*. vol. XIX (2002), pp. 423-427.

Hassini, H. et al. "Une pendeloque à Boisseau trouvée à Lixus." *Nouvelles Archéologiques et Patrimoniales*, no. 1 (1997), pp. 7-8.

Hassini, H. et al. *Estudio de los materiales ceramicos de la fase punico-mauritana III: Lixus. Colonia fenicia Y ciudad punico-mauritana. Anotaciones sobre su occupacion medieval, Saguntum, Extra*. vol. 4. València: Universitat de València, 2001. pp. 169-185.

Ichkhakh, A. "Une nouvelle huilerie à Volubilis." *Nouvelles Archéologiques et Patrimoniales*, no. 1 (Avril 1997), pp. 7-8.

Ichkhakh, A. et al.,"Les stèles votives de la Maurétanie Tingitane: Un complément au catalogue du temple B de Volubilis." in: *Numismatique. Langues: Ecritures et art du livre. Spécifité des arts figurés.* Paris: Édition du comité des travaux historiques et scientifiques, 1999, pp. 343-370.

Kbiri-Alaoui, M. & L. Pardo (1998). "La factoria fenica de Mogador Las ceramicas pintadas." *Archivo Espanol de Arqueologia*. no. 71 (1998), pp. 177-178.

Kbiri-Alaoui, M. "A propos de la chronologie de la Nécropole rurale d'Ain Dalia Lakbira (Région de Tanger)." in: *Actas del congreso internacional de Estudios Fenicos e Punicos*. *Cádiz, 2 al 6 de octubre de 1995*. Cádiz: Servicio de Publicaciones. Universidad de Cádiz, 2000, pp. 1185-1195.

________. "Actividad comercial y produccion céramica en el taller punico-mauritano de Kuass." *Arqueologia*. no. 228 (2000).

________. "Las fases punico-mauritanas I (175-150 a 80-50 A.C) y (80-50 A.C. -15 D.C)." in: Gasco, C. Aranegui (ed.). *Lixus: Colonia fenicia y ciudad punico-mauritana. Anotaciones sobre su occupacion medieval, Saguntum Extra*. vol. 4. Valencia: Universitat de València, 2001, pp. 141-168.

Kbiri-Alaoui, M. et al. "Céramicas Campanienses. pintadas. ibericas y comunes." in: Gasco, C. Aranegui (ed.), *Lixus: Colonia fenica y ciudad punico-mauritania. Anotaciones sobre su occupacion medieval, Saguntum Extra*. vol. 4. Valencia: Universitat de València, 2001.

Kbiri-Alaoui, M. et al. "La ocupacion punico-mauritani." in: Gasco, C. Aranegui (ed.). *Lixus: Colonia fenicia y ciudad punico-mauritana. Anotaciones sobre su occupacion medieval, Saguntum Extra*. vol. 4. Valencia: Universitat de València, 2001, pp. 51-71.

Kharbach, A. "Les relations Maroco-romaines d'après des données archéologiques." *Revue Amal*. no. 22-23 (2001), pp. 219-225, bibliogr., p. 225.



________. "Rapports Romano-Marocains à travers les données archéologiques." *Revue Amal*. no. 22-23 (2002), pp. 219-225.

________. "Regard sur quelques chapiteaux de Banasa." *Revue Amal*. no. 27 (2002), pp. 206-219.

Laamiri, L. & M. Habibi. "La place de la statuaire en Maurétanie Tingitane." *Actes des 1ères journeés d'archéologie et du patrimoine, Rabat 1-4 Juillet 1998*. Rabat: Société Marocaine d'Archéologie et du Patrimoine, 2001, pp. 85-91.

Limane, H. & R. Rebuffat. "Les confins sud de la présence romaine en Tingitane dans la région de Volubilis." *Actes du Vème Colloque. International sur l'histoire et l'Archeologie. De l'Afrique du Nord. Avignon, 1990*. Paris: CTHS, 1992, pp. 459-470.

________. "Une voie romaine frontalière." *Les Espaces Frontaliers dans l'Histoire du Maroc.* Série Colloques 6. Mohamedia, Maroc: Université Hassan II, 1999, pp. 13-26.

________. "Sidi Said: un sanctuaire rural de la rive droite du Sebou." *La Recherche Historique*. no. 3 (2005), pp. 53-61, bibliogr., p. 61.

________. "Volubilis imprégneé par l'obsédente odeur de l'huile." *Histoire*. vol. 54 (2014), pp. 116-121.

Limane, H. "La céramique du sud de la Gaule à Lixus." in: *Lixus: Actes du Colloque organisé par l'Institut des Sciences de l'Archéologie et du patrimoine de Rabat avec le concours de l'Ecole Française de Rome. Larache, 8-11 Novembre 1989*. Rome: Ecole française de Rome, 1992, pp. 299-303.

________. "Un site romain de la région de Mhaya." *Nouvelles Archéologiques et Patrimoniales.* no. 1 (1997), p. 9.

________. "Note sur la sigillée Hispanique de Grenade à Lixus." *Bulletin d'Archéologie Marocaine*. vol. XVIII (1998), pp. 335-337.

Limane, H. et al. "Apports de la prospection géophysique à l'étude archéologique des sites de Paciuri. Musarna et Banasa." *Applicaciones informaticas en arqueologia. Teorias y Sistemas*. Jornadas de trabajo del II Coloquio Internacional de Arqueología e informática. Bilbao: Denboraren Argia, 1995, pp. 172-173.

Limane, H. et al. "De nouvelles inscriptions d'Ain-Schkour." *Nouvelles Archéologiques et Patrimoniales.* no. 1 (1998), p. 12.

Limane, H. et al. "Découverte d'une moule en céramique à Volubilis." *Nouvelles Archéologiques et Patrimoniales.* no. 2 (1998), p. 4.

Limane, H. et al. "Découverte d'une tombe Islamique au quartier sud de Volubilis." *Nouvelles Archéologiques et Patrimoniales.* no. 1 (1997), p. 8.

Limane, H. et al. *Volubilis: de mosaique à mosaique*. Casablanca: Eddif, 1998.

Majdoub, M. "Nouvelles données sur la datation du temple C. de Volubilis." in: Mastino, Attilia & Paola Ruggeriz (eds.). *L'Africa Romana: Atti del X convegno di studio, Oristano*, *11-13 Dicembre 1992*. Sassari: Editrice Archivio Fotografico Sardo, 1994, pp. 283-287.

________. "Nouvelles recherches sur l'époque maurétanienne à volubilis." *Actes des 1ères journeés d'archéologie et du patrimoine, Rabat, 1-4 Juillet 1998.* Rabat: Société Marocaine d'Archéologie et du Patrimoine, 2001, pp. 198-213.

Makdoun, M. "Encore sur la chronologie du quartier Nord- Est de Volubilis." in: Mastino, Attilia & Paola Ruggeriz (eds.). *L'Africa Romana: Atti del X convegno di studio, Oristano, 11-13 Dicembre 1992*. Sassari: Editrice Archivio Fotografico Sardo, 1994, pp. 263-281.

________. "La maison de Dionysos et des quatre saisons et la maison des Nymphes à Volubilis problèmes de mitoyenneté et de chronologie." in: Khanoussi, Mustapha, Paola Ruggeri & Cinzia Vismara (eds.), *L'Africa Romana: Atti del XIII convegno di studio, cartagine, 15-18 Dicembre 1994*. Ozieri: Il Torchietto, 1996, pp. 1703-1723.

________. "Nouvelles recherches stratigraphiques sur l'aqueduc de Volubilis." in: Khanoussi, Mustapha, Paola Ruggeri & Cinzia Vismara (eds.). *L'Africa Romana: Atti del XI convegno di studio, cartagine, 15-18 Dicembre 1994*. Ozieri: Il Torchietto, 1996, pp. 763-770.

________. "Nouvelles recherches sur le quartier Nord-Est de Volubilis." *BCTH*. no. 25 (1996-1998), pp. 40-51.

Meknassi, A. "Compana de excavationes y exploracion archeologica en 1957." *Tamuda*. vol. V (1957), pp. 161-164.

________. "Reconocimientos arqueologicos en El Rif." *Tamuda*. vol. VII (1959), pp. 156-158.

Mikdad, Abdeslam. "L'utilisation de l'ivoire au Maroc. des origines à l'époque médiévale." in: Banerjee, A., J. A. Lopez Padilla & Thomas Schuhmacher (eds.). *Ellenbeinstudien. Faszike 1: Marfil y elefantes en la Peninsula Ibérica y el Mediterraneo occidental: Actas del coloquio internacional en Alicante el 26 y 27 de noviembre 2008*. Iberia Arhàalogica. Band 16. Fasziekel 1. Madrid. Deutshes Arcàolozisches institut. Darmstadt/ Mainz: Veriag Philipp von Zaben. 2012, pp. 111-120. 14 fig.

Ouahidi, A. & S. El Bouzidi. "La frontière méridionale de la Maurétanie Tingitane: Contribution à la carte archéologique de la région de Volubilis." *Dialogues d'Histoire Ancienne*. vol. 40, no. 1 (2014), pp. 97-108.

________. "Approche historique de l'oléiculture dans le Maroc antique: L'apport des textes agronomiques et de l'archéologie." in: Ater, M. et al. (eds.). *L'oléiculture au Maroc de la préhistoire à nos jours: Pratiques, diversité, adaptation, usages, commerce et politiques*. Collection Options Méditerranéennes 118. Série A. Séminaires Méditerranéens. Montpellier: CIHEAM, 2016, pp. 29-44.

________. "Le verre dans l'antiquité Mythe: Légende et histoire de natron, du sable et du feu d'après Pline l'ancien." *Le Jardin des Hespérides* (Mai 2016), pp. 8-10.

Ouahidi, A. & S. El Bouzidi. "Villes antiques du Maroc. Diversité spatiale et originalité patrimoniale." in: *Patrimoine et Tourisme culturel au Maroc Actes du 9ème colloque Maroco-Allemand. Meknès 2014*. Actes de Colloques 43. Meknès: FLSH; Université Moulay Ismail, 2014, pp. 53-62.

Ouahidi, A. "Nouvelles recherches archéologiques sur les huileries de Volubilis." in: Mastino, Attilia & Paola Ruggeriz (eds.), *L'Africa Romana: Atti del X convegno di studio, Oristano, 11-13 Dicembre 1992*. Sassari: Editrice Archivio Fotografico Sardo, 1994, pp. 289-299.

Qninba, Z. "La composition de la mosaïque d'Orphée de Volubilis." *Bulletin d'Archéologie Marocaine*. vol. XVIII (1998), pp. 181-202.

________. "La mosaïque dans le Maroc," *Les trésors du Maroc*. Paris, 1999. pp. 81-84.

________. "La mosaïque de la Maurétanie Tingitane un état de la question." *Actes des 1ères journeés d'archéologie et du patrimoine, Rabat 1-4 Juillet 1998*. Rabat: Société Marocaine d'Archéologie et du Patrimoine, 2001, pp. 132-139.



Raissouni, Baraka et al. *Carta arqueologica del Norte de Marruecos (2008-2012): Prospeccion y yaciemientos. Un primer avance. vol. I.* Collection Villes et sites archéologiques du Maroc 5. Cadiz: Servicio de Publicaciones de la Universidad de Cádiz, 2015.

Raissouni, Baraka. "Nouvelles perspectives de recherches archéologiques au Nord du Maroc (Région Tanger-Tétouan)." in: *Actas del seminario Hispano-Marroqui de especialization en arqueologica*, *Tanger, Septembre 2005*. Cadiz: Servicio de Publicaciones de la Universidad de Cadiz, 2006, pp. 229-232, 4 fig.

Ramdani, A., R. El Idrissi & A. El Boudjay. "Découverte d'une poignée en bronze à Had Gharbia." *Nouvelles Archéologiques et Patrimoniales*, no. 2 (Mars 1998), pp. 9-10.

Rebuffat, René et al. *Carte archéologique du Maroc antique: Le bassin du Sebou 1. Au sud Loukkos. Cartes Araoua-Lalla Mimouna- Moulay Bou Selham*. Collection Villes et sites archéologiques du Maroc II. Rabat: Imprimerie El Maarif Al Jadida, 2011), p. 127.

Rhorfi, Abdellatif. "La genèse de l'élite de Volubilis." in: *L'Africa romana: Atti del XX convegno internazionale di Studi (su l'africa romana): Aighero-Porto Conte Ricerche. 26-2 settembre 2013*. Roma: Carocci Editore, 2015, pp. 773-799.

Siraj, A. "De la pré-archéologie à l'archéologie du Maroc." in: Khanoussi, Mustapha, Paola Ruggeri & Cinzia Vismara (eds.). *L'Africa Romana: Atti del XIII convegno di studio, Oristano*, *11-13 Dicembre 1992*. Sassari: Editrice Archivio Fotografico Sardo, 1994. pp. 817-823.

________. "Berbères et livres: Reflèxions sur le métier intellectuel des Berbères. Antiquité et Moyen-âge." in: *Numismatique. Langues: Ecritures et art du livre. spécifité des arts figurés.* Paris: Édition du comité des travaux historiques et scientifiques, 1999, pp. 223-231.

الأطروحات الجامعية بالمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث

Amarir, Abdessalam. "Contribution à l'étude des tumulus du Rif oriental." Thèse pour l'obtention du Diplôme de 3[ème] cycle de l'Institut National des Sciences de l'Archéologie et du Patrimoine. Rabat, 2001, p. 222.

Arharbi, Rachid. "La Maurétanie occidentale à l'époque préromaine: Contribution à l'établissement de la carte archéologique du Maroc." Thèse de troisième cycle, Institut des Sciences de l'Archéologie et du Patrimoine. Rabat, 2003, 2 vol., Texte et figures.

Atki, Habiba. "Contribution à la connaissance du Néolithique marocain: Etude et analyse de la céramique du site de Hassi Ouenzga (Rif oriental)." Thèse de doctorat de l'Institut national des sciences de l'archéologie et du patrimoine. Rabat, 2002.

Bernoussi, Rochdi. "Contribution à l'étude paléontologique et observations archéozoologiques pour deux sites de pléistocène Moyen du Maroc Atlantique: La Grotte à Hominidés de la Carrière Thomas 1 et la Grotte des Rhinocéros de la Carrière Hamida 1 (Casablanca. Maroc)." Thèse de doctorat en Préhistoire et géologie du quaternaire, l'Université de Bordeaux I, 1997, 265p., 20pl., 53 tabl., 41 fig. bibliogr.

Boujamid, Azzouz. "La ville d'Essaouira: Structures spatiales authentiques, pratiques socioculturelles en formation et systèmes constructifs transformationnels." Thèse, Soutenue à l'Institut national des sciences de l'archéologie et du patrimoine. Rabat, 2004.



Bouzidi, Rachid. "Recherches archéologiques sur le quartier du Tumulus (Volubilis)." Thèse de troisième cycle, l'Institut national des sciences de l'archéologie et du patrimoine. Rabat, 2001.

Bouzouggar, Abdeljalil. "Matières premières: Processus de fabrication et de gestion des supports d'outils dans la séquence atérienne de la grotte d'El Mnasra I (ancienne grotte des Contrebandiers) à Témara (Maroc)." Thèse de doctorat en Préhistoire et géologie du Quaternaire. l'Université de Bordeaux I, 1997.

Cherradi, Hassan. "Musées et muséologie au Maroc." INSAP, 2001.

Diab, Ahmed. "Al 'asr al hajari al kadim al awsatfi Souryiah." INSAP, 1999.

El Idrissi, Abdelaziz. "Néolithique ancien du Maroc septentrional dans son contexte régional," INSAP, 2001.

El Khayari, Abdelaziz. "Tamuda: Recherches archéologiques et historiques." Université Paris I, 1996.

Elboudjay, Abdelatif. "La Ville de Larache (AL-'ARAI'IS): Etude d'histoire et d'archéologie urbaine et monumentale." INSAP, 1998.

Ettahiri, Ahmed, "Les Madrasas marinides de Fés: Etude d'histoire et d'archéologie monumantales." Soutenue à l'Université de Paris-Sorbonne (Paris IV). Institut d'Art et d'Archéologie, 1996.

Ezajani, El Idrissi El Omari & Mohamed Mohcine. "L'Espace urbain et l'architecture de Fas'al-Bali à l'époque 'Alawite (jusqu'au protectorat)." INSAP, 2002.

Hassini, Hicham. "Eléments d'histoire économique du Maroc antique: Etude des amphores des sites du littoral atlantique." INSAP, 2001.

Ichkhakh, Abdelfattah. "Le Quartier de l'Arc de Triomphe: la rive nord du Décumanus Maximus." INSAP, 2001.

Jlok, Mustapha. "Patrimoine architectural des Vallées et des Oasis: Etat des lieux. Evolution et perspectives de développement. Cas de Taourirt et d'Ighrem n Igoulmimn." INSAP, 2002.

Kafas, Samir. "Les Fortifications et l'architecture militaires du Maroc au temps des Saadiens (XVIè – XVIIè siècles)." INSAP, 2003 .

Kaouane, Choumicha. "L'Industrie sur matière dure animale de trois gisements néolithiques marocains: Kaf Taht el Ghar. Dar es Soltane I et la nécropole de Rouazi à Skhirat." INSAP, 2002.

Kara, Abdelaziz. "Al Mawaqi' attarikhiyah al islamiyah bi mantaqat 'Abda baïna annas attarikhi wa adirasat al madaniyah ..."

Keddane, Naïma. "Approche historique et prospection archéologique dans une confédération du Souss: Ilaln." INSAP, 2002.

Khadid, Radouan. "Turat al intajiyah wa al ibda'iyah wa al madhur al mathafi." INSAP, 2001.

Khiara, Youssef. "Reconnaissances archéologiques dans la moyenne Vallée de Neffis (Bassin de Talat n-Ya'qub)." INSAP, 2002.

Miftah, Noureddine. "Fahris al maskukat al maghribiyah min 'ahd al Idrissi ilka 'ahd al sa'di." 2 vol.

Miri, Rahma. "Concevoir et faire naître: approche anthropologique de la naissance à Oujda." INSAP, 2001.

Mohib, Abderrahim. "L'Acheuléen de la Grotte des Ours à Sidi Abderrahmane (Casablanca. Maroc) dans son contexte régional (fouilles anciennes et récentes)." INSAP, 2001.



Mouhsine, Touria. "Contribution à la connaissance de la faune du pléistocène supérieur du Rif oriental: la grotte de Ifri N'Ammar." INSAP, 2003.

Nami, Mustapha. "La Grotte d'Ifri El Baroud: Etude d'une séquence ibéromaurusienne du Rif oriental (Maroc)." INSAP, 2001.

Raji Elillah, Youssef. "La Ville de Marrakech sous les Sa'adiens (16ème-17ème siècles): L'activité architecturale et le développement urbain." Université de Paris IV, 1996.

Rguig, Hicham. "Les Mallah en milieu urbain: Approche historique et urbaine." INSAP, 2003.

Riffi, Morad. "Les dimensions pratiques et symboliques du sang dans la culture marocaine." INSAP, 1999.

Saïd, Ennahid. "Political Economy and Settlement Systems of Medieval Northern Morocco: An Archaeological Historical Approach." Soutenue à Arizona State University, 2001.

Skounti, Ahmed. "Le Sang et le sol: Les implications socioculturelles de la sédentarisation des nomades au Maroc d'après l'exemple Ayt Merghad du sud-est." EHESS. Paris, 1995.



الرقم التعريفي: DOI: https://doi.org/10.31430/PYKT5538

سعيد البوزيدي | Saïd El Bouzidi*

قراءة موضوعاتية في الهيستوريوغرافيا المغربية لكتابة تاريخ المغرب القديم

An Objective Reading of Moroccan Historiography in Writings on the History of Ancient Morocco

بقيت كتابة تاريخ المغرب القديم مرتبطة بالمشروع الكولونيالي الفرنسي في المغرب حتى بعد الاستقلال؛ إذ كانت غالبية الأبحاث التاريخية لهذه الفترة تُنجز باللغة الفرنسية، في المقام الأول، وتنصبّ على ربط الماضي الروماني بالحاضر الفرنسي، في المقام الثاني. ساعد في هذا التوجه أن غالبية المصادر التاريخية التي تتناول هذه الفترة من تاريخ المغرب، كانت بإحدى اللغتين اليونانية أو اللاتينية، ما كان يحول دون استعمالها من غالبية الباحثين المغاربة. لذلك، من حسن الحظ، أنها مترجمة إلى الفرنسية. وبقيت اهتمامات الدراسات تركز على أهم المواقع التاريخية التي تتناولها المصادر التاريخية، أو تلك التي حظيت باهتمام البعثات العلمية الأجنبية؛ مع الإقرار بأن هذا التركيز قد خلّف إرثًا علميًا مهمًا، شكّل أرضية لتناول تاريخ المغرب القديم، في ظل غياب تناول المصادر العربية لهذه الحقبة.

مع حصول المغرب على استقلاله، بقي تدريس تاريخ المغرب القديم في الجامعة المغربية حكرًا على الأجانب، إلى أن بدأت تعود إلى أرض الوطن مجموعة من خريجي الجامعات الأجنبية، التي تحمّلت مهمة التدريس والتأطير. ساهم اعتماد اللغة العربية في الجامعة في تكوين أطر مغربية مكّنت من إيجاد مجموعة من الباحثين والمدرّسين المغاربة الذين اجتهدوا في "مغربة" التاريخ القديم عبر أبحاث ودراسات أعادت تقديم نتائج الدراسات الأجنبية بالعربية، وقدّمت مقاربات أخرى همّت جوانب من تاريخ المغرب القديم بقيت مهمّشة في الكتابات الكولونيالية.

يمكّن متن العمل الذي يتكون من أكثر من 400 عنوان في بحث يهم تاريخ المغرب، بين عامي 1956 و2020، من وضع أرضية علمية لسبر أغوار أهم المواضيع التاريخية والمواقع الأركيولوجية والإشكالات التي تهم تاريخ المغرب القديم. تروم هذه المداخل تقديم نتائج تطبيق منهج الكشاف الموضوعاتي على هذه الحصيلة من الأبحاث، والعمل على وضع خريطة مسار البحث في تاريخ المغرب القديم بعد الاستقلال.

* أستاذ التعليم العالي في كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب.

Professor of Higher Education at the Faculty of Humanities and Social Sciences, Ibn Tofail University, Kenitra, Morocco.

elbouzidisaid@gmail.com



أولًا: متن العمل: الهيستوريوغرافيا المغربية لتاريخ المغرب القديم

مع نهاية القرن العشرين، بدأت تظهر دراسات هيستوريوغرافية تقارب تناول تاريخ المغرب القديم، بدءًا من الأطروحة التي قدّمها حميد عرايشي[1]، أعقبتها مجموعة من الاجتهادات التي رصدت الإنتاجات العلمية، سواء للباحثين المغاربة أم الأوروبيين في الموضوع ذاته. ومع الثورة الإعلامية ورقمنة الأعمال البيوغرافية، تنامت بنوك المعلومات التي تقدم خدمات بيبليوغرافية تُمكّن من تكوين متن العمل ليُشكل أرضية علمية لرصد التوجّهات الكبرى للبحث في تاريخ المغرب القديم وأركيولوجيته.

كان من نتائج توالي رصد الإنتاجات العلمية وجمعها وتصنيفها أن اصطفينا ما يقارب 400 عنوان تم نشرها من الباحثين المغاربة، سواء كمقالات أم مساهمة في أعمال مشتركة أو مؤلفات، تتناول تاريخ المغرب القديم، سواء منها القضايا التاريخية أم نتائج الأبحاث الأركيولوجية. استثنينا من هذه الأعمال الأطروحات الجامعية، باعتبارها أعمالًا مرقونة لم يجر نشرها بعد. كما لم نأخذ في الحسبان التقارير العلمية والملخّصات، وإن كانت ذات قيمة علمية، وتُعبّر عن رأي الباحث في الأعمال التي اشتغل بها.

تم ترتيب متن العمل أبجديًا، مع مراعاة تاريخ النشر بالنسبة إلى المؤلف. وتضمّنت غالبية الأعمال التي جرى نشرها وطنيًا، سواء في الندوات والملتقيات العلمية، أو في الأعمال والمنشورات التي قاربت تاريخ المغرب القديم. وحتى إن تم فصل المقالات المنشورة بالعربية عن المنشورة باللغات الأخرى، فإن معيار اللغة للفصل كان تنظيميًا أكثر منه وظيفيًا، وإن كانت له دلالته الفكرية، ويدل على سرعة إيصاله ونشره والتعريف به. تبقى الإشارة إلى أن الكتب الجامعة أو الموضوعاتية في التاريخ القديم والبحث الأثري ضعيفة، وغالبًا ما ترصد ظاهرة أو موقعًا أركيولوجيًا محددًا، ما لا يسعف في الرصد الشامل وبالقدر الكافي.

ثانيًا: الكشاف الموضوعاتي: منهجية عَمليَّة ضمن العلوم المساعدة في العلوم الإنسانية

يُدرج الكشاف الموضوعاتي ضمن مناهج البحث في العلوم الإنسانية والسياسية التي تعتمد على قراءة المعطيات الرقمية وتحليلها لوضع خريطة موضوعاتية. تكمن وظيفتها في إعطاء مستعملها إمكانية الانطلاق من المعطيات المتوافرة، في إطارها الزمني والمجالي، كضوابط لعمل منهجي وعلمي. ثم اعتماد الجزئيات والتفاصيل التي يطرحها الكشاف كأداة فرز للموضوعات، ما يؤدي إلى خلق قاعدة بيانات موضوعاتية تفسح المجال لتمحيصها والوقوف على جزئياتها بعناصرها التجانسية، قبل تناول العموميات؛ أي الانطلاقة من "الجزئي" إلى "الكلي". تُمكّن الانطلاقة من هذه الزاوية، من خلق حلقات متصلة ومترابطة، تنطلق من المعلومة في الإحالة إلى الموضوع في سياقه التاريخي. وأخيرًا، منهج الكشاف الموضوعاتي هو أداة الكشف عن المسكوت عنه في الإحالة، عبر مجموعة أسئلة تطرحها عناصر الفهرس وتبقى عالقة في المتن[2].

للإشارة، يعود اعتماد منهج الكشاف الموضوعاتي في الدراسات والتحليل إلى فترة الحرب الباردة، حيث كانت الاستخبارات الروسية "كي جي بي" KGB تستعمله في تحليل الخطابات والمراسلات الرسمية للمعسكر الغربي. وفي أوائل سبعينيات القرن الماضي، قامت خلية البحث في تاريخ العبودية التابعة لمركز الأبحاث في التاريخ القديم في جامعة Franche-Comté في مدينة

1 حميد عرايشي، **نظرات حول المغرب القديم: بين الرواية الكولونيالية والحكاية الوطنية: أي تاريخ؟ (إسطوريوغرافيا وبيبليوغرافيا)**، سلسلة بحوث ودراسات 24 (وجدة: منشورات كلية الآداب، 2019).

2 سعيد البوزيدي، "الفهرس الموضوعاتي: أداة عملية لتحليل النصوص التاريخية"، **الحصاد المعرفي**، العدد 3 (1996)، ص 13-24.



بيزنسون Besançon الفرنسية بتجربة أولى في تطبيق هذه الأداة، تحت عنوان *IndeX Thématique*. كان من نتائج أعمال هذا المركز إصدار مجموعة من الدراسات التي اعتمدت هذه الأداة في تشريح النصوص التاريخية، وقدّمت مجموعة من الخبرات في تحليل الخطابات والدراسات التي كانت تفد إليها. تعتبر حاليًا آلية الكشاف الموضوعاتي من المناهج العلمية التي تواكب التطور العلمي الرقمي، باعتبارها تحوّل المعلومة إلى وحدة تعطي إمكانية ترقيمها، ومن ثمّ خلق بنك للمعلومات الرقمية والنصية.

تتميز عناصر الكشاف الموضوعاتي باستقلالية تجعلها تتّسم بالليونة التي تطبقه كمنهج علمي. كما تعطي المستعمل حرية استقصاء ما يخدم هدفه الأساسي، فهو ليس ملزمًا بالتعامل مع المحاور كلها، بل يمكن الاقتصار على الجانب المُراد تناوله؛ ما يسمح باستغلال هذه الأداة العملية في معظم العلوم الإنسانية. تفرض هذه الازدواجية بين الاستقلالية والتكامل، على المستعمل، عدم تطبيق الفهرس الموضوعاتي في شكله العام الجامع، بل عليه العمل على تهذيبه ليستجيب لمتطلّبات الموضوع المراد إنجازه، مع تحديد الهدف أو الأهداف المتوخّاة من الدراسة.

بناءً عليه، جرى بناء كشّاف موضوعاتي لقائمة الكتابات التاريخية للباحثين المغاربة حول تاريخ المغرب القديم بعد الاستقلال. وجرت هندسة هذا الكشاف انطلاقًا من المحاور الكبرى، تهم الباحث وأدوات البحث والمجال الجغرافي والفترة الزمنية وطبيعة الموضوع، ثم فضاء النشر وتاريخه. وتم تفريع هذه المواضيع الرئيسة إلى مواضيع ثانوية، التي بدورها تمّ تفريعها إلى عناصر جزئية. أسفر بناء الشبكة الموضوعاتية لدراسة موضوع كتابة المغاربة لتاريخ المغرب القديم بعد الاستقلال عن تحديد 109 أسئلة للتطبيق على متن العمل الذي يتكوّن من 400 إحالة. أسفرت نتائج تطبيق هذه الأداة العلمية على متن العمل عما يقرب من 43600 معلومة رقمية قابلة للتحليل.

ثالثًا: الخريطة الموضوعاتية للهيستوريوغرافيا المغربية حول تاريخ المغرب القديم

تُقدم نتائج تطبيق الكشاف الموضوعاتي على الهيستوريوغرافيا المغربية لكتابة تاريخ المغرب القديم أرضية رقمية تهم مجموع الدراسات التي جرى نشرها، وتُجيب عن مجموعة من التساؤلات عن خريطة التِّيمَات الموضوعاتية التي انصبّت عليها. كما تسمح هذه النتائج بطرح أسئلة عن غياب تناول بعض جوانب تاريخ المغرب القديم؛ ما يفتح باب القضايا والإشكالات التي تبقى مشرعة أمام الباحثين. وتجدر الإشارة إلى أن نتائج هذه الدراسة الكمية تبقى قابلة للتطوّر مع توالي الدراسات، وكذا طرح مواضيع جديدة تهم تاريخ المغرب القديم واقتراحها.

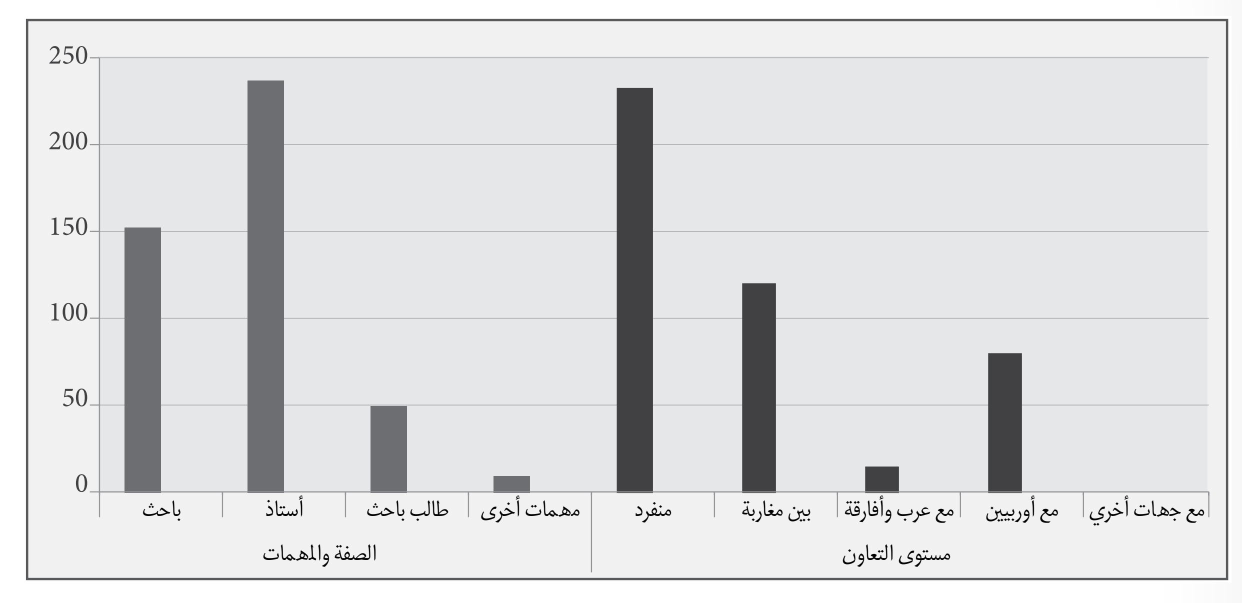
إن أول ما يلفت النظر هو أن غالبية الدراسات في التاريخ القديم قام بها أساتذة في الجامعات أو في المعاهد العليا، خصوصًا التي تشتغل في هذا التخصص. وتبقى مساهمة الطلاب الباحثين جديرة بالاهتمام، ما يشير إلى أن لهذا التخصص حضورًا، ويحظى باهتمام الشباب لاستكمال مشوار البحث العلمي. واللافت أيضًا أنه خارج الحقل الجامعي، لا يرقى الإنتاج العلمي والمعرفي في التاريخ القديم حتى إلى مستوى الفضول المعرفي؛ ما يستوجب مجهودات في التعريف بهذا الحقل العلمي والتعريف به.

تبقى غالبية الأعمال فرديةً، وإن كانت الأعمال المشتركة بين الباحثين والأساتذة المغاربة حاضرة. كما أن التعاون مع الأوروبيين هو الآخر له حضوره، خصوصًا بالنسبة إلى الأعمال المنشورة باللغات الأجنبية. يبقى مستوى التعاون مع العرب والأفارقة جد ضعيف؛ ما يستوجب فتح باب الاهتمام والاحتضان.



الشكل (1)

صفة الباحثين ومهماتهم ومستوى التعاون في إنجاز الأبحاث

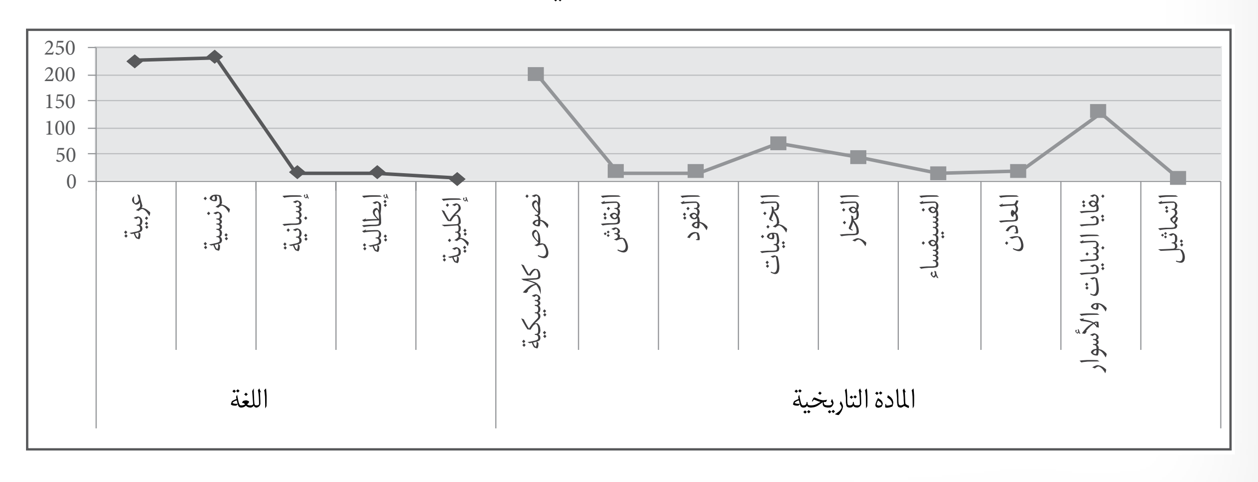


المصدر: من إعداد الباحث.

تكشف دراسة لغة نشر الأعمال، والمادة التاريخية التي جرى اعتمادها، عن توجّهات الباحثين المغاربة في دراسة تاريخ المغرب القديم. وحتى إن كانت اللغة العربية جد متداولة، فإن نشر الأعمال باللغة الفرنسية هو البارز. ولعل ذلك يعود إلى كون جيل نهاية القرن العشرين من الأساتذة والباحثين المغاربة تلقى تكوينه الجامعي في أوروبا، أو هيأ أعماله باللغة الفرنسية. وتبقى اللغة الإنكليزية ضعيفة في النشر، كما أن كلًا من الإسبانية والإيطالية دون التطلّعات في استعمالهما في أعمال الباحثين المغاربة.

الشكل (2)

لغة الكتابة والمادة المصدرية في تناول المواضيع



المصدر: المرجع نفسه.



من حيث المادة التاريخية التي اعتمد عليها، يتبيّن أن غالبيتها تعتمد على النصوص التاريخية، ثم المادة الأركيولوجية، سواء أكانت بقايا أثرية أم مُخلّفات خزفية أو فخارية، حيث إن نتائج مختلف الأبحاث الأركيولوجية تساهم بشكل مهم في كتابة التاريخ القديم.

يكشف الكشاف الموضوعاتي عن تباين في توزيع المجال الجغرافي للدراسات التاريخية للمغرب القديم. انصبّت غالبية الدراسات على بلاد المور بشكلها الخاص، إلى جانب التي همت شمال أفريقيا بصفة عامة. وتجدر الإشارة إلى أن المناطق الجنوبية والصحراوية ومواقع الجهة الشرقية حظيت باهتمام الباحثين المغاربة، عكس الفترات الكولونيالية التي عرفت فترة فتور، مقارنة بالمواقع التي تقع في "مثلث المغرب النافع".

الشكل (3)

التوزيع الجغرافي لمواضيع الأبحاث التاريخية في المغرب القديم

المصدر: المرجع نفسه.

انصبّت غالبية الدراسات على المواقع الحضرية من مدن وليلي ولكسوس وسلا وغيرها، كما تناولت المواقع العسكرية والقروية. واللافت هو تزايد عدد الدراسات التي تناولت المواقع القروية، عكس الدراسات الفرنسية التي كانت تُوجّه اهتمامها إلى الجوانب العسكرية والحواضر، قصد ربط الماضي الروماني بالحاضر الفرنسي.



يمكن للكشاف الموضوعاتي فرز خريطة التيمات التي تناولتها هيستوريوغرافيا المغرب القديم، وتؤكد مرة أخرى أن الأحداث التاريخية هي التي لا تزال تثير اهتمام الباحثين المغاربة. وتوزّع باقي الاهتمامات بين الذي يهم الدراسات الجغرافية والدراسات الاقتصادية والإدارية والعسكرية والدينية والثقافية.

الشكل (4)

الخريطة الموضوعاتية لدراسات المغاربة بشأن المغرب القديم

المصدر: المرجع نفسه.

اللافت هنا هو تقارب عدد هذه الدراسات من حيث عدد الإصدارات، وإن كان هناك تباين في نوعيتها، ما بين التي نشرت بالعربية، والتي نشرت باللغات الأجنبية، وما بين التي صدرت ككتب ومنوغرافيات ونتائج للأبحاث الميدانية، والتي صدرت كمقالات تتناول قضية ما أو موقعًا معينًا يعود إلى الفترة القديمة. ويُمكن فهرسة المواضيع عبر تصنيف مجموع هذه الدراسات؛ ما يُسهّل على الباحثين تصويب اهتماماتهم البيبليوغرافية اعتمادًا على نتائج الفهرسة الموضوعاتية.

رابعًا: ما بين الهيستوريوغرافيا المغربية لكتابة تاريخ المغرب القديم والبحث الأركيولوجي: تقاطع أم تكامل؟

مكّن بنك المعلومات البيبليوغرافية ونتائج الكشاف الموضوعاتي من طرح هذا السؤال، خصوصًا عقب مجموعات من اللقاءات العلمية في المؤسسات الجامعة، التي شهدت مجموعة من النقاشات الفكرية، سواء بشأن مواضيع مشتركة أو التفكير المشترك في ضرورة تعزيز التعاون بين الجامعيين والأركيولوجيين. كما كان لإحداث تنظيمات علمية في المعهد الوطني لعلوم التراث والآثار أو في المؤسسات الجامعية احتضان مجموعة من الأنشطة العلمية، طرحت بقوة قضية التقاطع والتكامل بين البحث التاريخي والأركيولوجي. وجاء هذا العمل ليساهم من خلال طرح بعض الأسئلة تهم نقاط التلاقي والابتعاد بينهما اعتمادًا على الإصدارات العلمية التي خلّفها الباحثون والأساتذة المغاربة حول تاريخ المغرب القديم بعد الاستقلال.



تشترك كل من الأبحاث التاريخية والأركيولوجية في تنامي تصاعد الكتابة بالعربية، وإن كانت الدراسات الأثرية غالبًا ما تعتمد على اللغة الأجنبية، خصوصًا منها الفرنسية، في تقديم نتائج أبحاثها الميدانية. كما تُعرض هذه الأبحاث في منتديات دولية وعامية؛ ما يجعلها تسير في مستوى باقي نتائج الأبحاث الأركيولوجية التي يعرفها باقي بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط. وتبقى الدراسات التاريخية تعتمد في تحليلاتها على ما تقدمه المصادر التاريخية، وما تجود به نتائج الأبحاث الأثرية، وإشعاع يقتصر على دول المغارب والدول الناطقة بالعربية، وإن كانت هناك مجهودات في تقديم نظريات جديدة بشأن مواضيع تاريخية. تبقى المصادر بأنواعها كلها، سواء منها المكتوبة أو الأثرية مادة مشتركة بين الأبحاث كلها؛ إذ لا يمكن تقديم نتائج حفريات موقع ما، من دون تناوله وذكره في المصادر التاريخية، كما يستوجب تناول الأحداث التاريخية الإلمام بما توصّلت إليه الأبحاث الأركيولوجية.

تتقطع الدراسات التاريخية والأبحاث الأركيولوجية في طبيعة المواضيع التي يتناولها كل منهما. فإذا كانت الأولى تقوم بمسح عام يتقلّص مع التخصص قبل أن ينصبَّ على موضوع ما، تاريخيًا أو اقتصاديًا أو اجتماعيًا أو دينيًا، فإن الأبحاث الأركيولوجية غالبًا ما تنطلق من مُربع الاستبانات قبل الانتقال إلى نتائج الحفريات للموقع، ويجري توسيعها في إطار المقارنة بباقي المواقع الأخرى للفترة نفسها، سواء داخل المغرب أو خارجه. تتكامل مجموع هذه الدراسات في تقديم مادة علمية تُقارب تاريخ المغرب القديم من الناحية التاريخية والأركيولوجية، وهي خاصية يتميز بها تاريخ المغرب خلال الفترة القديمة على باقي الفترات اللاحقة. تُسلّط هذه الخاصية الضوء على زوايا من تاريخ المغرب، وإن كانت غابرة في التاريخ؛ إذ تتولّى المصادر الصامتة الكشف عما سكتت عنه المصادر المكتوبة، وهذا ما تؤكده الهيستوريوغرافيا التاريخية والبيبليوغرافيا الأثرية للمغرب خلال الفترة القديمة.

أصبح من يشتغل بإشكالية الهيستوريوغرافيا والبيبليوغرافيا يتطلّب إحداث بنك إلكتروني للمعلومات قابل لفرز المعطيات وفق أسئلة موضوعاتية. يُسعف هذا الصنف من الدراسة في رصد مكامن الضعف وتثمين نقاط القوة وتوجيه الأبحاث والدراسات المستقبلية. وهي أداة قياس المجهودات المبذولة، وفي الوقت نفسه، وسيلة استشعار لفتح ورش موضوعاتية، سواء في الدراسات الأثرية أو التاريخية، تهم تاريخ المغرب القديم.

خامسًا: الهيستوريوغرافيا والبيبليوغرافيا لتاريخ المغرب القديم بأقلام مغربية

1. دراسات باللغة العربية

أسمهري، المحفوظ. "منطقة الريف من عصور ما قبل التاريخ إلى مجيء الإسلام". في: **مساهمات دراسة منطقة الريف**. الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 2011. ص 5-48.

أكراز، عمار "المغرب بعد الاحتلال الروماني". **مذكرات من التراث المغربي**. العدد 1 (1985). ص 258-269.

________. "أوبيدوم نوفوم وناحيتها: وضعية البحث الأثري". في: **مدينة القصر الكبير، الذاكرة والحاضر: أعمال الندوة المنظمة من 1 إلى 3 أبريل 1998**. الندوات رقم 1. القصر الكبير: منشورات مجموعة الدراسات والأبحاث حول القصر الكبير، 2000. ص 15-20.

أكراز، عمار وعبد العزيز الخياري. "تاريخ البحث الأركيولوجي والتاريخي المتعلق بالمغرب القديم". مجلة **أمل**. العدد 27 (2002). ص 118-126.



أكرير، عبد العزيز. "دور درعة التجاري قديمًا". في: **حوض وادي درعة: ملتقى حضاري وفضاء للثقافة والإبداع، أعمال الأيام الدراسية 12 و13 و14 نونبر 1992**. أكادير: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1996. ص 27-37.

________. "دور حوض درعة في التجارة المتوسطية الصحراوية خلال العصور القديمة". **مجلة كلية الآداب** (بني ملال). العدد 2 (1997). ص 57-85.

________. "تمودا أقدم حاضرة بوادي مارتيل شمالي المغرب". **مجلة كلية الآداب** (بني ملال). العدد 3 (2001). ص 67-86.

________. "العلاقات المغربية المشرقية من خلال الإسطوريوغرافية القديمة". **المغرب-المشرق: قضايا ومواقف، أعمال اليوم الدراسي: 24 فبراير 2000**. بني هلال: منشورات كلية الآداب، 2002.

________. "مقاومة الموريين للرومان بموريطانيا الطنجية ما بين 40م-285م: دراسة إسطوغرافية". في: **المقاومة المغربية عبر التاريخ أو مغرب المقاومات، الرباط، 2003**. الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 2005. ص 23-44.

________. **تاريخ المغرب قبل الإسلام: الممالك المورية الأمازيغية قبل الاحتلال الروماني (قراءة جديدة)**. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2007.

________. **تاريخ المغرب القديم من الملك يوبا الثاني إلى مجيء الإسلام**. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2016.

________. "الفضاء المغربي قبل الإسلام بين التنوع والاختلاف وتحديات التكامل والائتلاف". في: **تدبير المغاربة للاختلاف: استلهام لأساليب التعايش وقبول الآخر: أعمال الأيام الوطنية الثالثة والعشرون التي جرت أشغالها برحاب المكتبة الوطنية وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، أيام 27 و28 و29 أكتوبر 2016**. الرباط: الجمعية المغربية للبحث التاريخي، 2016. ص 87-102.

آمال، مصطفى كمال [وآخرون]. "تاريخ المغرب القديم". في: **الموسوعة الأفريقية. مج 2: لمحات من تاريخ القارة الأفريقية**. القاهرة: دار مجدي محمود للطباعة والنشر، 1997. ص 87-102.

أعشي، مصطفى. "العلاقات العسكرية والسياسية بين الموريطانيين والرومان في موريطانيا الطنجية". **مجلة كلية الآداب (فاس)** (1980–1981). ص 517-527.

________. "حدود موريطانيا الطنجية في عهد الاحتلال الروماني". **مجلة تاريخ المغرب**. العدد 3 (حزيران/ يونيو 1983). ص 69-80.

________. "أصل أهالي شمال أفريقيا". **مذكرات من التراث المغربي**. العدد 1 (1985). ص 89-103.

________. "تجنيس روما للمدن المغربية". **مذكرات من التراث المغربي**. العدد 1 (1985). ص 190-208.

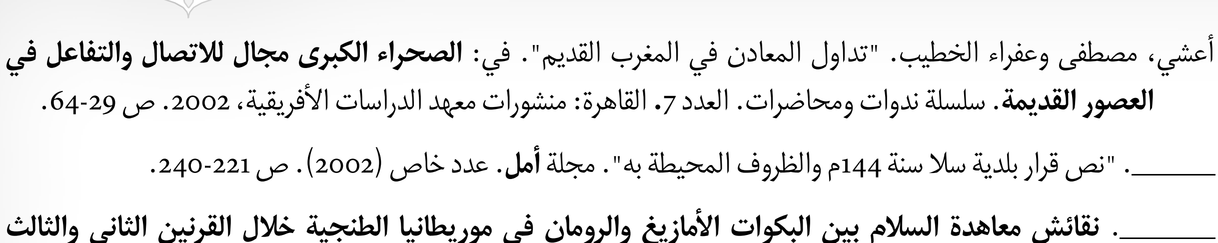
________. "مدينة طنجة، نشأتها وطابعها الحضاري". **مذكرات من التراث المغربي**. العدد 1. (1985). ص 210-214.

________. "موريطانيا الطنجية". **مذكرات من التراث المغربي**. العدد 1 (1985). ص 215-232.

________. "إسهام النقوش الصخرية بالجنوب المغربي في التعريف ببداية استئناس الحيوانات". **المناهل**. عدد خاص بالأقاليم المغربية الجنوبية (آذار/ مارس 1998). ص 28-45.

________. "نهاية الوجود الروماني بالمغرب (ترجمة لمقال كاركوبينو)". مجلة **أمل**. العدد 24 (2000). ص 115-140.





أعشي، مصطفى وعفراء الخطيب. "تداول المعادن في المغرب القديم". في: **الصحراء الكبرى مجال للاتصال والتفاعل في العصور القديمة**. سلسلة ندوات ومحاضرات. العدد 7. القاهرة: منشورات معهد الدراسات الأفريقية، 2002. ص 29-64.

______. "نص قرار بلدية سلا سنة 144م والظروف المحيطة به". مجلة **أمل**. عدد خاص (2002). ص 221-240.

______. **نقائش معاهدة السلام بين البكوات الأمازيغ والرومان في موريطانيا الطنجية خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين**. الرباط: منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية؛ مركز الدراسات التاريخية والبيئية، 2004. ص 89-93.

أعشي، مصطفى، والبيضاوية بلكامل. "الجنوب المغربي في عصوره القديمة من خلال المصادر الإغريقية الرومانية". **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية. أعمال الدورة الأولى**. الريصاني: مركز الدراسات والبحوث العلوية، دجنبر [كانون الأول/ديسمبر] 1989. ص 343-368.

بلفايدة، عبد العزيز. "النقائش كمصدر لتاريخ المغرب". مجلة **بحوث**. العدد 6 (1995). ص 199-207.

______. "عبادة الربات في المغرب القديم". مجلة **أمل**. العدد 13-14 (1998). ص 55-64.

______. "الماء بين المقدس والمنفعة العامة". في: **الماء في تاريخ المغرب**. سلسلة ندوات ومناظرات العدد 11. عين الشق: جامعة الحسن الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1999. ص 33-46.

بلكامل، البيضاوية. "الفسيفساء (تعريف، تاريخ وتقنية)". **مجلة تاريخ المغرب**. العدد 3 (حزيران/ يونيو 1983). ص 63-67.

______. "الصويرة في عصورها القديمة من خلال الكتابات التاريخية". في: **الصويرة: الذاكرة وبصمات التاريخ**. أكادير: منشورات جامعة ابن زهر، 1990. ص 33-51.

______. "جزيرة سيرني بين المصادر المكتوبة والمصادر الأثرية". **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية** (الرباط). العدد 20 (1995). ص 93-103.

______. "مفارقة المصادر الأدبية والأثرية حول مواقع ما قبل الإسلام بالمغرب". مجلة **بحوث**. العدد 6 (1995). ص 175-181.

______. "المرأة من خلال فسيفساء شمال أفريقيا: أصنافها أدوارها ووظائفها". **أمل**. العدد 13-14 (1998). ص 8-18.

______. "أنشطة فلاحية واستغلاليات من خلال فسيفساء الشمال الإفريقي". في: **البادية المغربية عبر التاريخ**. تنسيق إبراهيم بوطالب. ندوات ومناظرات 77. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1999. ص 11–28.

______. "لمحة عن الملاحة التجارية بالبحر الأبيض المتوسط خلال العصر الروماني". في: بلمقدم، سميّة. **البحر في تاريخ المغرب**. سلسلة ندوات 7. المحمدية: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1999. ص 165-199.

______. "الألعاب بالمغرب القديم: قراءة أولى في المصادر". في: **الأيام الأولى للأركيولوجيا والتراث**. الرباط، 1-1998/7/4. الرباط: 2001. ص 138-146.

______. "أهرامات مصر من خلال الكتابات المغربية". في: **وقفات في تاريخ المغرب: دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب**. تنسيق عبد المجيد القدوري. سلسلة بحوث ودراسات 27. الرباط: جامعة محمد الخامس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2001. ص 539-555.

______. "فسيفساء المغرب القديم بين ضراوة الأحكام المسبقة، هاجس التخصص وتعددية المشارب". مجلة **أمل**. العدد 27 (عدد خاص) (2002). ص 62-74.



________. **مظاهر اقتصادية من خلال فسيفساء الشمال الأفريقي**. ج 2. الرباط: فيديرانت، 2003.

________. "المجال الريفي من الأصول إلى الفتح الإسلامي". في: **منطقة الريف: حصيلة البحث العلمي عن الإنسان والمجال: أعمال جامعة الشريف الإدريسي. دورة شتنبر [أيلول/ سبتمبر] 2004 الحسيمة (24-25 أيلول/ سبتمبر [شتنبر] 2004)**. الرباط: مطبعة دار المناهل، 2005. ص 165-203.

________. "الشرب والمشروبات بالبادية المغربية عبر التاريخ". **مجلة البادية المغربية: الماضي – الحاضر - المستقبل**. السنة 1، العدد 1 (2006). ص 6-12.

________. "الواقعية من خلال فسيفساء الشمال الأفريقي". في: **أضواء جديدة على تاريخ شمال أفريقيا القديم وحضارته: أعمال تكريم الأستاذ المصطفى مولاي رشيد**. الرباط: مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، 2007. ص 75-91.

بنحربيط، ماجدة، "حدود السيطرة البيزنطية على شمال أفريقيا". **مجلة المصباحية**. العدد 3 (1999). ص 60-67.

________. "إشكالية الحدود في أرض المغارب بين الرومان والبيزنطيين". **مجلة المصباحية**. العدد 5 (2001). ص 21-34.

________. **شمال أفريقيا تحت الحكم البيزنطي 533-647م**. فاس: مطبعة سايس كرفيك، 2011-2012. ص 364.

________. **أفريقيا المورية خلال القرن السادس والسابع الميلادي**. فاس: كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس، سايس، 2017. ص 186.

بنحيون، ماجدة. "مساهمة المصادر الأثرية في الكشف عن بعض الجوانب المجهولة من اقتصاد المغرب القديم". في: **المدينة في تاريخ المغرب العربي: أشغال الندوة المنظمة من 24 إلى 26 نونبر 1988**. الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب ابن مسيك، 1990. ص 149-163.

________. "مساهمة المناخ في حصول المجاعات وانتشار الأوبئة بشمال أفريقيا خلال العهود القديمة". في: **المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب: أعمال الأيام الوطنية العاشرة للجمعية المغربية للبحث التاريخي. الجديدة 25-26 أكتوبر 2002**. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2004. ص 9-24.

________. "انتفاضة القبائل الأمازيغية ضد الرومان، أضواء جديدة على تاريخ شمال أفريقيا القديم وحضارته". في: **أضواء جديدة على تاريخ شمال أفريقيا القديم وحضارته: أعمال تكريم الأستاذ المصطفى مولاي رشيد**. الرباط: مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، 2007. ص 267-306.

بوجيبار، نعيمة الخطيب. "صناعة الصيد البحري القديمة". **مذكرات من التراث المغربي**. العدد 1 (1985). ص 177-182.

________. "كتابات ما قبل العصر الروماني". **مذكرات من التراث المغربي**. العدد 1 (1985). ص 135-139.

________. "مدينة لكسوس القديمة". **مذكرات من التراث المغربي**. العدد 1 (1985). ص 183-189.

________. "المغرب الأقصى وقرطاج". **مذكرات من التراث المغربي**. العدد 1 (1985). ص 140-149.

________. "المغرب والفينيقيون". **مذكرات من التراث المغربي**. العدد 1 (1985). ص 128-134.

________. "الممالك البربرية". **مذكرات من التراث المغربي**. العدد 1 (1985). ص 151-160.

________. "نقود ما قبل العصر الروماني". **مذكرات من التراث المغربي**. العدد 1 (1985). ص 161-163.



بوحجار، الزبير. "علاقة نوميديا الغربية بالسلطة الرومانية فيما بين 213-202 ق. م.". **مجلة كلية الآداب** (بني ملال). العدد 3 (2001). ص 117-139.

بودرقاء، الحسن. "المجال والتاريخ: مساهمة في شمال أفريقيا القديم". في: **أضواء جديدة على تاريخ شمال أفريقيا القديم وحضارته: أعمال تكريم الأستاذ المصطفى مولاي رشيد.** الرباط: مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، 2007. ص 55-74.

بودريبيلة، محمد مصطفى. **تأمّلات حول التاريخ القديم لشمال أفريقيا: الأمازيغيون.** أكادير: جامعة بن زهر، 2016. ص 134.

بودوهو، نزهة. "موجز لأهم نتائج الأبحاث الميدانية في مقدمة جبال الريف". مجلة **كنانيش**. العدد 3 (2001). ص 155-158.

البوزيدي، سعيد. **روما وتنظيم الاستغلال الفلاحي بالمغرب القديم**. ميونيخ: لينكوم يوروبا، 2019.

________. "مقاومة القبائل المورية لنظام الاستغلاليات الفلاحية في منطقة الغرب إبان السيطرة الرومانية". في: **ندوة الحركة الوطنية والمقاومة في منطقة الغرب، القنيطرة - سيدس قاسم، أيام 19-20 و21 ذو القعدة 1418 الموافق 18-19-20 مارس 1998.** الرباط: المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2009. ص 35-42.

________. "علاقة موريطانيا بالرومان بين روابط الفيديس Fides والفويدوس Foedus ما بين 146 ق. م. و40م". **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية** (القنيطرة). العدد 2 (2000). ص 123-140.

________. "الجوانب الاقتصادية في ملف العلاقات الدبلوماسية للرومان مع القبائل المورية خلال العهد الإمبراطوري". مجلة **أمل**. العدد 24 (2001). ص 141-174.

________. "مؤسسة الحدود الرومانية بموريطانيا الغربية ودورها في تنظيم المجال والتحكم في الإنسان". **مجلة المصباحية**. العدد 5 (2001). ص 1-19.

________. "استغلال الجغرافية التاريخية الرومانية في تلميع اللوحة الإشهارية لمؤهلات موريطانيا الغربية". **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية** (القنيطرة). العدد 3 (2002). ص 149-169.

________. "صورة المغرب القديم عند الحضارات الشرقية من خلال الرحلات الجغرافية". مجلة **المناهل**. العدد 66-67 (2002). ص 215-236.

________. "المجال الفلاحي بالمغرب القديم: الآليات القانونية وضبط الاستغلاليات". **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية** (القنيطرة). العدد 5 (2005). ص 103-130.

________. "الخصوصيات المناخية للمغرب القديم: مقاربة لتناول ظاهرة التقلبات المناخية". في: **أضواء جديدة على تاريخ شمال أفريقيا وحضارته: أعمال تكريم الأستاذ المصطفى مولاي رشيد.** الرباط: مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، 2007. ص 183-204.

________. "المؤسسة العسكرية الرومانية بالمغرب القديم: من الاستيطان إلى الاستقرار والاستغلال". في: **دراسات وأبحاث في إطار الأيام الدراسية المنظمة من طرف اللجنة المغربية للتاريخ العسكري احتفاء بالذكرى الخمسينية لتأسيس القوات المسلحة الملكية**. الرباط: اللجنة المغربية للتاريخ العسكري، 2007. ص 135-145.



________. "الاستغلاليات الفلاحية آلية استيطانية رومانية للتحكم في المجالات القروية بالمغرب القديم". في: **السكن والسكان بالمغرب بين الماضي والحاضر: أشغال ندوة مختبر تاريخ وحضارة وديمغرافيا التي نظمتها مجموعة الدراسات الديمغرافية التاريخية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، بتاريخ ماي [أيار/ مايو] 2003**. وجدة: مطبعة شمس، 2010. ص 18-37.

________. "التسرب الروماني إلى المغرب القديم: الحيثيات القانونية لإلحاق موريطانيا الغربية بباقي الولايات الرومانية بين روابط الفيديس وآليات الفاوديوس". في: **تاريخ المغرب القديم وتراثه الأثري**. الرباط: منشورات مركز طارق بن زياد، 2015. ص 91-108.

البوزيدي، سعيد، وواحدي علي. "بادية شمال أفريقيا خلال الفترة القديمة: الأسس القانونية للسيطرة على الأراضي وتنظيم الاستغلال الفلاحي". في: **موريطانيا والعالم المتوسطي: أعمال الندوة الدولية التي احتضنتها جامعة عبد المالك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية أيام 24-25-26 نوفنبر [تشرين الثاني/ نوفمبر] 2016**. تطوان: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2018. ص 73-120.

بوطالب، إبراهيم. "البحث الكولونيالي حول المجتمع المغاربي في الفترة الاستعمارية، حصيلة وتقويم". **البحث في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم**. سلسلة ندوات ومناظرات 14. الرباط: جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، 1989. ص 129-130.

بوكبوط، محمد. **الممالك الأمازيغية في مواجهة التحديات: صفحات من تاريخ الأمازيغ القديم**. الرباط: مركز طارق بن زياد، 2002.

التايب، عبد السلام. "بعض الإشكاليات والقضايا النظرية الخاصة بمجتمعات عصور ما قبل التاريخ والعهود التاريخية العتيقة: حوض البحر المتوسط كنموذج". **دراسات** (كلية الآداب، أكادير). العدد 9 (1999). ص 23-33.

جزوليت، خليل. **مقاومة التدخل الأجنبي بالمغرب عبر التاريخ**. الرباط: الرباط نيت، 2010.

الجيراري، عباس. "وجود المغرب الحضاري والثقافي في العصر الجاهلي". **المناهل**. العدد 8 (1977). ص 67-87.

خرباش، عبد اللطيف. "مقاومة المغاربة للاحتلال الروماني بمنطقة الغرب". في: **ندوة الوطنية والمقاومة في منطقة الغرب، القنيطرة - سيدس قاسم، أيام 19-20 و21 ذو القعدة 1418 الموافق 18-19-20 مارس 1998**. ص 27-34.

الخطيب، عفراء. "التواصل والتفاعل بين شمال أفريقيا والصحراء الكبرى وشبه الجزيرة العربية خلال العصور القديمة". في: **العالم العربي وإفريقيا: تحديات الحاضر والمستقبل، أعمال ندوة 15-17 أكتوبر 2003**. الرباط: منشورات دار الثقافة، 2005. ص 91-109.

رحمون، الحسين وسناء حساب. "سلا كولونيا الرومانية وشالة المرينية، تعايش في المجال أم تنافر في العمران". في: **العمران والمجال والإنسان في تاريخ المغرب**. تنسيق الحسين رحمون وطاهر بلمهدي. [د. م.]: [د. ن.]، 2017. ص 9-23.

سراج، أحمد. "المرأة في الأسطورة القديمة". مجلة **أمل**. العدد 13-14 (1998). ص 19-25.

________. "حول استمرار أحد مظاهر الديانات المائية القديمة بمغرب العصر الوسيط". في: **الماء في تاريخ المغرب**. سلسلة ندوات ومناظرات 11. عين الشق: جامعة الحسن الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1999. ص 157-165.

________. "البحث التاريخي المغربي الحديث: العهود القديمة". مجلة **أمل**. العدد 27 (عدد خاص) (2002). ص 9-22.

________. "ظاهرة الأركيولوجيا السرية بالمغرب". **النشرة الأثرية المغربية**. العدد 9 (2002). ص 3-22.



سعود، محمد التازي. "المؤرخ اللاتاني سالوست وكتابه حرب يوغرطة". **مجلة كلية الآداب** (جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس). العدد 1 (1978). ص 299-313.

________. "سكان أرض المغارب في عصور التاريخ القديم". **مجلة كلية الآداب** (جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس). العدد 2-3 (1979-1980). ص 49-59.

________. "محاولة في الاقتصاد المغربي في عهد يوبا الثاني وابنه بطليموس (25ق.م–40م)". **المناهل**. العدد 26 (1983). ص 9-31.

________. "شمال أفريقيا في عالم البحر المتوسط (ترجمة لفصل من مؤلف ستيفان كزيل)". **مجلة كلية الآداب** (جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس). عدد خاص (1985). ص 11-18.

________. **الإلمام بخلاصة تاريخ أرض المغاربة قبل الإسلام.** الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 2006. ص 256.

________. **صفحات من تاريخ المغرب القديم.** الرباط: النجاح الجديدة؛ سشبريس، 2008.

شداد، عبد المحسن. **دليل المدن والمواقع الأثرية القديمة بشبه الجزيرة الطنجية**. تطوان: مطبعة الحمامة، 2018. ص 178.

شفير، محمد. **تطور الدولة في المغرب: إشكالية التكوين والتمركز والهيمنة-من القرن الثالث ق.م إلى القرن العشرين.** الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2002.

________. **المراسيم السياسية بالمغرب بين العصرنة والتحديث: من القرن 3 ق.م إلى القرن 21م.** الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2006.

________**. المؤسسة العسكرية بالمغرب: من القبيلة إلى العصرنة**. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2008.

الشنيتي، محمد البشير. **سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا (146 ق.م.-40م.).** الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982.

________. "وضعية الأرض وطرق استغلالها في بلاد المغرب (العهد الروماني - بداية الإسلام)". **حوليات جامعة الجزائر**. العدد 5 (1990). ص 103-115.

شهبون، إدريس. "العرق وظاهرة الاستعمار: نموذج البربر من خلال تاريخ ستيفان كزيل". **حوليات كلية الآداب** (عين الشق) دراسات في تاريخ المغرب. العدد 7 (عدد خاص) (1990). ص 213-240.

الطويل، محمد. "المغرب والأطماع الخارجية مقاربة تاريخية". في: **ندوة الحركة الوطنية والمقاومة في منطقة الغرب: القنيطرة - سيدس قاسم، أيام 19-20 و21 ذو القعدة 1418 الموافق 18-19-20 مارس 1998.** تنظيم المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير بتعاون مع كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة. الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1998. ص 43-50.

عرايشي، حميد [وآخرون]. "مساهمة حول التعريف بالهجرة عبر التاريخ". **مجلة المصباحية**. العدد 4 (2000). ص 45-57.

________. "أدوات البحث في تاريخ المغرب القديم، واقع وآفاق (العمل البيليوغرافي نموذجًا)". مجلة **أمل**. العدد 27 (عدد خاص) (2002). ص 109-117.



________. "المغرب القديم بعيون مغربية". في: **خمسون سنة من البحث التاريخي في المغرب: أعمال التظاهرة العلمية التي نظمتها الجمعية المغربية للبحث التاريخي برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية أيام 7-8 [كانون الأول/ ديسمبر] دجنبر 2007**. تنسيق عبد الرحمن المؤذن. **البحث التاريخي**. العدد 7-8 (2009-2010). ص 25-64.

________. "توظيف التاريخ القديم في الخطاب المعاصر وأثر التاريخ المعاصر في مقاربة التاريخ القديم (المغرب القديم في الكتابات المعاصرة نموذجًا)". **قضايا في البحث التاريخي** (الرباط). العدد 13-14 (2016-2017). ص 57-82.

________. "الكتاب المدرسي المغربي وتاريخ المغرب القديم (1957-2007): مقاربة أولية". في: **الكتاب المدرسي بين الأمس واليوم: أعمال فريق البحث في الكتابة التاريخية وتقنيات الإعلام والتواصل تخليدًا للذكرى الثلاثين لتأسيس الكلية، 13 يونيو 2007**. وجدة: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2016. ص 15-32.

________. "استقلال وازدهار موريطانيا (المغرب القديم) تحت حكم الملك يوبا الثاني وابنه بطليموس: حقيقة أم أسطورة؟ (مقاربة أولية)". في: **الأزمات والهشاشة بالمغرب: مقاربات متقاطعة: أعمال مهداة للأستاذ محمد استيتو**. الرباط: الرباط نت، 2019. ص 369-384.

العروي، عبد الله. **مجمل تاريخ المغرب**. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1984.

العزيفي، محمد رضوان. "التعمير القديم لوادي مرتيل". في: **جبال الريف: المجال والإنسان أعمال نظمتها شعبة الجغرافيا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان. أيام 3-4-5 أبريل 1989**. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1990. ص 65-81.

________. "الفاتحون المسلمون وشعوب الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية". **مجلة كلية الآداب** (فاس). عدد خاص (1991). ص 155-168.

________. "الفينيقيون بفحص طنجة وعلاقتهم بالسكان من خلال مقابر المنطقة ومحتوياتها المؤرخة ما بين القرن السابع والقرن السادس ق. م". **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**. العدد 11 (1990). ص 195-210.

________. "وادي مرتيل خلال العصور القديمة ومسألة عزل جبال الريف للمغرب عن العالم المتوسطي". في: **أعمال ندوة الجبل في تاريخ المغرب**. أشغال الأيام الوطنية الثانية. الجمعية المغربية للبحث التاريخي. سايس، فاس: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1994. ص 6-23.

________. "مستوطنة لكسوس في الكتابات القديمة والحديثة: محاولة لرد الاعتبار". **المصباحية**. العدد 1 (1995). ص 11-37.

________. "هل مدافن ناحية طنجة فينيقية الأصل؟ قراءة جديدة للأبحاث الأثرية الفرنسية بالمغرب". **المصباحية**. العدد 2 (1996). ص 11-28.

________. "حالة السكان القدامى عند اتصالهم بالفينيقيين". **المصباحية**. العدد 3 (1999). ص 1-30.

________. "الفينيقيون بالساحل الأطلنطي للمغرب من خلال رحلة حانون". **المصباحية**. العدد 4 (2000). ص 1-26.

________. "الفينيقيون بفحص طنجة وعلاقتهم بالسكان من خلال مقابر المنطقة ومحتوياتها المؤرخة ما بين القرن السابع والقرن السادس ق.م". **مجلة كلية الآداب** (فاس-سايس). العدد 11 (2002). ص 195-210.



________. "مساهمة في دراسة حالة السكان القدامى للمغرب خلال المرحلة الفينيقية، دفناء مقابر ناحية طنجة نموذجًا". مجلة **أمل**. العدد 27 (2002). ص 172-205.

________. **ليكسوس، مستوطنة فينيقية بالساحل الأطلنطي للمغرب**. فاس: مطبعة الأفق، 2010.

العسري، عبد الرزاق. "قراءة إيكونوغرافية في بعض النصب التذكارية الإغريقية الرومانية". مجلة **بحوث**. العدد 6 (1995). ص 227-326.

________. "جوانب من علاقة روما ببعض القبائل الخارجة عن مجال النفوذ (نموذج البكواتيين)". في: **المجالات الحدودية في تاريخ المغرب**. سلسلة الندوات رقم 6. المحمدية: جامعة الحسن الثاني، 1999. ص 21–35.

________. "قراءة في طوبونميا أنهار الواجهة الأطلسية من خلال ثلاث رحلات: حانون، سيلاكس وبوليب". مجلة **بحوث**. العدد 10 (2002). ص 27-37.

العشاق، علي. "دراسة التاريخ العربي القديم وأثره على الحضارة الإنسانية". مجلة **أمل**. العدد 27 (عدد خاص) (2002). ص 54-61.

عقون، محمد العربي. **الاقتصاد والمجتمع في الشمال الأفريقي القديم**. عين مليلة، الجزائر: دار الهدى، 2008.

علوي، أمراني عمر. "العصور القديمة في المنظومة التربوية". مجلة **أمل**. العدد 27 (عدد خاص) (2002). ص 43-53.

________. "مسنيسا في المصادر الكلاسيكسة: محاولة تقويم". مجلة **مكناسة** (كلية الآداب، مكناس). العدد 9 (1995). ص 47-57.

العميم، محمد. "القبيلة والمجال في تاريخ المغرب القديم: نموذج علاقة الرحل بالمستقرين". **مجلة كلية الآداب الجديدة**. العدد 8-9 (2004). ص 89-103.

العيوض، محمد. "آراء حول تحديد موقع مستوطنة بابا يوليا الرومانية". **مجلة الدعم**. العدد 2 (حزيران/ يونيو 1996). ص 59-65.

________. "أهداف تدريس التاريخ القديم بالمرحلة الثانوية بين التوجيهات التربوية والممارسة الصفية". **مجلة الدعم**. العدد 4 (1997). ص 32-44.

________. "الزيتون والزيت في المغرب القديم". مجلة **أمل**. العدد 17 (1999). ص 99-101.

________. "مدينة تموسيدا بين النصوص القديمة والبحث الأثري". **مجلة الدعم**. العدد 3 (أيار/ مايو 1997). ص 21-23.

________. "جوانب من الحياة الاجتماعية في بناصا". مجلة **كنانيش**. العدد 3 (2001). ص 159-169.

________. "لائحة بناصا أقدم وثيقة عن العلاقات الدبلوماسية بين روما والمغرب القديم". مجلة **أمل**. العدد 22-23 (2001). ص 226-231.

________. "ملاحظات حول السياسة الضريبية الرومانية في المغرب". مجلة **أمل**. العدد 22-23 (2001). ص 232-235.

________. "حصيلة البحث الأثري بموقع بناصا". مجلة **أمل**. العدد 27 (2002). ص 150-157.

________. "مدينة وليلي وأحداث القرن الميلادي الأول". **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة ابن طفيل بالقنيطرة. العدد 6 (2006). ص 191-198.

________. "الجلاء الروماني من جنوب موريطانية الطنجية". **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية** (الرباط). العدد 29 (2009). ص 121-127.



_______. **موقع بناصا الأثري: من الأصول إلى الجلاء الروماني: مساهمة في دراسة مدن المغرب القديم**. الرباط: رباط نت، 2010.

_______. **مدن المغرب القديم من خلال إشارات النصوص ونتائج البحث الأثري**. الرباط: الرباط نت، 2011.

_______. "التأثير الفينيقي في الجهة الغربية للبحر الأبيض المتوسط: نماذج ليكسوس وسلا وموغادور". في: **العرب في أفريقيا قبل الإسلام: أعمال المؤتمر الدولي الذي نظمته جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك. أيام 20-21-22 [كانون الثاني]/ يناير 2015**. الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، 2015. ص 235-247؛ شكل 1 خ. ن. ص 247.

_______. **التطور الحضري لوليلي من الفترة المورية (الأمازيغية) إلى الفترة الإسلامية**. الرباط: المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2015.

_______. **مدن ومراكز المغرب القديم**. الرباط: منشورات أمل، 2015.

_______. "جوانب من الحياة الاقتصادية في موقع بناصا الأثري: المخابز والخازن". في: **موريطانيا والعالم المتوسطي: أعمال الندوة الدولية التي احتضنتها جامعة عبد المالك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية أيام 24-25-26 [تشرين الثاني]/ نوفمبر 2016**. تطوان: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2018. ص 201-219.

غازي، حليمة. "مملكة المغرب القديم أو بعض المسكوت عنه في تاريخ المغرب". مجلة **نوافذ**. العدد 17-18 ([آب/ أغسطس] غشت 2002). ص 130-146.

_______. **نقائش لاتينية لموريطانيا التنكية**. الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 2011.

غطيس، مصطفى. **تمودة**. العدد 1. تطوان: منشورات كلية الآداب، 1991.

القاسمي، هاشم العلوي. **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن عاشر الميلادي**. ج 1. المحمدية: مطبعة فضالة، 1995.

القبايلي، كاهنة. "معاملة العبيد في شمال أفريقيا خلال العهد الروماني". في: **آراء ودراسات في التاريخ والآثار القديمة: أشغال الندوة العلمية المنعقدة بالمدرسة العليا للأساتذة بوزريعة. الجزائر 23 24 [كانون الأول]/ ديسمبر 2011**. الجزائر: مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، 2012. ص 280-293.

قنينبة، زهراء. "إشكالية صيانة وترميم اللقى الأثرية: الفسيفساء نموذجًا". مجلة **أمل**. العدد 27 (2002). ص 127-136.

كسيل، إسطفان. "حيوانات ونباتات شمال أفريقيا في العهود العتيقة". ترجمة سعود محمد التازي. **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس. العدد 8 (1986). ص 105-132.

الكوخي، محمد. **سؤال الهوية في شمال أفريقيا: التعدد والانصهار في واقع الإنسان واللغة والثقافة والتاريخ**. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2014.

اللبار، محمد. "دور المغرب الشرقي في عرقلة الوجود الروماني في أفريقيا الشمالية". **مجلة جمعية تاريخ المغرب** (وجدة). العدد 1 (حزيران/ يونيو 1993). ص 11-24.



________. "الربط البري بين الموريطانيتين". **مجلة كلية الآداب** (الرباط). العدد 19 (1994). ص 123-137.

________. "تاريخ الوندال للمؤرخ إيزيدور الإشبيلي: تقديم وترجمة". **مجلة كلية الآداب** (وجدة). العدد 5 (1995). ص 146.

________. "مسألة تأسيس مدينة وجدة - زيري بن عطية: وجدة والتاريخ القديم". **مجلة كلية الآداب** (وجدة). العدد 6 (1996). ص 119-143.

________. "الموقف الموري من الزحف الوندالي سنة 429". **المصباحية**. العدد 4 (2000). ص 27-42.

________. "التنظيم الإداري والعسكري لإفريقيا الشمالية خلال الفترة الرومانية المتأخرة 284-429". **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية** (الرباط). العدد 24 (2001). ص 63-89.

________. "حول مقاومة شرق المغرب للأهداف التوسعية الرومانية خلال منتصف القرن الأول". في: **وقفات في تاريخ المغرب: دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب**. تنسيق عبد المجيد القدّوري. سلسلة بحوث ودراسات رقم 27. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2001. ص 275-303.

________. "الموريون والممالك الوندالية بأفريقيا الشمالية". **المصباحية**. العدد 5 (2001). ص 35-48.

________. "قراءة في أسباب وظروف اليقظة المورية في العهد الوندالي المتأخر". مجلة **أمل**. العدد 27 (2002). ص 158-171.

________. "القوى الوندالية إبان العبور إلى أفريقيا الشمالية سنة 429م". **كنانيش**. العدد 4 (2002). ص 111-128.

________. "الوندال بين التاريخ والوندالية". **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية** (القنيطرة). العدد 3 (2002). ص 171-179.

________. "أفريقيا الونالية بين التبعية والاستقلال". في: **التاريخ القديم: قضايا وأبحاث ندوة تكريم الأستاذة زينب عواد التي نظمتها شعبة التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بعين الشق 2003**. الدار البيضاء: كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق، 2005. ص 199-210.

________. "الباكواط وتاريخ موريطانيا الطنجية". في: **المقاومة المغربية عبر التاريخ أو مغرب المقاومات**. أعمال الندوة الدولية، الرباط، أيام 3 و4 و5 دجنبر 2003. سلسلة الندوات والمناظرات رقم 8، ج 1. الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 2005. ص 63-95.

________. "حول مواقع بعض محطات المحاور الطرقية بين الموريطانيتين الطنجية والقيصرية، جوانب من المقاومة الأمازيغية لبعض مقومات الحضارة البيزنطية". في: **أضواء جديدة على تاريخ شمال أفريقيا القديم وحضارته: أعمال تكريم الأستاذ المصطفى مولاي رشيد**. الرباط: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، 2007. ص 307-323.

لعميم، محمد. "إشكالية أصل المدينة بشمال أفريقيا". في: **المدينة في تاريخ المغرب العربي: أشغال الندوة المنظمة من 24 إلى 26 نونبر 1988**. الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب ابن مسيك، 1990. ص 61-69.

ليمان، حسن. "حصيلة البحث الأثري بمنطقة العنصر". في: **صفرو ومنطقتها: بيئة، تاريخ، مجتمع، فكر**. أشغال الملتقى الثقافي الثالث. مدينة صفرو. الدار البيضاء: منشورات الملتقى الثقافي لمدينة صفرو، 1990. ص 12–23.

________. "المراقبة العسكرية ومواقع الاستقرار جنوب وليلي". مجلة **بحوث**. العدد 6 (1995). ص 209-225.

ليمان، حسن [وآخرون]. "معطيات عن مشروع حفريات البعثة المغربية–الإنجليزية بوليلي". مجلة **أمل**. العدد 27 (2002). ص 137-149.



المبكر، محمد. "القديس أوغسطينوس وقضية العلاقات بين الدوارين والدوناتية". **مجلة كلية الآداب** (فاس). العدد 2 (عدد خاص) (1985). ص 19-47.

________. "البروسبوغرافيا في الدراسات التاريخية". مجلة **أمل**. العدد 15 (1998). ص 7-17.

________. **شمال أفريقيا القديم: حركة الدوارين وعلاقتها بالوناتية 305م-429م**. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2001.

________. **المسيحية والترومن في شمال إفريقيا القيم: من عهد ديو كليتيانوس إلى الغزو الونالي (284م-429م)**. الرباط: مركز طارق بن زياد، 2002.

________. "مقاومة الرومنة: المصطلحات والمفاهيم". في: **المقاومة المغربية عبر التاريخ أو مغرب المقاومات**. ج 1. الرباط، 2003. الرباط: المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية - مركز الدراسات التاريخية والبيئية، 2004. ص 113-128.

مجدوب، محمد. "أضواء على أوضاع موروسية من خلال حرب يوغرطة". مجلة **بحوث**. العدد 2-3 (1990). ص 62-82.

________. "الصناعة الغذائية في المغرب القديم". مجلة **بحوث**. العدد 4 (1991). ص 23-34.

________. "العملة الملكية في المغرب القديم". مجلة **بحوث**. العدد 5 (1992). ص 47-60.

________. **أضواء على أوضاع موريطانية من خلال رحلة أودوكس الكوزيكي في القرن الثاني ق.م**. مكناس: منشورات كلية الآداب (مكناس)، 1993. ص 31-53.

________. "جبل الأطلس قبل التوسع الروماني". في: **الجبل في تاريخ المغرب**. فاس: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس-فاس، 1994. ص 24-33.

________. "مختصر حول تاريخ موريطانيا قبل السيطرة الرومانية". مجلة **بحوث**. العدد 6 (1995). ص 149-174.

________. "مجال الشاوية في التاريخ القديم". **دفاتر الشاوية**. العدد 1 (1997). ص 15-40.

________. "البحر في المغرب القديم". في: **البحر في تاريخ المغرب**. تنسيق رقية بلمقدم. سلسلة الندوات رقم 7. المحمدية: جامعة الحسن الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، 1999. ص 147-164.

________. "الثروة المائية في المغرب القديم". في: **الماء في تاريخ المغرب**. سلسلة ندوات ومناظرات رقم 11. عين الشق: جامعة الحسن الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1999. ص 17-32.

________. "دراسات عن الحياة الاقتصادية بموريطانيا في القرن الأخير قبل الميلاد، في المغرب والاحتلال الأجنبي". مجلة **بحوث** (1999). ص 181-196.

________. "المملكة المورية وحدودها في المغرب القديم". في: **المجالات الحدودية في تاريخ المغرب**. سلسلة الندوات رقم 6. المحمدية: جامعة الحسن الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1999. ص 7-20.

________. "حصيلة التحريات الأثرية في منطقة عبدة الكبرى". في: **تاريخ إقليم آسفي من الحقبة القديمة إلى الفترة المعاصرة**. مؤسسة دكالة للثقافة والتنمية، 2000. ص 66-80.



________. "محاولة في رصد حصيلة الأبحاث الأثرية حول المغرب القديم قبل العهد الروماني". مجلة **أمل**. العدد 27 (عدد خاص) (2002). ص 87-108.

________. "أشواط من مقاومة أهل المغرب القيم في الفترة المورية". في: **المقاومة المغربية عبر التاريخ أو مغرب المقاومات.** الرباط: المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية - مركز الدراسات التاريخية والبيئية، 2004. ص 145-146.

________. موريطانيا من خلال المعلومات التاريخية الواردة في كتب الجغرافيين القدماء". مجلة **بحوث**. العدد 12-13 (2005). ص 169-177.

________. **دراسات عن الحياة الاقتصادية بموريطانيا في القرن الأخير قبل الميلاد**. الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2013.

المشرفي، محيي الدين. **أفريقيا الشمالية في العصر القديم**. الرباط: المطبعة الوطنية، 1950.

مصطفى، الغيثي. "مساهمة الأعلاميات في معرفة تاريخ المغرب القديم". مجلة **أمل**. العدد 27 (عدد خاص) (2002). ص 75-81.

الجراري، عباس. **الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه**. ج 1. ط 3. الرباط: المعارف الجديدة، 1986. ص 11-38.

مقدم، بنت النبي. "الطب واستخدام النباتات في بلاد المغرب القديم". في: **آراء ودراسات في التاريخ والآثار القديمة. أشغال الندوة العلمية المنعقدة بالمدرسة العليا للأساتذة بوزريعة. الجزائر، 23 و24 [كانون الأول]/ ديسمبر 2011**. الجزائر: مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، 2012. ص 154-166.

مقدون، محمد. "قبيلة المكنيتيين من خلال النقائش والنصوص الإغريقية واللاتينية". في: **أعمال ندوة الحاضرة الإسماعيلية.** أيام 16-19 [تشرين الأول]/ أكتوبر 1986. مكناس: جامعة الحسن الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1988. ص 149-157.

مقدون، محمد، وواحدي علي. "سويطونيوس باولينوس والحرب الموريطانية الثانية بمنطقة تافيلالت". **جامعة مولاي علي الشريف. أعمال الدورة الأولى. الريصاني:** [كانون الأول/ ديسمبر]/ دجنبر 1989. ص 369-378.

________. "البحث الأثري حول المغرب القديم ما بين السنتين 1956 و1999". مجلة **بحوث** العدد 6 (1995). ص 183-197.

المكناسي، أحمد. "البنيان، حصن روماني بين تطوان وطنجة (ترجمة لمقال طراديل)". **مجلة تطوان**. العدد 1 (1956). ص 169-174.

________. "تمثالان برونزيان من لكسوس (ترجمة لمقال طراديل بالإسبانية)". **مجلة تطوان**. العدد 1 (1956). ص 89-107.

________. "دراسة عن الخزف الإسلامي القديم في المغرب". **مجلة تطوان**. العدد 2 (1957). ص 123-128.

________. "عصر الفينيقيين الأوائل في المغرب (ترجمة لمقال طراديل)". **مجلة تطوان**. العدد 3 (1958-1959). ص 177-192.

________. **مدينة ليكسوس الأثرية**. تطوان: دار كريماديس للطباعة، 1961. ص 32.

المكناسي، أحمد، وأحمد المشرفي. **خريطة المغرب الأركيولوجية**. تطوان: دار كريماديس للطباعة، 1962.

منقاشي، فاطمة. "جوانب من المقاومة الأمازيغية لبعض مقومات الحضارة البيزنطية". في: **أضواء جديدة على تاريخ شمال أفريقيا القيم وحضارته، تكريم الأستاذ المصطفى مولاي رشيد**. الرباط: مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، 2007. ص 92-113.



منقاشي، محمد. "الكشوف الأثرية والبيئة". **المناهل**. العدد 46 (آذار/ مارس 1995). ص 389-400.

مهران، محمد بيومي. **المغرب القديم**. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1990.

مولاي رشيد، المصطفى. "موروزيا والإمبريالية الرومانية". **مجلة البحث العلمي**. العدد 33 (1982). ص 269-273.

________. "حانون والمغرب". **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية** (الرباط). العدد 10 (1984). ص 9-23.

________. "المنشآت العسكرية الرومانية بموريطانيا الطنجية". **مجلة البحث العلمي**. العدد 34 (1984). ص 131-137.

________. "طنجة والمسالك الرومانية". **مجلة دار النيابة**. العدد 10 (1986). ص 31-33.

________. **المغرب الأقصى عند الإغريق واللاتينين، القرن السادس ق.م، القرن السابع ب.م**. الدار البيضاء: شركة النشر والتوزيع والمدارس، 1993.

________. "أوروزيوس والمغرب الأقصى القديم". في: **دراسات مهداة للفقيد جرمان عياش**. الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1994. ص 33-37.

________. "أرطوسطين وخريطة المغرب الأقصى القديم". **الأيام الأولى للأركيولوجيا والتراث. 1-4 [حزيران]/ يونيو 1998**. الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2001. ص 49-51.

________. "مضيق الأعمدة والجوار الموري-الإيبيري حسب المصادر الأدبية القديمة". في: **وقفات في تاريخ المغرب: دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب**. تنسيق عبد المجيد القدّوري. سلسة بحوث ودراسات رقم 27. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2001. ص 267-273.

________. "البحث في التراث القديم بين تقاليد الماضي وآفاق المستقبل". مجلة **أمل**. العدد 27 (عدد خاص) (2002). ص 82-86.

________. "ملوية ومملكة المغرب القديم". في: **وجدة والجهة الشرقية: أعمال مهداة للذكرى الألفية لتأسيس حاضرة وجدة (994-1994م)**. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2005. ص 37-52، 1 شكل خ. ن.

النشيوي، العربي. "الدراسات الأثرية المغربية: استمرارية أم قطيعة مع الطرح الاستعماري" مجلة **أمل**. العدد 27 (عدد خاص) (2002). ص 23-40.

نوري، عبد العزيز. "المسح الأثري لحوض سبو ومنطقة غمارة (نتائج الموسم الأول)". **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية** (الرباط). العدد 11 (1985). ص 151-168.

واحدي، علي. "علاقة وليلي ببواديتها في العهد الروماني". في: أعمال ندوة الحاضرة الإسماعيلية. مكناس: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1988. ص 159-168.

________. "لكسوس ميناء لتصنيع الأسماك وتصديرها". في: **البحر في تاريخ المغرب**. سلسلة الندوات رقم 7. المحمدية: جامعة الحسن الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1999. ص 201-208.

________. "جوانب من الجغرافية التاريخية لوليلي ومنطقتها في العصور القديمة". في: "التاريخ القديم: قضايا وأبحاث ندوة تكريم الأستاذة زينب عواد التي نظمتها شعبة التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بعين الشق 2003". الدار البيضاء: كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق، 2005. ص 125-140.



________. **النشاط الاقتصادي في المغرب ما قبل الإسلام: دراسة أركيولوجية لوليلي ومجالها**. الرباط: منشورات الزمن، 2016.

________. **صناعة الزيت بالمغرب القديم**. ظهر المهراز، فاس: منشورات مختبر البيبليوغرافيا التحليلية والتوثيق للتراث المغاربي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2017.

اليوبي، عبد الرحمن. "التأثيرات الإغريقية في حضارة المغرب القديم". في: **المغرب - المشرق: العلاقات والصورة**. أعمال ندوتي: نونمبر [تشرين الثاني/ نوفمبر] 1997. بني ملال: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1999. ص 95-111.

________. "علاقات قبائل موريطانيا الطنجية بالسلطة الرومانية". **مجلة كلية الآداب** (بني ملال). العدد 3 (2001). ص 41-56.

2. دراسات باللغة الأجنبية

Abun-Nasr, Jamil Mohamed. *A History of the Maghrib*. Cambridge: University Press, 1971. p. 399.

Akerraz, Aomar et al. "Les fouilles de dchar djedid entre 1977-1980." *BAM*. no. XIV (1981-1982). pp. 169-244.

_________. "Les huileries de volubilis." *BAM*. no. 14 (1981-1982). pp. 95-98.

_________. "l'oleiculture dans le Maroc antique." *Olivae*. no. 3 (Octobre 1984). pp. 12-17.

_________. "les thermes du capitole de volubilis." *BAM*. no. XVI (1985). pp. 101-120.

_________. "Notes sur l'enceinte tardive de volubilis." in: *Actes du II colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du nord, Grenoble, 5-9 Avril, 1983*. Paris: CTHS, 1985. pp. 429-436.

________. "Recherches archéologiques sur le bassin de sebou (Gilda, righa, periple d'hannon)." *B.AM*. no. XVI (1985-1986). pp. 235-255.

________. "Géographie et occupation du sol." in: *100 Congres national des sociétés savantes, Montpelier, 1985, IIi colloque sur l'histoire et l'archéologies d'Afrique du nord*. Paris: CTHS, 1986. pp. 247-252.

_________. "Le forum de volubilis. Eléments du dossier archéologique." in: *Los foros romanos de las provincias occidentales*. Madrid: Ministerio di cultura, 1987. pp. 203-219.

Akerraz, Aomar. "Nouvelles observations sur l'urbanisation du quartier nord-est de volubilis." in: *L'Africa Romana: Atti del iv convegno di studio. Sassari. 12-14 Dicembre 1986*. Sassari: Dipartimento di Storia - Università degli Studi di Sassari, 1987. pp. 445-460.

_________. "Un décor d'une inscription paléochrétienne inédite de volubilis." *BAM*. no. XVII (1987-1988). pp. 279-282.

_________. "Recherches archéologiques à dchar jedid. Les découvertes monétaires." *BSFN*. no. 44 (1989). pp. 510-515.

De l'empire romain aux villes impériales: *6000 ans d'art au Maroc*. Paris: Paris Musées - Musée du Petit Palais, 1990.

Akerraz, Aomar & Maurice Lenoir. "Volubilis et son territoire, au 1er siècle de notre ère." in: *l'Afrique dans l'occident romain*, *Ier siècle av. J. C., -IVe siècle ap. J. C.* Rome: Ecole française de Rome, 1990. pp. 213-229.

________. "Dchar- djdid, les découvertes monétaires." *BSFN*. no. 46 (1991). pp. 65-69.



Akerraz, Aomar & René Rebuffat. "El qsar el kbir et la route interieure de Maurétanie tingitane entre tremuli et ad novas." in: *L'armée et les affaires militaires: Actes du 4ème colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du nord*, *Strasbourg*, *1988*. vol. 2. Paris: CTHS, 1991. pp. 367-408.

Akerraz, Aomar. "Lixus du bas-empire à l'Islam." in: *Lixus: Actes du colloque international sur la ville antique de lixus, Larache*. *8-11 Novembre. 1989*. Collection de l'École française de Rome. no. 166. Rome: École française de Rome, 1992. pp. 379-386.

Akerraz, A., V. Brouquier-Reddé & É. Lenoir. "Nouvelles découvertes dans le bassin de sebou. I, occupation antique de la plaine du gharb." in: *Histoire et archéologie de l'Afrique du nord: Actes du VIème colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord, 118ème congrès national des sociétés savantes (Pau, Octobre 1993)*. Paris: CTHS, 1995. pp. 233-242.

Akerraz, A., V. Brouquier- Reddé, É. Lenoir. "L'occupation antique de la plaine du gharb." in: *Histoire et archéologie de l'Afrique du nord: Actes du VIème colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord, 118ème congrès national des Sociétés savantes (Pau, Octobre 1993)*. vol. 2. Paris: CTHS, 1995. pp. 239-252.

Akerraz, A. "Les rapports entre la tingitane et la Maurétanie césarienne à l'époque post-romaine." in: *L'Africa Romana*: *Atti del. XII convegno di studio, Olbia. 12-15 Dicembre 1996*. Sassari: Dipartimento di Storia - Università degli Studi di Sassari, 1998. pp. 1435-1439.

________. "Découverte d'un camp militaire à sale." *Bulletin de l'Ecom du Maroc*. no. 2 (1996). p. 8.

________. "Découverte de l'exploratio ad Mercurios." *NAP*. no. 1 (Avril 1997). pp. 17-18.

________. "El' anacer (annoucer) toujours un faux poste romain." *NAP*. no. 1 (Avril 1997). p. 12.

________. "Les murailles de Tanger." *NAP*. no. 1 (Avril 1997). pp. 11-12.

________. "Monnaies romaines trouvées au-delà du limes." *NAP*. no. 1 (1997). p. 12.

Akerraz, Aomar & Abdelaziz El khyari. "Prospections archéologiques dans la région de lixus." in: *L'Africa Romana*: *Atti del XIII convegno di studio, Djerba. 10-13 Dicembre 1998*. Roma: Carocci editore, 2000. pp. 1645-1668.

Akerraz, Aomar. "Recherches sur les niveaux islamiques de volubilis." in: *Genèse de la ville islamique en el Andalus et au Maghreb occidental*. Madrid: Casa de valasquez, CSIC, 1998. pp. 295-403.

Akerraz, Aomar. "Volubilis et les royaumes berbères indépendants." *BAM*. no. XVIII (1998). pp. 329-331.

Akerraz, Aomar. "Y-a-t-il des huileries préromaines à volubilis?" *NAP*. no. 2 (Mars 1998). p. 7.

_________. "le Maroc de Rome à l'islam." in: *Maroc, les trésors d'un royaume*. Paris: Paris-Musées, 1999. pp. 90-96.

_________. "Volubilis et son arrière-pays." in: *la campagne à travers l'histoire du Maroc* (Publication de la faculté des lettres de Rabat). no. 77 (1999). pp. 3-7.

Akerraz, Aomar & A. el khyari. "Prospections archéologiques dans la région de lixus. Résultats préliminaires." in: *L'Africa Romana: Atti del XIII convegno di studio, Djerba, 10-13 Dicembre 1998*. vol. II. Rome: Carocci editore, 2000. pp. 1645-1668.

Akerraz, Aomar. "Exploratio ad mercurios." *BAM*. no. XIX (2002). pp. 191-215.



Akerraz, Aomar & Emanuel Papi. "Thamusida, in paysages antiques du Maroc." in: *Recherches archéologiques Maroco-Italiennes. Rabat. Mai 2002*. Roma: Editioni quasar, 2003. pp. 10-23.

Akerraz, Aomar & Ahmed Siraj. "Vismara, cinzia, rif, in paysages antiques du Maroc." in: *Recherches archéologiques Maroco-Italiennes*. *Rabat. Mai 2002*. Roma: Editioni quasar, 2003. pp. 24-39.

Akerraz, Aomar & Guerra Ranieri. "Volubilis, in paysages antiques du Maroc." in: *Recherches archéologiques Maroco-Italiennes*. *Rabat. Mai 2002*. Roma: Editioni quasar, 2003. pp. 48-56.

Akerraz, Aomar, Hassan Limane & René Rebuffat. *Carte archéologique du Maroc antique: Le bassin du sebou, 2, à l'embouchure du sebou*. *Cartes Kenitra-Sidi Yahya du Gharb*. Rabat: INSAP, 2012.

Akerraz, Aomar. "les fortifications de la Maurétanie tingitane." in: *Enceintes urbaines, sites fortifiés, forteresses d'Afrique du nord: Actes de la Vème journée d'études Nord-Africaines*. *19 mars 2010*. Organisé par L'académie des Inscriptions et Belles-Lettres et la Société d'Etude du Maghreb Préhistorique, Antique et Médiéval. Paris: Académie des Inscriptions et Belles Lettres, 2012. pp. 75-96.

Akerraz, Aomar, Cinzia Vismara & Ahmed Siraj (dir.). *Carte archéologique du Maroc: Le Rif cotier. Recherches archéologiques Maroco-Italiennes 2000-2005*. Tanger, Rabat: Ministère de la Culture, Institut National des Sciences de l'Archéologie et du Patrimoine, 2019.

Alaioud, Sidi Mohammed. "L'économie de banasa à l'époque provinciale." in: *L'Africa Romana*: *Ai confini dell' imperio: contatti, scambi, conflitti: atti del XV (quinzieme) convegno di studio (su l'Africa Romana). Tozeur, 11-15 Dicembre 2002*. vol. III. Roma: Carocci editore, 2004. pp. 1899-1912.

Alami Sounni, Ahmed. "Etude mécanique d'un pressoir de volubilis." *BAM*. no. XIV (1981-1982). pp. 121-131, 3 fig. II pl. H. T.

Arharbi, Rachid & Éliane Lenoir. "Banasa préromaine, nouvelles découvertes." *NAP*. no. 2 (Mars 1998). p. 8.

_________. "Iulia valentia Banasa: de la découverte du site aux recherches récentes." in: *Actes des premières journées d'archéologie et du patrimoine. 1-4 juillet 1998*. Rabat: SMAP, 2001. pp. 147-168.

Arharbi, Rachid. "Graffite sur une céramique italique de tahaddart." *NAP*. no. 5 (2002). p. 13.

_________. "Notes sur une amphore phénicienne de tahadart." *NAP*. no. 5 (2002). pp. 10-12.

_________. "L'occupation du littoral du Maroc à l'époque préromaine." in: *Patrimoine culturel Marocain*. Paris: Maisonneuve & Larose, 2003. pp. 57-101.

_________. "A propos de la chronologie du monument funéraire de Sidi Slimane: le tumulus de koudiat el hamra." *BAM*. no. XXI (2009). pp. 246-249.

Arraichi, Hamid. "Regards portes par les contemporains sur le Maroc antique." in: *Le patrimoine maure (amazigh) de volubilis: Actes du colloque organise à Meknès. 24-26 Mars 2012*. Meknès: FLSH, 2012. pp. 69-94.

_________. "Le Maroc antique dans l'historiographie contemporaine: continuite, rupture ou mutation?" in: *L'Africa Romana: Momenti di continuita e rottura: bilanco di trent'anni di convegno "l'Africa Romana," atti del XX convegno internazionale di studi (l'Africa Romana). Alghero-porto conte ricerche 26-29 settembre 2013*. Roma: Carocci. 2015. pp. 997-1007.



Arraichi, Hamid. "Regards des nord-africains sur l'histoire culturelle de l'Afrique du nord: l'histoire ancienne comme exemple." in: *Pluralite culturelle en Afrique du nord: de l'histoire au stratégique: Actes du colloque international (06 et 07 Avril 2010)*. Oujda: Imprimerie al Hilal. 2013. pp. 32-71, bibliogr. pp. 59-71.

Behel, Mohamed. "Fortifications préromaines du Maroc, lixus et volubilis, essai de comparaison." in: *Lixus: Actes du colloque international sur la ville antique de lixus, Larache. 8-11 Novembre. 1989*. Collection de l'École française de Rome. no. 166. Rome: École française de Rome, 1992. pp. 238-248.

__________. "Un temple punique à volubilis." *BCTH*. no. S. 24 (1993-1995). pp. 25-51.

__________. "Note sur une huilerie du quartier est de volubilis." in: *L'Africa Romana: Atti del XI convegno di studio. Cartagine. 15-18 Dicembre 1994*. Ozieri: Torchietto, 1996. pp. 607-610.

__________. "Note sur un four de potier du quartier-est de volubilis." *BAM*. no. XVIII (1998). pp. 343-347.

Bekkari, Mohamed. "L'archeologie Marocaine de 1966-1967." *BAM*. no. VII (1967). pp. 651-662.

___________. "L'archeologie Marocaine de 1968-1969." *BAM*. no. VIII (1968-1969). pp. 241-248.

__________. "L'expansion phenicienne au Maroc." in: *L'expansiome fenicia nel mediterraneo, relazioni dell colloquio in roma. Mai 1970*. Roma: Consiglio Nazionale delle Ricerche, 1971. pp. 29-46.

Bel Kamel, Bidaouia. "Histoire de la médecine au Maroc antique." *Revue des sciences médicales*. vol. XXVI, no. 4 (1992). pp. 271-279.

Belfaida, Abdelaziz. "Toponymie et sacre au Maroc antique." in: *Le nom géographique. Patrimoine et communication: Actes du 1er colloque sur les noms géographiques (Journées du 15, 16 et 17 Avril 1992)*. Rabat: Institut Universitaire de la Recherche Scientifique, 1992. pp. 113-117.

____________. "La prêtrise féminine en Afrique romaine." in: Monkachi, Mohamed (ed.). *Pour une histoire des femmes au Maroc*. Kenitra: Faculté des lettres et des sciences humaines, 1995. pp. 61-73.

__________. "Eau et évergétisme en Afrique romaine: Témoignages épigraphiques." in: *L'Africa Romana: Atti del XIII convegno di studio, Djerba. 10-13 Dicembre 1998*. Roma: Carocci editore, 2000. pp. 1589-1601.

_________. "Le culte des génies topiques en Afrique romaine. Témoignages epigraphiques." in: *L'Africa Romana: Atti del. XII convegno di studio, Olbia. 12-15 Dicembre 1996*. Sassari: Dipartimento di Storia - Università degli Studi di Sassari, 1998. pp. 1533-1554.

_________. "Conceptions antiques de l'océan." in: *la mer dans l'histoire du Maroc*. Série colloques no.7. Mohammedia: Publication de l'université Hassan II, 1999. pp. 15-18.

__________. "Eau et sacre en Afrique romaine." in: *L'Africa Romana: lo spacio maritimo del mediterraneo occidentale: geografia, storia ed economiza, Atti del XIV convegno di studio sassari. 7-10 Dicembre 2000*. Roma: Carocci editore, 2001. pp. 1709-1721.

__________. "Montagne et sacre en Afrique pre-islamique." in: *La montagne dans l'histoire du Maroc*. Série colloques et séminaires. no. 3. Fès: Publications de la faculté des lettres Fès-saïs, 2001. pp. 1-5.

_________. "Eau et sacre en Afrique romaine." in: *L'Africa Romana: Lo spacio maritimo del mediterraneo occidentale: geografia, storia ed economiza: Atti del Xiv (quatorzieme) convegno di studio (su l'Africa Romana). Sassari, 7-10 Dicembre 2000*. vol. II. Sardegna: Carocci editore, 2002. pp. 1715-1728.



_________. "Cultes des eaux en Afrique du nord à l'époque romaine." in: "l'eau source de vie à travers les âges." *le jardin des Hespérides*. no. 1 (Novembre 2004 - Avril 2005). pp. 45-48.

Belfaida, Abdelaziz et al. (pres.). *Religion et sacre chez les imazighen d'après les sources épigraphiques*. Rabat: IRCAM, 2011.

Benabdellah, Abdelaziz. *Les grands courants de la civilisation du Maghreb*. Casablanca: Imprimerie du Midi, 1958.

Ben-Ncer, Abdelwahab. "Etude du tumulus no. 1 de r'jem souk (province de Taza, Maroc)." in: *L'Afrique du nord antique et médiévale: Acte du colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord. Tabarka. 8-13 mai 2000*. Tunis: Institut National Du Patrimoine, 2003. pp. 25-34.

Bokbot, Youssef. "La base vallée de l'oued loukkos à la fin des temps préhistoriques." in: *Lixus: Actes du colloque organisé par l'institut des sciences de l'archéologie et du patrimoine de Rabat avec le concours de l'école française de Rome*. *Larache. 8-11 Novembre 1989*. Rome: Palais famaise, 1992. pp. 17-26.

Bokbot, Youssef & Jorge Onrubia-pintado. "Substrat autochtone et colonisation phénicienne au Maroc: Nouvelles recherches protohistoriques dans la péninsule tingitane." in: *L'Afrique du nord antique et médiévale: Productions et exportations africaines. Actualités archéologiques: Actes du VIe colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du nord (Pau. Octobre 1993)*. Paris: CTHS, 1995. pp. 219-231.

___________. "Tumulus protohistoriques du pre-saharien Marocain: indices de minorites religieuses." in: *L'Afrique du nord antique et médiévale: Actes du VIIIe colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du nord* (*Tabarka. 8-13 mai 2000)*. Tunis: National du patrimoine, 2003. pp. 35-45.

Bokbot, Youssef et al. "Le complexe funeraire et culturel d'adrar zerzem (Anti-Atlas, Maroc): Résultats préliminaires." in: *Lieux de cultes aires votives, temples, églises, mosquées: Actes du IXe colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du nord antique et médiéval. Tripoli. 19-25 Février 2005*. Paris: CNRS, 2008. pp. 21-29.

Bokbot, Youssef. "Monuments funéraires protohistoriques du Maroc présaharien." in: *Les imazighens et l'espace saharien à travers l'histoire*. Rabat: Imprimerie El Maarif Al Jadida, 2015. pp. 3-24.

Boudouhou, Nouzha. "Découverte d'une ciste lithique entre le loukkos et le sebou (piemont rifain)." *Ant. Afr*. no. 33 (1997). pp. 35-37.

__________. "Découverte d'une ciste lithique entre le loukkos et le sebou (piemont rifain)." *Ant. Afr*. no. 36 (2000). pp. 9-14.

_________. "La population de la region du piement rifain entre le loukkos et le sebou (Maroc) de la période romaine à la période islamique." in: *L'Africa Romana: Al confini dell' imperio: contatti, scambi, conflitti: atti del XV (quizieme) convegno di studio (su l'Africa Romana). Tozeur. 11-15 dicembre 2002.* Roma: Carocci editore, 2004. pp. 605-630.

________. "Note sur oujda et le Maroc oriental dans l'antiquité." *NAP*. no. 6 (Juin 2005). pp. 11-12.

________. "L'histoire des populations à travers les découvertes archéologie dans le Maroc oriental de la protohistoire à la fin de l'antiquité." in: *L'Africa Romana: Mibilita delle persone e dei popoli, dinamiche migratoire, emigrazione ed immigraeioni nelle province occidental dell'imperio romano: atti del XVI convegno di studio (su l'Africa Romana). Rabat. 15-19 dicembre 2004*. Roma: Carocci editore, 2006. pp. 355-382.



_________. "Les monuments funeraires du Maroc oriental: les Tumuli." in: *Monument et cultes funéraires d'Afrique du nord: Actes de la VIe journée d'études nord-africaines organisée par l'académie des inscriptions et belles-lettres et la société d' étude du Maghreb préhistorique antique et médiévale au palais de l'institut, 28 mars 2008*. Paris: Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 2010. pp. 9-46.

_________. "Les monuments megalithiques de l'est Marocain. Etat des recherches et nouvelles découvertes." in: *L'Africa Romana: Tranformazione dei paesaggi del potere nell'africa settentrionale fino alla fine del mondo antico. Atti del XIX convegno di studio (su l'Africa Romana). Sassari. 16-19 Dicembre 2010*. Roma: Carocci editore, 2012. pp. 1235-1248.

_________. "Le patrimoine archéologie antique du nord-est du Maroc." in: *Le patrimoine et l'histoire antique du Maroc*. Rabat: Centre Tarik ibn Zyad, 2015. pp. 13-29.

_________. "Le territoire entre le royaume maure et la numidie: remodelages politiques et bilan des découvertes archéologiques." in: *Patrimoine maure (amazigh) du Maroc antique. Fès 29-31 Mars, 2013*. Fès: Saiss imprimerie, 2014. pp. 84-109.

Boudribila, Mohamed-Mustapha. *Aspects de l'histoire ancienne de l'Afrique du nord: Amazighs et carthaginois*. Agadir: Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Université Ibn Zohr, 2015.

Bouzidi, Rachid. "Nouvelle maison romaine de volubilis." in: *L'Africa Romana. Atti del XIII convegno di studio, Djerba. 10-13 Dicembre 1998*. Roma: Carocci editore, 2000. pp. 1789-1795.

Chebri, Mohcin. "Les descriptions géographiques et les récits de voyages au service de l'archéologie. Le cas de l'itinéraire Fes-Taza." in: *L'Africa Romana: Atti del XIII convegno di studio, Djerba. 10-13 Dicembre 1998*. Roma: Carocci editore, 2000. pp. 825-833.

_________. "Notes sur quelques sites archéologiques du nord Marocain." in: *L'Africa Romana: Atti del XIII convegno di studio, Djerba. 10-13 Dicembre 1998*. Roma: Carocci editore, 2000. pp. 1803-1817.

_________. "Recherches de géographie historique à propos du mont atlas." in: *L'Africa Romana: Atti del XIV convegno di studio Sassari. 7-10 Dicembre 2000*. Roma: Carocci editore, 2001. pp. 2163-2175.

Chergui, Abdelkader, Abdelfattah Ichkhakh & H. Limane. "Note sur un moule de terre cuite." in: *L'Africa Romana: Atti del XIII convegno di studio, Djerba. 10-13 Dicembre 1998*. Roma: Carocci editore, 2000. pp. 1621-1625.

________. "Nouvelles inscriptions d'ain schkour." in: *L'Africa Romana: Atti del XIII convegno di studio, Djerba. 10-13 Dicembre 1998*. Roma: Carocci editore, 2000. pp. 1613-1620

Decret, François & M'hamed Fantar. *L'Afrique du Nord dans l'antiquité, des origines au Ve siècle (histoire et civilisation)*. Paris: Payot, 1981. p. 391.

Mohamed R., El Azifi. "Les nécropoles de la région de Tanger sont –elles phéniciennes." in: *Actes du IIIème congre international des études pheniciennes et puniques. Tunis. 11-16 Novembre 1991*. vol. 1. Tunis: Institut national du patrimoine, 1995. pp. 401-414.

El Bouzidi, Said. "Quelques réflexions sur les conditions de la terre du Massif de sanhaja de srair dans le rif central acquisition et nature de propriété." *Annales du Rif*. no. 1 (1998). pp. 7-16.

_________. "Le figuier: histoire, rituel et symbolisme en Afrique du nord." *DHA*. vol. 28, no. 2 (January 2002). pp. 103-120.



El Hasroufi, Mohammed. "Les centuriations de la plaine du loukkous (Maroc) à l'époque romaine." in: *Actas del seminario hispano-marroqui de especialization en arqueologica.* Cadiz: Servicio de publicaciones de la universidad de Cadiz, 2006. pp. 213-217.

_________. "Etude du territoire de loukos: nouvelles dates pour les centuriation." in: *En la orilla africana del circula del estracho. Historiografia y protectos actuales: actas del II seminario hispano-marroqui de especialization en arqueologica*. Cadiz: Servicio de publicaciones de la universidad de Cadiz. 2008. pp. 441-457.

El khatib-boujibar, Naima. "L'archéologie Marocaine de 1964-1965." *BAM*. no. VI (1964). pp. 539-550.

_________. "Inscriptions nouvelles du Maroc." *BAM*. no. V (1964). pp. 379-383.

_________. "L'archéologie Marocaine de 1961-1964." *BAM*. no. V (1964). pp. 361-378.

_________. "L'art dans l'occident romain au musée du Louvre." *BAM*. no. V. (1964). p. 387.

_________. "Le problème de l'alimentation en eau à lixus." in: *Lixus: Actes du colloque international sur la ville antique de lixus, Larache. 8-11 Novembre. 1989*. Rome: L'école française de Rome, 1992. pp. 305-323.

El khyari, Abdelaziz. "Les thermes extra-muros à volubilis." in: *L'Africa Romana: Atti del X convegno di studio, Oristano, 11-13 Dicembre 1992.* Sassari: Archivio fotografico sardo, 1994. pp. 301-312.

El khyari, Abdelaziz et al. "Les steles votives de Maurétanie tingitane." in: Acte du *VIIe colloque internationale sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord. Nice. 31 Octobre 1996*. Paris : CTHS, 1999. pp. 443-470.

_________. "Chellah de l'antiquité aux pèlerinages." *NAP*. no. 2 (Mars 1998). pp. 4-6.

_________. "L'amphore du type carmona en Maurétanie occidentale." *NAP*. no. 2 (Mars 1998). pp. 10-11.

_________. "Le temple B de volubilis, nouvelles recherches." in: *Melanges offerts à G. Souville, Ant. Afr.* no. 34 (1998). pp. 65-72.

_________. "Une stele funeraire portant une inscription neopunique découverte dans le temple C à volubilis." *Semitica*. no. 50 (2000). pp. 55-68.

_________. "Les amphores phéniciennes et puniques de mogador." in: *Actes des premières journées d'archéologie et du patrimoine. vol. 2: Préislam*. Rabat: Société Marocaine d'Archéologie et du Patrimoine, 2001. pp. 64-73.

El khyari, Abdelaziz, Vironique Brouquier-Reddé & Abdelfattah Ichkhakh. "Recherches sur les monuments religieux de Maurétanie Tingitane de Louis Chatelain à la mission des temples." in: *Actes des premières journées d'archéologie et du patrimoine. vol. 2: Préislam*. Rabat: Société Marocaine d'Archéologie et du Patrimoine, 2001. pp. 187-197.

El machrafi, Khadija & F. Laubenheimer Leenhardt. "Pour un catalogue du musée des antiquités de Rabat." *Bulletin de la Société d'Histoire du Maroc*. no. III (1970-1971). pp. 37-62.

__________. "Volubilis la pax romana ou les relations avec les tribus." in: *Oujda et l'oriental: Travaux offerts au millénaire de la fondation de la ville d'Oujda 994-1994*. Casablanca: Imprimerie najah el-jadida, 2005. pp. 13-21.

El Rhodani, Mohamed, Said kamel & Rachid Bouzidi. "Données préliminaires sur les anciennes carrières du site antique de volubilis (Maroc)." in: *Minbar al-jamiaa: Proceeding of 2 international meeting en mediterranean*



architectural heritage= Actes de la 2ème rencontre internationale sur le patrimoine architectural méditerranéen. no. 20 (2010). pp. 254-272.

El younsi, A. "La circulacion monetaria en la mauretania tingitana del norte durante los III y IV d. j. c." in: *Actes des premières journées d'archéologie et du patrimoine. Rabat 1-4 juillet 1998*. Rabat: Société Marocaine d'Archéologie et du Patrimoine, 2001. pp. 128-131.

El. Harrif, Fatima Zahra & j. B. Girard. "Préliminaire à l'établissement du corpus des monnaies de lixus." in : *Lixus: Lixus: Actes du colloque international sur la ville antique de lixus, Larache*. *8-11 Novembre. 1989*. Rome: École française de Rome. pp. 267-269.

El. Harrif, Fatima Zahra & Claude Callegarin. "Ateliers et échanges monétaires dans le circuit du detroit." in: *Los cartagineses y la monetizacion del mediterraneo occidental*. Madrid: CSIC, 2000. pp. 23-42.

En-Nachioui, El-Arby. "Historia del concepte d'urbanizacio aplicat al Maroc." *Cota Zero*, no. 13. pp. 117-124.

________. "Las primeras excavations en volubilis (marruecos): arqueologia, historia o simple colonizacion?" *Pyrenae*. no. 26 (1995). pp. 161-170.

________. "Tingitana romanizacion, urbanizacion y estado de la cuestion." *homenage al. P. Palol isalellas, a girona, dec de 1995*. *Annales del'institut d'estudis gironins*. vol. XXXVII (1996-1997). pp. 783-793.

_________. "Approche de l'archéologie phénicienne et punique au Maroc." in: Antonella Spanò (ed.). *V° congresso internazionale di studi fenici e punici*. *palermo-marsala. 2-8 oct. 2000*. Palermo: Università di Palermo, Facultà di lettere e filosofia, 2005.

Fassi, Driss. "A propos du repérage archéologique dans une plaine d'inondation, le cas du gharb." in: *Actes du VIème colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord (Pau 1993)*. Paris: CTHS, 1995. pp. 292-297.

Ghaki, Mansour. "Déjà dans l'antiquité, l'acculturation des berbères." in: *patrimoine en partage: Forum d'imerqane: Actes du 1er festival des cultures immatérielles méditerranéennes*. Rabat: De l'oriental, 2007. pp. 77-90.

Ghalem, Mohamed. "Histoire de l'algérie: Des origines à 1830, essai de synthèse." in: *L'Algérie: Histoire, Société et Culture*. Alger: Casabah édition, 2000. pp. 9-36.

Ghazi-Ben Maissa, Halima. "Les origines du royaume d'ascalis." in: *L'Africa Romana: Atti del XI convegno di studio*. *Cartagine*. *15-18 dicembre 1994*. Ozieri: Torchietto, 1996. pp. 1403-1416.

__________. "Tacfarinas, le resistant amazigh de l'antiquité (17-24 ap)." in: *Memorial G. Ayache*. serie colloques et séminaires. no. 32. Rabat: Faculté des lettres, 1994. pp. 9-22.

__________. "Volubilis et le problème de regia iubae." in: *L'Africa Romana: Atti del X convegno di studio, Oristano, 11-13 Dicembre 1992.* Sassari: Archivio fotografico sardo, 1994. pp. 243-261.

__________. "Encore et toujours sur la mort de Ptolémée, le roi amazigh de mauretanie." *Hesperis-Tamuda*. no. XXXIII (1995). pp. 21-37.

__________. "Le culte royal en Afrique mineure antique." *Hesperis-Tamuda*. no. XXXV (1997). pp. 7-42.

__________. "Massinissa (203-148 av. J. C.) Un grand ou un pietre aguellid." in: *Actes du colloque Charles André Julien et le Maghreb*. Rabat: CNRS, 1997 (trav. Dact.).



__________. "Image ou mirage de la tingitane à travers les sources arabes médiévales." in: *L'Africa Romana: lo spacio maritimo del mediterraneo occidentale: geografia, storia ed economiza, Atti del XIV convegno di studio sassari. 7-10 Dicembre 2000*. Roma: Carocci editore, 2001. pp. 2185-2266.

__________. "Les rois imazighen et le monde grec." *Hesperis-Tamuda*. no. XXXVIII (2000). pp. 9-34.

__________. "Le royaume du Maroc antique image et réalité." in: *Mélanges offerts au professeur Brahim Boutaleb*. Série essais et études, no. 27. Rabat: la faculté des lettres, 2001. pp. 9-31.

__________. "Les amazigh de l'atlas et Rome (IIème– IIIème siècles après j. -c)." *La Recherche Historique*. no. 2 (2004). pp. 5-20.

__________. "Le règne de bogud (78-38 avant j. c) ou l'extraordinaire effervescence économique du Maroc antique." *La Recherche Historique*. no. 3 (2005). pp. 5-23.

__________. "A propos des lixitains de hannon." in: *L'Africa Romana: le richezze dell'africa. Risorse, produzioni, scambi: atti del XVII convegno di studio (su L'Africa Romana). sevilla. 14-17 Dicembre 2006*. Roma: Carocci editore, 2008. pp. 97-113.

Habibi, Mohamed. "La céramique à engobe rouge phénicienne à Lixus." *Lixus: Actes du colloque international sur la ville antique de lixus, Larache. 8-11 Novembre. 1989*. Rome: École française de Rome, 1992. pp. 145-153.

__________. "A propos du temple H et du temple de melqart-heracles à lixus." in: *L'Africa Romana: Atti del X convegno di studio, Oristano, 11-13 Dicembre 1992.* Sassari: Archivio fotografico sardo, 1994. pp. 231-241.

Habibi, Mohamed & L. pardo. "Le comptoir phénicien de mogador: approche chronologique et céramique à engobe rouge." in: *Actes des premières journées d'archéologie et du patrimoine (Rabat, 1-4 Juillet 1998)*. Rabat: SMAP, 2001. pp. 53-63.

_________. "L'époque dite punique au Maroc." in: *Actes des premières journées d'archéologie et du patrimoine (Rabat, 1-4 juillet 1998)*. Rabat: SMAP, 2001. pp.74-84.

_________. "La occupacion fenicia." in: Carmen Aranegui Gascó. *Lixus, colonia fenicia y ciudad punico-mauretania, anotaciones su occupacion medieval.* Saguntum. extra no. 4. Valencia: Departament de Prehistòria, Arqueologia i Història Antiga de la Universitat de València, 2001. pp. 73-82.

Haquim, Mohamed Ibn Azzouz. *Historia de marruecos hasta la dominacion al moravide*. Madrid: Consejo superior de investigaciones cientificas, 1955.

Hakim, Mouna. *Chronique insolites de notre histoire (Maroc, des origines à 1907)*. Casablanca: Imprimerie Najah El Jadida, 2016. p. 381.

Hamid, khadija. *Histoire du Maroc à la lumière de l'archéologie: A la recherche de mon identité Marocaine*. Casablanca: Afrique orient, 2012.

Hansali, Meriem & Hakim Ammar. "Note sur les huileries de sala." in: *L'Africa Romana: I luoghi e le forme dei mestieri e della produzione nelle province african: atti del XVII convegno di studio (su l'Africa Romana), Olbia, 11-14 dicembre 2008*. Sassari: Carocci, 2010. pp. 545-555. 4 fig.

Hassab, Sanaa & Moukraenta Bakhta. "Le fait urbain au maghreb entre l'epoque romaine et l'époque islamique." in: *l'Africa Romana: Transformazione dei paessaggi del potere nell'africa settentrionale fino alla fine del mondo antico. A cura di maia basiana cocco, alberto gavini, antonio ibba atti del XIX convegno di studio (su l'Africa Romana), Sassari, 16-19 dicembre 2010*. Roma: Carocci editore, 2012. pp. 819-850.



Hassar Benslimane, Joudia. "L'archéologie Marocaine de 1973-1975." *BAM*. no. X (1976). pp. 243-252.

_________. "Note à propos d'un bronze arabe trouve à chellah." *BAM*. no. X (1976). pp. 173-184.

Hassini, Hicham et al. "Une pendeloque à boisseau trouvée à Lixus." *NAP*. no. 1 (1997). pp. 7-8.

_________. "Estudio de los materiales ceramicos de la fase punico-mauritana IIi." in: *Lixus: Colonia fenicia y ciudad punico-mauritana, anotaciones sobre su occupacion medieval.* Saguntum. extra no. 4. Valencia: Departament de Prehistòria, Arqueologia i Història Antiga de la Universitat de València, 2001. pp. 169-185.

_________. "Amphores africaines tardives à banasa." *BAM.* no. XIX (2002). pp. 423-427.

Ichkhakh, Abdelfattah. "Une nouvelle huilerie à volubilis." *NAP*. no. 1 (April 1997). pp. 7-8.

_________. "Les steles votives de la Maurétanie tingitane: un complement au catalogue du temple B de volubilis." in: *Numismatique, Langues, Ecritures et Art du livre, Actes specifite des arts figures.* Paris: Comite des travaux historiques et scientifiques, 1999. pp. 343-370.

Kably, Mohamed. *Histoire du Maroc: Réactualisation et synthèse*. Rabat: Imprimerie okad al-jadida, 2011. pp. 769-788.

Kbiri Allaoui, Mohamed et al. "La factoria fenica de mogador las ceramicas pintadas." *AEA*. no. 5 (1998). pp. 177-178.

Kbiri Allaoui, Mohamed & Abdelaziz El Khyari. "Les époques phénicienne et punique." in: *Maroc: Les trésors du royaume*. Paris: Paris-Musées, 1999. pp. 49-53.

_________. "A propos de la chronologie de la nécropole rurale d'ain dalia lakbira (région de Tanger)." in: *Actas del IV congreso internacional de estudios fenicos e punicos. October 1995.* Cádiz: Universidad de Cádiz, 2000. pp. 1185-1195.

_________. "Actividad comercial y produccion ceramica en el taller punico-mauritano de kuass." Aranegui et al. *Arqueologia*. no. 228 (2000). pp. 52-74.

_________. "Ceramicas campanienses, pintadas, ibericas y comunes." in: Carmen Aranegui Gasco (ed.). *Lixus, colonia fenica y ciudad punico-mauritania. Anotaciones sobre su occupacion medieval*. Saguntum. extra no. 4. Valencia: Departament de Prehistòria, Arqueologia i Història Antiga de la Universitat de València, 2001.

_________. "La ocupacion punico-mauritani." *Lixus: Colonia fenica y ciudad punico-mauritania. Anotaciones sobre su occupacion medieval*. Saguntum extra no. 4. Valencia: Departament de Prehistòria, Arqueologia i Història Antiga de la Universitat de València, 2001. pp. 51-71.

_________. "Las fases punico-mauritanas i (175-150 à 80-50 a. c) y (80-50 a. c, -15 d. c)." *Lixus: Colonia fenica y ciudad punico-mauritania. Anotaciones sobre su occupacion medieval*. Saguntum. extra no. 4. Valencia: Departament de Prehistòria, Arqueologia i Història Antiga de la Universitat de València, 2001. pp. 141-168.

Kbiri Allaoui, Mohamed, Ahmed Siraj & Cinzia Vismara. "Recherches archéologiques Maroco-italiennes dans le rif." in: *L'Africa Romana: Ai confine dell'imperio: contatti, scambi, conflitti: atti del XV convegno di studio* (*L'Africa Romana*). *Tozeur. 11-15 December. 2002*. Roma: Carocci editore, 2004. pp. 567-604.

Kharbach, Abdellatif. "Les relations Maroco-romaines d'après des données archéologiques." *Amal*. no. 22-23 (2001). pp. 219-225.



_________. "Rapports romano-Marocains à travers les données archéologiques." *Revue Amal*. no. 22-23 (2002). pp. 219-225.

_________. "Regard sur quelques chapiteaux de banasa." *Revue Amal*. no. 27 (special) (2002). pp. 206-219.

Laamiri, Laïla & Mohamed Habibi. "La place de la statuaire en Maurétanie tingitane." in: *Actes des premières journées d'archéologie et du patrimoine (Rabat 1-4 juillet 1998).* Rabat: SMAP, 2001. pp. 85-91.

Laroui, Abdallah. *L'histoire du Maghreb, un essai de synthèse*. Paris: François maspero, 1970.

Limane, Hassan & René Rebuffat. "Volubilis imprégnée par l'obsedente odeur de l'huile." *Histoire*. no. 54 (1998). pp. 116-121.

Limane, Hassan. *La ceramique du sud de la gaule à lixus*. *Lixus: Actes du colloque international sur la ville antique de lixus, Larache*. *8-11 Novembre. 1989*. Rome: École française de Rome, 1992. pp. 299-303.

Limane, Hassan & René Rebuffat. "Les confins sud de la présence romaine en tingitane dans la région de volubilis." in: *Actes du Vème colloque. International sur l'histoire et l'archéologie, de l'Afrique du nord. Avignon. 1990*. Paris: CTHS, 1992. pp. 459-470.

Limane, Hassan et al. "Apports de la prospection geophysique à l'etude archeologique des sites de paciuri, musarna et banasa." in: *Applicaciones informaticas en arqueologia, teorias y sistemas,* vol. II. Bilbao: Denboraren Argia, 1995. pp. 172-173.

Limane, Hassan & Mohamed Makdoun. "La mise en valeur antique de l'arrière-pays de volubilis." in: *L'Africa Romana*: *Atti del. XII convegno di studio, Olbia. 12-15 dicembre 1996*. Sassari: Dipartimento di Storia - Università degli Studi di Sassari, 1998. pp. 325-342.

Limane, Hassan & René Rebuffat. "Volubilis aux marches de l'empire romain." *Le monde de la bible*. no. 97 (1996). pp. 40-46.

Limane, Hassan el al. "Découverte d'une tombe islamique au quartier sud de volubilis." *NAP*. no. 1 (1997). p. 8.

Limane, Hassan. "Un site romain de la région de mhaya." *NAP*. no. 1 (1997). p. 9.

Limane, Hassan et al. "De nouvelles inscriptions d'ain-schkour." *NAP*. no. 1 (1998). p. 12.

___________. "Découverte d'une moule en céramique à volubilis." *NAP*. no. 2 (1998). p. 4.

___________. "Note sur la sigillée hispanique de grenade à lixus." *BAM*. no. XVIII (1998). pp. 335-337.

__________. *Volubilis, de mosaïque à mosaïque*. Paris: Edif, 1998.

Limane, Hassan & René Rebuffat. "Volubilis." *Historia* (Juillet-Aout 1998). pp. 116-121.

_________. "Une voie romaine frontalière." in: *Les espaces frontaliers dans l'histoire du Maroc.* Mohamedia: Université Hassan II, 1999. pp. 13-26.

Limane, Hassan & Panoutier. *Volubilis, une cite antique du Maroc*. Paris: La rose/ Malika, 2002.

Limane, Hassan & René Rebuffat. "Sidi Said: un sanctuaire rural de la rive droite du sebou." *La recherche historique*. no. 3 (2005). pp. 53-61.

Mahjoubi, Ammar. "La période romain en Afrique du nord. La période romaine." in: *Histoire Générale de L'Afrique, In Afrique Ancienne*. Paris: J. Afrique stockunesco, 1980. pp. 501-538.



_________. "Pour une histoire ancienne décolonisée de l'Afrique du nord." in: *Actes du colloque la construction du Maghreb. Tunis, 19-24 oct. 1981*. Tunis: Imprimerie al-asria, 1983. pp. 57-61.

Majdoub, Mohamed. "*Les luttes du début du Ier siècle av. J. C. Au nord de la mauretanie*." in: *Lixus: Actes du colloque international sur la ville antique de lixus, Larache. 8-11 Novembre. 1989*. Rome: École française de Rome, 1992. pp. 235-238.

_________. "Nouvelles données sur la datation du temple C De volubilis." in: *L'Africa Romana: Atti del X convegno di studio, Oristano, 11-13 Dicembre 1992.* Sassari: Archivio fotografico sardo, 1994. pp. 283-287.

_________. "La Maurétanie et ses relations commerciales avec le monde romain jusqu'au 1er s. Av. J. C." in: *L'Africa Romana: Atti del XI convegno di studio. Cartagine. 15-18 Dicembre 1994*. Ozieri: Torchietto, 1996. pp. 287-302.

_________. "Pompeius magnus et les rois maures." in: *L'Africa Romana*: *Atti del. XII convegno di studio, Olbia. 12-15 dicembre 1996*. Sassari: Dipartimento di Storia - Università degli Studi di Sassari, 1998. pp. 1321-1334.

_________. "Octavius et la Mauretanie." in: *L'Africa Romana*: *Atti del XIII convegno di studio, Djerba. 10-13 Dicembre 1998*. Roma: Carocci editore, 2000. pp. 1725-1737.

_________. "La Maurétanie et Carthage." in: *Actas del IV congresso internacional de estudios fenicios y punicos (2 al 6 octubre 1995, cadiz)*. Cadiz: Universidad de Cádiz, 2000. pp. 1217-1221.

_________. "Nouvelles recherches sur l'epoque mauretanienne à volubilis." in : *Actes des premières journées d'archéologie et du patrimoine (Rabat, 1-4 juillet 1998).* Rabat: SMAP, 2001. pp. 198-213.

_________. "Note sur les rapports entre les baniurae et les romains." in: *L'Africa Romana: Al confini dell'imperio: contatti, scambi, confitti: atti del XV convegno di studio (su l'Africa Romana). Tozeur. 11-15 Dicembre 2002*. vol. I. Paris: Ruggeri, cinzia vismara; Roma: Carocci editore s. p., 2004. pp. 541-545.

Makdoun, Mohemd. "Encore sur la chronologie du quartier nord- est de volubilis." in: *L'Africa Romana: Atti del X convegno di studio, Oristano, 11-13 Dicembre 1992.* Sassari: Archivio fotografico sardo, 1994. pp. 263-281.

_________. "Nouvelles recherches stratigraphiques sur l'aqueduc de volubilis." in: *L'Africa Romana: Atti del XI convegno di studio. Cartagine. 15-18 dicembre 1994*. Ozieri: Torchietto, 1996. pp. 763-770.

_________. "Nouvelles recherches sur le quartier nord-est de volubilis." *BCTH*. no. s. 25 (1996-1998). pp. 40-51.

_________. "La maison de dionysos et des quatre saisons et la maison des nymphes a Volubilis problèmes de mitoyenneté et de chronologie." in: *L'Africa Romana*: *Atti del XIII convegno di studio, Djerba. 10-13 Dicembre 1998*. Roma: Carocci editore, 2000. pp. 1703-1723.

Meknassi, Ahmed. "Compana de excavationes y exploracion archeologica en 1957." *Tamuda*. no. V (1957). pp. 161-164.

_________. "Reconocimientos arqueologicos en el rif." *Tamuda*. no. VII (1959). pp. 156-158.

Mikdad, Abdeslam. "L'utilisation de l'ivoire au Maroc, des origines à l'époque médiévale." in: *Ellenbeinstudien. Faszike: marfil y elefantes en la peninsula iberica y el mediterraneo occidental: Actas del coloquio internacional en alicante el 26 y 27 de noviembre 2008*. Darmstadtmainz: Veriag Philipp Von zaben, 2012. pp. 111-120.

Moga Romero, Vicente & Rachid Ahmed Raha (éds.). *Estudios amaziges sustratos y sinergias culturales*. Melilla: Consejeria de cultura, 2000.



Monkachi, Mohmed. "L'histoire des femmes au Maroc l'apport des sources antiques." in: *Pour une histoire des femmes au Maroc*: *Actes du colloque de Kenitra, Faculté des lettres et des sciences humaines, 4-5 Avril 1995*. Kenitra: Faculté des lettres et des sciences humaines, 1995. pp. 53-60.

_________. "Source et approche d'une histoire des femmes au Maroc antique." in: *Histoire des femmes au Maghreb culture matérielle et vie quotidienne*. Tunis: Centre de publication universitaire, 2000. pp. 19-27.

Moulay Rchid, El Mostafa. "Eléments d'histoire ancienne de la région d'Oujda." *BAM*. no. IV-V (1972-1973) pp. 13-19.

_________. "Le Maroc septentrional selon Claude Ptolémée." *RGM*. no. s., no. 3. 1979. pp. 53-58.

_________. "De la tingitane occidentale à la tingitane orientale, ou les dimensions historiques du pays des maures." in: *Le Maroc oriental: passe et présent. Le milieu naturel, l'histoire et la culture: Actes du colloque journées d' études du 13 au 15 mars 1986*. Casablanca: Imprimerie Najah El-Jadida, 1988. pp. 209-215.

_________. "Eratosthene, l'oikoumene et la maurusie géographie et symétrie." *Melanges Pière Leveque*. no. 3 (1989). pp. 269-275.

_________. "Lixus et gades: Réalité et idéologie d'une symétrie." *DHA*. no. 15, f. 2 (1989). pp. 325-331.

Ouahidi, Ali. "Nouvelles Recherches archéologiques sur les huileries de volubilis." in: *L'Africa Romana: Atti del X convegno di studio, Oristano, 11-13 Dicembre 1992.* Sassari: Archivio fotografico sardo, 1994. pp. 289–299.

Paneter, Jean-Luc & Hassan Limane. *Volubilis, une cite du Maroc antique*. Paris: Maisonneuve, 2002.

Qninba, Zahra. "La composition de la mosaïque d'Orphée de volubilis." *BAM*. no. XVIII (1998). pp. 181-202.

_________. "La mosaïque dans le Maroc." in: *Maroc, les trésors d'un royaume*. Paris: Paris-Musées, 1999. pp. 81-84.

_________. "La mosaïque de la Maurétanie tingitane un état de la question." *Actes des premières journées d'archéologie et du patrimoine (Rabat 1-4 Juillet 1998)*. Rabat: SMAP, 2001. pp. 132-139.

Rahmoune, El Houcine. *Des nouvelles d'une antiquité commune au Maghreb*. Rabat: Rabat net. 2016.

_________. "L'Afrique du nord dans ses rapports avec les provinces occidentales de Rome." in: *L'Africa Romana*: *Atti del XIII convegno di studio, Djerba. 10-13 Dicembre 1998*. Roma: Carocci editore, 2000. pp. 1147-1152.

_________. "Quelques brèves sur l'influence des civilisations anciennes dans la définition des limites orientales du Maroc antique." in: *Les espaces frontaliers dans l'histoire du Maroc*. Série colloques no. 6. Mohamedia: Université Hassan II, 1999. pp. 79-89.

_________. "Le passage des maures en bétiques au IIe. Siècle ap. J-c." in: "peuplement et mouvements de population en Afrique de nord antique et medievale." in: *Seminaires d'histoire et archéologie de l'Afrique de nord, 19 février 1999, organise par le centre camille jullian. Maison méditerranéenne des sciences de l'homme, AiX-En-Provvence (France), 25-26 novembre 1999. Centre d'études et des recherches historiques et archéologiques. Faculté des lettres et sciences humaines. Université Hassan II. Faculté Des Lettres Et Sciences Humaines de Mohammedia*. Paris: CNRS, 2001. pp. 105-117.

_________. "Les périples de poseidonius et d'eudoxe de cyzique et les contraintes de la navigation en occident." in: *L'Africa Romana: lo spacio maritimo del mediterraneo occidentale: geografia, storia ed economiza, Atti del XIV convegno di studio sassari. 7-10 Dicembre 2000*. Roma: Carocci editore, 2002. pp. 105-121.

_________. "Note sur les rapports de Rome avec les royaumes d'Afrique du Nord." *Bouhout*. no. 10 (2002). pp. 7-18.



_________. "L'administration des structures sociales du Maroc romain d'après les sources." in: *L'Africa Romana: Ai confini dell'imperio: contatti, scambi, conflitti: atti del XV (quizieme) convegno di studio (su l'Africa Romana), Tozeur, 11-15 dicembre 2002 a cura di mustapha khanoussi. paola ruggeri, cinzia vismara*. vol. 1. Roma: Carocci editore s.p.a., 2004. pp. 631-650.

_________. "Les Berbères, entre villes et campagne durant l'antiquité et le debut du moyen âge." in: *L'Africa Romana: Transformazione del paesaggi del potere nell'africa settentrionale fino alla fine del mondo antico. Acura di maria basiana cocco, alberto gavini, antonio ibba atti del XIX convegno di studio (su l'Africa Romana), sassari, 16-19 dicembre 2010*. vol. II, 1st ed. Roma: Carocci editore, s.p.a., 2012. pp. 1187-1202.

_________. *Amazighs ou berbères entre les sources greco-latines et arabes*. Rabat: Rabat net, 2016.

_________. "De l'utopie à réalité de la recherche universitaire dans les sciences humaines." in: *La recherche scientifique au Maroc: Modèles et approches*. Rabat: Rabat net, 2016. pp. 45-58.

Raissouni, Baraka, Dario Bernal & Abdelaziz El khayari. "Ramos, Jose, Zouak, Medi, Carta arqueologica del norte de marruecos." in: *Prospeccion y yaciementos, un primer avance*. vol. I. Cadiz: Servicio de publicaciones de la Universidad de Cadiz, 2008-2012.

_________. "Nouvelles perspectives de recherches archéologiques au nord du Maroc (region tanger-tetouan)." in: *Actas del seminario hispano-marroqui de especialization en arqueologica, Juillet, Tanger 2005, Septembre 2005*. Cadiz: Servicio de publicaciones de la universidad de Cadiz, 2006. pp. 229-232.

Rebuffat, René, Hassan Limane & Aomar Akerraz (dir.). Joudia Hassar-Benslimane (pref.), *Carte archéologique du Maroc antique: Le bassin du sebou 1. Au sud loukkos. Cartes Araoua-Lalla Mimouna- Moulay Bou Selham*. Rabat: Imprimerie El Maarif Al Jadida, 2011.

Rhorfi, Abdellatif. *Histoire préromaine et romanisation de la Maurétanie tingitane avant son annexion à l'empire romain*. France: Presses universitaires du septentrion, 2000.

_________. "La contribution de la numismatique a la connaissance de la date de la fondation coloniale de tingi." in: *L'Africa Romana: lo spacio maritimo del mediterraneo occidentale: geografia, storia ed economiza, Atti del XIV convegno di studio Sassari*. *7-10 Dicembre 2000*. pp. 2147-2161.

_________. "Effets de la domination romaine en méditerranée occidentale sur l'économie de la Maurétanie occidentale au 1er s. Av." in : *L'Africa Romana: lo spacio maritimo del mediterraneo occidentale: geografia, storia ed economiza, Atti del XIV convegno di studio sassari*. *7-10 Dicembre 2000*. pp. 537-547.

_________. "La pax romana en tingitane et les conditions de sa permanence aux trois premiers siècles ap. J. -c." in: *L'Africa Romana: ai confini dell'imperio: contatti, scambi, confilitti: atti del Xv (quinzieme) convegno di studio (su l'Africa Romana). Tozeur. 11-15 dicembre 2002*. vol. 1. Roma: Carocci editore s.p.a., 2004. pp. 547-566.

_________. "L'apport de l'onomastique à la connaissance de la romanisation de la tingitane préromaine." *BAM*. no. XX. (2004). pp. 294-323.

_________. "Les traits majeurs de l'immigration romaine en tingitaine." in: *L'Africa Romana: Mobilita delle persone e dei popoli, dimaniche migratoire, emigrazione ed immigrazioni nelle province occidentali dell'impero romano: atti del XVI convegno di studio (su l'Africa Romana), Rabat, 15-19 dicembre 2004*. vol. I. Roma: Carocci editore s.p.a., 2006.pp. 383-402.

_________. "Approche onomastique de l'histoire de la tingitane: acquis et perspectives onomastique et toponymie du Maroc antique." in: *Travaux de la rencontre scientifique d'Avril 2007 et du colloque national de Février*



2009 organises par l'équipe de recherche onomastique et toponymique du Maroc antique à L'université Sultan Moulay Slimane, Faculté Des Lettres Et Sciences Humaines De Beni Mellal. Casablanca: Imprimerie najah al jadida, 2012. pp. 7-16.

_________. "La genese de l'elite de volubilis." in: *L'Africa Romana: Atti del XX convegno internazionale di studi (su L'Africa Romana). aighero-porto conte ricerche, 26-2 Settembre 2013*. Roma: Carocci Editore, 2015. pp. 773-799.

_________. "Les agglomeratios autochtones d'après la toponymie du Maroc preislamique." *BAM*. no. XXIII (2016). pp. 71-92.

Siraj, Ahmed. "Les villes antiques de l'Afrique du nord à partir de la description de j. Leon l'africain." in: *L'Africa Romana: Atti del IX Convegno di studio, Nuoro, 13-15 dicembre 1991*. Sassari: Gallizzi, 1992. pp. 903-938.

Siraj, Ahmed. "Note sur l'urbanisme de Tanger à l'époque romaine et arabe." in: *L'Africa Romana: Atti del X convegno di studio, Oristano, 11-13 Dicembre 1992.* Sassari: Archivio fotografico sardo, 1994. pp. 221-229.

Siraj, Ahmed. "De Tingi à Tanga, le mystère d'une capitale dechue." *Ant. Af.* no. 30 (1994). pp. 289-302.

Siraj, Ahmed. "Les techniques de l'écriture antique. Encore sur un manuscrit arabe de la bibliothèque nationale de Paris." in: *L'Africa Romana: Atti del XI convegno di studio. Cartagine. 15-18 dicembre 1994*. Ozieri: Torchietto, 1996. pp. 223-229.

Siraj, Ahmed. "Les lybiens dans la mythologie antique. Le mythe des amazones." *pour une histoire des femmes au Maroc.* Kenitra: Faculté des lettres et des sciences humaines, 1995. pp. 29-38.

Siraj, Ahmed. *L'image de la tingitane. L'historiographie arabe médiévale et l'antiquité nord-africaine*. Rome: École française de Rome, 1995. 1995.

Siraj, Ahmed. "Le rôle de l'Espagne dans le commerce de la Maurétanie occidentale Jusqu'aux Ier siècles de l'islam." in: *L'Africa Romana: Atti del XI convegno di studio. Cartagine. 15-18 dicembre 1994*. Ozieri: Torchietto, 1996. pp. 1355-1364.

Siraj, Ahmed. "De la pre-archeologie à l'archéologie du Maroc." in: *L'Africa Romana: Atti del XIII convegno di studio, Djerba. 10-13 Dicembre 1998.* Roma: Carocci editore, 2000. pp. 817-823.

Siraj, Ahmed. "Berbères et livres: Réflexions sur le métier intellectuel des berbères." *antiquité et moyen-âge, numismatique, langues, écritures et art du livre, specifite des arts figures.* Actes-Paris: Edition du comite des travaux historiques et scientifiques, 1999. pp. 223-231.

Siraj, Ahmed. *Hommes et frontières. Les espaces frontaliers dans l'histoire du Maroc*. Série colloques no. 6. Mohamedia: Université Hassan II, 1999. pp. 91-101.

Sounni, Mohamed, "La présence romaine en Maurétanie tingitane et son influence sur l'économie." *Revue Des Lettres Et Sciences Humaines* (Kenitra). no. 6 (2006). pp. 61-67.

________. "La situation économique de la tangitane au IIIe siècle." in: *Nouvel éclairage sur l'histoire et la civilisation de l'Afrique du nord antique. Hommage offert au professeur Mustapha Moulay Rachid.* Rabat: Maktabat dar assalam, 2007. pp. 43-48.

Tazi, Abdelhadi. "A propos d'une lettre envoyée par le prophète Mahomed à l'empereur Héraclius." in: *L'Africa Romana: Atti del IX Convegno di studio, Nuoro, 13-15 dicembre 1991.* Sassari: Gallizzi, 1992. pp. 901-902.



الرقم التعريفي: DOI: https://doi.org/10.31430/AVGH1823

قاسم الحادك | Kacem El Hadeg*

حصيلة البحث في تاريخ مغرب القرن العشرين: محاولة في الرصد والتقييم

Outcomes of Research on Morocco's 20th Century History: An Evaluation

توطئة

راكم البحث التاريخي في المغرب رصيدًا منوّعًا من الدراسات والأبحاث، تمايزت على مستوى الموضوعات والقضايا المدروسة، واختلفت باختلاف الأجيال والمناهج المتّبعة والمقاربات المعتمدة. فمع حصول المغرب على الاستقلال، وجد المؤرخ المغربي نفسه أمام إشكالات عدة، تمحورت أساسًا حول كتابة التاريخ الوطني، سعيًا منه لتجاوز القصور المنهجي للإستوغرافيا التقليدية، ودحض الكتابات الكولونيالية. وإذا كانت كتابات الرعيل الأول من المؤرخين المغاربة قد استفادت مما راكمه التدوين التاريخي الكلاسيكي، وحاولت تجاوز نمطه في الكتابة، وعملت على دحض الأطروحات الاستعمارية، فإنها جاءت في المقابل مشبعة بالروح الوطنية؛ ما حاد بها أحيانًا كثيرة عن الموضوعية. وابتداءً من سبعينيات القرن العشرين، شهد التأليف التاريخي في المغرب منعطفًا كبيرًا، وحقق قفزة نوعية على مستوى التجديد المنهجي، مستفيدًا من مناهج التاريخ الغربي ومفاهيمه؛ إذ اقتحم المؤرخون المغاربة دروبًا بحثية غير مألوفة، واعتمدوا مناهج حديثة ومصادر جديدة. بيد أن هذا التحول لم يشمل تاريخ الحقبة الاستعمارية الذي اختُزل في المقاومة المسلحة والحركة الوطنية وشخوصها وتنظيماتها، مع استمرار الوفاء للنّزعة الوطنية، وتمحور اهتمام جل الأبحاث التاريخية التي تناولت زمن الحماية بالتاريخ السياسي والعسكري، وقلّما عنيت بما هو خارج عن هذا النطاق، ولم يلتفت إلى التاريخ الاقتصادي والاجتماعي إلّا لمامًا.

وموازاة مع التطور اللافت الذي عرفته الإستوغرافيا المعاصرة في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، بدأت إرهاصات الاهتمام بقضايا المغرب الراهن في السنوات الأولى من الألفية الثالثة، عقب الانفراج السياسي الذي انخرطت فيه البلاد في مطلع التسعينيات، وبات هذا الحقل التاريخي الإشكالي، الذي لا يزال في مخاض البدايات، يتناول موضوعات جديدة في باب التاريخ السياسي والاقتصادي للمغرب المستقل، وكل ما يرتبط بذاكرة مغرب ما بعد الاستقلال.

تروم هذه الورقة رصد الحصيلة الإجمالية للبحث التاريخي المغربي في خصوص الفترة المعاصرة والراهنة ومساءلتها، والوقوف عن كثب على مجمل الرصيد الإستوغرافي، وتقييم ما جرى تحقيقه من تراكمات على مستوى القضايا والإشكاليات

* أستاذ التاريخ المعاصر والراهن، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة شعيب الدكالي، الجديدة، المغرب.

Professor of Contemporary, Faculty of Arts and Humanities, Chouaib Doukkali University, El Jadida, Morocco.

hadeg100@hotmail.fr



المطروحة، أو تلك التي لم تمتد إليها أيدي الباحثين بعد، ووضع اليد على جوانب النقص ومكامن القصور، كما رصدتها العديد من الكتابات التقويمية التي قاربت حصيلة البحث التاريخي المغربي.

أولًا: المغرب زمن الحماية في الإنتاج التاريخي الأكاديمي: حصيلة وتقويم

1. عزوف الرعيل الأول من المؤرخين المغاربة عن مقاربة تاريخ المغرب زمن الحماية

اتسمت فترة ما قبل الاستعمار، خصوصًا القرن التاسع عشر، بكثافة بيّنة في التأليف الأكاديمي، إن على مستوى الموضوعات، أو المناهج والمقاربات، نالت بمقتضاها هذه الحقبة حصة الأسد من الأبحاث التي لا يزال الكثير منها حبيس الرفوف في صيغته المرقونة[1]، في مقابل عزوف عن خوض غمار البحث والتنقيب في تاريخ الحقبة الاستعمارية. ولعل وراء "هجرة الرعيل الأول من المؤرخين المغاربة للتاريخ المعاصر القريب واستقرارهم المريح في دراسة القرن التاسع عشر"[2]، عوامل عدة، أحسب في صدارتها ضرورة إسهام الكتابة التاريخية المغربية بُعَيد الاستقلال في دينامية بناء الدولة الوطنية الفتية، وتوجّهها صوب إعادة كتابة تاريخ المغرب، وتخليصه من السرديات الاستعمارية وتصوّراتها المغلوطة بشأن الدولة والمجتمع[3]؛ ما أدى إلى سيادة خطاب النزعة الوطنية الذي استأثر بمجمل الإنتاج الإستوغرافي.

أسهمت المسحة شبه التقديسية التي أضفتها ذاكرة رجالات الحركة الوطنية على هذه المرحلة، بدورها، في هذا التحفظ الذي أبداه المؤرخون المغاربة الأوائل عن خوض غمار كتابة تاريخ المغرب المعاصر القريب، وانتصبت حائلًا دون كتابة تاريخ علمي موضوعي لحقبة الحماية، متجرّد من كل الحسابات الأيديولوجية والفئوية. فالوقت لا يزال مبكرًا، في رأيهم، لجعل هذه المرحلة موضوع دراسة تاريخية، نظرًا إلى تحكم الرهانات السياسية واشتداد حدة الاستنجاد بالماضي والإحالة إليه من الدولة التي أسّست مشروعيتها عليه، وموردًا كذلك بالنسبة إلى قطاع عريض من القوى السياسية، بحثًا عن مشروعية تاريخية، وامتدادًا في الماضي النضالي لتعزيز وجودها السياسي وتزكيته[4]. ونتيجة لذلك، انزوى المؤرخون في الهامش، وركّزوا في أبحاثهم على الفترات التاريخية السابقة، وتوقف معظمهم عند حدود عام 1912، وعزفوا عن مجهود لا يُشجّعه ولا يُسهّله أحد[5]، وتواروا خلف الضغط الذي مارسه خطاب الذاكرة الملحمي المفاخر بأمجاد المقاومة والحركة الوطنية، والقائم على إبراز مزايا الماضي وبطولاته، والمتّسم بغلبة الذاتية المفرطة والمشاعر والعواطف الوطنية الجيّاشة.

كان عبد الله العروي قد أشار في مقدمة أطروحته في عام 1976 إلى أنه فكّر مليًا في كتابة تاريخ الحركة الوطنية المغربية، لكنه سرعان ما اضطر إلى التخلي عن هذا المشروع؛ لِما يطرحه من تعقيدات متعددة الأبعاد. واقتصر على البحث في أصول الوطنية، ومقاربة هذا المفهوم مقاربة تاريخية، مؤكدًا أنه من الصعب وقتئذ، إن لم نقل من شبه المستحيل، كتابة تاريخ سياسي فعلي وحقيقي

1 **تاريخ المغرب: تحيين وتركيب**. تنسيق محمد القبلي (الرباط: المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، 2011)، ص 446.
استأثر القرن التاسع عشر أيضًا باهتمام بعض الباحثين في القانون والعلوم السياسية والاقتصاد وعلم الاجتماع، الذين كرّسوا أعمالهم الجامعية لهذه الحقبة التاريخية، "تجنبًا لما كان من الممكن أن يترتب عن الدراسة النقدية لأوضاع النصف الثاني من القرن العشرين من تبعات ومخاطر". المرجع نفسه، ص 447.

2 محمد بوكبوط، "سلطة التاريخ ورهان حماية الذاكرة الجماعية"، **الأحداث المغربية**، شوهد في 2002/5/10، في: https://bit.ly/47cSZla

3 محمد المنصور، "الكتابة التاريخية بالمغرب خلال ثلاثين سنة (1956-1986): ملاحظات عامة"، في: **البحث في تاريخ المغرب: حصيلة وتقويم** (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1989)، ص 21.

4 عبد العزيز الطاهري، **الذاكرة والتاريخ: المغرب خلال الفترة الاستعمارية 1912-1956** (الرباط: دار أبي رقراق، 2016)، ص 108.

5 عبد الأحد السبتي، **الماضي المتعدد: قراءات ومحاورات تاريخية** (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2016).



للحركة الوطنية المغربية؛ نظرًا إلى الانتقائية التي كانت تطبع ذاكرة الفاعلين[6] التي تأثرت تمثلاتها للحقبة الاستعمارية بصفة واضحة بما كان يعتمل من صراعات سياسية[7]. وأرجأ جرمان عياش، للأسباب ذاتها، البحث في حرب الريف التحررية بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي، واكتفى بالتعمّق في ماضيها، والغوص في جذورها العميقة وبناها العتيقة التي أفرزت هذا الحدث[8].

أسهمت هذه العوامل مجتمعة في عزوف الرعيل الأول، من المؤرخين المغاربة، عن خوض غمار البحث والتنقيب في تاريخ الحماية، وفضّل كثيرون منهم "أن يرسموا مساحة اشتغال تضمن لهم حدًا أدنى من النزاهة الفكرية، فركّزوا على مراحل ما قبل الاستعمار، واهتموا بمجالات مثل التاريخ الاجتماعي وتاريخ الحياة اليومية وقضايا التفاوت والتبعية والإصلاح"[9]. فأحداث تلك الحقبة ووقائعها لا تزال قريبة، والميول الشخصية والذاتية لا تزال فاعلة، بل جارفة أحيانًا، ولم تكن تأذن في مناولة تاريخية بعيدة عن التحيّز والخلاصات الجاهزة، وهو ما أثّر سلبيًا في حصيلة الدراسات الخاصة بفترة الحماية.

2. التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لحقبة الحماية: الافتقار إلى التراكم وغلبة المقاربات التاريخية المونوغرافية

أسهمت مدرسة الحوليات في تطور المعرفة التاريخية، وجدّدت مناهجها وأدواتها بعمق، وانصبّ اهتمام روّادها على البنى الاجتماعية والاقتصادية، وألحّوا على انفتاح المؤرخ على مختلف العلوم الاجتماعية، وتنويع مداخله المنهجية. فبرزت إلى الوجود حقول معرفية جديدة في علم التاريخ، من قبيل التاريخ الاقتصادي والاجتماعي؛ وهي موضوعات كانت مهملة سابقًا من الوضعيين الذين ركّزوا على التاريخ السياسي الحدثي، ومنحوه أولوية مطلقة، وقدّسوا الوثيقة المكتوبة، وبموجب هذه التغييرات لم يعد أحد - على حد تعبير بيير شوني Pierre Chaunu - "ينازع حق بل واجب المؤرخ في أن يدرس كل شيء، ويستغل مناهج كل العلوم، الإنسانية بالطبع وكذلك الدقيقة والإعلامية والبيولوجية"[10].

لم يبقَ المغرب بمنأى عن تأثير الطفرات النوعية التي شهدتها المعرفة التاريخية؛ فابتداء من منتصف سبعينيات القرن العشرين، شهد التأليف التاريخي الأكاديمي تطوّرًا نوعيًا، وظهر جيل جديد من المؤرخين المغاربة الذين نفخوا روحًا جديدةً في الدراسات التاريخية التي اتخذت أبعادًا منهجية ومعرفية جديدة، مستفيدين من اطلاعهم على التطورات التي شهدتها مناهج التاريخ الغربي ومفاهيمه، واعتمادهم على مقاربات آمنت برهان التجديد المعرفي والمنهجي. ودشّنت حقلًا تاريخيًا جديدًا لامس إشكالات بحثية متصلة بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي والديني، من مدخل دراسة المجتمع المغربي بصفته بنية متكاملة، متلاقحة مع العلوم الاجتماعية، على شكل دراسات وأبحاث مونوغرافية تتقاطع فيها حقول معرفية متعددة.

---

6 Abdallah Laroui, *Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain* (1830-1912) (Paris: Maspero, 1977), p. 15.

7 الطاهري، ص 109.

8 يقول جرمان عياش في هذا الصدد: "كان قصدنا نفض الغبار عن حرب الريف نفسها عن طريق عرض جديد ومطابق أكثر لما كانت عليه حقًا هذه الحرب [...] لكن، على الرغم من أن المادة التاريخية للعرض المذكور أصبحت جاهزة لدينا، فإننا ارتأينا أن نُرجئ الخوض فيه في هذا الكتاب [...] وأن نرجع إلى التاريخ القريب والبعيد للمغرب ولأبنائه الريفيين لإعادة النظر في الوقائع بشكل واضح وبطريقة منهجية". ينظر: جرمان عياش، **أصول حرب الريف**، ترجمة محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التمسماني خلوق (الرباط: الشركة المغربية المتحدة، 1981)، ص 17.
إذا كان القارئ يتفهم مشروعية التنقيب عن الأسس والعودة إلى الأصول، أي إلى ما قبل الاستعمار، فإن هذه العملية تتم على حساب معرفة العهد الاستعماري، لكون هذه الحقبة تتضمن أشكال الانقطاع، بقدر ما تتضمن جوانب الاستمرار. ينظر: عبد الأحد السبتي، "التاريخ الاجتماعي ومسألة المنهج: ملاحظات أولية"، في: **البحث في تاريخ المغرب: حصيلة وتقويم**، ص 45.

9 عبد الأحد السبتي، "وظيفة المؤرخ ترسيخ الوعي بالزمن"، **الاتحاد الاشتراكي**، 2009/12/11.

10 عبد الله العروي، **مفهوم التاريخ**، ط 4 (بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2005)، ص 193.



أفرزت تجربة الكتابة المونوغرافية أعمالًا راكمت معرفة تاريخية، اتّسمت بالوفرة والتنوّع، مهّدت لتوجه إستوغرافي جديد في كتابة تاريخ المغرب، وفتحت آفاقًا واعدة لجيل جديد من الباحثين الذين اعتمدوا أدوات منهجية جديدة، وأحدثوا تجديدًا في الموضوعات والقضايا. بيد أن جهود هؤلاء الباحثين تركزت على القرن التاسع عشر، ولم يحصل اهتمامٌ كافٍ بتاريخ الحقبة الاستعمارية التي لم تحظَ سوى بعدد محدود من الدراسات والأبحاث[11].

تبقى الدراسات التاريخية ذات النفس الاجتماعي التي قاربت موضوعات الصحة والطب الاستعماريين في تاريخ المغرب المعاصر، على الرغم من أهميتها القصوى، قليلةً وتُعدّ على رؤوس الأصابع. ويُعدّ محمد الأمين البزاز من المؤرخين المغاربة المؤسسين لورش التاريخ الاجتماعي، والسبّاقين إلى مقاربة جانب من جوانبه المهمة، ولا سيما تلك المتصلة بتاريخ الأوبئة الذي يتّسم بتعدد تقاطعاته العلمية وتشعّب امتداداته. فعلاوة على أطروحته التي تناول فيها تاريخ الأوبئة والمجاعات في المغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كان قد أنجز أيضًا رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في موضوع المجلس الصحي الدولي في المغرب بين عامي 1792 و1929[12]. وتأتي أطروحة بوجمعة رويان، عن الطب الكولونيالي في المغرب[13]، في صدارة الدراسات التي أُنجزت عن تاريخ الصحة في هذه المرحلة المفصلية من تاريخ المغرب، وحاولت قراءة السياسة الاستعمارية في المجال الصحي، ومساءلة حصيلتها، ومدى نجاح الطب الاستعماري تجربةً وممارسةً في تجفيف منابع بعض الأمراض والأوبئة. وأسهمت من ثمّ في الدفع بكتابة موثّقة ورصينة لتاريخ الحقبة الاستعمارية في المغرب من الناحية الاجتماعية. وفي السياق نفسه، يُدرج كتاب أحمد المكاوي **الدور الاختراقي والاستعماري للطبابة الأوروبية في المغرب**[14].

أثارت قضايا التعليم في زمن الحماية الفرنسية اهتمام عدد من الباحثين المغاربة الذين أنجزوا أعمالًا جامعية، لا يزال مجملها مرقونًا وحبيسَ رفوف خزانات الكليات، انصبّت على رصد أسس النظام التعليمي الذي أرست مبادئه سلطات الحماية الفرنسية، وتفكيك أبعاده، وإبراز مواقف النخبة المغربية وردات فعلها. فقد تناول حسن كمال قضايا البحث والتعليم في المغرب في عهد الحماية[15]، وعالجت رشيدة برادة مسألة التعليم في ضوء التدخلات الأجنبية وردات الفعل الوطنية[16]. ورصد محمد اليزيدي في أطروحته السياسة التعليمية التي تبنّاها نظام الحماية الفرنسية في مدينة فاس[17].

لم يحصل تراكم حقيقي في مقاربة التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي أحدثتها الهزّة الاستعمارية، باستثناء بعض الأعمال الجامعية المونوغرافية، المحدودة في الزمان والمكان، التي اهتمت بالبنى الاجتماعية والاقتصادية، من خلال رصد

11 محمد حبيدة، **بؤس التاريخ: مراجعات ومقاربات** (الرباط: دار الأمان، 2015)، ص 57.

12 محمد الأمين البزاز، **المجلس الصحي الدولي في المغرب: 1792-1929** (الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2000).

13 بوجمعة رويان، **الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945** (الرباط: مطابع الرباط نت، 2013).

14 أبرز فيه الأهمية البالغة التي أولتها الإدارة الاستعمارية للمجال الصحي باعتباره من أبرز الوسائل التي وظّفتها لاختراق المغرب، تمهيدًا للسيطرة عليه. كما أشار الباحث إلى ما سمّاه "ثقة المغاربة شبه مطلقة" بالخدمات الصحية الاستعمارية، مبرزًا مزاياها والمخاطر التي كانت تكتسيها. ينظر: أحمد المكاوي، **الدور الاختراقي والاستعماري للطبابة الأوروبية في المغرب** (الدار البيضاء: منشورات الزمن، 2009).

15 حسن كمال، "البحث والتعليم بالمغرب خلال فترة الحماية 'مقاربة تاريخية'"، أطروحة أعدت لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2001-2002. (غير منشورة).

16 رشيدة برادة، "التعليم في ضوء التدخلات الأجنبية وردود الفعل الوطنية 1860-1957"، أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، 2004-2005. (غير منشورة).

17 محمد اليزيدي، "التعليم بالمغرب على عهد الحماية مدينة فاس نموذجًا 1912-1956"، أطروحة أعدت لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 2002-2003. (غير منشورة).



الاستغلال الاستعماري وتداعياته، حيث عرض بوجمعة رويان في رسالته الجامعية أوجه الاستغلال الاستعماري للمغرب خلال الهدنة الفرنسية - الألمانية[18]، واشتغل إبراهيم ياسين بدراسة آثار التغلغل الفرنسي في جنوب الأطلس الكبير[19].

إذا كانت الكتابات التاريخية المنفتحة على التاريخ الاجتماعي قد مثّلت شكلًا من أشكال الرغبة في تجديد الكتابة التاريخية المغربية وتطوير أدواتها، عبر الانفتاح على مختلف التخصصات والحقول المعرفية، والنهل منها، فإن ما بقي غائبًا عن هذه الدينامية هو التاريخ الاقتصادي الذي يُعدّ من الأوراش البحثية المعتمة التي لم يسبر غورها بعمق في الإنتاج التاريخي الجامعي المتصل بالفترة المعاصرة. فقد اقتصرت معظم الدراسات، التي اتخذت من الحقبة الاستعمارية في المغرب موضوعًا لها، على المقاومة والحركة الوطنية وشخوصها وتنظيماتها، وبقي التاريخ الاقتصادي للبلاد طوال الفترة الاستعمارية وبعدها محدودًا، إن لم نقل مغيّبًا، في اهتمامات المؤرخين المغاربة، "مع أن الاقتصاد تحكم بشكل كبير فيما عرفته البلاد من أحداث وتحوّلات. وترك تناول هذا الواقع لباحثين أجانب ومغاربة من خارج حقل التاريخ"[20]، وحتى تلك الكتابات التاريخية التي اهتمت بالبنى الاقتصادية، فقد انصبّت على دراسة الاستغلال الاستعماري وانعكاساته، وقلّما عنيت بالجوانب المرتبطة ببنية نظام الحماية ومؤسساته المالية والإدارية.

في هذا الإطار، تكتسي الأطروحة الموسومة بـ "جوانب من المسألة المالية في المغرب على عهد الحماية: الميزانيات 1912-1925"، للمصطفى برنوسي[21]، أهمية بالغة؛ لكونها عالجت موضوعًا لم ينل حظه من البحث والاستقصاء من المؤرخين والباحثين المغاربة، يهم التاريخ الاقتصادي للمغرب إبان الفترة الاستعمارية، وبصفة أدق النظام المالي المغربي والتحوّلات التي طرأت على أساليب تدبيره، وما يرتبط به من نمط التمويل ومصادره. وهي موضوعات لم تُسبَر أغوارها ولا تزال معرفتنا بها محدودة[22].

لم يشمل التراكم أيضًا الدراسات والأبحاث التاريخية حول النظام السياسي والبنى والأجهزة الإدارية ذات الصلة بآليات اشتغال نظام الحماية من الوجهة السياسية، وهي دراسات مهمة، تُمكّن من فهم ملابسات مرحلة الاستقلال[23]. ومن أهم الأعمال الجامعية التي أنجزت حول الأجهزة الإدارية المركزية لنظام الحماية الفرنسية في المغرب، نجد أطروحة عبد الحميد احساين التي ناقشها في

18 بوجمعة رويان، **من تاريخ المستعمرات الفرنسية في الحرب العالمية الثانية: الاستغلال الاستعماري للمغرب خلال الهدنة الفرنسية الألمانية، يونيو 1940 - نونبر 1942** (الرباط: منشورات مركز ابن خلدون للدراسات والأبحاث والترجمة والتحقيق، 2022).

19 إبراهيم ياسين، "آثار التغلغل الفرنسي جنوب الأطلس الكبير، نموذج قبائل أيت ووازكيت 1912-1939"، أطروحة أعدت لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1999-2000. (غير منشورة).

20 الطيب بياض، "كتابة التاريخ الاقتصادي لمغرب القرن العشرين"، في: **ممارسة العلوم الاجتماعية في البلدان المغاربية: نصوص مهداة إلى إدريس المنصوري**، تقديم وتحرير فرانسوا بويون ومحمد المبكر (الدار البيضاء/ فاس: كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز ومنشورات مؤسسة آل سعود، 2014).

21 المصطفى برنوسي، "جوانب من المسألة المالية في المغرب على عهد الحماية، الميزانيات 1912-1925"، أطروحة أعدت لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2004-2005. (غير منشورة).

22 وتُدرج في السياق نفسه أعمال كل من: حسن بن الجيلالي، "انعكاسات أزمة 1929 على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب، المنطقة الفرنسية"، أطروحة أعدت لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس الرباط، 1989. (غير منشورة)؛ محمد تالوزت، "التجارة والتجار بمدينة فاس خلال فترة الحماية"، أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 2001. (غير منشورة)

23 حبيدة، **بؤس التاريخ**، ص 57.
يُعزى تركيز البحث التاريخي الجامعي في مقاربته لحقبة الحماية على الجانب الوطني، واهتمامه بقضايا الحركة الوطنية والمقاومة المسلحة وجيش التحرير - بحسب عبد الأحد السبتي - إلى كون المؤرخين المغاربة يعتبرون مرحلة الحماية مجرد قوس في التاريخ المغربي، فتح وأُغلق بسرعة، أو فاصلة على حد تعبير العروي "أقامتها الحرب العالمية الأولى وألغتها الثانية"، لم تحل دون الاستمرارية التاريخية للدولة المغربية، وهي مسألة تبعث على نوع من القصور المنهجي والمعرفي في تناول هذه المرحلة. وذلك لكون هذه الأخيرة تعد مرحلة تأسيسية، أسهمت في زعزعة البنى التقليدية، وأحدثت تأثيرات قوية في جميع المجالات، ورسمت ملامح ازدواجية الدولة في مغرب القرن العشرين، من خلال ثنائية التقليد والتحديث، حيث أرست أسس دولة حديثة تدبر شؤونها عبر مؤسسات عصرية تخضع لمنظومة قانونية وضعية حديثة من جهة، وحافظت من جهة أخرى على نوع من الاستمرارية إزاء تقاليد الماضي، عبر مراعاة المخزن التقليدي بما يتضمنه من سلطان ومؤسسات دينية، وما يتمحور حوله من تقاليد وطقوس سياسية ورمزية، ومن المفيد أن ينصب اهتمام البحث التاريخي على "دولة الحماية"، وتتبع هذه الازدواجية زمن الحماية وبعد الاستقلال. ينظر: عبد الأحد السبتي، "المؤرخون المغاربة يترددون أمام الخوض في التاريخ القريب، ولا يساهمون في النقاش العمومي"، **الأحداث المغربية**، 2016/10/19.



عام 2005، ونشرها في عام 2015[24]، والتي أسهمت في تعميق معرفتنا التاريخية ببنية نظام الحماية على الصعيد المركزي، باعتبارها الأداة المكلّفة بتنفيذ سياسات المقيمين العامين والمبادئ والأسس التي ارتكزت عليها هذه الإدارة والتحوّلات التي عرفتها مؤسساتها، والتي مكّنتها من البروز بصفتها قوة لها وزن كبير في توجيه الأحداث، وانعكاسات ذلك على الدولة والمجتمع المغربيين[25]. أما في خصوص البنى الإدارية المحلية في زمن الحماية الفرنسية، فقد أنجز عبد الإله الفاسي عملًا عن بلدية الرباط في الحقبة نفسها[26]. وكانت البنى المحلية في عهد الحماية في مدينتي صفرو وفاس أيضًا موضوع أعمال محمد يخلف[27].

أُنجزت في الجامعة المغربية دراسات قيمة عن الأقلية اليهودية في المغرب، اتخذت من القرن العشرين إطارًا زمنيًا لها، ورصدت تطور الجماعات اليهودية وتفاعلها مع المستجدات والطوارئ، خصوصًا الإكراهات الإمبريالية والإغراءات الصهيونية[28]. وتوجد في صدارتها أعمال محمد كنبيب عن يهود المغرب إبان الفترة المعاصرة[29]، التي تناول فيها تطور العلاقات بين المسلمين واليهود في المغرب إبان الفترة الممتدة بين عام 1912 وحدود نشوب الحرب الإسرائيلية - العربية الأولى في عام 1948، وتحليل العوامل التي أثّرت في تأرجح هذه العلاقات والهزّات العنيفة التي تعرّضت لها الجماعات اليهودية، على امتداد القرن العشرين، وتفاعلها معها. وشكّل تاريخ الأقلية اليهودية أيضًا موضوع دراسات وأبحاث كل من عمر بوم[30] ومحمد حاتمي[31] ومحمد براص[32].

في موازاة التحوّلات المنهجية والنظرية التي طرأت على الكتابة التاريخية المغربية، انفتح العديد من المؤرخين المغاربة، في بداية تسعينيات القرن العشرين، على وثائق جديدة، وشرعوا في استنطاق مظان ظلت مغيّبة، وكان ينظر إليها بالكثير من التوجس؛ فعمد بعضهم إلى التفاعل مع التراكم المهم الذي عرفه المشهد الصحافي المغربي إبان الحماية، والنهل من الكتابات الصحافية واستثمار ما تُتيحه من مادة وثائقية ومرجعية مهمة، بحكم متابعتها الدقيقة والمستمرة لمختلف الأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية، والاستعانة بها في مقاربة الكثير من قضايا المغرب المعاصر[33]. ويُعدّ جامع بيضا من المؤرخين المغاربة الذين ارتبط اسمهم بالانفتاح على الصحافة، سواء في أطروحته التي رصد فيها تطور الصحافة المغربية الناطقة بالفرنسية في زمن الحماية

---

24 عبد الحميد احساين، **الإدارة المركزية في عهد الحماية الفرنسية 1912-1940** (الرباط: منشورات أمل، 2015).

25 عبد العزيز الطاهري، "إدارة الحماية المركزية في المغرب"، **رباط الكتب** (الإلكترونية)، 22 كانون الثاني/ يناير 2018، شوهد في 2021/9/13، في:
https://bit.ly/48vOFyu

26 عبد الإله الفاسي، **بلدية الرباط في عهد الحماية 1911-1939 ودورها الاقتصادي والعمراني والاجتماعي في حياة العاصمة** (الرباط: منشورات جمعية رباط الفتح للتنمية المستديمة، 2016). أصل هذا الكتاب أطروحة أعدت لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ المعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2002.

27 محمد يخلف، "تطور أدوات السياسة المحلية بمدينة صفرو من نهاية القرن 19 إلى غاية سنة 1956"، أطروحة أعدت لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1986. (غير منشورة)
على غرار مؤسسات الحماية الفرنسية في المغرب التي حظيت بأبحاث مهمة على نحو ما سطّرناه في الفقرات السابقة، اغتنى ميدان الدراسات التاريخية حول الوضع الإداري لمنطقة طنجة الدولية بدوره بأعمال كل من عبد العزيز خلوق التمسماني ومحمد الأمين البزاز، اللذين أرّخا لفترة العهد الدولي الذي فرض على المدينة وأفردا لها جزءًا من كتاباتهما.

28 محمد حاتمي، "الجماعات المغربية اليهودية خلال مرحلة الحماية"، في: **المغرب والزمن الراهن**، إشراف وتقديم محمد القبلي، تنسيق عبد الرحمن المودن (الرباط: منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، 2013)، ص 34.

29 محمد كنبيب، **يهود المغرب 1912-1948**، ترجمة إدريس بنسعيد (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1998).

30 عمر بوم، **يهود المغرب وحديث الذاكرة**، ترجمة خالد بن الصغير (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2015).

31 محمد حاتمي، "الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل: 1947-1961"، أطروحة أعدت لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس سايس، 2007. (غير منشورة).

32 محمد براص، "الأحزاب الوطنية واليهود المغاربة بين تطور الأوضاع الداخلية وأصداء القضية الفلسطينية 1934-1967"، أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2004. (غير منشورة)

33 الطيب بياض، "الصحافة والتاريخ في المغرب: مسار تفاعل"، **المناهل**، العدد 99 (حزيران/ يونيو 2020)، ص 247.



الفرنسية[34]، أم في أبحاثه المنوعة التي انصبّت على استثمار المادة الصحافية وتوظيفها لمقاربة مجموعة من قضايا المغرب المعاصر. وأسهم الطيب بوتبقالت بدوره في التأريخ للصحافة في المغرب في زمن الحماية[35]. وسار نجيب تقي في المنحى نفسه حينما اشتغل في أطروحته بـ "مجموعة ماص الإعلامية" التي تُعدّ واحدةً من كُبريات المؤسسات السياسية والاقتصادية والمالية في زمن الحماية، وأقواها نفوذًا[36].

يعسر تتبع تجربة جميع المؤرخين المغاربة الذين تناولوا تاريخ المغرب في زمن الحماية، وجرد كل ما أُنجز في حقل الدراسات التاريخية المغربية من أعمال وأطروحات تناولت التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لهذه الحقبة. بيد أن المعاينة الإستوغرافية، لمجمل الإنتاج التاريخي الأكاديمي، تُبرِز بجلاء أن الدراسات التي أُنجزت ابتداء من ثمانينيات القرن العشرين، في سياق ما عرف بـ "الطفرة المونوغرافية"، حول هذه الحقبة، محدودة ومعدودة على رؤوس الأصابع. وعلى الرغم من التراكم النسبي الذي حققته حول هذه المرحلة الانتقالية من تاريخ المغرب المعاصر، فإن كثيرًا من القضايا بقيت في حاجة إلى مزيد من البحث والدراسة[37]. هذا علاوة على كون هذه القضايا تتسم بغلبة المقاربات ذات الطبيعة المونوغرافية التي انصبّت على رصد الاستغلال الاستعماري وتداعياته الاجتماعية والاقتصادية في مجالات محددة، واقتصرت على مقاربات موضوعاتية جزئية محصورة في الزمان والمكان، لا تسمح بطرح تفسيرات معمّقة على مستوى الزمن المتوسط والطويل[38].

على الرغم من أهمية البحث التاريخي المونوغرافي منطلقًا للكتابة عن تاريخ هذه المرحلة على نحو شامل؛ إذ من دونه لا يستقيم، على حد تعبير العروي، "لا منطقيًا ولا عمليًا، مشروع التاريخ الشمولي"[39]، لما تتّسم به الدراسات المونوغرافية المُنجزة من دقة وتركيز، وما تحفل به من معطيات ومعلومات، فإن البحث التاريخي المتعلق بالمغرب في الحقبة المعاصرة يفتقر إلى روح التركيب الذي يبقى طموحًا مؤجّلًا[40]، في ظل عجز المؤرخين عن الانتقال من الأعمال المونوغرافية إلى دراسات شاملة ذات صبغة تركيبية وتأريخية.

---

34 Jamaa Baida, *La presse Marocaine d'expression française des origines à 1956* (Rabat: Publication de la Faculté des lettres et des Sciences Humaines, 1996).

35 Tayeb Boutbouqalt, *les Agences mondiales d'information Havas 1889-1940* (Rabat: El Maarif Al Jadida, 1994); Tayeb Boutbouqalt, *La politique d'information du protectorat français au Maroc 1912-1956* (Casablanca: Edition maghrébines, 1996);

استعان أيضًا بأرشيفات الصحف الأجنبية في كتاباته التي همت حركة الريف التحررية بزعامة محمد بن عبد الكريم الخطابي. ينظر: الطيب بوتبقالت، **عبد الكريم الخطابي: حرب الريف والرأي العالمي**، سلسلة شراع، العدد 14 (طنجة: وكالة شراع لخدمات الإعلام، 1997).

36 نجيب تقي، "مجموعة ماص الإعلامية بالمغرب في فترة الحماية"، أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2000. (غير منشورة).

37 نظمت كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، في عام 1998، ندوة دولية انصبّت أشغالها على نظام الحماية، بعدما تبيّن أن حصة هذه الحقبة في البحث التاريخي المغربي لا تزال محدودة جدًا، مقارنة بالأهمية التي تمثّلها. ومن ثم جاءت الدعوة إلى الانكباب على الدراسة التاريخية للفترة الاستعمارية، ومقاربتها وفق رؤية موضوعية. ونشرت أعمالها في عدد خاص من مجلة **هيسبريس-تمودا**، العدد 39، ج 1 (2001).

38 في هذا الإطار، اقترح دنييل ريفي التأريخ لحقبة الحماية في المغرب وفق منهج ثلاثي الأزمنة، يأخذ في الحسبان الزمن القصير الذي يتيح رصد الأحداث المباشرة التي تحكّمت في تطور مسار نظام الحماية، والزمن المتوسط أو البطيء الذي يُمكّن من إدراك هذه الحقبة وفهمها وفق وتيرة بطيئة تسمح بتتبع التقلبات الاقتصادية والواقع الاجتماعي من أوبئة وتغيرات ديموغرافية ومعيش يومي للسكان المحليين وتفاعلهم مع سلطات الحماية والمعمرين، وأخيرًا المدة الطويلة التي تفسح المجال لمقاربة هذه الحقبة في إطار أكثر شمولية تأخذ في الحسبان ما قبل الحماية وما بعدها. ينظر:
Daniel Rivet, "Archives coloniales et écriture de l'histoire du protectorat," in: *Recherches sur l'histoire du Maroc: Esquisse de bilan*, Série Colloque et Séminaires, no. 14 (Rabat: Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, 1989), pp. 30-31.

39 العروي، **مفهوم التاريخ**، ص 190.

40 حبيدة، **بؤس التاريخ**، ص 40.



3. كتابة تاريخ العمل الوطني والحاجة إلى مقاربة علمية موضوعية

انشغل عدد من الباحثين المغاربة بالبحث في موضوع المقاومة المسلحة، وأسهموا في كتابة بعضٍ من محطات هذه المرحلة المهمة، نذكر من هؤلاء الباحثين علال الخديمي[41] وعلال ركوك[42] والملكي المالكي[43] وأعمال عيسى العربي[44]. كما تُدرج في هذا الجهد أيضًا الأبحاث التي أنجزها كل من سمير بوزويتة[45] ومحمد بوكبوط[46]. وفي السياق نفسه، اهتم باحثون آخرون بموضوعات تهم الكفاح المسلح وقضايا جيش التحرير، وأفردوا لها حيّزًا مهمًا من أبحاثهم[47]، أسهمت إلى حدٍ كبير في "الكشف عن خبايا عمل الكثير من التنظيمات المسلحة خلال هذه المرحلة بشكل يتجاوز أسلوب التشخيص المتمركز حول الذوات إلى الانفتاح على التجارب الجماعية كما هو الحال مع تجارب المنظمة السرية أو منظمة الهلال الأسود أو منظمة اليد السوداء"[48].

من جهة أخرى، استأثرت شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي ومقاومته للاستعمار الإسباني باهتمام ثلة من المؤرخين والباحثين المغاربة والأجانب، وكانت موضوع دراسات وأبحاث عديدة، تفاوتت في قيمتها، وشكل بعضها إضافة متميزة، لكونها حاولت تخليص زعيم حرب الريف من التصورات الأسطورية، وإدراجه ضمن الواقع التاريخي، لعل أبرزها الجزء الثاني من أطروحة جرمان عياش المعنونة "حرب الريف"، الذي نشرته ابنته إيفلين مريم عياش في عام 1996[49]، وأطروحة لحسن أغزادي عن عبد الكريم الخطابي وحرب الريف[50]، وأعمال الطيب بوتبقالت[51] ومحمد خرشيش[52].

---

41 علال الخديمي، **التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب، 1894-1910: حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية** (الرباط: إفريقيا الشرق، 1991).

42 تناول في كتاباته تفاعل المخيال الشعبي المغربي مع أحداث ووقائع المقاومة والكفاح من أجل الاستقلال، عبر استثمار مختلف الأجناس الأدبية من نصوص زجلية وشعرية وأغانٍ شعبية في كتابة تاريخ المقاومة المغربية. ينظر: علال ركوك، **المقاومة المغربية من خلال التراث الشعبي** (الرباط: منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2004)؛ علال ركوك، **المقاومة وأحداث من التاريخ الاجتماعي في الأدب الشفوي المغربي (1830/ 1956)** (الرباط: منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2001).

43 المالكي الملكي، **ثورة القبائل ضد الاحتلال** (الرباط: منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2014).

44 عيسى العربي، **مقاومة سكان أزيلال للاحتلال الفرنسي في مرحلة غزو المغرب ما بين سنوات 1912-1933** (الرباط: منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2010).

45 سمير بوزويتة، **الاحتلال العسكري الفرنسي للمغرب: دراسة في الاستراتيجية العسكرية 1912-1934** (الرباط: منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2007).

46 محمد بوكبوط، **مقاومة الهوامش الصحراوية للاستعمار (1880-1938) صفحات مجهولة من صمود قبائل التخوم الشرقية من تافيلالت إلى واد نول** (الرباط: دار أبي رقراق للنشر، 2005).

47 مبارك زكي، **محمد الخامس وابن عبد الكريم وإشكالية استقلال المغرب** (الرباط: منشورات فيديبرانت، 2003)؛ محمد وحيد، **الهلال الأسود 1953-1956 التأسيس والتأصيل: محاولة لإثراء تاريخ المقاومة الوطنية المغربية** (الدار البيضاء: سوماكرام، 2013)؛
Mohammed Zade, *Résistance et armée de libération au Maroc (1947-1956): De l'action politique à la lutte armée: Rupture ou continuité?* (Rabat: Publication Haut-commissariat aux anciens résistants et anciens membres de l'armée de libération, 2006).

48 أسامة الزكاري، "مذكرات الزمن الراهن بين حدود الذاكرة وسقف التاريخ"، **المناهل**، العدد 99 (حزيران/ يونيو 2020)، ص 275.

49 Germain Ayache, *La guerre du rif* (Paris: L'Harmattan, 1996).

50 لحسن أغزادي، "عبد الكريم الخطابي وحرب الريف 1921-1927"، أطروحة أعدت لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 1988-1989. (غير منشورة)

51 بوتبقالت؛
Tayeb Boutbouqalt, *La guerre du Rif et la réaction de l'opinion internationale 1921-1926* (Rabat: Imprimerie Najah El Jadida, 1992).

52 Mohammed Kharchich, *La France et la guerre du rif 1921 - 1926* (Tétouan: Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Université Abdelmalek Essaadi, 2013);

محمد خرشيش، **المقاومة الريفية**، سلسلة شراع، العدد 22 (طنجة: وكالة شراع لخدمات الإعلام، 1997).
من الأعمال التي أسهمت مؤخرًا في إغناء البحث التاريخي المتصل بحركة محمد بن عبد الكريم الخطابي، كتاب محمد أونيا **عبد الكريم وأسطورة الانفصال: حفريات نقدية في خطاب الجمهورية الريفية** الذي رام من خلافه المؤلف إعادة قراءة تجربة محمد بن عبد الكريم الخطابي ومبادراته السياسية والكيان السياسي الذي أسسه، والذي لم يكن، بحسب الباحث، سوى حكومة محلية بأبعاد وطنية. وقدم رواية جديدة مغايرة لما سمي خطاب "جمهورية الريف" التي زعم أنها مجرد فكرة لا تستند إلى أدلة تاريخية وحجج موثوقة. ينظر: محمد أونيا، **عبد الكريم وأسطورة الانفصال: حفريات نقدية في خطاب الجمهورية الريفية 1921-1926** (تطوان: مطبعة الخليج العربي، 2018).



حظيت التجربة الاستعمارية الإسبانية في شمال المغرب باهتمام متزايد في السنوات الأخيرة من الباحثين المغاربة الذين أغنوا حقل الدراسات التاريخية المتصلة بالاستعمار الإسباني لمنطقة شمال المغرب والريف تحديدًا بمجموعة من الأعمال الأكاديمية، حيث اشتغل ميمون أزيزا بموضوع **الريف زمن الحماية الإسبانية: 1912-1956 الاستعمار الهامشي**[53]، وانصبّت الأطروحة التي أنجزها رشيد يشوتي في عام 2001 على موضوع الريف الشرقي بين الدينامية الاقتصادية والتدخل العسكري الإسباني (1893-1921). وشكلت مشاركة المُجنّدين المغاربة في الحرب الأهلية الإسبانية موضوعًا اشتغل به كل من بوبكر بوهادي في أطروحته، في عام 2002[54]، ومصطفى المرون[55].

أما في خصوص كتابة تاريخ العمل الوطني في بُعده السلمي، فقد أفضى عزوف المؤرخين المغاربة عن مقاربة قضايا الحركة الوطنية إلى تأخر حصول التراكم المعرفي الأكاديمي المتصل بهذه الفترة المهمة من تاريخ المغرب[56]، التي باتت مجالًا تطاول عليه الفاعلون السياسيون والتاريخيون الذين قدّموا رواياتهم لمختلف الأحداث والوقائع، من زاوية انفعالية طغى عليها الانتماء الحزبي والتوظيف السياسي، ونجحوا في تسييد وجهات نظر غالبًا ما تعوزها الحيادية في سرد الأحداث، فجاءت كتابات كثير منهم مثقلة بالأمجاد والملاحم.

من المؤرخين المغاربة الأوائل الذين اقتحموا هذا الموضوع وبادروا إلى الكتابة عن القضايا المرتبطة به، نذكر محمد زنيبر[57] وعبد المجيد بنجلون الذي أنجز أطروحته حول الحركة الوطنية في منطقة الشمال في المغرب، وعثمان بناني[58] ومحمد بن عزوز حكيم الذي خصص جزءًا مهمًا من أبحاثه لدراسة تاريخ العمل الوطني في المنطقة الشمالية[59].

وإذا كانت هذه الدراسات التاريخية المعدودة التي تناولت الموضوع حينئذ قد نأت عن أسلوب التمجيد الذي طغى على كتابات الفاعلين، فإن مقاربتها في المقابل، بقيت، في تقديرنا، حبيسة اتجاه المنافح عن الرؤية الوطنية للتاريخ الذي وسم البدايات الأولى

53 ميمون أزيزا، **الريف زمن الحماية الإسبانية: 1912-1956 الاستعمار الهامشي**، ترجمة محمد حاتمي وجمال حيمر (الدار البيضاء: دار النشر ملتقى الطرق، 2021). هذا العمل هو في الأصل أطروحة أُعدّت، باللغة الفرنسية، في عام 1994، لنيل درجة الدكتوراه، بجامعة السوربون. وترجمت إلى الإسبانية في عام 2003.

54 بوبكر بوهادي، **المغرب والحرب الأهلية الإسبانية 1936-1939** (تطوان: منشورات باب الحكمة، 2020).

55 مصطفى المرون، **فرق الجيش المغربي في الحرب الأهلية الإسبانية: مساهمة في إرجاع الملكية إلى إسبانيا 1936-1939** (الرباط: دار القلم للطباعة والنشر، 2021). حظيت المشاركة المغربية في الحربين العالميتين الأولى والثانية بدراسات جامعية محدودة، لعل أبرزها:

Mohamed Bekraoui, *Les Marocains dans la Grande Guerre, 1914 - 1919* (Casablanca: Publications de la Commission marocaine d'histoire militaire, 2009);

الحسين بوشامة، "مساهمة الجنود المغاربة في الدفاع عن التراب الفرنسي خلال المرحلة الأولى من الحرب العالمية الثانية، شتنبر 1939- يونيو 1940"، أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، 2006-2007. (غير منشورة).

56 كان الحقل التاريخي المرتبط بالحركة الوطنية قد اغتنى بأطروحة كل من العروي حول الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية، والأطروحة التي أنجزها جرمان عياش حول أصول حرب الريف؛ ذلك "أن الدراستين معًا تعتبران إسهامًا جديًا في تطوير معرفتنا بالجذور الأولى للحركة الوطنية والأسس التي قامت عليها في جوانب هامة منها". ينظر: سعيد بنسعيد العلوي، "الحركة الوطنية وتصور المدرسة الوطنية في المغرب"، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس**، العدد 1 (1986)، ص 11.

57 محمد زنيبر، **صفحات من الوطنية المغربية من الثورة الريفية إلى الحركة الوطنية** (الرباط: دار النشر المغربية، 1990).

58 أنجز عثمان بناني في عام 1981 أطروحة موضوعها الاستعمار الإسباني والمقاومة الوطنية في شمال المغرب 1912-1926 في جامعة القاهرة، تحت إشراف شوقي عطا الله الجمل، وبقي هذا العمل الأكاديمي حبيس الرفوف، إلى أن قامت الجمعية المغربية للبحث التاريخي بنشره بعد وفاته في عام 2016. وجاء في تقديم عثمان المنصوري: "إنه عمل متميز، سواء نظرنا إليه في سياقه التاريخي أو الحالي. ففي سنة 1981 لم يتعرض لموضوع المقاومة في الشمال للاستعمار الإسباني ولثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي إلّا قلة قليلة من الكتابات المغربية، ومعظمها لم تكن دراسات أكاديمية رصينة". ينظر: عثمان بناني، **محمد بن عبد الكريم الخطابي ومقاومة الاستعمار الإسباني** (الرباط: منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، 2019)؛ عثمان بناني، **بين الفعل السياسي والبحث التاريخي**، تنسيق عبد الرحمن المودن (الرباط: دار أبي رقراق للنشر، 2017). وقد ضم هذا الكتاب الذي صدر بعد وفاة المؤلف مجموع مقالاته المنشورة وغير المنشورة، ولا سيما تلك التي تناولت موضوعات تتصل بحرب الريف والحركة الوطنية المغربية.

59 محمد بن عزوز حكيم، **أب الحركة الوطنية الحاج عبد السلام بنونة: حياته ونضاله** (الرباط: مطبعة الساحل، 1987)؛ محمد بن عزوز حكيم، **وثائق الحركة الوطنية في شمال المغرب** (تطوان: مؤسسة عبد الخالق الطريس للثقافة والفكر، 1980).



للإستوغرافيا المغربية. وتأثرت إلى حدّ بعيد بمواقف رجالات الحركة الوطنية، واتّسمت بتداخل الرؤيتين الوطنية والعلمية الأكاديمية، وجاءت مشبعة بنزعة وطنية واضحة، وعلى الرغم من الجهد المبذول فيها، فإنها آثرت النزوع عن مناطق الظل وتجنّب القضايا المسكوت عنها.

في السنوات الأخيرة، باتت كتابة التاريخ منفصلة عن مطالب الدولة، ومرتبطة أكثر بمطلب البحث العلمي، أو بمطلب إعادة كتابة التاريخ الوطني[60]، ولم تعد وقائع الحقبة الاستعمارية وأحداثها تلقي بظلالها على الحاضر، وتغيّرت طريقة التعامل مع الماضي نسبيًا، وأُرخي العنان لاقتحام مختلف القضايا، وتبعًا لذلك، استأثر موضوع الحركة الوطنية المغربية باهتمام عدد من الباحثين الذين أسهموا في التأريخ لمسار الحركة الوطنية وروّادها، واتّسمت السنوات الأخيرة بتواتر صدور مجموعة من الكتابات المهمة التي تخص هذا الحقل التاريخي، يتعلق الأمر على سبيل المثال لا الحصر، بأعمال كل من محمد معروف الدفالي[61]، وأطروحة المصطفى بوعزيز[62]. وتناول العروي في حواره مع نفسه، في كتابه **استبانة**، أوضاع المغرب الاجتماعية والثقافية إبان الحقبة الاستعمارية، مثل التعليم في القرويين والمدارس الحرة، وظهير [أيار/ مايو] ماي 1930، وقام بمساءلة قضايا العمل الوطني وتفاعله مع حرب الريف[63]. واهتم عبد العزيز الطاهري بالدراسة التاريخية النقدية والمقارنة لمذكرات الفاعلين التاريخيين والسياسيين الذين أسهموا في صنع أحداث هذه المرحلة، وكتبوا عنها[64].

على الرغم من هذه الوفرة والتنوع، فإن التأريخ للمقاومة والحركة الوطنية يُعدّ من الموضوعات التي باتت تستوجب بذل جهد بحثي ومقاربة علمية تروم نزع طابع القداسة والتمجيد عن الفاعلين فيها، وتحريرها من القراءة الأحادية لأحداثها ووقائعها. وإذا كانت مقاربة هذه الظاهرة في إطار فكر تاريخي نقدي متجرد ومنفلت من الرؤية العاطفية، واللجوء إلى التجرد والموضوعية ليست بالمسألة الهينة، فإننا نملك اليوم مسافة زمنية كافية تسمح بقراءة هادئة وعلمية تبحث عن الحقائق في نسبيتها، وتتوسل الأدوات المنهجية المناسبة، القائمة على تفادي الاستنتاجات غير المبنية على أسس علمية، والعمل قدر الإمكان على تجاوز الطابع القدسي لهذه المرحلة، وتخليصها من براثن الحسابات الأيديولوجية والفئوية، ونبذ ما يلتصق بها من رؤية تمجيدية واحتفالية.

من جهة أخرى، يتّسم التأليف التاريخي المتعلق بالعمل الوطني بالتفتّت البحثي؛ إذ لم يؤلف إلى حدّ الآن عمل يعتمد في أسلوبه ومنهجه على المقاربة الشمولية والرؤية التجميعية، ويعطي صورة جامعة وشاملة عن مجموع المقاومات، ويعرض غالبية النماذج، ويستخلص الخلاصات المتعلقة بخصائصها ومسارها، ويتجاوز منطق التاريخ السردي والوصفي إلى مبدأ التركيب والإمساك بدينامية التطور العام لحركات المقاومة المغربية واستجلاء العوامل المتحكمة فيها، ورصد المنعطفات الحاسمة والمؤثرة في مسارها العام.

---

60 عبد الإله بلقزيز، "المنوني والعروي والكتابة التاريخية في المغرب المعاصر"، infobelkzizabdelillah.over-blog، شوهد في 2021/9/15، في https://bit.ly/41ERr26

61 محمد معروف الدفالي، "حزب الشورى والاستقلال ودوره في الحركة الوطنية 1946-1959"، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1988-1989. (غير منشورة)؛ محمد معروف الدفالي، **أصول الحركة الوطنية بين السلفية المجددة والسلفية الجديدة** (الرباط: منشورات أمل: تاريخ – ثقافة - مجتمع، 2014).

62 المصطفى بوعزيز، **الوطنيون المغاربة في القرن العشرين 1873-1999** (الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، 2019).

63 عبد الله العروي، **استبانة** (بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2016).
شهد ورش كتابة تاريخ العمل الوطني دينامية بحثية مهمة في العقدين الأخيرين، تمثّلت في صدور عدد مهم من الأعمال الجامعية ذات الطابع المونوغرافي، انصبّ اهتمامها على رصد مسارات العمل الوطني ورواده، وأسهمت في إماطة اللثام عن كثير من أحداثه ووقائعه من زوايا مختلفة. وإذا كانت هذه الدراسات قد أسهمت في تحقيق تراكم نسبي في هذا الحقل التاريخي، فإنه يصعب تقييم خلاصاتها ورصد عناصر التجديد فيها، ومدى استجابتها لشروط كتابة تاريخية أكاديمية، بالنظر إلى ضعف المتابعات النقدية التي من شأنها الإسهام في تقويم هذه الأعمال المنجزة ورصد مواطن الخلل فيها.

64 الطاهري، **الذاكرة والتاريخ**.



ثانيًا: الإستوغرافيا المغربية من التاريخ المعاصر إلى تاريخ الزمن الراهن

1. السياق العام لتجربة الانتقال إلى الزمن الراهن في المغرب

ارتبط ظهور التاريخ الراهن بالتحول الذي شهدته المعرفة التاريخية المعاصرة في أوروبا والعالم في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، والذي انتقل بمقتضاه هذا التوجه البحثي من حقل كان مطلوبًا منه إثبات انتمائه التام والكامل إلى مجال البحوث التاريخية، إلى قطاع إستوغرافي قائم بذاته، له طرائقه ومتخصصوه، تُعقد له المؤتمرات والملتقيات، ولم يعد جمّ من المؤرخين يشكك في شرعيته وعلميته، وبات يحتل مكانة مهمة في مجموع الإنتاج التاريخي الأكاديمي[65]. وعلى الرغم من هذا التطور الذي طرأ على الإستوغرافيا المعاصرة، فإن معظم المؤرخين المغاربة ظلوا متحفظين من اقتحام هذا الحقل الإشكالي والانخراط في كتابة تاريخ الزمن الراهن، وأبدى هؤلاء المؤرخون، تقريبًا، التحفظات نفسها التي أبداها نظراؤهم الأوروبيون خلال الربع الأخير من القرن العشرين، قبل أن يضطروا إلى تجديد مقارباتهم قصد استيعاب المتغيرات والتفاعل معها، بل أبدى العديد من المؤرخين المغاربة موقفًا واضحًا رافضًا لهذا الضرب من التأليف التاريخي "في سياق هيمنة مونوغرافيات القرن التاسع عشر على الكتابة التاريخية الأكاديمية، وهاجس الأرشيف التقليدي الذي خيّم عليها بشكل مبالغ فيه في كثير من الأحيان"[66]. ويُعدّ العروي من بين المؤرخين المغاربة القلائل الذين استوقفهم تاريخ الزمن الراهن، وكان له موقف واضح في رفض هذا النوع من الكتابة التاريخية التي سمّاها "التاريخ اللحظي" حينًا و"تاريخ الصحافيين" حينًا آخر[67]. وحين ألّف كتابًا عن فترة المغرب المستقل، بعنوان **المغرب والحسن الثاني: شهادة**[68]، لم يكن غرضه كتابة تاريخ المغرب الراهن، إنما الإدلاء بشهادته حول فترة حكم الملك الحسن الثاني، باعتباره عاش فيها وعايشها.

أما إبراهيم بوطالب، فقد كان واضحًا بدوره حين اعتبر أن توجّس المؤرخين المغاربة من اقتحام التاريخ الراهن، لا يعود "لقلتهم أو لعجزهم عن ذلك، ولكن لما يرتبط من المثبطات المنهجية بكتابة التاريخ القريب"[69]. ويمكن إجمال هذه الصعوبات التي تحدّث عنها هذا الأخير وغيره من المؤرخين المغاربة، بمن فيهم أولئك الذين انخرطوا في كتابة تاريخ الزمن الراهن، في ضرورة توافر مسافة زمنية كافية بين وقوع الحدث ولحظة كتابته والتأريخ له، تقي المؤرخ من مغبة التحيّز إلى أيّ من أطراف الحدث، ومقاربة تاريخ قريب أو فوري غير مكتمل، لم تتبلور بعد نتائجه بما يكفي من النضج الممهد لإخضاعه للتحليل الرصين والمقاربة الجادة[70].

لعل أبرز المطبّات المنهجية التي تعتور سبيل مؤرخ الزمن الراهن المغربي الارتباط الوثيق بين زمنَي الاستقلال والحماية، ووجوب تعميق البحث في الحقبة الاستعمارية والإحاطة الشاملة بها، وتقديم إجابات عن جميع إشكالياتها، قبل اقتحام التاريخ الراهن والانتقال إلى مقاربة قضايا المغرب المستقل وإشكالياته، فالكتابات التاريخية عن حقبة الحماية لا تزال في بداية مسارها، وتفتقر إلى

---

65 Henry Rousso, "L'histoire du temps présent, vingt ans après," L'histoire *du temps présent, hier et aujourd'hui*, no. 75 (2000), p. 23.

66 محمد حبيدة، "راهنية التاريخ"، **رباط الكتب** (الإلكترونية)، شوهد في 2021/9/13، في: https://bit.ly/3NIyfum

67 العروي، **مفهوم التاريخ**، ص 98.

68 Laroui Abdallah, *Le Maroc et Hassan II: Un témoignage* (Casablanca: Presses Inter Universitaires, 2005).

69 امبارك بودرقة وأحمد شوقي بنيوب، **كذلك كان ... مذكرات من تجربة هيئة الإنصاف والمصالحة** (الدار البيضاء: دار النشر المغربية، 2017)، ص 92.

70 بحسب إبراهيم بوطالب، فإنه "لا سبيل إلى كتابة التاريخ القريب والذاكرة لا تزال حيّة متوجسة [...]، ثم إن الأرشيفات الوطنية إما مفقودة في أسوأ الحالات، أو في أحسنها هي مشتتة بسبب انطواء كل دائرة على مستنداتها ووثائقها، فلا سبيل إلى الوقوف على ذكر مستودعاتها، فأحرى نفض الغبار عنها واستثمارها في البحث التاريخي". ينظر: المرجع نفسه.



التراكم المطلوب، واقتصرت على إثارة أسئلة وقضايا جزئية، على الرغم من وجود ما يكفي من المسافة الزمنية؛ ما يجعل من الصعب منهجيًا ومعرفيًا تجاوز هذه المرحلة التي انطبعت بتحولات جوهرية مهمة والانتقال إلى التاريخ الراهن[71]. كما أن مجموعة من القضايا الراهنة التي بصمت المغرب المستقل في شتى المجالات، ليست نتاجًا لهذه الحقبة، بقدر ما هي بنية ممتدة، خضعت لسيرورة من التطور والتراكمات التاريخية؛ لذا لا يمكن فهمها فهمًا جيدًا وتقديم إجابات عنها، إذا جرى فصلها عن جذورها في زمن الحماية، وموضعتها ضمن منظور المدة القصيرة. ومن الأمثلة التي نسوقها في هذا الصدد التمفصل بين بنى الدولة المخزنية التقليدية التي حافظت على نوع من الاستمرارية إزاء تقاليد الماضي، وسمات الدولة الترابية الحديثة التي تدبر شؤونها عبر مؤسسات عصرية تخضع لمنظومة قانونية وضعية، وسياق بناء وتدبير شؤون الدولة الوطنية حديثة العهد بالاستقلال الذي طبع بملمح التوتر والصدام، وغيرها من الموضوعات التي تهم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في المرحلة الراهنة؛ وهي قضايا تخترق الزمن المغربي منذ بداية القرن العشرين، وتترك بصماتها بجلاء في المجتمع المغربي الراهن، ولا تزال تداعياتها تُرخي بظلالها على مغرب اليوم[72].

2. تاريخ الزمن الراهن في المغرب: ورش بحثي قيد مخاض البدايات

جاء انفتاح المؤرخين المغاربة على التاريخ الراهن في سياق التحولات السياسية التي عرفها المغرب خلال العقد الأخير من القرن العشرين، ولم يكن وليد حركية بحثية وحاجة علمية معرفية، أو تطور في سيرورة المعرفة التاريخية المغربية، ورغبة من المؤرخين المغاربة في طرق مجالات جديدة في البحث التاريخي قصد استجلاء الراهن المغربي وتفسيره، على شاكلة ما شهدته المدارس التاريخية الأوروبية؛ بحكم أن الحقبة الاستعمارية نفسها بقيت إلى وقت قريب محط رقابة ذاتية يمارسها المؤرخ حيال بعض القضايا المتصلة بها، والتي لا تزال تلازمها فراغات كثيرة[73].

ابتداء من مطلع الألفية الثالثة، بدأت إرهاصات التاريخ الراهن في المغرب مجالًا بحثيًا حديث العهد، انطلق في السياق الانتقالي الذي انخرطت فيه البلاد في مطلع التسعينيات، سعيًا لطي صفحة الماضي الذي توج بتأسيس هيئة الإنصاف والمصالحة، الصيغة المغربية للعدالة الانتقالية، في كانون الثاني/ يناير 2004. وقد لفت النقاش الذي واكب عمل هذه الهيئة المؤرخين والباحثين المغاربة إلى ضرورة الانخراط في كتابة الراهن المغربي، والمساعدة في فهم ما جرى من انتهاكات وخروق، وأثارت الهيئة الانتباه إلى أن قضايا الزمن الراهن في المغرب لا تزال خارج دائرة اهتمام الباحثين في حقل التاريخ، ولم تخضع للبحث والدراسة، ولم تُجرَ دراسات موضوعية ورصينة تخص الديناميات التي صنعت أحداثه، ومن ثمة أدرجت في توصياتها الحاجة الملحة إلى الاهتمام بالأرشيف وتاريخ المغرب بعد الاستقلال، وإنشاء مركز للبحث في هذا الحقل التاريخي.

شكّلت هذه المتغيرات عاملًا مهمًا حفّز بعض المؤرخين المغاربة على التخلّي عن تحفظاتهم المنهجية والمعرفية، واقتحام الزمن الراهن والإدلاء بدلوهم في مقاربة القضايا الجوهرية للفترة الراهنة، وتناولها بالدراسة والتحليل، بعدما بقي الخوض في قضايا المغرب المستقل والكتابة عنها إلى وقت قريب حكرًا على المتخصصين في العلوم السياسية والاجتماعية، وأيضًا على مذكرات وشهادات الفاعلين التاريخيين والسياسيين في الزمن الراهن، وعلى الصحافيين المتتبعين للشأن السياسي بمعالجات تتفاوت في

---

71 69 صالح شكاك، "من المغرب المعاصر إلى المغرب الراهن: إشكاليات الاستمرار والتحول"، في: **التاريخ الحاضر ومهام المؤرخ**، تنسيق محمد كنبيب (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2009)، ص 51.

72 **المغرب والزمن الراهن**، ص 58.
وفي السياق ذاته، تساءل عبد الأحد السبتي عن إمكانية مقاربة تاريخ المغرب في القرن العشرين حقبةً واحدة تنتظم في إطار زمنين متصلين: زمن الحماية والمغرب المستقل. ينظر: المرجع نفسه، ص 59.

73 "حوار مع جامع بيضا مدير أرشيف المغرب"، **أمل**، العدد 41 (2013)، ص 120.



المهارة والنفس التوثيقي[74]، باستثناء بعض المحاولات الخجولة التي ظهرت خلال ثمانينيات القرن العشرين وتسعينياته، خصوصًا على شكل أطروحات جامعية نوقشت في فرنسا[75].

من جهة أخرى، شهدت هذه الفترة انفجارًا في إنتاج الذاكرة وحضورها المتنامي في المشهد الإعلامي والتاريخي، مستفيدة من الاتساع النسبي لهامش الحرية والنشر في ظل الانفراج السياسي والحقوقي. ورافق هذه الظرفية تزايد الطلب الاجتماعي على التاريخ القريب وتحوّله إلى منتج إعلامي، وتراجع مساحة الممنوعات، في مقابل اتساع مساحة البوح عن الماضي القريب والراهن[76]. وحفّزت هذه الطفرة التي عرفتها عملية إنتاج الذاكرة العديد من المؤرخين المغاربة على التفاعل مع هذه الوفرة من المصادر المستثارة برؤية نقدية، وإقامة حوار مباشر معها، والارتقاء بها إلى مستوى وثائق تحظى بالصدقية وتخدم المعرفة التاريخية. وبات التعامل النقدي مع هذه المتون الذاكرية واستثمارها أمرًا مُلحًّا أيضًا لتفادي أي خلط بين صنوف الخطاب، والتمييز بين هذه الأخيرة باعتبارها جزءًا من تجربة الشاهد الفردية، قد تلتبس في مواطن عدة بمنازع ذاتية، بصرف النظر عن ثراء ما يمكن أن تقدمه، والكتابة التاريخية التي تقوم على مجموعة من الضوابط المنهجية، مثل الموضوعية والنسبية والتحليل، ونقد الشواهد وفحصها وعدم الاطمئنان إليها، ونزوع إلى التحري والشك في استعادة الماضي[77]، ولا سيما أن عددًا من أصحاب الشهادات والمذكرات والسيَر الذاتية ممن أقدموا على تدوين تجاربهم، اعتبر ما كتبه هؤلاء تاريخًا، وأنهم الأجدر بكتابة تاريخ المرحلة، وأنهم زعموا قول الحقيقة في مؤلفاتهم بعلّة مجايلتهم الأحداث وإسهامهم في صنعها[78].

لعل ما يُبيّن ذلك التحول هو تنظيم مجموعة من الندوات والأيام الدراسية التي تمحورت حول قضايا التاريخ الراهن المغربي والمقاربات المنهجية المتصلة به، وكانت عاملًا أساسيًا لانطلاق هذا الورش في المغرب[79]. كما أُحدِثت وحداتٌ لتدريس تاريخ الزمن الراهن ضمن مسالك التاريخ والحضارة في مختلف المؤسسات الجامعية. وفي السياق نفسه، جرى إحداث تكوينات خاصة في تاريخ الزمن الراهن، انتظمت في وحدات الماجستير والدكتوراه أولًا في رحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الرباط، لتنتقل التجربة بعدها إلى بقية المؤسسات الجامعية.

وفي بادرة تُعدّ بمنزلة انطلاقة فعلية لورَش التنقيب الأكاديمي في الزمن الراهن في المغرب، خصّص الكتاب الجماعي الذي أشرف عليه المعهد الملكي في تاريخ المغرب حيّزًا مهمًا لتاريخ المغرب المستقل، وأفرد له فصلًا خاصًا، عرض فيه، وفق منهج

---

74 عبد الأحد السبتي، "بين التاريخ والذاكرة الجماعية تشكلات ورهانات"، **البحث التاريخي**، العدد 1 (2003)، ص 32.

75 عبد الرحيم بنحادة، "في إنتاج المعرفة التاريخية في المغرب"، **أسطور**، العدد 7 (كانون الثاني/ يناير 2018)، ص 86؛ الموساوي العجلاوي، **من الاتحاد الوطني إلى الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية: 1959-1983: قراءة في السياق التاريخي للحزب من خلال مساري عبد الرحيم بوعبيد ومحمد الفقيه البصري** (الرباط: مطبعة اليديني، 2002)؛

Mostapha Bouaziz, *Aux origines de la Koutla démocratique* (Casablanca: Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines Ain Chok, 1997).

76 عبد العزيز الطاهري، "الإستوغرافيا العربية المعاصرة بين التاريخ والذاكرة: المغرب أنموذجًا"، في: **التأريخ العربي وتاريخ العرب كيف كتب وكيف يكتب؟ الإجابات الممكنة**، إعداد وتنسيق وجيه كوثراني (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017)، ص 753.

77 عبد الأحد السبتي، **التاريخ والذاكرة أوراش في تاريخ المغرب** (بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2012)، ص 212.

78 ترتبط هذه السمات بطبيعة هذا المتن الذاكري وآليات اشتغاله وطرائق استدعائه الوقائع والأحداث، في ظل التجاذب بين الماضي والحاضر، وتصب جميعها في إضفاء حالة من النسبية وعدم الدقة على فعل التذكر، بيد أنها لا تنقص في الوقت ذاته من أهميته وقيمته؛ فالذاكرة، بحسب بول ريكور، هي الحاملة الأولى للتاريخ، ولولاها لما كان هناك من علم لكتابة التاريخ، وبذلك فمؤرخ الزمن الراهن مدين لهؤلاء الفاعلين السياسيين والتاريخيين الذين عاصروا الأحداث أو شاركوا فيها، وأقدموا على تدوين تجاربهم وشهاداتهم التي تشكل المسوّدة الأولى للتاريخ، والمصدر الأول لمعلومات المؤرخ. ينظر: بول ريكور، **الذاكرة، التاريخ النسيان**، ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2009)، ص 16.

79 يتعلق الأمر بالندوة الدولية التي نظمتها جامعة الأخوين في مدينة إفران، في عام 2004، وتمحورت حول موضوع تاريخ المغرب تحديد مجالات ومقاربات جديدة. ينظر: **تاريخ المغرب تحديد مجالات ومقاربات جديدة: أعمال الورشة الأولى لأيام تاريخ المغرب إفران: 22-24 نونبر 2004**. تنسيق سعيد النهيض [وآخرون] (إفران: منشورات جامعة الأخوين، 2006)؛ والندوة التي نظمتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط في عام 2005، حول موضوع من الحماية إلى الاستقلال: إشكالية الزمن الراهن. ينظر: **من الحماية إلى الاستقلال إشكالية الزمن الراهن**، تنسيق محمد كنبيب (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2006).



تركيبي، ومقاربة تداخلية متعددة التخصصات، بناء الدولة الحديثة وطبيعة العلاقات بين المؤسسة الملكية والأحزاب سليلة الحركة الوطنية، التي انتقلت من التحالف والتضامن من أجل الحصول على الاستقلال، إلى الصراع حول ممارسة الحكم ووسائل التحكم فيه، قبل أن ينصب على طبيعة النظام السياسي ونوعية النمط الاجتماعي وطرائق تدبير شؤون الدولة الوطنية وأساليبه، فضلًا عن مختلف التحوّلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية البارزة التي شهدها المغرب المستقل إلى حدود عام 1999[80].

علاوة على هذه الدينامية المعرفية الحديثة العهد من ملتقيات علمية وإصدارات، فقد أثمر اقتحام الباحثين الشباب لهذا الميدان الجديد في البحث التاريخي، والذي لا يزال في مخاض البدايات، مجموعة من الدراسات، بالغة الأهمية، همت تسليط الأضواء على أماكن العتمة في تاريخ المغرب الراهن[81].

تتسم الدراسات القليلة حول التاريخ القريب بغلبة الموضوعات السياسية[82]، وهو ما يلاحظ كذلك على مشاريع البحوث المسجلة في ماجستير ودكتوراه تاريخ الزمن الراهن في مختلف المؤسسات الجامعية. ويمكن تفسير ذلك بكون هذه الموضوعات ذات جاذبية خاصة، وتتوافر فيها المادة المصدرية والشهود، إضافة إلى أن الخوض فيها "كان محرّمًا ومحظورًا، ما جعل تناوله اليوم فيه ما فيه من اللذّة الانتقامية من الماضي"[83]. بيد أن ذلك لم يمنع من وجود ثلة من الباحثين الذين انكبوا في الآونة الأخيرة على مقاربة قضايا وموضوعات اقتصادية تخص المغرب المعاصر والراهن من منظورات وزوايا إشكالية منوعة[84].

وعلى الرغم من هذه الدينامية المعرفية الحديثة العهد، وهذه الانتعاشة الملموسة من ملتقيات علمية وإصدارات سعت لتقديم إضاءات على أحداث ووقائع التاريخ الحاضر والقريب[85]، فإن اقتحام المؤرخين المغاربة لهذا الميدان الجديد في البحث التاريخي

---

80 القبلي [وآخرون]، ص 622.
أقر محمد القبلي مدير المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب والمشرف على الكتاب، خلال المحاضرة الافتتاحية للبرنامج الثقافي للدورة 19 للمعرض الدولي للنشر والكتاب في الدار البيضاء، بصعوبة كتابة التاريخ الراهن للمغرب؛ نظرًا إلى قرب الأحداث من المؤرخ، حيث قال: "لا أخفيكم أن هذا الشق من تاريخ المغرب استوقفنا طويلًا، لأنه قريب منا، والمؤرخ يكره القرب من الأحداث، فهو يحاول أن يضع بينه وبين الحدث مسافة". ينظر: **المساء**، 2013/4/2.

81 ثورية السعودي، "أوضاع النساء في المغرب الراهن (1947-2014): مقاربة تاريخية"، أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2018. (غير منشورة)؛ مديحة صبيوي، "البناء المغاربي 1958-2017، من مؤتمر طنجة إلى اتحاج المغرب العربي"، أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2018. (غير منشورة)؛ إبراهيم أيت إزي، "الحراك الاجتماعي في مغرب ما بعد الاستقلال (1956-1975): محاولة في التركيب"، أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2019. (غير منشورة)؛ نعيم الخرازي، "محمد الفقيه البصري: دراسة في النخبة المغربية بعد الاستقلال"، أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2021. (غير منشورة).

82 نستحضر في هذا الشأن أيضًا: حفيظة بلمقدم، **حزب الاستقلال وتدبير الانتقال: بين الانسجام والتصدع، دجنبر 1955 - يناير 1963** (الرباط: منشورات فكر، 2006)؛ بوعزيز.

83 " حوار مع جامع بيضا"، ص 123.

84 في هذا الصدد نسوق مثالًا على ذلك الورش الذي يشرف عليه الطيب بياض في كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق، جامعة الحسن الثاني في الدار البيضاء، الذي يعمل من خلاله على تأطير مجموعة من الأبحاث في سلك الدكتوراه، تنكبّ على موضوعات تتوخّى تسليط الضوء على إشكاليات جديدة تتعلق بحقل التاريخ الاقتصادي، توزّعت بين البحث في تاريخ البنوك والكهرباء والفلاحة والسياحة والاختيارات الاقتصادية للمغرب المستقل وغيرها من الموضوعات.
وقد توّج هذا الورش بمناقشة أطروحة عزيز سعيدي التي تناول فيها مسار تاريخ المكتب الشريف للفوسفاط منذ نشأته، والأدوار المهمة التي قام بها داخل الاقتصادين المغربي والفرنسي خلال مرحلتي الحماية والاستقلال، والتحولات الجذرية التي عرفتها هذه المؤسسة الصناعية، ومدى إسهامها في التنمية الاقتصادية في المغرب. ينظر: عزيز سعيدي، "المكتب الشريف للفوسفاط بين رهان المغربة وأفق الشركة المساهمة 1958-2008"، أطروحة أعدت لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، 2018. (غير منشورة).

85 نذكر في هذا الإطار اقتحام الطيب بياض، في مؤلَّفه الموسوم بـ **الصحافة والتاريخ: إضاءات تفاعلية مع قضايا الزمن الراهن**، واحدة من القضايا الشائكة التي يثيرها تاريخ الزمن الراهن، وهي العلاقة الملتبسة بين الصحافة والتاريخ، ونقد الصراع المصطنع بينهما، والسعي لنزع فتيله ومد جسور التواصل والتفاعل بين المؤرخين ورجالات الإعلام، وقطع الطريق أمام كل محاولة تروم اختلاق صراع بينهما، كما تفاعل الباحث في القسم الثاني من مؤلفه مع بعض أحداث المغرب الراهن وقضاياه، وأحاط بامتداداتها التاريخية وربطها بسياقاتها التاريخي وبناها الشارحة الممتدة في الزمن الطويل. ينظر: الطيب بياض، **الصحافة والتاريخ: إضاءات تفاعلية مع قضايا الزمن الراهن** (الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق، 2019).



لا يزال محدودًا بسبب ما يتّصل به من تحديات ذاتية وموضوعية معرفية ومنهجية بالغة الصعوبة والتعقيد، سواء على مستوى طبيعة المصادر من مذكرات وجرائد وروايات شفوية وإنترنت، التي تبقى غير مألوفة بالنسبة إلى عموم المؤرخين المعتادين الوثائق التقليدية، والمتمرسين بمعالجتها وتحليلها، أم في خصوص العلاقة بين التاريخ وبقية العلوم الإنسانية الأخرى، علاوة على العلاقة الجدلية بين الذاكرة والتاريخ، وحساسية هذه المرحلة وارتباط رجالاتها بتفاعلات ما يجري اليوم على الساحة السياسية. وهذا الأمر يستوجب جهدًا مستفيضًا ومؤسساتيًا في اقتحام عوالم الراهن المغربي والخوض في قضاياه، مع ما يتطلبه ذلك من صرامة منهجية وضوابط أكاديمية مرتبطة بصنعة المؤرخ وإعمال آلية النقد والتمحيص في التعامل مع مختلف الشهود والوثائق والمصادر[86].

على سبيل الختم

خضع مجمل الإنتاج التاريخي المغربي منذ الاستقلال لمحطات تقويمية متعددة. وتُعدّ الرسالة الجامعية التي أنجزها محمد عابد الجابري في عام 1967، بعنوان "التاريخ والمؤرخون في المغرب المعاصر"، أول محاولة تقويمية همّت حقل الدراسات التاريخية المغربية، رامت نقد الكتابات التاريخية الأولى وتقييم تجربتها، وكشف مواطن الضعف التي تعتريها[87]. وبعد مرور ما يناهز ثلاثة عقود على الاستقلال، نظمت كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الرباط ندوتين للوقوف على تراكمات البحث التاريخي، همت الأولى البحث الغربي حول المجتمع المغاربي في الفترة الاستعمارية، في تشرين الأول/ أكتوبر 1986، والثانية في كانون الأول/ ديسمبر من العام نفسه، بعنوان "ثلاثون سنة من البحث الجامعي بالمغرب"[88]. ولمناسبة مرور خمسة عقود على ولادة تجربة البحث التاريخي الجامعي في المغرب، نظمت الجمعية المغربية للبحث التاريخي بدورها، في عام 2007 ندوة، خصصتها للوقوف على ما راكمه حقل الدراسات التاريخية[89].

من جهته، أخضع محمد حبيدة في كتابه **بؤس التاريخ: مراجعات ومقاربات** حصيلة البحث التاريخي في المغرب لما ينوف على نصف قرن، لقراءة نقدية، وقف من خلالها على ما تحقق من تراكم معرفي ومنهجي نوعي خلال سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته، في مقابل تراجع بيّن في العقدين الأخيرين. وقد عزا المؤلف هذا الاحتباس الحاصل في البحث التاريخي إلى غياب المواكبة العلمية والمتابعات والقراءات النقدية الجادة، والقصور اللغوي وهشاشة بنى البحث وغياب التاريخ الإشكالي.

وإذا كان من الصعب القيام بقراءة شاملة في حصيلة ومنجز هذه التجربة البحثية التاريخية حديثة العهد، ومساءلة واقعها وتتبع تراكماتها وتحوّلاتها الكبرى، وذلك لاعتبارات متعددة، حاولت هذه الدراسة رصد ومساءلة مجمل الإنتاج التاريخي المغربي المتصل بالفترة المعاصرة والراهنة، عبر تتبع المسار الذي قطعه منذ الاستقلال إلى اليوم، وبناء على ذلك يمكن الخروج بالاستنتاجات الآتية:

قطع البحث التاريخي حول العمل الوطني ببعديه السلمي والمسلح أشواطًا مهمة منذ الاستقلال إلى اليوم، وحقق تراكمًا بحثيًا ملحوظًا كمًا ونوعًا، وهو ما يتبدّى بجلاء عند رصدنا محصلة ما تراكم من إسهامات ودراسات أكاديمية. وإذا كانت بعض الأبحاث قد اكتسبت نضجًا منهجيًا ومعرفيًا، وأسهمت جدّيًا في الدفع بكتابة موثّقة ورصينة لتاريخ المقاومة والحركة الوطنية، امتازت بجرأة

86 حذّر عبد الحي مودن الباحثين في تاريخ المغرب الراهن من منزلق السقوط في مواقف أخلاقية عبر محاكمة الفاعلين التاريخيين والسياسيين، بدلًا من الإسهام في الكشف عن الميكانيزمات التي تحكّمت في تطور التاريخ المغربي، وتشكل نظامه السياسي خلال هذه الفترة. ينظر: **المغرب والزمن الراهن**، ص 182.

87 أشرف خالد طحطح على إخراج هذا العمل وتقديمه بعد أن بقي مجهولًا ومنسيًا. ينظر: محمد عابد الجابري، **التاريخ والمؤرخون في المغرب المعاصر** (القاهرة/ الكويت: دار رؤية للنشر والتوزيع، 2021).

88 ينظر: **البحث في تاريخ المغرب، حصيلة وتقويم**.

89 نشرت بعض أعمالها في مجلة **البحث التاريخي**، العدد المزدوج 7-8 (2010).



الطرح وعمق التحليل، فإن أعمالًا أخرى لا تقدم رؤية تاريخية نقدية، ولم تتخلّص بعد من عبء التاريخ الوطني ووطأته، الذي لا يزال فاعلًا، وقاربت هذا الموضوع بنزعة وطنية واضحة. وبغض النظر عن حتمية الاستعمار بصفته نظامًا للاستغلال والسيطرة ونهب خيرات المستعمرات وتفقير شعوبها، فإن ذلك لا يمنع المؤرخ والباحث من تبني مقاربة مغايرة للظاهرة الاستعمارية، مقاربة تاريخية مسنودة بالموضوعية والمنهجية العلمية، تتوخّى التعامل مع الظاهرة الاستعمارية بلغة تاريخية من دون أحكام قبلية، تتجرد من الذاتية، وتتجاوز المستوى الأخلاقي الضيّق، وتنأى عن العاطفة ومواقف التنديد والإدانة، ولا تمزج بين النزعة الوطنية الأحادية والتحليل العلمي الرصين؛ إذ لا يمكننا أن نقرأ الحدث الاستعماري على أنه ظاهرة سلبية بصورة كلّية ومطلقة، كما لا يمكننا إنكار بعض أدواره ووظائفه "الإيجابية"، وإن كانت غير مقصودة ومجرد أعراض جانبية.

يفتقر البحث التاريخي حول حقبة الحماية إلى التراكم المطلوب، فعلى الرغم من أهمية ما كتب حولها وقيمته، وتطوّره النوعي والكمي، فإنها لا تزال تتسم باستمرار الكثير من مناطق الظل وتعدّد القضايا المسكوت عنها، ومن ثمّ فهي في حاجة ماسة إلى الانكباب على أسئلتها وقضاياها الجوهرية، وتشريحها بمساءلات إشكالية متجددة مفعمة بالحس النقدي، قصد كشف ملابساتها ورصد تحوّلاتها، وفق منظور الزمن الطويل الذي يسمح بموضعة هذه الحقبة بنيةً في إطار حقل إشكالي، ومقاربتها مقاربة أكثر شمولية منفتحة على مختلف الحقول المعرفية، تتجاوب فيها أسئلة الراهن مع معطيات الماضي، وتتغيّا فهم النسق التاريخي الذي تحكم فيها وتفسيره، بدلًا من الاقتصار على النظر إلى مختلف أحداثها وظواهرها وفق تاريخ سردي وصفي.





المراجع

العربية

احساين، عبد الحميد. **الإدارة المركزية في عهد الحماية الفرنسية 1912-1940**. الرباط: منشورات أمل، 2015.

أزيزا، ميمون. **الريف زمن الحماية الإسبانية: 1912-1956 الاستعمار الهامشي**. ترجمة محمد حاتمي وجمال حيمر. الدار البيضاء: دار النشر ملتقى الطرق، 2021.

أغزادي، لحسن. "عبد الكريم الخطابي وحرب الريف 1921-1927". أطروحة أعدت لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز. جامعة سيدي محمد بن عبد الله. فاس. 1988-1989. (غير منشورة).

أونيا، محمد. **عبد الكريم وأسطورة الانفصال: حفريات نقدية في خطاب الجمهورية الريفية 1921-1926**. تطوان: مطبعة الخليج العربي، 2018.

أيت إزي، إبراهيم. "الحراك الاجتماعي في مغرب ما بعد الاستقلال (1956-1975): محاولة في التركيب". أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس. الرباط. 2019. (غير منشورة).

البحث التاريخي. العدد 7-8 (2010).

البحث في تاريخ المغرب: حصيلة وتقويم. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1989.

برادة، رشيدة. "التعليم في ضوء التدخلات الأجنبية وردود الفعل الوطنية 1860-1957". أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك. جامعة الحسن الثاني. الدار البيضاء. 2004-2005. (غير منشورة).

براص، محمد. "الأحزاب الوطنية واليهود المغاربة بين تطور الأوضاع الداخلية وأصداء القضية الفلسطينية 1934-1967". أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس. الرباط. 2004. (غير منشورة).

برنوسي، المصطفى. "جوانب من المسألة المالية في المغرب على عهد الحماية، الميزانيات 1912-1925". أطروحة أعدت لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس. الرباط. 2004-2005. (غير منشورة).

البزاز، محمد الأمين. **المجلس الصحي الدولي في المغرب: 1792-1929**. الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس. الرباط، 2000.

بلقزيز، عبد الإله. "المنوني والعروي والكتابة التاريخية في المغرب المعاصر". 2005/10/22. في: https://bit.ly/41ERr2

بلمقدم، حفيظة. **حزب الاستقلال وتدبير الانتقال: بين الانسجام والتصدع، دجنبر 1955-يناير 1963**. الرباط: منشورات فكر، 2006.

بن الجيلالي، حسن. "انعكاسات أزمة 1929 على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب، المنطقة الفرنسية". أطروحة أعدت لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس. الرباط. 1989. (غير منشورة).

بن عزوز حكيم، محمد. **وثائق الحركة الوطنية في شمال المغرب**. تطوان: مؤسسة عبد الخالق الطريس للثقافة والفكر، 1980.

______. **أب الحركة الوطنية الحاج عبد السلام بنونة: حياته ونضاله**. الرباط: مطبعة الساحل، 1987.



بناني، عثمان. **بين الفعل السياسي والبحث التاريخي**. تنسيق عبد الرحمن المودن. الرباط: دار أبي رقراق للنشر، 2017.

________. **محمد بن عبد الكريم الخطابي ومقاومة الاستعمار الإسباني**. الرباط: منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، 2019.

بنحادة، عبد الرحيم. "في إنتاج المعرفة التاريخية في المغرب". **أسطور**. العدد 7 (كانون الثاني/ يناير 2018).

بنسعيد العلوي، سعيد. "الحركة الوطنية وتصور المدرسة الوطنية في المغرب". **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس**. العدد 1 (1986).

بوتبقالت، الطيب. **عبد الكريم الخطابي: حرب الريف والرأي العالمي**. سلسلة شراع، العدد 14. طنجة: وكالة شراع لخدمات الإعلام، 1997.

بودرقة، امبارك وأحمد شوقي بنيوب. **كذلك كان ... مذكرات من تجربة هيئة الإنصاف والمصالحة**. الدار البيضاء: دار النشر المغربية، 2017.

بوزويتة، سمير. **الاحتلال العسكري الفرنسي للمغرب: دراسة في الاستراتيجية العسكرية 1912-1934**. الرباط: منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2007.

بوشامة، الحسين. "مساهمة الجنود المغاربة في الدفاع عن التراب الفرنسي خلال المرحلة الأولى من الحرب العالمية الثانية، شتنبر 1939- يونيو 1940". أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة ابن طفيل. القنيطرة. 2006-2007. (غير منشورة).

بوعزيز، المصطفى. **الوطنيون المغاربة في القرن العشرين 1873-1999**. الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، 2019.

بوكبوط، محمد. "سلطة التاريخ ورهان حماية الذاكرة الجماعية". **الأحداث المغربية**. 2002/5/10. في: https://bit.ly/47cSZl

________. **مقاومة الهوامش الصحراوية للاستعمار (1880-1938) صفحات مجهولة من صمود قبائل التخوم الشرقية من تافيلالت إلى واد نول**. الرباط: دار أبي رقراق للنشر، 2005.

بوم، عمر. **يهود المغرب وحديث الذاكرة**. ترجمة خالد بن الصغير. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2015.

بوهادي، بوبكر. **المغرب والحرب الأهلية الإسبانية 1936-1939**. تطوان: منشورات باب الحكمة، 2020.

بياض، الطيب. **الصحافة والتاريخ: إضاءات تفاعلية مع قضايا الزمن الراهن**. الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق، 2019.

________. "الصحافة والتاريخ في المغرب: مسار تفاعل". **المناهل**. العدد 99 (حزيران/ يونيو 2020).

التاريخ الحاضر ومهام المؤرخ. تنسيق محمد كنبيب. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2009.

التأريخ العربي وتاريخ العرب كيف كتب وكيف يكتب؟ الإجابات الممكنة. إعداد وتنسيق وجيه كوثراني. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017.



تاريخ المغرب تحديد مجالات ومقاربات جديدة: أعمال الورشة الأولى لأيام تاريخ المغرب إفران: 22-24 نونبر 2004. تنسيق سعيد النهيض [وآخرون]. إفران: منشورات جامعة الأخوين، 2006.

تاريخ المغرب تحيين وتركيب. تنسيق محمد القبلي. الرباط: المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، 2011.

تالوزت، محمد. "التجارة والتجار بمدينة فاس خلال فترة الحماية". أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز. جامعة سيدي محمد بن عبد الله. فاس. 2001. (غير منشورة).

تقي، نجيب. "مجموعة ماص الإعلامية بالمغرب في فترة الحماية". أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس. الرباط. 2000. (غير منشورة).

الجابري، محمد عابد. **التاريخ والمؤرخون في المغرب المعاصر**. القاهرة/ الكويت: دار رؤية للنشر والتوزيع، 2021.

حاتمي، محمد. "الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل: 1947-1961". أطروحة أعدت لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة سيدي محمد بن عبد الله. فاس سايس. 2007. (غير منشورة).

حبيدة، محمد. **بؤس التاريخ: مراجعات ومقاربات**. الرباط: دار الأمان، 2015.

________. "راهنية التاريخ". **رباط الكتب** (الإلكترونية). في: https://bit.ly/3NIyfu

"حوار مع جامع بيضا مدير أرشيف المغرب". **أمل**. العدد 41 (2013).

الخديمي، علال. **التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب، 1894-1910: حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية**. الرباط: إفريقيا الشرق، 1991.

الخرازي، نعيم. "محمد الفقيه البصري: دراسة في النخبة المغربية بعد الاستقلال". أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس. الرباط. 2021. (غير منشورة).

خرشيش، محمد. **المقاومة الريفية**. سلسلة شراع، العدد 22. طنجة: وكالة شراع لخدمات الإعلام، 1997.

الدفالي، محمد معروف. "حزب الشورى والاستقلال ودوره في الحركة الوطنية 1946-1959". رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس. الرباط. 1988-1989. (غير منشورة).

________. **أصول الحركة الوطنية بين السلفية المجددة والسلفية الجديدة**. الرباط: منشورات أمل: تاريخ – ثقافة - مجتمع، 2014.

ركوك، علال. **المقاومة وأحداث من التاريخ الاجتماعي في الأدب الشفوي المغربي (1830/ 1956)**. الرباط: منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2001.

________. **المقاومة المغربية من خلال التراث الشعبي**. الرباط: منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2004.

رويان، بوجمعة. **الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945**. الرباط: مطابع الرباط نت، 2013.



______. **من تاريخ المستعمرات الفرنسية في الحرب العالمية الثانية: الاستغلال الاستعماري للمغرب خلال الهدنة الفرنسية الألمانية، يونيو 1940 - نونبر 1942**. الرباط: منشورات مركز ابن خلدون للدراسات والأبحاث والترجمة والتحقيق، 2022.

ريكور، بول. **الذاكرة، التاريخ النسيان**. ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2009.

الزكاري، أسامة. "مذكرات الزمن الراهن بين حدود الذاكرة وسقف التاريخ". **المناهل**. العدد 99 (حزيران/ يونيو 2020).

زكي، مبارك. **محمد الخامس وابن عبد الكريم وإشكالية استقلال المغرب**. الرباط: منشورات فيديبرانت، 2003.

زنيبر، محمد. **صفحات من الوطنية المغربية من الثورة الريفية إلى الحركة الوطنية**. الرباط: دار النشر المغربية، 1990.

السبتي، عبد الأحد. "بين التاريخ والذاكرة الجماعية تشكلات ورهانات". **البحث التاريخي**. العدد 1 (2003).

______. **التاريخ والذاكرة أوراش في تاريخ المغرب**. بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2012.

______. **الماضي المتعدد: قراءات ومحاورات تاريخية**. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2016.

______. "المؤرخون المغاربة يترددون أمام الخوض في التاريخ القريب، ولا يساهمون في النقاش العمومي". **الأحداث المغربية**، 2016/10/19.

السعودي، ثورية. "أوضاع النساء في المغرب الراهن (1947-2014): مقاربة تاريخية". أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس. الرباط. 2018. (غير منشورة).

سعيدي، عزيز. "المكتب الشريف للفوسفاط بين رهان المغربة وأفق الشركة المساهمة 1958-2008". أطروحة أعدت لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، الدار البيضاء. 2018. (غير منشورة).

صبيوي، مديحة. "البناء المغاربي 1958-2017، من مؤتمر طنجة إلى اتحاج المغرب العربي". أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس. 2018. (غير منشورة).

الطاهري، عبد العزيز. **الذاكرة والتاريخ: المغرب خلال الفترة الاستعمارية 1912-1956**. الرباط: دار أبي رقراق، 2016.

______. "إدارة الحماية المركزية في المغرب". **رباط الكتب** (الإلكترونية)، 22 كانون الثاني/يناير 2018. في: https://bit.ly/48vOFy

العجلاوي، الموساوي. **من الاتحاد الوطني إلى الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية: 1959-1983: قراءة في السياق التاريخي للحزب من خلال مساري عبد الرحيم بوعبيد ومحمد الفقيه البصري**. الرباط: مطبعة اليديني، 2002.

العربي، عيسى. **مقاومة سكان أزيلال للاحتلال الفرنسي في مرحلة غزو المغرب ما بين سنوات 1912-1933**. الرباط: منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2010.

العروي، عبد الله. **مفهوم التاريخ**. ط 4. بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2005.

______. **استبانة**. بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2016.

عياش، جرمان. **أصول حرب الريف**. ترجمة محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التمسماني خلوق. الرباط: الشركة المغربية المتحدة، 1981.



الفاسي، عبد الإله. **بلدية الرباط في عهد الحماية 1911-1939 ودورها الاقتصادي والعمراني والاجتماعي في حياة العاصمة.** الرباط: منشورات جمعية رباط الفتح للتنمية المستديمة، 2016.

كمال، حسن. "البحث والتعليم بالمغرب خلال فترة الحماية "مقاربة تاريخية". أطروحة أعدت لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس. الرباط. 2001-2002. (غير منشورة).

كنبيب، محمد. **يهود المغرب 1912-1948.** ترجمة إدريس بنسعيد. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1998.

المرون، مصطفى. **فرق الجيش المغربي في الحرب الأهلية الإسبانية: مساهمة في إرجاع الملكية إلى إسبانيا 1936-1939.** الرباط: دار القلم للطباعة والنشر، 2021.

المغرب والزمن الراهن. إشراف وتقديم محمد القبلي. تنسيق عبد الرحمن المودن. الرباط: منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، 2013.

المكاوي، أحمد. **الدور الاختراقي والاستعماري للطبابة الأوروبية في المغرب.** الدار البيضاء: منشورات الزمن، 2009.

الملكي، المالكي. **ثورة القبائل ضد الاحتلال.** الرباط: منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2014.

ممارسة العلوم الاجتماعية في البلدان المغاربية: نصوص مهداة إلى إدريس المنصوري. تقديم وتحرير فرانسوا بويون ومحمد المبكر. الدار البيضاء/ فاس: كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز ومنشورات مؤسسة آل سعود، 2014.

من الحماية إلى الاستقلال إشكالية الزمن الراهن. تنسيق محمد كنبيب. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2006.

وحيد، محمد. **الهلال الأسود 1953-1956 التأسيس والتأصيل: محاولة لإثراء تاريخ المقاومة الوطنية المغربية.** الدار البيضاء: سوماكرام، 2013.

ياسين، إبراهيم. "آثار التغلغل الفرنسي جنوب الأطلس الكبير، نموذج قبائل أيت ووازكيت 1912-1939". أطروحة أعدت لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس. الرباط. 1999-2000. (غير منشورة).

يخلف، محمد. "تطور أدوات السياسة المحلية بمدينة صفرو من نهاية القرن 19 إلى غاية سنة 1956". أطروحة أعدت لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس. الرباط. 1986. (غير منشورة).

اليزيدي، محمد. "التعليم بالمغرب على عهد الحماية مدينة فاس نموذجًا 1912-1956". أطروحة أعدت لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ. كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز. جامعة سيدي محمد بن عبد الله. فاس. 2002-2003. (غير منشورة).

الأجنبية

Abdallah, Laroui. *Le Maroc et Hassan II: Un témoignage*. Casablanca: Presses Inter Universitaires, 2005.

Ayache, Germain. *La guerre du rif* . Paris: L'Harmattan, 1996.

Baida, Jamaa. *La presse Marocaine d'expression française des origines à 1956*. Rabat: Publication de la Faculté des lettres et des Sciences Humaines, 1996.

Bekraoui, Mohamed. *Les Marocains dans la Grande Guerre, 1914 - 1919*. Casablanca: Publications de la Commission marocaine d'histoire militaire, 2009.



Bouaziz, Mostapha. *Aux origines de la Koutla démocratique*. Casablanca: Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines Ain Chok, 1997.

Boutbouqalt, Tayeb. *La guerre du Rif et la réaction de l'opinion internationale 1921-1926*. Rabat: Imprimerie Najah El Jadida, 1992.

________. *les Agences mondiales d'information Havas 1889 - 1940*. Rabat: El Maarif Al Jadida, 1994.

________. *La politique d'information du protectorat français au Maroc 1912 - 1956*. Casablanca: Edition maghrébines, 1996.

Kharchich, Mohammed. *La France et la guerre du rif 1921 - 1926*. Tétouan: Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Université Abdelmalek Essaadi, 2013.

Laroui, Abdallah. *Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912)*. Paris: Maspero, 1977.

Recherches sur l'histoire du Maroc: Esquisse de bilan. Collection: Colloques et séminaires, no. 14. Rabat: Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, 1989.

Rousso, Henry. "L'histoire du temps présent, vingt ans après." *L'histoire du temps présent, hier et aujourd'hui*. no. 75 (2000).

Zade, Mohammed. *Résistance et armée de libération au Maroc (1947-1956): De l'action politique à la lutte armée: Rupture ou continuité?* Rabat: Publication Haut-commissariat aux anciens résistants et anciens membres de l'armée de libération, 2006.



الرقم التعريفي: DOI: https://doi.org/10.31430/AIEI6498

محمد حاتمي | Mohammed Hatmi*

تاريخ الجماعات اليهودية المغربية

وظيفية البحث الأكاديمي في إعادة صُنع الشخصية المغربية

The History of Jewish Groups in Morocco

The Functionality of Academic Research in the Re-Creation of the Moroccan Personality

---

من خلال تتبّع سياقات الاهتمام الأكاديمي بالشأن اليهودي المغربي، والتعريف ببعض الأعمال الجامعة التي ركزت على التأصيل التاريخي للجماعات اليهودية المغربية، وإبراز التفاعلات الاجتماعية المؤسسة للعلاقات بين الأغلبية المسلمة والأقلية اليهودية، تهدف هذه الدراسة إلى عرض بعض مظاهر الإقرار بنصيب الجماعات اليهودية المغربية في "صنع الشخصية المغربية"، وهي عملية مفتوحة ومتحركة تركز، بطبيعة الحال، على الماضي، وكذلك على حاضر هذه الجماعات في المغرب نفسه وخارجه، ومستقبل تعلّق الشتات المغربي اليهودي بالبلد الأصل. وما يحسن التنبيه إليه، بدءًا، كون الدراسات التي اهتمت بدراسة الشأن اليهودي المغربي، سابقة زمنيًا كثيرًا لزمن تطبيع العلاقات بين الدولتين المغربية والعبرية، بل إنها لا تقيم أدنى أهمية للقرار الدبلوماسي، لكونها أصلًا تُدرج في دينامية أكاديمية محضة، وتنضبط للمقعدات الصارمة للبحث العلمي. إن قيم التسامح والتساكن والتكامل التي غالبًا ما تُبرِزها الدراسات، لا تفسر، خيارات السياسيين، بل بالأحرى تُبرّرها، وتنحصر قيمتها ووظيفيتها في تثبيت ما يؤسس لشخصية وطنية جعلت من الوفاء لقيم الماضي مرتكزًا لرفع التحديات الآنية والمستقبلية.

والحال، أنه في أثناء تصفّح لوائح البحوث الجامعية الصادرة عن الجامعات المغربية، إن على مستوى الإجازة أو الماجستير أو الدكتوراه، يشدّ الانتباه العددُ المرتفع نسبيًا لعناوين تدل على تخصيص الحيّز الأكبر للجماعات المغربية اليهودية؛ فثمة ما هو من التاريخ العام، وما يخص في الدرس جماعة منطقة بذاتها، وصنف ثالث يركز على الذاكرة والموروث المشترك، فضلًا عن صنف آخر من البحوث يركّز على شخصيات دينية أو فنية أو معلمات معمارية يهودية. ولا يقتصر الاهتمام بالجماعات اليهودية المغربية على حقل التاريخ، بل ثمة دراسات مؤصّل لها في علم الاجتماع والأنثربولوجيا وعلوم الإعلام. والملاحظ كذلك اتساع دائرة هذا "التطبيع"، ليشمل الصحافة المكتوبة والمرئية، لكون العديد من الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية، دأبت موسميًا على إدراج مواد تفصل في قضايا من طبائع مختلفة تهمّ

* أستاذ التعليم العالي في جامعة سيدي محمد بن عبد الله في المغرب، وأستاذ زائر في مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية في فرنسا (باريس)، وجامعة كافوسكاري في إيطاليا (فينيسيا).

Professor of Higher Education at Sidi Mohamed Ben Abdellah University in Morocco, and Visiting Professor at the School for Advanced Studies in the Social Sciences in France (Paris) and Ca' Foscari University in Italy (Venice).

hatmimohammed@gmail.com



المغاربة اليهود[1]، تاريخهم ومراحل تطوّرهم وحاضرهم. وغالبًا ما تثير هذه المواد اهتمام القرّاء، بل يمكن الجزم بأن المواضيع اليهودية مطلوبة، بدليل ارتفاع عدد المبيعات حين يتصدر عنوان مثير الصفحة الأولى لمجلة ما، أو غيرها. وقد انتبه إلى هذا الأمر منتجو أفلام وسينمائيون، فأقدموا بدورهم على إنتاج أفلام تعرض بعض مظاهر العيش اليهودي المغربي ومراحل التطور الداخلي للجماعات ومصائر عائلات وجماعات[2]. ودرجت بعض البرامج التلفزيونية والإذاعية الجادة والوثائقية والترفيهية على إدراج فقرات، أو تخصيص حلقات بكاملها للموروث اليهودي، والتعريف بشخصيات ومأثورات تُقدّم باعتبارها من صميم الموروث المغربي. ولئن تخلّفت الكتابات الأدبية من حيث العدد، فإن رواية **أنا المنسي** لمحمد عز الدين التازي (2015)، فصّلت في وصف الحياة داخل الملاحات وكثافة العلاقات بين المسلمين واليهود. ومن جانبها، كثّفت المؤسسات اليهودية المغربية، سواء ذات المقر في المغرب أو التي تنشط في الخارج، في تنظيم مهرجانات وملتقيات علمية، رغبةً منها في تعزيز الأواصر المادية والرمزية التي تشدّها إلى الوطن الأم ورموز السيادة. ومن أهم مظاهر هذا الاهتمام المستدام، رعايتها متحفًا يهوديًا في مدينة الدار البيضاء، يقدم في الغالب باعتباره المتحف اليهودي الوحيد في بلدان العالم الإسلامي. وفي السياق ذاته، جُعِلت "المؤسسة من أجل التراث الثقافي اليهودي المغربي" Fondation pour le Patrimoine Culturel Judéo-marocain، ويعود إليها الفضل في ترميم العديد من معالم الذاكرة وإعادة تأهيلها، من ذلك بعض الكنائس اليهودية والمقابر وملاح مراكش.

ومهما يكن، يدل التطبيع مع الشأن اليهودي المغربي على إدراك المجتمع تنوّع الروافد التي نهل منها لصنع شخصية متميزة، يطلق عليها "تماغربيت"، وهو تمامًا ما نصّت عليه ديباجة دستور عام 2011: "المملكة المغربية دولة إسلامية ذات سيادة كاملة، متشبّثة بوحدتها الوطنية والترابية، وبصيانة تلاحم مقومات هويتها الوطنية وتنوّعها، الموحّدة بانصهار كل مكوّناتها، العربية - الإسلامية، والأمازيغية، والصحراوية الحسانية، والغنية بروافدها الأفريقية والأندلسية والعبرية والمتوسطية". هذا الأمر "تحصيل حاصل"، بدأ في فترة ما قبل الاستعمار، وتطوّر في ظل الحماية، ليأخذ طابعًا علميًا محضًا في الربع الأخير من القرن العشرين، داخل الجامعات الإسرائيلية والأنكلوسكسونية، ليكتسب طابعًا ومميزات أكثر تأصيلًا في الجامعات المغربية.

أولًا: الأدبيات الاستعمارية

كان من الطبيعي جدًا أن يحظى يهود المغرب باهتمام القنصليات الأوروبية، انطلاقًا من النصف الثاني من القرن التاسع عشر. لقد شكّل وضعهم حلقة ضعيفة في البنيان التقليدي المغربي (شأن هيكلة المخزن السلطاني والعلاقات بين القبائل والمركز وحالة الجيش المغربي وعقليات المتمردين ... إلخ). ومن ثمة، جعل المخبرون والرحّالة والمكتشفون والدبلوماسيون الأجانب في أثناء كتاباتهم تقارير ومؤلفات - عامة وخاصة - في وصف حالة يهود هذه المنطقة أو تلك، سُنّةً لا مَحيد عنها. وكان هدفهم، في الدرجة الأولى، هو إعطاء صورة أكثر جلاءً عن الداخل المغربي وتفكيك جوانب تستدعي معرفة عميقة، من أجل استغلالها استغلالًا ذكيًا ييسّر التعامل مع السلطات المخزنية والتواصل مع السكان[3]. وقد بدت المعارف المكشوف عنها لدى من يهمهم الأمر السياسي آنذاك على جانب كبير من الأهمية، حيث مكّنتهم من التدقيق في عملية التقييم العام لتحديد آليات التوغل في الداخل المغربي

---

1 دأب شمعون ليفي على التنبيه إلى الفرق الجوهري بين عبارتَي "اليهود المغاربة" و"المغاربة اليهود"، مفضّلًا الثانية، لكون الانتماء يتحدد بالأرض، وليس بالدين.

2 "ماروك"، إخراج ليلى المراكشي، 2005؛ "وداعًا الأمهات"، إخراج محمد إسماعيل، 2008؛ "فين ماشي يا موشي"، إخراج حسن بنجلون، 2014؛ "من تنغير إلى القدس"، إخراج كمال هشكار، 2010؛ "الرجال الأحرار"، إخراج إسماعيل الفروخي، 2010.

3 Aomar Boum, "European Travel Narratives and Southern Moroccan Reconsidered: Historical Facts, Personnal Biases, and Colonial Ideologies?" in: Daniel J. Schroeter & Emily Benichou Gottreich (eds.), *Jewish Culture and Society in North Africa* (Bloomington: Indiana University Press, 2011).



ووسائله[4]. وساعد ذلك في ضبط الملامح العامة للجماعات اليهودية، لكونها في الغالب عاشت في إطارات قارة (جغرافيًا واجتماعيًا) يسّرت الإحاطة بالعديد من العوامل (اقتصادية واجتماعية وإثنولوجية). واللافت للانتباه أن "أخبار يهود المغرب"، شكّلت حقًّا "سلعة"، رغب فيها الرأي العام الغربي، فمثّلت رافدًا إضافيًا في صناعة غرائبية الشرق وحَبْك أقاصيص درامية عن العنف والتسلّط في عالم الإسلام غير المتحضر.

أخذت كتابات القرن التاسع عشر شكلَ سرد أدبي، ساعد في الرفع من حبكته كثرة استعمال النعوت والأقاصيص الطريفة وأوصاف مظاهر الترح والفرح (مثلًا، لوحات دولاكروا التي رسمها حين مقامه في المغرب وفق رؤية غرائبية استشراقية)، وهي مادة لا تخلو من إفادات مهمة تمس الجوانب الظاهرة لحياة اليهود المغاربة، وتدل على العديد من العناصر المكوّنة للشخصية اليهودية وتطلّعاتها والعلاقات بين الجماعات والمحيط المسلم. وتثير القارئَ المبالغةُ في ذكر الآمال المعقودة على القوى "النصرانية"، لتهبّ لإغاثتها وإخراجها من الحَيف التاريخي الذي تعانيه في ظل تسلّط إسلامي محكوم عليه بالاندثار[5]. وما تجدر إثارته هو أن جلّ هذه الكتابات تفوح - وأحيانًا على نحو صارخ - بروائح معاداة السامية في أشكالها الأكثر بدائية، فالكتّاب هم في الغالب مسيحيون متشبّعون بالأفكار المسبقة والأحكام الجاهزة، فيما يخص "وضاعة ووقاحة وبخل واتساخ ومراوغة وتسويف [...]" الإنسان اليهودي[6]. ويجد القارئ نفسه في العديد من الأحيان في حيرة من أمره، ذلك أن من يعتبرون أنفسهم مدافعين عن تلك الجماعات هم أشدهم مقتًا لها.

والحال، أن مجموع هذه الكتابات، رسم ملامح صورة قاتمة ليهود المغرب، لأنه سلّط الضوء على نحو مثير على مصادر ومكامن ما اعتبره مظاهر شقاء أزلي ليهود أرض الإسلام[7]. وتكمن خطورة العديد من الاستنتاجات - وهي في الحقيقة استنتاجات سطحية - في تعتيم جانب كبير من الضوابط التي تحكّمت في ضبط وضع اليهود داخل المدينة الإسلامية. ولعل أهم المواضيع التي تعرّضت حقًّا للتشويه استقلاليةُ الجماعات وانسجامها مع محيطها المباشر، وهما مؤشران مهمان لتحديد مكانة اليهود داخل المعادلة المغربية الدقيقة. فعلى الرغم من دونيته الاجتماعية، فإن الذمّي توافرت له العديد من الحقوق الثابتة، في مقدمتها امتناع الدولة عن التدخل في شؤونه الداخلية، وهو امتناع أخذ على الدوام صفة ملزمة للقائمين على الشأن العام.

4 اختزل مؤلف شارل دو فوكو أطروحات الرحالة والمغامرين الأوروبيين ومواقفهم في موضوع اليهود المغاربة وعلاقاتهم بمحيطهم وارتقابهم الخلاص على يد القوى الأوروبية. وعرض دو فوكو في مناسبات عديدة بإسهاب لمظاهر الدونية والاحتقار و"الظروف المأساوية" التي يعيشون فيها. وتجدر الإشارة إلى أن أوصاف دو فوكو أثّرت كثيرًا فيمن جاء بعده. ينظر:

Charles de Foucauld (Vicomte), *Reconnaissance au Maroc (1883-1884)* (Paris: Les Introuvables, 1887).

5 Shlomo Deshen, "Community Life in Nineteenth Century Moroccan Jewry," in: S. Deshen & P. Zenner, *Jews among MuslimsMuslims: Communities in the Precolonial Middle East* (New York: New York University Press, 1996), pp. 98-108.

6 Foucauld.

7 لخّص جيرمان عياش أهم ملامح هذه الصورة كما يلي: "إنها صورة يُصاب فيها أولًا القانون الشرعي ببتر لا يبقي منه إلّا الشروط المقيدة. ونتيجةً لهذا البتر، أضحت كلمة 'الذمي' التي معناه الأصلي هو 'المحمي' فارغة الدلالة، وفقدت تمامًا مدلول الوصاية هذا، وتحوّلت إلى نقيضها تدل على 'المحتقر' و'المنبوذ'، إن لم نقل 'المُهدَر دمه'. ووفقًا لهذا المعنى المحرّف والمغلوط للكلمة، جرى تصوير حياة اليهود المغاربة وكأنها لم تكن دومًا سوى محنة طويلة، يعيشون محاصرين وراء أسوار حيّهم 'الملاح'لا يخرجون منه بلباس الحداد المفروض عليهم إلّا ويتعرّضون للسخرية والشتائم والرجم بالحجارة. أما إذا ما غامروا بالخروج إلى البادية، فيتعرّضون حتمًا للنهب أو القتل. أما الجزية، وهي الضريبة المرتفعة الخاصة بهم، فهي ظلم في حد ذاتها إذ تثقل كاهلهم دون غيرهم، وغلوًّا في الظلم كانوا يُضرَبون بالعصي جزاءً لأدائهم الجزية. وهذه العقوبات تبقى على كل حال هيّنة إذا ما قورنت بتلك التي يكونون ضحيتها في حالة حصول ثورات دامية تجعل حياتهم ونساءهم وأطفالهم من حين إلى آخر تحت رحمة الجند والمتمردين". ينظر: جيرمان عياش، "الأقلية اليهودية في مغرب ما قبل الاستعمار"، **مجلة دار النيابة**، العدد 12 (خريف 1986)، ص 8.



تقلّل الحماسة الاستعمارية لنصرة اليهود المغاربة والنهوض بأوضاعهم منذ توقيع معاهدة الحماية، ومباشرة فرنسا وإسبانيا، تسيير أمور البلاد وتدبير أمور أهاليها؛ ومن ثم تنحية القوى الأخرى. ومع ذلك، بقي البحث في أوضاع الجماعات اليهودية موضوعًا ذا جاذبية؛ فأُنجزت، خلال عقدَي الحماية الأولَين، دراسات رائدة، غالبيتها شبة أنثروبولوجية[8]، سارت على نحو منهجي في النسق نفسه لما أنتجه في السابق أشخاص بعيدون عن الحقول العلمية والأكاديمية[9]. في واقع الأمر، استمر الترويج لملامح الصورة القاتمة التي وُضعت خلال القرن التاسع عشر، وبقيت غالبة على الإنتاج الفكري في العلوم الإنسانية. ولم يَنل التمرس في اختصاصات علمية منوعة (من الباحثين الأكاديميين والإداريين، والضباط المتمرسين أيضًا في البحث الميداني) من هوس توجيه البحث نحو مقاصد غير علمية. ويكمن السبب الرئيس وراء تكريس هذا المنحى في سعي المهتمين لتنصيب القوة الحامية كصانع رئيس ووحيد لمسألة التحرير اليهودي في المغرب، وهو أمرٌ بمنزلة جملة من المراحل التي قامت على منطق العتق التدرّجي من قيود الذمة. وقد سما هذا الادعاء إلى مرتبة "الحقيقة التاريخية"، على نحو جعل أغلبية يهود المغرب - خاصة النخب المتعلمة - تعتقد حقًّا في الأمر وتُردّده بطريقة عفوية[10]. وما من شك في أن الخلفيات "الأبوية" لروّاد المدرسة الاستعمارية في البحث التاريخي والسوسيولوجي والإثنولوجي، وهوس التنقيب عن عناصر الاختلاف والتناحر بين يهود المغرب ومُسلميه، والتشديد على مظاهر الاحتقار والخضوع، والبرهنة على أن التحرر أتى مع فرنسا، ومرهون بالحضور الفرنسي، أمورٌ جعلت الأبحاث تحيد عمومًا - وأحيانًا على نحو سافر - عن قواعد البحث العلمي[11].

خلال العقد الأول من الاستقلال، انخفضت وتيرة الاهتمام الأكاديمي بدراسة يهود المغرب لأسباب ظرفية. لقد تعرّضت الجماعات في تلك المرحلة التاريخية تحديدًا لحركية مبعثرة جعلت من الصعب ضبط العناصر المكوّنة للمحيط العام الذي تتحرك داخله. وكان الوضع أكثر ملاءمةً لتحريات العديد من الصحافيين والمبعوثين الخاصين المتخصصين في "الروبورتاجات" الذين ركّزوا في مقالاتهم المنشورة، في كبريات المجلات اليهودية، على وصف التغييرات الواضحة الطارئة على المؤسسات اليهودية[12].

---

8 حظيت الجماعات اليهودية خلال الحقبة الاستعمارية بالعديد من الدراسات (سوسيولوجية وإثنولوجية ولغوية، وغيرها). وأفرد بعض الباحثين إنتاجه الفكري للوقوف على خصوصيات أنماط عيش وطرائق تفكير أقلية دينية تعيش وسط أغلبية تشاطرها العديد من العادات والتقاليد. وفي تعليقه على العدد المهم الذي كتب في الموضوع، أشار أندري آدم إلى أن الأسباب تكمن أولًا في سهولة التحرّي في موضوع أقلية منسجمة ومجتمعة في مكان محدد، وثانيًا في سهولة التواصل عبر اللغة الفرنسية التي يتقنها أغلب يهود المغرب، وثالثًا في الاهتمام "التاريخي" الذي بقي يكنّه الأوروبيون - من المسيحيين واليهود - لليهود الذين يعيشون في أرض الإسلام. وأولت المنظمات اليهودية العالمية بدورها اهتمامًا ملحوظًا بموضوعَي عرض التعريف بقضايا ذميي الدولة الشريفة وإيجاد حلول لها، وعملت كذلك على أن يكتسب العديد من المتعلمين اليهود المغاربة كفاءات علمية عالية تمكّنهم من التخصص في دراسة مجتمعاتهم وعلاقاتها مع محيطها. ينظر:
André Adam, *Bibliographie critique de sociologie, d'ethnologie, et de géographie humaine du Maroc* (Alger: CNRS, 1972), p. 47.

9 Jean Goulven, *Les Mellahs de Rabat-Salé* (Paris: Geuthner, 1927); José Benech, *Un des aspects du judaïsme: Essai d'explication d'un Mellah (ghetto marocain)* (Paris: Larose, 1940); Edouard Mouillefarine, "Etude historique sur la condition juridique des juifs au Maroc," Thèse de doctorat en droit, Paris, Imprimerie Félix Carbonnel, 1941; Pierre Flamand, *un mellah en pays berbère: Demnate, Institut des Hautes Etudes Marocaines* (Paris: Librairie Générale de Droit et de Jurisprudence, 1952); P. Flamand, *Diaspora en terre d'Islam: Les communautés du Sud marocain* (Casablanca: Imprimeries réunies, 1959).

10 Haim Toledano, "Le Maroc nouveau et les Israélites," Association des Anciens Elèves de l'Alliance Israélite Universelle, Tanger, Imprimerie marocaine, 1913; Prosper Cohen, *Congrès juif mondial: conférence extraordinaire de guerre 26-30 Novembre 1944* (Casablanca: Edition SIPEC, 1945).

11 يقول محمد كنبيب في الموضوع: "ما كان لمنهج من هذا القبيل أن يتعامل من الناحية العملية مع ماضي الجماعات اليهودية إلّا من زاوية لاتاريخية والتقليل من شأن الدور الذي قامت به، سواء في الميادين الاقتصادية والمالية أو في مجالات الثقافة والحضارة، ويتغافل طبعًا عن ذكر واعتبار المساهمات السياسية والدبلوماسية التي يشهد بها، على سبيل المثال وليس الحصر، الرفعة التي حظيت بها شخصيات يهودية عند السلاطين ووزراء المخزن". ينظر:
Mohamed Kenbib, "Recherches sur les juifs du Maroc: Esquisse de bilan," in: *Les sciences humaines et sociales au Maroc: Études et arguments* (Rabat: Université Mohammed V-Souissi/ IURS, 1998), p. 172.

12 Hall Lehrman, "Morocco's Jews between Islam and France: How Good are Nationalist Pledge of Equal Rights," *Commentary*, vol. XX, no. 5 (November 1955), pp. 393-402; Wladimlir Rabinovitch Rabi, "Destins au Maroc," *Evidences*, année 8, no. 62 (Janvier-Février 1957), pp. 15-22, 46; Norman A. Stillman, "The Moroccan Jewish Experience: A Revisionist View," *The Jerusalem Quarterly*, no. 9 (Fall 1978), pp. 111-123.



ويذكّر هذا "الإنتاج الأدبي"، من حيث منهج الكتابة، بما اعتمده رحّالة القرن التاسع عشر، ذلك أن الصحافي يعطي انطباعًا – على الأقل بالنسبة إلى القارئ اليهودي الغربي - بأنه بصدد نفض الغُبار عن جماعات منسيّة ومهدّدة، وأنه لا يزال للغرب دور يستوجب القيام به لمصلحتها، لئلّا تحصل مآسٍ جديدة. ودفع هاجس التركيز على مظاهر الخوف والفزع والخيبة إلى اعتبار اليهود وحدهم ضحايا الاستقلال.

ثانيًا: الدراسات في الجامعات الإسرائيلية

لم يولِ الباحثون الإسرائيليون في بداية الأمر تاريخَ الوجود اليهودي في المغرب اهتمامًا خاصًا. فإذا استثنينا بعض الدراسات العامة[13]، ودراسات أخرى هدفت إلى تمجيد أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية العاملة في المغرب[14] (مع مراعاة عدم التفصيل في طبيعة تواطؤ مسؤولين مغاربة وحجم التواطؤ نفسه)[15]، فإن الأعمال الأكاديمية التي خصّت هذه الشريحة المهمة عدديًا اهتمت أساسًا بالموروثات والترسّبات الثقافية التي جعلت من الصعب إدماجها داخل المجتمع الإسرائيلي[16]. وانصبّ البحث على "السلبيات"، أي على الأمور التي تُبرز أن المشروع الصهيوني شكّل خلاص يهود أرض الإسلام، وأن الدولة العبرية نجحت حقًّا في تحقيق معجزة الإدماج، على الرغم من المعوّقات والعراقيل. ويمكن تفسير الوضع بعاملين: الأول هو هيمنة الأشكناز على الميادين السياسية والاقتصادية وحتى على الاهتمامات العلمية؛ والثاني هو عدم وجود نخبة مثقفة يهودية من أصول مغربية تعطي أولوية خاصة لدراسة تاريخها الخاص. وبناءً عليه، لم تقدّم الجامعة الإسرائيلية خلال العقود الثلاثة الأولى من عمر الدولة العبرية أي بحث متميز في مواضيع تاريخية أو تراثية لليهودانية

13 في عام 1965، صدرت باللغة العبرية دراسة في التاريخ العام ليهود أفريقيا الشمالية، للمؤرخ الإسرائيلي هيرشبورغ، عرض فيها للعديد من العناصر المكوّنة للشخصية اليهودية في المغرب. وأصبحت هذه الدراسة فيما بعد أحد أهم مصادر البحث (مصدر كلاسيكي) بالنسبة إلى يهود شمال أفريقيا. ويدل صدور ترجمة له بالإنكليزية عام 1981 على ما اكتسبه الموضوع من أهمية منذئذ. ينظر:

H. Z. Herschberg, *A History of the Jews in North Africa*, vol. 2 (Leiden: E. J. Brill, 1981).

14 نُحيل على "الطبخة الصحافية" لصمويل سغيف Samuel Seguev حين نشر بالعبرية في عام 1984، بدعم من وزارة الدفاع الإسرائيلية، مؤلفه **عملية ياكين: الهجرة السرية ليهود المغرب إلى إسرائيل**، وهو صحافي ميداني، كتب العديد من الروبورتاجات، واستفاد في تحرّياته من العلاقات الخاصة التي تربطه بأقطاب "الإشطابليشمنت الأشكنازي"، فقد فتحوا له بعض الملفات السرّية الموجودة في الوزارة الأولى والخارجية. ونشير إلى أنّ الهدف من نشر الكتاب هو الرد على المزاعم التي روّج لها اليمين الإسرائيلي في كون الاشتراكيين لم يولوا يهود المغرب الأهمية التي يستحقونها.

15 في مؤلفها عن العلاقات المغربية - الإسرائيلية، أشارت إيناس بنسيمون إلى أن موضوع الهجرة السرية بقي طوال عقود "تحت الرقابة"، لأن السلطات الإسرائيلية سعت للحفاظ على علاقات جيدة مع نظيرتها المغربية. ويُدرج الكتاب في سلسلة الأعمال الصحافية الهادفة إلى رد الاعتبار إلى العناصر السفردية، وتبيان دورها في بناء الدولة العبرية. وقد عملت بنسيمون - وهي صحافية اعتنقت اليهودية - على إبراز بعض الجوانب الخفية من تاريخ الهجرة اليهودية من المغرب إلى إسرائيل، والإشادة بدور جهاز Misgueret الذي كلّفه الموساد والوكالة اليهودية بتأطير الهجرة السرية وتنظيمها. وأشارت إلى الدور "الخفي" الذي قام به بعض المنتمين إلى الأطر العليا في الدولة المغربية، وعلى رأسهم الجنرال أوفقير. ووجب التنبيه إلى أن الكتاب صدر في الفترة التي تعرض فيها النظام المغربي إلى حملة دعائية في شخص ملكه الحسن الثاني، دشّن لها كتاب جيل بيرو **صديقنا الملك**:

Gilles Perreaut, *Notre ami le roi* (Paris: Flammarion, 1990);

ثم مؤلف مومن الديوري **من يحكم المغرب؟**

Moumen Diouri, *A qui appartient le Maroc* (Paris: L'Harmattan, 1992);

إن لعنوان الكتاب **الحسن الثاني واليهود**، هدفًا أساسيًا هو الإثارة. ينظر:

Agnès Bensimon, *Hassan II et les Juifs: Histoire d'une émigration secrète* (Paris: Seuil, 1991).

16 Mony Elkaim, *Panthères noirs d'Israël*)Paris: Maspero,1972); Deshen Shlomo, "The Judaism of Middle Eastern Immigrants," *The Jerusalem Quarterly*, no. 13 (Fall 1979), pp. 98-110; Alex Weingrod (ed.), *Studies in Israeli Ethnicity: After the Ingathering* (New York: Gordon and Breach Science Publishers, 1985).



المغربية[17]. ووقف، بأسف شديد، الصحافي اليهودي المغربي فيكتور مالكا (استقر في فرنسا) على هذه الحقيقة، فلم يتردد في وصف يهود المغرب "بيهود الصمت"، و"يهود العار"، و"اليهود المنسيين"[18].

عرف الاهتمام داخل الجامعة الإسرائيلية بمواضيع تخص اليهود المغاربة نقلةً مهمةً في النصف الثاني من السبعينيات. ففي السنوات التي تلت وصول اليمين الإسرائيلي إلى الحكم (حكومة ميناحيم بيغين في عام 1977) أساسًا بفضل أصوات الكتلة السفردية (يشكل اليهود المغاربة داخلها نسبة مهمة)، انخرط العديد من الباحثين من أصول مغاربية في عملية هدفت إلى رد الاعتبار إلى هذه الشريحة المهمة، وتبيان حجم مقوّماتها التراثية والإرث الفكري والفلسفي ونصيب مساهمتها المتميزة في التراث اليهودي والحضارة الإنسانية[19]. وانصب الاهتمام في البداية على الجوانب الفلكلورية، ثم بعد ذلك أخذ البحث منحًى خاصًا، ركّز على "العصور الذهبية" و"المظاهر المشرقة"، ومساهمات الشخصيات الفكرية والموسيقية والروحية. وبعد أن خمدت حماسة هذه "الحملة"، أخذ البحث في تاريخ اليهود في المغرب توجّهات علمية بحتة، ساعد في تحقيقها اعتماد منجزيها، فضلًا عن الشهادات الشفوية، على كم هائل من الوثائق المتراكمة في الأرشيف الصهيوني في القدس، وما تم نقله من المصادر العربية.

ثالثًا: مساهمات الباحثين الأميركيين

في ستينيات القرن العشرين، كرّس بعض الباحثين الأميركيين – وكانت غالبيتهم آنذاك في بداية مشوارها العلمي- جهودهم لدراسة جوانب من تاريخ المغرب وحاضره؛ فاهتموا، على نحو أو آخر، بالجماعات اليهودية في المغرب[20]. وتعتبر مساهمات هؤلاء الباحثين الميدانية حاسمة، لأنها اعتمدت مناهج في البحث الأنثروبولوجي أثبتت نجاعتها في دراسة مجتمعات أخرى (من العالم الثالث)، تتميز بتركيبتها الاجتماعية المعقدة ووجود دولة متمركزة تولي الشرعية الدينية قيمةً سامية[21].

17 من أوائل المحاولات الجدّية التي أوقفت لنفسها مناهج وغايات اعتبرتها "علمية"، وانتفضت ضد نمط الكتابة الاستعمارية والإسرائيلية فيما يخص تاريخ المغرب، كتابات دافيد كوركوس (قرقوز) الذي غادر المغرب في عام 1957، واستقر في إسرائيل، وفيها عمل خلال سنوات على كتابة تاريخ عام ليهود المغرب. ففضلًا عن الانخراط الانخراط كلية في منطق الكتابة الوطنية المغربية الهادف إلى تقديم الأمور في "أكثر أوجهها إشراقًا"، سعى كوركوس لتبيان أن العلاقات بين مسلمي المغرب ويهوده خضعت لقانون طبيعي، هو منطق التغير وفقًا للمناطق الجغرافية، وللمراحل التاريخية والوضع الاقتصادي وموازين القوى السياسية. ففي رسالة إلى جان-لويس مييج Jean-Louis Miège في 14 آب/ أغسطس 1964، خلص كوركوس إلى أنه من غير المعقول "الحكم على يهود المغرب بصفة تكاد تكون منهجية انطلاقًا من الأسفل، كما لو أن تاريخ فرنسا بأكمله لا يمكن سرده إلّا عبر مآسيها ومحن أقنانها وأشرارها. إن الدراسات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية خلال عهد الحماية، قدّمت تاريخ اليهود في المغرب عبر كليشيهات البؤس والاحتقار والربا والسرقة، وقد طغت هذه الطريقة إلى درجة أن اليهود أنفسهم باتوا يصدقونها". وفي موضوع العلاقات بين اليهود والمسلمين في المغرب، عبّر كوركوس عن رفضه لـ "الرأي السائد" "الذي جعل منها "سلسلة لامتناهية من الاضطهاد والتحقير"، وأشار إلى أن الذين روّجوا لهذه الفكرة المغلوطة، هم الباحثون في علم الاجتماع الأجانب عن جهل، ولأنهم بدورهم وقعوا ضحايا الأفكار المسبقة والصور النمطية. وفي محاولة لرد الاعتبار إلى العلاقات بين مسلمي المغرب ويهوده، اعتبر كوركوس أنّ "الفترات الحالكة" لا تمثل سوى فترات عابرة و"حوادث طارئة"، لا يمكنها بأي حال من الأحوال اختزال التاريخ اليهودي في أرض المغرب، ولا أن تمثل نماذج، لأن القاعدة كانت هي "كما هو شأن الغالبية العظمى من العامة، فإن الأعيان والسلطات كانوا دومًا يعبّرون عن حرصهم على سلامة اليهود وتضامنهم معهم، فسلكوا تجاههم سيرة طيبة". وفيما يخص العلاقات بالمخزن، تمثّل بعائلته قائلًا: "إنّ علاقاتنا مع مسلمي المغرب كانت قوية ومتعددة المواضيع ومستدامة. ثم إن صداقاتنا بالبرجوازية المسلمة (التجار) والطبقة الحاكمة والعائلة الملكية كانت تقليدية". نقلًا عن:
M. Abitbol, "Témoins et acteurs: les Corcos et l'histoire du Maroc contemporain," Institut Ben-Zvi, Centre de Recherches sur les Juifs d'Afrique du Nord, Jérusalem, 1977, pp. 8-9.

18 "لقد جُرّد يهود المغرب من تاريخهم، واقتُلعت جذورهم، وهم اليوم يتامى ماضيهم، ويشكّلون "عالمًا ثالثًا" بالنسبة إلى العالم اليهودي بعد أن كانوا طوال قرون ذميي العالم الإسلامي". ينظر:
V. Malka, *La mémoire brisée des juifs du Maroc* (Paris: Edition Entente, 1978), p. 13.

19 Haim Zafrani, "Le judaïsme d'Occident musulman: Etat des travaux," *Les Temps Modernes*, année 34, no. 394 (1979), pp. 109-122.

20 Ettibari Bouasle, "Moroccan Society an American Anthropology," in: J. B. Booking-Weiner & M. El Mansour (eds.), *The Atlantic Connection: 200 Years of Moroccan-American Relations, 1786-1986* (Casablanca: Edino, 1990), pp. 223-243.

21 Clifford Geertz, *Observer l'Islam, changement religieux au Maroc et en Indonésie* (Paris: La Découverte, 1992).



تُدرج مجموع هذه الأبحاث في إطار مشروع عام وضع لبناته الباحثان إيرنست غيلنر وكليفورد غيرتز، هَدف إلى تحديد آليات وأخلاقيات التعامل بين عناصر بشرية متنافرة، دفعت بها إكراهات العيش، في مجالات تتميز بالصعوبة وقلّة الموارد المعيشية، إلى اختلاق إطارات فلسفية ومادية تُمكّنها من تحقيق الانسجام[22]. وكان أحد أهم تحديات البحث هو فك ألغاز العلاقات المعقدة بين أغلبية مسلمة، مزهوّة بإيمانها بدين تعتبره الحق الذي لا حق سواه، وأقلية يهودية، لها من المقوّمات الشخصية والروحية والثقافية ما يؤهلها للقيام بأدوار اقتصادية واجتماعية حيوية[23]. واسترعى انتباههما بدرجات متفاوتة ازدواجية الطابع الاجتماعية في التعامل مع الآخر، فمن جهة، ثمة ترسخ لمظاهر التعصب في التعامل مع كل دخيل (بغض النظر عن دينه ودوافعه). ومن جهة أخرى، ثمة غلبة لشيَم التسامح في التعامل مع العناصر المهمّشة المندمجة[24]. وخلصت الدراسات إلى أن تأصل اليهودانية المغربية (الارتباط بالأسرة والجماعة واحترام التراتبيات والتعلق بالرموز الدينية والرفض المنهجي للبدع الثقافية... إلخ) ظاهرة مرتبطة بترسخ عادات ومعتقدات اكتُسبت في المجال المغربي، فأضحت مميزات جماعية من الصعب مسخها[25]. وتجدر الإشارة إلى أن الباحثين الأميركيين تأثروا، في أثناء دراستهم للعلاقات بين المسلمين واليهود، بالمادة الأنثروبولوجية التي موضوعها اليهود المغاربة المستقرون في إسرائيل، ذلك أن صعوبة الاندماج وعسر تأقلم المجموعات اليهودية في المجتمع العبري - خاصة تلك التي استقدمت من المناطق الأمازيغية - ظاهرةٌ استأثرت باهتمام الجامعيين الإسرائيليين، فخصصوا لها دراسات عديدة.

على الرغم من صعوبة وضع الدراسات الأنثروبولوجية الأميركية كلها في خانة واحدة، لأسباب موضوعية ومنهجية، فإن ما يلفت هو عرضها لموضوع العلاقات بين المسلمين واليهود في أرض تنتمي إلى دار الإسلام، انطلاقًا من مقولات ومعطيات ومسلّمات مُستقاة من موضوع "أكبر" حظي بدراسات "أوفر"، هو موضوع العلاقات بين الأغلبية والأقلية في أوروبا، حيث شكّل نموذج "الشتيل" Schteel – خاصة الجوانب الحالكة منه - "المعيار". أما ما كان دونه، فيقارن به. وجعلت هذه المقاربة الدراسات تقف على العديد من الحقائق، وتنفذ إلى مكامن مهمة، تُفسّر آليات العلاقات بين المسلمين واليهود في المغرب وضوابطها، إلّا أنها في المقابل عرقلت

---

22 شكلت مدينة صفرو "العيّنة" الرئيسة لجلّ دراسات مدرسة غيلنر-غيرتز؛ ففضلًا عن الأسباب سالفة الذكر، نشير إلى توافر المدينة على خصوصيات منوعة، من أهمها الموقع في مجال خصب ومنتج، يربط مباشرة بين مجال الأمازيغ ومجال "العرب"، ما فرض التعايش بين "عصبيات مختلفة"، ووجود جماعة يهودية مهمة مستقرة منذ قرون.

23 Clifford Geertz, Hildred Geertz & Lawrence Rosen, *Meaning and Order in Moroccan Society: Three Essays in Cultural Analysis* (Cambridge: Cambridge University Press, 1979); Lawrence Rosen, "Muslim-Jewish relations in a Moroccan City," *International Journal of Middle Eastern Studies*, no. 4 (1972), pp. 435-449; Kenneth Brown, "Mellah and Medina: A Moroccan City and its Quarters (Salé 1880-1930)," in: Issachar Ben Ami (ed.), *Studies in Judaism and Islam* (Jerusalem: Magnes Press, 1981), pp. 253-281; Moshé Shokied, "Jewish Existence in a Berber Environment," in: *Les Relations entre Juifs et Musulmans en Afrique du Nord XIX-XX siècles: Actes du colloque international de l'Institut d'histoire des pays d'outre-mer, Abbaye de Sénanque, Octobre 1978* (Paris: CNRS, 1980); Dale Eicklman, "Religion and Trade in Western Morocco," *Review of Economic anthropology*, no. 5 (1983), pp. 335-348; Allan R. Meyers, "Patronage and Protection: The Status of Jews in Precolonial Morocco," in: Deshen & Zenner, pp. 85-104; Harvey E. Goldberg, "The Mellahs of Southern Morocco: Report of a Survey," *MR*, vol. 8, no. 3-4 (1983), pp. 61-69.

24 نورد على سبيل المثال، دراسة الباحث لورنس روزن. لقد اهتم بالوضع الاجتماعي لجماعة مدينة متوسطة هي صفرو، فاستقر فيها خلال الفترة 1967-1968. وصادف مقامه في المدينة اندلاع حرب الأيام الستة في الشرق الأوسط (حزيران/ يونيو 1967)، فحدث أن عاين تطور العلاقات بين يهود المدينة ومسلميها خلال مرحلة حرجة، فكانت دراسته مميزة لأنها استندت إلى معاينة واقعين مختلفين: أحدهما خلال ظروف عادية، والآخر في ظروف استثنائية. وخلص إلى أنه في الظروف العادية يتم التعايش في سلام وانسجام، وهو ما يمكّن اليهود من بلورة علاقاتهم بمحيطهم وتنمية مصادر عيشهم، خاصة حين يكون موضوعها هو الربط بين المناطق العربية والمناطق الأمازيغية. ولاحظ أن الأمازيغ يفضلون عادة التعامل مع اليهود حتى يقلّلوا من حجم ومناسبات التعامل مع العرب للحفاظ على استقلاليتهم، وهو ما ترتب عليه استمرارية شبكة مهمة من الصداقات وتمتينها، تجاوزت في متانتها واتساعها تلك المتوافرة لتجار عرب في المجال الأمازيغي. وفي المقابل، تعمد العناصر اليهودية حين حدوث أزمات إلى الاحتماء بمصدر قوة مسلم يكون درعهم ضد تجاوزات فردية أو جماعية. ينظر:
Lawrence Rosen, "Moroccan Jewish Community during the Middle Eastern Crisis," *The American Scholar*, no. 37 (1968), pp. 435-451.

25 Raphael Pataî, *The Seeds of Abraham: Jews and Arabs in Contact and Conflict* (Salt Lake City: University of Utah Press, 1986); Heskel M. Haddad, *Jews of Arab and Islamic Countries: History, Problems, Solutions* (New York: Shengold Publishers, 1984).

تجدر الإشارة إلى أن هذا الصنف من الأبحاث عمد على نحو رئيس إلى البحث عن الأسباب المُفسّرة لصعوبة اندماج اليهود القادمين من المغرب حين وصولهم إلى إسرائيل، وارتفاع نسب الإجرام والانحراف والتحلل الاجتماعي بينهم إذا ما قورنوا بجماعات يهودية قدِمَت من مناطق أخرى من أرض الإسلام.



إلى حدٍ بعيد الموضوعية العلمية لافتقاد الباحثين معرفة دقيقة بالتاريخ العام للبلاد، وبالتاريخ الإسلامي، وهو ما وجّه تحرياتهم، إما نحو ترصّد مكامن الخلل، وإما نحو تعداد مظاهر الانسجام. ثم إن المعرفة غير المتكافئة بين النموذج (الشتيل) والحالة المغربية، جعلت من العسير تتبع أسانيد سلوكات جماعية مقعدة وخلفياتها ومظاهرها؛ فالعملية تتطلّب مقاربات اجتماعية وتاريخية وأنثربولوجية عامة وجماعية (يهود ومسلمين)، وليس تقييم مكاسب الجانب المستفيد وخسارات المتضرر في المعادلة[26].

ومهما يكن، فإن دراسات طلاب مدرسة "غيلنر-غيرتز"، فتحت آفاقًا جديدة أمام البحث التاريخي في موضوع العلاقات بين المسلمين واليهود في "المجتمعات المغربية". لقد أضافت إلى الرصيد المعرفي السوسيولوجي الفرنسي العديد من المعطيات، لا يمكن العمل من دون الإحالة عليها وأخذها في الحسبان.

وشكّلت هذه الدراسات مجتمعة قاعدة لموجة من الأبحاث الأكاديمية المؤصل لها، وقُدّمت ونُشرت في وقت لاحق، وجعلت في حسبانها التأصيل للمقعدات المتحكمة في ضبط العلاقات بين الأغلبية المسلمة والأقلية اليهودية، وأولت كثيرًا من الاهتمام لما تختزله الذاكرة من انطباعات عن الوجود اليهودي في مناطق أخلاها اليهود من جراء موجات الترحيل الجماعي في العقدين الخامس والسادس من القرن العشرين. واستوجبت هذه الدراسات الأنثروبولوجية، أساسًا، استحضار السياقات التاريخية لتوضيح درجة الانسجام الاجتماعي والتكامل الاقتصادي وحجمهما، وامتدادًا لهما، أسباب استمرار ارتباط الشتات اليهودي المغربي بالدولة المغربية ورموزها السيادية[27]. ونظرًا إلى الأهمية الكبرى لهذه الأعمال، فقد ترجمها خالد بن الصغير من الإنكليزية إلى العربية، ونشرتها كلية الآداب في الرباط[28].

---

26 نتلمس بعض مظاهر هذه النزعة في كتابات نورمان ستيلمان الذي، انطلاقًا من انتقادات صريحة لمدرسة غيلنر التي اعتبرها ذات توجه، يسعى لتغييب عامل الذمة وتقديم العلاقات بين الأغلبية والأقلية في صورة مثالية، شدد من جهته على مظاهر الدونية الاجتماعية واستمرارية التهديد الكامن بالقوة. وخلص إلى أن حياة اليهود داخل المجتمع المغربي اتسمت بالإقصاء (المنع من ممارسة المهمات العمومية والتمتع بحقوق طبيعية) والنفي الداخلي (داخل الملاحات). وارتأى ستيلمان أن تكريس ثقافة الذمة حال دون تمكّن الجماعات اليهودية من اتخاذ مبادرات، فبقوا تحت رحمة السلاطين ورجال السلطة المحليين والزعماء الثائرين. ينظر:
N. A. Stillman, "The Moroccan Jewish Experience: A Revisionist View," *Association for Jewish Studies Newsletter*, no. 18 (1976); N. A. Stillman, "The Jews in Medieval Islamic City," in: Daniel Frank, *The Jews of Medieval Islam: Community, Society and Identity* (Leiden: E. J. Brill, 1995), pp. 3-13;

وقد درس ستيلمان على نحو مستفيض الثقافة واللغة (الشفوية والمكتوبة) ليهود مدينة صفرو، وقف خلالها عند العديد من المعطيات الاجتماعية داخل الجماعة، وعلى علاقاتها بمحيطها المباشر والمجاور والبعيد أيضًا. وتشير الإحصاءات التي قدّمها إلى أن عدد اليهود، في عام 1950، فاق في صفرو ستة آلاف نسمة (ما بين ثلث سكان المدينة وخمسهم)، وهو ما جعل منها سابع مدينة "يهودية" في المغرب من حيث العدد، وقد عكس حقًّا الأدوار الاقتصادية التي قاموا بها. وترتب على التمركز اليهودي اشتمال المدينة على العديد من المدارس التلمودية والمؤسسات الخيرية النشِطة، وقد ساهمت في تفعيل أنشطتها السمعة التي كانت لربّييها الذين تعتبر اجتهاداتهم وفتاواهم مرجعية في العديد من القضايا. وبيّن الباحث أن عدد اليهود بقي مرتفعًا نسبيًا، على الرغم من المتغيرات السياسية التي طرأت على المغرب (3000 نسمة)، لينخفض على نحو مثير بعد حرب عام 1967، فيصل أربع سنوات بعد ذلك إلى 650 شخصًا. وإلى حدود عام 1972، كانت لا تزال تعيش في صفرو 47 عائلة، أي 199 شخصًا، أغلبهم من الميسورين العاملين في ميدان التجارة (لم يتعدّ عدد العائلات الفقيرة العشرة، بقيت تقطن الملاح). وتقلّص العدد إلى أقل من مئة شخص في العقد الموالي، وبقي ستة منهم يقطنون الملاح. وأشار الكاتب إلى أن يهود المدينة بقوا يعتبرون أنّ العرش العلوي القائم عليه ضمانة لاستقرارهم وأمنهم. ففي مناسبتَي الانقلابين العسكريين (1971 و1972)، خرج اليهود إلى الشارع، ليُعبّروا عن ابتهاجهم لسلامة الملك صاحب البركة ونجاته، إلّا أن الحدثين نبّها إلى هشاشة النظام المغربي، ودفع أغلبهم إلى التفكير في الهجرة إلى الخارج، خاصة فرنسا وكندا. ينظر:
N. Stillman, *The Language and Culture of the Jews of Sefrou: Morocco* (Great Britain: University of Manchester, 1988).

27 E. Trevisan-Semi & H. Sekkat, *Mémoire et représentations des juifs au Maroc*: *Les voisins absents de Meknes* (Paris: Publisud, 2011); Aomar Boom, *Memories of Absence*: *How Muslims Remenber Jews in Morocco* (Sanford: Stanford University Press, 2013); Jessica Marglin, *Across Legal Limes*: *Jews and Muslims in Modern Morocco* (New Haven: Yale Univeristy Press, 2017).

28 دانييل شروتر، **تجار الصويرة: المجتمع الحضري والإمبريالية في جنوب غرب المغرب 1844-1886** (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1997)؛ دانييل شروتر، **يهودي السلطان: المغرب معالم اليهود السفرد** (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2011)؛ عمر بوم، **يهود المغرب وحديث الذاكرة** (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2015)؛ جيسيكا مارجلن، **القضاء المتعدد: اليهود والمسلمون في المغرب المعاصر** (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2012)؛ شتاين سارة أبريفيا، **يهود في مهب الريح** (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2018)؛ ألما راشيل هاكمان، **يهود المغرب تحت سماء الشيوعية** (الرباط: منشورات الجامعة الدولية، 2023).



رابعًا: الدراسات في الجامعة المغربية

في المغرب، بقي موضوع تاريخ يهود المغرب مهملًا طوال العقود الثلاثة التي تلت الاستقلال، ولم تُناقش خلال هذه المدة أي رسالة جامعية موضوعها الرئيس جانب من ذلك التاريخ. وبقي البحث في بعض جوانب التاريخ اليهودي ملحقًا باهتمامات كبرى، شكلت أهم "تيارات" البحث التاريخي الأكاديمي في الجامعة المغربية (التيار الوطني في العقد الأول للاستقلال[29]، وتيار المونوغرافيات المتتبعة لعلاقات القبائل بالمخزن المركزي في العقدين المواليين[30]، ثم في وقت لاحق البحث في علاقات الدولة المغربية بالعالم الخارجي، خاصة بالقوى العظمى). وعلى الرغم من أن الباحثين المغاربة سعوا – عن قصد أو من دونه - للرد على ما اعتبروه "مقولات استعمارية"، وجعلوا نصب أعينهم كتابة تاريخ شامل يسعى لإبراز عناصر الاستمرارية والشرعية في الحكم والتميز في الإنتاج الفكري ورد الاعتبار إلى مكوّنات الثقافة المغربية[31]، فإنهم لم يعيروا أهمية متميزة لوضع الجماعات اليهودية داخل المجتمع المغربي وعلاقتها بمحيطها[32]. وشكلت مقالات جيرمان عياش المخصصة لعرض بعض إشكاليات البحث في التاريخ اليهودي المغربي لَبنات رئيسة نبّهت إلى الخصاص في الموضوع، وإلى عدم إمكانية كتابة تاريخ مغربي عام من دون النبش في ماضي الجماعات المغربية، نظرًا إلى دورها في صنع الشخصية المغربية المميزة[33].

تُمثّل دراستا كنبيب، الأولى عن الحمايات القنصلية[34]، والثانية عن الانقلابات الكبرى التي طرأت على المعادلة الاجتماعية بين الأغلبية المسلمة والأقلية اليهودية[35]، وقد حصلت تحت ضغط القوى الإمبريالية خلال النصف الثاني من القرن العشرين، ثم في أشكال أكثر تأثيرًا في زمن الحماية الفرنسية، محاولتين جادّتين لباحث مغربي، جعل الوازع العلمي حافزه الرئيس في البحث والكتابة. وساعده في مهمته تصميمه منذ البدايات على الخروج من النسق الكلاسيكي الساعي لوضع تركيبة "جميلة" للعلاقات "الطائفية" مهما كلّف "الأمر ذلك"، ونأيه عن نهج حَبْك تلبيسات إضافية لأسطورة التعايش المثالي والنموذجي بين اليهود والمسلمين فوق أرض مملكة سعيدة ومنسجمة. فانطلاقًا من استغلال احترافي لكمٍّ هائل من الوثائق، اجتهد كنبيب في تتبع

---

29 خلال سنوات الاستقلال الأولى، اتجه البحث نحو إبراز الجذور التاريخية للأمة المغربية والتأصيل للمقومات الشرعية للدولة المغربية. وبناءً عليه، سعت المدرسة الوطنية في التاريخ لرد الاعتبار إلى الشخصية المغربية في أبعادها الذاتية/ الوطنية والعربية والأفريقية.

30 اتجهت المونوغرافيات جميعها نحو التأكيد على أن الحضور اليهودي في المغرب تحكّمت فيه القوانين الطبيعية والضوابط العفوية التي غالبًا ما ترافق موقف الأغلبية من الأقلية، خاصة حين يكون موقف الأولى قائمًا على قناعات روحية، وليس على قواعد متغيرة عسكرية أو اقتصادية. وبيّنت كذلك أنه لا يوجد في المغرب نموذج واحد-أوحد للعلاقة بين الأغلبية والأقلية، فالعلاقات اختلفت من جهة إلى أخرى، وفقًا لثقل المنطقة في المعادلة السياسية وغناها أو فقرها ووجود علماء أو قلّتهم. وساعدت الدراسات المتنوعة التي همّت مناطق مختلفة في وضع الإطارات العامة (التاريخية والجغرافية والسوسيولوجية) التي نشأت ونمت فيها الجماعات اليهودية، فأثّرت في يهودانياتها، وحددت إلى حد بعيد "العقليات الجماعية"، ومن ثم وجّهت ردات فعلها ومواقفها أمام التحديات الكبرى. ينظر: أحمد التوفيق، **مساهمة في دراسة المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر: إينولتان 1850-1912** (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1978)؛ عبد الرحمن المودن، **البوادي المغربية قبل الاستعمار: قبائل إيناون والمخزن بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر** (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1995)؛ أحمد مزيان، **المجتمع والسلطة المخزنية في الجنوب الشرقي المغربي خلال القرن التاسع عشر 1845-1912** (المملكة المغربية: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1998)؛
Paul Pascon, *Le Haouz de Marrakech* (Rabat: CURS-CNRS-INAV, 1983).

31 Mohammed El Mansour, "Moroccan Historiography since Independence," in: Michel Le Gall & Kenneth Perking, *The Maghreb in Question* (USA: The University of Texas, 1977), pp. 107-119.

32 اعتبر العديد من المتخصصين في الدراسات الاستشراقية أنّ إغفالَ مواضيع تخص الجماعات اليهودية أحدُ أهم مكامن تقصير الباحثين العرب عمومًا في الكشف عن روافد غير إسلامية مؤسسة للتاريخ والشخصية العربية. ينظر:
Bernard Lewis, *Sémites et antisémites* (Paris: Fayard, 1987), p. 295.

33 Germain Ayache, "La minorité juive dans le Maroc précolonial," *Hesperis-Tamuda*, vol. 25 (1987), pp. 147-168.

34 M. Kenbib, *Les protégés*: *Contribution à l'histoire contemporaine du Maroc* (Rabat: Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, 1996).

35 M. Kenbib, *Juifs et musulmans au Maroc 1859-1948*: *Contribution à l'histoire des relations inter-communautaires en Terre d'Islam* (Rabat: Publications de la Faculté des Lettres, 1994).



مسارات الجماعات اليهودية وعلاقاتها بمحيطها في ظل الإكراهات الإمبريالية والإغراءات الصهيونية. واستلزمت عملية الكتابة والتحليل تفكيك العديد من المسلمات، وإعادة صوغ المعطيات – المعروفة والجديدة - في صيغ أصيلة أكثر قابلية للتركيبات والخلاصات.

وقد مثّل هاجسُ الحفاظ على استقلالية منهجية ومعرفية سندَ كنبيب في الوصول إلى ما اعتبره الأهم في عمله، وهو "الأثر/ المفعول النفسي" في المنظومة الجامعية المغربية، ذلك أن دراسته مثّلت حقًّا قطيعة مع "عُرف" قضى بألّا يهتم بمواضيع تخص اليهود المغاربة إلّا من كانوا من المثقفين اليهود، أو الأجانب عمومًا. ثم سعى، طوال البحث، للتأسيس لسوسيولوجيا وأنثربولوجيا متعلقتين بتطور مجتمع شبه مغلق، وجد نفسه في وضع المجبر على التعامل إيجابيًا مع إكراهات أجنبية أخذت أحيانًا أشكالًا عدوانية، فسعت مكوناته البشرية لإعادة تنظيم علاقاتها الداخلية وفق منطلقات فلسفية مستوردة. وقد أكسبت المناهج المعتمدة السرد التاريخي أبعادًا أصيلة، جعلته عملًا رائدًا ومرجعًا لا محيد عنه. واللافت للانتباه أن بحث كنبيب لم "يحظ بإعجاب" العديد من المثقفين اليهود؛ فعلى الرغم من إقرارهم بكفاءاته واجتهاداته، فإنهم اعتبروه متحاملًا و"قاسيًا في أحكامه"، بل إن بعضهم لم يتردد في نعته بـ "المعادي للسامية".

يعود الفضل إلى محمد كنبيب كذلك في توجيه ثلّة من الباحثين الشباب، وتشجيعهم على الاهتمام - من دون عقد - بالتاريخ اليهودي، خاصة تاريخ جماعات الجهات التي ينتمون إليها. وفضلًا عما تحويه المادة الوثائقية الأجنبية، اعتمد هؤلاء الباحثون على الوثائق المحلية واستثمار المخزون الداخلي، وهي عملية ساهمت، إلى حد بعيد، في الكشف عن جوانب مهمة من ضوابط العلاقات بين المكوّنات المختلفة للمجتمع المغربي[36].

ومهما يكن، فإن لنشر كنبيب أطروحته ضمن منشورات كلية الآداب بالرباط أثرًا في دفع العديد من الباحثين إلى الانكباب على التفصيل في مواضيع أثارتها الأطروحة، وأخرى استفزت اهتمامهم. وعمليًّا، عرفت الجامعة في السنوات الموالية ظهور تيار يطمح إلى الرقي بالدراسات اليهودية، فجرى تأسيس فريق بحث أول في كلية الآداب سايس-فاس (2006)، اجتهد في توفير قاعدة للنصوص مُستقاة من المتون الكلاسيكية، فضلًا عن تنظيمه أيامًا دراسية، كان لها نصيب في تشجيع باحثين شباب على الاهتمام بتاريخ يهود مناطقهم. وفي السياق ذاته، أُسّس في عام 1997 فريق ثانٍ في كلية الآداب في الرباط GREJM عمل على نشر نصوص تؤصل أكثر فأكثر للتحليل التاريخي[37]. وقد استفاد الفريقان من السند المادي لمركز البحث

---

36 محمد لغرايب، "يهود مجتمع الغرب الأقصى"، أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ، ظهر المهراز، فاس، 2002؛ عبد الله الرمايد، "جماعات يهود منطقة سوس: المجال والتمثلات الاجتماعية والسياسية: 1860-1960"، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب، الرباط، 2002؛ محمد حاتمي، "الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل 1948-1961"، أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب، سايس، فاس، 2007؛ محمد براص، "الأحزاب الوطنية واليهود المغاربة بين تطور الأوضاع الداخلية وأصداء القضية الفلسطينية 1934-1976"، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب، الرباط، 2004؛ عفيف جليلة، "يهود صفرو على عهد الحماية الفرنسية 1912-1956"، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب ظهر المهراز، فاس، 2004؛ محمد الباكوري، "اليهود والمخزن في عهد السعديين، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب، الرباط، 2005؛ الحاج محمد الناسك، "الحياة الثقافية والاجتماعية للطائفة اليهودية في عهد الحماية"، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب، وجدة، 2013؛ هشام الركيك، "الملاحات خلال العصر الوسيط: فصول من التاريخ والعمران والآثار"، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب، القنيطرة، 2016؛ وسام هني، "التحولات الاقتصادية والاجتماعية للجماعات اليهودية بالمغرب: 1912-1967"، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب، الرباط، 2019؛ عبد الإله لعرج، "الرابطة اليهودية العالمية ومؤسساتها المدرسية بالمغرب 1860-1956"، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب، سايس، فاس، 2021؛ رشيد دوناس، "الجماعات اليهودية بمدينة مكناس على عهد الحماية الفرنسية 1912-1956 بين ديناميتي الترقي والتباعد"، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب، سايس، فاس، 2021.

37 بدر الدين القرافي، **الدرر النفائس في شأن الكنائس**، دراسة وتحقيق حسن حافظي علوي (الرباط: دار بورقراق، 2003)؛ مؤلف مجهول، **قضية المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين**، دراسة وتحقيق محمد فتحة (الرباط: دار بورقراق، 2004)؛ محمد بن عبد الكريم المغيلي، **رسالة في اليهود**، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة وعمر بنميرة (الرباط: دار بورقراق، 2005)؛ محمد بن أحمد ميارة، **نصيحة المغتربين**، دراسة وتحقيق مينة لمغاري وحفيظة الدازي (الرباط: دار بورقراق، 2007).



عن اليهود المغاربة Centre de Recherches sur les Juifs du Maroc, CRJM الذي أسسه روبير أصراف، وكان حقًّا محفّزًا للمُضيّ قُدُمًا بالبحث التاريخي. واستفاد أصراف نفسه من الدينامية ليُصدر سلسلة من الأبحاث الموثقة، ساعده في إنجازها عدد من الباحثين[38].

ومن أبرز التداعيات الإيجابية للتخصص في التاريخ اليهودي المغربي، تشكّل شبكة تجمّع بين المهتمين بهذا المجال على نحو يجعلهم جميعًا متتبعين لأعمال بعضهم، ولِمَا ينتج في الجامعات الدولية، ثم إنهم يشاركون في تنظيم ملتقيات موسمية وإصدار أعمال جماعية، غالبًا ما تضم أحدث الاجتهادات، وتزيد التراكم تأصيلًا[39].

خلاصة القول، عرف البحث الأكاديمي في المواضيع ذات الصلة بتاريخ الجماعات اليهودية المغربية قفزة نوعية، ساهمت كثيرًا في كشف النقاب عن جوانب كثيرة من التاريخ المغربي كله، وكان لها الأثر المباشر في الإنتاج الصحافي والفني والرفع من قيمة أماكن الذاكرة. ولعل أهم أثرٍ هو الذي تحقق على مستوى مقررات التاريخ في المدارس المغربية؛ إذ لم يجرِ التطرق إلى الوجود اليهودي ومساهمة اليهود في الدورات الاقتصادية فحسب، بل في صنع الشخصية المغربية وتكريس خصوصياتها أيضًا.



38 Robert Assaraf, *Mohammed V et les juifs du Maroc à l'époque de Vichy* (Paris: Plon, 1977); Robert Assaraf, *Eléments d'histoire des juifs de Marrakech* (Rabat: Edition Bouregreg, 2009); Robert Assaraf, *Elemenst d'hisoire des juifs de Fès de 808 à nos jours* (Rabat: Edition Bouregreg, 2009); Robert Assaraf, *Eléments d'histoire des juifs de Meknès* (Rabat: Edition Bouregreg, 2010); Robert Assaraf, *Une certaine histoire des juifs du Maroc 1860-1999* (Paris: Jean-Claude Gawsewitch, 2005).

39 "Jews of Morocco and the Maghreb: History and Historiography," *Hesperis-Tamuda*, vol. LI-Fascicule 3 (Numéro spécial-I et II parties) (2016).



المراجع

العربية

أبريفيا، شتاين سارة. **يهود في مهب الريح**. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2018.

الباكوري، محمد. "اليهود والمخزن في عهد السعديين. أطروحة دكتوراه في التاريخ. كلية الآداب. الرباط. 2005.

براص، محمد. "الأحزاب الوطنية واليهود المغاربة بين تطور الأوضاع الداخلية وأصداء القضية الفلسطينية 1934-1976". أطروحة دكتوراه في التاريخ. كلية الآداب. الرباط. 2004.

بوم، عمر. **يهود المغرب وحديث الذاكرة**. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2015.

التوفيق، أحمد. **مساهمة في دراسة المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر: إينولتان 1850-1912**. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1978.

جليلة، عفيف. "يهود صفرو على عهد الحماية الفرنسية 1912-1956". أطروحة دكتوراه في التاريخ. كلية الآداب ظهر المهراز. فاس. 2004.

حاتمي، محمد. "الجماعات اليهودية المغربية والخيار الصعب بين نداء الصهيونية ورهان المغرب المستقل 1948-1961". أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ. كلية الآداب. سايس. فاس. 2007.

دوناس، رشيد. "الجماعات اليهودية بمدينة مكناس على عهد الحماية الفرنسية 1912-1956 بين ديناميتي الترقي والتباعد". أطروحة دكتوراه في التاريخ. كلية الآداب. سايس. فاس. 2021.

الركيك، هشام. "الملاحات خلال العصر الوسيط: فصول من التاريخ والعمران والآثار". أطروحة دكتوراه في التاريخ. كلية الآداب. القنيطرة. 2016.

شروتر، دانييل. **تجار الصويرة: المجتمع الحضري والإمبريالية في جنوب غرب المغرب 1844-1886**. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1997.

________. **يهودي السلطان: المغرب معالم اليهود السفرد**. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2011.

عبد الله الرمايد، "جماعات يهود منطقة سوس: المجال والتمثلات الاجتماعية والسياسية: 1860-1960". أطروحة دكتوراه في التاريخ. كلية الآداب. الرباط. 2002.

عياش، جيرمان. "الأقلية اليهودية في مغرب ما قبل الاستعمار". **مجلة دار النيابة**. العدد 12 (خريف 1986).

القرافي، بدر الدين. **الدرر النفائس في شأن الكنائس**. دراسة وتحقيق حسن حافظي علوي. الرباط: دار بورقراق، 2003.

لعرج، عبد الإله. "الرابطة اليهودية العالمية ومؤسساتها المدرسية بالمغرب 1860-1956". أطروحة دكتوراه في التاريخ. كلية الآداب. سايس. فاس. 2021.

لغرايب، محمد. "يهود مجتمع الغرب الأقصى". أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ. ظهر المهراز. فاس. 2002.



مارجلن، جيسيكا. **القضاء المتعدد: اليهود والمسلمون في المغرب المعاصر**. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2012.

مزيان، أحمد. **المجتمع والسلطة المخزنية في الجنوب الشرقي المغربي خلال القرن التاسع عشر 1845-1912**. المملكة المغربية: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1998.

المغيلي، محمد بن عبد الكريم. **رسالة في اليهود**. تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة وعمر بنميرة. الرباط: دار بورقراق، 2005.

المودن، عبد الرحمن. **البوادي المغربية قبل الاستعمار: قبائل إيناون والمخزن بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر**. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1995.

مؤلف مجهول. **قضية المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين**. دراسة وتحقيق محمد فتحة. الرباط: دار بورقراق، 2004.

ميارة، محمد بن أحمد. **نصيحة المغتربين**. دراسة وتحقيق مينة لمغاري وحفيظة الدازي. الرباط: دار بورقراق، 2007.

الناسك، الحاج محمد. "الحياة الثقافية والاجتماعية للطائفة اليهودية في عهد الحماية". أطروحة دكتوراه في التاريخ. كلية الآداب. وجدة. 2013.

هاكمان، ألما راشيل. **يهود المغرب تحت سماء الشيوعية**. الرباط: منشورات الجامعة الدولية، 2023.

هني، وسام. "التحولات الاقتصادية والاجتماعية للجماعات اليهودية بالمغرب: 1912-1967". أطروحة دكتوراه في التاريخ. كلية الآداب. الرباط. 2019.

الأجنبية

Abitbol, M. "Témoins et acteurs: les Corcos et l'histoire du Maroc contemporain." Institut Ben-Zvi. Centre de Recherches sur les Juifs d'Afrique du Nord. Jérusalem. 1977.

Adam, André. *Bibliographie critique de sociologie, d'ethnologie, et de géographie humaine du Maroc*. Alger: CNRS, 1972.

Assaraf, Robert. *Mohammed V et les juifs du Maroc à l'époque de Vichy.* Paris: Plon, 1977.

________. *Une certaine histoire des juifs du Maroc 1860-1999*. Paris: Jean-Claude Gawsewitch, 2005.

________. *Elemenst d'hisoire des juifs de Fès de 808 à nos jours*. Rabat: Edition Bouregreg, 2009.

________. *Eléments d'histoire des juifs de Marrakech*. Rabat: Edition Bouregreg, 2009.

________. *Eléments d'histoire des juifs de Meknès*. Rabat: Edition Bouregreg, 2010.

Ayache, Germain. "La minorité juive dans le Maroc precolonial." *Hesperis-Tamuda*. vol. 25 (1987).

Benech, José. *Un des aspects du judaïsme: Essai d'explication d'un Mellah (ghetto marocain)*. Paris: Larose, 1940.

Bensimon, Agnès. *Hassan II et les Juifs: Histoire d'une émigration secrete*. Paris: Seuil, 1991.

Boom, Aomar. *Memories of Absence: How Muslims Remenber Jews in Morocco*. Sanford: Stanford University Press, 2013.

Booking-Weiner, J. B. & M. El Mansour (eds.). *The Atlantic Connection: 200 Years of Moroccan-American Relations, 1786-1986*. Casablanca: Edino, 1990.



Schroeter, Daniel J. & Emily Benichou Gottreich (eds.). *Jewish Culture and Society in North Africa*. Bloomington: Indiana University Press, 2011.

Ben Ami, Issachar (ed.). *Studies in Judaism and Islam*. Jerusalem: Magnes Press, 1981.

Cohen, Prosper. *Congrès juif mondial : conférence extraordinaire de guerre 26-30 novembre 1944*. Casablanca : Edition SIPEC, 1945.

De Foucauld, Charles (Vicomte). *Reconnaissance au Maroc (1883-1884)*. Paris: Les Introuvables, 1887.

Deshen, S. & P. Zenner. *Jews among MuslimsMuslims: Communities in the Precolonial Middle East*. New York: New York University Press, 1996.

Diouri, Moumen. *A qui appartient le Maroc*. Paris: L'Harmattan, 1992.

Eicklman, Dale. "Religion and Trade in Western Morocco." *Review of Economic Anthropology*. no. 5 (1983).

Le Gall, Michel & Kenneth Perking. *The Maghreb in Question*. USA: The University of Texas, 1977.

Elkaim, Mony. *Panthères noirs d'Israël*. Paris: Maspero,1972.

Flamand, Pierre. *Diaspora en terre d'Islam: Les communautés du Sud marocain*. Casablanca: Imprimeries réunies, 1959.

Flamand, Pierre. *Un Mellah en pays berbère : Demnate, Institut des Hautes Etudes Marocaines*. Paris: Librairie Générale de Droit et de Jurisprudence, 1952.

Geertz, Clifford, Hildred Geertz & Lawrence Rosen. *Meaning and Order in Moroccan Society: Three Essays in Cultural Analysis*. Cambridge: Cambridge University Press, 1979.

Geertz, Clifford. *Observer l'Islam, changement religieux au Maroc et en Indonésie*. Paris: La Découverte, 1992.

Goldberg, Harvey E. "The Mellahs of Southern Morocco: Report of a Survey." *MR*. vol. 8, no. 3-4 (1983).

Goulven, Jean. *Les Mellahs de Rabat-Salé*. Paris: Geuthner, 1927.

Haddad, Heskel M. *Jews of Arab and Islamic Countries: History, Problems, Solutions*. New York: Shengold Publishers, 1984.

Herschberg, H. Z. *A History of the Jews in North Africa*. vol. 2. Leiden: E. J. Brill, 1981.

"Jews of Morocco and the Maghreb: History and Historiography." *Hesperis-Tamuda*. vol. LI-Fascicule 3 (Numéro spécial-I et II parties) (2016).

Kenbib, M. *Juifs et musulmans au Maroc 1859-1948: Contribution à l'histoire des relations inter-communautaires en Terre d'Islam*. Rabat: Publications de la Faculté des Lettres, 1994.

_______. *Les protégés: Contribution à l'histoire contemporaine du Maroc*. Rabat: Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, 1996.

Les sciences humaines et sociales au Maroc: études et arguments. Rabat: Université Mohammed V-Souissi/ IURS, 1998.

Lehrman, Hall. "Morocco's Jews between Islam and France: How Good are Nationalist Pledge of Equal Rights." *Commentary*. vol. XX, no. 5 (November 1955).

Lewis, Bernard. *Sémites et antisémites*. Paris: Fayard, 1987.



Malka, V. *La mémoire brisée des juifs du Maroc*. Paris: Edition Entente, 1978.

Marglin, Jessica. *Across Legal Limes: Jews and Muslims in Modern Morocco*. New Haven: Yale Univeristy Press, 2017.

Deshen, S. & P. Zenner. *Jews among MuslimsMuslims: Communities in the Precolonial Middle East*. New York: New York University Press, 1996.

Mouillefarine, Edouard. "Etude historique sur la condition juridique des juifs au Maroc." Thèse de doctorat en droit. Paris. Imprimerie Félix Carbonnel. 1941.

Pascon, Paul. *Le Haouz de Marrakech*. Rabat: CURS-CNRS-INAV, 1983.

Pataî, Raphael. *The Seeds of Abraham: Jews and Arabs in Contact and Conflict*. Salt Lake City: University of Utah Press, 1986.

Perreaut, Gilles. *Notre ami le roi*. Paris: Flammarion, 1990.

Rabi, Wladimlir Rabinovitch. "Destins au Maroc." *Evidences*. année 8, no. 62 (Janvier-Février 1957).

Rosen, Lawrence. "Moroccan Jewish Community during the Middle Eastern Crisis." *The American Scholar*. no. 37 (1968).

_______. "Muslim-Jewish relations in a Moroccan City." *International Journal of Middle Eastern Studies*. no. 4 (1972).

Shlomo, Deshen. "The Judaism of Middle Eastern Immigrants." *The Jerusalem Quarterly*. no. 13 (Fall 1979).

Les Relations entre Juifs et Musulmans en Afrique du Nord XIX-XX siècles: actes du colloque international de l'Institut d'histoire des pays d'outre-mer, Abbaye de Sénanque, Octobre 1978. Paris: CNRS, 1980.

Stillman, N. A. "The Moroccan Jewish Experience: A Revisionist View." *Association for Jewish Studies Newsletter*. no. 18 (1976).

_______. "The Moroccan Jewish Experience: A Revisionist View." *The Jerusalem Quarterly*. no. 9 (Fall 1978).

_______. *The Language and Culture of the Jews of Sefrou: Morocco*. Great Britain: University of Manchester, 1988.

Frank, Daniel. *The Jews of Medieval Islam: Community, Society and Identity*. Leiden: E. J. Brill, 1995.

Toledano, Haim. "Le Maroc nouveau et les Israélites." Association des Anciens Elèves de l'Alliance Israélite Universelle. Tanger. Imprimerie marocaine. 1913.

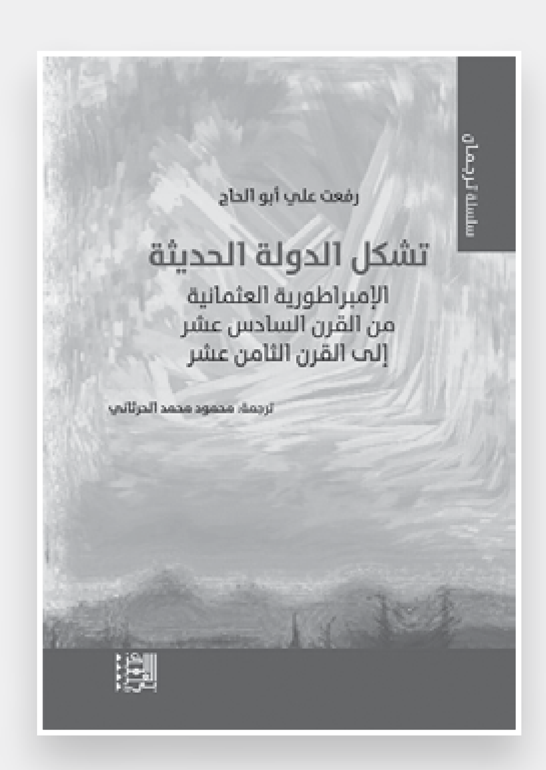
Trevisan-Semi, E. & H. Sekkat. *Mémoire et représentations des juifs au Maroc: Les voisins absents de Meknes*. Paris: Publisud, 2011.

Weingrod, Alex (ed.). *Studies in Israeli Ethnicity: After the Ingathering*. New York: Gordon and Breach Science Publishers, 1985.

Zafrani, Haim. "Le judaïsme d'Occident musulman: Etat des travaux." *Les Temps Modernes*. année 34, no. 394 (1979).

رفعت علي أبو الحاج

تشكّل الدولة الحديثة



صدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ضمن سلسلة "ترجمان"، كتاب **تشكّل الدولة الحديثة: الإمبراطورية العثمانية من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر**: *Formation of the Modern State: The Ottoman Empire, Sixteenth to Eighteenth Centuries*، وهو من تأليف رفعت علي أبو الحاج وترجمة محمود محمد الحرثاني، ويشتمل على مقدمة وصلب الدراسة وخاتمة، وملحق بتذيل تحت عنوان "فذلكة: التنظير أبعد من إطار الدولة – الأمة"، وفيه يدحض المؤلف نموذج الدولة – الأمة بوصفه القضية المحتمة للتاريخ الحديث ويدحض أيضًا فكرة "نهاية التاريخ". وتأتي في الأخير ملاحق أربعة، تتناول جميعًا بالبحث التاريخ العثماني الوسيط وما اعتراه من أحداث مفصلية وتغيرات مجتمعية، ونقد التأريخ العثماني والشرق أوسطي بشقَّيه الغربي والشرقي، ومصاعب البحث في الصورة النمطية السائدة في الكتابات التاريخية. يقع الكتاب في 240 صفحة، شاملةً ببليوغرافيا وفهرسًا عامًّا.





المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

Arab Center for Research & Policy Studies

The Arab Center for Research and Policy Studies is an independent social sciences and humanities institute that conducts applied and theoretical research seeking to foster communication between Arab intellectuals and specialists and global and regional intellectual hubs. The ACRPS achieves this objective through consistent research, developing criticism and tools to advance knowledge, while establishing fruitful links with both Arab and international research centers.

The Center encourages a resurgence of intellectualism in Arab societies, committed to strengthening the Arab nation. It works towards the advancement of the latter based on the understanding that development cannot contradict a people's culture and identity, and that the development of any society remains impossible if pursued without an awareness of its historical and cultural context, reflecting its language(s) and its interactions with other cultures.

The Center works therefore to promote systematic and rational, scientific research-based approaches to understanding issues of society and state, through the analysis of social, economic, and cultural policies. In line with this vision, the Center conducts various academic activities to achieve fundamental goals. In addition to producing research papers, studies and reports, the center conducts specialized programs and convenes conferences, workshops, training sessions, and seminars oriented to specialists as well as to Arab public opinion. It publishes peer-reviewed books and journals and many publications are available in both Arabic and English to reach a wider audience.

The Arab Center, established in Doha in autumn 2010 with a publishing office in Beirut, has since opened three additional branches in Tunis, Washington and Paris, and founded both the Doha Historical Dictionary of Arabic and the Doha Institute for Graduate Studies. The ACRPS employs resident researchers and administrative staff in addition to hosting visiting researchers, and offering sabbaticals to pursue full time academic research. Additionally, it appoints external researchers to conduct research projects.

Through these endeavours the Center contributes to directing the regional research agenda towards the main concerns and challenges facing the Arab nation and citizen today.

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات مؤسسة بحثية فكرية مستقلة، مختصة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية، في جوانبها النظرية والتطبيقية، تسعى، عبر نشاطها العلمي والبحثي، إلى خلق تواصل في ما بين المثقفين والمتخصصين العرب في هذه العلوم، وبينهم وبين قضايا مجتمعاتهم، وكذلك بينهم وبين المراكز الفكرية والبحثية العربية والعالمية، في عملية تواصل مستمرة، من البحث، والنقد، وتطوير الأدوات المعرفية.

يتبنى المركز رؤية نهضوية للمجتمعات العربية، ملتزمة بقضايا الأمة العربية، والعمل على رقيها وتطوّرها، انطلاقًا من فهم أنّ التطور لا يتناقض مع الثقافة والهوية، بل إنّ تطوّر مجتمع بعينه، بفئاته جميعها، غير ممكنٍ إلا في ظروفه التاريخية، وفي سياق ثقافته، وبلغته، ومن خلال تفاعله مع الثقافات الأخرى.

ومن ثمّ، يعمل المركز على تعزيز البحث العلمي المنهجي والعقلانية في فهم قضايا المجتمع والدولة، بتحليل السياسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الوطن العربي. ويتجاوز ذلك إلى دراسة علاقات الوطن العربي ومجتمعاته بمحيطه المباشر، وبالسياسات العالمية المؤثّرة فيه، بجميع أوجهها.

وفي ضوء هذه الرؤية، يعمل المركز على تحقيق أهدافه العلمية الأساسية، عن طريق نشاطاته الأكاديمية المختلفة، فهو ينتج أبحاثًا ودراسات وتقارير، ويصدر كتبًا محكّمةً ودوريات علميةً، ويبادر إلى مشاريع بحثية، ويدير عدة برامج مختصة، ويعقد مؤتمرات، وورش عمل وتدريب، وندوات أكاديمية، في مواضيع متعلقة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية، وموجّهة إلى المختصين، والرأي العام العربي أيضًا، ويساهم، عبر كل ذلك، في توجيه الأجندة البحثية نحو القضايا والتحديات الرئيسة التي تواجه الوطن والمواطن العربي. وينشر المركز جميع إصداراته باللغتين العربية والإنكليزية.

تأسّس المركز في الدوحة في خريف 0102، وله فرع يعنى بإصداراته في بيروت، وافتتح ثلاثة فروع إضافية، في تونس وواشنطن وباريس. ويشرف على المركز مجلس إدارة بالتعاون مع مديره العام المؤسِّس.

أسّس المركز مشروع المعجم التاريخي للغة العربية، وما زال يشرف عليه بالتعاون مع مجلسه العلمي، كما أسّس معهد الدوحة للدراسات العليا، وهو معهد جامعي تشرف عليه إدارة أكاديمية ومجلس أمناء مستقل يرأسه المدير العام للمركز.

يعمل في المركز باحثون مقيمون، وطاقم إداري. ويستضيف باحثين زائرين للإقامة فيه فترات محددة من أجل التفرّغ العلمي، ويكلّف باحثين من خارجه للقيام بمشاريع بحثية، ضمن أهدافه ومجالات اهتمامه.



معهد الدوحة للدراسات العليا مؤسّسة أكاديميّة مستقلّة للتعليم العالي والأبحاث في العلوم الاجتماعية والإنسانية والإدارة العامّة واقتصاديات التنمية.

يهدف المعهد من خلال برامجه الأكاديمية ونشاطات أساتذته البحثية إلى تحقيق رسالته المتمثلة في المساهمة في تكوين جيلٍ جديدٍ من الأكاديميين والباحثين المستقلين فكريًا والمتمكّنين من المعايير العلمية العالميّة والأدوات البحثية المنهجية الحديثة القائمة على مبدأ تداخل التخصصات، ومن القادة المهنيين القادرين على الدفع قُدُمًا بالمعرفة الإنسانية والاستجابة إلى حاجات المنطقة العربية في سبيل التطوّر الفكري والاجتماعي والمهني.

ويسعى المعهد لتأسيس نواة لصرح فكري يفيد العالم العربي على نحو خاص. ويدعم المعهد البحوث العلمية التي تهتم بالقضايا العربية، في جوّ من الحرية المؤسسية والفكرية.

يعمل المعهد بالتعاون مع المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ومعجم الدوحة التاريخي للغة العربية على فتح المجال لطلبته وأعضاء هيئته التدريسية للبحث في أهم القضايا الراهنة التي تتعلق بالعالم العربي والمجتمع الدولي. ويعتبر إشراك الطلبة في أهم المشاريع البحثية في صلب اهتمامات المعهد.

يعتمد المعهد اللغة العربية أداةً للبحث العلمي، ولغةً رسمية في الخطاب العام، ولغةً أساسية للتعليم والبحث. وتُعدّ اللغة الإنكليزية لغةً مرافقة في التعلّم والبحث العلمي. وتستعمل اللغتان في طرح المواضيع المختلفة ودراستها.

The Doha Institute for Graduate Studies (DI) is an independent institute for learning and research in the fields of Social Sciences, Humanities, Public Administration and Development Economics in Doha.

Through its academic programs and the research activities of its professors, the DI aims to achieve its mission of contributing to the formation of a new generation of academics and intellectually independent researchers who are proficient in international scholarship standards and modern interdisciplinary research methodologies and tools, and leading professionals who can advance human knowledge and respond to the needs of the Arab region, resulting in social, cultural and intellectual development.

The institute seeks to establish an intellectual hub that will benefit the Arab region in particular. The Institute supports academic research that deals with Arab issues, in an atmosphere of institutional and intellectual freedom.

The Institute works in cooperation with the Arab Center for Research and Policy Studies and the Doha Historical Dictionary of Arabic Language to facilitate its students and faculty members in their research of the most important current issues related to the Arab world and the wider international community. The involvement of students in the most important research projects is at the heart of the Institute's interests.

The Institute adopts Arabic as its official and primary language for education and research. English serves as an accompaniment to Arabic, with both languages used in presenting and research.

دورية "أسطور" للدراسات التاريخية

دورية **أسطور** للدراسات التاريخية دورية محكّمة تصدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. تحمل الرقم الدولي المعياري (ISSN: 2305-2473). وقد صدر عددها الأول في كانون الثاني/ يناير 2015، وهي دورية نصف سنوية محكّمة تصدر مرّةً واحدةً كلّ ستة أشهر، ولها هيئة تحرير علمية أكاديمية متخصصة وهيئة استشارية دولية فاعلة تُشرف على عملها، وتستند إلى ميثاق أخلاقي لقواعد النشر وللعلاقة بينها وبين الباحثين. كما تستند إلى لائحة داخلية تنظّم عمل التحكيم، وإلى لائحة معتمدة بالمحكمين في مختلف أنواع الاختصاصات.

يَستوحي اسم الدورية المشتق من لغة العرب ومصطلحاتهم إيحاءات العلاقة بين الدلالة اللغوية العربية والقرآنية للجذر "س. ط. ر" وكلمتي Historia وIstoreing من أصول يونانية اللتين انبثق منهما علم التاريخ بصيغة History وHistoire. وتعتمد الدورية اسم "أسطور" بالمعنى الاصطلاحي الحديث لتأسيس "تاريخ عربي جديد" يتواصل مع الإنجازات العربية الأولى ولا يقطع معها، بل يجدّدها ويطوّرها ويؤسّس إبداعات جديدة.

تعتمد دورية **أسطور** في انتقاء محتويات أعدادها المواصفات الشكلية والموضوعية للمجلات الدولية المحكّمة وفق ما يلي:

- **أولًا**، أن يكون البحث أصيلًا مُعدًّا للدورية حصرًا، وألّا يكون قد نُشر جزئيًا أو كليًا، أو نُشر ما يشبهه في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، أو قُدّم في أحد المؤتمرات العلمية من غير المؤتمرات التي يعقدها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، أو إلى أيّ جهة أخرى.
- **ثانيًا**، أن تُرفق مع البحث السيرة العلمية للباحث باللغتين العربية والإنكليزية.
- **ثالثًا**، يجب أن يشتمل البحث على العناصر التالية:

1. عنوان البحث باللغتين العربية والإنكليزية، وتعريف موجز للباحث والمؤسسة العلمية التي ينتمي إليها وآخر إصداراته باللغتين العربية والإنكليزية.

2. الملخّص التنفيذي باللغتين العربية والإنكليزية في نحو 250-300 كلمة، والكلمات المفتاحيّة (Key Words) بعد الملخص، ويُقدّم الملخص في جمل قصيرة ودقيقة وواضحة إشكالية البحث الرئيسة، والطرائق المستخدمة في بحثها، والنتائج التي توصل إليها البحث.

3. تحديد مشكلة البحث، وأهداف الدراسة، وأهمّيتها، والمراجعة النقديّة لما سبق أن كُتب في الموضوع، بما في ذلك أحدث ما صدر في مجال البحث، وتحديد مواصفات فرضيّة البحث أو أطروحته، ووضع التصوّر المفاهيميّ وتحديد مؤشّراته الرئيسة، ووصف منهجيّة البحث، والتحليل والنتائج، والاستنتاجات. على أن يكون البحث مذيلًا بقائمة بيبليوغرافية في آخره تتضمن أهمّ المراجع التي استند إليها الباحث، إضافةً إلى المراجع الأساسية التي استفاد منها ولم يُشر إليها في الهوامش. وتُذكر في القائمة بيانات الأبحاث بلغتها الأصلية؛ أي باللغة الأجنبية في حال العودة إلى مصادر بلغة أجنبية.

4. أن يتقيد البحث بمواصفات التوثيق وفق نظام الإحالات المرجعية الذي يعتمده المركز (ينظر: أسلوب كتابة الهوامش وعرض المراجع).

5. لا تنشر الدورية مستلات أو فصولًا من رسائل جامعية أُقرّت إلا على نحوٍ استثنائي، وبعد إعدادها من جديد للنشر في الدورية من جهة الباحث، وفي هذه الحالة يجب على الباحث أن يشير إلى ذلك، ويقدّم بيانات وافيةً عن عنوان الأطروحة وتاريخ مناقشتها والمؤسسة التي جرت فيها المناقشة.

6. أن يكون البحث في مجال أهداف الدورية واهتماماتها البحثية.

7. تهتم الدورية بنشر مراجعات نقدية للكتب المهمة التي صدرت حديثًا في مجالات اختصاصها بأيّ لغة من اللغات، على ألّا يكون قد مضى على صدورها أكثر من ثلاث سنوات، وألّا يتجاوز عدد كلماتها 2800-3000 كلمة. ويجب أن يكون هذا الكتاب في مجال اختصاص الباحث أو في مجال اهتماماته البحثية الأساسية، وتخضع المراجعات إلى ما تخضع له البحوث من قواعد التحكيم.

8. تهتم الدورية بنشر وثائق أصيلة من أرشيفات مختلفة أو نصوص مخطوطات. ويشترط في نشر الوثيقة أو النص المخطوط الالتزام بالمعايير المعمول بها في تحقيق ونشر النصوص، ويصحب النص المنشور بصورة الوثيقة أو صورة من الصفحة الأولى من النص، إضافة إلى معلومات تعريفية بالنص ومكان حفظه.

9. تُفرد الدورية بابًا خاصًا لمناقشات متعلّقة بفكرة أو نظرية أو قضية مُثارة في مجال علم التاريخ، من دون أن يتجاوز عدد الكلمات المناقشة فيها 2800-3000 كلمة، وتخضع المناقشات إلى ما تخضع له البحوث من قواعد التحكيم.

10. يراوح عدد كلمات البحث بما في ذلك المراجع في الإحالات المرجعية والهوامش الإيضاحية، والقائمة البيبليوغرافية وكلمات الجداول في حال وجودها، والملحقات في حال وجودها أيضًا، بين 6000-8000 كلمة. وللدورية أن تنشر بحسب تقديراتها وعلى نحوٍ استثنائيّ بعض البحوث والدراسات التي تتجاوز هذا العدد من الكلمات.

11. في حال وجود مخططات أو أشكال أو معادلات أو رسوم بيانية أو جداول، ينبغي إرسالها بالطريقة التي استُغلت بها في الأصل بحسب برنامجي إكسل (Excel) أو وورد (Word)، ولا تقبل الأشكال والرسوم والجداول التي تُرسل في شكل صور.

۞ **رابعًا،** يخضع كلّ بحث لتحكيم سرّي تامّ، يقوم به محكّمان متخصّصان تخصّصًا دقيقًا بموضوع البحث، ومن ذوي الخبرة العلمية بما أُنجز في مجاله، ومن المعتمدين في قائمة المحكّمين- القراء في المركز. وفي حال تباين تقارير المحكّمين، يُحال البحث على محكّم مرجّح ثالث. وتلتزم الدورية بموافاة الباحث بقرارها الأخير النشر/ النشر بعد إجراء تعديلات محدّدة/ الاعتذار عن عدم النشر، وذلك في غضون ستة أشهر من استلام البحث.

۞ **خامسًا،** تلتزم الدورية بميثاق أخلاقي يشتمل على احترام الخصوصية والسرية وعدم إفصاح المحرّرين والمراجعين وأعضاء هيئة التحرير عن أيّ معلوماتٍ بخصوص البحث المُحال عليهم إلى أيّ شخصٍ آخر غير المؤلّف والمحكّمين وفريق التحرير (الملحق 2).

1. يخضع ترتيب نشر الأبحاث لمقتضيات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث.

2. لا تُدفع مكافآت ماليّة عن الموادّ من البحوث والدراسات والمقالات التي يتمّ نشرها؛ مثلما هو متّبَعٌ في الدوريات العلميّة في العالم، كما لا تتقاضى الدورية أيّ رسوم على النشر فيها.

أسلوب كتابة الهوامش وعرض المراجع

الكتب

اسم المؤلّف، **عنوان الكتاب**، اسم المترجم أو المحرّر، الطّبعة (مكان النّشر: النّاشر، تاريخ النّشر)، رقم الصّفحة؛ كما يلي:

نبيل علي، **الثقافة العربية وعصر المعلومات**، سلسلة عالم المعرفة 265 (الكويت: المجلس الوطنيّ للثّقافة والفنون والآداب، 2001)، ص 227.

كيت ناش، **السوسيولوجيا السياسية المعاصرة: العولمة والسياسة والسلطة**، حيدر حاج إسماعيل (مترجم) (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2013)، ص 116.

ويُستشهد بالكتاب في الهامش اللاحق غير الموالي مباشرةً على النّحو التالي مثلًا: ناش، ص 116. (ما لم يكن يوجد أكثر من مرجع واحد للمؤلّف نفسه، ففي هذه الحالة يتمّ استخدام العنوان مختصرًا: ناش، **السوسيولوجيا**، ص 116).

أمّا في قائمة المراجع فيرد الكتاب على النّحو التالي: ناش، كيت. **السوسيولوجيا السياسية المعاصرة: العولمة والسياسة والسلطة**، حيدر حاج إسماعيل (مترجم)، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2013.

وبالنسبة إلى الكتاب الذي اشترك في تأليفه أكثر من ثلاثة مؤلفين، فيُكتب اسم المؤلف الرئيس أو المحرر أو المشرف على تجميع المادة مع عبارة "وآخرون". مثال: السيد ياسين وآخرون، **تحليل مضمون الفكر القوميّ العربيّ**، ط 4 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1991)، ص 109. ويُستشهد به في الهامش اللاحق كما يلي: ياسين وآخرون، ص 109.

أمّا في قائمة المراجع فيكون كالآتي: ياسين، السّيد وآخرون. **تحليل مضمون الفكر القوميّ العربيّ**، ط 4، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1991.

الدوريات

اسم المؤلّف، "عنوان الدّراسة أو المقالة"، **اسم المجلّة**، المجلّد و/أو رقم العدد (سنة النّشر)، رقم الصّفحة. مثال: محمد حسن، "الأمن القوميّ العربيّ"، **إستراتيجيات**، المجلد 15، العدد 1 (2009)، ص 129.

أمّا في قائمة المراجع، فنكتب: حسن، محمد. "الأمن القوميّ العربي"، **إستراتيجيات**، المجلد 15، العدد 1 (2009)، ص 120-135.

مقالات الجرائد

لا تُذكر إلّا في الهوامش (في قائمة المراجع لا تُذكر).

مثال: إيان بلاك، "الأسد يحثّ الولايات المتحدة لإعادة فتح الطّرق الدبلوماسية مع دمشق"، **الغارديان**، 2009/2/17.

المنشورات الإلكترونية

اسم الكاتب (إن وجد)، "عنوان المقال أو التقرير"، اسم الموقع الإلكتروني، تاريخ النشر (إن وجد)، شوهد في: 2016/8/9، في: http://www، مثال:

كريستوفر هِل، "السياسة الخارجية الأميركية على طريقة ترامب"، الجزيرة نت، 2016/8/7، شوهد في 2016/8/9، في: http://bit.ly/2aOCz9M

في حال وجود سلسلة تنشر على الموقع الإلكتروني، تُكتب بخط سميك (مثال: **تقدير موقف** أو **تقييم حالة** أو **تحليل سياسات** أو **دراسات**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ... إلخ).

إذا جرى الاقتباس عن كتاب أو تقرير أكاديمي أو دولي أو عن مجلة دورية تنشر على الإنترنت، تُذكر بيانات النشر حسب نوع الإصدار (كتاب، مجلة، تقرير)، ولكن يُضاف الرابط الإلكتروني بعد البيانات المعتادة لنشر تلك الإصدارات مع ضرورة ذكر رقم الصفحة التي جرى الاقتباس منها.

يتعين ذكر الرابط كاملًا بحيث يوصل القارئ إلى الصفحة الإلكترونية التي جرى الاقتباس منها مباشرة وليس إلى العنوان العام للموقع.

يتعيّن اختصار الرابط الإلكتروني من خلال "مُختصِر الروابط الإلكترونية" (e.g. Bitly or Goo.gl Shortener).

ملاحظة: في الهوامش وقائمة المراجع العربيّة، ينبغي أن يكون عنوان الكتاب أو المجلّة بالخطّ العريض. أمّا إن كان بلغة أجنبية، فينبغي أن يُكتب بخطّ مائلٍ.

أخلاقيات النشر في مجلات المركز العربي

- تعتمد مجلات المركز قواعد السرية والموضوعية في عملية التحكيم، بالنسبة إلى الباحث والمحكّمين على حدّ سواء، وتُحيل كل بحث قابل للتحكيم على محكّمَين معتمديْن لديها من ذوي الخبرة والاختصاص الدقيق بموضوع البحث، لتقييمه وفق نقاط محددة. وفي حال تعارض التقييم بين المحكّمين، تُحيل المجلة البحث على قارئ مرجّح آخر.
- تعتمد مجلات المركز محّكمِين موثوقِين ومجرّبِين ومن ذوي الخبرة بالجديد في اختصاصهم.
- تعتمد مجلات المركز تنظيمًا داخليًا دقيقًا واضح الواجبات والمسؤوليات في عمل جهاز التحرير ومراتبه الوظيفية.
- لا يجوز للمحرّرين والمحكّمين، باستثناء المسؤول المباشر عن عملية التحرير (رئيس التحرير أو من ينوب عنه) أن يبحث الورقة مع أيّ شخصٍ آخر، بما في ذلك المؤلّف. وينبغي الإبقاء على أيّ معلومةٍ متميّزة أو رأيٍ جرى الحصول عليه من خلال التحكيم قيد السرّية، ولا يجوز استعمال أيٍّ منهما لاستفادةٍ شخصية.
- تقدّم المجلة في ضوء تقارير المحكمين خدمة دعم فنّي ومنهجي ومعلوماتي للباحثين بحسب ما يستدعي الأمر ذلك ويخدم تجويد البحث.
- تلتزم المجلة بإعلام الباحث بالموافقة على نشر البحث من دون تعديل أو وفق تعديلات معينة، بناءً على ما يرد في تقارير التحكيم، أو الاعتذار عن عدم النشر، مع بيان أسباب الاعتذار.
- تلتزم مجلات المركز بجودة الخدمات التدقيقية والتحريرية والطباعية والإلكترونية التي تقدمها للبحث.
- احترام قاعدة عدم التمييز: يقيّم المحرّرون والمراجعون المادّة البحثية بحسب محتواها الفكري، مع مراعاة مبدأ عدم التمييز على أساس العرق أو الجنس الاجتماعي أو المعتقد الديني أو الفلسفة السياسية للكاتب.
- احترام قاعدة عدم تضارب المصالح بين المحررين والباحث، سواء كان ذلك نتيجة علاقة تنافسية أو تعاونية أو علاقات أخرى أو روابط مع أيّ مؤلّف من المؤلّفين، أو الشركات، أو المؤسّسات ذات الصّلة بالبحث.
- تتقيد المجلات بعدم جواز استخدام أيّ من أعضاء هيئتها أو المحررين المواد غير المنشورة التي يتضمنها البحث المُحال على المجلة في أبحاثهم الخاصة.

- **النسخة النهائية للبحث والتعديلات**: تعرض المجلة النسخة المحررة شبه النهائية من البحث بصيغة PDF على الباحث قبل النشر. وفي هذه المرحلة، لا تُقبل أيّ تعديلات مهمّة أو إضافات على البحث، إلّا ما كان من تصحيحاتٍ أو تصويبات أو تعديلات طفيفة؛ وذلك ضمن أمدٍ زمني وجيز جدًا تُحدّده رسالة المجلة إلى الباحث.

- **حقوق الملكية الفكرية**: يملك المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات حقوق الملكية الفكرية بالنسبة إلى المقالات المنشورة في مجلاته العلمية المحكّمة، ولا يجوز إعادة نشرها جزئيًّا أو كلّيًا، سواءٌ باللغة العربية أو مترجمة إلى لغات أجنبية، من دون إذنٍ خطي صريح من المركز العربي.

- تتقيد مجلات المركز في نشرها لمقالات مترجمة تقيّدًا كاملًا بالحصول على إذن الدورية الأجنبية الناشرة، وباحترام حقوق الملكية الفكرية.

- **المجانية**: تلتزم مجلّات المركز العربي بمجّانية النشر، وتُعفي الباحثين والمؤلّفين من جميع رسوم النشر.



10. Confidentiality: Unpublished data obtained through peer review must be kept confidential and cannot be used for personal research.

11. Intellectual property and copyright: The ACRPS retains copyright to all articles published in its peer reviewed journals. The articles may not be published elsewhere fully or partially, in Arabic or in another language, without an explicit written authorization from the ACRPS.

12. *Ostour*'s editorial board fully respects intellectual property when translating and publishing an article published in a foreign journal, and will not proceed before obtaining the authorization from the journal in question.

13. *Ostour* does not make payments for manuscripts published in the journal, and all authors and researchers are exempt from publication fees.

Ethical Guidelines for ACRPS Periodicals

1. The *Ostour* editorial board maintains confidentiality and adheres to objectivity in the peer reviewing process. It adopts an anonymized peer review process, where the editorial board selects the appropriate reviewer to assess paper's suitability for publication, according to specific criteria. In case of a conflict between the reviewers regarding the publication assessment, a third reviewer will be selected.
2. *Ostour* relies on a pool of experienced peer reviewers who are up to date with the latest developments in their field.
3. *Ostour* adopts a rigorous internal organization with clear duties and obligations to be fulfilled by the editorial board.
4. Disclosure: With the exception of the editor in charge (Editor-in-Chief or those standing in for the editor), neither the editors, nor the peer reviewers, are allowed to discuss the manuscript with third parties, including the author. Information or ideas obtained in the course of the reviewing and editing processes must be kept confidential and cannot be used for personal gain.
5. When needed, based on the reviewer report, the editorial board may offer researchers methodological, technical and other assistance in order to improve the quality of their submissions.
6. *Ostour*'s editors commit to informing authors of the acceptance or otherwise of their manuscripts, based on the reviewers' report, or to notify authors in case of rejection, specifying the reasons for rejection.
7. The journal is committed to providing quality professional copy editing, proof reading and online publishing service.
8. Fairness: The editors and the reviewers evaluate manuscripts for their intellectual and scientific merit, without regard to race, ethnicity, gender, religious beliefs or political views of the authors.
9. Conflict of interests: Editors and peer reviewers should not consider manuscripts in which they have conflicts of interests resulting from competitive, collaborative or other relationships or connections with any of the authors, companies, or institutions connected to the papers.



Corresponding Bibliographical Entry: Springborg, Robert. "State-Society Relations in Egypt: The Debate Over Owner-Tenant Relations," *Middle East Journal*, vol. 45, no. 2 (Spring 1991), pp. 232-249.

Newspaper articles

Newspaper articles should be cited only in the footnotes (not in the Bibliography). As an example:

Ellen Barry, "Insisting on Assad's Exit Will Cost More Lives, Russian Says," *The New York Times*, 29/12/2012.

Electronic Resources

Author's name (if available), "The electronic resource's title," The website name, Date of publication (if available), accessed on d/m/y, at: shortened URL. As an example:

"Sovereign Wealth Fund Rankings 2015," Sovereign Wealth Fund Institute, accessed on 9/8/2016, at: http://bit.ly/1sQqBfr



Footnotes and Bibliography

Books

Author's name, *Title of the book in italics* (Place of Publication: Publisher, Year of Publication), page number. As an example:

Michael Pollan, *The Omnivore's Dilemma: A Natural History of Four Meals* (New York: Penguin, 2006), pp. 99-100.

Successive footnotes would be in the form: Pollan, p. 3.

If there is more than one reference by the same author, we use a short title: Pollan, *Omnivore's Dilemma*, p. 3.

The corresponding bibliographical entry: Pollan, Michael. *The Omnivore's Dilemma: A Natural History of Four Meals*. New York: Penguin, 2006.

Books written by four or more authors should follow the same rules as above, but only the first author is named, followed by "et al.". As an example: Dana Barnes et al., *Plastics: Essays on American Corporate Ascendance in the 1960s* (Chicago: University of Chicago Press, 1982), p. 142.

In successive footnotes: Barnes et al., p. 142.

The corresponding bibliographical entry: Barnes, Dana et al. *Plastics: Essays on American Corporate Ascendance in the 1960s*, Chicago: University of Chicago Press, 1982.

Periodicals

Author's name, "Title of the article," *Name of Journal in italics*, volume number, issue number, page number. As an example:

Robert Springborg, "State-Society Relations in Egypt: The Debate Over Owner-Tenant Relations," *Middle East Journal*, vol. 45, no. 2 (Spring 1991), p. 247.



the submitting author must include an image of that manuscript (or of its first page), as well as some explanatory details about the nature of the manuscript and the location in which it is archived.

9. *Ostour* carries a special section devoted to essays that address a point of contemporary, theoretical debate within the historical sciences. Such essays are between 2,800 and 3,000 words in length, and are subject to all of the same guidelines as regular research papers which apply.

10. Research papers submitted to *Ostour* must be between 6,000 and 8,000 words in length, not inclusive of bibliographies, footnotes and appendixes. The editorial board of *Ostour* reserves the right to publish articles of greater length, in exceptional circumstances where it deems this is merited.

11. All charts and tables must be submitted in a format compatible with Microsoft Office (specifically Word or Excel), making it possible for the data to be accessed. Submissions will not be accepted if any accompany graphs or charts are included purely as image files (such as JPEGs, GIFs, etc.).

- The peer review process for *Ostour* and for all journals published by the Arab Center for Research and Policy Studies is treated with the strictest confidence. Two preliminary readers are selected from a short list of approved reader-reviewers. In cases where there is a major discrepancy between the first two readers in terms of a submitted paper's value, it is referred to a third reviewer. The editors undertake to notify all authors of a decision either to publish, to publish after modifications, or to decline to publish, within two months of the receipt of the first draft.

- *Ostour* adheres to a strict code of ethical conduct, which has the clearest respect for the privacy and the confidentiality of authors. For a complete description of the ethical guidelines which adopted by *Ostour*, please see Appendix II.

1. The order of publication of submitted articles follows a set of purely technical determinants, and has no relation to the academic standing of the submitting author.

2. In keeping with global norms in the academic publishing industry, *Ostour* neither accepts payment in return for publishing an article nor does it offer payment to authors whose papers are published in the journal.



2. An abstract, ranging between 250 and 300 words in length, in both Arabic and English versions as well as a list of keywords. The abstract must explicitly detail the problematic that the research tackles, the methodologies used to cover it and the main conclusions which the author presents.

3. A clear exposition of the research problematic, the main aims of the paper and the importance of the results must be included. In addition, papers published in *Ostour* must include a critical review of the literature previously published on the topic. The hypothesis as well as the conceptual framework of the author and an analysis of the answers must all be presented. In addition, any research papers submitted for consideration must include a complete bibliography inclusive of all references, regardless of whether or not these appear in the footnotes. References must be maintained in the original language in which the source was written.

4. Authors must follow the referencing guidelines adopted by the Arab Center for Research and Policy. See Appendix I for a complete guide to the reference style used across all of our journals.

5. Doctoral theses and other student projects are only published as part of the journal in exceptional circumstances. In such exceptional circumstances, the editorial board will require exhaustive information about the way in which the thesis in question was examined, and institutional correspondence information of those responsible for it.

6. All works must fall within the broad scope of *Ostour*.

7. Book reviews will be considered for submission to the journal provided that the book covers a topic which falls within the scope of the journal and within the reviewer's academic discipline and/or main areas of research. Reviews are accepted for books written in any language. Book reviews are subject to the same standards of rigorous scrutiny which apply to research papers. Book reviews must be between 2,800 and 3,000 words in length. Book reviews/critiques are only accepted for titles published within the three years leading up to the submission.

8. *Ostour* carries a special section devoted to the examination of original documents, primary sources and manuscripts which are relevant to the journal's scope of interest. To the extent possible, publication of manuscripts/original documents follows the same standards and guidelines as research articles submitted to the paper. Before the publication of a text related to a manuscript can be considered,

Ostour: the Arab Journal for Historical Studies

Ostour is a peer-reviewed academic journal focused on the academic study of history (ISSN: 2305-2473). The first edition of this bi-annual journal was published by the Arab Center for Research and Policy Studies in January, 2015. *Ostour* is overseen by a specialist academic editorial board and an active international advisory board. Publication in *Ostour* and relations between authors and the editorial staff are all governed by a strict code of ethics. Review of submitted journal articles is overseen by a carefully selected list of approved reviewers who cover a broad range of academic specialisms and is governed by an internal set of by-laws.

The name of the journal draws on the archaic Arabic root *s-t-r* and also echoes, if only phonetically, the Greek and Latin *historia* and *Istorein* which have their contemporary cognates in today's *history*. In a similar fashion, *Ostour* seeks to establish a "new Arabic history", one which is rooted in an older tradition of Arabic historical writing and also builds to renew it.

In line with academic titles from across the globe, and in keeping with the standards set by the Arab Center for Research and Policy Studies across all of its journals, publication in *Ostour* follows a set of clear guidelines and procedures. Specifically, these include:

- Only original work which is drafted exclusively for publication within the journal will be accepted. No work which has been previously published fully or in part will be considered for publication in *Ostour*, except as part of an approved translation. Similarly, work which was previously presented at academic conferences will not be accepted for publication in the journal, with the exception of conferences hosted by the ACRPS.
- Submissions must be accompanied by the author's curriculum vitae (CV), in both Arabic and English versions.
- All submissions must include the following elements:

1. A title in both Arabic and English, as well as the author's correspondence information and institutional affiliation.

دعوة للكتابة

تدعو دورية **أُسطور** الأكاديميين والباحثين وسائر الكتّاب المهتمين بالبحث التاريخي -المنفتح عن منهجيات العلوم الأخرى ومقارباتها بما فيها مقاربات العلوم الدقيقة- إلى الكتابة في صفحاتها. تقبل الدورية الأبحاث النظرية والتطبيقية المكتوبة باللغة العربية، وتفتح صفحاتها أيضًا لمراجعات الكتب ونشر النصوص والوثائق الدفينة. تخضع كل المواد التي تصل إلى **أُسطور** لتحكيم أكاديميين متخصّصين. ولذلك تتوخّى الدورية التزام المعايير الدوليّة المتعارف عليها. ويضمن هذا الالتزام تراكمًا علميًا جادًا وجودة المادة التي تصل إلى القراء. تهدف هذه الدورية إلى أن تكون طيّعة الفهم لدى المتخصّصين وغير المتخصّصين من القراء من دون التضحيةِ برصانة المضمون.

ترسل كل الأوراق الموجهة إلى النشر باسم رئيس التحرير على العنوان الإلكتروني الخاص بالمجلة

ostour@dohainstitute.org

قسيمة الاشتراك

OSTOUR أسطور

الاسم ....

العنوان البريدي ....

البريد الإلكتروني ....

عدد النسخ المطلوبة ....

طريقة الدفع ☐ تحويل بنكي ☐ شيك لأمر المركز



Invitation to Submit Papers

The editors of *Ostour* invite scholars from across all the disciplines and specializations of history to submit papers for consideration in future editions of the journal. *Ostour* publishes in Arabic across all fields of history. The journal also carries critical, incisive essays and book reviews as well as primary source materials. All submitted manuscripts will be subject to the same rigorous peer review process. The journal aims to advance historical knowledge and understanding for diverse audiences of professional historians and non-specialists alike while continuing to uphold its high academic standards.

All manuscripts submitted for publication should be addressed to the Editor-in-Chief by email to:

ostour@dohainstitute.org

الاشتراكات السنوية

(عددان في السنة بما في ذلك أجور البريد المسجل)

للأفراد:

20 دولارًا في لبنان.
30 دولارًا في الدول العربية والأفريقيّة.
50 دولارًا في أوروبا.
60 دولارًا في القارة الأميركية.

للمؤسسات:

30 دولارًا في لبنان.
40 دولارًا في الدول العربية والأفريقيّة.
60 دولارًا في أوروبا.
80 دولارًا في القارة الأميركية.

عنوان الاشتراكات:

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIESS
جادة الجنرال فؤاد شهاب - بناية الصيفي 174 - مار مارون
ص.ب: 11-4965 رياض الصلح 2180 1107 بيروت - لبنان
هاتف: 9/8/991837 1 961+
فاكس: 991839 1 961+
بريد إلكتروني: distribution@dohainstitute.org

عنوان التحويل البنكي:

Beneficiary: ARAB CENTER FOR RESEARCH AND POLICY STUDIES
Bank: SOCIETE GENERALE DE BANQUE AU LIBAN SAL
Branch: MAZRAA - AL MAMA STREET - SGBL BLDG. BEIRUT - LEBANON
Swift: SGLILBBX
IBAN: LB63 0019 0001 1004 3696 6650 4023
Account No.: 011 004 369 666504 023





Helmet

Made in Turkey in early 17th century.
Copper; embossed, engraved, and gilded.

خوذة

صنعـت في تركيا في بدايات القرن السـابع عشر.
نحاس منقوش ومحفور ومذهّب.

Reference: David G. Alexander, Islamic Arms and Armor: In the Metropolitan Museum of Art, Stuart W. Pyhrr & Will Kwiatkowski (contr.) (New York: The Metropolitan Museum of Art, 2015), p. 10, fig.11 (color).



في هذا العدد

سعر النسخة

قطر	30 ريالاً	**العراق**	5000 دينار	**الجزائـر**	250 دينارًا
السعودية	30 ريالاً	**تونـس**	5 دنانير	**المغرب**	30 درهمًا
الإمارات	30 درهمًا	**سورية**	200 ليرة	**موريتانيا**	700 أوقية
البحرين	3 دنانير	**لبنـان**	100000 ليرة	**ليبـيـا**	5 دنانير
الكويت	ديناران	**الأردن**	ديناران	**فلسطين**	3 دولارات
عُـمان	3 ريالات	**اليمن**	400 ريال	**الصومال**	3500 شلن
مصـــر	20 جنيهات	**السودان**	20 جنيهًا		




ISSN 2410-0870

20

9 772410 087001



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



DOHA INSTITUTE
FOR GRADUATE STUDIES